الرافدين على الجلالين

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٨-٢٥-٦٢٥٤-٩٧٧-٩٧٨

ISBN 978-977-6354-99-9

الدار العلمية للنشر والتجليد

العالمية للثقافة الدولية

002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤).

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبّ الشَّهَوَات} مَا تَشْتَهِيه النَّفْس وَتَدْعُو إلَيْهِ زَيَّنَهَا الله ابْتِلَاء أَوْ الشَّيْطَان {مِنْ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِير} الْأَمْوَال الْكَثِيرَة {الْمُقَنْطَرَة} الْمُجْمَعَة {مِنْ الذَّهَب وَالْفِضَّة وَالْخَيْل الْمُسَوَّمَة} الْحِسَان {وَالْأَنْعَام} أَيْ الْإِبِل وَالْبَقَر وَالْغَنَم {وَالْحَرْث} الزَّرْع {ذَلِكَ} الْمَذْكُور {مَتَاع الْحَيَاة الدُّنْيَا} يَتَمَتَّع بِهِ فِيهَا ثُمَّ يَفْنَى {وَاَللَّه عِنْده حُسْن الْمَآب} الْمَرْجِع وَهُوَ الْجَنَّة فَيَنْبَغِي الرَّغْبَة فِيهِ دُون غيره[1].

---

(١) قوله تعالى: (زين للناس ...) كلام مستأنف لبيان حقارة ما تستلذه الأنفس في هذه الدار.

قال الطبري: "زُيِّن للناس محبة ما يشتهون".

قال الثعلبي: "الشهوات: جمع شهوة وهي نزوع عن النفس إليه".

وفي تفسير الناس في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن المراد: الناس عامة. وهو قول الجمهور. وهو الصحيح.

والثاني: يعني الكفار. قاله مقاتل بن سليمان.

وفي المُزّيِّن لحب الشهوات ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه الشيطان، لأنه لا أحد أشد ذمًّا لها من الله تعالى الذي خَلَقَها، قاله الحسن.

الثاني: أن الله زيّن ذلك. وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

=

=

وتأويله: أن الله زين حب الشهوات لِمَا جعله في الطبائع من المنازعة كما قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا} [الكهف: ٧]، قاله الزجاج.

والثالث: أن الله زين من حبها ما حَسُن، وزين الشيطان من حبها ما قَبُح.

قال ابن عطية: "وإذا قيل زين الله، فمعناه بالإيجاد والتهيئة لانتفاع وإنشاء الجبلة عن الميل إلى هذه الأشياء، وإذا قيل زين الشيطان فمعناه بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها. والآية تحتمل هذين النوعين من التزيين ولا يختلف مع هذا النظر. وهذه الآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توضيح لمعاصري محمد عليه السلام من اليهود وغيرهم، والشَّهَواتِ ذميمة واتباعها مرد وطاعتها مهلكة، وقد قال عليه السلام: "حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره" فحسبك أن النار حفت بها، فمن واقعها خلص إلى النار".

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال (لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء، فقال: أي رب وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حفها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد قال: فلما خلق الله النار قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها) رواه أبو داود والترمذي.

ووجه تزيين الله لها، ابتلاء واختبارا.

قال القرطبي: تزيين الله تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلة على الميل إلى هذه الأشياء، وتزيين الشيطان إنما هو بالوسوسة والخديعة

=

=

وتحسين أخذها من غير وجوهها.

والآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخ لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرهم.

وقال في التسهيل: ولا تعارض بينهما فتزيين الله بالإيجاد والتهيئة للانتفاع، وإنشاء الجبلة على الميل إلى الدنيا، وتزيين الشيطان بالوسوسة والخديعة.

قال ابن عاشور: والتزيين تصيير الشيء زينا أي حسنا، فهو تحسين الشيء المحتاج إلى التحسين، وإزالة ما يعتريه من القبح أو التشويه، ولذلك سمي الحلاق مزينا.

وقال امرؤ القيس:

الحرب أول ما تكون فتية — تسعى بزينتها لكل جهول

(حب الشهوات) الشهوة: ما تدعو النفس إليه وتشتهيه.

قال الشوكاني: والمراد بالناس: الجنس. والشهوات جمع شهوة، وهي نزوع النفس إلى ما تريده. والمراد هنا: المشتهيات عبر عنها بالشهوات، مبالغة في كونها مرغوبا فيها، أو تحقيرا لها؛ لكونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطبائع البهيمية.

قال الثعالبي: وفي ضمن ذلك توبيخ، والشهوات ذميمة، واتباعها مرد، وطاعتها مهلكة، وقد قال ﷺ (حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره) فحسبك أن النار حفت بها، فمن واقعها، خلص إلى النار.

قال صاحب الكشاف: وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: أنه جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة محروصا على الاستمتاع بها.

والثانية: أن الشهوة صفة مسترذلة عند الحكماء مذمومة من اتبعها شاهد على

=

=

نفسه بالبهيمية، فكان المقصود من ذكر هذا اللفظ التنفير عنها.

قال القرطبي: واتباع الشهوات مرد وطاعتها مهلكة، وفي صحيح مسلم (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات).

وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره وبالصبر عليها.

وأن النار لا ينجى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها.

قوله تعالى: (من النساء) فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد.

قال النسفي: "والإماء داخلة فيها".

قال الثعلبي: "بدأ بهن [أي النساء] لأنهن حبائل الشيطان وأقرب إلى الفتان".

قال ابن كثير: "فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه، عليه السلام، قال مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّساء". فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، "وإنَّ خَيْرَ هَذه الأمَّةِ كَانَ أكْثرهَا نسَاءً" وقوله، عليه السلام الدُّنْيَا مَتَاع، وخَيْرُ مَتَاعِهَا المرْأةُ الصَّالحةُ، إنْ نَظَرَ إلَيْها سَرَّتْهُ، وإنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْه، وإنْ غَابَ عَنْها حَفِظْتُه في نَفْسِهَا وَمَالِهِ" وقوله في الحديث الآخر: "حُبِّبَ إلَيَّ النِّسَاءُ والطِّيبُ وجُعلَتْ قُرة عَيْني فِي الصَّلاةِ" وقالت عائشة، رضي الله عنها: لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلا الخيل، وفي رواية: من الخيل إلا النساء".

وفتنة النساء من أعظم الفتن، وخاصة في هذه الأزمنة التي انتشرت فيها التبرج والاختلاط، وانفتح الإعلام، وأصبحت فتنة المرأة تعرض ليلا نهارا.

كما ثبت في الصحيح أنه، عليه السلام قال (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) متفق عليه

وقال ﷺ (... فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)

=

=

رواه مسلم.

وقال ﷺ (ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن) متفق عليه.

ويكفي في فتنتها قوله ﷺ (إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان).

قال العلماء: معناه: الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها، لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء والالتذاذ بنظرهن وما يتعلق بهن، فهي شبيهة بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له.

قال سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء.

وقال أبو صالح السمان رحمه الله تعالى: بلغني أن أكثر ذنوب أهل النار في النساء.

قال الرازي: قوله تعالى (من النساء) وإنما قدمهن على الكل لأن الالتذاذ بهن أكثر والاستئناس بهن أتم ولذلك قال تعالى (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ومما يؤكد ذلك أن العشق الشديد المفلق المهلك لا يتفق إلا في هذا النوع من الشهوة.

وقال القرطبي: قوله تعالى (من النساء) بدأ بهن لكثرة تشوف النفوس إليهن؛ لأنهن حبائل الشيطان وفتنة الرجال.

ويقال: في النساء فتنتان، وفي الأولاد فتنة واحدة.

فأما اللتان في النساء فإحداهما: أن تؤدي إلى قطع الرحم؛ لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمهات والأخوات.

والثانية: يبتلى بجمع المال من الحلال والحرام.

وأما البنون فإن الفتنة فيهم واحدة، وهو ما ابتلي بجمع المال لأجلهم.

=

=

وقد حذر الإسلام من الفتنة بالنساء.

فالشهوة أمرها خطير وشرها جسيم، فكم من عابد لله حولته الشهوة إلى فاسق، وكم من عالم حولته إلى جاهل، وكم أخرجت أناسا من الدين كانوا في نظر من يعرفهم أبعد الناس عن الضلال والانحراف، ولذا قال أحد السلف: لم يكن كفر من مضى إلا من قبل النساء وهو كائن كفر من بقي من قبل النساء.

وقد أورد القرطبي مجموعة من القصص والأمثلة التي تبين مدى خطورة هذا الداء، وأنه سبب قوي للانتكاس والردة.

قال ابن القيم: لما كان العبد لا ينفك عن الهوى ما دام حيا فإن هواه لازم له كان الأمر بخروجه عن الهوى بالكلية كالممتنع، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهلكة، إلى مواطن الأمن والسلامة؛ مثاله: أن الله لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة؛ بل أمره بصرف ذلك إلى نكاح ما طاب له منهن من واحدة إلى أربع، ومن الإماء ما شاء، فانصرف مجرى الهوى من محل إلى محل، وكانت الريح دبورا فاستحالت صبا. [روضة المحبين ١١].

(والبنين) ليفتخر بهم، وللتكثر بهم، وأمل قيامهم مقامهم من بعدهم، والتفاخر والزينة.

قال النسفي: "جمع "ابن" وقد يقع في غير هذا الموضع على الذكور والإناث، وهنا أريد به الذكور فهم المشتهون في الطباع والمعدون للدفاع".

قال ابن كثير: "وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح، كما ثبت في الحديث: "تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ"".

وفي الحديث (الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة مبخلة محزنة) أي: يجبن أبوه عن

=

=

الجهاد خوف ضيعته، ويمتنع أبوه من الإنفاق في الطاعة خوف فقره، ويحزن أبوه لمرضه خوف موته، وقد قال تعالى (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم).

قال ابن القيم: وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر ... وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده.

والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد.

قول الله تعالى (عدوا لكم) العدو من يريد لك الشر أو يحملك عليه، أو يكون سببا في منع الخير عنك عن قصد منه أو عن غير قصد (فاحذروهم) على دينكم، أن يضروكم في دينكم، أو توافقوهم على رغباتهم فيما لا يرضي الله، والحذر: الاحتراز والحيطة من الشيء المخيف

قال الشوكاني: وخص البنين دون البنات؛ لعدم الاطراد في محبتهن.

قوله تعالى: (والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة) أي: الأموال الكثيرة المكدسة من الذهب والفضة، وإنما كان المال محبوبا لأنه يحصل به غالبا الشهوات، والمرء يرتكب الأخطار في تحصيله.

القناطير: جمع قنطار وهو العقدة الكثيرة من المال، أو المال الكثير الذي لا يحصى، والمقنطرة: المضعفة، وهو للتأكيد كقولك ألوف مؤلفة وأضعاف مضاعفة، قاله الطبري.

ورجح القول بأن (المقنطرة) المضعفة: الثعلبي، والواحدي، وابن عاشور.

وقد اختلف العلماء في مقدار القنطار:

قال الواحدي: "الذهب: التبر. والقطعة ذهبة، والفضة: الفض في اللغة معناه:

=

=

التفريق، والكسر، ومنه: لا يفضض الله فاك، فالفضة سميت؛ لأن من شأنها أن تفرق بضرب الدراهم".

واختلفوا في مقدار القنطار على سبعة أقاويل:

أحدها: أنه ألف ومائتا أوقية، وهو قول معاذ بن جبل، وأبي هريرة، وعاصم بن أبي النجود، ورواه زر بن حبيش عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله (ﷺ): "القنطار ألف أوقية ومئتا أوقية".

والثاني: أنه ألف ومائتا دينار، وهو قول ابن عباس، والضحاك، والحسن، وقد رواه الحسن عن النبي ﷺ.

والثالث: أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار، وهو قول ابن عباس، والضحاك، والحسن.

والرابع: أنه ثمانون ألفًا من الدراهم، أو مائة رطل من الذهب، وهو قول سعيد بن المسيب، وقتادة، وأبي صالح، والسدي.

والخامس: أنه سبعون ألفًا، قاله ابن عمر، ومجاهد.

والسادس: أنه ملء مسك ثور ذهبًا، قاله أبو نضرة، والكلبي.

والسابع: أنه المال الكثير، وهو قول الربيع.

والراجح أن القنطار: هو المال الكثير، كما قال الربيع بن أنس، ولا يحدُّ قدرُ وزنه بحدٍّ على تَعسُّف.

وفي تفسير {الْمُقَنْطَرَةِ} [آل عمران: ١٤] ستة أقاويل:

أحدها: أنها المضاعفة، وهو قول قتادة والضحاك.

والثاني: أنها الكاملة المجتمعة.

والثالث: هي تسعة قناطير، قاله الفراء.

والرابع: هي المضروبة دراهم أو دنانير، وهو قول السدي.

=

=

والخامس: أنها المجعولة كذلك، كقولهم دراهم مدرهمة.
والسادس: أن القناطير المذكورة مأخوذة من قنطرة الوادي، إما لأنها بتركها مُعَدَّة كالقناطر المعبورة، وإما لأنها معدة لوقت الحاجة، والقناطير مأخوذة من عقد الشيء وإحكامه كالقنطرة. قاله الماوردي.
قال ابن عطية: "والذي أقول: إنها إشارة إلى حضور المال وكونه عتيدا، فذلك أشهى في أمره وذلك أنك تقول في رجل غني من الحيوان والأملاك: فلان صاحب قناطير مال أي لو قومت أملاكه لاجتمع من ذلك ما يعدل قناطير، وتقول في صاحب المال الحاضر العتيد هو صاحب قناطير مقنطرة أي قد حصلت كذلك بالفعل بها، أي قنطرت فهي مقنطرة، وذلك أشهى للنفوس وأقرب للانتفاع وبلوغ الآمال".
والمال فتنة عظيمة، لأنه يحمل صاحبه على الإعراض عن طريق الله تعالى، ويحمله أيضا على الطغيان والبغي.
والمال -أيضا- فتنة لأنه يشغل القلب ويلهي عن الطاعة وينسي الآخرة.
قوله تعالى: {وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ} [آل عمران: ١٤]، أي: الأصيلة الحسان".
وفي قوله تعالى: {وَالْخَيلِ الْمُسَوَّمَةِ} [آل عمران: ١٤] أقوال:
أحدها: أنها الراعية، قاله سعيد بن جبير، والربيع، وعبدالرحمن بن أبزى، وابن عباس، والحسن ومجاهد، ومنه قوله تعالى: {فِيهِ تُسِيمُونَ} [النحل: ١٠]} أي ترعون.
والثاني: أن المسومة الحسنة، قاله مجاهد، وعكرمة، والسدي.
والثالث: أنها المعلَّمة، قاله ابن عباس، وقتادة.
والرابع: أنها المعدة للجهاد، قاله ابن زيد.
والخامس: أنها: الغرة والتحجيل. قاله مكحول.

=

=

والسادس: أن المسومة: منطقة بحمرة. قاله مطر.

والسابع: أنها من السيما مقصورة وممدود، قاله الحسن، ومنه قال الشاعر:

غلامٌ رماه اللهُ بالحُسْن يافعًا... له سيمياء لا تَشُقُّ على البصر

والصواب ان {الخيل المسوّمة}، هي "المعلَمة بالشِّيات، الحسان، الرائعة حسنًا من رآها. لأن " التسويم " في كلام العرب: هو الإعلام". والله أعلم.

قال الطبري: وأما الذي قاله ابن زيد من أنها المعدة في سبيل الله، فتأويل من معنى المسومة بمعزل

قال القرطبي: قلت: كل ما ذكر يحتمله اللفظ، فتكون راعية معدة حسانا معلمة لتعرف من غيرها.

قوله تعالى: {وَالْأَنْعَامِ} [آل عمران: ١٤]، أي: الإبل والبقر والغنم فمنها المركب والمطعم والزينة".

قال السدي: "الأنعام الراعية".

قوله تعالى: {والْحَرْثِ} [آل عمران: ١٤]، " أي الأرض المتخذة للغراس والزراعة".

قال الصابوني: "أي: الزرع والغراس لأن فيه تحصيل أقواتهم".

وفي قوله تعالى: {والْحَرْثِ} [آل عمران: ١٤]، تفسيران:

أحدهما: أنه الزرع.

والثاني: أنه أرض الحرث، لأنها أصل، ويكون الحرث بمعنى المحروث. أفاده الماوردي.

قال القرطبي: قال العلماء: ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس؛ أما الذهب والفضة فيتمول بها التجار، وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي، وأما

=

=

الحرث فيتمول بها أهل الرساتيق.

فتكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتمول، فأما النساء والبنون ففتنة للجميع.

قوله تعالى: {ذَلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا} [آل عمران: ١٤]، " أي إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتُها الفانية الزائلة".

قال البيضاوي: "إشارة إلى ما ذكر".

قال الآلوسي: "أي ما يتمتع به أياما قلائل ثم يزول عن صاحبه".

قال الشوكاني: قوله تعالى (ذلك متاع الحياة الدنيا) أي: ذلك المذكور ما يتمتع به، ثم يذهب، ولا يبقى، وفيه تزهيد في الدنيا، وترغيب في الآخرة.

وقال في التسهيل: قوله تعالى (ذلك متاع الحياة الدنيا) تحقير لها ليزهد فيها الناس.

قوله تعالى: {وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران: ١٤]، أي: وعند الله حسن المرجع والثواب".

قال السدي: "يقول: حسن المنقلب، وهي الجنة".

قال البيضاوي: "أي المرجع، وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية.

قال الطبري: "وإنما أراد بذلك توبيخ اليهود الذين آثرُوا الدنيا وحبَّ الرياسة فيها، على اتباع محمد ﷺ بعد علمهم بصدقه".

قال القاسمي: قوله تعالى (والله عنده حسن المآب) أي: المرجع وهو الجنة، فينبغي الرغبة فيه دون غيره. وفي إشعاره ذم من يستعظم تلك الشهوات ويتهالك عليها، ويرجح طلبها على طلب ما عند الله، وتزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

وهذا منه تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

قال السعدي: "فلما زينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات،

=

=

تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين:
قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي: وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب.
والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانا لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقا يتزودون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها {ذلك متاع الحياة الدنيا} فجعلوها معبرا إلى الدار الآخرة ومتجرا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادا إلى ربهم.
وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وتحذير للمغترين بها وتزهيد لأهل العقول النيرة بها، وتمام ذلك أن الله تعالى أخبر بعدها عن دار القرار ومصير المتقين الأبرار، وأخبر أنها خير من ذلكم المذكور، ألا وهي الجنات العاليات ذات المنازل الأنيقة والغرف العالية، والأشجار المتنوعة المثمرة بأنواع الثمار، والأنهار الجارية على حسب مرادهم والأزواج المطهرة من كل قذر ودنس وعيب ظاهر وباطن، مع الخلود الدائم الذي به تمام النعيم، مع الرضوان من الله الذي هو أكبر نعيم، فقس هذه الدار الجليلة بتلك الدار الحقيرة، ثم اختر لنفسك أحسنهما واعرض على قلبك المفاضلة بينهما".
قوله تعالى (الحياة الدنيا) هي هذه الحيلة التي نعيشها التي قبل الآخرة، وسميت لدنيا لسببين:

=

=

السبب الأول: لأنها قبل الآخرة في الزمن.

السبب الثاني: لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة. كما قال تعالى (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) وقال تعالى (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء) رواه الترمذي، وقال ﷺ (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري.

ففي هذه الآية حقارة الدنيا وخستها.

كما قال تعالى (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور).

وقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا).

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار).

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

قال ابن رجب: وقال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) والمتاع: هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع ويفنى.

فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتتبدل صحتها بالسقم، ووجودها بالعدم، وشبيبتها بالهرم، ونعيمها

=

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥).

=

بالبؤس، وحياتها بالموت، فتفارق الأجسام النفوس وعمارتها بالخراب واجتماعها بفرقة الأحباب وكل ما فوق التراب تراب قال بعض السلف في يوم عيد وقد نظر إلى كثرة الناس وزينة لباسهم: هل ترون إلا خرقا تبلى أو لحما يأكله الدود غدا كان الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: يا دار تخربين ويموت سكانك.

قال العلامة العثيمين: من فوائد الآية الكريمة: حكمة الله عز وجل في ابتلاء الناس بتزيين حب الشهوات لهم في هذه الأمور السبعة.

ووجه الحكمة: أنَّه لولا هذه الشهوات التي تنازع الإنسان في اتجاهه إلى ربه لم يكن للاختبار في الدين فائدة. فلو كان الإنسان لم يغرس في قلبه أو في فطرته هذا الحب لم يكن في الابتلاء في الدين فائدة؛ لأن الانقياد إلى الدين إذا لم يكن له منازع يكون سهلًا ميسرًا، ولهذا أول من يستجيب إلى الرسل الفقراء الذين -غالبًا- حرموا من الدنيا، لأنه ليس لديهم شيء ينازعهم لا مال ولا رئاسة ولا غير ذلك.

ومنها: أنَّه لا يذم من أحب هذه الأمور على غير هذا الوجه، وهو محبة الشهوة، وذلك لأنه إذا زينت له محبة هذه الأمور لا لأجل الشهوة لم يكن ذلك سببًا لصده عن دين الله، لأن أكثر ما يفتن الإنسان الشهوة إذا لم يكن هناك شبهة، فإن كان هناك شبهة واجتمع عليه شبهة وشهوة حصلت له الفتنتان. ويدل لذلك أن النبي ﷺ قال: "حبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب"، ويدل لذلك أيضًا أن النبي ﷺ رغَّب في النكاح وحثَّ عليه وأمر به الشباب، والنبي ﷺ حثّ على تزوج المرأة الولود، والولود كثيرة الولادة، وإذا كانت ولودًا كثر نسلها، ومن نسلها البنون. فالمهم أن محبة هذه الأشياء لا من أجل الشهوة أمر لا يذم عليه الإنسان.

{قل} يا محمد لقومك {أؤنبئكم} أُخْبِرُكُمْ {بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ} الْمَذْكُور مِنْ الشَّهَوَات اسْتِفْهَام تَقْرِير {لِلَّذِينَ اتَّقَوْا} الشِّرْك {عِنْد رَبّهمْ} خَبَر مُبْتَدَؤُهُ {جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ} أَيْ مُقَدَّرِينَ الْخُلُود {فِيهَا} إذَا دَخَلُوهَا {وَأَزْوَاج مُطَهَّرَة} مِنْ الْحَيْض وَغَيْره مِمَّا يُسْتَقْذَر {وَرِضْوَان} بِكَسْرِ أَوَّله وَضَمّه لُغَتَانِ أَيْ رِضًا كَثِير {مِنْ الله وَالله بَصِير} عَالِم {بِالْعِبَادِ} فَيُجَازِي كُلًّا مِنْهُمْ بِعَمَلِهِ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي بكر بن حفص بن عمر بن سعد؛ قال: لما نزلت: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)} [آل عمران: ١٤]؛ قال عمر: الآن يا رب! حين زينتها لنا؛ فنزلت: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ١٠١ رقم ١٧٥)، وابن جرير في "جامع البيان" (١/ ١٣٣) من طريق جرير بن عبد الحميد عن عطاء بن السائب عن أبي بكر به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: أن أبا بكر هذا لم يلق عمر؛ فلم يدرك من هو أصغر من عمر؛ كأبي هريرة، وعائشة وغيرهما، ثم إنهم لم يذكروه ضمن الرواة عن عمر؛ فهو منقطع.

الثانية: عطاء بن السائب اختلط، وسماع جرير منه بعد الاختلاط.

وأخرجه ابن أبي حاتم (١/ ١٠١ رقم ١٧٦)، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد؛ كما في "الدر المنثور" (٢/ ١٦٠) من طريق سيار بن الحكم: أن عمر.. وذكره بنحوه، لكن ليس فيه ذكر سبب النزول. وسنده منقطع؛ لأن سيارًا لم يلق عمر؛ فهو =

=

ضعيف.

* قوله تعالى: (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) أي: قل يا محمد للناس: أأخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها، الذي هو زائل لا محالة.

قال ابن عاشور: وافتتح الاستئناف بكلمة (قل) للاهتمام بالمقول، والمخاطب بقل النبي ﷺ والاستفهام للعرض تشويقا من نفوس المخاطبين إلى تلقي ما سيقص عليهم كقوله تعالى (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم).

قال الرازي: إنما قلنا: إن نعم الآخرة خير من نعم الدنيا، لأن نعم الدنيا مشوبة بالمضرة، ونعم الآخرة خالية عن شوب المضار بالكلية، وأيضا فنعم الدنيا منقطعة لا محالة، ونعم الآخرة باقية لا محالة.

(للذين اتقوا) أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال الطبري: أي: "للذين خافوا الله فأطاعوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه عند ربهم".

قال قتادة: "أن عمر بن الخطاب كان يقول: اللهم زينت لنا الدنيا، وأنبأتنا أن ما بعدها خير منها، فاجعل حظنا في الذي هو خير وأبقى".

(عند ربهم) أي: عند خالقهم وسيدهم ومالكم.

(جنات) جمع جنة، الجنة في لغة العرب: البستان، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) أي البستان، وفي قوله (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) وأما في الاصطلاح: فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(تجري من تحتها الأنهار) أي: تجري من تحت قصورها الأنهار، وليس المعنى

=

=

أنها تجري من تحت أرضها، والجري هو سير الماء على الأرض، والأنهار جمع نهر وهو الماء الكثير، وهذه الأنهار تجري من غير أخدود كما قال بعض السلف.
قال أبو مالك" يعني المساكن تجري أسفلها أنهار".
قال عبدالله: "أنهار الجنة تفجر من جبل مسك".
وهذه الأنهار فصلها الله كما سيأتي فقال (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى).
قال ابن القيم: وهذا يدل على أمور: أحدها: وجود الأنهار فيها. الثاني: أنها جارية لا واقفة. الثالثة: أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا.
قوله تعالى (جنات) دليل على أن الجنات أنوع.
كما قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال تعالى (ومن دونهما جنتان).
وقال ﷺ (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما).
قال الشيخ ابن عثيمين: قوله تعالى (في جنات) أحيانا تأتي مفردة كقوله تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) وأحيانا تأتي مجموعة، فإفرادها باعتبار الجنس، وجمعها باعتبار النوع، لأن الجنة، وقد ذكر الله في آخر سورة الرحمن أربعة أنواع (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال (ومن دونهما جنتان) والأوليان أشرف.
(خالدين فيها) أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها
وذكر من نعيم الجنة الخلود، لأنه أعظم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت
=

=

فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غما.
فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.
وجاءت الآيات الكثيرة بخلود أهل الجنة بالجنة.
(وأزواج مطهرة) أي: من الدنس، والخبث، والأذى، والحيض، والنفاس، وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا.
قال مجاهد: "مطهرة من الحيض، والغائط والبول، والنخام، والبزاق، والمني، والولد".
قال السمرقندي: معناه في الخلق والخلق، فأما الخلق فإنهن لا يحضن ولا يتمخطن، ولا يأتين الخلاء، وأما الخلق، فإنهن لا يغرن ولا يحسدن، ولا ينظرن إلى غير أزواجهن.
قوله تعالى: (ورضوان من الله) أي: يحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم بعده أبدا، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة (ورضوان من الله أكبر) أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم.
قال تعالى في سورة براءة (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم).
قال أبو حيان: بدأ أولا بذكر المقر، وهو الجنات التي قال فيها (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون)، (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ثم انتقل من ذكرها إلى ذكر ما يحصل به الأنس التام من

=

=

الأزواج المطهرة، ثم انتقل من ذلك إلى ما هو أعظم الأشياء وهو رضا الله عنهم، فحصل بمجموع ذلك اللذة الجسمانية والفرح الروحاني، حيث علم برضا الله عنه، كما جاء في الحديث أنه تعالى (يسأل أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا).

(والله بصير بالعباد) أي: يعطي كلا بحسب ما يستحقه من العطاء.

قال ابن كثير: "أي: يحل عليهم رضوانه، فلا يَسْخَط عليهم بعده أبدا؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة: {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ} [التوبة: ٧٢] أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم".

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم أبدا".

قال الشيخ ابن عثيمين: فهو بصير بهم بصر نظر، وبصر علم، أما بضر النظر فلا يغيب عن نظره شيء، وأما بصر العلم فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

والبصير: اسم من أسماء الله متضمن لصفة البصر.

قال السعدي: الذي يبصر كل شيء وإن رق وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السماوات السبع.

=

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦).

{الَّذِينَ} نَعْت أَوْ بَدَل مِنْ الَّذِينَ قَبْله {يَقُولُونَ} يَا {رَبّنَا إِنَّنَا آمَنَّا} صَدَّقْنَا بِك

=

قال ابن القيم:

وهو البصير يرى دبيب النملة الـ ... سوداء تحت الصخر والصوان

ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى عروق بياضها بعيان

ويرى خيانات العيون بلحظهاويرى ... كذلك تقلب الأجفان

وصفة البصر من صفات الكمال كصفة السمع، فالمتصف بها أكمل ممن لا يتصف بذلك، قال تعالى (قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون).

وقد أنكر إبراهيم على أبيه عندما عبد ما لا يبصر ولا يسمع (إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا).

والله بصير بأحوال عباده خبير بها، بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها، بصير بمن يصلح حاله بالغنى والمال، وبمن يفسد حاله بذلك (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير).

وهو بصير بالعباد شهيد عليهم، الصالح منهم والطالح، المؤمن والكافر (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير) (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا).

ومن علم أن الله مطلع عليه استحى أن يراه على معصية أو فيما لا يحب، ومن علم أنه يراه أحسن عمله وعبادته وأخلص فيها لربه وخشع، فقد جاء في حديث جبريل عليه السلام عندما سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال ﷺ (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وَبِرَسُولِك {فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار}.

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧).

{الصَّابِرِينَ} عَلَى الطَّاعَة وَعَنْ الْمَعْصِيَة نَعْت {وَالصَّادِقِينَ} فِي الْإِيمَان {وَالْقَانِتِينَ} الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ {وَالْمُنْفِقِينَ} الْمُتَصَدِّقِينَ {والمستغفرين} الله بِأَنْ يَقُولُوا اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا {بِالْأَسْحَارِ} أَوَاخِر اللَّيْل خُصَّتْ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا وَقْت الغفلة ولذة النوم(١).

---

(١) قوله تعالى: (الذين يقولون ربنا إننا آمنا) يصف تعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى (الذين يقولون ربنا إننا آمنا) أي: بك وبكتابك وبرسولك.

والإيمان هنا يشمل النطق باللسان والاعتقاد بالجنان، والعمل بالجوارح لأن الله إذا أطلق القول بالإيمان ولم يتعقبه، كان المراد به القول باللسان، والعقد بالجنان، والعمل بالجوارح.

قال الراغب الأصفهاني: "{الَّذِينَ} جرّ صفة للعباد، أو رفع على تقدير: هم الذين، أو نصب على المدح، وقوله: (يَقُولُونَ) ليس يعني أن ذلك منهم بالقول فقط، بل باعتقادهم وفعلهم".

قوله تعالى: {فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} [آل عمران: ١٦]، أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك.

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال (يدني المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع كنفه - أي ستره ورحمته - فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربي، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال الله: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) رواه البخاري =

=

ومسلم.

ومنه سمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام، ولهذا نقول مغفرة الذنوب: سترها عن الناس، والعفو عن عقوباتها.

قوله تعالى: (وقنا عذاب النار) أي: ادفع عنا عذاب النار، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما).

قال الطبري: وإنما خصوا المسألة بأن يقيهم عذاب النار، لأن من زحزح يومئذ عن النار فقد فاز بالنجاة من عذاب الله وحسن مآبه.

قال الحاكم: "في الآية دلالة على أنه يجوز للداعي أن يذكر طاعاته وما تقرب به إلى الله، ثم يدعو ويؤيده ما في الصحيحين من حديث أصحاب الغار، وتوسل كل منهم بصالح عمله، ثم تفريج الباري تعالى عنهم".

قال السعدي: "توسلوا بمنة الله عليهم بتوفيقهم للإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم ويقيهم شر آثارها وهو عذاب النار".

قوله تعالى: {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} [آل عمران: ١٧].

هم الذين اتصفوا بالصبر على الطاعات، وعن المعاصي، وعلى ما يصيبهم من أقدار الله المؤلمة، وبالصدق في الأقوال والأفعال وبالطاعة التامة، وبالإنفاق سرا وعلانية، وبالاستغفار في آخر الليل؛ لأنه مَظِنَّة القبول وإجابة الدعاء.

قوله تعالى: {الصَّابِرِين} [آل عمران: ١٧]، أي: في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات، وعلى أقدار الله المؤلمة.

صبر على طاعة الله: فهو أن يجاهد نفسه على القيام بالطاعة وبالإخلاص بها وإحسانها.

=

=

والصبر عن المعصية: لا سيما مع قوة الداعي، فهذا يحتاج إلى صبر شديد، ولهذا قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله ... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله). ومن ذلك صبر يوسف عندما دعته امرأة العزيز.

واصبر على أقدار الله المؤلمة، وهذا كثير، ومنه صبر أيوب، وصبر يوسف عندما ألقاه إخوته في الجب.

قال قتادة: "، قوم صبروا على طاعة الله، وصَبروا عن محارمه".

قال ابن كثير: "أي: في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات".

وفي تفسير {الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٧] أربعة تأويلات:

أحدها: الصابرين عما نهوا عنه من المعاصي.

والثاني: يعني في المصائب.

والثالث: الصائمين.

الرابع: الصابرين عما زُيِّن للناس من حب الشهوات. أفاده الماوردي.

قال الرازي: الصفة الأولى: كونهم صابرين، والمراد كونهم صابرين في أداء الواجبات والمندوبات، وفي ترك المحظورات وكونهم صابرين في كل ما ينزل بهم من المحن والشدائد، وذلك بأن لا يجزعوا بل يكونوا راضين في قلوبهم عن الله تعالى، كما قال (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) قال سفيان بن عيينة في قوله (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) إن هذه الآية تدل على أنهم إنما استحقوا تلك الدرجات العالية من الله تعالى بسبب الصبر.

قوله تعالى: {وَالصَّادِقِينَ} [آل عمران: ١٧]، "أي الصادقين في إيمانهم وأقوالهم ونياتهم".

قال قتادة: ": قوم صدَقت أفواههم واستقامت قُلوبهم وألسنتهم، وصَدقوا في السرّ والعلانية".

=

=

قال سعيد بن جبير: "يقول: على أمر الله".

قال الطبري: أي: "الذين صدقوا الله في قولهم بتحقيقهم الإقرارَ به وبرسوله وما جاء به من عنده، بالعمل بما أمره به والانتهاء عما نهاه عنه".

قال ابن كثير: "فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة".

وفي قوله: {وَالصَّادِقِينَ} [آل عمران: ١٧] أربعة اوجه:

أحدها: في قولهم.

والثاني: في إيمانهم. قاله سعيد.

والثالث: أنهم العابدون. قاله عباد بن منصور.

والرابع: في القول والفعل والنيَّة، وهذا معنى قول قتادة.

قال الماوردي: "والصدق في القول: الإخبار بالحق، والصدق في الفعل: إتمام العمل، والصدق في النية: إمضاء العزم.

وقد قسم ابن القيم الصدق إلى ثلاثة أقسام:

الأول: صدق في الأقوال:

ومعناه: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها.

والثاني: صدق في الأعمال.

ومعناه: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد.

والثالث: صدق في الأحوال.

ومعناه: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص.

قوله تعالى: {وَالقَانِتِينَ} [آل عمران: ١٧]، أي: "المطيعين لله الخاضعين له".

(والقانتين) المراد بالقنوت هنا: دوام الطاعة مع الخشوع والخضوع لله تعالى، بحيث يكون الإنسان مديما لطاعة الله مقبلا على الله تعالى في طاعته.

قال ابن كثير: "والقنوت: الطاعة والخضوع".

=

=

وفي قوله {وَالْقَانِتِينَ} [آل عمران: ١٧] ثلاثة اقوال:

أحدها: يعني المطيعين، قاله سعيد بن جبير، وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

والثاني: أنهم المصلون. قاله عطاء.

والثالث: معناه القائمون على بادة الله، قاله الزجاج.

قوله تعالى: {والْمُنفِقِينَ} [آل عمران: ١٧]، أي: من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات.

قال القاسمي: "أموالهم في سبيل الله تعالى من الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات".

قال الطبري: "فهم المؤتون زكوات أموالهم، وواضعوها على ما أمرهم الله بإتيانها، والمنفقون أموالهم في الوجوه التي أذن الله لهم جل ثناؤه بإنفاقها فيها".

قال ابن كثر: "أي: من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخَلات، ومواساة ذوي الحاجات".

ويحتمل قوله {والْمُنفِقِينَ} [آل عمران: ١٧] تأويلان:

أحدهما: في الجهاد.

والثاني: في جميع البِرِّ.

قوله تعالى: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} [آل عمران: ١٧]، أي: والمستغفرين "وقت السحر فبيل طلوع الشمس".

(والمستغفرين بالأسحار) دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار.

والاستغفار مندوب إليه، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين في هذه الآية وغيرها فقال (وبالأسحار هم يستغفرون).

=

قال القرطبي: "وخص السحر بالذكر لأنه مظان القبول ووقت إجابة الدعاء".
قال الزجاج: "فالله عز وجل وصف هؤلاء بالتصديق والإنفاق في سبيله والقيام بعبادته، ثم وصفهم بأنهم مع ذلك لشدة خوفهم ووجلهم يستغفرون بالأسحار".
قال الرازيّ: واعلم أن المراد منه من يصلي بالليل ثم يتبعه بالاستغفار والدعاء، لأن الإنسان لا يشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلّى قبل ذلك، فقوله: وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ يدل على أنهم كانوا قد صلوا بالليل".
قال ابن كثير: "دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن يعقوب، عليه السلام، لما قال لبنيه: {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي} [يوسف: ٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر".
وذكر أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بالأَسْحَار} [آل عمران: ١٧]، ثلاثة تأويلات:
أحدها يعني المصلين بالأسحار، قاله قتادة.
والثاني: أنهم المستغفرون قولًا بالأسحار يسألون الله تعالى المغفرة، قاله ابن مسعود، وابن عمر، وأنس بن مالك، وجعفر بن محمد.
والثالث: أنهم يشهدون الصبح في جماعة، قاله زيد بن أسلم.
قال الزجاج: "السحر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر، العرب تقول جئتك بأعلى السحر تريد في أول السحر، وهو أول إدبار الليل إلى طلوع الفجر الظاهر البين".
عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر) متفق عليه.
قال السعدي: ينبغي للعبد، كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير،

شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨).

{شهد الله} بين الله لخلقه الدلائل وَالْآيَات {أَنَّهُ لَا إِلَه} أَيْ لَا مَعْبُود فِي الوجود بحق {إلا هو و} شهد بذلك {الملائكة} بالإقرار {وأولوا الْعِلْم} مِنْ الْأَنْبِيَاء وَالْمُؤْمِنِينَ بِالِاعْتِقَادِ وَاللَّفْظ {قَائِمًا} بِتَدْبِيرِ مَصْنُوعَاته وَنَصْبه عَلَى الْحَال وَالْعَامِل فِيهَا مَعْنَى الْجُمْلَة أَيْ تَفَرَّدَ {بِالْقِسْطِ} بِالْعَدْلِ {لَا إِلَه إِلَّا هُوَ} كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا {الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْحَكِيم} فِي صُنْعه[1].

=

ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومن بها على ربه، وجعلت له محلا ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت، ورد الفعل، كما أن الأول، حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أخر.

قال أبو السعود: أي هم مع قلة نومهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار بالأسحار كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم.

(١) ذكر سبب النزول.

قال الكلبي: لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة؛ قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام، فلما أبصرا المدينة؛ قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان! فلما دخلا على النبي ﷺ؛ عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: "نعم"، قالا: وأنت أحمد؟ قال: "نعم"، قالا: إنا نسألك عن شهادة؛ فإن أنت أخبرتنا بها؛ آمنا بك وصدقناك، فقال لهما رسول الله ﷺ: "سلاني"، فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله.

ذكره الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٦٢) معلقًا دون سند، ونقله عنه الحافظ في "العجاب" (٢/ ٦٦٨)، وسكت عنه، والكلبي كذاب.

=

=

* قوله تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو) شهد تعالى -وكفى به شهيدا - وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين (أنه لا إله إلا هو) أي: المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغني عما سواه كما قال تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا).

قال ابن القيم: شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهد له به ملائكته وأنبياؤه ورسله قال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام).

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف، والشهادة يبطلان أقوالهم ومذاهبهم، وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به.

وعبارات السلف في شهد تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار.

قال مجاهد حكم وقضى.

وقال الزجاج: بين.

وقالت طائفة أعلم وأخبر.

وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وقوله وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه.

وقال ابن تيمية: وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة وبفعله تارة. فالقول هو ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه وأوحاه إلى عباده، كما قال (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) إلى غير

=

=

ذلك من الآيات.

وأما شهادته بفعله فهو ما نصبه من الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل وإن لم يكن هناك خبر عن الله.

وقال السعدي: هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك.

وقد اختلف القراء في قوله: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ} [آل عمران: ١٨]، على ثلاثة اوجه:

أحدها: {شهد الله}، بالرفع والمد على معنى: هم شهداء يعني: الذين مر ذكرهم. قراءة أبي نهيك وأبي الشعثاء.

والثاني: {شهد الله}، منصوبة على الحال والمدح. رواه المهلب عن محارب بن دثار.

والثالث: {شهد الله}، على الفعل، أي: بيّن لأن الشهادة تبيين، قراءة الباقين.

قوله تعالى: (والملائكة) معطوفة على اسم الجلالة (الله) أي: وشهدت الملائكة أنه لا إله إلا هو.

(وأولو العلم) أي: أن أصحاب العلم - الذين رزقهم الله العلم - يشهدون أيضا بأنه لا إله إلا هو.

=

يشهدون بأقوالهم وبدعوتهم وبأعمالهم.
وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام.
قال ابن القيم: وقد فسرت شهادة أولي العلم بالإقرار وفسرت بالتبيين والإظهار.
والصحيح أنها تتضمن الأمرين فشهادتهم إقرار وإظهار وإعلام وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة قال الله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة
وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا).
وقال تعالى (هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) فأخبر أنه جعلهم عدولا خيارا ونوه بذكرهم قبل أن يوجدهم لما سبق في علمه من اتخاذه لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة فمن لم يقم بهذه الشهادة علما وعملا ومعرفة وإقرارا ودعوة وتعليما وإرشادا فليس من شهداء الله والله المستعان.
وقال السعدي: وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية، خصوصا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد، لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم.
قال القرطبي: في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم؛ فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء.
وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ (وقل رب زدني علما) فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر يستزيده من العلم.

=

وقال ﷺ (إن العلماء ورثة الأنبياء) وقال (العلماء أمناء الله على خلقه) وهذا شرف للعلماء عظيم، ومحل لهم في الدين خطير.

وقال ابن القيم: استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته.

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي ﷺ (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين).

الخامس: أنه وصفهم بكونهم أولى العلم، وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم.

السادس: أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلا وشرفا.

السابع: أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم.

الثامن: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهنيه الدالة على توحيده.

التاسع: أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه

=

الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقا وتعليما وهم الشاهدون بها له إقرارا واعترافا وتصديقا وإيمانا.

العاشر: أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة، فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به فثبت الحق المشهود به فوجب على الخلق الإقرار به، وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره، وهذا فضل عظيم لا يدري قدره إلا الله وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضا فهذه عشرة أوجه في هذه الآية.

(قائما بالقسط) (قائما) حال من لفظ الجلالة، أي: حال كونه قائما بالقسط، أي: بالعدل.

فالله تعالى عدل في أحكامه وأفعاله.

أي: شهد الشهادة حال قيامه بالقسط، ويحتمل أنه يتصل بما بعد إلا، أي: الشهادة واقعة على الشهادة وعلى قيامه بالقسط

(لا إله إلا هو) قيل: تأكيد لما سبق، ولم يذكر ابن كثير إلا هذا القول.

وقيل: إن الجملة الأولى وصف له تبارك وتعالى بالتوحيد، وهذه الجملة الثانية: تعليم منه تعالى لعباده أن يقولوا هذه الجملة.

(والقاعدة أن التأسيس مقدم على التوكيد).

(العزيز) الذي له العزة الكاملة. (وقد تقدم الكلام على هذا الاسم).

(الحكيم) اسم من أسماء الله، متضمن للحكمة الكاملة البالغة اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة البالغة.

قال ابن جرير: هو الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل.

وقال ابن كثير: الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله.

=

قال ابن القيم: وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة: أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئا عبثا ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة، لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل.

وقال السعدي: فالله لا يخلق شيئا عبثا، ولا يشرع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه.

اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة البالغة، فأوامره وأحكامه وأفعاله كلها لحكمة.

فهو سبحانه حكيم في صنعه، وحكيم في شرعه، فجميع مصنوعاته كلها محكمة، قال تعالى (الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير). وأما في الشرع فيقول سبحانه (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبدا.

قال بعض العلماء: الحكمة تكون في صورة الشيء: أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة.

وتكون في غايته: أي: أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة، وكذلك الحيوانات، وكذلك جميع المخلوقات، كما قال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا).

قال ابن تيمية: وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول: شهادة أن لا إله إلا الله وأنه قائم بالقسط وأنه العزيز الحكيم؛ فتضمنت وحدانيته المنافية للشرك وتضمنت عدله المنافي للظلم وتضمنت عزته وحكمته المنافية للذل والسفه وتضمنت

=

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩).

{إِنَّ الدِّين} الْمَرْضِيّ {عِنْد الله} هُوَ {الْإِسْلَام} أَيْ الشَّرْع الْمَبْعُوث بِهِ الرُّسُل الْمَبْنِيّ عَلَى التَّوْحِيد وَفِي قِرَاءَة بِفَتْحِ أَنَّ بَدَل مِنْ أَنَّهُ إلَخْ بَدَل اشْتِمَال {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب} الْيَهُود وَالنَّصَارَى فِي الدِّين بِأَنْ وَحَّدَ بَعْض وَكَفَرَ بَعْض {إلَّا مِنْ بَعْد مَا جَاءَهُمْ الْعِلْم} بِالتَّوْحِيدِ {بَغْيًا} مِنْ الْكَافِرِينَ {بينهم ومن يكفر بآيات الله} {فَإِنَّ الله سَرِيع الْحِسَاب} أَيْ الْمُجَازَاة لَهُ.

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠).

{فَإِنْ حَاجُّوك} خَاصَمَك الْكُفَّار يَا مُحَمَّد فِي الدين {فقل} لهم {أسلمت وجهي لله} انْقَدْت لَهُ أَنَا {وَمَنْ اتَّبَعَنِ} وَخَصَّ الْوَجْه بِالذِّكْرِ لِشَرَفِهِ فَغَيْره أَوْلَى {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب} الْيَهُود وَالنَّصَارَى {وَالْأُمِّيِّينَ} مُشْرِكِي الْعَرَب {أَأَسْلَمْتُمْ} أَيْ أَسْلِمُوا {فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا} مِنْ الضَّلَال {وَإِنْ تَوَلَّوْا} عَنْ الْإِسْلَام {فَإِنَّمَا عَلَيْك الْبَلَاغ} أَيْ التَّبْلِيغ لِلرِّسَالَةِ {وَالله بَصِير بِالْعِبَادِ} فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِالْقِتَالِ[1].

=

تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه ففيها إثبات التوحيد وإثبات العدل وإثبات الحكمة وإثبات القدرة.

(١) ذكر سبب النزول.

قال الكلبي: لما نزلت: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: ١٩]؛ قالت =

=

اليهود والنصارى: لسنا على ما تسمينا به يا محمد! إنما اليهودية والنصرانية ليست لنا، والدين هو الإسلام ونحن عليه؛ فأنزل الله -تعالى-: {فَإِنْ حَاجُّوكَ}؛ أي: خاصموك في الدين {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ}؛ قال: فقالوا: أسلمنا، فقال لليهود: "أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله؟ "، فقالوا: لا؛ فنزلت: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ}.

ذكره الحافظ ابن حجر في "العجاب" (٢/ ٦٧٠) عن ابن الكلبي معلقًا. والكلبي كذاب.

* قوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: ١٩]، أي: إن "الشرع المقبول عند الله هو الإسلام".

قال البيضاوي: "أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذي جاء به محمد ﷺ".

قال أبو الرباب القشيري: "يأمرهم بالإسلام وينهاهم عما سواه".

قال أبو العالية: "الإسلام: الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وسائر الفرائض لها تبع".

قال الطبري: "ومعنى " الدين "، في هذا الموضع: الطاعة والذّلة، من قول الشاعر:

وَيَوْمُ الحَزْنِ إِذْ حُشِدَتْ مَعَدٌّ... وَكَانَ النَّاسُ، إِلا نَحْنُ دِينَا

يعني بذلك: مطيعين على وجه الذل، ومنه قول القطامي:

كانَتْ نَوَارُ تَدِينُك الأَدْيانا

يعني: تُذلك، وقول الأعشى ميمون بن قيس:

هُوَ دَانَ الرِّبَابَ إِذْ كَرِهُوا الدِّ... ينَ دِرَاكًا بِغَزْوَةٍ وَصِيَالِ

يعني بقوله: "دان " ذلل وبقوله: "كرهوا الدين "، الطاعة".

=

=

وفي أصل "الاسلام"، قولان:

أحدهما: أن أصله مأخوذ من السلام وهو السلامة، لأنه يعود إلى السلامة.

والثاني: أن أصله التسليم لأمر الله في العمل بطاعته.

قال ابن عاشور: قرأ جمهور القراء (إن الدين) بكسر همزة إن فهو استئناف ابتدائي لبيان فضيلة هذا الدين بأجمع عبارة وأوجزها.

قال ابن كثير: هذا إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثته محمدا ﷺ بدين على غير شريعته، فليس بمتقبل.

كما قال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين).

وقال في هذه الآية مخبرا بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام (إن الدين عند الله الإسلام).

الإسلام في الكتاب والسنة له إطلاقان:

الإطلاق الأول: الإسلام العام.

قال تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما).

وقال تعالى عن يوسف (توفني مسلما وألحقني بالصالحين).

فالمقصود بالإسلام هنا الإسلام العام الذي يفسر بأنه: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

الإطلاق الثاني: الإسلام الخاص.

وهو الذي بعث به محمد ﷺ، وهو الذي إذا أطلق لم يقصد إلا هو على وجه الخصوص.

=

=

ومعناه: استسلام الظاهر والبطن لله، تعبدا له بالشرع المنزل على محمد ﷺ على مقام المشاهدة أو المراقبة.

قال القرطبي: والأصل في مسمى الإيمان والإسلام التغاير؛ لحديث جبريل، وقد يكون بمعنى المرادفة، فيسمى كل واحد منهما باسم الآخر؛ كما في حديث وفد عبد القيس وأنه أمرهم بالإيمان (بالله) وحده قال: "هل تدرون ما الإيمان" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمسا من المغنم". الحديث.

وكذلك قوله ﷺ (الإيمان بضع وسبعون بابا فأدناها إماطة الأذى وأرفعها قول لا إله إلا الله). أخرجه الترمذي وزاد مسلم (والحياء شعبة من الإيمان).

قوله تعالى: (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم) ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

قال سعيد: يعني: "بنو اسرائيل".

وفي أهل الكتاب الذين اختلفوا ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنهم أهل التوراة من اليهود، قاله الربيع.

والثاني: أنهم أهل الإنجيل من النصارى، قاله محمد بن جعفر بن الزبير، ورجحه الطبري.

والثالث: أنهم أهل الكتب كلها، والمراد بالكتاب الجنس من غير تخصيص، وهو قول بعض المتأخرين.

وفيما اختلفوا فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: في أديانهم بعد العلم بصحتها.

والثاني: في عيسى وما قالوه فيه من غلو وإسراف.

=

=

والثالث: في دين الإسلام.

قوله تعالى: {إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} [آل عمران: ١٩]، " أي: إلا بعد أن علموا بالحجج النيّرة والآيات الباهرة حقيقة الأمر".

قال أبو العالية: "إلا من بعد ما جاءهم الكتاب".

قوله تعالى: {بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [آل عمران: ١٩]،أي: بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقا.

قال أبيّ بن كعب: "بغيا على الدنيا، وطلب ملكها وزخرفها وزينتها، أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس، فبغى بعضهم على بعض، وضرب بعضهم رقاب بعضهم".

قال أبو العالية: "بغيا على الدنيا، وطلب ملكها وسلطانها، فقتل بعضهم بعضا على الدنيا بعد ما كانوا علماء الناس".

وروي عن سعيد بن جبير في قوله: {بغيا بينهم}، قال: "كثرت أموالهم، فتنازعوا فيها".

قال ابن كثير: "أي: بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بُغْض البَعْض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقا".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران: ١٩]، " أي: [و] من جحد بما أنزل الله في كتابه، فإن الله سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه".

قال ابن عطية: "توعد عز وجل الكفار".

قال الصابوني: "أي من يكفر بآياته تعالى فإنه سيصير إلى الله سريعًا فيجازيه على

=

=

كفره".

(فإن الله سريع الحساب) يحتمل معنيان:

يحتمل أن يوم الأخر - الذي يقع فيه الحساب - قريب أن مجيئه قريب وسريع، وكل ما هو آت قريب والله أخبر عن أمر الساعة أنه كلمح البصر أو هو أقرب.

ويحتمل - وهو المتبادر -: أن ذلك الحساب لا يطول لكثرة الخلق الذين يحاسبهم، بخلاف حال المخلوقين فإنهم إذا كثر ذلك عليهم فإن ذلك يقتضي طول الوقت الذي تستغرقه تلك المحاسبة.

قوله تعالى: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: ٢٠]

التفسير:

فإن جادلك -أيها الرسول- أهل الكتاب في التوحيد بعد أن أقمت الحجة عليهم فقل لهم: إنني أخلصت لله وحده فلا أشرك به أحدًا، وكذلك من اتبعني من المؤمنين، أخلصوا لله وانقادوا له. وقل لهم ولمشركي العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وليس عليَّ إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة. والله بصير بالعباد، لا يخفى عليه من أمرهم شيء.

(فإن حاجوك) أي: جادلوك.

(فقل أسلمت وجهي لله) أي انقدت لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وإنما خص الوجه لأنه أكرم الجوارح من الإنسان وفيه بهاؤه، فإذا خضع وجهه للشيء خضع له جميع جوارحه، وقال الفراء: معناه أخلصت عملي لله.

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: فإن حاجك: يا محمد، النفر من نصارى أهل

=

=

نجران في أمر عيسى صلوات الله عليه، فخاصموك فيه بالباطل، فقل: انقدت لله وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي. وإنما خص جل ذكره بأمره بأن يقول: "أسلمت وجهي لله"، لأن الوجه أكرم جوارح ابن آدم عليه، وفيه بهاؤه وتعظيمه، فإذا خضع وجهه لشيء، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه.

قال الماوردي: فإن قيل: في أمره تعالى عند حجاجهم بأن يقول: (أسلمت وجهي لله) عدول عن جوابهم وتسليم لحجاجهم، فعنه جوابان:

أحدهما: ليس يقتضي أمره بهذا القول النهي عن جوابهم والتسليم بحجاجهم، وإنما أمره أن يخبرهم بما يقتضيه معتقده، ثم هو في الجواب لهم والاحتجاج على ما يقتضيه السؤال.

والثاني: أنهم ما حاجوه طلبا للحق فيلزمه جوابهم، وإنما حاجوه إظهارا للعناد، فجاز له الإعراض عنهم بما أمره أن يقول لهم.

قال محمد بن جعفر بن الزبير: "أي: بما يأتونك به من الباطل، من قولهم: "خَلقنا، وفعلنا، وجعلنا، وأمرنا "، فإنما هي شبه باطلة قد عرفوا ما فيها من الحق {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ}".

قال الحسن: "إن حاجك اليهود والنصارى فقل: {أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ}".

قال ابن كثير: "أي: جادلوك في التوحيد فقل أخلصت عبادتي لله وحده، لا شريك له ولا ند له، ولا ولد ولا صاحبة له".

قال الزمخشري: "فإن جادلوك في الدين، فقل: أخلصت نفسي وجملتي لله وحده لم أجعل فيها لغيره شركا بأن أعبده وأدعوه إلها معه يعنى أن دينى التوحيد وهو الدين القديم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلونى فيه. ونحوه (قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ

=

=
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} [آل عمران: ٦٤]، فهو دفع للمحاجة بأن ما هو عليه ومن معه من المؤمنين هو حق اليقين الذي لا لبس فيه فما معنى المحاجة فيه".

قال القاسمي: "{فإن حاجوك} في الدين وجادلوك فيه بعد إقامة تلك الآيات فَقُلْ: انقدت لآيات الله المنزلة، وأخلصت نفسي وعبادتي له، لا أشرك فيها غيره".

قال ابن عطية: "الضمير في حَاجُّوكَ لليهود ولنصارى نجران والمعنى: إن جادلوك وتعنتوا بالأقاويل المزورة، والمغالطات فاسند إلى ما كلفت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرك، [وقل]: جعلت مقصدي لله أو أسلمت شخصي وذاتي وكليتي وجعلت ذلك لله".

قال الطبري: "وإنما خَصّ جل ذكره بأمره بأن يقول: {أسلمت وجهي لله}، لأن الوجه أكرمُ جوارح ابن آدم عليه، وفيه بهاؤه وتعظيمه، فإذا خضع وجهه لشيء، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه".

قال أبو السعود: "وإنما عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهرُ القُوى والمشاعر ومجمع معظم ما يقع به العبادةُ من السجودِ والقراءة وبه يحصل التوجُّه إلى كل شيء".

قال الماوردي: "فإن قيل: في أمره تعالى عند حِجَاجِهِمْ بأن يقول {أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ} عدول عن جوابهم وتسليم لحِجَاجِهم، فعنه جوابان:

أحدهما: ليس يقتضي أمره بهذا القول النهي عن جوابهم والتسليم بحِجَاجِهم، وإنما أمره أن يخبرهم بما يقتضيه معتقده، ثم هو في الجواب لهم والاحْتِجَاج على ما يقتضيه السؤال.

والثاني: أنهم ما حاجُّوه طلبًا للحق فيلزمه جوابهم، وإنما حاجُّوه إظهارًا للعناد، فجاز له الإعراض عنهم بما أمره أن يقول لهم".
=

=

قوله تعالى: {وَمَنِ اتَّبَعَنِ} [آل عمران: ٢٠]، أي: ومن اتبعه كذلك، قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص.

قال ابن كثير: أي: "على ديني، يقول كمقالتي، كما قال تعالى: {قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي [وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨]".

أخرج ابن أبي حاتم عن " عباد بن منصور قال: سألت عن قوله: {ومن اتبعن}، قال: ليقل من اتبعك مثل ذلك، وبها تخاصم اليهود والنصارى".

قوله تعالى: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ} [آل عمران: ٢٠]، " وقل "، يا محمد، للذين أوتوا الكتاب " من اليهود والنصارى " والأميين " الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب".

وهو أمر من الله للنبي ﷺ أن يقول لهم.

قال الفخر: إنما وصف مشركي العرب بأنهم أميون لوجهين:

الأول: أنهم لما لم يدعوا الكتاب الإلهي وصفوا بأنهم أميون تشبيها بمن لا يقرأ ولا يكتب

والثاني: أن يكون المراد أنهم ليسوا من أهل القراءة والكتابة فهذه كانت صفة عامتهم وإن كان فيهم من يكتب فنادر من بينهم والله أعلم.

قوله تعالى: {أَأَسْلَمْتُمْ} [آل عمران: ٢٠]، أي: "هل أفردتم التوحيد وأخلصتم العبادة والألوهة لرب العالمين".

قال البغوي: (أأسلمتم) لفظه استفهام ومعناه أمر، أي أسلموا كما قال (فهل أنتم منتهون) أي انتهوا.

وقال القرطبي: (أأسلمتم) استفهام معناه التقرير وفي ضمنه الأمر، أي أسلموا؛ كذا قال الطبري وغيره.

=

=

وقال الزجاج: (أأسلمتم) تهديد، وهذا حسن، لأن المعنى أأسلمتم أم لا.

قوله تعالى: (فإن أسلموا فقد اهتدوا) وذلك لأن هذا الإسلام تمسك بما هدي إليه، والمتمسك بهداية الله تعالى يكون مهتديا، ويحتمل أن يريد: فقد اهتدوا للفوز والنجاة في الآخرة إن ثبتوا عليه.

قال أبو السعود: "أي كما أسلمتم وإنما لم يصرح به كما في قوله تعالى {فإن آمنوا بمثل ما آمنتم بِهِ} حسمًا لباب إطلاق اسم الإسلام على شئ آخر بالكلية".

{فَقَدِ اهْتَدَوْا} قال الربيع: "من تكلم بهذا صدقا من قلبه، يعني: الإيمان، فقد اهتدى".

قال البيضاوي: أي: "فقد نفعوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال".

قال أبو السعود: "أي فازوا بالحظ الأوفر ونجَوْا عن مهاوي الضلال".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّوْا} [آل عمران: ٢٠]، أي: وإن "أعرضوا عن الاتباع وقَبول الإسلام".

قال محمد ابن إسحاق: "وإن تولوا على كفرهم".

وعن الربيع بن أنس قوله: "{وإن تولوا} عنه يعني: عن الإيمان".

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ} [آل عمران: ٢٠]، أي: "فلم يضرّوك شيئًا إذْ ما عَلَيْكَ إلاَّ البلاغُ والله عليه حسابهم، وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وله الحكمة في ذلك، والحجة البالغة".

قال الرازي: والغرض منه تسلية الرسول ﷺ وتعريفه أن الذي عليه ليس إلا إبلاغ الأدلة وإظهار الحجة فإذا بلغ ما جاء به فقد أدى ما عليه، وليس عليه قبولهم.

قال ابن كثير: "أي: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وله الحكمة في ذلك، والحجة البالغة".

قال البيضاوي: "أي فلم يضروك إذ ما عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت".

=

=

قال ابن عطية: "ذكر بعض الناس أنها آية موادعة وأنها مما نسخته آية السيف، وهذا يحتاج أن يقترن به معرفة تاريخ نزولها، وأما على ظاهر نزول هذه الآية في وقت وفد نجران فإنما المعنى فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ بما فيه قتال وغيره".

قوله تعالى: {وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: ٢٠]، أي: هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وما ذاك إلا لحكمته ورحمته.

قال ابن عطية: "وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين".

قال ابن كثير: "أي: هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٣٣] وما ذاك إلا لحكمته ورحمته، وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صَلوات الله وسلامه عليه، إلى جميع الخلق".

(تنبيه): قال ابن الجوزي في قوله: {وإن تولوا فإنما عليك البلاغ}: "قد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الكلام اقتضى الاقتصار على التبليغ دون القتال ثم نسخ بآية السيف، وقال بعضهم لما كان ﷺ حريصا على إيمانهم مزعجا نفسه في الاجتهاد في ذلك سكن جأشه بقوله: {إنما أنت نذير} و{فإنما عليك البلاغ} والمعنى: لا تقدر على سوق قلوبهم إلى الصلاح فعلى هذا لا نسخ".

قال العلامة العثيمين: من فوائد الآيتين: بيان ضلال أولئك القوم الذين إذا تكلموا عن الديانات، قرنوا بين دين الإسلام، واليهودية، والنصرانية، وقالوا: هذه هي الأديان السماوية؛ حتى إن الجاهل ليظن أن اختلاف الأديان الثلاثة كاختلاف المذاهب الفقهية في الأمة الإسلامية. وهذا ضلال عظيم ومداهنة لليهود والنصارى، بل نقول: إن الأديان السماوية، اليهودية والنصرانية، كانت أديانًا مقبولة عند الله. أما الآن فقد نسخها الله عز وجل، وصار الدين السماوي المقبول

=

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١).

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ} وَفِي قِرَاءَة يُقَاتِلُونَ {النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ} بِالْعَدْلِ {مِنْ النَّاس} وَهُمْ الْيَهُود رُوِيَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا ثَلَاثَة وَأَرْبَعِينَ نَبِيًّا فَنَهَاهُمْ مِائَة وَسَبْعُونَ مِنْ عِبَادهمْ فَقَتَلُوهُمْ مِنْ يَوْمهمْ {فَبَشِّرْهُمْ} أَعْلِمْهُمْ {بِعَذَابٍ أَلِيم} مُؤْلِم وَذِكْر الْبِشَارَة تَهَكُّم بِهِمْ وَدَخَلَتْ الْفَاء فِي خَبَر إنَّ لِشَبَهِ اسْمهَا الْمَوْصُول بِالشَّرْطِ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)

{أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ} بَطَلَتْ {أَعْمَالهمْ} مَا عَمِلُوا مِنْ خَيْر كَصَدَقَةٍ وَصِلَة رَحِم {فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة} فَلَا اعْتِدَاد بِهَا لِعَدَمِ شَرْطهَا {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} مَانِعِينَ مِنْ الْعَذَاب[1].

=

الذي لا يمكن أن يشركه دين آخر، هو ما جاء به محمد ﷺ.

ومنها: الإشارة إلى أنه يجب على الإنسان إذا خالفه غيره، ألا يتطاول عليه، وألا يقصد بسوق الأدلة المؤيدة لقوله البغي على غيره، والتطاول عليه، بل يقصد إظهار الحق، لينتفع هو وينفع غيره. أما أن يأتي بالأدلة من أجل أن يعلو على أخيه، ويكون قوله هو الأعلى، فهذا خطأ عظيم.

(١) ذكر سبب النزول.

عن معقل بن أبي مسكين؛ قال: كان الوحي يأتي إلى بني إسرائيل؛ فيذكرون قومهم، ولم يكن يأتيهم كتاب فيقتلون؛ فيقوم رجال ممن اتبعهم وصدقهم فيذكرون قومهم فيقتلونهم؛ فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس فنزلت: {وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ}.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣/ ١٤٤)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (ص ١٦٣ رقم ٢٧٨ - آل عمران) من طريق ابن أبي نجيح عن معقل بن أبي مسكين به.

وهذا سند ضعيف؛ لإرساله، وجهالة معقل بن أبي مسكين.

(تنبيه): زاد ابن أبي حاتم بين ابن أبي نجيح ومعقل: مجاهد بن جبر.

* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ} [آل عمران: ٢١]، " أي يكذبون بما أنزل الله".

قوله تعالى: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ} [آل عمران: ٢١]، " أي يقتلون أنبياء الله بغير سبب ولا جريمة".

قال الزمخشري: "وهم أهل الكتاب. قتل أولوهم الأنبياء وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا، وكانوا حول قتل رسول الله ﷺ والمؤمنين لولا عصمة الله".

قال ابن عاشور: "والمقصود من هذه الحال زيادة تشويه فعلهم".

أخرج ابن المنذر عن عبد الله، " إن بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم تقوم سوقهم من آخر النهار".

أخرج الطبري عن أبي عبيدة بن الجراح قال: "قلت: يا رسول الله، أيّ الناس أشدّ عذابًا يوم القيامة؟ قال: "رجل قتل نبيًّا، أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف. ثم قرأ رسول الله ﷺ: "إنّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس " إلى أن انتهى إلى " وما لهم من ناصرين "، ثم قال رسول الله ﷺ: يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًّا من أول النهار في ساعة واحدة! فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عُبَّاد بني إسرائيل، فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعًا من آخر النهار في ذلك اليوم، وهم الذين ذكر الله عز وجل" ولكنه حديث منكر جدا كما في

=

=

الضعيفة (٢٧٨٣).

واختلفت القراءة في قوله تعالى {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ} [آل عمران: ٢١]، على وجوه:

أحدها: {يقتلون النبيين}، قراءة الحسن.

والثاني: {ويقاتلون الذين يأمرون}. قراءة حمزة.

والثالث: {وقاتلوا}، قراءة عبدالله.

والرابع: {يقتلون النبيين والذين يأمرون}، قرأ بها أبيّ.

قوله تعالى: {وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ} [آل عمران: ٢١]، أي: "ويقتلون أيضا الذين يأمرون الناس بالعدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقتلون الدعاة إلى الله الذين يأمرون بالخير والعدل".

قال مقاتل: "يعني بالعدل بين الناس من مؤمني بني إسرائيل من بعد موسى".

أخرج ابن المنذر عن معقل بن أبي مسكين، قال " كان الوحي يأتي بني إسرائيل، فيذكرون قومهم فيقتلون فيهم الذين يأمرون بالقسط من الناس".

وأخرج ابن المنذرأيضا عن سعيد، قال: "أقحط الناس في زمان ملك من ملوك بني إسرائيل سنين، فقال الملك: ليرسلن علينا السماء أو لنؤذينه، فقال له جلساؤه: كيف تقدر على أن تؤذيه أو تغيظه، وهو في السماء، قال: أقتل أولياءه من أهل الأرض، فيكون ذلك إيذاء له، قال: فأرسل الله عليهم السماء".

واختلف في الذين أمروا بالقسط من الناس، على أقوال:

احدها: أن" هؤلاء أهل الكتاب، كان أتباع الأنبياء ينهونهم ويذكرونهم بالله، فيقتلونهم". قاله قتادة، وري عن مجاهد نحو ذلك.

والثاني: أن الذين أمروا بالقسط من الناس: هم خلفاء الأنبياء. وهذا قول سفيان.

والثالث: أنهم النبيون الذين يأمرون بالقسط من الناس. قاله الحسن.

=

=

قال ابن عطية: والآية توبيخ للمعاصرين لرسول الله ﷺ بمساوئ أسلافهم وبقائهم أنفسهم على فعل ما أمكنهم من تلك المساوئ لأنهم كانوا حريصين على قتل محمد ﷺ.

قال الرازي: سؤال إذا كان قوله (إن الذين يكفرون بآيات الله) في حكم المستقبل، لأنه وعيد لمن كان في زمن الرسول عليه السلام ولم يقع منهم قتل الأنبياء ولا القائمين بالقسط فكيف يصح ذلك؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن هذه الطريقة لما كانت طريقة أسلافهم صحت هذه الإضافة إليهم، إذ كانوا مصوبين وبطريقتهم راضين، فإن صنع الأب قد يضاف إلى الابن إذا كان راضيا به وجاريا على طريقته.

الثاني: إن القوم كانوا يريدون قتل رسول الله ﷺ وقتل المؤمنين إلا أنه تعالى عصمه منهم، فلما كانوا في غاية الرغبة في ذلك صح إطلاق هذا الاسم عليهم على سبيل المجاز، كما يقال: النار محرقة، والسم قاتل، أي ذلك من شأنهما إذا وجد القابل، فكذا ههنا لا يصح أن

يكون إلا كذلك.

قوله تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران: ٢١]، "، فأخبرهم يا محمد وأعلمهم: أنّ لهم عند الله عذابًا موجعا".

قال الربيع بن أنس: "الأليم الموجع"، وروي عن أبي مالك نحو ذلك".

قال مقاتل: "فبشرهم يا محمد بعذاب وجيع، يعني اليهود لأن هؤلاء على دين أوائلهم الذين قتلوا الأنبياء والآمرين بالقسط".

قال السعدي: "فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان

=

=

والقلوب والأرواح".

والأغلب في البشارة إطلاقها على الإخبار بالخير، وقد تستعمل في الإخبار بالشر كما استعملت في هذا الموضع وفي تسميتها بذلك وجهان:

أحدهما: لأنها تغير بشرة الوجه بالسرور في الخير، وبالغم في الشر.

والثاني: تكون تهكما بهم كقوله تعالى (ذق إنك أنت العزيز الكريم).

قال ابن عاشور: وحقيقة التبشير: الإخبار بما يظهر سرور المخبر بفتح الباء وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته، إذ أريد به الإخبار بحصول العذاب، وهو موجب لحزن المخبرين، فهذا الاستعمال في الضد معدود عند علماء البيان من الاستعارة، ويسمونها تهكمية لأن تشبيه الضد بضده لا يروج في عقل أحد إلا على معنى التهكم، أو التمليح.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [آل عمران: ٢٢]، أي: أولئك "بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات، ولم يبق لها أثر في الدارين".

قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا).

وقال تعالى (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين).

فالموت على الكفر محبط للعمل كما قال تعالى (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

قال الطبري: ... فأما في الدنيا، فلم ينالوا بها محمدة ولا ثناء من الناس، لأنهم كانوا على ضلال وباطل، ولم يرفع الله لهم بها ذكرا، بل لعنهم وهتك أستارهم،

=

=
وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم على ألسن أنبيائه ورسله في كتبه التي أنزلها عليهم، فأبقى لهم ما بقيت الدنيا مذمة، فذلك حبوطها في الدنيا. وأما في الآخرة، فإنه أعد لهم فيها من العقاب ما وصف في كتابه، وأعلم عباده أن أعمالهم تصير بورا لا ثواب لها، لأنها كانت كفرا بالله، فجزاء أهلها الخلود في الجحيم.

وقال الرازي: ... أما الدنيا فإبدال المدح بالذم والثناء باللعن، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل والسبي، وأخذ الأموال منهم غنيمة والاسترقاق لهم إلى غير ذلك من الذل الظاهر فيهم، وأما حبوطها في الآخرة فبإزالة الثواب إلى العقاب.

وقال ابن عاشور: فلا ينتفعون بثوابها في الآخرة، ولا بآثارها الطيبة في الدنيا.

قال أبو مالك: "يعني: بطلت أعمالهم".

قال أبو السعود: "أي أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة أو المبتلون بأسوأ الحال الذين بطلت أعمالُهم التي عمِلوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر في الدارين بل بقي لهم اللعنة والخزيُ في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة".

قال الثعلبي: "حبطت: ذهبت وبطلت، وأصله من «الحبط» وهو أن ترعى الماشية [بلا دليل ورديع] «٤» فتنتفخ من ذلك بطونها، وربما ماتت منه، ثم جعل كل شيء يهلك حبطا، ومنه قول النبي ﷺ: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا إذ يلم»".

قال القرطبي: "الحبط: هو فساد يلحق المواشي في بطونها من كثرة أكلها الكلأ فتنتفخ أجوافها وربما تموت من ذلك".

قال الراغب: "يعني بقوله {أُولَئِكَ}: هم الذين يكفرون ويقتلون، بطلت في الدنيا والآخرة أعمالهم، أما في الدنيا فلأنهم لم يحصِّلوا منها محمدةَ، وأما في الآخرة فلم يحصِّلوا منها مثوبة، وذلك، نحو قوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: ٢٣]".

قال ابن عطية: "و{حَبِطَتْ} معناه: بطلت وسقط حكمها، وحبطها في الدنيا بقاء
=

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣).

{أَلَمْ تَرَ} تَنْظُر {إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا} حَظًّا {مِنْ الْكِتَاب} التَّوْرَاة {يُدْعَوْنَ} حَال {إِلَى كِتَاب الله لِيَحْكُم بَيْنهمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيق مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ} عَنْ قَبُول حُكْمه نَزَلَتْ فِي الْيَهُود زَنَى مِنْهُمْ اثْنَانِ فَتَحَاكَمُوا إِلَى النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَكَمَ عَلَيْهِمَا بِالرَّجْمِ فَأَبَوْا فَجِيءَ بِالتَّوْرَاةِ فَوَجَدَ فِيهَا فَرُجِمَا فغضبوا.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤).

{ذَلِكَ} التَّوَلِّي وَالْإِعْرَاض {بِأَنَّهُمْ قَالُوا} أَيْ بِسَبَبِ قَوْلهمْ {لَنْ تَمَسّنَا النَّار إلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَات} أَرْبَعِينَ يَوْمًا مُدَّة عِبَادَة آبَائِهِمْ الْعِجْل ثُمَّ تَزُول عَنْهُمْ {وَغَرَّهُمْ فِي دِينهمْ} مُتَعَلِّق بِقَوْلِهِ {مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} مِنْ قَوْلهمْ ذَلِكَ.

=

الذم واللعنة عليهم، وحبطها في الآخرة كونها هباء منبثا وتعذيبهم عليها".

وقرأ ابن عباس وأبو السمال العدوي: "{حبطت} بفتح "الباء"، وهي لغة".

قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران: ٢٢]، " أي ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه".

قال ابن عطية: "نفى النصر عنهم في كلا الحالين".

قال أبو السعود: {من ناصرين}، "ينصرونهم من بأس الله وعذابه في إحدى الدارين وصيغةُ الجميع لرعاية ما وقع في مقابلته لا لنفي تعددِ الأنصار من كل واحدٍ منهم كما في قوله تعالى {وَمَا للظالمين مِنْ أَنصَارٍ} [البقرة: ٢٧٠]".

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥).

{فَكَيْفَ} حالهمْ {إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ} أَيْ فِي يَوْم {لَا رَيْب} لَا شَكَّ {فِيهِ} هُوَ يَوْم الْقِيَامَة {وَوُفِّيَتْ كُلّ نَفْس} مِنْ أَهْل الْكِتَاب وَغَيْرهمْ جَزَاء {مَا كَسَبَتْ} عَمِلَتْ مِنْ خَيْر وَشَرّ {وَهُمْ} أَيْ النَّاس {لَا يُظْلَمُونَ} بِنَقْصِ حَسَنَة أَوْ زِيَادَة سَيِّئَة[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضَِاللَّهُعَنْهُمَا؛ قال: دخل رسول الله بيت المدراس على جماعة من يهود؛ فدعاهم إلى الله، فقال النعمان بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟! فقال: "على ملة إبراهيم ودينه"، فقالا: فإن إبراهيم كان يهوديًا، فقال لهما رسول الله ﷺ: "فهلم إلى التوراة؛ فهي بيننا وبينكم"؛ فأبيا عليه؛ فأنزل الله -تعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ} [آل عمران: ٢٤] إلى قوله: {وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.
أخرجه ابن إسحاق في "المغازي" -ومن طريقه ابن جرير في "جامع البيان" (٣/ ١٤٥)، وابن أبي حاتم (٢/ ١٦٥، ١٦٦ رقم ٢٨٦) -: ثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس به. وسنده ضعيف؛ لجهاله شيخ ابن إسحاق، وهو عند ابن أبي حاتم مرسل؛ لم يذكر ابن عباس.
وعنه -أيضًا-: أن رجلًا وامرأة من أهل خيبر زنيا -فذكر القصة الآتية في سورة المائدة وفيها-: فحكم عليهما بالرجم، فقال له نعمان بن أبي أوفى وبحري بن عمرو: جرت علينا يا محمد! فقال: "بيني وبينكم التوراة"... القصة؛ وفيها ذكر ابن صوريا، وفي آخرها؛ فأنزل الله -تعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ} إلى قوله: {وَهُمْ مُعْرِضُونَ}.
=

=

ذكره الحافظ في "العجاب" (٢/ ٦٧٤)؛ قال: "قَوْلٌ آخر: قال ابن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وذكره". وقد تقدم أن الكلبي وشيخه كذابان؛ فالحديث موضوع.

وعن السدي؛ قال: دعا النبي ﷺ اليهود إلى الإسلام، فقال له نعمان بن أبي أوفى: يا محمد! نخاصمك إلى الأحبار؛ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية.

ذكره الحافظ في كتابه "العجاب" (٢/ ٦٧٣) ونسبه للطبري ولم نجده فيه، وعلى كل؛ فلو صح السند إلى السدي؛ فهو ضعيف؛ لأنه معضل.

* قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ} [آل عمران: ٢٣].

يقول تعالى منكرا على اليهود والنصارى، المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل.

قال مقاتل: "يعني: أعطوا حظا من التوراة". وروي عن السدي مثله.

قال الزمخشري: "يريد أحبار اليهود، وأنهم حصلوا نصيبا وافرا من التوراة".

قال الصابوني: "أي ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب".

وفي الكتاب الذي دعوا إليه قولان:

أحدهما: أنه التوراة، دعي إليها اليهود فأبوا، قاله ابن عباس، ورجّحه الطبري.

والثاني: القرآن، لأن ما فيه موافق لما في التوراة من أصول الدين، قاله الحسن وقتادة، وابن جريج.

قوله تعالى: {يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ} [آل عمران: ٢٣].

أي: إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما، من اتباع محمد ﷺ، تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد.

=

قال السعدي: يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقيادا لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم معرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعلهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون).

قوله تعالى (ألم تر) هذه رؤية علمية لا بصرية، أي: ألم تعلم، والاستفهام استفهام تعجب.

قوله تعالى (الكتاب) المراد كتابهم التوراة، وهذا قول جمهور المفسرين (ذكره الرازي) ورجحه الطبري وقال: وإنما قلنا إن ذلك الكتاب هو التوراة، لأنهم كانوا بالقرآن مكذبين، وبالتوراة بزعمهم مصدقين، فكانت الحجة عليهم بتكذيبهم بما هم به في زعمهم مقرون، أبلغ، وللعذر أقطع.

قال الرازي: ظاهر قوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) يتناول كلهم، ولا شك أن هذا مذكور في معرض الذم، إلا أنه قد دل دليل آخر، على أنه ليس كل أهل الكتاب كذلك لأنه تعالى يقول (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون ءايات الله ءاناء الليل وهم يسجدون).

قال مقاتل: "يعني التوراة ليقضي بينهم".

قال الزمخشري: "وهو التوراة".

قال ابن كثير: أي: "وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما، من اتباع محمد ﷺ".

قوله تعالى: {ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [آل عمران: ٢٣]، أي: "ثم

=

يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله، وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق".

قال سعيد بن جبير: "فريق يعني: طائفة".

قال الطبري: أي: "ثم يستدبر عن كتاب الله الذي دعا إلى حكمه، معرضًا عنه منصرفًا، وهو بحقيقته وحجته عالم".

قال ابن كثير: "وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد".

قال ابن عطية: قوله تعالى (ثم يتولى فريق منهم) وخص الله تعالى بالتولي فريقا دون الكل لأن منهم من لم يتول كابن سلام وغيره.

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) فإن قيل: التولي هو الإعراض، فما فائدة تكريره؟

فالجواب من أربعة أوجه:

أحدها: التأكيد.

والثاني: أن يكون المعنى: يتولون عن الداعي، ويعرضون عما دعا إليه.

والثالث: يتولون بأبدانهم، ويعرضون عن الحق بقلوبهم.

والرابع: أن يكون الذين تولوا علماءهم، والذين أعرضوا أتباعهم، قاله ابن الأنباري.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [آل عمران: ٢٤].

ذلك الانصراف عن الحق سببه اعتقاد فاسد لدى أهل الكتاب؛ بأنهم لن يعذَّبوا إلا أيامًا قليلة، وهذا الاعتقاد أدى إلى جرأتهم على الله واستهانتهم بدينه، واستمرارهم على دينهم الباطل الذي خَدَعوا به أنفسهم.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ} [آل عمران:

=

=

٢٤]، " أي ذلك التولي والإعراض بسبب افترائهم على الله وزعمهم أن النار لن تصيبهم إلا مدةً يسيرة".

قال ابن كثير: "أي: إنما حملهم وجَرّأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة في الدنيا يوما".

قال ابن عاشور: قوله (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار) الإشارة إلى توليهم وإعراضهم، والباء للسببية: أي إنهم فعلوا ما فعلوا بسبب زعمهم أنهم في أمان من العذاب إلا أياما قليلة، فانعدم اكتراثهم باتباع الحق؛ لأن اعتقادهم النجاة من عذاب الله على كل حال جرأهم على ارتكاب مثل هذا الإعراض. وهذا الاعتقاد مع بطلانه مؤذن أيضا بسفالة همتهم الدينية، فكانوا لا ينافسون في تزكية الأنفس، وعبر عن الاعتقاد بالقول دلالة على أن هذا الاعتقاد لا دليل عليه وأنه مفترى مدلس، وهذه العقيدة عقيدة اليهود، كما تقدم في البقرة.

واختلفوا في قوله اليهود {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ} [آل عمران: ٢٤] على أربعة أقاويل:

أحدها: أنها الأيام التي عبدوا فيها العجل وهي أربعون يومًا، قاله قتادة، والربيع.

والثاني: أنها سبعة أيام، وهذا قول الحسن.

والثالث: أنهم يعنون الأيام التي خلق فيهم آدم. قاله مجاهد.

والرابع: أنها متقطعة لانقضاء العذاب فيها، نسبه الماوردي إلى بعض المتأخرين.

قوله تعالى: {وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [آل عمران: ٢٤].

أي: ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطانا.

قال أبو عبيدة: يعني: "يختلقون الكذب".

=

=

قال ابن كثير: "أي: ثَبَّتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطانا".

ويحتمل قوله تعالى: {وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [آل عمرام: ٢٤]، وجهين:

أحدهما: حين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. قاله الربيع، وقتادة.

والثاني: أنهم غرهم قولهم: {لن تمسنا النار إلا أياما معدودات} . قاله مجاهد.

قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [آل عمران: ٢٥].

فكيف يكون حالهم إذا جمعهم الله ليحاسَبوا في يوم لا شك في وقوعه -وهو يوم القيامة-، وأخذ كل واحد جزاءَ ما اكتسب، وهم لا يظلمون شيئا؟

قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ} [آل عمران: ٢٥].

أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به؛ ولهذا قال (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) لا شك في وقوعه.

قال الثعلبي: "أي فكيف يصنعون ليوم لا ريب فيه: وهو يوم القيامة".

قال الزمخشري: أي: "فكيف يصنعون فكيف تكون حالهم، وهو استعظام لما أعد لهم وتهويل لهم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه، وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون".

قال ابن عثيمين: والاستفهام للتعظيم، أي: ما أعظم ما تكون حالهم في ذلك اليوم، وما اشد حسرتهم".

=

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦).

وَنَزَلَتْ لَمَّا وَعَدَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّته مَلِك فَارِس وَالرُّوم فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ هَيْهَاتَ {قُلْ اللَّهُمَّ} يَا الله {مَالِك الْمُلْك تُؤْتِي} تُعْطِي {الْمُلْك مَنْ تُشَاء} مِنْ خَلْقك {وَتَنْزِع الملك ممن تشاء} بإتيانه {وَتُذِلّ مَنْ تَشَاء} بِنَزْعِهِ مِنْهُ {بِيَدِك}

=

نقل الثعلبي عن الضحاك عن ابن عباس، قال: "أول راية ترفع لأهل الموقف ذلك اليوم من رايات الكفار راية اليهود، فيقمعهم الله على رؤوس الاشهاد ثم يأمر بهم الى النار".

قوله تعالى: {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ} [آل عمران: ٢٥].

أي: وأعطيت كل نفس من البشر والجن ما كسبت من خير أو شر.

(وهم لا يظلمون). فلا ينقصون من حسناتهم، ولا يزاد عليهم في السيئات، ولا يعاقبون بظلم غيرهم.

فلا يظلمون مثقال ذرة، كما قال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما).

وقال تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما).

ظلما: أي: زيادة في السيئات (ولا هضما) أي نقصا في الحسنات.

قال سعيد بن جبير: يعني: توفى كل نفس أو فاجر ما عملت من خير أو شر".

قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [آل عمران: ٢٥]، وهم "لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب".

قال الثعلبي: أي: "لا ينقصون من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم".

قال سعيد بن جبير: "يعني: من أعمالهم".

بِقُدْرَتِك {الْخَيْر} أَيْ وَالشَّرّ {إنك على كل شيء قدير}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة؛ قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته؛ فأنزل الله: {قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)}.

أخرجه إسحاق بن راهويه في "تفسيره"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٦٧٤) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٦٤) -، وعبد بن حميد؛ كما في "العجاب"، و"الدر المنثور" (٢/ ١٧١)، وابن أبي حاتم (ص ١٧١ رقم ٣٠٤ - آل عمران)، والطبري في "جامع البيان" (٣/ ١٤٨) من طرق عن قتادة به. وهو صحيح إلى قتادة لكنه مرسل.

وعن عمرو بن عوف ﵁: خط رسول الله ﷺ على الخندق يوم الأحزاب، ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعًا، قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعًا، فحفرنا حتى إذا كنا تحت ذي ناب؛ أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا، وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان! ارق إلى رسول الله ﷺ، فأخبره خبر هذه الصخرة؛ فإما أن نعدل عنها، وإما أن يأمرنا فيها بأمره؛ فإنا لا نحب أن نجاوز خطه، قال: فرقى سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية، فقال: يا رسول الله! خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق، فكسرت حديدنا، وشقت علينا؛ حتى ما يحيك فيها قليل ولا كثير؛ فمرنا فيها بأمر؛ فإنا لا نحب أن نجاوز خطك، قال: فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان؛ فضربها ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها؛ يعني: المدينة؛ حتى كأن مصباحًا في جوف بيت مظلم، وكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح، =

=

فكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها؛ حتى كأن مصباحًا في جوف بيت مظلم، وكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح، وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، وأخذ يد سلمان ورقى، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد رأيت شيئًا ما رأيت مثله قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم، فقال: "رأيتم ما يقول سلمان؟ "، قالوا: نعم يا رسول الله! قال: "ضربت ضربتي الأولى؛ فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل عليه السلام: أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية؛ فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحمر في أرض الروم كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبرايل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها. ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق بنا الذي رأيتم. أضاءت منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل عليه السلام: أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا"؛ يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر وأبشروا يبلغهم النصر. فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحصر، فقال المنافقون: ألا تعجبون؛ يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق ولا تستطيعون أن تبرزوا؟! قال: فنزل القرآن: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢)} [الأحزاب: ١٢]، وأنزل الله -تعالى- في هذه القصة قوله: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ}.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات" (٤/ ٨٣، ٧/ ٣١٩ - مختصرًا)، والطبري في "جامع البيان" (٢١/ ٨٥، ٨٦ - مطولًا)، والحاكم في "المستدرك" (٣/ ٥٩٨ - مختصرًا) -وعنه البيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ٤١٨ - ٤٢٠ - مطولًا) -،

=

=

والطبراني في "المعجم الكبير" (٦/ ٢٦٠ رقم ٦٠٤٠)، وأبو نعيم في "المعرفة" (١/ ل ٢٨٨/ أ)، والثعالبي في "تفسيره"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٦٧٥ مختصرًا) -وعنه الواحدي في أسباب النزول" (ص ٦٤، ٦٥) - كلهم من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف؛ قال: حدثني أبي عن أبيه به.

وسكت عنه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: سنده ضعيف"، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ١٣٠): "فيه كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذي حدثيه، وبقية رجاله ثقات". وسكت عنه الحافظ في "العجاب".

قلنا: فيه كثير هذا، وهو ضعيف جدًا، بل كذبه بعضهم.

وحديث عمرو هذا ليس في آخره: ونزل قوله تعالى: {قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)} إلا عند الثعالبي والواحدي.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٥٧٤)، وزاد نسبته لابن أبي حاتم، وابن مردويه.

* قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ} [آل عمران: ٢٦]، " أي قل: يا ألله يا مالك كل شيء".

قال محمد بن إسحاق: يعني: "ملك النبوة الذي أعز به من اتبعه، وأذل به من خالفه".

ولأهل العلم في تفسير قوله تعالى {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ} [آل عمران: ٢٦]، ثلاثة اقوال:

أحدها: يريد به ملك أمر الدنيا والآخرة.

والثاني: مالك العباد وما ملكوه، قاله الزجاج، وروي عن محمد بن إسحاق مثله.

=

=

والثالث: مالك النبوة، قاله مجاهد وروي عن محمد بن إسحاق مثله.

قال السعدي: "أي أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصريف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالى بها".

قوله تعالى: {تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ} [آل عمران: ٢٦]، "أي تهب الملك لمن تشاء وتخلع الملك ممن تشاء".

قال الزمخشري: "تعطي من تشاء النصيب الذي قسمت له واقتضته حكمتك من الملك.

قيل: تؤتي الملك من تشاء من جهة الغلبة والدين والطاعة.

وقيل: {تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ} هم العرب {وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ} هم فارس والروم

وقيل: المعنى تؤتي الملك في الجنة من تشاء، وتنزع الملك من ملوك الدنيا في الآخرة ممن تشاء، وقيل غير ذلك.

قال الشوكاني: "والظاهر شموله لما يصدر عليه اسم الملك من غير مخصص".

لكن ليس هناك أشرف من ملك الجنة وسعادة الآخرة.

قال ابن عطية: "والصحيح أنه مالك الملك كله مطلقًا في جميع أنواعه وأشرف ملك يؤتيه سعادة الآخرة".

قال ابن القيم: فصدر الآية سبحانه بتفرده بالملك كله وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء لا غيره، فالأول تفرده بالملك والثاني تفرده بالتصرف.

قوله تعالى: (تؤتي) دل على أن خير الله عز وجل ما أسرع إتيانه للعبد، ولذلك يقول بعض الناس إذا رأى نعمة على شخص أتت فجأة، قال " من أين له هذا "

=

=

ولذا يقول بعض الشعراء:

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب

قوله: {وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ} النصيب الذي أعطيته منه، فالملك الأول عام شامل والملكان الآخران بعضان من الكل".

قوله (وتنزع ...) كما ينزع الجلد من البهيمة، لأن بعض الناس إذا ملك شيئا فإن ذهاب هذا الشيء منه عسير، يتشبث به تشبثا عظيما، ولذلك يقول القدماء من العرب (الملك عقيم) يمكن للملك الذي يملك وطنا، يمكن أن يضحي بأبيه وأن يضحي بابنه من أجل هذا الملك، ولذلك كان الأسلوب مناسبا (وتنزع الملك ممن تشاء).

قال السعدي: وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم ويؤتيه أمة محمد، وقد فعل ولله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب يستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سببا لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدروا عليها والصبر وعدم التنازع.

(وتعز من تشاء) أي: تجعله عزيزا قويا.

قال ابن القيم: من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله بالكلم الطيب والعمل الصالح، ولذا كان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك.

(وتذل من تشاء) أي: تجعله ذليلا.

=

=

قيل {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ} يعني محمدًا. {وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} يعني عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه وأهل فارس والروم.

وقال عطاء: {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ} المهاجرين والأنصار {وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} فارس والروم

وقيل: {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان.

وقيل: {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ} بالطاعة {وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} بالمعصية.

وقيل: {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ} بالإيمان والهداية {وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} بالكفر والضلالة

وقيل: تعز الأحباب (بالجنة والرؤية)، وتذل الأعداء (بالنار والحجاب).

وقيل: {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ} بالقناعة والرضا، {وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} بالحرص والطمع

وقيل: {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ} بالغنى، {وَتُذِلمَنُّ تَشَاء} بالفقر.

قال أبو حيان: "ينبغي حمل هذه الأقاويل على التمثيل؛ لأنه لا مخصص في الآية، بل الذي يقع به العز والذل مسكوت عنه "

وقال الآلوسي: "وينبغي حمل سائر الأقوال على التمثيل؛ لأنه لا مخصص في ... الآية".

(بيدك الخير) كله. (إنك على كل شيء قدير) لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك.

(إنك على كل شيء قدير) لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك.

(تنبيه): في معنى (بيدك الخير).

مذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة أن كل المحدثات فعل الله تعالى وخلقه، سواء خيرها وشرها، وقد أخرج الإمام مسلم (٧٧١) حديث عن علي بن أبي

=

=

طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال:" وجهت وجهي للذي فطر... وفيه "والخير كله في يديك والشر ليس إليك" قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ على الحديث "والخير كله في يديك والشر ليس إليك" قال الخطابي وغيره فيه الإرشاد إلى الأدب في الثناء على الله تعالى ومدحه بأن تضاف إليه محاسن الأمور دون مساويها على جهة الأدب، وأما قوله والشر ليس إليك فله معنى، لأن مذهب أهل الحق أن كل المحدثات فعل الله تعالى وخلقه، سواء خيرها وشرها، ووجه هذا الحديث، خمسة أقوال أحدها: معناه لا يتقرب به إليك، قاله الخليل بن أحمد والنضر بن شميل وإسحاق بن راهوية، ويحيى بن معين، وأبو بكر بن خزيمة، والأزهري وغيرهم.

والثاني: حكاه الشيخ أبو حامد عن المزني وقاله غيره أيضًا؛ معناه لا يضاف إليك على انفراده، لا يقال يا خالق القردة والخنازير، ويا رب الشر، ونحو هذا، وإن كان خالق كل شيء، ورب كل شيء، وحينئذ يدخل الشر في العموم.

والثالث: معناه والشر لا يصعد إليك، إنما يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح، والرابع: معناه والشر ليس شرًا بالنسبة إليك، فإنك خلقته بحكمة بالغة، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين.

والخامس: حكاه الخطابي أنه كقولك فلان إلى بني فلان إذا كان عداده فيهم أو صفوه إليهم.

والقول الرابع هو القول الحق لأن الله سبحانه وتعالى منزَّه عن الشر، ولا يفعل إلا الخير، والقدر من حيث نسبته إلى الله لا شر فيه بوجه من الوجوه؛ فإنه علم الله، وكتابتُه، ومشيئته، وخلقُه، وذلك خير محض، وكمال من كل وجه، فالشر ليس إلى الرب بوجه من الوجوه، لا في ذاته، ولا في أسمائه ولا صفاته، ولا في أفعاله.

ولو فَعَلَ الشر سبحانه لاشتُق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد

=

=

إليه من الشر حكمٌ تعالى وتقدس. وإنما الشر يدخل في مخلوقاته، ومفعولاته، فالشر في المقضي، لا في القضاء، ويكون شرًّا بالنسبة إلى محل، وخيرًا بالنسبة إلى محل آخر، وقد يكون خيرًا بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه، كما هو شر من وجه آخر، بل هو الغالب، وهذا كالقصاص، وإقامة الحدود، وقتل الكفار؛ فإنه شرٌ بالنسبة إليهم لا من كل وجه، بل من وجه دون وجه، وخير بالنسبة إلى غيرهم لما فيه من مصلحة الزجر، والنكال، ودفع الناس بعضهم ببعض.

وكذلك الأمراض وإن كانت شرورًا من وجه فهي خيرٌ من وجوهٍ عديدة.

والحاصل أن الشر لا يُنسب إلى الله _ تعالى _ ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن النبي " كان يثني على ربه بتنزيهه عن الشر بدعاء الاستفتاح في قوله: لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت.

قال الإمام الصابوني عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص ٢٨٥) في معنى هذا الحديث: ومعناه والله أعلم والشر ليس مما يُضاف إلى الله إفرادًا أو قصدًا حتى يُقال: يا خالق الشر، ويا مقدر الشر وإن كان الخالق والمقدر لهما جميعًا؛ لذلك أضاف الخضر عليه السلام إرادة العيب إلى نفسه فقال فيما أخبر الله عنه في قوله: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) سورة الكهف:٧٩. ولمَّا ذكر الخير والبر والرحمة أضاف إرادتها إلى الله عز وجل فقال: (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) سورة الكهف: ٨٢.

ولذلك قال مخبراً عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) سورة الشعراء: ٨٠. فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه.

وقال ابن القيم في شفاء العليل (ص ٣٦٤ - ٣٦٥) تعليقًا على هذا الحديث: فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار

=

=

شرًّا لانقطاع نسبته وإضافته إليه؛ فلو أُضيف إليه لم يكن شرًّا، وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته، لا في خلقه وفعله.

وخلقُهُ، وفعلُه، وقضاؤه، وقدره خيرٌ كله؛ ولهذا تنزَّه سبحانه عن الظلم، الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وُضِع في محله لم يكن شرًّا، فعُلم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك.

وقال أيضًا: فأسماؤه الحسنى تمنع نسبة الشر، والسوء، والظلم إليه، مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء؛ فهو الخالق للعباد، وأفعالهم، وحركاتهم، وأقوالهم، والعبد إذا فعل القبيحَ المنهيَّ عنه، كان قد فعل الشرَّ والسوءَ. والربُّ سبحانه هو الذي جعله فاعلًا لذلك، وهذا الجَعْل منه عدلٌ وحكمةٌ، وصوابٌ، فَجَعْلُهُ فاعلًا خيرٌ، والمفعولُ شرٌّ قبيح؛ فهو - سبحانه - بهذا الجعل قد وضع الشيء في موضعه؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها، فهو خير وحكمة، ومصلحة، وإن كان وقوعه من العبد عيبًا، ونقصًا، وشرًّا.

والحاصل أن الله تعالى لا يُنسب إليه الشر؛ لأنه إن أريد بالشر وضع الشيء في غير موضعه _ فهو الظلم، ومقابله العدل، والله منزَّه عن الظلم.

وإن أُريد به الأذى اللاحق بالمحل بسبب ذنب ارتكبه فإيجاد الله للعقوبة على ذنب لا يُعد شرًّا له؛ بل ذلك عدلٌ منه تعالى.

وإن أُريد به عدم الخير، وأسبابه الموصلة إليه فالعَدَمُ ليس فعلًا حتى ينسب إلى الله، وليس للعبد على الله أن يوفقه، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنع الفضل ليس بظلم ولا شر.

ثم إن على العبد إذا عرف ما يضره وينفعه أن يَذِلَّ لله _ عز وجل _ حتى يعينه على فعل ما ينفعه، ولا يقول: أنا لا أفعل حتى يخلق الله فيَّ الفعل، كما أنه لو هجم عليه

=

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧).

{تُولِج} تُدْخِل {اللَّيْل فِي النَّهَار وَتُولِج النَّهَار} تُدْخِلهُ {فِي اللَّيْل} فَيَزِيد كُلّ مِنْهُمَا بِمَا نَقَصَ مِنْ الْآخَر {وَتُخْرِج الْحَيّ مِنْ الْمَيِّت} كَالْإِنْسَانِ وَالطَّائِر مِنْ

=

عدو أو سبع فإنه يهرب ويفر ولا يقول: سأنتظر حتى يخلق الله فيَّ الهرب.

ومن هنا يتبين لنا أن الشر لا ينسب إلى الله عز وجل.

وقال في حادي الأرواح (ص ٢٦٤): الوجه الثالث عشروهو قول أعلم خلقه به وأعرفهم بأسمائه وصفاته (والشر ليس إليك) ولم يقف على المعنى المقصود من قال الشر لا يتقرب به إليك بل الشر لا يضاف إليه سبحانه بوجه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعالهولا في أسمائه فإن ذاته لها الكمال المطلق من جميع الوجوه وصفاته كلها صفات كمال ويحمد عليها ويثنى عليه بها وأفعاله كلها خير ورحمة وعدل وحكمة لا شر فيها بوجه ما وأسماؤه كلها حسنى فكيف يضاف الشر إليه بل الشر في مفعولاته ومخلوقاتهوهو منفصل عنه إذ فعله غير مفعول ففعله خير كله وأما المخلوق المفعول ففيه الخير والشر وإذا كان الشر مخلوقا منفصلا غير قائم بالرب سبحانه فهو لا يضاف إليه وهو لم يقل أنت لا تخلق الشر حتى يطلب تأويل قوله وإنما نفى إضافته إليه وصفا وفعلا وأسما وإذا عرف هذا فالشر ليس إلا الذنوب وموجباتها وأما الآخر فهو الإيمان والطاعات وموجباتها والإيمان والطاعات متعلقة به سبحانه ولأجلها خلق الله خلقه وأرسل رسله وأنزل كتبه وهي ثناء على الرب تبارك وتعاليوإجلاله وتعظيمه وعبوديته وهذه لها آثار تطلبها وتقتضيها فتدوم آثارها بدوام متعلقها وأما الشرور فليس مقصودة لذاتها ولا هي الغاية التي خلق لها الخلق فهي مفعولات قدرت لامر محبوبوجعلت وسيلة إليه فإذا حصل ما قدرت له اضمحلتوتلاشتوعاد الأمر إلى الخير المحض.

النُّطْفَة وَالْبَيْضَة {وَتُخْرِج الْمَيِّت} كَالنُّطْفَةِ وَالْبَيْضَة {مِنْ الْحَيّ وَتَرْزُق مَنْ تَشَاء بِغَيْرِ حِسَاب} أَيْ رِزْقًا وَاسِعًا(١).

---

(١) قوله تعالى: {تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [آل عمران: ٢٧]، أي: "أي تدخل الليل في النهار كما تدخل النهار في الليل، فتأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة، ربيعا وصيفا وخريفا وشتاء".

قال مجاهد: "ما نقص من أحدهما دخل في الآخر". وروي عن عبدالله نحو ذلك.

قال السدي: "تولج الليل في النهار حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة، والنهار تسع ساعات. وتولج النهار في الليل حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات".

قال مقاتل: "يعني ما تنقص في الليل داخل في النهار حتى يصير الليل تسع ساعات والنهار خمس عشرة ساعة. فذلك قوله- سبحانه- {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ} [الزمر: ٥]، و"يكور" يعنى: يسلط النهار على الليل، وهما هكذا إلى أن تقوم الساعة.

قال الطبري: أي: "تدخل ما نقصتَ من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا، وتدخل ما نقصتَ من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار".

قال الزجاج: "المعنى: تدخل أحدهما في الآخر يقال: ولج الشيءُ إذا دخل يلج وُلُوجًا وَوَلْجَة، وَالْوَلْج والوَلْجَةُ شيء يكون بين يدي فناء، فمعنى: {تولج الليل في النهار}، أي: تنقص من الليل فتدخل ذلك النقصان زيادة في النهار، وتنقص من النهار فتدخل ذلك النقصان زيادة في الليل".

قال الراغب: "الولوج: الدخول في مضيق، فهو أخص من الدخول".

=

=

وفي قوله تعالى: {تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [آل عمران: ٢٧] وجهان من التفسير:

أحدهما: معناه تدخل نقصان الليل في زيادة النهار، ونقصان النهار في زيادة الليل، وهو قول جمهور المفسرين.

والثاني: أن معناه تجعل الليل بدلًا من النهار، وتجعل النهار بدلًا من الليل، وهو قول بعض المتأخرين.

قوله تعالى: {وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} [آل عمران: ٢٧].

أي: يخرج النبات الحي من الحب النوى، الذي هو كالجماد الميت ولهذا قال تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ...)، ويخرج الإنسان من النطفة وهي ميتة، ويخرج الدجاجة من البيضة وهي ميتة، والنبات يخرج من الحبة وهي ميتة. والشجرة تخرج من النواة وهي ميتة.

ويمكن نحمل الحياة على المجاز فنقول: يخرج الابن المؤمن من الأب الكافر، والمؤمن من الضال.

قال مقاتل: "فهو الناس والدواب والطير خلقهم من نطفة وهي ميتة وخلق الطير من البيضة وهي ميتة".

قال الزجاج: "أي تخرج الإنسان من النطْفَةِ، والطائِر من البَيضةِ، وتخرج للناس الحب الذي يعيشون به من الأرض الميتة".

قال ابن كثير: "أي: وتخرج الحبَّة من الزرع، والنخلة من النواة، والمؤمن من الكافر، والدجاجة من البيضة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء".

وفي تفسير إخراج الحي من الميت ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يخرج الحيوان الحي في النطفة الميتة، ويخرج النطفة الميتة من

=

=

الحيوان الحي، وهذا قول ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة، والسدي، والنخعي، وابن زيد.

والثاني: أنه يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن، وهذا قول سلمان، والحسن، وقتادة.

قال قتادة: "إنما سمي يحيى، لأن الله أحياه بالإيمان".

والثالث: أنه يخرج النخلة من النواة، والنواةَ من النخلة، والسنبل من الحب، والحبّ من السنبل، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض. قاله عكرمة، وروي عن أبي مالك نجو ذلك.

قوله تعالى: {وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} [آل عمران: ٢٧].

أي: يخرج النطفة وهي ميتة من الحي وهو الإنسان، والبيضة وهي ميتة تخرج من الحي وهي الدجاجة.

وبالمجاز: نقول: يخرج الابن الكافر من الأب المؤمن، والضال من المهتدي.

قال مقاتل: "يعني يخرج الله- عز وجل- هذه النطفة من الحي وهم الناس والدواب والطير".

قال ابن كثير: "أي: وتخرج الزرع من الحبة، والنواة من النخلة، والكافر من المؤمن، والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء".

قال المراغي: "كالجاهل من العالم، والكافر من المؤمن، والنواة من النخلة، والبيضة من الطائر، وقد أثبت علماء الطب أن في النطفة والبيضة والنواة حياة، ولكن هذه حياة اصطلاحية لأهل هذا الفن، لا في العرف العام الذي جاء به التنزيل".

قال الرازي: قوله تعالى (تخرج الحي ...) ذكر المفسرون فيه وجوها:

أحدها: يخرج المؤمن من الكافر كإبراهيم من آزر، والكافر من المؤمن مثل

=

كنعان من نوح عليه السلام.
والثاني: يخرج الطيب من الخبيث وبالعكس.
والثالث: يخرج الحيوان من النطفة، والطير من البيضة وبالعكس.
والرابع: يخرج السنبلة من الحبة وبالعكس، والنخلة من النواة وبالعكس، قال القفال رحمه الله: والكلمة محتملة للكل.
أما الكفر والإيمان فقال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه) يريد كان كافرا فهديناه فجعل الموت كفرا والحياة إيمانا، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء، وجعل قبل ذلك ميتة فقال (يحيي الأرض بعد موتها) وقال (فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها) وقال: (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم).
وهذه من أعظم الآيات كما قال تعالى (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون).
وفي قوله تعالى: {وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} [آل عمران: ٢٧]، وجهان من القراءة:
أحدهما: {الميّت}، بالتشديد، قراءة نافع وحمزة والكسائي.
والثاني: {الميت}، بالتخفيف، قراءة الباقين.
واختلفوا في معنى كلمة "الميت" بالتخفيف والتشديد، على قولين:
أحدهما: أن الميْت بالتخفيف الذي قد مات، وبالتشديد الذي لم يمت بعد. قاله الكوفيون.
والثاني: أنهما سواء، حكاه أبو العباس عن البصريين، وأنشد لابن الرعلاء القلابي:
لَيْسَ مَنْ ماتَ فاستراحَ بِمَيْتٍ... إنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحْياءِ
قوله تعالى: {وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: ٢٧]، " أي: وتعطي من

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (٢٨).

{لَا يَتَّخِذ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء} يُوَالُونَهُمْ {مِنْ دُون} أَيْ غَيْر {الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ} أَيْ يُوَالِيهِمْ {فَلَيْسَ مِنْ} دِين {الله فِي شَيْء إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاة} مَصْدَر تَقَيْته أَيْ تَخَافُوا مَخَافَة فَلَكُمْ مُوَالَاتهمْ بِاللِّسَانِ دُون الْقَلْب وَهَذَا قَبْل عِزَّة الْإِسْلَام وَيَجْرِي فِيمَنْ هُوَ فِي بَلَد لَيْسَ قَوِيًّا فِيهَا {وَيُحَذِّركُمْ} يُخَوِّفكُمْ {الله نَفْسه} أَنْ يَغْضَب عَلَيْكُمْ إنْ وَالَيْتُمُوهُمْ {وَإِلَى الله

=

تشاء عطاءً واسعًا بلا عدٍّ ولا تضييق".

قال ميمون بن مهران: أي: "غدقا"، وروي عن الوليد بن قيس نحو هذا.

قال الربيع: "يخرج الرزق من عنده بغير حساب، لا يخاف أن ينقُص ما عنده تبارك وتعالى".

قال محمد ابن إسحاق: "لا يقدر على ذلك غيرك ولا يصنعه إلا أنت، وترزق من تشاء برا وفاجرا حي بغير حساب".

قال مقاتل: "يقول- سبحانه- ليس فوقي ملك يحاسبني، أنا الملك أعطي من شئت بغير حساب، لا أخاف من أحد يحاسبني".

قال الطبري: ": أنه يُعطى من يشاء من خلقه فيجود عليه، بغير محاسبة منه لمن أعطاه، لأنه لا يخاف دخولَ انتقاص في خزائنه، ولا الفناءَ على ما بيده".

قال ابن كثير: "أي: تعطي من شئت من المال ما لا يَعده ولا يقدر على إحصائه، وتقتر على آخرين، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة والعدل".

الْمَصِير} الْمَرْجِع فَيُجَازِيكُمْ(١).

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان الحجاج بن عمر حليف كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر بن زبير وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم؛ لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم ولزومهم؛ فأنزل الله عز وجل: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} إلى قوله: {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٨٤].

أخرجه ابن إسحاق -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٣/ ١٥٢)، وابن أبي حاتم (ص ١٨٧، ١٨٨/ ٣٥٢ - آل عمران) -: ثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وسنده ضعيف؛ لجهالة شيخ ابن إسحاق.

(تنبيه): ليس عند ابن أبي حاتم من المطبوع عن عكرمة، وإنما هو معضل، لكن السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ١٧٦) عزاه له عن ابن عباس.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية، ونهى المؤمنين عن مثل ذلك.

ذكره الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٦٥، ٦٦) معلقًا: وقال الكلبي وذكره. والكلبي كذاب.

وعنه -أيضًا-؛ قال: نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري -وكان بدريًا نقيبًا، وكان له حلفاء من اليهود-، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب؛ قال عبادة: يا نبي =

=

الله! إن معي خمسمائة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معي؛ فأستظهر بهم على العدو؛ فأنزل الله -تعالى-: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ}.

ذكره الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٦٦) معلقًا، وقال: وقال جويبر: عن الضحاك عن ابن عباس (وذكره). ونقل هذا الحديث الحافظ في "العجاب" (٢/ ٦٧٧)، وقال: "قول آخر: ذكر جويبر في "تفسيره" عن الضحاك عن ابن عباس (وذكره)". وجويبر؛ ضعيف جدًا، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

وقال مقاتل بن سليمان: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره، كانوا يظهرون المودة لكفار مكة؛ فنهاهم الله عن ذلك.

ذكره الحافظ في "العجاب" (٢/ ٦٧٦) معلقًا وسكت عليه.

قال الحافظ في "العجاب" (١/ ٢١٧): "ومنها -أي التفاسير الواهية-: تفسير مقاتل بن سليمان، وقد نسبوه إلى الكذب، وقال الشافعي: مقاتل؛ قاتله الله، وإنما قال الشافعي فيه ذلك؛ لأنه اشتهر عنه القول بالتجسيم، وروى تفسير مقاتل هذا عنه أبو عصمة -نوح بن أبي مريم- الجامع، وقد نسبوه إلى الكذب!".

* قوله تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ٢٨]، أي: "لا تتخذوا، أيها المؤمنون، الكفارَ ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين".

قال السدي: "أما أولياء فيواليهم في دينهم، ويظهرهم على عورة المؤمنين".

قال الزمخشري: "نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر".

نهى الله، تبارك وتعالى، عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب

=

=

إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله.

قوله تعالى (من دون المؤمنين) ليس معناه يجوز موالاة الكفار اشتراكا مع المؤمنين، وإنما المعني:

قيل: إن قوله (من دون المؤمنين) ذكر للإشارة إلى أن المؤمنين هم الأحق بالموالاة، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفار.

وقيل: أن هذا ورد على قوم والوا اليهود دون المؤمنين، فهو لبيان الصورة الواقعة من غير قصد التخصيص بها، فموالاة الكفار حرام مطلقا.

قال الشنقيطي: قوله تعالى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) الآية، هذه الآية الكريمة توهم أن اتخاذ الكفار أولياء إذا لم يكن من دون المؤمنين لا بأس به بدليل قوله (من دون المؤمنين) وقد جاءت آيات أخر تدل على منع اتخاذهم أولياء مطلقا:

كقوله تعالى (ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا).

وكقوله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ...) الآية.

والجواب عن هذا: أن قوله (من دون المؤمنين) لا مفهوم له، وقد تقرر في علم الأصول أن دليل الخطاب الذي هو مفهوم المخالفة له موانع تمنع اعتباره، منها كون تخصيص المنطوق بالذكر لأجل موافقته للواقع كما في هذه الآية؛ لأنها نزلت في قوم والوا اليهود دون المؤمنين، فنزلت ناهية عن الصورة الواقعة من غير قصد التخصيص بها، بل موالاة الكفار حرام مطلقا.

قوله تعالى: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ} [آل عمران: ٢٨]، أي: و"من يرتكب نهى الله في هذا فقد برئ من الله".

=

=

قال السدي: "ومن يفعل هذا فهو مشرك"، "فقد برىء الله منه".

قال الثعلبي: "أي موالاة الكفار في نقل الأخبار إليهم، وإظهارهم على عدّة المسلمين".

ويحتمل قوله تعالى: {فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ} [آل عمران: ٢٨]، وجهان:

أحدهما: أي ليس من دين الله في شيء. أفاده الثعلبي.

والثاني: أن المعنى: ليس من الولاية في شيء، فقد بريء الله منه. قاله الحسن والسدي.

قال ابن جرير: "(فليس من الله في شيء) يعني فقد برئ من الله، وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر".

وقال القرطبي: "أي: ليس من حزب الله ولا من أوليائه في شيء، وهو إذا من حزب الشيطان وأنصاره".

قوله تعالى: {إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران: ٢٨]، "أي: إلا أن تخافوا منهم محذورًا أو تخافوا أذاهم وشرهم، فأظهروا موالاتهم باللسان دون للقلب".

فمن خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم.

قال الجصاص: قوله تعالى (إلا أن تتقوا منهم تقاة) يعني أن تخافوا تلف النفس وبعض الأعضاء فتتقوهم بإظهار الموالاة من غير اعتقاد لها، وهذا هو ظاهر ما يقتضيه اللفظ وعليه الجمهور من أهل العلم.

قال ابن عباس: "فالتقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به وهو معصية لله، فيتكلم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالإيمان فإن ذلك لا يضره إنما التقية باللسان".

=

=

قال مجاهد: "يعني: إلا مصانعة في الدنيا".

قال ابن كثير: "أي: إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته".

قال الثعلبي: "يعني: إلّا أن تخافوا منهم مخافة"، "وأنكر قوم التقيّة اليوم: فقال معاذ بن جبل عن مجاهد: كانت التقيّة في جدة الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين، فأمّا اليوم فقد أعزّ الله عزّ وجل الإسلام، فليس ينبغي لأهل الإسلام أن يتّقوا من عدوهم".

وقال يحيى البكاء: "قلت لسعيد بن جبير في أيام الحجّاج: إنّ الحسن كان يقول لكم: التقيّة باللسان والقلب مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ. قال سعيد: ليس في الإسلام تقيّة إنّما التقيّة في أهل الحرب".

ولأهل العلم في تفسير "التقية" في قوله تعالى: {إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران: ٢٨]، وجوها:

أحدها: أن التقية باللسان وليست بالعمل. قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو العالية، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك وجابر بن زيد.

والثاني: أن معناه: إلا أن يكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك. قاله قتادة.

الثالث: أن المعنى: إلا مصانعة في الدنيا ومخالقة. وهذا قول مجاهد.

واختلفوا في قراءة قوله تعالى: {تُقَاةً} [آل عمران: ٢٨]، على وجوه:

أحدها: {تقية}، على وزن "نقية"، قرأ بها أبو العالية عن الحسن، والضحاك وأبو رجاء وجابر بن زيد وحميد بن مجاهد.

والثاني: {تقية}، بالاحتجاج فكان الياء. قرأ بها حمزة والكسائي وخلف.

والثالث: {تُقاةً}، بالتضميم. قرأ بها الباقون وأختاره أبو عبيدة.

والرابع: {تقاءة}، مثل تكأة ويؤده ونحوها، وهي مصدر "أتقى". قرأ بها

=

=

الأخفش.

قوله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ} [آل عمران: ٢٨]، أي: و"يخوفّكم الله عقابه الصادر منه تعالى".

فلا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك.

قال ابن عاشور: "قوله تعالى (ويحذركم الله نفسه) تحذير من المخالفة ومن التساهل في دعوى التقية واستمرارها أو طول زمانها".

قال ابن كثير: "أي: يحذركم نقمته، أي مخالفته وسطوته في عذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه".

قال الثعلبي: "أي يخوّفكم الله على موالاة الكفار وارتكاب المنهي ومخالفة المأمور، {من نفسه}: قال المفسرون: من عذاب نفسه وعقوبته وبطشه".

قوله قال تعالى: {وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ} [آل عمران: ٢٨].

أي: مرجع العباد ليوم التناد، فيحصي أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم، فإياكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والمثوبة.

قال ابن الجوزي: "قوله تعالى: {إلا أن تتقوا منهم تقاة}، قد ذهب قوم إلى أن المراد بالآية اتقاء المشركين أن يوقعوا فتنة أو ما يوجب القتل والفرقة ثم نسخ ذلك بآية السيف، وليس هذا بشيء، وإنما المراد من الآية جواز اتقائهم إذا أكرهوا المؤمن على الكفر بالقول الذي لا يعتقده وهذا الحكم باق غير منسوخ، وهو المراد بقوله تعالى: {إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان}... وقد زعم إسماعيل السدي، أن قوله: {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين} منسوخة بقوله: {إلا أن تتقوا منهم تقاة}، ومثل هذا ينبغي تنزيه الكتب عن ذكره فضلا عن رده فإنه قول من لا يفهم ما يقول".

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩).

{قُلْ} لَهُمْ {إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ} قُلُوبكُمْ مِنْ مُوَالَاتهمْ {أَوْ تُبْدُوهُ} تُظْهِرُوهُ {يَعْلَمهُ الله و} هو {يَعْلَم مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض وَالله عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير} وَمِنْهُ تَعْذِيب من والاهم[١].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ} [آل عمران: ٢٩]، أي: قل يا محمد "إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا يخفى عليه خافية".

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآنات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما في السموات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال. (تفسير ابن كثير).

فالله تعالى يعلم ما في الصدور ويعلم السر وأخفى.

قال تعالى (إن الله عليم بذات الصدور).

وقال تعالى (إنه عليم بذات الصدور).

وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد). وقال تعالى (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله).

قال تعالى (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى).

وقال تعالى (قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما).

وقال تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسر القول =

=

ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار).

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما نهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء ظاهرا وباطنا واستثنى عنه التقية في الظاهر، أتبع ذلك بالوعيد على أن يصير الباطن موافقا للظاهر في وقت التقية، وذلك لأن من أقدم عند التقية على إظهار الموالاة، فقد يصير إقدامه على ذلك الفعل بحسب الظاهر سببا لحصول تلك الموالاة في الباطن، فلا جرم بين تعالى أنه عالم بالبواطن كعلمه بالظواهر، فيعلم العبد أنه لا بد أن يجازيه على كل ما عزم عليه في قلبه.

وقال ابن كثير: وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال بعد هذا (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا).

وقال أبو حيان: المفهوم أن الباري تعالى مطلع على ما في الضمائر، لا يتفاوت علمه تعالى بخفاياها، وهو مرتب على ما فيها الثواب والعقاب إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

قال الزمخشري: أي: "إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضى الله يعلمه ولم يخف عليه".

وفي قوله تعالى: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ} [آل عمران: ٢٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن المراد ما يخفون من مودة الكفار، وموالاتهم. هذا قول أكثر المفسرين.

والثاني: أنه يعني: تكذيب محمد ﷺ، يقول: إن أخفيتموه أو أظهرتم تكذيبه، بحربه وقتاله، يعلمه الله.

=

=

والثالث: أنه يريد: الضمير، وهذا يعم كل ما في قلب الإنسان. قاله عطاء.

والراجح أنه لما نهى الله في الآية الأولى عن موالاة الكفار، خوف وحذر في هذه الآية عن إبطان موالاتهم؛ بأنه يعلم الإسرار، كما يعلم الإعلان.

وفي ذلك تأكيد لعدم الموالاة، وتحذير من ذلك.

قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [آل عمران: ٢٩]، أي: و"يعلم كل ما هو حادث في السماوات والأرض".

هذا دليل على سعة علمه، وذكر عموم بعد خصوص، فصار علمه بما في صدورهم مذكورا مرتين على سبيل التوكيد، أحدهما: بالخصوص، والآخر: بالعموم، إذ هم ممن في الأرض.

قال الطبري: "يعني: أنه إذ كان لا يخفى عليه شيء هو في سماء أو أرض أو حيث كان، فكيف يخفى عليه - أيها القوم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين - ما في صدوركم من الميْل إليهم بالمودة والمحبة، أو ما تبدونه لهم بالمعونة فعلا وقولا".

قال ابن عباس: "خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش: اكتب، فقال القلم: وما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم القيامة الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة فذلك يقول للنبي ﷺ: إن الله يعلم ما في السماوات والأرض".

قوله تعالى: {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٩]، " أي وهو سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره".

وهو إعلام بأنه مع العلم ذو قدرة على كل شيء، وهذا من التهديد؛ إذ المهدد لا يحول بينه وبين تحقيق وعيده إلا أحد أمرين: الجهل بجريمة المجرم، أو العجز عنه، فلما أعلمهم بعموم علمه، وعموم قدرته، علموا أن الله لا يفلتهم من عقابه.

=

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠).

أُذْكُرْ {يَوْم تَجِد كُلّ نَفْس مَا عَمِلَتْ} هُ {مِنْ خَيْر مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ} هُ {مِنْ سُوء} مُبْتَدَأ خَبَره {تَوَدّ لَوْ أَنَّ بَيْنهَا وَبَيْنه أَمَدًا بَعِيدًا} غَايَة فِي نِهَايَة الْبُعْد فَلَا يَصِل إلَيْهَا {وَيُحَذِّركُمْ الله نَفْسه} كرر التأكيد {والله رؤوف بالعباد[1]}.

=

قال محمد بن إسحاق: "أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير".

قال البيضاوي: أي: "فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه. والآية بيان لقوله تعالى: وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وكأنه قال ويحذركم نفسه لأنها متصفة بعلم ذاتي محيط بالمعلومات كلها، وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها، فلا تجسروا على عصيانه إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب بها".

قال ابن كثير: "أي: قدرته نافذة في جميع ذلك، وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يَبْغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإنْ أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر".

(١) قوله تعالى: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء) يعني: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر.

كما قال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) فما رأى من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاظه.

وقال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا).

=

=

قوله {محضرا}، يعني: "موفرا"، قاله قتادة.

وقال مطر: يعني: "موفرا مكنزا".

قال ابن كثير: "يعني: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر، كما قال تعالى: {يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣]".

(أَمَدًا بَعِيدًا) قال مقاتل: "يعني أجلا بعيدا بين المشرق والمغرب".

قال الثعلبي: "الأمد: الأجل والغاية التي ينتهي إليها، قال الله: {أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا} [الجن: ٢٥]، وقال: {فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ} [الحديد: ١٦]، قال النابغة:
ألا لمثلك أو من أنت سابقة... بسبق الجواد إذا ستويا على الأمد".

قال الرازي: اعلم أن العمل لا يبقى، ولا يمكن وجدانه يوم القيامة، فلا بد فيه من التأويل وهو من وجهين:

الأول: أنه يجد صحائف الأعمال، وهو قوله تعالى (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون).

وقال (فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه).

الثاني: أنه يجد جزاء الأعمال وقوله تعالى (محضرا) يحتمل أن يكون المراد أن تلك الصحائف تكون محضرة يوم القيامة، ويحتمل أن يكون المعنى: أن جزاء العمل يكون محضرا، كقوله (ووجدوا ما عملوا حاضرا).

وعلى كلا الوجهين، فالترغيب والترهيب حاصلان. ا.هـ

قلت لا مانع أن الأعمال تجسد، وتوزن ولو كانت أعراضًا، فالله تعالى قادر على أن يقلب الأعراض أجسادًا كما يشاء، فيقلب التسبيح والتكبير والقراءة أجسادًا وأجرامًا يكون لها ثقل ويكون لها وزن، وقد دلت على ذلك السنة، في غير ما حديث على أن الأعمال تجسد، وأنها توزن، وأن الله لا يستعصي عليه أن يقلب هذه الأعراض ويجعل لها جرمًا يخف ويثقل.

=

=

(تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان مقترنا به في الدنيا، وهو الذي جرأه على فعل السوء (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين).

وفي قوله تعالى: {وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} [آل عمران: ٣٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن المعنى: "يسر أحدهم أن لا يلقى عمله ذلك أبدا يكون ذلك مناه، وأما في الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذها". قاله الحسن، وروي عن مجاهد نحو ذلك.

والثاني: أن قوله {أمدا بعيدا}، معناه: مكانا بعيدا. قاله السدي.

والثالث: أن معناه أجلا وغاية بعيدا. قاله مقاتل بن سليمان، وابن جريج، وأبو عبيدة.

(ويحذركم الله نفسه) أي: يخوفكم عقابه.

ثم قال مرجيا لعباده لئلا ييأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه.

(والله رؤوف بالعباد) أي: إن الله بجميع عباده ذو رأفة، والرأفة أعلى معاني الرحمة.

وقال الخطابي: الرؤوف هو الرحيم العاطف برأفته على عباده.

وقال بعضهم: الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها.

قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه.

فمن رأفته سبحانه وتعالى بنا، أنه خوفنا من عقوبته وعذابه، ونهانا عن معصيته، قبل أن يلقاه العبد يوم القيامة ليستعد للقائه، ويتجنب سخطه وغضبه (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد).

ومن رأفته أنه أرسل رسله وأنزل كتبه التي تبين شرعه، لينقذ الناس من ظلمات

=

=

الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والهداية (هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم).
ومن رأفته أنه يقبل توبة التائبين، ولا يرد عن بابه العاصين المنيبين، مهما كثرت سيئاتهم، وتعاظمت خطيئاتهم (ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم).
ومن رأفته: تسخيره لما في السماوات وما في الأرض لمصلحة الإنسان ومنفعته، وخلقه الأنعام ليركب على ظهرها فتحمله المسافات الشاسعة، هو ومتاعه وزاده (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم).
قال الرازي: قوله تعالى (والله رؤوف بالعباد) فيه وجوه:
الأول: أنه رؤوف بهم حيث حذرهم من نفسه، وعرفهم كمال علمه وقدرته، وأنه يمهل ولا يهمل، ورغبهم في استيجاب رحمته، وحذرهم من استحقاق غضبه، قال الحسن: ومن رأفته بهم أن حذرهم نفسه.
الثاني: أنه رؤوف بالعباد حيث أمهلهم للتوبة والتدارك والتلافي.
وقال ابن عطية: قوله تعالى (والله رؤوف بالعباد) يحتمل أن يكون إشارة إلى التحذير لأن تحذيره وتنبيهه على النجاة رأفة منه بعباده، ويحتمل أن يكون ابتداء إعلام بهذه الصفة فمقتضى ذلك التأنيس لئلا يفرط الوعيد على نفس مؤمن، وتجيء الآية على نحو قوله تعالى (إن ربك لشديد العقاب، وإنه لغفور رحيم) لأن قوله (ويحذركم الله نفسه) والله محذور العقاب.
قال السمرقندي: ذكر في أول هذه الآية عدله عز وجل في قوله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا)، وفي وسطها تخويف وتهديد وهو قوله (ويحذركم الله نفسه) وفي آخرها ذكر رأفته ورحمته وهو قوله (والله رءوف بالعباد).
قال ابن عاشور: قوله تعالى (بالعباد) والتعريف في العباد للاستغراق: لأن رأفة الله
=

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١).

وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا مَا نَعْبُد الْأَصْنَام إِلَّا حُبًّا لِلَّهِ لِيُقَرِّبُونَا إِلَيْهِ {قُلْ} لَهُمْ يَا مُحَمَّد {إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ الله} بِمَعْنَى يُثِيبكُمْ {وَيَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبكُمْ وَاَلله غَفُور} لِمَنْ اتَّبَعَنِي مَا سَلَفَ مِنْهُ قَبْل ذَلِكَ {رَحِيم} بِهِ[1].

=

شاملة لكل الناس مسلمهم وكافرهم (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) (الله لطيف بعباده) وما وعيدهم إلا لجلب صلاحهم، وما تنفيذه بعد فوات المقصود منه إلا لصدق كلماته، وانتظام حكمته سبحانه.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: إن اليهود لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه؛ أنزل الله -تعالى- هذه الآية، فلما نزلت؛ عرضها رسول الله ﷺ على اليهود، فأبوا أن يقبلوها.

ذكره الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٦٦)، وكذا الحافظ في "العجاب" (٢/ ٦٧٧)، وقال: "قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به". والكلبي وشيخه كذابان متهمان.

وعنه أيضا قال: وقف النبي ﷺ على قريش وهم في المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم، وعلقوا عليها بيض النعام، وجعلوا في آذانها الشنوف وهم يسجدون لها، فقال: "لقد خالفتم ملّة أبيكم إبراهيم وإسماعيل"، فقالوا: يا محمد! إنا نعبد هذه حبًا لله؛ ليقربونا إلى الله زلفى؛ فقال: "أنا رسول الله إليكم، وأنا أولى بالتعظيم من الأصنام".

ذكره الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٦٦) -معلقًا- وروى جويبر عن

=

=

الضحاك عن ابن عباس به. وقال الحافظ في "العجاب" (٢/ ٦٧٨): "قول آخر: ذكر جويبر في "تفسيره" عن الضحاك عن ابن عباس فذكره". وجويبر ضعيف جدًا؛ والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

وقال الحافظ: "وهذا من منكرات جويبر؛ فإن آل عمران مدنية وهذه القصة إنما كانت بمكة قبل الهجرة، ولعل الذي نزل فيهما في أوائل الزمر".

وقال مقاتل بن سليمان: لما دعا النبي ﷺ كعب بن الأشرف وأصحابه إلى الإسلام؛ قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ولنحن أشد حبًا لله مما تدعونا إليه؛ فنزلت: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ}.

ذكره الحافظ في "العجاب" (٢/ ٦٧٧) عنه. ومقاتل بن سلميان متهم.

وعن ابن جريج؛ قال: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ: أنهم يحبون الله، فقالوا: يا محمد! إنا نحب ربنا؛ فنزلت، وجعل اتباع نبيه علمًا لحبه.

أخرجه سنيد في "تفسيره"؛ كما في العجاب (٢/ ٦٧٨) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١/ ١٥٥) - عن حجاج بن محمد المصيصي عن ابن جريج فذكره. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: الإعضال؛ فابن جريج من أتباع التابعين، ثم هو معروف بالتدليس عن الكذابين والضعفاء.

الثانية: سنيد هذا صاحب التفسير متكلم فيه: ضعفه أحمد وأبو حاتم والنسائي وغيرهما، قال الحافظ في "فتح الباري" (٨/ ٢١٩): "هو من حفاظ الحديث، وله تفسير مشهور؛ لكن ضعفه أبو حاتم والنسائي"، وقال في "العجاب" (١/ ٢١٩): "وفيه لين"، وقال في "التقريب" (١/ ٣٣٥): "ضعيف مع إمامته ومعرفته؛ لكونه كان يُلقّن حجاج بن محمد شيخه"، وقال الذهبي في "الميزان" (٢/ ٢٣٦): "حافظ له تفسير وله ما ينكر".

=

=

(تنبيه): ليس في "جامع البيان" للطبري تصريح بأنه سبب نزول، وإنما قاله الحافظ.

وعن الحسن؛ قال: قال أقوام على عهد رسول الله ﷺ: يا محمد! إنا لنحب ربنا؛ فأنزل الله عز وجل بذلك قرآنًا: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}؛ فجعل الله اتباع نبيه محمد ﷺ علمًا لحبه، وعذاب من خالفه.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣/ ١٥٥) من طريق علي بن الهيثم: ثنا عبد الوهاب، عن أبي عبيدة؛ قال: سمعت الحسن فذكره. وسنده ضعيف.

وعنه أيضا قال: قال قوم على عهد النبي ﷺ: يا محمد! إنا نحب ربنا؛ فأنزل الله: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} فجعل اتباع نبيه ﷺ علمًا لحبه وعذاب من خالفه.

أخرجه ابن جرير (٣/ ١٥٥) من طريق بكر بن الأسود عنه به. وهو مرسل.

* قوله تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ} [آل عمران: ٣١]، أي قل لهم يا محمد إن كنتم حقًا تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله".

أخرج ابن أبي حاتم بسنده "عن أبي الدرداء في قوله {إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} على البر، والتقوى، والتواضع، وذلة النفس".

وقال الحسن: "فكان علامة حبه إياهم اتباع سنة رسوله".

وهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد).

قال ابن القيم: قال بعض السلف ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحنة (قل إن

=

=

كنتم تحبون الله فاتبعوني)

فمتابعة الرسول قولا وفعلا دليل على محبة الله تعالى.

قوله: (يحببكم الله) هذه الثمرة الأولى، وما أعظمها من ثمرة.

قال ابن كثير: "أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ".

وقال الشنقيطي: قوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) الآية.

صرح تعالى: في هذه الآية الكريمة أن اتباع نبيه موجب لمحبته جلا وعلا ذلك المتبع، وذلك يدل على أن طاعة رسول الله ﷺ هي عين طاعته تعالى، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا).

قال ابن القيم: قوله تعالى (يحببكم الله) إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها: محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة، فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: فجعل سبحانه متابعة رسوله سببا لمحبتهم له وكون العبد محبوبا لله أعلى من كونه محبا لله فليس الشأن أن تحب الله ولكن الشأن أن يحبك الله فالطاعة للمحبوب عنوان محبته كما قيل.

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع.

وقال السعدي: هذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال (قل إن كنتم تحبون الله) أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة

=

الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبا لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

قال الحسن: اعلم أنك لن تحب الله حتى تحب طاعته، وسئل ذو النون متى أحب ربي؟ قال إذا كان ما يبغضه عندك أمر من الصبر.

وقال بشر بن السري: ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبك.

وقال يحيى بن معاذ: ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده.

قوله تعالى: {وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [آل عمران: ٣١]، أي: "ويغفر لكم ما سلف من الذنوب".

قال محمد بن إسحاق: "أي: ما مضى من كفركم".

قال الطبري: أي: "فإنه إن اتبعتموني وصدّقتموني على ما أتيتكم به من عند الله يغفرُ لكم ذنوبكم، فيصفح لكم عن العقوبة عليها، ويعفو لكم عما مضى منها".

قال ابن كثير: "أي: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته".

وهذه الثمرة الثانية، والمغفرة: التجاوز عن الذنب مع الستر، والمعنى: يمحو الله عنكم الذنوب والآثام ويسترها.

(والله غفور) الغفور اسم من أسماء الله تعالى، فيجب إثبات ذلك، وهو أيضا هو دال على صفة المغفرة الواسعة لله تعالى كما سبحانه (إن ربك واسع المغفرة)، والمغفرة - كما سبق - ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن عقوبته، كما في

قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢).

{قُلْ} لَهُمْ {أَطِيعُوا الله وَالرَّسُول} فِيمَا يَأْمُركُمْ بِهِ مِنْ التَّوْحِيد {فَإِنْ تَوَلَّوْا} أَعْرَضُوا عَنْ الطَّاعَة {فَإِنَّ الله لَا يُحِبّ الْكَافِرِينَ} فِيهِ إقَامَة الظَّاهِر مَقَام الْمُضْمَر

=

حديث ابن عمر في المناجاة، أن رسول الله ﷺ (يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه، حتى يضع عليه كنفه - أي ستره ورحمته - فيقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربي، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال الله عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) متفق عليه.

ومنه سمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

(رحيم) الرحيم اسم من أسماء الله، فيجب إثبات ذلك، وهو متضمن لصفة الرحمة الواسعة كما قال تعالى (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة)، وقال تعالى (وربك الغفور ذو الرحمة) وقال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء).

ورحمته سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين:

رحمة ذاتية ثابتة لله تعالى.

ورحمة فعليه يوصلها من شاء من عباده كما قال تعالى (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء)، والرحمة الفعلية تنقسم أيضا إلى قسمين:

رحمة عامة لجميع الخلق في الدنيا والآخرة.

ورحمة خاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) ومن رحمته بهم عدم المؤاخذة على الخطأ.

(تنبيه) تأويل المصنف لصفة الرحمة بالثواب هو جريا منه رَحِمَهُ اللهُ على مذهب الأشاعرة وهو مذهب باطل مخالف لمذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة،وقد تقدم بيان الحق في ذلك تحت الآية رقم (٣) من سورة الفاتحة.

أَيْ لَا يُحِبّهُمْ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبهُمْ[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

ذكر الحافظ في "العجاب" (٢/ ٦٧٩): أن الثعلبي قال: إن عبد الله بن أُبي لما نزل قوله -تعالى-: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي} [آل عمران: ٣١]؛ قال لأصحابه: إن محمدًا يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نعبده كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؛ فنزلت: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ} .. الآية.

وقال مقاتل بن سليمان: نزلت في اليهود.

ذكره الحافظ في "العجاب" (٢/ ٦٧٩)، وقد بَيَّنا فيما تقدم وهاء تفسير مقاتل.

* قوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ} [آل عمران: ٣٢]، أي: قل يا محمد: "أطيعوا أمر الله وأمر رسوله".

قال محمد ابن إسحاق: "أطيعوا الله والرسول وأنتم تعرفونه وتجدونه في كتابكم".

قال الطبري: أي: "قل، يا محمد، لهؤلاء الوفد من نصارى نجران: أطيعوا الله والرسول محمدًا، فإنكم قد علمتم يقينًا أنه رسولي إلى خلقي، ابتعثتُه بالحق، تجدونه مكتوبًا عندكم في الإنجيل".

الطاعة: موافقة الأمر، وذلك بفعل الأمر، وترك المحظور، ولهذا أخذت من المطاوعة وهي الانقياد.

قوله تعالى (وأطيعوا الرسول) الرسول هنا محمد ﷺ و(أل) للعهد الذهني أي: الرسول المعهود محمدا، والرسول تعريفه: هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

وقد جاءت آيات كثيرة تأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم).

وقال تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا).

=

=

قال تعالى (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول).

وقال تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين).

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون).

قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} [آل عمران: ٣٢]، أي: فإن" استدبروا عما دعوتهم إليه من ذلك، وأعرضوا عنه".

قال ابن عباس: "يعني: الكفار تولوا عن النبي ﷺ".

قال محمد بن إسحاق: "فإن تولوا على كفرهم".

قال الثعلبي: أي: "أعرضوا عن طاعتهما".

قال ابن كثير: أي فإن" أي: خالفوا عن أمره".

قوله تعالى: {فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ٣٢]، أي: فإن الله "لا يحب من كفر بآياته".

وفي قوله تعالى (فإن الله لا يحب الكافرين) هذا إظهار في مقام الإضمار، لأن الأصل أن يقول: فإن تولوا فإن الله لا يحبهم، وذلك لفائدة:

النص على علة السبب، فلما قال (... لا يحب الكافرين) علم أن سبب عدم محبتهم هو كفرهم، وأن توليهم وعدم الطاعة سببه الكفر.

وفائدة أخرى: أن الله لا يحب كل كافر.

قال الثعلبي: أي: "لا يرضى فعلهم ولا شيء لهم ولا يغفر لهم".

قال ابن كثير: "فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب لله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذي لو

=

إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣).

{إِنَّ الله اصْطَفَى} اخْتَارَ {آدَم وَنُوحًا وَآل إِبْرَاهِيم وَآل عِمْرَان} بِمَعْنَى أَنْفُسهمَا {عَلَى الْعَالَمِينَ} يجعل الْأَنْبِيَاء مِنْ نَسْلهمْ.

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤).

{ذرية بعضها من} ولد {بعض} منهم {والله سميع عليم}[(١)].

=

كان الأنبياء - بل المرسلون، بل أولو العزم منهم - في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته".

(تنبيه): تأويل المصنف لصفة المحبة بلوازمها على خلاف مذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة، وسيأتي بيان الحق في ذلك تحت الآية رقم (١٤٦) من نفس هذه السورة المباركة.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ} [آل عمران: ٣٣]، أي: إن الله "اختار للنبوة صفوة خلقه منهم آدم أبو البشر".

قال أبو مالك: "{اصطفى}، يعني: اختار".

قال الحسن: "فضلهم الله على العالمين بالنبوة على الناس كلهم، كانوا هم الأنبياء والأتقياء المطيعين لربهم".

قال مقاتل: "يعني: اختار من الناس لرسالته آدم".

قال ابن كثير: "فاصطفى آدم، عليه السلام، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها، لما له في ذلك من الحكمة".

قال الزجاج: "معنى اصطفاهم في اللغة: اختارهم أي جعلهم صفوة خلقه، وهذا تمثيل بما يُرى، لأن العرب تمثل المعلوم بالشيءِ المرئي، وإذا سمع السامع ذلك

=

=

المعلوم كان عنده بمنزلة ما يشاهده عِيانًا، فنحن نعين الشيء الصافي أنه النقى من الكدر، فكذلك صفوة الله من خلقه".

وفي معنى الإصطفاء في قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ اصْطَفَىَ} [آل عمران: ٣٣]، ثلاثة أوجه:

أحدها: اصطفى دينهم أي اختاره على سائر الأديان. والتقدير: إن الله اصطفى دينهم وهو دين الإسلام، فحذف المضاف. وهذا قول الفراء.

والثاني: أن المعنى: اختارهم للنبوة على عالمي زمانهم، فاصطفى آدمَ بالرسالة إِلَى الملائكة وإلى ولده، واصطفى نوحًا وإبراهيم وآله بالرِّسالة. أفاده الزجاج.

والثالث: أنه اصطفاهم بتفضيلهم في الأمور التي ميزهم بها على أهل زمانهم. أفاده الماوردي.

وآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو البشر، خلقه الله تعالى خلقًا مستقلًا وليس متطورًا من جنس آخر أو من نوع آخر قبله كما يقول أهل الإلحاد، ومن ادعى ذلك فقد كفر بالله؛ لأن الله تعالى أخبر في كتابه في عدة مواضع أن الله خلق آدم من تراب، من صلصال كالفخار، من طين، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته. فمن زعم غير ذلك فهو كافر مصدق لغير الله مكذب لله -والعياذ بالله- مع العلم بأنه لن يأتى أحد بكلام عن آدم وابتداء خلقه وكيفية خلقه غير مستند في ذلك إلى الوحي فإن قوله غير مقبول، لأنه لم يشاهده، قال الله تعالى: {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ} [الكهف: ٥١]، وقال الله تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ} [إبراهيم: ٩]، فمن ادعى علم شيء ممن سبق فهو كاذب إلا ببرهان، وآدم كما نعلم بيننا وبينه أزمنة طويلة جدًّا، فلا يمكن أن نقبل قولًا فيه إلا عن طريق الوحي الصحيح.

وسمي آدم: قيل لأُدمته، يعني لونه ليس الأبيض الباهق ولا الأسود الحالك، لكنه

=

=

بين ذلك. وخلقه الله عز وجل على صورته أي على صورة الله عز وجل تكريمًا له، ولا يلزم من كونه على صورة الله أن يكون مماثلًا له؛ لأن الله تعالى يقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، فعلينا أن نؤمن بالنصوص كلها، نؤمن بأنه خلقه على صورته، ونؤمن بأنه ليس كمثله.

فإن قلت: كيف يكون على صورته وليس مثله؟

فالجواب: يمكن هذا في المخلوق فما بالك في الخالق، فلقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: "أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر". ومن المعلوم أنه لا يلزم التماثل؛ يعني ليس صورتهم كصورة البدر تمامًا، بل من حيث الجمال والبهاء والنور كالقمر ليلة البدر. ثم إن القرآن والسنة لا يكذب بعضهما بعضًا. وآدم عليه الصلاة والسلام أوحي إليه كما في القرآن الكريم. ولا شك أنه أوحي إليه أيضًا من الناحية العقلية، وذلك لأنه لا يستقل بعبادة الله؛ أي لا يمكن أن يعرف كيف يعبد الله إلا بوحي من الله وهو مخلوق للعبادة. {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، فدلَّ السمع والعقل على أنه موحىً إليه، ولكن هل كان رسولًا؟ لا، ليس برسول بدلالة الكتاب والسنة. أما الكتاب ففي قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء: ١٦٣]، فجعل النبيين من بعد نوح. وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [الحديد: ٢٦]، وفي الحديث الصحيح حديث الشفاعة الطويل: أن الناس يأتون إلى نوح ويقولون له: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

وعليه فآدم نبي أوحي إليه بشرع وتعبد الله به، وبقي الناس على هذا الشرع لأنهم قلة، ولم يحصل منهم اختلاف، فلما اختلفوا بعث الله النبيين كما قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ

=

بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} [البقرة: ٢١٣].

قوله تعالى: {وَنُوحًا} [آل عمران: ٣٣]، أي: واختار نوحا"شيخ المرسلين".

قال ابن كثير: "واصطفى نوحا، عليه السلام، وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطانا، وانتقم له لما طالت مدته بين ظَهْرَاني قومه، يدعوهم إلى الله ليلا ونهارًا، سرا وجهارًا، فلم يزدهم ذلك إلا فرارًا، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم يَنْجُ منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به".

وَنُوحًا ذكره الله عز وجل بعد ذكر آدم؛ لأنه الأب الثاني للبشرية، فإن نوحًا لما كذبه قومه إلا القليل أهلكهم الله تعالى بالغرق، فجعل الله ذريته هم الباقين كما في سورة الصافات: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} [الصافات: ٧٧]، فصار الأب الثاني للبشرية.

قوله تعالى: {وَآلَ إِبْرَاهِيمَ} [آل عمران: ٣٣]، " أي عشيرته وذوي قرباه".

قال مقاتل: "يعني إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب والأسباط".

قال ابن عباس: "هم المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد ﷺ".

قال ابن كثير: "واصطفى آل إبراهيم، ومنهم: سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ".

قال قتادة: "ذكر الله تعالى أهل بيتين صالحين، ففضلهما على العالمين، فكان محمد ﷺ من آل إبراهيم".

وآل إبراهيم: لا شك أنه يدخل فيهم إبراهيم بالأولى، لكن نصَّ على آله لكثرة الرسل فيهم ولاسيما أن فيهم أفضل الرسل محمدًا ﷺ؛ فإن محمدًا ﷺ من آل إبراهيم.

=

قوله تعالى: {وَآلَ عِمْرَانَ} [آل عمران: ٣٣]، أي: أهل عمران".

قال مقاتل: "يعني موسى، وهارون، ذرية آل عمران اختارهم للنبوة والرسالة".

قال ابن كثير: "المراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، عليهم السلام".

قال الزمخشري: "وآل عمران موسى وهرون ابنا عمران ابن يصهر. وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة".

وفي: {وَآلَ عِمْرَانَ} [آل عمران: ٣٣]، قولان:

أحدهما: أنه موسى وهارون ابنا عمران. قاله مقاتل. وآخرون.

والثاني: أنه المسيح، لأن مريم بنت عمران، وهذا قول الحسن.

فقيل: آل عمران أبي موسى؛ لأن موسى أفضل أنبياء بني إسرائيل. وقيل: آل عمران أبي مريم، ومريم ابنة عمران، فذكر آل عمران لأن فيهم آخر الرسل قبل محمد ﷺ وهو: عيسي ابن مريم الذي ينتمي إليه النصارى، وخص آل عمران بذلك لأن المقام يقتضيه أيضًا، فإن هذه السورة نزل أولها في وفد نجران وهم من النصارى. وسواء كان هذا أم ذاك فإنه يدل على أن الله اصطفى هذه القبيلة، قبيلة إبراهيم، فهو مصطفى من مصطفى. اصطفى آدم، وهذا الاصطفاء الأول، ونوحًا، وهذا الاصطفاء الثاني، وآل إبراهيم الثالث، وآل عمران الرابع. فكان هؤلاء السادة من البشر هم الذين اصطفاهم. ومعنى الاصطفاء: أن الله اختارهم وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلًا، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٧٠]، ليس على كل من خلقنا، بل على كثير ممن خلقنا تفضيلًا. والاصطفاء بمعنى الاختيار؛ لأن أصله مأخوذ من الصفوة، وصفوة الشيء خياره، واصطفى أي أخذ صفوته.

=

=

قوله تعالى: {عَلَى الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٣٣]، "أي: على عالمي زمانهم".

قال الحسن: "على الناس كلهم".

قال مقاتل: "يعني عالمي ذلك الزمان".

قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض".

قوله تعالى: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ} [آل عمران: ٣٤]، "أي: اصطفاهم متجانسين في الدين والتُّقى والصلاح".

قال قتادة: "يقول: في النية والعمل والإخلاص والتوحيد له".

قال محمد بن إسحاق: "فمن تلك الذرية كان ينسب عيسى إذ لم يكن له أب من غيرهم، فدعي إلى نسبه".

وقال أبو روق: "بعضها على دين بعض".

قال الطبري: أي: "ذرية دينُ بعضها دينُ بعض، وكلمتهم واحدةٌ، وملتهم واحدة في توحيد الله وطاعته".

قال الراغب: "يعني في الموالاة الدينية، لقوله: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [التوبة: ٧١] وقوله: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ} [التوبة: ٦٧] وقوله لنوح: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود: ٤٦] ردا عليه لما قال في الكناية عن هذا العدو".

وفي قوله تعالى: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ} [آل عمران: ٣٤] وجهان:

أحدهما: أنهم صاروا ذرية بالتناصر لا بالنسب، كما قال تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ} [التوبة: ٦٧] يعني في الاجتماع على الضلال، وهذا قول الحسن، وقتادة.

والثاني: أنهم في التناسل والنسب، إذ جميعهم من ذرية آدم، ثم من ذرية نوح، ثم من ذرية إبراهيم، وهذا قول بعض المتأخرين.

=

=

وذريةً: بالنصب بدل من {آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ}، يعني هؤلاء الأربعة الأصناف ذرية بعضها من بعض، وذرية: مأخوذة من (ذرأ) بمعنى خلق؛ لقوله تعالى: {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} [الشورى: ١١] أي يخلقكم. وقيل: من (وذر) بمعنى ترك، فعلى الأول: تكون الذرية شاملة للأصول والفروع؛ لأن الأصول مخلوقون والفروع كذلك مخلوقون، أما إذا جعلناها من (وذر): بمعنى ترك فهي للفروع فقط، وهذا هو المعروف عند عامة الناس أن الذرية هم الفروع، يعني من نشؤوا عن الإنسان وتركهم بعده. ومما يدل على إطلاق الذرية على الأصول قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} [يس: ٤١]، فإن الذين حملوا في الفلك هم الذين آمنوا مع نوح وهم سابقون.

وقوله: {بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ} بعضُها من بعض في جنس الخلقة، أو بعضها من بعض في الآداب والأخلاق والديانات، والظاهر الشمول، يعني أن الآدميين كلهم من جنس واحد، ليس فيه آدمي كان بالأول قردًا كما يقوله إخوان القردة ومن أقروا على أنفسهم بأنهم قردة، فالآدمي أصله آدمي، خلق الله أباه بيده ابتداء، لكن هؤلاء أبوا إلا أن يجعلوا أنفسهم من القرود. فبعضها من بعض في الخلقة من آدم إلى يومنا هذا، لم تتغير الخلقة إلا في قوة الجسم؛ لأن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلق طوله في السماء ستون ذراعًا وعرضه أيضًا -على ما في أحاديث كثيرة حسان- سبعة أذرع، وهذا الخلق قد نقص حتى وصل إلى هذه الأمة وانتهى؛ لأن هذه الأمة هي آخر الأمم. ولا يرد على ذلك أنه في بعض المناطق يكون الجنس البشري ضخمًا وفي بعض المناطق يكون دون ذلك؛ لأن هذا من تغير المناخ والوراثة. كذلك بعضها من بعض: في الآداب والأخلاق والديانات إلا من كان منهم ظالمًا خارجًا عن هذا الأصل؛ فإنه يكون خارجًا بما خرج به.

قوله تعالى: {وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٣٤] أي: والله " سميع لأقوال العباد

=

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥).

أُذْكُرْ {إِذْ قَالَتْ امْرَأَة عِمْرَان} حَنَّة لَمَّا أَسَنَّتْ وَاشْتَاقَتْ لِلْوَلَدِ فَدَعَتْ الله وَأَحَسَّتْ بِالْحَمْلِ يَا {رَبّ إِنِّي نَذَرْت} أَنْ أَجْعَل {لَك مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا} عَتِيقًا خَالِصًا مِنْ شَوَاغِل الدُّنْيَا لِخِدْمَةِ بَيْتك الْمُقَدَّس {فَتَقَبَّلْ مِنِّي إنَّك أَنْت السَّمِيع} لِلدُّعَاءِ {الْعَلِيم} بِالنِّيَّاتِ وَهَلَكَ عِمْرَان وَهِيَ حَامِل.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦).

{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا} وَلَدَتْهَا جَارِيَة وَكَانَتْ تَرْجُو أَنْ يَكُون غُلَامًا إذْ لَمْ يَكُنْ يُحَرَّر إلَّا الْغِلْمَان {قَالَتْ} مُعْتَذِرَة يَا {رَبّ إنِّي وَضَعْتهَا أنثى وَالله أَعْلَم} أَيْ عَالِم {بِمَا وَضَعَتْ} جُمْلَة اعْتِرَاض مِنْ كَلَامه تَعَالَى وَفِي قِرَاءَة بِضَمِّ التَّاء {وَلَيْسَ

=

عليم بضمائرهم".

قال محمد بن إسحاق: "أي: سميع لما يقولون، عليم بما يخفون".

قال مقاتل: {سميع}: "لقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه ونحن أشد حبا لله، {عليم} بما قالوا، يعنى اليهود".

قال الطبري: أي: "والله ذُو سمع لقول امرأة عمران، وذو علم بما تضمره في نفسها، إذ نذَرت له ما في بطنها مُحرَّرًا".

ختمها بالسمع والعلم، إشارة إلى أن كل ما يقوله هؤلاء المصطفون أو يفعلونه فإنه معلوم عند الله، فهو يسمع ما يقولون، ويعلم ما يفعلون، بل هو يعلم ما لا يفعلون مما يكون في قلوبهم، بل يعلم ما سيفعلونه وإن لم يكن في قلوبهم؛ لأن الله يعلم ما كان وما يكون لو كان كيف يكون.

الذَّكَر} الَّذِي طَلَبْت {كَالْأُنْثَى} الَّتِي وَهَبْت لِأَنَّهُ يُقْصَد لِلْخِدْمَةِ وَهِيَ لَا تَصْلُح لِضَعْفِهَا وَعَوْرَتهَا وَمَا يَعْتَرِيهَا مِنْ الْحَيْض وَنَحْوه {وَإِنِّي سَمَّيْتهَا مَرْيَم وَإِنِّي أُعِيذهَا بِك وَذُرِّيَّتهَا} أَوْلَادهَا {مِنْ الشَّيْطَان الرَّجِيم} الْمَطْرُود فِي الْحَدِيث مَا مِنْ مَوْلُود يُولَد إلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَان حَيْن يُولَد فَيَسْتَهِلّ صَارِخًا إلَّا مَرْيَم وَابْنهَا رواه الشيخان.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧).

{فَتَقَبَّلَهَا رَبّهَا} أَيْ قَبِلَ مَرْيَم مِنْ أُمّهَا {بِقَبُولٍ حَسَن وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} أَنْشَأَهَا بِخُلُقٍ حَسَن فَكَانَتْ تَنْبُت فِي الْيَوْم كَمَا يَنْبُت الْمَوْلُود فِي الْعَام وَأَتَتْ بِهَا أُمّهَا الْأَحْبَار سَدَنَة بَيْت الْمَقْدِس فَقَالَتْ دُونكُمْ هَذِهِ النَّذِيرَة فَتَنَافَسُوا فِيهَا لِأَنَّهَا بِنْت إمَامهمْ فَقَالَ زَكَرِيَّا أَنَا أَحَقّ بِهَا لِأَنَّ خَالَتهَا عِنْدِي فَقَالُوا لَا حَتَّى نَقْتَرِع فَانْطَلَقُوا وَهُمْ تِسْعَة وَعِشْرُونَ إلَى نَهْر الْأُرْدُنّ وَأَلْقَوْا أَقْلَامهمْ عَلَى أَنَّ مَنْ ثَبَتَ قَلَمه فِي الْمَاء وَصَعِدَ أَوْلَى بِهَا فَثَبَتَ قَلَم زَكَرِيَّا فَأَخَذَهَا وَبَنَى لَهَا غُرْفَة فِي الْمَسْجِد بِسُلَّمٍ لَا يَصْعَد إلَيْهَا غَيْره وَكَانَ يَأْتِيهَا بِأَكْلِهَا وَشُرْبهَا وَدُهْنهَا فَيَجِد عِنْدهَا فَاكِهَة الصَّيْف فِي الشِّتَاء وَفَاكِهَة الشِّتَاء في الصيف كما قال تعالى {وكفلها زكريا} ضَمَّهَا إلَيْهِ وَفِي قِرَاءَة بِالتَّشْدِيدِ وَنَصْب زَكَرِيَّا مَمْدُودًا وَمَقْصُورًا وَالْفَاعِل الله {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَاب} الْغُرْفَة وَهِيَ أَشْرَف الْمَجَالِس {وَجَدَ عِنْدهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَم أَنَّى} مِنْ أَيْنَ {لَك هَذَا قَالَتْ} وَهِيَ صَغِيرَة {هُوَ مِنْ عِنْد الله} يَأْتِينِي بِهِ مِنْ الْجَنَّة {إنَّ الله يَرْزُق مَنْ يَشَاء بِغَيْرِ حِسَاب} رِزْقًا

وَاسِعًا بِلَا تَبَعَةٍ(١).

---

(١) قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ} [آل عمران: ٣٥]، " أي اذكر لهم وقت قول امرأة عمران".

يعني: اذكر إذ قالت، وهذا التركيب موجود في القرآن كثيرًا، وإنما حذف العامل لدلالة السياق عليه، وتلك قاعدة مشهورة عند النحويين أشار إليها ابن مالك في الألفية فقال:

وحذف ما يُعلمُ جائز كما تقول زيد بعد مَنْ عندكما؟

فهنا العامل المحذوف معلوم بالسياق. (اذكر إذ قالت)، اذكر هذه الحال التي صدر فيها هذا القول من امرأة عمران. {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ}، وهي أم مريم يعني جدة عيسى ابن مريم.

قال البيضاوي: "وهذه حنة بنت فاقوذ جدة عيسى، وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهارون فظن أن المراد زوجته ويرده كفالة زكريا فإنه كان معاصرًا لابن ماثان وتزوج بنته ايشاع، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة من الأب روي أنها كانت عاقرًا عجوزًا، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائرًا يطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته فقالت: اللهم إن لك علي نذرًا إن رزقتني ولدًا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من خدمه، فحملت بمريم وهلك عمران وكان هذا النذر مشروعًا في عهدهم للغلمان فلعلها بنت الأمر على التقدير أو طلبت ذكرًا".

قوله تعالى: {رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي} [آل عمران: ٣٥]، أي: ربّي إني "نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني".

{رَبِّ}: منادى حذفت منه ياء النداء، وأصله: يا رب، ولكن تحذف ياء النداء فى مثل هذا التركيب اختصارًا لكثرة استعماله، وحذف منه ضمير المتكلم (الياء) =

=

تخفيفًا، وأصله: (ربي).

قولها: {نَذَرْتُ}: بمعنى التزمت أن يكون ما في بطني محررًا من خدمتي ليكون خادمًا للمسجد الأقصى، وكان من عادتهم أن يفعلوا ذلك؛ أي أن الإنسان منهم ينذر ولده ليكون قائمًا بخدمة المسجد الأقصى تعظيمًا له.

وقولها: {مَا فِي بَطْنِي}، (ما) اسم موصول يفيد العموم، فيشمل ما لو وضعت واحدًا أو اثنين ذكرًا أو أنثى.

فإذا قال قائل: كيف تقول: إنه يشمل ما لو وضعت اثنين وهي تقول: {إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا}، ومحررًا واحد، ولم تقل: محررَيْن.

فالجواب: أن الأسماء الموصولة المشتركة: أي التي تصلح للمفرد وغيره يجوز فيها مراعاة بالإفراد، ومراعاة معناها بالإفراد إن كان المراد بها المفرد، والتثنية إن كان المراد بها المثنى، والجمع إن كان المراد بها الجمع، مذكرًا كان أو مؤنثًا. وعليه فلا يمنع أن يكون قولها: {مُحَرَّرًا}، شاملًا لما تضعه ولو كانوا أكثر من واحد؛ لأنه أفرد باعتبار اللفظ.

قال عكرمة: "أن امرأة عمران كانتْ عجوزًا عاقرًا تسمى حَنَّة، وكانت لا تلد، فجعلت تغبطُ النساء لأولادهن، فقالت: اللهمّ إنّ عليّ نذرًا شكرًا إن رزقتني ولدًا أن أتصدّق به على بيت المقدس، فيكون من سَدَنته وُخدَّامه".

قال الحسن: "نذرت ما في بطنها، ثم سيَّبَتْها".

قوله تعالى: {مُحَرَّرًا} [آل عمران: ٣٥]، " أي: مخلصًا للعبادة والخدمة".

قال سعيد بن جبير: "للبيعة والكنيسة".

قال عكرمة: "قوله: {نذرتُ لك ما في بطني محرّرًا}، إنها للحرّة ابنة الحرائر {محررًا} للكنيسة يخدمها".

قال محمد بن جعفر بن الزبير: "تقول: جعلته عتيقًا لعبادة الله، لا ينتفع به بشيء

=

=

من أمور الدنيا".

قال مجاهد: "خالصًا، لا يخالطه شيء من أمر الدنيا"،

قال قتادة: "كانت امرأة عمران حَرّرت لله ما في بطنها، وكانوا إنما يحرّرُون الذكور، وكان المحرَّر إذا حُرِّر جعل في الكنيسة لا يبرَحها، يقوم عليها ويكنُسها".

قال السدي: "وذلك أن امرأة عمران حملت، فظنت أن ما في بطنها غلام، فوهبته لله محرّرًا لا يعمل في الدنيا".

قال الربيع: "كانت امرأة عمران حرّرَت لله ما في بطنها. قال: وكانوا إنما يحرّرون الذكور، فكان المحرَّر إذا حُرِّر جعل في الكنيسة لا يبرحها، يقوم عليها ويكنسها".

قال الضحاك: "جعلت ولدها لله، وللذين يدرُسون الكتاب ويتعلَّمونه".

قال التستري: "أي حررته وأعتقته من رق الدنيا من متابعة هواه ومرادات نفسه، وجعلته خادمًا لعباد بيت المقدس خالصا لله تعالى".

قال البيضاوي: "معتقًا لخدمته لا أشغله بشيء، أو مخلصًا للعبادة".

قال الطبري: "يعني بذلك: حبستُه على خدمتك وخدمة قُدْسك في الكنيسة، عتيقةً من خدمة كلّ شيء سواك، مفرّغة لك خاصة".

ولأهل العلم في تفسير قوله تعالى: {مُحَرَّرًا} [آل عمران: ٣٥]، " ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن معناه: فرّغته للعبادة، وهذا قول الشعبي.

والثاني: أنه: يعني: خادمًا للبيعة، وهذا قول مجاهد، وروي عن الربيع بن أنس وشرحبيل بن سعد نحو ذلك.

والثالث: معناه: عتيقًا من الدنيا لطاعة الله، وهذا قول محمد بن جعفر بن الزبير.

قوله تعالى: {فَتَقَبَّلْ مِنِّي} [آل عمران: ٣٥]، "يعني تقبل مني هذا التقرب إليك، بنذر هذا الحمل الذي نذرته ليقوم بخدمة بيتك".

قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [آل عمران: ٣٥]، أي إنك أنت "السميع

=

=

لدعائي العليم بنيتي".

قال الطبري: "إنك أنتَ يا رب {السميع} لما أقول وأدعو، {العليمُ} لما أنوي في نفسي وأريد، لا يخفى عليك سرّ أمري وعلانيته".

وهذه الجملة استئنافية للتعليل؛ يعني أني سألتك أن تتقبل مني لأنك السميع العليم.

{السَّمِيعُ} يشمل هنا سمع الإدراك وسمع الإجابة؛ يعني أنك تسمع دعائي وتستجيبه،و(سمع) تأتي بمعنى استجاب كما في قول المصلي: "سمع الله لمن حمده" أي استجاب.

وقولها: {إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} يعني السامع لدعائي المستجيب له، العليم بما يكون صالحًا، وبكل شيء. لكن ذكر العلم هنا لأن الإنسان قد يسأل الشيء وليس من صالحه حصوله، فيسند الأمر إلى علم الله عز وجل. ومن المعلوم أن الداعي إذا دعا فإنه يحصل له واحد من أمور ثلاثة: إما أن يستجيب الله له الدعاء، وإما أن يدَّخر ذلك له يوم القيامة فيعطيه مثل ما دعا به، وإما أن يصرف عنه من السوء ما هو أعظم. هذا بالإضافة إلى أن الدعاء نفسه عبادة يثاب عليها الإنسان.

قوله تعالى: {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا} [آل عمران: ٣٦]، "أي: لمَّا ولدتها".

قال الثعلبي: "أي ولدتها وإذا هي جارية".

قال الطبري: أي: "فلما وضعت حَنَّة النذيرةَ".

قال ابن عباس: "فلما وضعتها أنثى ضنت بها، قالت: {رب إني وضعتها أنثى}".

لم يقل: فلما وضعته؛ مراعاة للمعنى؛ لأنها وضعت أنثى، فلما وضعتها وكانت قد نذرته محررًا بناءً على أنه ذكر، لما وضعتها اعتذرت لربها.

قوله تعالى: {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى} [آل عمران: ٣٦]، أي: يا ربي إني "ولدت النذيرة أنثى".

=

=

وهذا اعتذار منها إلى الله أنها وضعتها أنثى، والأنثى ليس من العادة أن تخدم المسجد، فكأنها تعتذر إلى الله عز وجل من هذا النذر.

قال ابن عباس: "وكانت ترجو أن يكون ذكرا".

قال السدي: "فلما وضعت إذا هي جارية، فقالت تعتذر إلى الله: {رب إني وضعتها أنثى}".

قال الربيع: "يعني أن المرأة لا تستطيع ذلك".

قال عكرمة: "قالت: ليس في الكنيسة إلا الرجل، فلا ينبغي لإمرأة أن تكون مع الرجال، أمها تقوله، فذلك الذي منعها أن يجعلها في الكنيسة وينفذ نذرها بتحريرها في الكنيسة".

قال البيضاوي: "وإنما قالته تحسرًا وتحزنًا إلى ربها لأنها كانت ترجو أن تلد ذكرًا ولذلك نذرت تحريره".

قوله تعالى: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [آل عمران: ٣٦]، أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت".

قال الطبري: أي: "والله أعلم من كل خلقه بما وضعت".

قال البيضاوي: يعني: "أي بالشيء الذي وضعت. هو استئناف من الله تعالى تعظيمًا لموضوعها وتجهيلًا لها بشأنها".

وفي قوله تعالى: {وَضَعَتْ} [آل عمران: ٣٦]، قراءتان:

إحداهما: {بما وضعتْ}، بتسكين التاء، على أنه من قول الله عز وجل، قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي، ورواية حفص والمفضل عن عاصم.

والثانية: {بما وضعتُ}، بضم التاء، على أنها تاء المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، وهي قراءة عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن الضحاك فلما وضعتها فرأتها أنثى قالت: إني

=

=

وضعتها أنثى وأنت أعلم بما وضعت، يعني: برفع التاء".

فعلى قراءة {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ} بضم التاء تكون الجملة من باب الاحتراس، حتى لا يظن أنها تعتقد أن الله لم يعلم. فقالت: {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}، فلستُ أخبر الله بأمر يخفى عنه، بل إني أؤمن بأنه عالم بما وضعتُ، أما على قراءة (السكون) {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} فالكلام من الله، وفيه دفاع عن هذه المرأة بأن الله تعالى يعلم أنها لم تقل: {إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى} إخبارًا منها لله؛ لأنه سبحانه وتعالي زكاها بقوله: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}، هذا من وجه، ومن وجه آخر ليبيِّن عز وجل أن قولها: {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى} لا يعني أن الله لا يعلم بما وضعت بل هو عالم.

و{أَعْلَمُ} اسم تفضيل يدل علي أن المفضل زائد على المفضل عليه في هذا الوصف، كما لو قلت: فلان أكرم من فلان؛ معناه أن هذا المفضل وهو فلان زائد في الكرم على المفضل عليه. فـ (أعلم) هنا يعني: أعلم من كل أحد بما وضعت، ففيه إثبات العلم لله عز وجل مع الزيادة، وبهذا التقرير نعلم ضعف قول من قال: إن اسم التفضيل هنا بمعنى اسم الفاعل، وأن معنى قوله: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} أي: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وضعت)، فإن هذا القول لا شك قصور في تفسير كلام الله؛ لأن إثبات العلم بلا تفضيل أنقص من إثبات العلم مع التفضيل؛ لأنك إذا قلت: فلان عالم لا يمنع أن يكون غيره مساويًا له في العلم. لكن إذا قلت: فلان أعلم من فلان صار فاضلًا غيره في العلم وغيره مفضول. ولا أعلم -سبحان الله- كيف يفر بعض العلماء من إثبات المفاضلة بين الله سبحانه وتعالى وبين خلقه، مع أن المفاضلة لا تدل على أي نقص، بل اللفظ الذي يقتضي المشاركة هو الذي قد يحتمل النقص والمماثلة، لكن اللفظ الدال على المفاضلة ليس فيه نقص بوجه من الوجوه، فالله أعلم من كل أحد سواء كان هذا العلم مقيدًا أو مطلقًا.

=

=

وقوله: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} (ما): اسم موصول، والعائد ضمير مفعول به محذوف، أي: بما وَضَعَتْهُ أو بما وَضَعْتُهُ على القراءتين.

قوله تعالى: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى} [آل عمران: ٣٦]، "أي ليس الذكر الذي طَلَبْته كالأنثى التي وُهبتها".

قال عكرمة: "يعني: في المحيض، ولا ينبغي لامرأة أن تكون مع الرجال أمها تقول ذلك".

قال الضحاك: "أي لما جعلها له نذيرة، والنذيرة أن تعبد الله لأن الذكر هو أقوى على ذلك من الأنثى".

قال ابن كثير: "أي: في القوة والجَلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى".

قال الطبري: "قالت [ذلك] اعتذارًا إلى ربها مما كانت نذرتْ في حملها فحررته لخدمة ربها، لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقوم بها، وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدْس والقيام بخدمة الكنيسة، لما يعتريها من الحيض والنفاس".

قال قتادة: "كانت المرأة لا يستطاع أن يصنع بها ذلك يعني أن تحرر للكنيسة، فتجعل فيها، تقوم عليها وتكنسها فلا تبرحها مما يصيبها من الحيض والأذى، فعند ذلك قالت: {ليس الذكر كالأنثى}".

قال الربيع: "كانت امرأة عمران حرّرت لله ما في بطنها، وكانت على رَجاء أن يهبَ لها غلامًا، لأن المرأة لا تستطيع ذلك يعني القيامَ على الكنيسة لا تَبرحها، وتكنُسها لما يصيبها من الأذى".

قال السدي: "أن امرأة عمران ظنتّ أن ما في بطنها غلامٌ، فوهبته لله. فلما وضعت إذا هي جارية، فقالت تعتذر إلى الله: {رب إني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى}، تقول: إنما يحرّر الغلمان".

=

=

وقوله (ليس الذكر كالأنثى) هل هذا من كلامها أو من كلام الله؟
أما على قراءة {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} فالظاهر أن كونه من كلام الله أرجح؛ لأن قوله: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} من كلام الله، أما على قراءة {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ} فإن كونه من كلامها أرجح لئلا تتشتت الجمل.
وفي هذه الجملة بيان أن الذكر لا يماثل الأنثى، وكأن الإنسان يحدث نفسه ويقول: إن مقتضى الحال أن تكون العبارة: (وليس الأنثى كالذكر)؛ لأن العادة أن الأدنى هو الذي يشبه بالأعلى، فهنا: (ليس الأنثى كالذكر) أقرب إلى بادي الرأي من {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى}، ولهذا ادعى بعض العلماء أن في التشبيه قلبًا؛ والتشبيه المقلوب أسلوب من أساليب اللغة العربية، ولاسيما عند الشعراء في العصور الوسطي، حتى بالغ بعضهم في التشبيه المقلوب فيقول:

وبدا الصباح كأن غرته ... وجه الخليفة حين يمتدح

فالصباح الذي يملأ الأفق ويضيء الدنيا، كأنَّ غرته -بياضه- وجه الخليفة إذا امتدح، هذا من المبالغة الكريهة في الواقع. وقال بعضهم: إنه تشبيه على أصله ووضعه: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} وشرف الذكر على الأنثى يعلم من أدلة أخرى، ومن قرائن أخرى، ولكن ليس الذكر في خدمته لبيت المقدس كالأنثى.
وإذا انتفت مساواة الذكر للأنثى انتفت مساواة الأنثى للذكر؛ لأن التساوي يكون بين شيئين، فإذا انتفت المساواة في أحدهما لزم أن تكون منتفية في الآخر. فلا مساواة بين الذكر والأنثى بل لكل واحد منهما ميزاته وخصائصه، فالأنثى تفوق الرجل في شيء، والرجل يفوق الأنثي في شيء. لكن الغالب أن الصالح لخدمة المساجد هو الرجل؛ لأنه أقوى وأذكى وأعقل وأدوم في العمل. والأنثى إذا حاضت مثلًا لا تستطيع أن تخدم المسجد؛ لأنها سوف تخرج منه ولا تجلس، هذا إذا كانت شريعتهم كشريعتنا، وأيضًا الأنثى لا تتحمل من الأعمال ما هو شاق
=

=

بل هي أضعف من الرجل، وإن كانت قد يكون عندها من الجلد والصبر أكثر مما عند الرجل في معاناة الأشغال لا في معاناة المصائب، فإن المرأة في معاناة المصائب أدنى بكثير من الرجل كما هو معروف.

قوله تعالى: {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} [آل عمران: ٣٦]، " أي: وإني "أسميت هذه الأنثى مريم".

قال الثعلبي: "وهي بلغتهم: الخادمة والعبادة، وكانت أجمل النساء في وقتها وأفضلها".

قال ابن كثير: "فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من قبلنا".

وهذا الاسم إما أن يكون مشهورًا عندهم أو أنها اختارته لأمر يريده الله عز وجل، وهذه قضية عين، والله أعلم ما هو السبب أنها اختارت هذا الاسم.

قوله تعالى: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [آل عمران: ٣٦]، أي: وإني "أُجيرها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم".

عن أبي مالك قوله: {الرجيم}، يعني: ملعون".

قال ابن كثير: "أي: عَوَّذتها بالله، عز وجل، من شر الشيطان، وعوذت ذريتها، وهو ولدها عيسى، عليه السلام".

عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله ﷺ ما من نَفْس مولود يُولد إلا والشيطان ينال منه تلك الطعنة، ولها يَستهلّ الصبي، إلا ما كان من مريم ابنة عمران، فإنها لما وضعتها قالت: {رب إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم}، فضُرب دُونها حجاب، فطعَن فيه".وفي رواية أخرى عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله ﷺ: كل مولود يولد من بني آدم يمسُّه الشيطان بإصبعه، إلا مريم وابنها".

وعن ابن عباس، قال: "ما ولد مولود إلا وقد استهلّ، غير المسيح ابن مريم، لم

=

=

يسلَّط عليه الشيطان ولم يَنْهَزْه".

وقال وهب بن منبه: "لما وُلد عيسى أتت الشياطينُ إبليس، فقالوا: أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها! فقال: هذا في حادث حدث! وقال: مكانكم! فطارَ حتى جاء خَافقي الأرض، فلم يجد شيئًا، ثم جاء البحار فلم يجد شيئًا، ثم طار أيضًا فوجد عيسى قد ولد عند مِذْوَد حمار، وإذا الملائكة قد حفَّت حوله، فرجع إليهم فقال: إن نبيًّا قد ولد البارحة، ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا أنا بحضرتها، إلا هذه! فَأَيِسوا أن تُعبد الأصنام بعد هذه الليلة، ولكن ائتوا بني آدم من قبل الخفَّة والعجَلة".

{أُعِيذُهَا}: أي أستجير بك لها؛ لأن الاستعاذة معناها الاستجارة من أمر مكروه، ولهذا نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ونستعيذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال. قالوا -أي أهل اللغة-: (العياذ من المكروه، واللياذ في رجاء المحبوب) وأنشدوا على ذلك قول الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

وهو يخاطب ملكًا من الملوك، وهذا الوصف لا يليق إلا بالله عز وجل. لكن الشعراء يتبعهم الغاوون.

إذن {أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}، يعني أستجير بك لها من الشيطان الرجيم، والشيطان هو أبو الجن كما قال الله تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ} [الكهف: ٥٠]، وهنا نقول: شيطان من شطن أو من شاط، قولان: فمنهم من قال: إنه من شطن أي بَعُدَ، ومنهم من قال: من شاط أي غضب؛ لأن طبيعة الشيطان الغضب والسرعة وعدم التأني، وهو أيضًا قد بَعُدَ من رحمة الله، ولكن الظاهر أنه من شطن، وأن النون أصلية، ولذلك لا يمنع من الصرف.

=

=

وقولها: {الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}، الرجيم: بمعنى المرجوم، وأصل الرجم القذف بالحجارة؛ ومنه: رجم الزاني، وعلى هذا فيكون في الكلام استعارة، أي أننا استعرنا الرجم بالحجارة الدال على إبعاد المرجوم للمُبْعَد المطرود. فالرجيم هنا: فعيل بمعنى مفعول؛ أي مطرود مبعد عن رحمة الله عز وجل، ومن العلماء من قال: إن الرجم يأتي بمعنى الطرد حقيقة لا استعارة، وإنما استعاذت بالله لها من الشيطان الرجيم؛ لأن الشيطان الرجيم مبعد عن رحمة الله، والمبعد عن الرحمة يريد أن يبعد كل إنسان عن الرحمة لاسيما بنو آدم؛ لأن بني آدم أعداء للشيطان، قال تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر: ٦] فهو عدو، والعدو لا يريد من عدوه إلا ما فيه هلاكه، ولهذا استعاذت بربها عز وجل لهذه الأنثى من الشيطان الرجيم لئلا يغويها ويضلها، قال الله تعالي: {وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ٦٠].

وقوله تعالى: {وَذُرِّيَّتَهَا}.

لم يكن لها ذرية إلا عيسى ابن مريم، وهل لعيسى ذرية؟ الله أعلم، قد يكون له ذرية، وقد لا يكون، لكن مهما كان هي قالت: {وَذُرِّيَّتَهَا} بناءً على الأصل والغالب أن الأنثى تتزوج ويكون لها ذرية، ولكن الله عز وجل أراد لهذه المرأة شيئًا آخر.

قوله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ} [آل عمران: ٣٧]، أي: قبلها الله قبولًا حسنًا".

قال شرحبيل بن سعد: "وقبل الله أنثاهم أن يجعلوها في البيعة".

قال الماوردي: "معناه أنه رضيها في النذر الذي نذرته بإخلاص العبادة في بيت المقدس".

قال ابن كثير: "يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة".

=

=

قال البيضاوي: أي: "فرضي بها في النذر مكان الذكر بوجه حسن يقبل به النذائر، وهو إقامتها مقام الذكر، أو تسلمها عقيب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسدانة".
تقبل: قال أهل اللغة (تقبل): بمعني قَبل، ولهذا قال: (قبول) والمصدر الموافق لتقبل (تقبلًا)، أما (قبول) فهو في هذا الموضع اسم مصدر وليس بمصدر كقوله: {وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} [نوح: ١٧]. ولم يقل: إنباتًا، لكن هل تَقَبَّلَ وقَبِل بمعنى واحد أو أن في تقبّل شدة عناية ومبالغة؟ قولان: قيل: إن تَقَبَّل بمعنى قَبِل كتعجَّب بمعنى عجب، وتبرَّأ بمعنى برئ، تقول: تبرأ من فلان بمعنى برئ منه، والقول الثاني: أن تَقَبّل أبلغ من قَبل، وذلك أن الغالب أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، ففيها شدة العناية والمبالغة.
وقوله تعالى: {رَبُّهَا}، الربُّ: بمعنى الخالق، المالك، المدبر، فإذا أضيفت الربوبية لله فهذا معناها، أنه الخالق فلا خالق غيره، والمالك فلا مالك غيره، والمدبر فلا مدبر غيره، وهذا النفي باعتبار الإطلاق فلا خالق على سبيل الإطلاق إلا الله، وإذا أضيف الخلق إلى غيره فإنما هو باعتبار التغيير والتصيير لا باعتبار الأصل. فخلق الباب من الخشبة ليس أصليًا بل هو تغيير وتصيير، صيَّر الخشبة بابًا فقال: خلقهُ، لكن أصل هذا الخشب إنما خلقه الله عز وجل، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يخلق خشبة واحدة ولا غصن شجرة. فالمالك على الإطلاق هو الله، وإضافة الملك لغير الله إضافة جزئية، وإلا فقد قال الله تعالى: {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} [المؤمنون: ٦]، فأضاف الملك إلى الإنسان، وقال تعالى: {أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ} [النور: ٦١]، فأضافه أيضًا إلى الإنسان؛ لكن هذا ملك مقيد غاية التقييد. والمدبر كذلك، فالتدبير على إطلاقه هو لله عز وجل، أما الإنسان فإنه وإن أضيف إليه التدبير فهو تدبير خاص محصور على كل حال.
وربوبية الله نوعان: عامة، وخاصة {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [مريم:
=

=

٦٥] هذه عامة، الخاصة مثل: {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: ١٢٢]، وهنا {رَبُّهَا} من الخاصة. واعلم أن كل خاص من الربوبية والمعية والسمع والبصر وما أشبه ذلك مما قال العلماء إنه ينقسم إلى عام وخاص، أن الخاص يتضمن العام ولا عكس. فكل من كان الله ربه وجه الخصوص فهو ربه على وجه العموم، وكل من كان الله معه على وجه الخصوص فهو معه على وجه العموم، وكل من سمعه الله على وجه الخصوص فقد سمعه على وجه العموم، وهلم جرًّا. وهنا أضاف الربوبية إلى مريم؛ لأنه عز وجل تقبلها هذا القبول الحسن.

وقوله تعالى: {بِقَبُولٍ حَسَنٍ}.

والقبول الحسن من الله أنه سبحانه وتعالى يسَّرها لليسرى وسهَّل أمرها وجعلها من خيرة نساء العالمين، حتى ألحقها بالرجال في صلاحها، فقال: {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [التحريم: ١٢]، وتأمل أنه قال: من القانتين، ولم يقل: من القانتات؛ لأنه كما جاء في الحديث: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا قليل".

قوله تعالى: {وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} [آل عمران: ٣٧]، " أي: ربّاها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة".

قال الماوردي: "يعني: أنشأها إنشاءً حسنًا في غذائها وحسن تربيتها".

قال ابن كثير: "أي: جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا، ويَسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين".

قال عباد بن منصور: "سألت الحسن فقال: {تقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتا حسنا}، وتقارعها القوم فقرع زكريا".

فقوله: {وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}، يعود إلى المعنى، وقد يعود إلى الحس، فالمعنى: أنبتها نباتًا حسنًا يعني في كمال الآداب والعفة والحشمة وغير ذلك، وقد يكون

=

أنبتها نباتًا حسنًا باعتبار الجسم؛ يعني أنه نماها تنمية جيدة، لم يتعثر فيها جسمها، حتى إن بعضهم -ولعلها من الإسرائيليات- قال: إنها تنمو في العام ما ينموه غيرها في عامين، والله أعلم.

قوله تعالى: {وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا} [آل عمران: ٣٧]، " أي: جعل زكريا كافلًا لها ومتعهدًا للقيام بمصالحها".

قال الربيع: "يقول: ضمها إليه".

قال مجاهد: "ساهمهم بقلمه".

قال قتادة: "تساهموا على مريم أيهم يكفلها".

قال السدي: "كان زكريا أفضلهم يومئذ، وكان نبيهم، وكانت أخت مريم تحته، فلما أتوا بها اقترعوا عليها، وقال لهم زكريا: أنا أحقكم بها تحتي أختها، فأبوا فخرجوا إلى نهر الأردن، فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها، أيهم يقوم قلمه فيكفلها، فجرت الأقلام وقام قلم زكريا على هيئته كأنه في طين، وأخذ الجارية فذلك قوله تعالى: {وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا}".

وفي قوله تعالى: {وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا} [آل عمران: ٣٧]، قراءتان:

إحداهما: {وكفلها}، مفتوحة الفاء خفيفة،و{زكرياء}، رفع ممدود، قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر.

والثانية: {وكفّلها} مشددة الفاء،و{زكرياَء}، نصبا، قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر، وكان يمد {زكرياء} في كل القرآن.

وهذا أيضًا من التيسير أن الله يسَّر لها من يكفلها من الرسل، ولا شك أن الإنسان إذا كان عنده كافل مستقيم صالح كان هذا من أسباب صلاحه واستقامته، وإذا كان عند فاسق كان بالعكس. ولهذا قال العلماء: لا يجوز أن يترك الطفل المحضون بيد شخص لا يصونه ولا يصلحه.

=

قوله تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ} [آل عمران: ٣٧]، "أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها".

قال السعدي: "وهو [أي المحراب] محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها".

قال الطبري: "وأما " المحراب "، فهو مقدم كل مجلس ومصلًّى، وهو سيد المجالس وأشرفُها وأكرمُها، وكذلك هو من المساجد، ومنه قول عديّ بن زيد:

كَدُمَى العَاجِ فِي المَحَارِيبِ أَوْ... كالبَيْضِ فِي الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرُ

و" المحاريب " جمع " محراب "، وقد يجمع على " محارب".

وقوله: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ} فيها القراءتان في زكريا،و{الْمِحْرَابَ} المحراب مِفْعال من الحرب، وهو مكان العبادة، وليس المحراب هو طاق القبلة كما هو عند الناس، ورأيت في بعض المساجد مكتوب على طاق القبلة على القوس {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ}، يجعلون الإمام مريم وهم لا يشعرون، ويخطئون أيضًا في المعنى؛ لأن المحراب مكان العبادة سواء كان طاقًا أو مربعًا أو حجرة، ولهذا قال الله تعالى فى قصة داود: {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} [ص: ٢١] وسمي بذلك لأن المتعبد فيه يحارب الشيطان.

قوله تعالى: {وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا} [آل عمران: ٣٧]، أي: "وجد عندها فاكهة وطعامًا".

قال الخطيب: "أي رزقا متجددا، ما يراه اليوم غير ما رآه أمس، وغير ما سيراه غدا".

قال ابن عباس: "وجد عندها عنبا في مكتل في غير حينه".

وقال عكرمة: "فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء".

وقال مجاهد: "الرمان والعنب في غير حينه". وروي عن سعيد بن جبير وجابر بن

=

=

زيد، والضحاك وإبراهيم النخعي، وقتادة والربيع بن أنس والسدي، وعطية العوفي نحو ذلك.

وفي قوله تعالى: {وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} [آل عمران: ٣٧]، ثلاثة اوجه:

أحدهما: أن الرزق الذي أتاها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وسعيد، وإبراهيم، والربيع.

والثاني: أنها لم تطعم ثديًا قط حتى تكلمت في المهد، وإنما كان يأتيها رزقها من الجنة، وهذا قول الحسن.

والثالث: أن المعنى: وجد عندها "عرما أو صحفا فيها علم. قاله مجاهد.

واختلف في السبب الذي يأتيها هذا الرزق لأجله على قولين:

أحدهما: أنه كان يأتيها بدعوة زكريا لها.

والثاني: أنه كان ذلك يأتيها لنبوة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

{وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا}. وهي امرأة منقطعة للعبادة دائمًا في محرابها ويجد عندها رزقًا؛ والرزق هنا ما يقوم به البدن، يعني رزقًا تأكله ليقوم بدنها وتحفظ حياتها. قال بعض المفسرين -وهو من الإسرائيليات- يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، وهذا لا داعي له، فإنه إذا وجد عند فاكهة الصيف في الصيف، وفاكهة الشتاء في الشتاء وهي امرأة متعبدة منقطعة للعبادة؛ فهو آية.

قوله تعالى: {قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا} [آل عمران: ٣٧]، أي: قال يا مريم "من أين لك هذا؟".

قال الضحاك: "يقول: من أتاك بهذا؟".

قال أبو مالك قوله: {أنى}، يعني: من أين؟".

=

=

قال البيضاوي: أي: "من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبواب مغلقة عليك، وهو دليل جواز الكرامة للأولياء. جعل ذلك معجزة زكريا يدفعه اشتباه الأمر عليه".

قال الزجاج: "وإنما سأل زكريا عن الرزق لأنه خاف أن يأتيها - من غير جهته فتبين عنده أنه من عند الله، وذلك من آيات مريم، قال الله تبارك وتعالى: {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ٩١] فمن آياتها أنها أول امرأة قُبلت في نذر في المتعبد، ومنها أن الله أنشأ فيها عيسى - عليه السلام - من كلمة ألقاها إليها، ومنها أن الله عزَّ وجلَّ - غذاها برزق من عنده لم يجْرِهِ على يد عبد من عبيده، وقد قيل في التفسير أنَّها لم تُلْقَمْ ثديًا قط".

أي: من أين لك هذا؟ وخاطبها بقوله: يا مريم، إشارة إلى أنها في حال لا تقتضي أن يكون عندها ذلك؛ لأنها امرأة لا تكتسب منقطعة للعبادة، والمنقطع للعبادة ولو كان ذكرًا لا يتيسر له الرزق. ولهذا ناداها باسمها قال: يا مريم؛ يعني انتبهي أيتها الأنثى كيف يجيئك هذا الرزق {أَنَّى لَكِ هَذَا}، فكان جوابها جوابًا عجيبًا {قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ}، وكلمة {مِنْ عِنْدِ اللهِ} لا يلزم أن يكون الله تعالى ينزلها من السماء إليها، بل قد يكون ذلك بتسخير الله لها من يأتي لها بذلك الرزق، ولا يلزم أن يكون ينزل من السماء أو يأتي به جبريل.

قوله تعالى: {قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ} [آل عمران: ٣٧]، " أى: قالت له: إن هذا الرزق من عند الله- تعالى-".

قال البغوي"أي: من قطف الجنة".

قال أبو السعود: أي: "فلا تعجبْ ولا تستبعد".

قال ابن عباس: "فإنه وجد عندها الفاكهة الغضة حين لا توجد الفاكهة عند أحد، وكان زكريا يقول: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من

=

=

يشاء بغير حساب".

وفي قوله تعالى: {قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ}، وجهان:

أحدهما: أن الله تعالى كان يأتيها بالرزق.

والثاني: أن بعض الصالحين من عباده سخره الله تعالى لها لطفًا منه بها حتى يأتيها رزقها.

قال الماوردي: "والأول أشبه".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: ٣٧]، أي: إن الله يرزق من يشاء "رزقًا واسعًا بغير جهد ولا تعب".

قال الزجاج: "أي بغير تقتير".

قال البيضاوي: أي: "بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضلًا به. وهو يحتمل أن يكون من كلامهما وأن يكون من كلام الله تعالى".

الرزق: بمعنى العطاء؛ والعطاء ينقسم إلى قسمين: عطاء كوني، وعطاء شرعي.

فالعطاء الكوني: ما يرزق الله به الإنسان والحيوان، الحلال والحرام، لا يختص بالمؤمنين ولا بالطيب من الرزق.

والعطاء الشرعي: وهو ما يعطاه المؤمن من الرزق الحلال، فهو الرزق الخاص الذي ليس فيه تبعة، ويشمل أيضًا العطاء الشرعي ما ثبت إعطاؤه بمقتضى الشرع كإعطاء الفقراء من الزكاة مثلًا، وإعطاء الغانمين من الغنيمة، فهذا عطاء وإيتاء شرعي، ودليله قوله تعالى: {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ} [الحشر: ٧]، وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ} [التوبة: ٥٩ - ٦٠].

=

وقوله: {مَنْ يَشَاءُ}، فالرزق لا يكون إلا بمشيئة الله، وهي مربوطة بالحكمة، يعطي من يشاء لحكمة، ويمنع من يشاء لحكمة، والدليل على أن كل ما أثبت الله فيه المشيئة فهو مقرون بحكمة، قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: ٣٠].

وقوله: {بِغَيْرِ حِسَابٍ}، أي بغير مكافأة، يُطعِم ولا يُطْعَم، يَرزُق ولا يُرْزَق، {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: ٥٧، ٥٨]، بخلاف غيره، فإنه قد يُعْطي ليُعْطى، أما الله عز وجل فإنه يعطي لا ليعطى بل يرزق بغير حساب. وأما الحساب ما أعطاه الله من الرزق من أين اكتسبه وفيم أنفقه وما أشبه ذلك، فإن هذا سوف يكون، قال الله تعالى: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر: ٨]، يعني لا يحاسب خلقه ليكافئوه، ولكن يحاسبهم لينظر أو ليعلم عز وجل ماذا أنفقوا فيما أعطاهم.

* مسألة: في الآية: جواز النذر واستحبابه للعبادة في شريعتهم، وفي ظاهر الآية: أن امرأة عمران نذرت بعد حملها؛ طمعا في الولد الذكر، وقيل: إنها نذرت قبل حملها؛ طمعا في الذرية وأن يكون ذكرا.

وقد جاء النهي عن النبي ﷺ في النذر، وقال: (إنه لا يرد شيئا، ولكنه يستخرج به من البخيل)، وإنما نهي عن النذر؛ لأن الناذر يلزم نفسه بعمل صالح إذا رزقه الله نعمة، أو كشف عنه نقمة، وهذا يحمله على إساءة الظن بربه، فيقع في النفس أن الله لا يعطي عبده ويعافيه إلا إذا تصدق له أو صلى وزكى وصام ونحر وغير ذلك من العبادات، وهذا ينافي كمال ربوبية الله لعباده ورزقه للإنس والجن وإن عصوه وتكفله برزق البهائم والذر، وحق الله في عباده أن يعبدوه وإن حرمهم، ولا يعصوه وإن وهبهم؛ فالعطاء يستوجب الشكر؛ والمنع يستوجب الصبر؛ وكلاهما يستلزمان دوام العبادة والافتقار لله.

=

ويتضمن النذر عجز النفس عن التقرب لله طواعية إلا بإلزام نفسها بالنذر، وحق الله على عباده أن يطاع ولا يعصى، برضا النفس وتسليمها.

وإذا احتاج المؤمن إلى النفع ودفع الضر فإنه يدعو ربه ويلح في عبادته؛ كحال نوح وإبراهيم وأيوب وموسى وعيسى ومحمد؛ مسهم الضر، وما ذكر الله أنهم نذروا؛ وإنما صبروا ودعوا، كحال يونس وهو في بطن الحوت؛ قال: {لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} [الأنبياء: ٨٧]، وكحال أيوب وقد طال مرضه؛ فقال: إني {مسني الضر وأنت أرحم الراحمين (٨٣) فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر} [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

والنفوس الشحيحة لا تخرج مالها إلا مع كره وإلزام، والمؤمن يكتفي بدفع شحه بإيمانه بحق ربه عليه، {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} [الحشر: ٩، والتغابن: ١٦].

ومن نذر طاعة، وجب عليه الوفاء بنذره؛ لقوله ﷺ: (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه)، وقد مدح الله الموفين بالنذر في كتابه، فقال: {يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا} [الإنسان: ٧]، وقد جاء ذم آخر الزمان لكثرة النذر بلا وفاء فيه؛ كما في الصحيح عن عمران؛ قال: قال ﷺ: (خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران: لا أدري: ذكر ثنتين أو ثلاثا بعد قرنه - ثم يجيء قوم، ينذرون ولا يفون).

وفي قوله تعالى: {فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم}:

إبطال امرأة عمران ليمينها؛ لأن الوفاء بها أصبح حراما، فهي تطمع في ولد ذكر، فولدت أنثى، والأنثى لا تقيم في دور العبادة، فتعتكف وتنقطع وسط الرجال، فتختلط بهم، والوفاء بنذر الطاعة واجب، وإنما أبطلت نذرها؛ لأنه لا وفاء لنذر

=

=

في معصية الله، وسبب المعصية في وفائها يظهر في كلام السلف في أمرين.

أولا: اختلاطها بالرجال؛ فلا يجوز أن تقيم وتديم الجلوس بين الرجال الأجانب؛ فروى ابن جرير، عن القاسم بن أبي بزة، عن عكرمة مولى ابن عباس؛ قال: "لا ينبغي لامرأة أن تكون مع الرحال".

وعن معمر، عن قتادة: {قالت رب إني وضعتها أنثى}، وإنما كانوا يحررون الغلمان؛ {وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم}. وقال السدي: إنما يحرر الغلمان؛ يعني: للكنيسة.

وفي هذا دليل على حرمة اختلاط الرجال بالنساء في المجالس وأماكن العمل الذي يتضمن قرارا، وكذلك مجالس التعليم، وتحريم اختلاط الرجال بالنساء في المجالس والمجامع الدائمة ثابت في سائر الشرائع، وكانت النساء من بني إسرائيل يصلين في دور العبادة معزولات عن الرجال، فلما استشرفن للرجال، منعن من ذلك؛ كما روي عن عائشة وابن مسعود.

والاختلاط على نوعين:

النوع الأول: اختلاط عابر، وهو مرور النساء في الطريق والسوق؛ لقضاء الحاجات، وصلة الأرحام، والشراء والبيع؛ فهذا جائز عند الحاجة، وقد أذن الله لأمهات المؤمنين في خروجهن لحاجاتهن، وأسقط عن النساء صلاة الجماعة؛ لفضل قرارهن في البيوت، والواجبات لا تسقط إلا لأجل مقصد عظيم.

النوع الثاني: اختلاط دائم، وهو اختلاط المجالس والتعليم والعمل؛ فهذا محرم بالاتفاق، ولا يعلم في مذهب عند السلف والخلف إباحته، وإنما جرى في كثير من بلدان المسلمين بعد زمن احتلال النصارى لكثير من بلدان المسلمين؛ فاختلطوا بهم وطال عليهم الأمد، فتطبعوا عليه؛ وإلا فلا يعرف قبل عقود قريبة في مصر والشام والعراق واليمن فضلا عن جزيرة العرب.

=

=

وقد بينت أحكام الاختلاط في رسالة مستقلة فتنظر، ويأتي مزيد نظر في هذا الاختلاط عند قول الله تعالى: {تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم} [آل عمران: ٦١]، وقوله: {لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء} [الحجرات: ١١]، وقوله تعالى في قصة موسى في القصص: {ووجد من دونهم امرأتين تذودان} [القصص: ٢٣]، وفي قوله في هود: {وامرأته قائمة فضحكت} [هود: ٧١]، وفي قوله في طه والقصص: {فقال لأهله امكثوا} [طه: ١٠]، {قال لأهله امكثوا} [القصص: ٢٩]، وتقدم الإشارة إلى ذلك في قوله: {فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء} [البقرة: ٢٨٢].

ثانيا: أن المرأة تحيض ولا تجد دوما ما تستثفر وتتحفظ به، فيتنجس المسجد إذا أدامت الاعتكاف فيه بلا انقطاع؛ وبهذا قال قتادة والربيع وعكرمة.

وفي الحديث: دليل على فضل المساجد وصيانتها وتطييبها؛ فعن عائشة؛ قالت: "أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب".

* ويجوز للحائض العبور للحاجة في المسجد إذا أمنت التنجيس، قياسا على الجنب: {ولا جنبا إلا عابري سبيل} [النساء: ٤٣]؛ قال به الشافعي وأحمد في المشهور عنه؛ وهذا على القول بأن المراد بما يجتنبه الجنب هو موضع الصلاة.

ومنهم من قال: المنع لقرب الصلاة، لا موضعها.

وهما قولان للمفسرين من السلف، ويأتي بيانه في سورة النساء بإذن الله.

ومنع من المرور الحنفية؛ لأن الحيض أشد من الجنابة؛ فلا يرونه يقاس عليه.

وأما مكث الحائض في المسجد، فقد اختلف فيه العلماء على قولين:

الأول: المنع، وهو قول الأكثر، وهو الأشهر، ومن منع من العبور فيمنع من المكث من باب أولى.

=

=

الثاني: الجواز عند أمن تنجيس المسجد؛ وذلك لأن النبي ﷺ قال لعائشة لما حاضت في حجها: (اصنعي ما يصنع الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت)، وظاهر الحديث: أن لها أن تدخل البيت بلا طواف، فلم يمنعها من دخوله، وخص المنع بالطواف.

ولأن المسلم لا ينجس كما في الحديث، ومنع الجنب توقيفي، وأما الحائض فنجاستها في جيضها، فإن تحفظت واستثفرت وأمنت من تنجيس المسجد، جاز مكثها فيه.

وبهذا قال مالك في قول، وأحمد في رواية، والمزني وابن المنذر وغيرهم.

وأما حديث: (لا أحل المسجد لحائض ولا جنب)، فقد رواه أبو داود؛ من حديث جسرة بنت دجاجة، عن عائشة، ولا يصح؛ أنكره أحمد والبخاري والبيهقي وغيرهم.

وفي "الصحيح"، عن عائشة: أن وليدة كانت سوداء لحي من العرب، فأعتقوها فأسلمت، قالت عائشة: "فكان لها خباء في المسجد أو حفش".

ولم يذكر منعها أو سؤالها عن حالها، وحيض النساء أطول زمنا من الجنابة؛ فهو بالأيام، والجنابة عارضة ترفع بالاختيار، ويجب رفعها عد دخول الصلاة، بخلاف الحيض؛ فهو باق لا ينزل ولا يرفع بالاختيار؛ فالحاجة لبيان حكم دخول الحائض ومكثها في المسجد ظاهرة؛ كالجنابة أو قريبا منها، ولكن غشيان الرجال للمساجد أكثر من النساء، والمرأة لا تقصد المسجد عادة إلا لصلاة، والصلاة مرفوعة عن الحائض، ولا تبيت فيه كالرجال، ولكن قد تقصده لغير صلاة كنظافته وتطييبه؛ قد كان لمسجد رسول الله ﷺ أمرأة سوداء تقم المسجد؛ كما في "الصحيحين".

واحتج المانعون والمجيزون بما روته عائشة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ:

=

=

(ناوليني الخمرة من المسجد)، قالت: فقلت: إني حائض! فقال: (إن حيضتك ليست في يدك).

فمن أخذ منه التحريم، قال: إن النبي ﷺ أقرها على منع دخولها؛ لعلمها به من قبل، ولكنه أذن لها في التناول لا المكث.

ومن استدل بالجواز أخذه من قوله: (إن حيضتك ليست في يدك) على معنييه: إما أنك لا تملكين حيضك؛ فهو من الله فلا يمنعك شيئا، وإما أن الحيض في الفرج لا في اليد، قالوا: ويظهر من كلا المعنيين الإذن في الدخول، ولم يقيد بزمن، ولا حال ما أمن تنجيس المكان.

وقد روى أبو حفص وابن بطة؛ من حديث عبد الرزاق؛ حدثنا الثوري، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: "كن المعتكفات إذا حضن، أمر رسول الله بإخراجهن من المسجد، وأن يضربن الأخبية في رحبة المسجد، حتى يطهرن".

وهذا الخبر لا أعلمه إلا في كتب الأصحاب من الحنابلة، وجود إسناده ابن مفلح، ولا أعلمه يروى إلا من حديث عبد الرزاق تفرد به عن الثوري.

وقد حمل هذا على حفظ المسجد من التنجيس؛ لانعدام ما يتوقى به نساء ذلك الزمن، ولأن الحيض يطول فيصعب الاحتراز من تنجيس المسجد به.

وأمر النبي ﷺ النساء الحيض أن يعتزلن مصلى العيد؛ فذلك حتى لا يقطعن صفوف صلاة النساء، ولم يكونوا يصلون في مسجد؛ وإنما كانت صلاتهم في فلاة.

وأما عرق الجنب والحائض، فلا خلاف في طهارته، ويأتي مزيد بيان في المسألة في سورة النساء، في قوله تعالى: {لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى} الآية [٤٣].

* وفي قوله: {وإني سميتها مريم}: تسمية لمولود عند ولادته فيما يظهر؛ وذلك أنها سمته عندما عرفت جنسه ذكرا أم أنثى، وقرينة تأكيد ذلك قولها: {وإني أعيذها

=

=

بك وذريتها من الشيطان الرجيم}، فسمتها وعوذتها، والتعويذ يكون في أول الولادة غالبا.

وقد كان النبي ﷺ يسمي المولود عد تحنيكه؛ كما ثبت في "الصحيح"، عن أنس وغيره، وقد سمى ولده إبراهيم يوم ولادته؛ كما في "صحيح مسلم"؛ قال رسول الله ﷺ: (ولد لي الليلة غلام، فسميته باسم أبي إبرهيم).

والتسمية قبل الولادة لا بأس بها، عند معرفة جنس المولود، أو يسميه إن كان ذكرا ففلان، وإن كانت أنثى ففلانة، وقد بشر الله مريم بعيسى، وسماه لها قبل ولادته؛ قال تعالى: {إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم} [آل عمران: ٤٥].

وفي بشارة الله لزكريا بولده وتسميته له يحيى قبل حمل أمه به: {فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى} [آل عمران: ٣٩].

وقد بشر الله إبراهيم وزوجه بابنهما، وسماه إسحاق، وبابن الابن قبل ولادة الابن، وسماه يعقوب؛ قال الله: {فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب} [هود: ٧١].

وقد جاء في "المسند"؛ من حديث سعيد بن أبي عروبة، وأبان العطار؛ كلاهما عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن رسول الله ﷺ؛ قال: (كل غلام رهين بعقيقته، تذبح عنه يوم سابعه، ويحلق رأسه، ويسمى).

ورواه همام، عن قتادة، به، لكن قال: "ويدمى"، بدلا من "ويسمى"؛ أخرجه أبو داود، وقال: وهم همام، وليس يؤخذ بهذا.

وحديث سمرة ليس بصريح في أن التسمية تكون في السابع؛ وإنما هو صريح في العقيقة، وما في "الصحيحين" أصرح وأصح.

وفي تعويذ امرأة عمران: استحباب الدعاء للأحفاد مع الأولاد قبل مجيء الأولاد.

=

=

* وفي الآية: دليل على مشروعية الحضانة في قوله: {وكفلها زكريا}، وقد ذكر الله الحضانة في كتابه في مواضع عديدة تصريحا وإشارة؛ كما في قوله تعالى: {وربائبكم اللاتي في حجوركم} [النساء: ٢٣]؛ لأن الحجور جمع حجر، ولا يكون في الحجر إلا طفل رضيع، وهذه بداية الحضانة، وفي قوله: {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين} [البقرة: ٢٣٣]؛ لتضمن الرضاعة للحضانة، وفي قوله تعالى: {وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف} [البقرة: ٢٣٣].

والحضانة هي حفظ إنسان لا يستقل بنفسه ورعايته؛ كالصبي والمجنون، وقد غلب استعماله للصغير، وعليه استعمل لفظ الحضانة؛ لأنه يكون في الحضن والحجر، والكفالة أوسع من معنى الحضانة في اللغة والشرع.

وذكر الله الحضانة والكفالة في كتابه؛ لحق الصبي في الرعاية والحفظ، وحق والديه في انتظام حياة ابنهما بلا خوف، وقطعا للنزاع الذي يقع بين الزوجين أو أهلهما عند الطلاق أو الوفاة.

وقوله: {وكفلها زكريا} أي: ضمها إليه بعد موت والديها، فاستهموا على كفالتها؛ كما في قوله تعالى: {وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} [آل عمران: ٤٤].

قال مجاهد: "سهمهم بقلمه".

وقال الحسن: "تقارعها القوم، فقرع زكريا".

وفي قراءة أهل الحجاز والبصرة: "وكفلها" بالتخفيف؛ أي ضمها هو إليه.

وبين مريم وزكريا قرابة، واختلف في تعيين القرابة:

فقيل: خالتها تحت زكريا، وهي أم يحيى، وهو قول ابن إسحاق. وقال السدي وقتادة: كانت أخت مريم تحت زكريا؛ وهذا أقرب لما في "الصحيح"؛ قال ﷺ:

=

=
(إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة)، وقد يتجوز العرب فينزلون أولاد الأولاد بمنزلة آبائهم مع أولاد أعمام الآباء وخالاتهم.

* منزلة الخالة في الحضانة.

وكفل الله مريم زكريا؛ لأن خالتها تحته، والخالة بمنزلة الأم، وإنما جعل الكفالة لزكريا؛ لأن زكريا يكفل زوجته، وزوجته تكفل مريم؛ فوقع الجميع تحت كفالة زكريا؛ لأن الرجل يقوم بالنفقة سكنى وكسوة وطعاما، وفي هذا إشارة إلى قوامة الرجل وولايته.

ولأن الخالة بمنزلة الأم؛ لما ثبت في البخاري "أن عليا وجعفرا وزيد بن حارثة رضي الله عنهم، تنازعوا في حضانة بنت حمزة بعد أن استشهد، فقال علي: بنت عمي، وعندي بنت رسول الله ﷺ، وقال زيد: بنت أخي، وكان عليه السلام قد آخى بين زيد وحمزة، وقال جعفر: الحضانة لي؛ هي بنت عمي وعندي خالتها، فقال عليه السلام: (الخالة بمنزلة الأم)، وسلمها إلى جعفر وجعل لخالتها الحضانة، وهي ذات زوج".

ولا يختلف العلماء أن الأم أحق بحضانة ولدها عند فراقها من زوجها، أو عند وفاته، أو غيابه؛ ما لم تتزوج، قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد؛ كابن المنذر وابن عبد البر وغيرهما.

قال ابن عبد البر: "لا أعلم خلافا بين السلف من العلماء في المرأة المطلقة إذا لم تتزوج: أنها أحق بولدها من أبيه، ما دام طفلا صغيرا لا يميز شيئا، إذا كان عندها في حرز وكفاية، ولم يثبت منها فسق، ولا تبرج".

وإذا تزوجت المرأة، سقط حقها في الحضانة بلا خلاف؛ لما روى عمرو بن العاص أن امرأة قالت يا رسول الله، إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وحجري له حواء، وثديي له سقاء، وزعم أبوه أنه ينزعه مني؟ ! فقال رسول الله ﷺ: (أنت
=

=

أحق به ما لم تنكحي)؛ أخرجه أحمد وأبو داود؛ من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

* وإنما قدمت الأم في حضانة الولد؛ لأن ذلك في صالحها، وصالح ولدها، وصالح الأبوين جميعا، وهو إصلاح من جهات ثلاث:

أولا: لأنه أصلح لنفس الأم؛ فإن الأم أكثر تعلقا بولدها من أبيه، وبعده عنها أشد على نفسها منه على نفس الوالد لو ابتعد عنه ابنه، وجعل ولدها في حضانتها أرحم بها وأرفق بحالها، وهي أحوج إليه من والده، مع أن الصبي الصغير في أول رضاعه لا يفرق بين أمه وغيرها.

ثانيا: لأنه أصلح للولد؛ فالأم أرحم به من أبيه، وأرفق عليه منه؛ لأن الأب لن يستقل بحضانة الولد بنفسه؛ وإنما سيشركه غيره من زوجة وبنت خادمة وغيرهن؛ فحضانة الأم أعظم للولد من حضانة الأبعد منها.

ثالثا: أن بقاء حضانة الصغير عند أمه دافع لصلة الأب بأهل ولده، وأدوم للمودة، وأقرب لأم الولد، وأحفظ للعهد؛ فالرجل أقرب للقطيعة من المرأة؛ لانشغاله ولقوته، ورقة المرأة وضعفها، ولو كانت الحضانة عنده، تثاقل عن صلة أهل ولده، وصلته لهم أقرب لعودة الزوجين بعد الطلاق لو كان رجعيا.

* واتفق الأئمة الأربعة أن الولد يكون عند أمه إلى التمييز، واختلفوا في بقائه عندها بعد ذلك على قولين:

الأول: قالوا: يبقى الغلام إلى بلوغه عند أمه ما لم تتزوج أمه، وأما الجارية، فتبقى عند أمها حتى تتزوج الجارية أو تتزوج أمها؛ وبهذا قال مالك.

الثاني: قالوا: يبقى الولد - غلاما وجارية - عند أمه، حتى يتم السابعة، ويبلغ الثامنة من عمره، ثم يخير بين أبويه؛ وبهذا قال الشافعي وأحمد.

وذلك لما روى أبو هريرة: أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت له: إن زوجي

=

=

يريد أن يذهب بابني، وقد سقاني من بئر أبي عنبة، وقد نفعني؟ فقال النبي ﷺ: (استهما عليه)، فقال زوجها: من يحاقني في ولدي؟ فقال النبي ﷺ: (هذا أبوك، وهذه أمك، فخذ بيد أيهما شئت)، فأخذ بيد أمه، فانطلقت به.

* وإذا تزوجت الأم، سقط حقها في الحضانة بلا خلاف، واختلفوا في بدء سقوط حق الحضانة، مع اتفاقهم على أنه يسقط بدخول الزوج الجديد بها، واختلفوا في العقد: هل يسقط الحق له قبل الدخول أم لا؟ على قولين:

الأول: يسقط؛ وهو قول الشافعي.

الثاني: لا يسقط حتى يدخل بها؛ وهو قول مالك؛ لأن العلة من السقوط انشغالها بزوجها، وتضرر الولد من البقاء في كنف وكفالة غير ذي قرابة.

وإذا طلقها زوجها الثاني أو مات عنها، فلها الحق في إرجاع ولدها ما دام في مدة الحضانة، على اختلافهم فيه؛ لأن الحق يعود بزوال مانعه، كما يتحقق بوجود سببه، كما لو أنها أسقطت حقها في الحضانة عاما، ثم رجعت تريده، فلها ذلك، أو خرجت من البلد الذي فيه زوجها الأول وسلمته لأبيه، ثم رجعت إلى بلده، فلها حضانته.

* والولد يكون في حضانة أمه ما دامت مسلمة، على الصحيح، وهو قول مالك والشافعي وأحمد، خلافا لأبي حنيفة؛ فلم يفرق بين المسلمة وغيرها في الحضانة، والحق: أن الدين معتبر حتى لا تنحرف الفطرة ويتدين الولد بغير دين الإسلام؛ كما في "الصحيحين" وغيرهما؛ من حديث أبي هريرة، قال ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، كما تنتجون البهيمة، هل تجدون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها!).

* واختلف العلماء في الأحق بالكفالة بعد الأم من النساء:

فذهب عامة العلماء: إلى أن أم الأم جدة الولد لأمه أحق بالحضانة من أم أبيه ومن

=

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨).

{هُنَالِكَ} أَيْ لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا ذَلِكَ وَعَلِمَ أَنَّ الْقَادِر عَلَى الْإِتْيَان بِالشَّيْءِ فِي غَيْر حِينه قَادِر عَلَى الْإِتْيَان بِالْوَلَدِ عَلَى الْكِبَر وَكَانَ أَهْل بَيْته انْقَرَضُوا {دَعَا زَكَرِيَّا

=

خالته؛ وهذا قول أبي خبفة ومالك والشافعي وأحمد وأبي ثور وغيرهم.

واختلفوا فيمن أحق بالحضانة بعد أم الأم:

فقدم الحنفية أم الأب ثم الأخوات على الخالة.

وقدم مالك: الخالة على أم الأب والأخوات.

وقدم الشافعية: أم الأب فالأخوات فالخالات.

وقدم الحنابلة: الأب بعد أم الأم، ثم أمهات الأب، ثم الجد، ثم أمهات الجد، ثم الأخت، ثم الخالة.

وهذا كله لا دليل خاص يقطع به من الوحي إلا الخالة؛ ففي الحديث كما تقدم؛ قال ﷺ: (الخالة بمنزلة الأم)، وما عداها أخذ من النظر والقياس على القرب من الرحم والأحق بالميراث.

ولا حضانة لمن عرفت بفسق يؤثر على الصغير؛ كشرب الخمر أو تعر وسفور في حضانة الصغيرة فتتربى عليه، أو تعليمه مجون الرقص والطرب والدياثة وشبه ذلك، فهذا يسقط حق الأم في الحضانة، فضلا عما دونها من القرابات نساء ورجالا.

وكل ما تسقط به ولاية الرجل على المرأة من الفسق: تسقط له حضانة المرأة على الصغير من باب أولى؛ لأن ولاية الرجل وقوامته أقوى وأوثق؛ فما سقط منها يسقط فيما دونها من باب أولى.

رَبّه} لَمَّا دَخَلَ الْمِحْرَاب لِلصَّلَاةِ جَوْف اللَّيْل {قَالَ رَبّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْك} مِنْ عِنْدك {ذُرِّيَّة طَيِّبَة} وَلَدًا صَالِحًا {إنَّك سَمِيع} مُجِيب {الدعاء}.

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩).

{فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَة} أَيْ جِبْرِيل {وَهُوَ قَائِم يُصَلِّي فِي الْمِحْرَاب} أَيْ الْمَسْجِد {أَنَّ} أَيْ بِأَنَّ وفي قراءة بالكسر بتقديره الْقَوْل {الله يُبَشِّرك} مُثَقَّلًا وَمُخَفَّفًا {بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ} كَائِنَة {مِنْ الله} أَيْ بِعِيسَى أَنَّهُ رُوح الله وَسُمِّيَ كَلِمَة لِأَنَّهُ خُلِقَ بِكَلِمَةِ كُنْ {وَسَيِّدًا} مَتْبُوعًا {وَحَصُورًا} مَمْنُوعًا مِنْ النِّسَاء {وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ} رُوِيَ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَل خَطِيئَة وَلَمْ يَهِمّ بِهَا.

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠).

{قَالَ رَبّ أَنَّى} كَيْفَ {يَكُون لِي غُلَام} وَلَد {وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَر} أَيْ بَلَغْت نِهَايَة السِّنّ مِائَة وَعِشْرِينَ سَنَة {وَامْرَأَتِي عَاقِر} بَلَغَتْ ثَمَانِيَة وَتِسْعِينَ سَنَة {قَالَ} الْأَمْر {كَذَلِكَ} مِنْ خَلْق الله غُلَامًا مِنْكُمَا {الله يَفْعَل مَا يَشَاء} لَا يُعْجِزهُ عَنْهُ شَيْء وَلِإِظْهَارِ هَذِهِ الْقُدْرَة الْعَظِيمَة أَلْهَمَهُ السُّؤَال لِيُجَاب بِهَا وَلَمَّا تَاقَتْ نَفْسه إلَى سُرْعَة الْمُبَشَّر بِهِ.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١).

{قَالَ رَبّ اجْعَلْ لِي آيَة} أَيْ عَلَامَة على حمل امرأتي {قال آيتك} عليه {أ} ن {لا تُكَلِّم النَّاس} أَيْ تَمْتَنِع مِنْ كَلَامهمْ بِخِلَافِ ذِكْر الله تَعَالَى {ثَلَاثَة أَيَّام} أَيْ بِلَيَالِيهَا {إلَّا رَمْزًا} إشَارَة {وَاذْكُر رَبّك كَثِيرًا وَسَبِّحْ} صَلِّ {بِالْعَشِيِّ

وَالْإِبْكَار} أَوَاخِر النَّهَار وَأَوَائِله(١).

---

(١) قوله تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ} [آل عمران: ٣٨]، أي: "في ذلك الوقت دعا زكريا ربه متوسلًا ومتضرعًا".

قال البيضاوي: أي: "في ذلك المكان، أو الوقت إذ يستعار هنا وثم وحيث للزمان، لما رأى كرامة مريم ومنزلتها من الله تعالى... وقيل لما رأى الفواكه في غير أَوَانِهَا انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ".

قال ابن كثير: "لما رأى زكريا، عليه السلام، أن الله تعالى يرزق مريم، عليها السلام، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد، وإن كان شيخا كبيرا قد ضعف ووَهَن منه العظم، واشتعل رأسه شيبا، وإن كانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرًا، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خَفيا".

قال الزمخشري: أي: "في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب أو في ذلك الوقت، فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان. لما رأى حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتها، رغب في أن يكون له من ايشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقرا عجوزا فقد كانت أختها كذلك. وقيل لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ذرية ولدا. والذرية يقع على الواحد والجمع".

قال المراغي: "أي في هذا المكان الذي خاطبته فيه مريم بما ذكر دعا ربه بهذا الدعاء، فإنه حين رأى حسن حالها ومعرفتها بالله تمنى أن يكون له ولد صالح مثلها هبة وفضلا من عنده فرؤية الأولاد النجباء مما تشوّق نفوس الناظرين إليهم وتجعلهم يتمنون أن يكون لهم مثلهم".

قال ابن عباس: "فلما رأى ذلك زكريا - يعني فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف - عند مريم قال: إنّ الذي يأتي بهذا مريمَ في غير زمانه، قادرٌ أن =

=

يرزقني ولدًا، قال الله عز وجل: {هنالك دعا زكريا ربه}، قال: فذلك حين دعا".

قال السدي: "فلما رأى زكريا من حالها ذلك يعني: فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف قال: إنّ ربًّا أعطاها هذا في غير حينه، لقادرٌ على أن يرزقني ذرية طيبة! ورغب في الولد، فقام فصلَّى، ثم دعا ربه سرًّا فقال: {رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} [سورة مريم: ٤ - ٦]، وقوله: {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} وقال: {رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} [سورة الأنبياء: ٨٩]".

قال محمد بن إسحاق: "حدثني بعض أهل العلم قال: فدعا زكريا عند ذلك بعد ما أسنّ ولا ولد له، وقد انقرض أهل بيته فقال: "ربّ هب لي من لدنك ذرية طيبه إنك سميع الدعاء"، ثم شكا إلى ربه فقال: {رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} إلى {وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} {فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} الآية".

واختلف في سبب دعاء زكريا -عليه السلم- على قولين:

أحدهما: أن الله تعالى أذن له في المسألة، لأن سؤال ما خالف العادة يُمْنَع منه إلا عن إذن لتكون الإجابة إعجازًا. أفاده الماوردي.

والثاني: أنه لما رأى فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف طمع في رزق الولد من عاقر. وهذا قول ابن عباس، والسدي.

قال الماتريدي: "قيل: فعند ذلك دعا زكريا ربه لما كانت نفسه الخاشية تحدث بالولدان تهب له، لكنه لم يدعو لما رأى نفسه متغيرة عن الحال التي يطمع منها الولد، فرأى أن السؤال في مثل ذلك لا يصلح؛ فلما رأى عندها فاكهة الصيف في

=

=

الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف غير متغيرة عن حالها - علم عند ذلك أن السؤال يصلح، وأنه يجاب للدعاء في غير حينه، فذلك معنى قوله: (هنالك دعا زكريا ربه)، والله أعلم.

ويحتمل أنه لما رأى ما أكرمت امرأة عمران في قبول دعوتها وتبليغ ابنتها في الكرامة المبلغ الذي رأى فيها مما لعل أطماع الأنفس لا تبلغ ذلك - دعا الله - جل جلاله - أن يكرمه ممن يبقى له الأثر فيه والذكر، وإن كانت تلك الحال حال لا تطمع الأنفس فيما رغب - عليه السلام - مع ما كان يعلم قدرة الله تعالى على ما يشاء من غير أن كان يحس على طلب الإكرام بكل ما يبلغه قدره، حتى رأى ما هو في الأعجوبة قريب مما كانت نفسه تتمنى، والله أعلم بالمعنى الذي سأل".

قال أبو حيان: "أصل: {هنالك}، أن يكون إشارة للمكان، وقد يستعمل للزمان وقيل بهما في هذه الآية، أي في ذلك المكان دعا زكريا، أو: في ذلك الوقت لما رأى هذا الخارق العظيم لمريم، وأنها ممن اصطفاها الله، ارتاح إلى طلب الولد واحتاج إليه لكبر سنه، ولأن يرث منه ومن آل يعقوب، كما قصه تعالى في سورة مريم، ولم يمنعه من طلب كون امرأته عاقرا، إذ رأى من حال مريم أمرا خارجا عن العادة، فلا يبعد أن يرزقه الله ولدا مع كون امرأته كانت عاقرا، إذ كانت حنة قد رزقت مريم بعد ما أيست من الولد".

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} [آل عمران: ٣٨]، أي: قال: ربي "أعطني من عندك ولدًا صالحًا".

قال السدي: "{ذرية طيبة}، يقول: مباركة".

قال الطبري: أي: "رب هب لي من عندك ولدًا مباركًا".

قوله تعالى: {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: ٣٨]، أي: "إنك مجيب الدعاء".

قال الماوردي: "أي تجيب الدعاء، لأن إجابة الدعاء بعد سماعه".

=

=

قوله تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} [آل عرمان: ٣٩]، " أي ناداه جبريل حال كون زكريا قائمًا في الصلاة".

قال ابن كثير: "أي: خاطبته الملائكة شفاها خطابًا أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خَلْوَته، ومجلس مناجاته، وصلاته".

قال مقاتل: "فبينما هو يصلي في المحراب حيث يذبح القربان إذا برجل عليه بياض حياله وهو جبريل- عليه السلام- فقال: أن الله يبشرك بيحيى اشتق يحيى من أسماء الله- عز وجل-".

أخرج ابن المنذر عن جعفر، قال: سمعت ثابتا، يقول: "الصلاة خدمة الله في الأرض، ولو علم الله شيئا أفضل من الصلاة ما قال: {فنادته الملائكة وهو قائم يصلي}".

قال أبو عبيدة: "المحراب سيد المجالس وأشرفها، وأكرمها، وكذلك هو من المساجد".

وفي قوله تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ} [آل عمران: ٣٩]، وجهان من القراءة:

أحدهما: {فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ}، بالتاء، قرأ به ابن كثير ونافع وعاصم وألو عمرو وابن عامر.

والثاني: {فَنَادَاه الْمَلآئِكَةُ}، قرأ به حمزة، والكسائي.

قال الزجاج: "الوجهان جميعًا جائزان، لأن الجماعة يلحقها اسم التأنيث، لأن معناها معنى جماعة، ويجوز أن يعبر عنها بلفظ التذكير. كما يقال جمع الملائكة".

قال بن مجاهد البغدادي: "وكلهم فتح الراء من {المحراب} إلا ابن عامر فإنه أمالها".

قوله تعالى: {أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى} [آل عمران: ٣٩]، أي: إن الله يبشرك: "بولد

=

=

يوجد لك من صلبك اسمه يحيى".

قال قتادة: "إن الملائكة شافهته بذلك مشافهة، وبشرته بيحيى".

قال السدي: "لم يسمها أحد قبله".

وقوله {بِيَحْيَى}، أي: "أحياه الله بالإيمان". قاله قتادة.

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {يُبَشِّرُكَ} [آل عمران: ٣٩]، على وجوه:

أحدها: {يُبَشِّرُكَ}، بضم الياء وفتح الباء والتشديد، قرأ به ابن كثير وأبو عمرو.

والثاني: {يبشر}، بالتخفيف، قرأ به حمزة والكسائي.

وفي قوله تعالى: {أَنَّ اللهَ} [آل عرمان: ٣٩]، قراءتان:

إحداهما: {إنّ اللهَ}، بالكسر، وهي قراءة ابن عامر وحمزة.

والثانية: {أَنَّ اللهَ}، بالفتح، وهي قراءة الباقين.

قوله تعالى: {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ} [آل عمران: ٣٩]، "أي مصدقًا بعيسى مؤمنًا برسالته".

قال ابن عباس: "عيسى ابن مريم ﷺ هو الكلمة".

قال الضحاك: "وأما قوله جل وعز في يحيى: {مصدقا بكلمة من الله} " مصدق بعيسى، وكان يحيى أو من صدق بعيسى، وشهد أنه كلمة من الله، وكان يحيى بن خالة عيسى، وكان اكبر من عيسى".

قال قتادة: "مصدقا بعيسى ابن مريم على منهاجه".

وقال أبو عبيدة: "أي: بكتاب من الله، تقول العرب للرجل: أنشدني كلمة كذا أي قصيدة فلان إن طالت". وهو قول أهل البصرة.

قال مقاتل: "وكان يحيى أول من صدق بعيسى- عليهما السلام- وهو ابن ثلاث سنين، قوله الأول وهو ابن ستة أشهر فلما شهد يحيى أن عيسى من الله- عز وجل- عجبت بنو إسرائيل لصغره، فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمه

=

=

إليه، وهو في خرقة وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين، يحيى وعيسى ابنا خالة".

قوله تعالى: {وَسَيِّدًا} [آل عمران: ٣٩]، "أي: ويسود قومه".

قال مقاتل: "يعني حليما".

قال الزجاج: "السيِّد: الذي يفوق في الخير قومه".

وفي معنى قوله تعالى: {وَسَيِّدًا} [آل عمران: ٣٩]، أقاويل:

أحدها: أنه الحليم. قاله أبو العالية، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومطر.

والثاني: أنه السيد في العبادة والحلم والعِلم والوَرَع. قاله قتادة-في احد قوليه-.

والثالث: أنه التقي، وهو قول أبي صالح، وقال سعيد بن جبير: السيد التقي.

والرابع: أنه الحليم التقي. قاله ابن عباس، وسفيان، والضحاك-في أحد قوليه-.

والخامس: أنه الشريف، وهو قول ابن زيد.

والسادس: أنه الفقيه العالم، وهو قول سعيد بن المسيب.

والسابع: أن السيد: الذي لا يغلبه غضبه. قاله عكرمة.

والثامن: أن المعنى: السيد في خلقه ودينه. قاله عطية، وروي عن الضحاك-في أحد قوليه: قال: "حسن الخلق".

والتاسع: أنه الخليفة، وهو قول قتادة.

والعاشر: أن السيد: الكريم على الله. حكاه ابن أبي نجيح عن مجاهد، والرقاشي.

والحادي عشر: أن السيد: ليس له شرك. قاله مجاهد.

والثاني عشر: سيد المؤمنين، يعني بالرياسة عليهم، وهذا قول بعض المتكلمين.

قوله تعالى: {وَحَصُورًا} [آل عمران: ٣٩]، "أي: ويحبس نفسه عن الشهوات عفةً وزهدًا".

=

=

قال مقاتل: "والحصور الذي لا حاجة له في النساء".

قال الطبري: "يعني بذلك: ممتنعًا من جماع النساء".

قال الزجاج: أي لا يأتي النَساءَ، وإنما قيل للذي لا يأتي النَساءَ حصور لأنه حُبِسَ عما يكون من الرجال، كما يقال في الذي لا يتيسر له الكلام قد حُصِرَ في منطقه".

قال الفراء: "يقال: إن الحصور: الذي لا يأتي النساء".

قال الشافعي: "وذكر – الله – عبدًا كرمه، فقال: {وَسَيِّدًا وَحَصُورًا} الآية، والحصور: الذي لا يأتي النساء، ولم يندبه إلى النكاحْ، فدلَّ ذلك – والله أعلم – على أن المندوب إليه من يحتاج إليه، ممن يكون مُحصنًا له عن المحارم والمعاني التي في النكاح".

قال المبرد" الحصور الذي لا يدخل في اللعب والعبث والأباطيل، وأصله من قول العرب الذي لا يدخل في الميسر: حصور"، ومنه قول الأخطل:

وَشَارِبٍ مُرْبِحٍ بِالكَأْسِ نَادَمَنِي... لا بِالَحصُورِ وَلا فِيهَا بِسَوَّارِ

ويقال أيضًا للذي لا يخرج سره ويكتمه "حصور"، لأنه يمنع سره أن يظهر، كما قال جرير:

وَلَقَدْ تَسَاقَطَنِي الوُشَاةُ، فَصَادَفُوا... حَصِرًا بِسِرِّكِ يَا أُمَيْمَ ضَنِينَا

فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو.

قال الزمخشري: "والحصور: الذي لا يقرب النساء حصرا لنفسه أي منعا لها من الشهوات، وقيل هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر... فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو. وقد روى أنه مر وهو طفل بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال: ما للعب خلقت".

قال الزجاج: "والحصير هذا المرمُول الذي يُجلس عليه، إنما سمي حصيرًا، لأنه دوخل بعضه في بعض في النسيج أي حبس بعضه على بعض، ويقال للسجْن

=

=

الحصير لأنَّ الناس يُحصرون فيه، ويقال حصرت الرجلَ إذا حبسته، وأحصره المرض إذا منعه من السير، (والحصير الملك)، وقول الله - جل وعلا: {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} [الإسراء: ٨]، أي حبسا، ويقال أصاب فلانًا حَصَرٌ، إذا احتبس عليه بطنه، ويقال في البول أصابه أسر إذا احتبس عليه بوله".

وفي قوله: {وَحَصُورًا} [آل عمران: ٣٩] ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الحصور هو الذي لا ينزل الماء، وهو قول ابن عباس.

وقال الضحاك ومقاتل: "الذي لا ماء له"، وفي لفظ آخر للضحاك: "الذي لايولد له ولا ماء له".

وروي عن أبي العالية والربيع قالا: "الذي لايولد له".

والثاني: أنه كان لا يأتي النساء، وهو قول وعبدالله بن مسعود، وابن عباس- في احد قوليه-، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وعكرمة، وعطية، وجابر بن زيد، وابن زيد، وسعيد بن جبير، والرقاشي.

والثالث: أنه لم يكن له ما يأتي به النساء، لأنه كان معه مثل الهْدبة، وهو قول سعيد بن المسيب.

قال ابن عطية: "وأجمع من يعتدّ بقوله من المفسرين على أن هذه الصفة ليحيى عليه السلام إنما هي الامتناع من وطء النساء".

قال ابن كثير: "المقصود أنه مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه: أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: {هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} كأنه قال: ولدًا له ذرية ونسل وعَقِب، والله سبحانه وتعالى أعلم... وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان {حَصُورًا} ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوبا، أو

=

=
لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حُذَّاقُ المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء، عليهم السلام، وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنه حصر عنها".

قوله تعالى {وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: ٣٠]، " أي: ويكون نبيًا من الأنبياء الصالحين".

قال الزجاج: "الصالح الذي يؤَدي إلى الله ما عليه ويؤَدي إلى الناس حقوقهم".

قال ابن كثير: "هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى كقوله تعالى لأم موسى: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: ٧]".

{هُنَالِكَ}: هذا اسم إشارة إلى المكان. واللام للبعد، والكاف حرف خطاب؛ يعني في ذلك الزمن، والإشارة هنا يحتمل أن تكون للزمن أي في ذلك الزمن، ويحتمل أن تكون للمكان، أي في المكان الذي هو محراب مريم.

{دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ}، وزكريا: فيها قراءتان، المد والقصر على ما سبق.

{قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً}.

{هَبْ لِي}: أي أعطني، والهبة: هي التبرع بالشيء بلا عوض، لكن قال العلماء: إن هناك هبة، وهدية، وصدقة. فالصدقة: ما أريد به ثواب الآخرة، والهدية: ما أريد به التودد والتقرب بين المهدي والمهدى إليه، والهبة: ما قصد به مجرد انتفاع الموهوب له.

وهنا قال: {رَبِّ هَبْ لِي}، أي أعطني عطاء بلا ثمن.

{مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً}. {مِنْ لَدُنْكَ}: أي من عندك، وأضاف العندية إلى الله عز وجل ليكون أبلغ وأعظم، لأن هدية الكريم أكرم. وقوله: {ذُرِّيَّةً} بمعنى مذروءة، أي: مخلوقة، وقوله: {طَيِّبَةً} أي طيبة في أقوالها وأفعالها، وكذلك في أجسامها،
=

=

فهو متناول للطيب الحسي والطيب المعنوي.

{إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} أي مجيبه، والدعاء: هو سؤال العبد ربَّه حاجته إما بجلب منفعة وإما بدفع مضرة.

قال: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ} وفي قراءة: فناداه الملائكة؛ لأن الملائكة جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث.

ويمكن أن يراد بالملائكة واحد وهو جبريل (ناداه)، وعبر عنه بالجمع باعتبار الجنس؛ لأنه واحد منهم.

وقوله: {وَهُوَ قَائِمٌ} جملة في محل نصب على الحال، من الضمير: (الهاء) في قوله: (نادته)، وقوله: {يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ}، المحراب: مكان الصلاة أو مكان العبادة، وسمي بذلك؛ لأنه مكان حرب الشياطين، فإن العبادة حرب للشياطين كما سبق.

{أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ}. {أَنَّ} فيها قراءتان: قراءة بالفتح، وقراءة بالكسر، فأما على قراءة الكسر (إن الله). فلأن النداء قول، ومقول القول إذا صُدّر (بإن) يجب فيه كسر إن، كقوله تعالي: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ} [مريم: ٣٠]. وأما على قراءة الفتح فهي على تقدير حرف الجر: (فنادته الملائكة بأن الله يبشرك)، ببشري الله تعالي بهذا الابن (يحيى).

أيضًا في قوله تعالى: {يُبَشِّرُكَ} قراءتان: يبْشُرُك، يُبَشِّرُك، وكلاهما سبعيتان، والبشارة هي الإخبار بما يسر، وسميت بذلك لتأثر البشرة بالخبر؛ لأن الإنسان إذا بُشِّر بما يسره يفرح ويظهر ذلك على وجهه، ألم تر إلى وجه النبي ﷺ حين دخل مجزز المدلجي على أسامة بن زيد وزيد بن حارثة وعليهما كساء لم يبد منه إلا أقدامهما، فنظر إلى أقدامهما وقال: ان هذه الأقدام بعضها من بعض، فدخل النبي عليه الصلاة والسلام على عائشة تبرق أسارير وجهه، تأثر بالخبر السار. ولهذا

=

=

الإخبار بما يسوء بشرى؛ لأن البشرة تتأثر بذلك، ومنه قوله تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة: ٣٤]، وقوله تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء: ١٣٨].

قال الله تعالى: {بِيَحْيَى}.

(بيحيى) يحيى اسم سمَّاه الله به، قيل: إنه أعجميٌّ مُنع من الصرف للتعريف والعجمة، كموسى وعيسى، وقيل: إنَّه عربيٌّ ومنع للتعريف ووزن الفعل.

والقائلين بعربيته لعلهم أخذوه من وجه تسميته بذلك ثم اختلفوا لم سمي يحيى بهذا الاسم على أقوال منها:

١- قال ابن عباس رضي الله عنهما: لأن الله أحيا به عقر أمه.

٢- قال قتادة: لأن الله أحياه بالإيمان.

٣- قال مقاتل: لأنه أحياه بين شيخ وعجوز، وهذا يؤول إلى قول ... ابن عباس.

٤- قال الزجاج: لأنه حَييَ بالعلم والحكمة التي أوتيها.

٥- قال أبو القاسم بن حبيب: سمى يحيى أنه استشهد، والشهداء أحياء عند ربهم.

وقوله: {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا}.

{مُصَدِّقًا}: حال من يحيى. {بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ}: هو عيسى ابن مريم يعني مصدقًا بعيسى؛ لأن عيسى كلمة من الله، وسمي بذلك لأنه كان بكلمة الله ولم يكن من أب كما يكون البشر، قال الله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٥٩]. خلقه: أي آدم من تراب، ثم قال له: كن فيكون، ولهذا سمي عيسى بالكلمة؛ لأنه كان بكلمة الله وليس هو كلمةَ الله؛ لأن كلمة الله وصف لله عز وجل، فالكلام وصف للموصوف، ولا يمكن أن يكون وصف الله عينًا بائنة منه.

فجمهور المفسرين على أن المراد بالكلمة هو: عيسى عليه السلام، وهذا القول مروي

=

=

عن: ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومجاهد، وقتادة، والحسن، والربيع بن أنس، والضحاك، وبه قال الفراء، والطبري، والزجاج، والزمخشري، والقرطبي، وابن عاشور.

وقال أبو عبيد كما في فتح القدير للشوكاني: معنى {بكلمة من الله}: بكتاب من الله، قال: والعرب تقول: أنشدني كلمته، أي قصيدته. وهذا القول وإن صح لغة فهو لا يصح في تفسير هذه الآية، فليس كل ما ثبت لغة صح حمل آيات التنزيل عليه، لذا قال الطبري - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (وقد زعم بعض أهل العلم بلغات العرب من أهل البصرة أن معنى قوله: {مصدقا بكلمة من الله} بكتاب من الله، من قول العرب (أنشدني فلان كلمة كذا) يراد به: قصيدة كذا، جهلا منه بتأويل (الكلمة)، واجتراء على ترجمة القرآن برأيه).

وقوله: {مِنَ اللهِ}، بيان لابتداء الأمر وليست للتبعيض، فالكلمة هنا ليست بعضًا من الله بل منشؤها منه.

{وَسَيِّدًا} معطوفة على {مُصَدِّقًا} فتكون منصوبة على الحال، والسيد مَنْ ساد غيره وشرف عَليه بالعلم والدين والخُلُق والمعاملة، وقولنا الخلق: يشمل كل خلق يسود به الإنسان غيره من الجود والشجاعة والإيثار وغير ذلك، فيكون جامعا لصفات الكمال الممكنة في المخلوق.

قوله{وَحَصُورًا} فيه أقوال كما تقدم:

القول الأول: الذي لا حاجة له في النكاح، وهو قول قتادة، والسدي، والحسن.

القول الثاني: أنه لم يكن له ما يأتي به النساء، روي عن سعيد بن المسيب.

القول الثالث: أنه الذي لا ينزل ماء، روي عن ابن عباس، والضحاك.

القول الرابع: أنه كان يمنع نفسه من شهواتها.

قال القاضي عياض في الشفا ١/ ١١٦: (اعلم أن ثناء الله على يحيى بأنه حصور ليس كما قال بعضهم: إنه كان هيوبًا، أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق

=

=

المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء، وإنما هو معصوم من الذنوب، أي: لا يأتيها، كأنه حصر عنها، وقيل: مانعًا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة في النساء.

وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قَمْعُها: إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ ... والمقصود أن مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: إنه معصوم من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} [آل عمران:٣٨]، كأنه قال: ولدًا له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم).

فقوله {وَحَصُورًا} حصورًا معطوفة على {مُصَدِّقًا} فهي منصوبة على الحال، (حصورًا) فعول بمعنى فاعل أي حاصرًا نفسه عن أراذل الأخلاق، فيكون هذا المبشر به موصوفًا بصفات الكمال الدال عليها قوله: {سَيِّدًا} ومبرأً من النقص وسوء الأخلاق الدال عليه قوله: (حصورًا)، فيكون جمع له بين النفي والإثبات، وذلك لأن الإنسان لا يكمل إلا بوجود صفات الكمال وانتفاء صفات النقص، وهو أمر نسبي.

(تنبيه): ورد في الحديث (ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ، أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا) وفي بعض الروايات (ثم دلى رسول الله ﷺ يده إلى الأرض،وأخذ عودا صغيرا ثم قال: "وذلك أنه لم يكن له ما للرجل إلا مثل هذا العود،ولذلك سماه الله (سيداوحصوراونبيا من الصالحين)

وفي بعض الروايات (كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه، إلا يحيى ابن زكريا كان (سيداوحصوراونبيا من الصالحين) ثم أهوى

=

=

النبي ﷺ إلى قذاة من الأرض،وقال: كان ذكره مثل هذه القذاة) وقد روي عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص أو عن أبيه عمرو، وأبي هريرة، والحسن البصري مرسلا، ويحيى بن جعدة مرسلا، والحديث ضعفه بعض أهل العلم منهم أبو حاتم الرازي، وابن خزيمة، وابن العربي، والنووي، وابن كثير، أما العلامة الألباني فقال في الصحيحة (٢٩٨٤): روي عن عبد الله بن عباسوعبد الله بن عمرو بن العاص أو عن أبيه عمرووأبي هريرةوالحسن البصري مرسلاويحيى بن جعدة مرسلا....وخلاصة القول في هذا الحديث أنه صحيح بلا ريب، على الأقل بمجموع طرقه، لأن أكثرها ليست شديدة الضعف، بل إن بعضها صحيح لذاته عند البزاروغيره عن ابن عمرو، فتضعيف النووي إياه مردود، وكذا إعلال ابن كثير لبعض طرقه في " التاريخ "و" التفسير " (١/ ٣٦١و٣/ ١١٣ - ١١٤)، فإنه لم يقف على أكثر الطرق التي ذكرتها،وبخاصة طريق البزار.

و لذلك فلا ينبغي أن يلتفت إلى ما ذكره عن القاضي عياض في تفسير قوله تعالى في يحيى عليه السلام: (و حصورا) مما يشعر رده لهذا الحديث.والله سبحانه وتعالى أعلم.وزيادة في الفائدة أقول:وأما حديث أبي أمامة مرفوعا بلفظ: "أربعة لعنوا في الدنياوالآخرة.. "، فذكرهم،ورابعهم: "ورجل حصور، ولم يجعل الله له حصورا إلا يحيى بن زكريا". فهو حديث منكر ضعيف الإسناد جدا، وقد خرجته في " غاية المرام " برقم (٨٩)،وسكت عنه الآلوسي في " تفسيره " (٢/ ١٤٨)، فما أحسن.

قوله تعالى: {وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}. هذه معطوفة أيضًا على {مُصَدِّقًا}، فهو مصدق ونبي، ولا يلزم من تصديقه بعيسى أن يكون تابعًا له، فهاهو محمد عليه الصلاة والسلام مصدق بجميع الأنبياء وهم يتبعونه ولا يتبعهم، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: "لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلا اتِّباعي"، ولهذا صار إمامًا لهم ليلة المعراج، وإذا نزل عيسى في آخر الزمان يحكم بشريعة النبي عليه

=

=

الصلاة والسلام. المهم أن تصديقه لعيسى ابن مريم لا ينافي أن يكون نبيًّا، فهو نبي مصدق بالأنبياء، ولهذا قال: {وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}، وقوله: {مِنَ الصَّالِحِينَ} أي: من جملتهم، وإنما قلنا ذلك لأن النبوة وصف أعلى من الصلاح، لكن هو في جملة الصالحين، فالنبوة صلاح وزيادة. والدليل على ذلك قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} [النساء: ٦٩]، فالصالحون في المرتبة الرابعة.

قوله تعالى: الكبر {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ} [آل عمران: ٤٠]، أي: يا ربّي "من أين يكون لي غلام".

قال السدي: "يقول: من أين".

وقال الربيع بن انس: "كيف يكون لي".

قال يحيى بن سلام: قال الحسن: "أراد زكرياء أن يعلم كيف ذلك".

قال البيضاوي: "استبعادًا من حيث العادة، أو استعظامًا أو تعجبا أو استفهامًا عن كيفية حدوثه".

قوله تعالى: {وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ} [آل عمران: ٤٠]، أي: وقد "أدركتني الشيخوخة".

قال مقاتل: "وكان زكريا يومئذ ابن خمس وسبعين سنة".

قال البيضاوي: أي وقد" دركني كبر السن وأثر فيّ، وكان له تسع وتسعون ولامرأته ثمان وتسعون سنة".

قال أبو عبيدة: "أي: بلغت الكبر، والعرب تصنع مثل هذا تقول: هذا القميص لا يقطعني".

قوله تعالى: {وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} [آل عمران: ٤٠]، أي: وامرأتي عقيم "لا تلد".

والعاقر من النساء، هي التي لا تلد، وهو القطع، لأنها ذات عقر من الأولاد، يقال =

=

منه: امرأة عاقر، ورجلٌ عاقرٌ، ومنه قول عامر بن الطفيل:

لَبِئْسَ الفَتَى! إنْ كُنْتُ أَعْوَرَ عَاقِرًا... جَبَانًا، فَمَا عُذْرِي لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ! !

وقد ذكر أهل العلم في سبب قول زكريا-عَلَيْهِ السَّلَامُ-: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} [آل عمران: ٤٠]، وجوها:

أحدها: أنه راجع ليعلم على أي حال يكون منه الولد، بأن يُرّدّ هو وامرأته إلى حال الشباب، أم على حال الكبر، فقيل له: كذلك الله يفعل ما يشاء، أي على هذه الحال، وهذا قول الحسن.

قال ابن عطية: "وهذا تأويل حسن يليق بزكرياء عَلَيْهِ السَّلَامُ".

والثاني: أنه: "لما سمع النداء - يعني زكريا، لما سمع نداء الملائكة بالبشارة بيحيى - جاءه الشيطان فقال له: يا زكريا، إن الصوت الذي سمعت ليس هو من الله، إنما هو من الشيطان يسخرُ بك! ولو كان من الله أوحاه إليك كما يُوحى إليك في غيره من الأمر! فشكّ مَكانه، وقال: {أنَّي يكون لي غلام}، ذكرٌ؟ يقول: من أين؟ {وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر}". وهذا قول السدي، وروي عن عكرمة مثله.

والثالث: أنه قال ذلك استعظامًا لمقدور الله وتعجبًا.

والرابع: أنه إنما سأل لأنه نسي دعاءه لطول المدة بين الدعاء والبشارة وذلك أربعون سنة. قاله مكي.

قال ابن عطية: "وهذا قول ضعيف المعنى".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران: ٤٠]، أي: قال الملك: "هكذا أمْرُ الله عظيم، لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر".

قال أبو مالك: "قوله: {كذلك}، يعني هكذا".

قال البيضاوي: "أي يَفْعَلُ مَا يَشَاء من العجائب مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد

="

=

من شيخ فان وعجوز عاقر، أو كما أنت عليه وزوجك من الكبر والعقر يَفْعَلُ مَا يَشَاء من خلق الولد أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي الله على مثل هذه الصفة".

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً} [آل عمران: ٤١]، أي: ربّي اجعل لي "علامة على حمل امرأتي".

قال ابن كثير: "أي: علامة أستدل بها على وجود الولد مني".

قال السدي: "قال زكريا: رب فإن كان هذا الصوت منك فـ {اجعل لي آية}، قال: {آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا}".

قوله تعالى: {قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا} [آل عمران: ٤١]، "أي: علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام".

قال الطبري: يعني: "يا زكريا، {آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا}، بغير خرس ولا عاهة ولا مرض".

قال ابن كثير: "أي: إشارة لا تستطيع النطق، مع أنك سوي صحيح".

قال عبدالرحمن السلمي: "اعتقل لسانه من غير مرض".

قال السدي: "اعتقل لسانه ثلاثة أيام وثلاث ليال".

قال قتادة: "إنما عوقب بذلك، لأن الملائكة شافهته مشافهة بذلك، فبشّرته بيحيى، فسأل الآية بعد كلام الملائكة إياه. فأخِذَ عليه بلسانه، فجعل لا يقدر على الكلام إلا ما أومأ وأشار، فقال الله تعالى ذكره، كما تسمعون: {آيتك ألا تكلم الناس ثلاثةَ أيام إلا رمزًا}".

قال الربيع: ": ذكر لنا، والله أعلم، أنه عوقب، لأن الملائكة شافهته مشافهة، فبشرته بيحيى، فسأل الآية بعدُ، فأخِذَ بلسانه".

وفي قوله تعالى: {آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا} [آل عمران: ٤١]، ثلاثة أوجه من التفسير:

=

=

أحدها: الرمز بالشفتين، وهو قول ابن عباس -في احد قوليه-.

وقال مجاهد: "تحريك الشفتين"، وفي رواية أخرى له: "كلام بالشفتين""، وروي عن عكرمة وخصيف نحو ذلك.

والثاني: الإماءة والإشارة، وهو قول ابن عباس، والحسن، والسدي، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وابن زيد، والضحاك، والربيع، وعبدالله بن كثير، وأبي عبدالرحمن السلمي، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم.

والثالث: أنه: "ربَا لسانه في فيه حتى ملأه، ثم أطلقه الله بعد ثلاثٍ". قاله جبير بن نفير.

قوله تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا} [آل عمران: ٤١]، "أي: وأذكر الله ذكرا كثيرا".

قال الطبري: أي: "فإنك لا تمنع ذكرَه، ولا يحالُ بينك وبين تسبيحه وغير ذلك".

قال الماوردي: "لم يمنع من ذكر الله تعالى، وذلك هي الآية".

قال محمد بن كعب: "لو كان الله رخص لأحد في ترك الذكر، لرخَّص لزكريا حيث قال: {آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا واذكر ربك كثيرًا}، أيضًا".

قال مجاهد: "لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما ومضطجعا".

قوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} [آل عمران: ٤١]، أي: و"نزّه الله عن صفات النقص بقولك سبحان الله في آخر النهار وأوله".

قال الطبري: أي: "عَظِّم ربك بعبادته بالعشي".

قال مجاهد: "الإبكار أوّل الفجر، والعشيّ مَيْل الشمس حتى تغيب".

واخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد عن في قوله: {وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ}، قال: "صلاة المكتوبة".

و"العشي": من حين زوال الشمس إلى أن تغيب، ومنه قول حميد بن ثور

=

=

الهلالي:

فَلا الظِّلَّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعَهُ... وَلا الفَيْءَ مِنْ بَرْدِ العَشِيِّ تَذُوقُ

فالفيء، إنما تبتدئ أوْبته عند زوال الشمس، وَيتناهى بمغيبها.

وأصل العشي الظلمة، ولذلك كان العشى ضعف البصر، فَسُمَّي ما بعد الزوال عِشاءً لا تصاله بالظلمة.

وأما "الإبكار": فمن حين طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وأصله التعجيل، لأنه تعجيل الضياء، يقال فيه: أبكر فلان، وبكر يَبكُر بُكورًا، فمن "الإبكار"، قول عمر بن أبي ربيعة:

أَمِنْ آلِ نُعَمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ... غَدَاةَ غَدٍ؟ أَمْ رَائِحٌ فَمُهَجِّر؟

ومن " البكور"، قول جرير:

أَلا بَكَرَتْ سَلْمَى فَجَدَّ بُكُورُهَا... وَشَقَّ العَصَا بَعْدَ اجْتِمَاعٍ أَمِيرُهَا

ويقال من ذلك: بكر النخلُ يَبْكُر بُكورًا وأبكر يُبكر إبكارًا، والباكور من الفواكه: أوّلها إدراكًا.

{قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ} قال بعضهم: ربِّ، يعني الله سبحانه وتعالى يعني يا الله على وجه الدعاء.

وقال الكلبي: قال لجبريل (ربّ) أي يا سيدي. {أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ}

قال الرازي: قوله (ربَّ) خطاب مع الله، أو مع الملائكة؛ لأنه جائز أن يكون خطابا مع الله، لأنَّ الآية المتقدمة دلَّت على أن الذين نادوه هم الملائكة، وهذا الكلام لا بد أن يكون خطابًا مع ذلك المنادى لا مع غيره، ولا جائز أن يكون خطابًا مع الملك؛ لأنَّه يجوز للإنسان أن يقول للملك يا رب.

والجواب: للمفسرين، فيه قولان: الأول: أن الملائكة لما نادوه بذلك وبشروه به تعجبَّ زكريا عليه السلام، ورجع في إزالة ذلك التعجب إلى الله تعالى.

=

=

والثاني: أنه خطاب مع الملائكة والرب إشارة إلى المربِّي ويجوز وصف المخلوق به فإنه يقال فلان يربني ويحسن إلي".

ومع أن الرب يأتي بمعنى السيد والمربِّي إلا أن المراد بالرب هنا (الله) وذلك لوجوه:

الأول: ظاهر الخطاب أنه منه لله تبارك وتعالى -حتى وإن كان الخطاب الواصل إليه بواسطة الملائكة.

والثاني: أن غالب دعاء الأنبياء لربهم بهذا الاسم الدال على الربوبية.

والثالث: هو الأليق بزكريا عليه السلام.

وذلك؛ لأن زكريا عليه السلام لمَّا تحقق البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه وهو في هذه الحالة {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ}

قال الآلوسي: خاطب عليه السلام ربّه سبحانه، ولم يخاطب الملك المنادى طرحًا للوسائط مبالغة في التضرع وجدًا في التبتل".

* قال عليه السلام لما بشره الله عز وجل: أنى يكون لي غلام وقد بلغني، يعني كيف؟ ليس استبعادًا ولا استنكارًا ولكن تثبتًا، وإلا فإنا نعلم أن زكريا عليه الصلاة والسلام قد آمن بما بشره الله به ولا يمكن أن يستبعده، ولكنه قال ذلك من أجل التثبت، ذلك أن الإنسان ناقص في الإدراك والعلم، يحتاج إلى شيء يثبت له الأمور.

وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لا شك أنَّه يؤمن إيمانًا كاملًا بأن الله يحيي الموتى ومع ذلك قال: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠]، لأنه ليس الخبر كالمعاينة.

وقوله: {أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ}.

قال: {غُلَامٌ} مع أنه لم يولد بعد، لكن هذا باعتبار ما سيكون، والتعبير بما

=

=

سيكون أمر سائغ في اللغة وارد في القرآن {قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا} [يوسف: ٣٦]، يعني أعصر عنبًا يكون خمرًا؛ لأن الخمر لا يعصر، فعبَّر عن الشيء بما يؤول إليه.

ثم قال: {وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ}.

الواو هذه يسميها العلماء واو الحال؛ يعني أنها تدل على أن الجملة التي بعدها في موضع نصب على الحال، يعني والحال أنه قد بلغني الكبر، فهي حال من الياء في قوله: (لي).

{بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ}، يعني وصل إلي الكبر، والحقيقة أنه قد يتراءى للإنسان أن في المعنى قلبًا، هل الكبر بلغك أو أنت بلغت الكبر؟

قال الله تعالى: {وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا} [مريم: ٨]، فصار هو الذي بلغ الكبر.

وهنا يقول: {وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ} إذن فالتعبير صحيح في هذا وهذا، فأنت إن بلغت الكبر فقد بلغك الكبر، وإذا بلغك الكبر فقد بلغته، {وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ}؛ يعني أصابني. وعادةً أن الكبير إذا لم يولد له في سن الشباب فإنه لن يرى الأولاد؛ لأن الإنجاب والإخصاب إنما يكون في حال الشباب، وكلما تقدمت السن بالإنسان من رجل أو امرأة قلَّ إنجابه؛ فيقول: كيف لما كنت شابًا لا يأتيني ولد والآن يأتيني الولد.

قوله: {وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ}. عاقر يعني لا تحمل، وعاقر لفظة مذكر لكن معناها هنا مؤنث، وتطلق على الذكر والأنثى، يقال: رجل عاقر، وامرأة عاقر، وهو الذي لا يولد له، فالآن كل من الزوجين ليس بصدد الولادة، ولكن الله على كل شيء قدير، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، ولهذا قال: {كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}.

{كَذَلِكَ اللهُ}. يجوز عندي فيها وجهان:

=

=

الوجه الأول: أنها خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر كذلك؛ يعني أنك بلغك الكبر وامرأتك عاقر ولكن الله يفعل ما يشاء.

والوجه الثاني: أن تكون في موضع نصب على المفعولية المطلقة؛ أي: مثل ذلك الفعل ليفعله الله، لأنه يفعل ما يشاء، وكلا الوجهين صحيح، فإنه سيكون له ولد ولو كان بلغه الكبر ولو كانت امرأته عاقرًا؛ لأن الله يفعل ما يشاء. فكل ما شاءه فعله؛ لأنه عز وجل لا يمنعه مانع كما نقول نحن في دبر كل صلاة: "اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت"، فالله عز وجل يفعل ما يشاء؛ لأن له الملك المطلق في خلقه، فلا أحد يمنعه ولا أحد يسأله لـمَ فعلت؟ {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣]، {كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}.

فلما أيقن بأن الله تعالى سيهب له الولد {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً}، أي صيّر لي علامة تدل على هذا الولد، وأنه بدأ ينشأ ليزداد طمأنينة فيما بشره الله به. والآية في اللغة: العلامة، وآيات الله عز وجل كونية وشرعية، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أيدوا بالآيات الدالة على صدقهم، الآيات الكونية والآيات الشرعية. وكثير من الناس يسمي آيات الأنبياء معجزات، وهذه التسمية وإن اشتهرت على الألسن لكنَّ فيها قصورًا، والتعبير الصحيح السليم أن نسميها آيات كما سمَّاها الله، نسمي ما يحصل من خوارق العادات على أيدي الأنبياء؛ نسميها آيات، ولهذا لا تجد آية في القرآن سمى الله فيها هذه الخوارق معجزات أبدًا، بل كان يسميها آيات.

والمعجزات لو أخذناها على ظاهرها لشملت ما يأتي به السحرة وما تأتي به الجن؛ لأن ما يأتي به السحرة أو الجن معجز.

{قَالَ آيَتُكَ}. يعني الآية التي تدلك، فأضافها إلى زكريا مع أنه ليس هو الذي أوجدها، لكن لأنها علامة له.

=

=

{أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ}.

آيتك: يعني العلامة التي أعطيك إياها ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا، يعني لا تخاطبهم إلا رمزًا ثلاثة أيام بلياليها، بدليل قوله تعالى في سورة مريم: {أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} [مريم: ١٠]، وقوله: {إِلَّا رَمْزًا} إلا: هذه أداة استثناء.

والمفسرون قد اختلفوا، فبعضهم قال: الاستثناء هنا متصل فتكون الإشارة من الكلام؛ لأن الكلام هو ما يعبر عما في النفس من قول أو إشارة أو كتابة، وبعض المفسرين يقول: إن الاستثناء منقطع؛ لأن الرمز ليس بكلام، ولذلك لو رمز الإنسان في الصلاة لم تبطل صلاته، ولو كانت كلامًا لبطلت؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: "إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الناس". فمن نظر إلى المعنى قال: إن الرمز كلام؛ لأنه ينبئ عما في النفس، وقد اعتبر الشارع الإشارة، أليس النبي عليه الصلاة والسلام قتل اليهودي بإشارة الجارية الأنصارية التي قالت حينما قالوا لها: من قتلك؟ فلان؟ فلان؟ فلان؟ فأشارت: نعم، فاعتبر الإشارة. ولا شك أن الإشارة تعبر عما في النفس لكنها ليست القول الذي هو الصوت، فمن لاحظ المعنى قال: الاستثناء متصل، ومن لاحظ اللفظ وأن الكلام هو الصوت قال: الاستثناء منقطع، ولكن على القولين المعنى واحد، لن يستطيع أن ينطق بلسانه مع الناس ولكن يشير إليهم إشارة، ووجه كون هذه آية: أنه عجز عن النطق مع أنه سليم، وأنه عجز عن النطق مع الناس لا مع الله، وهذا الشيء غريب، يعني إنسان يتكلم يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لم تأته آفة ولا علة في لسانه، ثم لا يستطيع أن يكلم الناس، هذه آية.

قال تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا}.

أمره الله تعالى بأن يذكر ربَّه كثيرًا؛ لأنه بذكر الله تطمئن القلوب ويزداد الإيمان ويستنير القلب، فلهذا أمره الله أن يذكر ربه كثيرًا، وفائدة الأمر بالذكر كثيرًا أن الله

=

=

لما أخبره بأنه سيمنعه من مكالمة الناس، بشَّره بأنه لن يَمْتنع من ذكر الله الذي هو أجل وأشرف من مخاطبة الناس وكلامهم. فأراد الله تعالى أن يسري عنه وأن يذهب عنه ما قد يقع في قلبه، فقال له: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا}، وهنا لم يقل له: وإنك ستذكر ربك، بل قال: واذكر ربك، فأمره بذكر الله ليكون ذكره لله تعالى في حال امتناع مكالمة الناس عبادة خاصة مأمورًا بها.

وقوله: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا} هل (كثيرًا) صفة لزمن محذوف، أي زمانًا كثيرًا، أو لمصدر محذوف أي ذكرًا كثيرًا الثاني كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، وهنا قال: {وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}، العشي: آخر النهار، والإبكار: أول النهار وهذان الوقتان قد أمر الله بذكره فيهما فقال: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} [ق: ٣٩] وقال تعالى: {بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ} [ص: ١٨]، وهنا قال: {وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} والآيات في هذا كثيرة؛ لأن في الإشراق مستقبل النهار، وفي العشي مستدبر النهار، فيكون الإنسان شاغلًا وقته -أوله وآخره- بذكر الله.

والعشي يبتدئ من زوال الشمس بدليل حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي وهي: إما الظهر واما العصر؛ وقيل: العشي ما بعد صلاة العصر إلى منتصف الليل، ولكن الأول أصح. نعم المساء يطلق من صلاة العصر إلى منتصف الليل. وأما العشي فهو آخر النهار.

وقوله تعالى: {وَالْإِبْكَارِ} الإبكار ليست جميعًا لبكر؛ لأن جمع بكر أبكار كسبب وأسباب، لكنها مصدر أو اسم لهذا الوقت المعين الذي هو أول النهار، وقوله {وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} يشمل تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به. وتسبيح الله يكون عن أمور ثلاثة: عن صفة الغيب، وعن نقص في كمال، وعن مماثلة المخلوقين؛ والمماثلة: هو اللفظ الذي جاء به القرآن، فالنقص كقوله تعالى:

=

=

{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: ٥٨]، والنقص في الكمال مثل قوله: {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨]، ومماثلة المخلوقين مثل قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، وقوله: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: ٦٥]، وقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤].

والتسبيح: يكون بالقول ويكون بالفعل؛ فكل من عبد الله فقد سبَّحه بالقول وبالفعل وإن لم يكن فيها كلمة: "سبحان" إلا أن العابد تستلزم عبادته المعبود أن يكون كاملًا؛ لأن الناقص لا يمكن للعاقل أن يعبده، فكونه يعبد الله يستلزم أن يكون مقرًّا له بالكمال مسبحًا له عن النقص.

{وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}.

الباء في قوله: {بِالْعَشِيِّ} يحتمل أن تكون للاستيعاب؛ يعني في كل الوقت، وأن تكون للظرفية أي في العشي، فإن جعلناها للظرفية لم يلزم أن يستوعب الوقت بالتسبيح؛ لقوله تعالى: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، فهم لا يمرون عليهم كل الليل بل يمرون في أوله أو في آخره أو في وسطه، وإذا كانت للاستيعاب فالمعنى أن الله أمره أن يستوعب هذين الوقتين كليهما بالتسبيح.

* مسألة: لا خلاف عند علماء الإسلام في منع الكلام في الصلاة الذي ليس من جنس أقوالها، وأنه يبطل الصلاة، على خلاف في أدنى ما يبطل الصلاة من الحرف والحرفين؛ لقوله ﷺ: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس؛ إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن).

وأما استماعه لغيره، فيتفقون على وجوب الاستماع لما لا تتم الصلاة إلا بالاستماع إليه؛ كتكبيرات الإحرام والانتقال والسلام، فلا تتم المتابعة إلا به؛

=

=

لقوله ﷺ: (إنما جعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبر فكبروا).

وأما حديث غير المصلي مع المصلي، فعلى قسمين:

الأول: ما كان في مصلحة الصلاة؛ كدلالته إلى القبلة، وإرشاده إليها عند توجهه خطأ إلى غيرها؛ فهذا يستحب ويتأكد، وقد يجب؛ ففي الصحيح عن البراء رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى - أو صلاها - صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت.

ويلحق بهذا إعلام جبريل النبي ﷺ بوجود نجاسة في نعليه وهو يصلي؛ كما رواه أحمد وأبو داود، عن أبي سعيد الخدري؛ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم، ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، قال: (ما حملكم على إلقاء نعالكم؟)، قالوا: رأيناك ألقيت نعليك، فألقينا نعالنا، فقال رسول الله ﷺ: (إن جبريل ﷺ أتاني، فأخبرني أن فيهما قذرا)، ويجوز سؤال المصلي وهو في صلاته عند الحاجة.

وهذا يشبه حديث الملائكة مع زكريا، فهو حديث ملك لنبي وهو في صلاة، وإن اختلف نوع الخطاب؛ فزكريا خوطب بخطاب لا يتصل بصلاته، ومحمد ﷺ خوطب بخطاب يتصل بها.

القسم الثاني: الكلام مع المصلي واستماعه وهو منصت بكلام لا يتصل بصلاة المصلي؛ فهذا الأصل فيه الجواز، شريطة أن يكون عارضا لا طويلا، كما في قصة زكريا، ولما روى البخاري، عن أسماء؛ قالت: أتيت عائشة وهي تصلي، فقلت: ما شأن الناس؟ فأشارت إلى السماء، فإذا الناس قيام، فقالت: سبحان الله! قلت:

=

=

آية؟ فأشارت برأسها: أي: نعم.
وفي حديث أسماء هذا: دليل على جواز رد المصلي على غيره بالإشارة من غير كلام، وقد أشار النبي ﷺ في صلاته؛ كما في "الصحيح"؛ من حديث جابر؛ قال: أرسلني رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى بني المصطلق، فأتيته وهو يصلي على بعيره، فكلمته، فقال لي بيده هكذا.
وما جاء عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ: كان يشير في الصلاة.
وجاء ذلك من حديث أم سلمة وابن عمر وغيرهما، عن النبي ﷺ.
والحديث الذي يمنع من ذلك منكر؛ فقد رواه أبو داود؛ من حديث أبي غطفان، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (التسبيح للرجال - يعني: في الصلاة - والتصفيق للنساء، من أشار في صلاته إشارة تفهم عنه، فليعد لها)؛ يعني: الصلاة. وهو حديث منكر، قال أبو داود: "هذا الحديث وهم". ورده أحمد وأبو زرعة والدارقطني وغيرهم.
* والحركة أخف من الكلام في الصلاة؛ لأن الكلام يشغل القلب ويصرف الذهن؛ فالكلام عادة يكون مع الناس، والمتكلم لا ينشغل بغير كلامه، وأما الحركة، فقد يفعلها الإنسان لنفسه كحك، أو لغيره كحمل، كما حمل النبي ﷺ أمامة بنت زينب وهو يصلي، ويمكن الجمع بين حضور القلب والحركة؛ كحك وحمل، ولا يمكن الجمع بين حضور القلب والكلام مع الناس؛ لهذا شدد في الكلام، وخفف في الحركة في الصلاة.
* وأما بذل السلام على المصلي، فمستحب على قول جمهور الفقهاء وأكثر السلف؛ وهو قول مالك والشافعي، ورواية عن أحمد، وصح فعله عن ابن عمر، خلافا للحنفية، وكرهه جابر بن عبد الله، وعطاء؛ فقد روى عبد الرزاق، عن جابر؛ أنه قال: "لو مررت بقوم يصلون، ما سلمت عليهم".

=

=

والسلام على الجماعه أظهر في الإشغال من المنفرد؛ فهم مأمورون بالمتابعة للإمام والإنصات له؛ فالسلام قد يدخل تسليم المسلم مع تكبير الإمام وتسليمه وقراءته، فيخلط على المأموم صلاته، ويظهر هذا إذا تتابع الناس إلى الصلاة والإمام يصلي بالناس، فسلم كل متأخر على جماعة الصلاة، فينشغلون عن واجبهم بسلام الداخلين عليهم.

وظواهر الأدلة على استحباب السلام وعدم نسخه بحال، وتحريم الكلام على المصلي لا يعني منع السلام عليه، لأن العلة من السلام ليست التحية والترحيب والرد عليها فحسب، بل إشعار المسلم عليه بالسلام والأمان؛ وهذا مشروع ولو لم يرد، فيشرع السلام على الأخرس، وعلى من لا يرد السلام عمدا بسبب هجر أو قطيعة.

والصحابة يفرقون بين بذل السلام وبين رده، فجابر يقول في بذل السلام: "لو مررت بقوم يصلون، ما سلمت عليهم".

ويقول في رد السلام: "لو سلم علي وأنا أصلي، لرددت".

ولم ينكر النبي ﷺ على جابر، حينما سلم عليه ولم يعلم بنسخ الكلام في الصلاة؛ وإنما بين له سبب عدم رده عليه، فقال: (إنه لم يمنعني أن أرد عليك إلا أني كنت أصلي).

وإذا غلب على الظن جهل المصلي بالسنة ومنع الكلام، فلا يسلم عليه؛ خشية رده السلام بالكلام.

❊ وأما رد السلام من المصلي على من سلم عليه، فعلى حالين:

الأولى: الرد بالكلام؛ فهذا لا يجوز عند عامة الفقهاء، وهو قول الأئمة الأربعة، وعامة السلف، خلافا لابن المسيب، وبقوله قال الحسن وقتادة، فقد صح عنهما القول برد السلام في الصلاة؛ رواه عبد الرزاق عن معمر عنهما.

=

=

وصح عن جابر قوله: "لو سلم علي وأنا أصلي، لرددت".

والصحيح: المنع؛ لاستفاضة الأدلة المرفوعة على المنع من الكلام؛ كما في حديث ابن مسعود، وزيد بن أرقم، ومعاوية بن الحكم، وغيرها، مع خلاف عند العلماء في بطلان الصلاة برد السلام بالكلام على قولين:

فمن رد السلام بقصد رد التحية، وهو الأغلب والأصل، بطلت صلاته برده.

ومن رد السلام وقصد منه الدعاء، فالأصح عدم البطلان؛ لأنه دعاء، كما لو قال رجل خارج الصلاة لمصل: ادع لي، فدعا له في صلاته، لم تبطل صلاته.

ورد السلام بالكلام إنما منع منه ولو قصد الدعاء به؛ لأنه في صورر خطاب ورد جواب، ويذهب طمأنينة الصلاة وخشوعها وحضور القلب فيها، خاصة إذا كثر الداخلون على المصلي، وقد نهى النبي ﷺ وأصحابه معاوية بن الحكم لما شمت عاطسا في صلاته، ولم يأمره بالإعادة، وتشميت العاطس مثل رد السلام أو آكد منه، ولكن تشميت العاطس أظهر في كونه دعاء خالصا من السلام ورده، ومع هذا قال ﷺ لمعاوية بن الحكم: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس؛ إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن).

الثانية: الرد بالإشارة؛ وهذا مشروع عند عامة السلف، جاء فيه عن جابر حديث مرفوع في "صحيح مسلم"، وكذلك من حديث صهيب وبلال وابن مسعود وغيرهم، ولا تخلو من علة سوى حديث جابر فهو صحيح، وروي من فعل ابن عمر وابن عباس.

* وأما صفة رد السلام بالإشارة بلا كلام، فلا يثبت في صفته صريحا شيء مرفوع، ولا في مقدار رفع اليد، ولا جهة الإشارة بها، ولا صفة بسط الكف.

وحديث جابر مجمل، وكذا ما صح عن ابن عمر في "الموطأ"؛ قال: "إذا سلم على أحدكم وهو يصلي، فلا يتكلم، وليشر بيده"؛ رواه عنه نافع.

=

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢).

{و} أُذْكُرْ {إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَة} أَيْ جِبْرِيل {يَا مَرْيَم إنَّ الله اصْطَفَاك} اخْتَارَك {وَطَهَّرَك} مِنْ مَسِيس الرِّجَال {وَاصْطَفَاك عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ} أَيْ أَهْل

=

وروي عن ابن عباس مصافحة المصلي لمن سلم عليه؛ كما رواه عبد الرزاق، عن ابن جريج، عن عطاء؛ قال: رأيت موسى بن جميل وكان مصليا، وابن عباس يصلي ليلا إلى الكعبة قال: فرأيت موسى صلى، ثم يعود، ثم انصرف، فمر على ابن عباس، فسلم عليه، فقبض ابن عباس على يد موسى هكذا - وقبض عطاء بكفه على كفه - قال عطاء: فكان ذلك منه تحية، ولم أر ابن عباس تكلم.

وروي عن بعض السلف قول ثالث: وهو أن رد السلام لا يكون بالإشارة ولا بالعبارة؛ وإنما يكون بعد الصلاة ردا بالكلام. صح هذا عن عطاء، وهو قول النخعي وسفيان الثوري.

* والحركة في الصلاة أخف من الكلام إذا لم تذهب الطمأنينة والخشوع؛ لأن الصلاة تبطل بالكلمة الواحدة من كلام الناس؛ كاذهب، وانصرف، وتعال، ولا تبطل بالحركة الواحدة والحركتين اليسيرتين بإجماعهم.

والحركة اليسيرة في الصلاة لمصلحة الصلاة: لا بأس بها، وكذلك لمصلحة أحد خارج الصلاة بإجابته بإشارة، أو إعانته بقبض يده، أو غمزه، وكذلك المشي والحركة للحاجة والضرورة، كقتل حية أو عقرب، كما جاء في حديث أبي هريرة ﵁؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (اقتلوا الأسودين في الصلاة: الحية، والعقرب).

وروي عن عائشة ﵂؛ قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي تطوعا، والباب عليه مغلق، فجئت فاستفتحت، فمشى ففتح لي، ثم رجع إلى مصلاه، وذكرت أن الباب كان في القبلة؛ رواه أحمد وأصحاب "السنن".

زَمَانك(١).

يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣).

{يَا مَرْيَم اُقْنُتِي لِرَبِّك} أَطِيعِيهِ {وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} أَيْ صَلِّي مَعَ الْمُصَلِّينَ.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤).

{ذَلِكَ} الْمَذْكُور مِنْ أَمْر زَكَرِيَّا وَمَرْيَم {مِنْ أَنْبَاء الْغَيْب} أَخْبَار مَا غَابَ عَنْك {نُوحِيهِ إِلَيْك} يَا مُحَمَّد {وَمَا كُنْت لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامهمْ} فِي الْمَاء يَقْتَرِعُونَ لِيَظْهَر لَهُمْ {أَيّهمْ يَكْفُل} يُرَبِّي {مَرْيَم وَمَا كُنْت لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} فِي كَفَالَتهَا فَتَعْرِف ذَلِكَ فَتُخْبِر به وإنما عرفته من جهة الوحي(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ} [آل عمران: ٤٢]، "أي اذكر وقت قول الملائكة: يا مريم إن الله اختارك بين سائر النساء".

قال الطبري: "اختارك واجتباك لطاعته وما خصّك به من كرامته".

قال ابن أبي زمنين: "أي: اختارك لدينه".

قال الثعلبي: أي: "بولادة عيسى من غير أب".

قال ابن كثير: "أي: اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها".

وفي قوله تعالى: {يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصطفاك} [آل عمران: ٤٢]، وجهان:

أحدهما: اصطفاها على عالمي زمانها، وهذا قول الحسن، وابن جريج.

والثاني: أنه اصطفاها لولادة المسيح، وهو قول مقاتل، والزجاج.

قال الراغب: "وقول الملائكة لها قيل: كان بالإلهام، فإنه ما أوحى الله إلى امرأة وحي النبوة فلذلك قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ} [النحل: =

=

٤٣]، وقيل: بل قد أوحي إليهن ولكن لم يبعثن رسلا".

وقد قيل المراد بالملائكة ههنا جبريل وحده.

وهذا كقوله (ينزل الملائكة بالروح من أمره) يعني جبريل، وهذا وإن كان عدولا عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه، لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم مع مريم عليها السلام هو جبريل عليه السلام، وهو قوله (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا).

والمعنى: واذكر يا محمد للناس وقت أن قالت الملائكة لمريم - التي تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا - يا مريم إن الله اصطفاك، أي: اختارك واجتباك لطاعته، وقبلك لخدمة بيته وطهرك من الأدناس والأقذار، ومن كل ما يتنافى مع الخلق الحميد، والطبع السليم واصطفاك على نساء العالمين بأن وهب لك عيسى من غير أب دون أن يمسسك بشر.

وجعلك أنت وهو آية للعالمين.

فأنت ترى أن الله تعالى قد مدح مريم مدحا عظيما بأن شهد لها بالاصطفاء والطهر والمحبة، وأكد هذا الخبر للاعتناء بشأنه، والتنويه بقدره.

وقول الملائكة لمريم (إن الله اصطفاك وطهرك..) الراجح أنهم قالوه لها مشافهة، لأن هذا ما يدل عليه ظاهر الآية، وإليه ذهب صاحب الكشاف فقد قال: روى أنهم كلموها شفاها معجزة لزكريا، أو إرهاصا لنبوة عيسى.

وقيل: كان خطابهم لها بالإلهام أو بالرؤيا الصادقة في النوم.

والأول أولى لأنه هو الظاهر من الآية، ولأنه الموافق لأقوال جمهور المفسرين، ولأنه جاء صريحا في آيات أخرى أن الملك قد تمثل لها بشرا سويا وكلمها، وذلك في قوله تعالى في سورة مريم: واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا.

=

=

قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا.

(يا مريم إن الله اصطفاك) اصطفاؤه إياها سبحانه من وجوه:

أحدها: أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث.

ثانيها: أنه تعالى فرغها لعبادته، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة.

ثالثها: أنه كفاها أمر معيشتها، فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى (أنى لك هذا قالت هو من عند الله).

رابعها: أنه أنبتها نباتا حسنا.

قوله تعالى: {وَطَهَّرَكِ} [آل عمران: ٤٢]، " أي جعلك طاهرة من سائر الأدناس".

قال مجاهد: "جعلك طيبةً إيمانًا".

قال السدي: "{وطهرك} من الحيض". وروي عن عرمة نحو ذلك.

قال مقاتل: "من الفاحشة والألم".

قال ابن أبي زمنين: وطهرك من الكفر". كقوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: ٣٣]

قال الثعلبي: "من مسيس الرجل".

قال الطبري: أي: "وطهَّر دينك من الرّيب والأدناس التي في أديان نساء بني آدم".

قال ابن كثير: "أي: وطهرها من الأكدار والوسواس".

قال أبو السعود: أي مما يُستقذر من الأحوال والأفعال ومما قذفك به اليهودُ بإنطاق الطفلِ".

=

=

قوله تعالى: {وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٤٢]، أي: و"اختارك على نساء العالمين في زمانك".

قال مقاتل: "يعنى: واختارك على {نساء العالمين} بالولد من غير بشر".

قال السدي: "على نساء ذلك الزمان الذي هم فيه".

قال ابن جريح: "ذلك للعالمين يومئذ".

قال الزجاج: "أي اختارك لعيسى على نساءِ العالمين كلهم، فلم يجعل مثل عيسى من امرأة من نساءِ العالمين.

قال الثعلبي: "بالتحرير في المسجد".

قال ابن كثير: أي "واصطفاها ثانيًا مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين".

قال الراغب: "تكرير الاصطفاء قيل لمعنيين: الأول فرغها لعبادته وأغناها عن الكسب، والثاني أن جعلها أما لعيسى وآية له، وقيل الأول الاصطفاء الذي هو الاجتباء. والثاني الاصطفاء الذي هو على سبيل الهداية".

قال أبو السعود: "بأن وهبَ لك عيسى عليه الصلاة والسلام من غير أب ولم يكُنْ ذلكَ لأحدٍ من النساء وجعلكما آيةً للعالمين فعلى هذا ينبغي أنْ يكونَ تقديمُ حكاية هذه المقاولة على حكاية بشارتِها بعيسى عليه الصلاة والسلام لما مر مرارا من التَّنبيه على أنَّ كلًا منهما مستحِقٌّ للاستقلال بالتذكير ولو روعيَ الترتيبُ الخارجيُّ لتبادر كونُ الكل شيئًا واحدًا وقيل المرادُ بالاصطفاءين واحدٌ والتكريرُ للتأكيد وتبيينِ مَن اصطفاها عليهن فحينئذ لا إشكالَ في ترتيب النظم الكريم إذ يُحمل حينئذ الاصطفاءُ على ما ذُكر أولًا وتُجعل هذه المقاولةُ قبل بشارتها بعيسى عليهِ الصلاةُ والسلامُ إيذانًا بكونها قبل ذلك متوفرةً على الطاعات والعبادات حسبما أُمِرت بها مجتهدةً فيها مُقْبِلةً على الله تعالى مُتبتِّلةً إليه تعالى منسلخةً عن أحكام البشرية مستعدةً لفيضان الروح عليها".

=

قال محمد بن إسحاق: "كانت مريم حبيسًا في الكنيسة، ومعها في الكنيسة غُلام اسمه يُوسف، وقد كانَ أمه وأبوه جعلاه نذيرًا حبيسًا، فكانا في الكنيسة جميعًا، وكانت مريم، إذا نَفِدَ ماؤها وماء يوسف، أخذا قُلَّتيهما فانطلقا إلى المفازة التي فيها الماء الذي يستعذِبان منه، فيملآن قلتيهما، ثم يرجعان إلى الكنيسة، والملائكة في ذلك مقبلة على مريم: {يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين}، فإذا سمع ذلك زكريا قال: إنّ لابنة عمرانَ لشأنًا".

عن عبد الله بن جعفر قال: "سمعت عليًّا بالعراق يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: خيرُ نسائها مريم بنت عمران، وخيرُ نسائها خديجة".

عن موسى الأشعريّ قال: "قال رسول الله ﷺ: كمل من الرّجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء إلا مريم، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد".

(واصطفاك على نساء العالمين) وفي هذا الاصطفاء الثاني أقوال.

قيل: إنه تأكيد للأول.

وقيل: الاصطفاء الأول اصطفاء عام، وهذا الاصطفاء اصطفاء خاص بالنساء، حيث جعلها من النساء الكمل.

وقيل: الأول للعبادة، والثاني: لولادة عيسى عليه السلام.

وذهب بعض العلماء إلى أن الاصطفاء الأول أنه تقبلها، والثاني لولادة عيسى.

قال الرازي: وأما الاصطفاء الثاني: فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب، وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة، وجعلها وابنها آية للعالمين، فهذا هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة

قوله تعالى (على نساء العالمين) قيل: جميع النساء في سائر الأعصار، واستدل به على أفضليتها على فاطمة، وخديجة، وعائشة رضي الله تعالى عنهن.

=

وقيل: المراد نساء عالمها فلا يلزم منه أفضليتها على فاطمة رضي الله تعالى عنها، واختاره ابن جرير.

قوله تعالى: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ} [آل عمران: ٤٣]، أي: يا مريم: "إِلزمي عبادة ربك وطاعته".

قال الحسن: يقول: اعبدي لربك".

قال الطبري: أي: "أخلصي الطاعة لربك وحده".

قال الزجاج: "أيْ اعبديه بالقول والعمل".

قال الثعلبي: أي: "أطيعي وأطيلي الصلاة، لربك: كلمت به الملائكة شفاها، قال [الأوزاعي: لما قالت لها الملائكة ذلك، قامت في الصلاة حتى ورمت قدماها وسالتا دما وقيحا".

قال مجاهد: "كانت تقوم حتى يتورم كعباها".

قال ابن كثير: "أما القنوت: فهو الطاعة في خشوع، كما قال تعالى: {بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [البقرة: ١١٦]".

قال الراغب: "القنوت: إدامة الطاعة صلاة كانت أو غيرها من العبادات، ولهذا قال: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا} [الزمر: ٩] فجعل من جملة القنوت".

وفي قوله تعالى: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي} [آل عمران: ٤٣]، ثلاثة أقاويل:

أحدها: يعني أخلصي لربك، وهو قول سعيد.

والثاني: أن معناه: أطيعي ربك، وهو قول السدي، وقتادة، والحسن.

والثالث: أطيلي القيام في الصلاة، وهو قول مجاهد، والربيع، والأوزاعي.

والقنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع.

قال ابن كثير: ثم أخبر تعالى عن الملائكة: أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع

=

=

والخضوع والسجود والركوع والدؤوب في العمل لها، لما يريد الله تعالى بها من الأمر الذي قدره وقضاه، مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولدا من غير أب، فقال تعالى (يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) أما القنوت فهو الطاعة في خشوع كما قال تعالى (بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون).

وجاء في التفسير الوسيط: القنوت. لزوم الطاعة والاستمرار عليها، مع استشعار الخشوع والخضوع الله رب العالمين.

أي: قالت الملائكة أيضا لمريم: يا مريم أخلصي العبادة لله وحده وداومي عليها، وأكثري من السجود الله ومن الركوع مع الراكعين، فإن ملازمة الطاعات والصلوات من شأنها أن تحفظ النعم وأن تزيد الإنسان قربا وحبا من خالقه عز وجل.

فالآية الكريمة دعوة قوية من الله تعالى لمريم ولعباده جميعا بالمحافظة على العبادات ولا سيما الصلاة في جماعة.

قوله تعالى (اقنتي لربك) اللام في قوله (لربك) للاختصاص، أي: قنوتا خالصا لله، أي: طاعة خالصة له، لأن من شرط الطاعة أن تكون خالصة لله.

قوله تعالى: {وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران: ٤٣]، أي: و"صلي مع المصلين".

قال مقاتل: "يعني مع المصلين في بيت المقدس".

قال العز بن عبدالسلام: أي: "افعلي كفعلهم، أو صلي في جماعة".

قال الزمخشري: أي: "ولتكن صلاتك مع المصلين في الجماعة".

قال الطبري: أي: "واخشعي لطاعته وعبادته مع من خشع له من خلقه، شكرًا له على ما أكرمك به من الاصطفاء والتَّطهير من الأدناس، والتفضيل على نساء عالم

=

=

دَهرك".

قال الأوزاعي: "ركدت في محرابها قائمة وراكعة وساجدة حتى نزل الماء الأصفر في قدميها".

قال البيضاوي: "أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها، وقدم السجود على الركوع إما لكونه كذلك في شريعتهم أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب".

قال الراغب: "ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع وفيه من يركع، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع".

قال الزجاج: "معنى الركوع قيل: السُّجود، المعنى: اركعي واسجدي، إلا أن الواو إذا ذكرت فمعناها الاجتماع، وليس فيها دليل أن أحد الشَيئين قبل الآخر. لأنها تْؤذن بالاجتماع، والعمل، والحال تدل على تقدم المتقدِّم من الإثنين".

قال الراغب: "وتقديم السجود على الركوع، قيل: لكونه كذلك في شريعتهم، وقيل: تنبيها أن الواو لا تقتضي الترتيب، وقيل: عنى بالسجود الصلاة، لقوله: {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [ق: ٤٠]، وعنى بالركوع الشكر، لقوله تعالى في قصة داود: {رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص: ٢٤] أي شاكرا، وهذا تخصيص للركوع بحال مقترنة به، وقيل: نبه بقوله: {وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} أي كوني مع العابدين والمصلين".

وعطف السجود على القنوت من باب عطف الخاص على العام. وذكر الخاص بعد العام يدل على فضله ومزيته، ولذلك يعتبر السجود من أفضل الطاعات وفي الحديث (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد).

(واركعي مع الراكعين) أي: في جملتهم، وليس المراد أن تصلي مع الجماعة، لأن المرأة لا تخاطب بالصلاة مع الجماعة، لكن كوني في جملة الراكعين الذين

=

=
يركعون لله.
قدم السجود على الركوع، لأنه أفضل وأشرف.
وقيل: إن السجود كان في دينهم قبل الركوع، قال ابن القيم: وهذا قائل ما لا علم له به.
قال ابن القيم: والذي يظهر في الآية والله أعلم بمراده من كلامه أنها اشتملت على مطلق العبادة وتفصيلها فذكر الأعم ثم ما هو أخص منه ثم ما هو أخص من الأخص
فذكر القنوت أولا وهو الطاعة الدائمة فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود الذي يشرع وحده كسجود الشكر والتلاوة ويشرع في الصلاة فهو أخص من مطلق القنوت ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة فلا يسن الإتيان به منفردا فهو أخص مما قبله ففائدة الترتيب النزول من الأعم إلى الأخص إلى أخص منه وهما طريقتان معروفتان في الكلام النزول من الأعم إلى الأخص.
قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} [آل عمران: ٤٤]، " أي: ذلك من أخبار الغيب ننزلّه إليك يا محمد".
قال الثعلبي: "ذلك: الذي ذكرت من حديث زكريا ومن حديث ويحيى ومريم وعيسى، من أخبار، الغيب نوحيه إليك".
قال الزمخشري: "ذلك إشارة إلى ما سبق من نبإ زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، يعنى أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي".
قال الصابوني: "أي هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا يحيى إِنما هو من الانبياء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحينا بها إِليك يا محمد".
=

=

قال الماوردي: "يعني ما كان من البشرى بالمسيح".

قال الزجاج: "أي: الأخبار التي قصصناها عليك في زكريا ويحيى ومريم وعيسى من أنباء

الغيب، أي من أخبار ما غاب عنك، وفي هذا دليل على تثبيت نبوة النَبي ﷺ لأنه أنبأ بما لا يعلم إلا من كتاب أو وحي وقد أجمعوا أن النبي ﷺ كان أميًا، فإنباؤه إياهم بالأخبار التي في كتبهم علي حقيقتها من غير قراءَة الكتب دليل على أنه نبى وأن الله أوحى إليه بها".

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن إسحاق قوله: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك}، ثم قد جئتهم به ذليلا علي نبوتك والحجة لك عليهم".

وأصل "الوحي": إلقاء المعنى إلى صاحبه، والوحي إلى الرسل الإلقاء بالإنزال، وإلى النحل بالإلهام، ومن بعض إلى بعض بالإشارة، كما قال تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم: ١١]. قال العجاج:

بِإِذْنِهِ الأَرْضُ وما تَعَتَّتِ... وَحَى لَهَا القرارَ فَاسْتَقَرَّتِ

بمعنى ألقى إليها ذلك أمرًا.

قوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَم} [آل عمران: ٤٤]، " أي وما كنت حاضرا لديهم حين يضربون بسهامهم القرعة، وينظرون ليعلموا أيهم يكون كافلا لمريم".

قال الصابوني: "أي ما كنت عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كلٌ يريدها في كنفه ورعايته".

قال الزجاج: "أي هذا أيضًا مما لم تحضره [إذ يلقون أقداحهم] لينظروا أيهم تجب له كفالة مريم، وهو الضمان للقيام بأمرها".

=

=

قال ابن كثير: "أي: ما كنت عندهم يا محمد فَتُخْبرهم عنهم معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضرا وشاهدًا لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر".

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن إسحاق: "{وما كنت لديهم}، يقول: ما حضرت ولا عنيت".

وقال قتادة: "تساهموا على مريم أيهم يكفلها فقرعهم زكريا".

وروي عن مجاهد والضحاك قالا: "استهموا بأقلامهم".

وقال عكرمة: "ألقوا أقلامهم في الماء فذهبت مع الجرية، وصعد قلم زكريا يغلب الجرية فكفلها زكريا".

وفي تفسير قوله: {أَقْلامَهُمْ} [آل عمران: ٤٤]، وجوه:

أحدها: أن المراد: أقلامهم التي يكتبون بها الوحي. قاله سفيان، ونقله ابن جريج عن آخرين. ورجّحه القرطبي فقال: "وهو أجود، لأن الأزلام قد نهى الله عنها فقال" ذلكم فسق" [المائدة: ٣]، إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التي كانت عليها الجاهلية تفعلها".

والثاني: أن أقلامهم: عصيّهم. قاله الربيع.

والثالث: أن أقلامهم: قداحهم وسهامهم. قاله عطاء، والزجاج، وأبو عبيدة.

قال الزجاج: "وإنما قيل للسهم: القلم لأنه يقْلَمَ أي يبْرَى، وكل ما قطعت منه شيئًا بعد شيء فقد قَلَمْتَه، من ذلك القلم الذي يكتب به، إنما سمي لأنه قلم مرة بعد مرة، ومن هذا قلمت أظافري".

والظاهر ان المراد الأقلام حقيقة التي يكتب بها، ولا نعدل عن ظاهر القرآن إلا بدليل. والله أعلم.

قال الثعالبي: "وجمهور العلماء على أنه استهام لأخذها والمنافسة فيها، فروي

=

=

أنهم ألقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في النهر، فروي أن قلم زكريا صاعد الجرية، ومضت أقلام الآخرين، وقيل غير هذا، قلت: ولفظ ابن العربي في «الأحكام» قال النبي ﷺ: «فجرت الأقلام وعلا قلم زكريا» اهـ، وإذا ثبت الحديث، فلا نظر لأحد معه".

قوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران: ٤٤]، أي: وما كنت عندهم إذ "يتنازعون فيمن يكفلها منهم".

* مسألة: صلاة بي إسرائيل ذات ركوع وسجود، ولكن قيل: إنها تختلف عن صلاة أهل الإسلام في عدد الركعات والصلوات والمواقيت.

وقال بعضهم: إن الله أمرها بالركوع مع الراكعين، والمراد: شهود حضور أماكن الصلاة في الكنائس.

وفي هذا المعنى في هذه الآية نظر؛ فإن الله أمرها أن تشرك العاملين في عملها ممن سبقها وحضرها من الصالحين؛ وهو كقول الله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (١١٩)} [التوبة: ١١٩]؛ أي: في الاتصاف بصفتهم الظاهرة والباطنة، مع أن صلاة النساء للجماعة كانت في بني إسرائيل أول الأمر، ثم منعن من ذلك، لما جاء من حديث عائشة؛ قالت: "لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن كما منعت نساء بني إسرائيل"؛ متفق عليه.

ومنعن الجماعة؛ لأنهن تشرفن إلى الرجال، والبروز لهم؛ كما روى عبد الرزاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: "كان نساء بني إسرائيل يتخذن أرجلا من خشب، يتشرفن للرجال في المساجد؛ فحرم الله عليهن المساجد، وسلطت عليهن الحيضة".

* وحضور النساء للمساجد في الإسلام جائز، وصلاتهن في بيوتهن أفضل، وصلاة الليل منهن أخف من صلاة النهار؛ لأنها أستر، ويتفق السلف على أن صلاة المرأة

=

=

في بيتها أفضل من صلاتها جماعة، وظاهر الأصول: أن أجرها في بيتها ولو منفردة كأجر الرجل في جماعة؛ كما في الحديث: (بسبع وعشرين درجة)، لأمرين:

الأول: أن مقتضى تفضيل النبي ﷺ لهن الصلاة في البيوت: يفيد فضل صلاة البيوت على المساجد جماعة، وهن لا يدفعن إلى عمل ويكون غيره المأمور بتركه أعظم أجرا منه.

الثاني: أن الأصل في عمل الرجل والمرأة التساوي في الثواب والعقاب؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والسيئة بمثلها، وكل عمل يعمله الجنسان يتساويان في الثواب فيه، إذا أتيا بالصورة المشروعة لكل واحد منهما.

وهذا مقتضى العدل الإلهي في الجزاء، وكذلك فإن مقتضى العدل الإلهي في التشريع: أن كل عمل يختص به الرجل، ولا يناسب فطرة المرأة، إلا وجعل الله مقابله عملا آخر للمرأة لو عملته، لنالت ثواب الرجل في عمله، كما في الجهاد شرع للرجال، وجعل الحج للنساء، ففي البخاري عن عائشة؛ قالت: استأذنت النبي ﷺ في الجهاد، فقال: (جهادكن الحج).

وأظهر منه: ما في البخاري عنها؛ قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل؛ أفلا نجاهد؟ قال: (لا؛ لكن أفضل الجهاد حج مبرور).

مع أن الجهاد المفروض أعظم من فريضة الحج، ونافلة الجهاد أعظم من نافلة الصلاة للرجال؛ فمن تعين عليه الجهاد العاجل لا يجوز له الانصراف إلى الحج؛ ولو كانت حجة الإسلام.

ومن عدل الله في عباده: أن الله لا يجعل في أحد عباده سببا قدريا ينال به الأجر العظيم، ولا يكون للمحروم من ذلك السبب ما يماثله أو يقابله ولو من غير جنسه لو عمل به لماثل غيره في الأجر؛ كالمال؛ فالله يرزق عباده ولو بلا سبب؛ كمن يرث خيرا، أو يهدى إليه الرزق فيغتني، لا يقال: إن الفقير ليس لديه من العمل ما

=

=

لو فعله لا يساوي الغني؛ فالله لا يعطل الأسباب في العباد، ثم يحاسبهم على ذلك؛ فالله تعالى جعل للفقراء الذكر يلحقون به أهل الغنى؛ ففي "الصحيحين"، عن أبي هريرة ﵁؛ أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا، والنعيم المقيم، فقال: (وما ذاك؟)، قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: (أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟)، قالوا: بلى يا رسول الله! قال: (تسبحون، وتكبرون، وتحمدون، دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة)، قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

فإن سبق الغني بالمال فيسابقه الفقير بالذكر، وإن أكثر الغني يكثر الفقير، فالأسباب بين أيديهم، والمحروم من ترك العمل وقد تهيأت له أسبابه.

بل لو تمنى العاجز أن يكون غنيا، فينفق كما ينفق الغني صادقا من قلبه، لآتاه الله أجره ولو لم يعمل.

* والسلف لا يختلفون في أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في الجماعة؛ وقد روى الطبراني، عن النخعي، عن ابن مسعود؛ قال: "صلاة المرأة في البيت خير من صلاتها في الدار، وصلاتها في الدار خير من صلاتها خارجه"، ولا أعلم من قال بخلافه من الصحابة والتابعين.

وقد نقل إجماع العلماء على ذلك ابن عبد البر.

وقوله ﷺ: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله): خطاب للأولياء، لا حث للنساء، وغايته لهن الجواز، فلا يجوز للأولياء أن يمنعوهن إذا أردن الصلاة في المساجد

=

=
بلا ريبة حق، إلا صلاة النهار، فلهم منعهن منها؛ فقد جاء النهي مقيدا في البخاري بصلاة الليل؛ فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ؛ قال: (إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد، فأذنوا لهن).

وتقييد الإذن بالليل دليل على أن شهود الجماعة للنساء في الحاجد مفضول.

وأما الزيادة في حديث ابن عمر: "وبيوتهن خير لهن"، فقد رواها أبو داود في "سننه"؛ من حديث حبيب بن أبي ثابت، عن ابن عمر، وقد روى الحديث عنه نافع وسالم ومجاهد، ولم يذكروها.

وروى الحديث عن النبي ﷺ: عائشة، وزيد بن خالد الجهني، وأبو هريرة، ولم يذكروها، وهي زيادة غير محفوظة في حديث ابن عمر.

وقد جاء معناها عند أحمد من حديث أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي: "أنها جاءت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني أحب الصلاة معك، قال: (قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير لك من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير لك من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير لك من صلاتك في مسجدي)، قال: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه، فكانت تصلي فيه حتى لقيت الله عز وجل".

وروى الطبراني نحوه من حديث أم سلمة.

وروى أحمد من حديث دراج أبي السمح، عن السائب، عن أم سلمة، عن رسول الله ﷺ؛ قال: (خير مساجد النساء قعر بيوتهن).

وخروج المرأة بلا حاجة غير مندوب إليه في الشريعة، والصلوات الخمس دائمة في كل يوم، ولو خوطبت بفضل الجماعة كالرجل، ما كان لأمر حثها على القرار في بيتها معنى، وهي تغدو وتروح في اليوم عشر مرات: خمسا في الذهاب، وخمسا
=

=

في الإياب، وإن لم تفتن غيرها، فتنت نفسها، والمرأة مجبولة على القناعة بتأثيرها في الرجل أكثر من قناعة الرجل بتأثيره في المرأة، فلا تخلو من فتنة الرجل أو فتنة نفسها؛ فقد روى أبو الأحوص، عن ابن مسعود؛ قال: "إن المرأة عورة، وإنها إذا خرجت من بيتها، استشرفها الشيطان، فتقول: ما رآني أحد إلا أعجبته، وأقرب ما تكون إلى الله إذا كانت في قعر بيتها".

قوله تعالى: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) أي: هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا ويحيي إنما هو من الأنباء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحينا بها إليك يا محمد ما كنت تعلمها من قبل.

فاسم الإشارة ذلك يعود إلى ما تقدم الحديث عنه من قصة امرأة عمران وقصة زكريا وغير ذلك من الأخبار البديعة.

والأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر العظيم الشأن.

والوحي: لغة الإعلام بسرعة.

وشرعا: إخبار الله تعالى لنبي من أنبيائه بما يشاءه من شرعه.

قال القرطبي: قوله تعالى (نوحيه إليك) فيه دلالة على نبوة محمد ﷺ حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب؛ وأخبر عن ذلك وصدقه أهل الكتاب بذلك؛ فذلك قوله تعالى (نوحيه إليك) فرد الكناية إلى "ذلك" فلذلك ذكر.

(وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) أي: وما كنت عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا أقلامهم للقرعة كل يريدها في كنفه ورعايته.

والأقلام جمع قلم وهي التي كانوا يكتبون بها التوراة، وقيل المراد بها السهام.

أي: وما كنت - يا محمد - لديهم أي: عندهم معاينا لفعلهم وما جرى من أمرهم في شأن مريم، إذ يلقون أقلامهم التي جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل

=

=

مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون فيما بينهم بسببها تنافسا في كفالتها (وما كنت لديهم إذ يختصمون) أي: يتنازعون فيمن يكفلها منهم.

والغرض: أن هذه الأخبار كانت وحيا من عند الله العليم الخبير.

قال الرازي: ذكروا في تلك الأقلام وجوها:

الأول: المراد بالأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة وسائر كتب الله تعالى، وكان القراع على أن كل من جرى قلمه على عكس جري الماء فالحق معه، فلما فعلوا ذلك صار قلم زكريا كذلك فسلموا الأمر له وهذا قول الأكثرين.

والثاني: أنهم لما ألقوا عصيهم في الماء الجاري جرت عصا زكريا على ضد جرية الماء فغلبهم، هذا قول الربيع

والثالث: قال أبو مسلم: معنى يلقون أقلامهم مما كانت الأمم تفعله من المساهمة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم فمن خرج له السهم سلم له الأمر، وقد قال الله تعالى (فساهم فكان من المدحضين) وهو شبيه بأمر القداح التي تتقاسم بها العرب لحم الجزور، وإنما سميت هذه السهام أقلاما لأنها تقلم وتبرى، وكل ما قطعت منه شيئا بعد شيء فقد قلمته، ولهذا السبب يسمى ما يكتب به قلما.

قال القاضي: وقوع لفظ القلم على هذه الأشياء وإن كان صحيحا نظرا إلى أصل الاشتقاق، إلا أن العرف أوجب اختصاص القلم بهذا الذي يكتب به، فوجب حمل لفظ القلم عليه.

قال القرطبي: استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة، وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظنة عمن يتولى قسمتهم، ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد اتباعا للكتاب

=

=

والسنة.

ورد العمل بالقرعة أبو حنيفة وأصحابه، وردوا الأحاديث الواردة فيها، وزعموا أنها لا معنى لها وأنها تشبه الأزلام التي نهى الله عنها.

وحكى ابن المنذر عن أبي حنيفة أنه جوزها وقال: القرعة في القياس لا تستقيم، ولكنا تركنا القياس في ذلك وأخذنا بالآثار والسنة.

قال أبو عبيد: وقد عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء: يونس وزكريا ونبينا محمد ﷺ.

قال ابن المنذر: واستعمال القرعة كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول من ردها.

وقد ترجم البخاري في آخر كتاب الشهادات (باب القرعة في المشكلات وقول الله عز وجل (إذ يلقون أقلامهم) وساق حديث النعمان بن بشير (مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها مثل قوم استهموا على سفينة ...).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا).

وفي الصحيحين أيضا عن عائشة أن النبي ﷺ (كان إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه).

مسألة: في أحكام القرعة:

وفي قول تعالى {وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} دليل على جواز العمل بالقرعة، وأنها ملزمة لمن رضي بها وتخاصم إليها، خلافا لبعض الحنفية في قول من قال بالقرعة منهم، جعلوها غير ملزمة؛ وإنما هي لتطييب النفوس، ورفع تهمة المحاباة في القسمة.

ومن ذلك: قوله تعالى في الصافات: {وإن يونس لمن المرسلين (١٣٩) إذ أبق إلى الفلك المشحون (١٤٠) فساهم فكان من المدحضين} [١٣٩ - ١٤١]،

=

=

والمساهمة ها القرعة.

وهذان الموضعان من القرآن أصل في جواز القرعة ومشروعيتها.

والقرعة في كفالة مريم: وضعهم لأقلامهم على صفة الله أعلم بها، فليس في الباب شيء مرفوع، وقال غير واحد من السلف: إن المراد بالأقلام أقلام الكتابة، وقيل: هي القداح، وقيل: هي العصي.

فقيل: إنهم رموا القداح في النهر، فانحدرت القداح مع جرية الماء، وبقي قدح زكريا مرتزا صاعدا.

ولا يقترع الناس إلا عند التنازع وتساوي الحقوق واشتباهها، وقد ترجم البخاري على ذلك بقوله: (باب القرعة في المشكلات وقول الله عز وجل: {إذ يلقون أقلامهم}).

وأما عند ظهور صاحب الحق، فلا قرعة؛ لأن القرعة شرعت لرفع النزاع والخصومة، وشح النفوس وطمعها؛ وهذا لا يكون إلا عند تساوي الحق واشتباهه بين مدعيه، وأما عند ظهور صاحب الحق، فالقرعة انتزاع للحق بالباطل، وأكل له بغير حق.

وإنما تنازع بنو إسرائيل في مريم؛ لأنها بنت سيدهم عمران، فكل واحد طمع في كفالتها والسبق بحضانتها احتسابا وجاها.

والقرعة جائزة، بل قد تستحب وتجب إذا كان النزاع لا يرفع إلا بها، فما لا يدفع المحرم إلا به فهو واجب إذا لم يكن محرما هو في ذاته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وبجواز القرعة يقول السلف؛ وهو قول مالك والشافعي وأحمد، وعن أبي حنيفة في ذلك قولان:

الأول: التحريم؛ لمشابهتها للأزلام، وبهذا قال أصحابه، وذهب إلى هذا جماعة

=

=
من الكوفيين وقالوا بنسخ القرعة.
وقيده الطحاوي: بأن القرعة المنسوخة: التي تقوم مقام البينة القاطعة في الأحكام، لا القرعة التي تكون لتطييب النفوس كالقرعة بين الزوجات في السفر ونحو ذلك، وعلل ذلك: بأنه يجوز له أن يسافر دونهن، وليس لهن حق في أصل الصحبة، وإذا جاز تركهن جميعا، فيجوز له أن يترك بعضهن.
وفي هذا الإطلاق نظر؛ فإن الزوجات إذا استوين من جهة القدرة على السفر والقيام بحق الزوج فيه، وجب الإقراع بينهن، وإذا اختلفن في الحال، فيفرق بين المريضة والصحيحة، ومن لا تجد من يخلفها في ذريتها ومن تجد من يخلفها؛ وهذا قول جمهور العلماء؛ قال به أبو حنيفة على الاستحباب، وإلى الوجوب ذهب الشافعي وأحمد، وهو أحد أقوال مالك، وقد فعله النبي ﷺ مع أن القسم عليه ليس بواجب على الأصح، وهو على غيره واجب؛ لأن السفر بواحدة منهن بلا قرعة ميل وتفضيل ومدعاة للخصومة والنزاع وقطيعة الأرحام بين الذرية.
ومن أقرع بين نسائه، فسافر بواحدة منهن، لا يجب عليه أن يقسم لمن غاب عنهن مثل أيام سفره؛ لأنه لا معنى للقرعة إذا، فهي تفصل في الحقوق المشتركة، ومن أخذ واحدة بلا قرعة، وجب عليه أن يقسم لمن غاب عنهن مثل أيام سفره أو يتحلل منهن.
القول الثاني: ما نقله ابن المنذر عن أبي حنيفة: أنه جوزها، وقال: القرعة في القياس لا تستقيم، ولكنا تركنا القياس في ذلك، وأخذنا بالآثار والسنة.
والعمل بالقرعة بلغ التواتر في السنة، وهو قطعي في الكتاب؛ قال أبو عبيد: "وقد عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء: يونس وزكريا ونبينا محمد ﷺ".
وثبتت القرعة في السنة في أحاديث كثيرة، في "الصحيحين"، وغيرهما:
منها: حديث عائشة؛ قالت: "كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا، أقرع بين نسائه؛
=

=

فأيتهن خرج سهمها، خرج بها معه".

وجاء من حديث زينب وغيرها.

ومنها: حديث أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه، لاستهموا)؛ رواه الشيخان.

ومنها: حديث النعمان بن بشير مرفوعا: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة ...)؛ الحديث؛ رواه البخاري وغيره.

ومنها: حديث أم سلمة؛ قالت: أتى رسول الله ﷺ رجلان يختصمان في مواريث لهما، لم تكن لهما بينة إلا دعواهما، فقال النبي ﷺ، فذكر مثله، فبكى الرجلان، وقال كل واحد منهما: حقي لك، فقال لهما النبي ﷺ: (أما إذ فعلتما ما فعلتما، فاقتسما، وتوخيا الحق، ثم استهما، ثم تحالا).

ومنها: حديث عمران بن حصين: "أن رجلا أعتق ستة مملوكين له عند موته، لم يكن له مال غيرهم، فدعا بهم رسول الله ﷺ، فجزأهم أثلاثا، ثم أقرع بينهم، فأعتق اثنين، وأرق أربعة، وقال له قولا شديدا"؛ أخرجه مسلم وغيره.

ومنها: ما رواه البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه: "أن النبي ﷺ عرض على قوم اليمين، فأسرعوا، فأمر أن يسهم بينهم في اليمين أيهم يحلف".

ومنها: ما جاء عن أبي هريرة: "أن رجلين ادعيا دابة، ولم يكن لهما بينة، فأمرهما النبي ﷺ أن يستهما على اليمين".

وروي أن رسول الله ﷺ أقرع عام خيبر، وقد كان الناس ملكوا ملكا مشاعا، فلما كانت القرعة، زال ملك كل واحد منهم عن بعض ما كان يملك، وملك شيئا لم يكن بملكه على الكمال.

وجاء عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء الأنصارية، قالت: نزل رسول الله ﷺ والمهاجرون معه المدينة في الهجرة، فتشاحت الأنصار فيهم أن ينزلوهم في

=

=

منازلهم حتى اقترعوا عليهم، فطار لنا عثمان بن مظعون على القرعة؛ تعني: وقع في سهمنا.

وقد أقر النبي ﷺ علي بن أبي طالب على أخذه بالقرعة في إلحاق النسب لولد بأب له في ثلاثة وقعوا على امرأة في طهر واحد؛ كلهم يدعي الولد له، فأقرع بينهم ودفع الولد لمن خرجت قرعته وألزمه بثلث الدية، فبلغ النبي ﷺ ذلك، فضحك حتى بدت نواجذه.

أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما.

وعمل بالقرعة عثمان وعبد الله بن الزبير.

وأقرع سعد بن أبي وقاص عندما أصيب المؤذن في القادسية، فاختصم الناس على الأذان؛ رواه الطبري، عن شقيق، عنه.

وأقرعت صفية بنت عبد المطلب بين شقيقها حمزة وبين أنصاري على ثوبين: أيهما أحق بالثوب الكبير، فيكفن به؛ وكان ذلك لما قتلا ومثل بهما في غزوة أحد، وكانت صفية أخت حمزة عمة النبي ﷺ.

أخرجه أحمد من حديث ابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه.

وصفية عمة النبي ﷺ وبنت خالته؛ لأن أمها أخت أم النبي ﷺ وهي هالة بنت وهب، أخت آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ.

* الفرق بن القرعة والأزلام: ولا أعلم من منع منها من السلف السابق، وقياسها على الأزلام قياس فاسد مع تضافر النصوص وتواترها؛ فالاستقسام بالأزلام في الجاهلية كذب على الله، وافتراء عليه، ويفعلونه عند أصنامهم وأوثانهم؛ فكان الجاهليون إذا أراد أحدهم سفرا، أو عزم على فعل مهم، أجال القداح، وهي الأزلام، وهي على ثلاثة أضرب؛ منها ما كتب عليه: أمرني ربي، ومنها ما كتب عليه: نهاني ربي، ومنها غفل لا كتابة عليه، يسمى: المنيح، فإذا خرج: أمرني ربي،

=

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥).

=

مضى في الحاجة، وإذا خرج: نهاني ربي، قعد عنها، وإذا خرج: الغفل، أجالها ثانية.

والله لا يأمرهم بهذا، وهذا فعل فرد لا يشاحه عليه أحد ولا ينازعه فيه منازع، ويفعلون هذا الفعل تيمنا وتعظيما، والقرعة تفعل عند المشاحة والنزاع عند استواء الحقوق وتشابهها، بلا تعظيم، ولا ينسبون ذلك إلى الله، ولا يقصدونه في مكان معظم كالمسجد الحرام أو غيره.

والقول بأن القرعة قمار واستقسام بالأزلام أو تطير: جهل بالقمار والتطير والاستقسام بالأزلام والقرعة، فالتطير يفعله الإنسان لنفسه ولغيره، والقرعة للفصل في الحقوق بين المتنازعين، وليس ليفعل الإنسان في نفسه أو لا يفعل، فمن أراد سفرا أو زواجا فوضع الأقداح أو الأقلام لتمضيه إلى فعل أو ترده عنه، فهذا باطل، والقرعة ليست لعمل الإنسان في نفسه؛ بل للفصل في حق المتخاصمين، وهذا يظهر في قوله تعالى: {وما كنت لديهم إذ يختصمون}، يعني: مع زكريا في كفالة مريم.

وكان أحمد يشدد على من ينكرها، وقد سئل عن القرعة، ومن قال: إنها قمار؟ قال: إن كان ممن سمع الحديث، فإذا كلام رجل سوء؛ يزعم أن حكم رسول الله ﷺ قمار.

وقال مرة: هذا قول رديء خبيث.

وقال: من ادعى أنها منسوخة، فقد كذب وقال الزور.

وقال: القرعة حكم رسول الله ﷺ وقضاؤه؛ فمن رد القرعة، فقد رد على رسول الله ﷺ قضاءه وفعله.

اُذْكُرْ {إذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَة} أَيْ جِبْرِيل {يَا مَرْيَم إنَّ الله يُبَشِّرك بِكَلِمَةٍ مِنْهُ} أَيْ ولد {اسمه المسيح عيسى بن مَرْيَم} خَاطَبَهَا بِنِسْبَتِهِ إلَيْهَا تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهَا تَلِدهُ بِلَا أَب إذْ عَادَة الرِّجَال نِسْبَتهمْ إلَى آبَائِهِمْ {وَجِيهًا} ذَا جَاه {فِي الدُّنْيَا} بِالنُّبُوَّةِ {وَالْآخِرَة} بِالشَّفَاعَةِ وَالدَّرَجَات الْعُلَا {وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ} عند الله.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦).

{وَيُكَلِّم النَّاس فِي الْمَهْد} أَيْ طِفْلًا قَبْل وَقْت الْكَلَام {وكهلا ومن الصالحين}.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧).

{قَالَتْ رَبّ أَنَّى} كَيْفَ {يَكُون لِي وَلَد وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَر} بِتَزَوُّجٍ وَلَا غَيْره {قَالَ} الْأَمْر {كَذَلِك} مِنْ خَلْق وَلَد مِنْك بِلَا أَب {الله يَخْلُق مَا يَشَاء إذَا قَضَى أَمْرًا} أَرَادَ خَلْقه {فَإِنَّمَا يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون} أَيْ فَهُوَ يَكُون.

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨).

{وَيُعَلِّمهُ} بِالنُّونِ وَالْيَاء {الْكِتَاب} الْخَطّ {والحكمة والتوراة والإنجيل.

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩).

{و} يَجْعَلهُ {رَسُولًا إلَى بَنِي إسْرَائِيل} فِي الصِّبَا أَوْ بَعْد الْبُلُوغ فَنَفَخَ جِبْرِيل فِي جَيْب دِرْعهَا فَحَمَلَتْ وَكَانَ مِنْ أَمْرهَا مَا ذُكِرَ فِي سُورَة مَرْيَم فَلَمَّا بَعَثَهُ الله إلَى بَنِي إسْرَائِيل قَالَ لَهُمْ إنِّي رَسُول الله إلَيْكُمْ {أَنِّي} أَيْ بِأَنِّي {قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ}

عَلَامَة عَلَى صِدْقِي {مِنْ رَبّكُمْ} هِيَ {أَنِّي} وَفِي قِرَاءَة بِالْكَسْرِ اسْتِئْنَافًا {أَخْلُق} أُصَوِّر {لَكُمْ مِنْ الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْر} مِثْل صُورَته فَالْكَاف اسْم مَفْعُول {فَأَنْفُخ فِيهِ} الضَّمِير لِلْكَافِ {فَيَكُون طَيْرًا} وَفِي قِرَاءَة طَائِرًا {بِإِذْنِ الله} بِإِرَادَتِهِ فَخَلَقَ لَهُمْ الْخُفَّاش لِأَنَّهُ أَكْمَل الطَّيْر خَلْقًا فَكَانَ يَطِير وَهُمْ يَنْظُرُونَهُ فَإِذَا غَابَ عَنْ أَعْيُنهمْ سَقَطَ مَيِّتًا {وَأُبْرِئ} أُشْفِي {الْأَكْمَه} الَّذِي وُلِدَ أَعْمَى {وَالْأَبْرَص} وَخُصَّا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا دَاءَا إعْيَاء وَكَانَ بَعْثه فِي زَمَن الطِّبّ فَأَبْرَأ فِي يَوْم خَمْسِينَ أَلْفًا بِالدُّعَاءِ بِشَرْطِ الإيمان {وأحيي الْمَوْتَى بِإِذْنِ الله} كَرَّرَهُ لِنَفْيِ تَوَهُّم الْأُلُوهِيَّة فيه فأحيا عازر صديقا له وبن الْعَجُوز وَابْنَة الْعَاشِر فَعَاشُوا وَوُلِدَ لَهُمْ وَسَام بْن نُوح وَمَاتَ فِي الْحَال {وَأُنَبِّئكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ} تُخَبِّئُونَ {فِي بُيُوتكُمْ} مِمَّا لَمْ أُعَايِنهُ فَكَانَ يُخْبِر الشَّخْص بِمَا أَكَلَ وَبِمَا يَأْكُل بَعْد {إنَّ فِي ذَلِكَ} الْمَذْكُور {لآية لكم إن كنتم مؤمنين}.

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠).

{و} جِئْتُكُمْ {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْن يَدَيَّ} قَبْلِي {مِنْ التَّوْرَاة وَلِأُحِلّ لَكُمْ بَعْض الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} فِيهَا فَأَحَلَّ لَهُمْ مِنْ السَّمَك وَالطَّيْر مالا صِيصَة لَهُ وَقِيلَ أَحَلَّ الْجَمِيع فَبَعْض بِمَعْنَى كُلّ {وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبّكُمْ} كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا وَلِيَبْنِيَ عَلَيْهِ {فَاتَّقُوا الله وَأَطِيعُونِ} فِيمَا آمُركُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيد الله وَطَاعَته.

إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١).

{إنَّ الله رَبِّي وَرَبّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا} الَّذِي آمُركُمْ بِهِ {صِرَاط} طَرِيق

{مُسْتَقِيم} فَكَذَّبُوهُ وَلَمْ يؤمنوا به[1].

---

(١) قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ} [آل عمران: ٤٥]، أي وما كنت، يا محمد، عند القوم حين قالت الملائكة: يا مريم إن الله يبشرك "برسالة منه وخبر من عنده".

قال ابن عباس: "{بِكَلِمَةٍ مِنْهُ}، قال: عيسى، وهو الكلمة من الله".

وقال أبو عبيدة: "{إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ}، أي: الرسالة هو ما أوحى الله به إلى الملائكة في أن يجعل لمريم ولدا".

قال ابن كثير: "أي: بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي: بقوله له: "كن" فيكون، وهذا تفسير قوله: {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ} [آل عمران: ٣٩] كما ذكره الجمهور".

قال الطبري: "والتبشير: إخبار المرء بما يسره من خبر".

قال الزجاج: "سمى الله عز وجل عيسى المسيح، وسماه عيسى، وسمي ابتداء أمره كلمة منه فهو ﷺ كلمة من الله ألقاها إلى مريم، ثم كون تلك الكلمة بشرا".

وهذه بشارة من الملائكة لمريم، عليها السلام، بأن سيوجد منها ولد عظيم، له شأن كبير.

(إن الله يبشرك بكلمة منه) أي: بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي: بقوله له (كن فيكون) وهذا تفسير قوله (مصدقا بكلمة من الله) كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه.

قال ابن عاشور: ووصف عيسى بكلمة مراد به كلمة خاصة مخالفة للمعتاد في تكوين الجنين أي بدون الأسباب المعتادة.

قوله تعالى (بكلمة منه) (من) ليست تبعيضية، بل ابتدائية، كقوله ﷺ (وروح منه) من: ابتدائية، وليست تبعيضية، كقوله تعالى (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه) أي: روح صادرة من الله، وليست جزءا من الله كما تزعم =

=

النصارى.

قال الماتريدي: "يحتمل: {بكلمة منه}: أن قال: "كن" - فكان من غير أب ولا سبب، وسائر البشر لم يكونوا إلا بالآباء والأسباب: من النطفة، ثم من العلقة، ثم من مضغة مخلقة على ما وصف - عز وجل - في كتابه، وكان أمر عيسى - عليه السلام - على خلاف ذلك.

ويحتمل {بكلمة منه}: ما ذكر أنه كلم الناس في المهد: (إني عبد الله آتاني الكتاب) وذلك مما خص به عيسى، وهو بكلمة من الله قال ذلك".

قوله تعالى: {اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} [آل عمران: ٤٥]، " أي اسمه عيسى ولقبه المسيح".

قال ابن كثير: "أي يكون مشهورًا بهذا في الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك".

وفي تسميته بالمسيح أقوال:

أحدها: أنه سمّي بذلك لكثرة سياحته. حكاه ابن كثير عن بعض السلف.

والثاني: لأنه مُسِحَ بالبركة، وهذا قول الحسن وسعيد.

والثالث: أنه مُسِحَ بالتطهر من الذنوب. وأن المسيح: الصدّيق. قاله إبراهيم وهو اختيار الإمام الطبري.

والرابع: وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: أي لا أَخْمَص لهما.

والخامس: وقيل: المسيح بمعنى الماسح، لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى، فيمسح عين الأعمى والأعور فيبصر.

والسادس. ان المسيح: الملك. قاله الكلبي، وأبو عمرو بن علاء.

والسابع: وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن. قاله أبو سليمان الدمشقي.

والثامن: أن المسيح ضد المسيخ، يقال: مسحه الله أي خلقه خلقا حسنا مباركا،

=

=

ومسخه أي خلقه خلقا ملعونا قبيحا. قاله أبو الهيثم.

والتاسع: وقيل: أن المسيح أصله بالعبرانية "مشيحا" بالشين، فعرّب كما عرّب: موشى بموسى. قاله أبو عبيدة.

وينسب لأمه، حيث لا أب له.

قال ابن تيمية: ولهذا لما ذكر الله المسيح في القرآن قال (ابن مريم) بخلاف سائر الأنبياء وفي ذلك فائدتان:

إحداهما: بيان أنه مولود، والله لم يولد.

والثانية: نسبته إلى مريم، بأنه ابنها ليس هو ابن الله.

قوله تعالى: {وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [آل عمران: ٤٥]، أي: "ذا جاه وقدر في الدنيا والآخرة".

قال النحاس: "الوجية الذي له القدر والمنزلة الرفيعة يقال لفلان جاه وجاهة وقد وجه يوجه وجاهة".

أي: له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا، بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله عليهم.

قال الشوكاني: وجاهته في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة.

وقال أبو حيان: وقيل: في الدنيا بالطاعة، وفي الآخرة بالشفاعة.

وقيل: في الدنيا بإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص، وفي الآخرة بالشفاعة.

وقيل: في الدنيا كريما لا يرد وجهه، وفي الآخرة في علية المرسلين.

وقال الزمخشري: الوجاهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة.

وقال ابن عطية: وجاهة عيسى في الدنيا نبوته وذكره ورفعه، وفي الآخرة مكانته

=

=

ونعميه وشفاعته.

قوله تعالى: {وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [آل عمران: ٤٥]، أي: "ومن المقربين عندالله يوم القيامة".

قال الطبري: "أنه ممن يقرِّبه الله يوم القيامة، فيسكنه في جواره ويدنيه منه".

قال قتادة: ": من المقربين عند الله يوم القيامة". وروي عن الربيع مثله.

قال الهرري: أي: "إلى الله في جنة عدن، وهذا الوصف كالتنبيه على أن عيسى سيرفع إلى السماء، وتصاحبه الملائكة".

قوله تعالى: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)} [آل عمران: ٤٦].

ويكلم الناس وهو رضيع قبل أوان الكلام، ويدعوهم إلى الله وهو كبير قد اجتمعت قوته وكمل شبابه بما أوحاه الله إليه. وهذا تكليم النبوَّة والدعوة والإرشاد، وهو معدود من أهل الصلاح والفضل في قوله وعمله.

قوله تعالى: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا} [آل عمران: ٤٦]، "أي: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، في حال صغره، معجزة وآية، وفي حال كهوليته حين يوحي الله إليه بذلك".

قال محمد بن إسحاق: "يخبرهم بحالاته التي يتقلب فيها عمره كتقلب بني في آدم أعمارهم صغارا أو كبارا، لأن الله تعالى جده خصه بالكلام في مهده، آية لنبوته، وتعريفا للعباد مواقع قدرته".

قال الزمخشري: أي: "يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء".

قال الماوردي: "والمهد: مضجع الصبي، مأخوذ من التمهيد".

=

=

قال ابن عباس: "{ويكلم الناس في المهد}، قال: مضجع الصبي في رَضَاعه".
واختلفوا في تفسير قوله تعالى: {وَكَهْلًا} [آل عمران: ٤٦]، وفيه أقوال:
أحدهما: أن المراد بالكهل الحليم، وهذا قول مجاهد، وعكرمة، وقال يزيد بن أبي حبيب: "الكهل: منتهى الحلم".
والثاني: أنه أراد الكهل في السنّ، وهو قول ابن عباس. قال الناحس: "يقال اكتهل النبت إذا تم، والكهل ابن الاربعين أو ما قاربها".
والثالث: يعني: إذا اجتمع قبل أن يرفع إلى السماء. قاله مقاتل.
والرابع: أن (كهلا) بعد نزوله من السماء. قاله الحسن بن الفضل.
والخامس: المراد: أنه تعالى أخبرهما أنه يبقى حتى يكتهل. قاله ابن كيسان.
والسادس: وقيل: يكلم الناس في المهد: صبيا وكهلا نبيا، ولم يتكلم في المهد من الأنبياء، إلا عيسى -عليه السلام-، فكلامه في المهد معجزة وفي الكهولة دعوة.
والسابع: {وكهلا}: أي عظيما، والعرب تمدح بالكهولة لأنها أعظم؟ على في احتناك السن، واستحكام العقل، وجودة الرأي والتجربة. وهذا احد قولي مجاهد.
واختلفوا في تحديد سن الكهل على ثلاثة اقوال:
أحدها: أنه بلوغ أربع وثلاثين سنة.
والثاني: أن الكهل ابن أربعين إلى الخمسين سنة. حكاه الهرري عن ثابن بن أبي ثابت.
والثالث: أنه فوق حال الغلام ودون حال الشيخ، مأخوذ من القوة من قولهم اكتهل البيت إذ طال وقوي.
قال الطبري: "وأما قوله: {وكهلا}، فإنه: وُمحتَنِكًا فوق الغُلومة، ودُون الشيخوخة، يقال منه: رجل كهل وامرأة كهلة، كما قال الراجز:

=

=

وَلا أَعُودُ بَعْدَهَا كَرِيًّا... أُمَارِسُ الكَهْلَةَ وَالصَّبِيَّا

وإنما عنى جل ثناؤه بقوله: {ويكلم الناسَ في المهد وكهلا}، ويكلم الناس طفلا في المهد دلالةً على براءَة أمه مما قَرَفها به المفترون عليها، وحجة له على نبوّته وبالغًا كبيرًا بعد احتناكه، بوحي الله الذي يوحيه إليه، وأمره ونهيه، وما ينزل عليه من كتابه".

قال الماوردي: "فإن قيل فما المعنى في الإخبار بكلامه كهلًا وذلك لا يستنكر؟ ففيه قولان:

أحدها: أنه يكلمهم كهلًا بالوحي الذي يأتيه من الله تعالى.

والثاني: انه يتكلم صغيرًا في المهد كلام الكهل في السنّ".

قال الماتريدي: "فإن قيل: ما معنى قوله: {ويكلم الناس في المهد وكهلا} والكهل: مما يكلم الناس؟ قيل: لأن كلامه في المهد آية، والآية لا تدوم؛ كقوله: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ} [النور: ٢٤] الآية، وإنما يكون ذلك مرة لا أنها تشهد وتنطق أبدا، فأخبر أن تكليمه الناس في المهد - وإن كانت آية - فإنه ليس بالذي لا يدوم، ولا يكون إلا مرة.

والثاني: أمن من الله لمريم، وبشارة لها عن وفاته إلى وقت كهولته، والله أعلم".

والتحقيق في هذا الإخبار من قبل الله تعالى من أمر المسيح "وإن كان الغالب من أمر الناس أنهم يتكلمون كهولا وشيوخًا احتجاجًا به على القائلين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى الباطلَ، وأنه كان منذ أنشأه مولودًا طفلا ثم كهلا يتقلب في الأحداث، ويتغير بمرُور الأزمنة عليه والأيام، من صِغر إلى كبر، ومن حال إلى حال وأنه لو كان، كما قال الملحدون فيه، كان ذلك غيرَ جائز عليه. فكذّب بذلك ما قاله الوفدُ من أهل نجران الذين حاجُّوا رسول الله ﷺ فيه، واحتج به عليهم لنبيه محمد ﷺ، وأعلمهم أنه كان كسائر بني آدم، إلا ما خصه الله به من الكرامة

=

=

التي أبانه بها منهم".

عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج وكان جريج رجلا عابدا فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلى فقالت يا جريج. فقال يا رب أمي وصلاتي ... وبينا صبى يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا. فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه فقال اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع. قال فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه فجعل يمصها. قال ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون زنيت سرقت. وهى تقول حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمه اللهم لا تجعل ابني مثلها. فترك الرضاع ونظر إليها فقال اللهم اجعلني مثلها. فهناك تراجعا الحديث فقالت حلقى مر رجل حسن الهيئة فقلت اللهم اجعل ابني مثله. فقلت اللهم لا تجعلني مثله. ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت سرقت. فقلت اللهم لا تجعل ابني مثلها. فقلت اللهم اجعلني مثلها قال إن ذاك الرجل كان جبارا فقلت اللهم لا تجعلني مثله. وإن هذه يقولون لها زنيت. ولم تزن وسرقت ولم تسرق فقلت اللهم اجعلني مثلها) رواه مسلم.

قال بعض العلماء: وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد ويعيش إلى أن يكلمهم كهلا، إذ كانت العادة أن
من تكلم في المهد لم يعش.

قال الأصم: المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة.

قوله تعالى: {وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: ٤٦]، أي: وهو من العباد الصالحين".

قال الصابوني: "أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح".

=

=

قال ابن كثير: "أي: في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح".

قال عطاء: "يريد: مثل: موسى، وإسرائيل، وإسحاق، وإبراهيم".

قال الهرري: أي: "وحالة كونه كائنًا من العباد {الصَّالِحِينَ} ومعدودًا منهم، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، الذين تعرف مريم سيرتهم؛ مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى، وغيرهم من الأنبياء".

قال الطبري (ومن الصالحين) فإنه يعني: من عدادهم وأوليائهم، لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض في الدين والفضل (قالت رب أنى يكون لي ولد) أي: قالت ذلك متعجبة.

قوله تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)} [آل عمران: ٤٧

قالت مريم متعجبة من هذا الأمر: أنَّى يكون لي ولد وأنا لست بذات زوج ولا بَغِيٍّ؟ قال لها المَلَك: هذا الذي يحدث لكِ ليس بمستبعد على الإله القادر، الذي يوجِد ما يشاء من العدم، فإذا أراد إيجاد شيء فإنما يقول له: «كُن» فيكون.

قوله تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} [آل عمران: ٤٧]، " أي قالت: ياربي: كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج؟".

قال السدي: "تقول: من أين لي".

قال مقاتل: "يعني الزوج".

قال الطبري: "من أيِّ وجه يكون لي ولد؟ أمِن قبل زوج أتزوجه وبعل أنكحه، أمْ تبتدئ فيَّ خلقه من غير بعل ولا فحل، ومن غير أن يمسَّني بشر".

قال السمرقندي: "وهو كناية عن الجماع".

قال الهرري: "أي قالت: كيف يكون لي ولد وليس لي زوج؟ أي: لم يصبني رجل بالحلال ولا بالحرام؟؛ لأن المحررة لا تتزوج أبدًا كالذكر المحرر.

=

=

وقد يكون مرادها: أيحدث ذلك بزواج أم يحصل بقدرتك؟ وقد يكون قصدها: التعجب من قدرة الله واستعظام شأنه".

قال السمعاني: "قالت ذلك تعجبا؛ إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد بلا أب".

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (قالت رب أنى يكون لي ولد) في علة قولها هذا قولان:

أحدهما: أنها قالت هذا تعجبا واستفهاما، لا شكا وإنكارا، على ما أشرنا إليه في قصة زكريا، وعلى هذا الجمهور.

والثاني: أن الذي خاطبها كان جبريل، وكانت تظنه آدميا يريد بها سوءا، ولهذا قالت (أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا).

قوله تعالى: {قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران: ٤٧]، أي: "إن الأمر كذلك، أن الله يخلق ما يشاء".

قال الصابوني: "أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسببٍ من الوالدين وبغير سبب".

قال محمد بن إسحاق: "أي يضع ما أراد ويخلق ما يشاء من بشر أو غير بشر".

قال السمعاني: "أي: لا يعسر عليه شيء، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد".

قال الهرري: "أي: كما قلت لكِ من خلق ولد منك بلا أب {اللهُ} سبحانه وتعالى {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} كيف شاء بسبب، وبلا سبب، مثل هذا الخلق العجيب، والإحداث البديع - وهو خلق الولد بغير أبٍ - يخلق الله ما يشاء، فإن قلت: لِمَ عبَّر هنا بالخلق، وفي قصة يحيى بالفعل [يفعل ما يشاء} ؟

قلت: لأن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر، أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ كبير، فكأن الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل كما سبق".

=

=

قوله تعالى: {إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا} [آل عمران: ٤٨]، " أي إِذا أراد شيئًا".

قال القشيري: أي: إذا" أراد إمضاء حكم".

قال الهرري: "أي: إذا أراد خلق شيء من الكائنات".

قال الراغب: "القضاء: الفصل، وذلك إما بالتدبير، وإما بالقول، وإما بالفعل، فالأول لا يصح على الله عز وجل إلا بمعنى الحكم إذ كان التدبير: التفكر في الشيء وارتياد الصلاح فيه، وذلك لمن كان ناقص العلم، فقوله: قضى، ها هنا إما للقول، وإما للفعل، أو لهما جميعا".

قوله تعالى: {يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٤٨]، أي: "إنما فيقول له كن فيكون من غير تأخر ولا حاجة إلى سبب".

فلا يتأخر شيئا، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أي: إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعا كلمح بالبصر.

قال محمد بن إسحاق: "مما يشاء وكيف يشاء فيكون كما أراد".

قال الهرري: أي يقول له: "أحدث وأخرج من العدم، فذلك الأمر يوجد بسرعة من غير تباطؤ".

قال التستري: "إذا كان في علمه السابق الأزلي أمر فأراد إظهاره قال له كن فيكون".

قال الطبري: يقول تعالى: قالت مريم إذ قالت لها الملائكة أن الله يبشرك بكلمة منه: (رب أنى يكون لي ولد) من أي وجه يكون لي ولد؟ أمن قبل زوج أتزوجه وبعل أنكحه، أم تبتدئ في خلقه من غير بعل ولا فحل، ومن غير أن يمسني بشر؟ فقال الله لها (كذلك الله يخلق ما يشاء) يعني: هكذا يخلق الله منك ولدا لك من غير أن يمسك بشر، فيجعله آية للناس وعبرة، فإنه يخلق ما يشاء ويصنع ما يريد،

=

=

فيعطي الولد من يشاء من غير فحل ومن فحل، ويحرم ذلك من يشاء من النساء وإن كانت ذات بعل، لأنه لا يتعذر عليه خلق شيء أراد خلقه، إنما هو أن يأمر إذا أراد شيئا ما أراد خلقه فيقول له (كن فيكون) ما شاء، مما يشاء، وكيف شاء.

قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨)} [آل عمران: ٤٨].

ويعلمه الكتابة، والسداد في القول والفعل، والتوراة التي أوحاها الله إلى موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل الله عليه.

قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ} [آل عمران: ٤٩]، أي: ويعلمه "الكتابة".

قال ابن عباس: "الكتاب: الخط بالقلم". وروي عن يحيى بن أبي كثير، ومقاتل بن حيان، وعثمان بن عطاء مثل ذلك.

وقال الحسن: "الكتاب: القرآن".

قال ابن كثير: "الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا الكتابة".

قال الطبري: أي: "فيعلمه الكتاب، وهو الخطّ الذي يخطه بيده".

قال البغوي: "أي الكتابة والخط".

وقال ابن عطية: "(ويعلمه الكتاب) هو الخط باليد فهو مصدر كتب يكتب. هذا قول ابن جريج وجماعة المفسرين، وقال بعضهم: هي إشارة إلى كتاب منزل لم يعين وهذه دعوى لا حجة عليها".

وقال القرطبي: "وقيل: هو كتاب غير التوراة والإنجيل علمه الله عيسى عليه السلام".

قال الماتريدي: "بشارة منه لها -أيضا-: أنه يعلمه الكتاب... ويحتمل {الكتاب} الكتاب نفسه: التوراة والإنجيل، ويحتمل {الكتاب}: كتب النبيين".

وفي قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ} [آل عمران: ٤٩]، وجهان من القراءة:

أحدهما: {وَيُعَلِّمُهُ} بالياء، ردًّا على قوله: {كذلك الله يخلق ما يشاء}، {ويعلمه

=

=

الكتاب} . قرا بهذا الوجه نافع وعاصم.

والثاني: {وَنُعَلِّمُهُ} بالنون، عطفًا به على قوله: {نوحيه إليك}، كأنه قال: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، ونعلمه الكتاب. قرأ به ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي.

قال الطبري: و"قراءتان مختلفتان، غير مختلفتي المعاني، فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب الصوابَ في ذلك، لاتفاق معنى القراءتين، في أنه خبر عن الله بأنّه يعلم عيسى الكتاب، وما ذكر أنه يعلمه".

قوله تعالى: {وَالْحِكْمَةَ} [آل عمران: ٤٩]، أي: ويعلمه الحكمة.

قال ابن عباس: "{والحكمة}: الفقه وقضاء النبيين".

قال قتادة: "الحكمة: السنة". وروي عن الحسن، وأبي مالك، ومقاتل بن حيان، وابن جريج مثله.

وقال السدي: "{والحكمة}، يعني: النبوة".

وقال زيد بن أسلم: "الحكمة: العقل في الدين".

قال الطبري: "وهي السنة التي يُوحيها إليه في غير كتاب".

قال البغوي: أي: "العلم والفقه".

قال الماتريدي: "{والحكمة}: قيل: الحكم بين الخلق، وقيل: الفقه، وقيل: الحلال والحرام، وقيل: السنة، {والحكمة}: هي الإصابة".

قال ابن عثيمين: "{الحكمة}: يعني الشريعة، لأن الشريعة من الله، وكل ما كان من الله فهو متضمن للحكمة، قال تعالى لنبينا محمد-ﷺ-: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء: ١١٣]".

=

=

قال السعدي: "والمراد بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك امتنانا على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه".

ومن حكم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التى تروى عنه وليس لها أسانيد تقوم بها حجة:

كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك اتركوا لهم بالدنيا.

لا يصيب أحد حقيقة الإيمان حتى لا يبالي من أكل الدنيا.

يا معاشر الحواريين إن خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة، ويباعدان من زهرة الدنيا.

يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيثما كنت، وكل كسرتك من حلال، واتخذ المسجد بيتا، وكن فيه الدنيا ضعيفا، وعود نفسك البكاء، وقلبك التفكر، وجسدك الصبر، ولا تهتم برزقك غدا فإنها خطيئة تكتب عليك.

أصل كل خطيئة حب الدنيا. ورب شهوة أورثت أهلها حزنا طويلا.

اعبروا الدنيا ولا تعمروها، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع في القلب الشهوة.

حب الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيه داء كبير. قالوا: وما داؤه؟ قال: لا يسلم من الفخر والخيلاء. قالوا: فإن سلم؟ قال: يشغله اصلاحه عن ذكر الله.

وأخرج البيهقي عن مالك بن دينار قال: قالوا لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يا روح الله ألا نبني لك بيتا؟ قال: بلى. ابنوه على ساحل البحر قالوا: إذن يجيء الماء فيذهب به قال: أين تريدون؟ تبنون لي على القنطرة؟

مرت امرأة على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالت: طوبى لثدي أرضعك، وحجر حملك، فقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: طوبى لمن قرأ كتاب الله ثم عمل بما فيه.

الخمر مفتاح كل شر، والنساء حبالة الشيطان.

=

=

وقال لأحبار بني إسرائيل: لا تكونوا للناس كالذئب السارق، وكالثعلب الخدوع، وكالحدأ الخاطف.

يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر دارا؟ قالوا: يا روح الله ومن يقدر على ذلك! قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارا.

طوبى لمن خزن لسانه، ووسعه بيته، وبكى من ذكر خطيئته. استحي مني.

قوله تعالى: {وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ} [آل عمران: ٤٩]، أي: "ويعلمه التوراة والإنجيل".

قال الزجاج: "أي يعلمه ذلك وحيا وإلهاما".

قال محمد بن إسحاق: "أي: كتاب لم يسمعوا به جاءهم به، وكتاب قد سمعوا به مضى ودرس علمه من بين أظهرهم فرده به عليهم".

قال قتادة: "كان عيسى يقرأ التوراةَ والإنجيل".

قال محمد بن جعفر بن الزبير: "يعني أخبر الله مريم - ما يريد به فقال: {ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة} التي كانت فيهم من عهد موسى {والإنجيل}، كتابًا آخر أحدثه إليه لم يكن عندهم علمه، إلا ذِكرُه أنه كائن من الأنبياء قبله".

قال ابن كثير: "فالتوراة: هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران. والإنجيل: الذي أنزله الله على عيسى -عليهما السلام -، وقد كان عيسى عليه السلام، يحفظ هذا وهذا".

قوله تعالى: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)} [آل عمران: ٤٩].

ويجعله رسولا إلى بني إسرائيل، ويقول لهم: إني قد جئتكم بعلامة من ربكم تدلُّ

=

=

على أني مرسل من الله، وهي أني أصنع لكم من الطين مثل شكل الطير، فأنفخ فيه فيكون طيرًا حقيقيا بإذن الله، وأَشفي مَن وُلِد أعمى، ومَن به برص، وأُحيي من كان ميتًا بإذن الله، وأخبركم بما تأكلون وتدَّخرون في بيوتكم من طعامكم. إن في هذه الأمور العظيمة التي ليست في قدرة البشر لدليلا على أني نبي الله ورسوله، إن كنتم مصدِّقين حجج الله وآياته، مقرِّين بتوحيده.

قوله تعالى: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [آل عمران: ٤٩]، "أي: ويجعله رسولا إلى بني إسرائيل قائلا لهم:".

قال محمد بن إسحاق: "أي: رسول منه إليكم".

قال الزمخشري: "وقرأ اليزيدي: {ورسول}: عطفا على كلمة "أني قد جئتكم" أصله: أرسلت بأني قد جئتكم، فحذف الجار وانتصب بالفعل".

قوله تعالى: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} [آل عمران: ٤٩]، "أي بأني قد جئتكم بعلامةٍ من ربكم تدل على صدقي، وهي ما أيدني الله من المعجزات".

قال مقاتل: "يعني بعلامة".

قال محمد بن إسحاق: "أي: يُحقق بها نبوّتي، أني رسولٌ منه إليكم".

قال الطبري: "يعني: بعلامة من ربكم تحقق قولي، وتصدق خبري أني رسول من ربكم إليكم".

والمراد بالآية الجنس لا الفرد لأنه تعالى عدد ههنا أنواعا من الآيات، وهي إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار عن المغيبات فكان المراد من قوله (قد جئتكم بآية من ربكم) الجنس لا الفرد.

وفي هذا أن عيسى بعث إلى قومه خاصة لقوله (ورسولا إلى بني إسرائيل) ولقوله ﷺ (وكان النبي ﷺ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) متفق عليه.

=

=

قوله تعالى: {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} [آل عمران: ٤٩]، أي: إني"أصوّر لكم من الطين مثل صورة الطير".

قال الزمخشري: "أى: أقدر لكم شيئا مثل صورة الطير".

قال مقاتل: "فخلق الخفاش بإذن الله لأنه أشد الخلق إنما هو لحم وشيء يطير بغير ريش فطار بإذن الله".

قال ابن جريج: "قوله: {أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير}، قال: أيّ الطير أشدّ خلقًا؟ قالوا: الخفاش، إنما هو لحم. قال ففعل".

قال ابن إسحاق: "إنّ عيسى صلوات الله عليه جلسَ يومًا مع غلمان من الكُتّاب، فأخذ طينًا، ثم قال: أجعل لكم من هذا الطين طائرًا؟ قالوا: وتستطيع ذلك! قال: نعم! بإذن ربي. ثم هيّأه، حتى إذا جعله في هيئة الطائر نفخ فيه، ثم قال: "كن طائرًا بإذن الله "، فخرج يطيرُ بين كفيه. فخرج الغلمان بذلك من أمره، فذكروه لمعلّمهم فأفشوه في الناس. وترعرع، فهمَّت به بنو إسرائيل، فلما خافت أمه عليه حملته على حُمَيرٍّ لها، ثم خرجت به هاربة".

وعن ابن إسحاق أيضا: "ثم جعل الله على يديه يعني: عيسى أمورا تدل به على قدرته في بعثه، بعث من يريد أن يبعث بعد الموت، وخلقه ما يشاء أن يخلق من شيء، يرى أو لا يرى فجعله ينفخ في الطين فيكون طيرا بإذن الله".

وقرأ نافع: {أني أخلق}، بكسر الألف، على الاستئناف

قوله تعالى: {فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ} [آل عمران: ٤٩]، " أي أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيرًا بإذن الله".

قال الزمخشري: "وقيل: لم يخلق غير الخفاش".

وقرأ عبد الله: {فأنفخها}.

وقرأ نافع: {فَيَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِ اللهِ}، على التوحيد، وهي قراءة مخالفة لخط

=

=

المصحف استبعدها الطبري.

قال في التسهيل: ذكر (بإذن الله) رفعا لوهم من توهم في عيسى الربوبية.

وقال الشوكاني: وقوله (بإذن الله) فيه دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى عليه السلام.

قال الشيخ الشنقيطي: قوله تعالى: (أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير) الآية، هذه الآية يوهم ظاهرها أن بعض المخلوقين ربما خلق بعضهم، ونظيرها قوله تعالى (وتخلقون إفكا) الآية، وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الله خالق كل شيء كقوله تعالى (إنا كل شيء خلقناه بقدر)، وقوله (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) إلى غير ذلك من الآيات.

والجواب ظاهر وهو معنى خلق عيسى كهيئة الطير من الطين: هو أخذه شيئا من الطين وجعله على هيئة أي صورة الطير، وليس المراد الخلق الحقيقي؛ لأن الله متفرد به - جل وعلا -وقوله (وتخلقون إفكا) معناه: تكذبون، فلا منافاة بين الآيات كما هو ظاهر.

قوله تعالى: {وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ} [آل عمران: ٤٩]، " أي وأشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص".

قال مقاتل: {الْأَكْمَهَ}: "الذي ولدته أمه أعمى الذي لم ير النور قط فيرد الله بصره.

قال الثعلبي: "أي أشفيهما وأصحهما... والأبرص الذي به وضح، وإنّما خصّ هذين لأنهما عميان وكان الغالب على زمن عيسى الطبّ فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك داعيا لا دواء له".

وقد اختلف أهل التفسير في معنى {الأكمه} على أقوال:

أحدها: أنه الذي يُبصر بالنهار، ولايبصر بالليل. قاله مجاهد.

=

=

والثاني: أنه الأعمى الذي ولدته أمه كذلك ولم يبصر ضوءا قط. قاله ابن عباس، وقتادة، ومقاتل بن سليمان، وأبو عبيدة، والزجاج.

ورجّحه ابن كثير، وقال: "وهو أشبه؛ لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي".

والثالث: أنه الأعمى على الإطلاق. وهذا قول الحسن، والسدي، وكذلك روي عن ابن عباس -في أحد قوليه-، وقتادة -في أحد قوليه-، وعكرمة- في أحد قوليه-.

والرابع: أنه الأعمش. قاله عكرمة.

والراجح -والله أعلم- هو القول الثاني، أي: الذي يولد أعمى، وعليه الجمهور، كما يقول ابن حجر في فتح الباري؛ لأن إبراء الذي يولد أعمى هو الذي فيه المعجزة، أما من يصيب عينيه مرض عارض، فهذا قد يعالجه الطب البشري.

والمشهور في كلام العرب، أن الأكمه، هو الأعمى، قال سويد بن أبي كاهل:

كَمَّهَتْ عَيْنَيْهِ حَتَّى ابْيَضّتَا... فَهْوَ يَلْحَى نَفْسَهُ لَمَّا نزعْ

ومنه قول رؤبة:

هَرَّجْتُ فَارْتَدَّ ارْتِدَادَ الأَكْمَهِ... فِي غَائِلاتِ الحَائِرِ المُتَهْتِهِ

(والأبرص) معروف، قال ابن عادل: إنما خص هذين المرضين لأنهما أعيا الأطباء، وكان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطب، فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك.

وقال الشوكاني: وإنما خص الله سبحانه هذين المرضين بالذكر؛ لأنهما لا يبرآن في الغالب بالمداواة.

قوله تعالى: {وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ} [آل عمران: ٤٩]، " أي وأحيي بعض الموتى بمشيئة الله وقدرته".

قال مقاتل: "ففعل ذلك وهم ينظرون وكان صنيعه هذا آية من الله- عز وجل- بأنه نبي ورسول إلى بني إسرائيل، فأحيا سام بن نوح بن ملك من الموت بإذن الله،

=

=

فقالوا له: إن هذا سحر فأرنا آية نعلم أنك صادق".

روي عن عبدالصمد بن معفل، أنه سمع وهب بن منبه، قال: "لما صار عيسى ابن اثنتي عشرة سنة، أوحى الله إلى أمه وهي بأرض مصر، وكانت هربت من قومها حين ولدته إلى أرض مصر: أنِ اطْلُعي به إلى الشام. ففعلت الذي أمرت به. فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة، وكانت نبوّته ثلاث سنين، ثم رفعه الله إليه قال: وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى في الجماعة الواحدة خمسون ألفًا، من أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق منهم ذلك أتاه عيسى يمشي إليه، وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله".

قال الزمخشري: "وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده. وكرر بإذن الله دفعا لوهم من توهم فيه اللاهوتية" (٢٧).

قال الكلبي: "كان عيسى -عليه السلام- يحيي الأموات بـ: يا حى يا قيوم".

قال الثعلبي: "قيل: أحيا أربعة أنفس: عازر، وكان صدّيقا فأرسل أخته إلى عيسى أنّ أخاك عازر يموت فأته وكان بينه وبين داره ثلاثة أيّام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيّام، فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره، فانطلقت معهم إلى قبره وهو في صخرة مطبقة. فقال عيسى: اللهم ربّ السموات السّبع والأرضين السّبع، إنّك أرسلتني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك وأخبرهم أنّي أحيي الموتى بإذنك فأحيي عازر. قال: فقام عازر وودكه تقطر، فخرج من قبره وبقي وولد له.

وابن العجوز مرّ به ميّتا على عيسى -عليه السلام- على سرير يحمل فدعا الله عيسى (عليه السلام) فجلس على سريره ونزّل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي وولد له.

والبنت العاقر، قيل له: أتحييها وقد ماتت أمس؟ فدعا الله فعاشت فبقيت وولد

=

=

لها.

وسام بن نوح دعا عيسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- باسم الله الأعظم فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه. فقال: قد قامت القيامة؟ قال: لا ولكني دعوتك باسم الله الأعظم. قال: ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزّمان. وكان سام قد عاش خمسمائة سنة وهو شاب"، "فكلمه؛ ومات من ساعته، وأما الثلاثة الذين أحياهم عاشوا، وولد لهم".

وهذه الأخبار بصرف النظر عن إمكان وقوع ما ورد فيها، فإنها لا تعدو أن تكون من الإسرائيليات، التي وإن لم يكن عندنا ما ينفيها، فليس عندنا ما يصدقها من خبر صحيح عن الصادق المعصوم ﷺ. والاكتفاء بإجمال القرآن في مثل هذه المواطن، أولى من السير وراء تفصيلات أخبار، الله أعلم بصحتها ووقوعها.

قال ابن كثير: "قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، السحر وتعظيم السحرة. فبعثه الله بمعجزة بَهَرَت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار. وأما عيسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبُعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه، والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله، عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدًا".

وهذه الآية العظمى لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا من آيات الله، وفي الأخرى (وإذ تخرج

=

=

الموتى)، في الآيتين إحياء الموتى وإن كانوا على ظهر الأرض، وإحياء الموتى وإن كانوا في القبور وإخراجهم منها أحياء، يعني إذا ضممت هذه إلى هذه استفدت فائدتين: أنه يحيي الموتى وهم على ظهر الأرض، ويحييهم وهم في بطن الأرض فيخرجون. (الشيخ ابن عثيمين).

قوله تعالى: {وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ} [آل عمران: ٤٩]، أي: و"أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر له في بيته لغده".

قال مجاهد: "يعني: ما أكلتم البارحة، [و] ما خبأتم منه".

قال قتادة: "قال: أنبئكم بما تأكلون من المائدة ، وما تدخرون منها ، قال: وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا ، فادخروا وخانوا ، فجعلوا خنازير حين ادخروا ، فذلك قوله تعالى: {فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين} [المائدة: ١١٥]".

قال سعيد بن جبير: "لما ترعرع عيسى جاءت به أمه إلى الكتاب، فدفعته إليه فقعد مع الصبيان، وكان يخبر الصبيان بما يأكلون، وما تدخر لهم أمهاتهم في بيوتهم".

وفي رواية ابن ابي حاتم عن سعيد بن جبير: "أن عيسى كان يقول للغلام في الكتاب: إن أهلك قد خبأوا لك من الطعام كذا وكذا، فهل تطعمني منه، فهو قوله: {وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم}".

قال مقاتل: "وقال عيسى- ﷺ-: أرأيتم إن أنا أخبرتكم وأنبئكم بما تأكلون في بيوتكم من الطعام فيها تقديم وما تدخرون في بيوتكم يعني وما ترفعون في غد تعلمون أني صادق. قالوا: نعم قال عيسى- ﷺ-: فلان أكلت كذا وكذا، وشربت كذا وكذا، وأنت يا فلان أكلت كذا وكذا، وأنت يا فلان. فمنهم من آمن ومنهم من كفر".

وقال الكلبي: "فلما أبرأ عيسى الأكمه والأبرص وأحيى الموتى قالوا: هذا سحر،

=

=

ولكن أخبرنا بما نأكل وما ندخر وكان يخبر الرجل بما أكل من غدائه وبما يأكل في عشائه".

قال الثعلبي: "وقرأ مجاهد وأيوب السختياني: {تذخرون}، بالذال المعجمة وسكونها وفتح الخاء من ذخر يذخر ذخرا".

قال الرازي: الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة، وذلك لأن المنجمين الذين يدعون استخراج الخير لا يمكنهم ذلك إلا عن سؤال يتقدم ثم يستعينون عند ذلك بآلة ويتوصلون بها إلى معرفة أحوال الكواكب، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيرا، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بآلة، ولا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى.

وفي قوله تعالى: {وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم}: دليل على جواز الادخار في البيوت مما يفيض على الحاجة لشهر أو شهور أو أعوام؛ فعيسى أخبرهم ولم ينههم، وقد كان النبي ﷺ يدخر قوت سنة؛ كما في "صحيح مسلم"؛ من حديث جابر، وعيسى لم ينههم عن الادخار؛ وإنما أخبرهم به.

وفي "الصحيحين"، عن عمر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم.

وكان الصحابة يدخرون قوت سنتهم من التمر! لأنه أطول الثمر بقاء إلى الحول؛ ولذا أرخص لهم رسول الله ﷺ في العرايا؛ أن يشتروا الرطب بما فضل من قوت سنتهم من التمر؛ كما رواه محمود بن لبيد رضي الله عنه.

ولا خلاف في جواز الادخار، ما لم يضر بالناس، فيدخر في بيته طعام سنة، ولا يجد الناس طعام يومهم أو شهرهم.

وأما ما رواه الترمذي، عن أنس؛ أن النبي ﷺ كان لا يدخر شيئا لغد.

فروي من حديث جعفر بن محمد، عن ثابت، عن أنس، ورواه مرسلا من غير ذكر

=

=

أنس؛ وهو الصواب.

وجاء بنحوه من حديث هلال بن سويد عن أنس؛ وهو ضعيف.

وفيه: أن كشف تلك المدخرات ليس مما يعاب أو يستر، فمن أخبر به وتحدث عنه، لم يكشف سترا إذا قصد من ذلك حقا، لا حسدا أو شماتة وتنقصا وتعييرا.

ومنه يؤخذ جواز إفصاح أهل المال عن مدخراتهم من مال وطعام وعقار وغيره، ووجوب الإفصاح عند الحاجة؛ وذلك فيمن يشتبه به السرقة أو الرشوة، أو في زمن ضعف وكثرة الولايات وتعددها وكثرة الولاة عليها ممن يخشى على بيت المال منهم، فيفصحون عن أموالهم؛ حتى تحفظ أموال المسلمين، وأن كشفها والإخبار عنها ليس مما يعاب أو يعزر من فعله إلا إن كان على سبيل التشهير والازدراء والتنقص؛ وذلك لأن المال الحلال لا يعاب ولا يستحيا من كسبه؛ وإنما يخشى ويستحيا من الكسب الحرام.

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ} [آل عمران: ٤٩]، " أي: في ذلك كله لعلامة على صدْقي فيما جئتكم به".

قال مقاتل: "يعني لعلامة لكم فيما أخبرتكم به".

قال محمد بن إسحاق: "أي: رسول الله ﷺ من الله إليكم".

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: إن في خلقي من الطين الطير بإذن الله، وفي إبرائي الأكمه والأبرص، وإحيائي الموتى، وإنبائي إياكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، ابتداء من غير حساب وتنجيم، ولا كهانة وعرافة.

(لآية لكم) على صدقي فيما جئتكم به.

قال الطبري: أي: لعبرة لكم ومتفكرا، تتفكرون في ذلك فتعتبرون به أني محق في قولي لكم (إني رسول من ربكم إليكم) وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق.

=

=

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ٤٩]، أي: "إن كنتم مصدقين حجج الله وآياته، مقرين بتوحيده، وبنبيه موسى والتوراة التي جاءكم بها".

قال سعيد بن جبير: "يعني: مصدقين".

قال مقاتل: "يعني مصدقين بعيسى بأنه رسول".

فغير المؤمن لا ينتفع بالآيات قال تعالى (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون).

وقال تعالى (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين).

قوله تعالى: {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)} [آل عمران: ٥٠].

وجئتكم مصدقًا بما في التوراة، ولأحلَّ لكم بوحي من الله بعض ما حرَّمه الله عليكم تخفيفًا من الله ورحمة، وجئتكم بحجة من ربكم على صدق ما أقول لكم، فاتقوا الله ولا تخالفوا أمره، وأطيعوني فيما أبلغكم به عن الله.

قوله تعالى: {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ} [آل عمران: ٥٠]، "أي وجيئتكم مصدقًا لرسالة موسى، مؤيدًا لما جاء به في التوراة".

قال محمد بن إسحاق: "أي لما سبقني منها".

قال ابن كثير: "} أي: مقرر لهم ومُثَبّت".

روي عن عبد الصمد بن معقل: "أنه سمع وهب بن منبه يقول: إن عيسى كان على شريعة موسى ﷺ، وكانَ يسبِت، ويستقبل بيت المقدس، فقال لبني إسرائيل: إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة، إلا لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وأضع عنكم من الآصار".

قوله تعالى: {وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [آل عمران: ٥٠]، "أي ولأحلّ لكم بعض ما كان محرمًا عليكم في شريعة موسى بوحي من الله تخفيفا من

=

=

الله ورحمة".

قال محمد بن جعفر بن الزبير: "أي: أخبركم أنه كان حرامًا عليكم فتركتموه، ثم أحله لكم تخفيفًا عنكم، فتصيبون يُسْرَه، وتخرجون من تِباعَته".

قال مقاتل: "من اللحوم والشحوم وكل ذي ظفر والسمك فهذا البعض الذي أحل لهم غير السبت فإنهم يقومون عليه فوضع عنهم في الإنجيل ذلك".

قال ابن كثير: "فيه دلالة على أن عيسى، عليه السلام، نسَخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئًا، وإنما أحَلّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطؤوا، فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: {وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ} [الزخرف: ٦٣]".

قال الحسن: ": كان حرّم عليهم أشياء، فجاءهم عيسى ليحلّ لهم الذي حرّم عليهم، يبتغي بذلك شُكْرهم".

قال قتادة: "كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى، وكان قد حُرّم عليهم فيما جاء به موسى لحومُ الإبل والثُّروب، وأشياء من الطير والحيتان".

قال الربيع: "كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى. قال: كان حرم عليهم فيما جاء به موسى من التوراة: لحوم الإبل، والثروب، فأحلها لهم على لسان عيسى، وحرمت عليهم أشياء من الطير مالا صيصة له، في الإنجيل، فكان الذي جاء به عيسى ألين مما جاءهم به موسى".

قال ابن جريج: ": لحوم الإبل والشحوم. لما بُعث عيسى أحلَّها لهم، وبُعث إلى اليهود فاختلفوا وتفرّقوا".

قال الزجاج: "قال أبو عبيدة: معنى: {ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم}، قال معناه: كل الذي حرم عليكم، وهذا مستحيل في اللغة وفي التفسير".

والمحرم عليهم ذكر الله تعالى في قوله (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر

=

=

ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم).

وقال تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم).

قال ابن كثير: فيه دلالة على أن عيسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئا، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطؤوا، فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى (ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه) والله أعلم.

قوله تعالى: {وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [آل عمران: ٥٠]، "أي وجئتكم بعلامة من عند ربكم، شاهدة على صحة رسالتي".

قال ابن كثير: "أي: بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم".

قال مقاتل: أي: "بعلامة من ربكم يعني العجائب التي كان يصنعها الله".

قال مجاهد: "ما بيَّن لهم عيسى من الأشياء كلها، وما أعطاه ربه".

قال الطبري: أي: "وجئتكم بحجة وعبرة من ربكم، تعلمون بها حقيقةَ ما أقول لكم".

قال الزجاج: "أي لم احل لكم شيئا بغير برهان، فهو حق عليكم اتباعي لأني أنبئكم ببرهان، وتحليل طيبات كانت حرمت عليكم".

قال البغوي: "يعني: ما ذكر من الآيات، وإنما وحدها لأنها كلها جنس واحد في الدلالة على رسالته".

قال الزمخشري: "وقرأ عبد الله. وجئتكم بآيات من ربكم".

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} [آل عمران: ٥٠].

أي: فاتقوا الله يا معشر بني إسرائيل، فيما أمركم به ونهاكم عنه في كتابه الذي أنزله على موسى، فأوفوا بعهده الذي عاهدتموه فيه.

=

=

قال ابن عطية: "تحذير ودعاء إلى الله تعالى".

قال مقاتل: "يعني: فوحدوا الله وأطيعون فيما آمركم به من النصيحة فإنه لا شريك له".

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، في قوله: {فاتقوا الله}، قال: "يعني: المؤمنين، يحذرهم".

قال الزمخشري: أي: "فاتقوا الله لما جئتكم به من الآيات، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه".

(وأطيعون) فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)} [آل عمران: ٥١]

إن الله الذي أدعوكم إليه هو وحده ربي وربكم فاعبدوه، فأنا وأنتم سواء في العبودية والخضوع له، وهذا هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} [آل عمران: ٥٠]، أي: إن الله ربي وربكم "فاجعلوا عبادتكم له وحده، فأنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه.".

قال النسفي: "إقرار بالعبودية ونفي للربوبية عن نفسه بخلاف ما يزعم النصارى".

قال المراغي: "وهذا أمر لهم بالاعتقاد الحق وهو التوحيد، ثم بملازمة الطاعة بالقيام بأداء ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه".

قال ابن كثير: "أي: أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه".

قال أبو زهرة: "أي أن الله تعالى خلقني وهو الذي يربني ويكلؤني ويحييني، وهو أيضا الذي خلقكم وينميكم ويكلؤكم ويحييكم، وإذا كان كذلك فحق علينا أن نعبده وحده ولا نشرك به أحدا سواه، فإن العبادة تكون شكرا لهذه النعمة، وقياما

=

=

بحقها، وصلاحا لأمر الناس في هذه الدنيا".

قال الراغب: "لما وصف عيسى نفسه بأفعال إلهية، وأتى على ما ذكر، وكان قد قال: {وأطيعون} خطر له ما فعلته جماعة من النصارى، وهو اتخاذهم إياه معبودهم، فقال: {إن الله ربي وربكم}، ولم يقل: ربنا، ليكون أبعد من التأويل فيما ادعوه، وأمر بأن يعبد الله وحده".

وقرئ {أَنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ}، بفتح الالف، قال الطبري: «إن» بدل من «آية»، في قوله {جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ}، وضعفه ابن عطية.

* معاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ٣ أصول: الأول: السيد، والثاني: المالك، والثالث: المصلح للشيء للقائم عليه.

قال الرازي: ختم كلامه بقوله (إن الله ربى وربكم) ومقصوده إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكيلا يتقولوا عليه الباطل فيقولون: إنه إله وابن إله لأن إقراره لله بالعبودية يمنع ما تدعيه جهال النصارى عليه، ثم قال (فاعبدوه) والمعنى: أنه تعالى لما كان رب الخلائق بأسرهم وجب على الكل أن يعبدوه، ثم أكد ذلك بقوله (هذا صراط مستقيم).

وقال في التسهيل: قوله تعالى (إن الله ربي وربكم) رد على من نسب الربوبية لعيسى.

عبادة الله: هذه دعوة جميع الرسل، الدعوة إلى عبادة الله وحده، وترك الشرك، وهذا معنى: لا إله إلا الله: أي: لا معبود حق إلا الله.

وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، لأن الإنسان إذا كان ذله

=

=

متجردا عن محبة الله يبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبة خالصة لا خوف معها، فإن المحب الذي لا يداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أمورا لا تنبغي، والله عز وجل لا يليق به شيء من ذلك. (قاله الشنقيطي)

فالعبادة تطلق على معنيين: احدهما: التعبد: يعني التذلل لله، كما سبق، وتطلق على المتعبد به (بالنسبة لأفعال العباد) وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحية.

دعوة جميع الرسل الدعوة إلى عبادة الله وحده.

كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت).

وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون).

وكان كل نبي يقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره كما قال تعالى (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

وقال تعالى (وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون)

وقال تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)

وقال تعالى (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)

(هذا صراط مستقيم) يعني هذا التوحيد الذي أدعوكم إليه طريق مستقيم، لا عوج فيه، وهو طريق الجنة.

قال السمعاني: "أي: طريق واضح".

قال المراغي: "أي هذا الذي أمرتكم به هو الطريق السويّ الذي أجمع عليه الرسل قاطبة، وهو الموصل إلى خيرى الدنيا والآخرة".

=

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢).

{فَلَمَّا أَحَسَّ} عَلِمَ {عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْر} وَأَرَادُوا قَتْله {قَالَ مَنْ أَنْصَارِي} أَعْوَانِي ذَاهِبًا {إِلَى الله} لِأَنْصُر دِينه {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَار الله} أَعْوَان دِينه وَهُمْ أَصْفِيَاء عِيسَى أَوَّل مَنْ آمَنَ بِهِ وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ الْحُور وَهُوَ الْبَيَاض الْخَالِص وَقِيلَ كَانُوا قَصَّارِينَ يَحُورُونَ الثِّيَاب أَيْ يُبَيِّضُونَهَا {آمَنَّا} صَدَّقْنَا {بِاَللهِ وَاشْهَدْ} يَا عِيسَى {بأنا مسلمون}.

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣).

{رَبّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْت} مِنْ الْإِنْجِيل {وَاتَّبَعْنَا الرَّسُول} عِيسَى {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} لَك بالوحدانية ولرسولك بالصدق.

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤).

قال تعالى {وَمَكَرُوا} أَيْ كُفَّار بَنِي إسْرَائِيل بِعِيسَى إذْ وَكَلُوا بِهِ مَنْ يَقْتُلهُ غِيلَة {وَمَكَرَ الله} بِهِمْ بِأَنْ أَلْقَى شَبَه عِيسَى عَلَى مَنْ قَصَدَ قَتْله فَقَتَلُوهُ وَرَفَعَ عِيسَى إلَى

=

قال الصابوني: "أي فإن تقوى الله وعبادته، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه".

قال الراغب: "وقال: {هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}، تنبيها أن العدول عن ذلك ليس بالمستقيم".

قال ابن عاشور: قوله تعالى (هذا صراط مستقيم) الإشارة إلى ما قاله كله أي أنه الحق الواضح فشبهه بصراط مستقيم لا يضل سالكه ولا يتحير.

السَّمَاء {وَاَللَّه خَيْر الْمَاكِرِينَ} أَعْلَمهُمْ بِهِ[١].

---

(١) قوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ} [آل عمران: ٥٢]، "أي استشعر عيسى من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال".

قال الطبري: أي: ": فلما وَجد عيسى - من بني إسرائيل الذين أرسله الله إليهم - جحودًا لنبوّته، وتكذيبًا لقوله، وصدًّا عما دعاهم إليه من أمر الله".

قال ابن كثير: "أي: استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال".

قال ابن جريج: "كفروا وأرادوا قتله فذلك حين استنصر قومه فذلك حين يقول: {فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ} [الصف: ١٤]}".

قال الزجاج: "معنى أحس فى اللغة علم ووجد، ويقال هل أحست في معنى هل أحسست ويقال حسيت بالشيء إذا علمته وعرفته".

و"الإحساس"، هو الوجود، ومنه قول الله عز وجل: {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ} [سورة مريم: ٩٨].

فأما "الحَسُّ"، بغير"ألف"، فهو الإفناء والقتل، ومنه قوله: {إذ تحسونهم بإذنه} [سورة آل عمران: ١٥٢].

و"الحَسُّ" أيضًا العطف والرقة، ومنه قول الكميت:

هَلْ مَنْ بَكَى الدَّارَ رَاجٍ أَنْ تَحِسَّ لَهُ،... أَوْ يُبْكِيَ الدَّارَ مَاءُ العَبْرَةِ الخَضِلُ؟

يعني بقوله: أن تحس له، أن ترقّ له.

قوله تعالى: {قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ} [آل عمران: ٥٢]، "أي: قال: من أنصاري في الدعوة إلى الله".

وفي قوله تعالى: {قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ} [آل عمران: ٥٢]، أربعة أقوال:

القول الأول: أن [إلى] في هذه الآية بمعنى: [مع]، وهو قول الجماعة كما قال ابن الجوزي، وروي عن السدي، وابن جريج، وغيرهم،و[إلى] تقارب معنى [مع] في =

=

اللغة، وذلك إذا ضممت شيئًا إلى آخر، كقوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ} [النساء:٢] أي: مع.

وقد حسّن هذا المعنى الطبري حيث يقول: (وإنما حسن أن يقال: {إِلَى اللهِ} بمعنى: مع الله؛ لأن من شأن العرب إذا ضموا الشيء إلى غيره، ثم أرادوا الخبر عنهما بضم أحدهما مع الآخر إذا ضم إليه، جعلوا مكان [مع] [إلى] أحيانًا).

قال الزجاج: "و(إلى) ههنا إنما قاربت (مع) معنى بأن صار اللفظ لو عبر عنه بـ" مع " أفاد مثل هذا المعنى، لا أن (إلى) في معنى " مع".

والقول الثاني: أن [إلى] على حقيقتها، واختلفوا في التقدير:

فقال مجاهد في معنى من أنصاري إلى الله، أي: (من يتبعني إلى الله).

وقال الحسن: (معناه من أنصاري في السبيل إلى الله).

وقيل: متعلق بمحذوف حالًا من الياء، أي: من أنصاري حال كوني ذاهبًا إلى الله ملتجئًا إليه.

وقيل: إن أنصاري مضمن معنى الضم؛ لتبقى [إلى] على بابها، أي من يضم نصره إلى نصر الله.

والذي يظهر لي أنه لا اختلاف بين هذه الأقوال في معنى الآية إجمالًا فـ[إلى] تأتي في اللغة بمعنى [مع]، كقولهم: (الذود إلى الذود إبل)، وكل الأقوال ترجع إلى ما يشمله معنى النصر من إعلان الدين والدعوة إليه إذ لا بد لحصول النصر من تحصيل سببه كما هي سنة الله، قال سبحانه: {إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ} [محمد:٧]، ولذا فالقول بأن [إلى] بمعنى المعية يفيد الإعانة على النصر، وكذا من جعل [إلى] على بابها وضمن النصر معنى الضم، ومثله من علق [إلى] ومجرورها بمحذوف، وقول الحسن ومجاهد لا يخرج عن معنى ما سبق، فقد قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ

=

=

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)} [يوسف:١٠٨]، فالاتباع يكون بالانضمام والمعية في الطريق نفسه وهو الدعوة إلى الله تعالى، ولذلك لم يأت الحواريون بـ[إلى] في قولهم: {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ} [آل عمران:٥٢]. والله تعالى أعلم.

قال ابن كثير: "وقول مجاهد أقربُ، والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: "مَنْ رَجُل يُؤْوِيني عَلى أن أبلغ كلامَ رَبِّي، فإنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي"، حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم، انْتدَبَ له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه".

وقد أراد عليه السلام: من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: (من رجل يؤويني على أن أبلغ كلام ربي، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي) حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم، انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه.

قال الرازي: قال الأكثرون من أهل اللغة (إلى) ههنا بمعنى مع قال تعالى (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) أي معها، وقال ﷺ (الذود إلى الذود إبل) أي مع الذود.

قوله تعالى: {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ} [آل عمران: ٥٢]، "أي قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه نحن أنصار دين الله".

قال محمد بن إسحاق: "هذا قولهم الذي أصابوا الفضل من ربهم".

قال الماوردي: "وأصل الحواري: الحَوَر وهو شدة البياض، ومنه الحواري من الطعام لشدة بياضه، والحَوَر نقاء بياض العين".

=

=

واخْتُلِف في تسميتهم بالحواريين على أقاويل:

أحدها: انهم سُمُّوا بذلك لبياض ثيابهم، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومسلم البطين.

والثاني: أنهم كانوا قَصَّارين يبيضون الثياب، وهذا قول ابن أبي نجيح، والضحاك في -أحد قوليه.

والثالث: أنهم خاصة الأنبياء وصفوتهم، سموا بذلك لنقاء قلوبهم، وهذا قول قتادة -في أحد قوليه-، والضحاك، ورجّحه الزجاج.

والرابع: ان الحواري: الناصر. قاله سفيان بن عيينة.

والخامس: أن الحواري: الوزير. قاله قتادة.

قال الطبري: "وأشبه الأقوال في معنى "الحواريين"، قولُ من قال: "سموا بذلك لبياض ثيابهم، ولأنهم كانوا غسّالين".

قال ابن كثير: "والصحيح أن الحواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما نَدبَ الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدَبَ الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال: "إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًا وَحَوَارِيي الزُّبَيْرُ".

قال الرازي: ذكروا في لفظ (الحواري) وجوها:

الأول: أن الحواري اسم موضوع لخاصة الرجل، وخالصته، ومنه يقال للدقيق حواري، لأنه هو الخالص منه، وقال ﷺ للزبير (إنه ابن عمتي، وحواري من أمتي) والحواريات من النساء النقيات الألوان والجلود، فعلى هذا الحواريون هم صفوة الأنبياء الذي خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم.

القول الثاني: الحواري أصله من الحور، وهو شدة البياض، ومنه قيل للدقيق حواري، ومنه الأحور، والحور نقاء بياض العين، وحورت الثياب: بيضتها، وعلى هذا القول اختلفوا في أن أولئك لم سموا بهذا الاسم؟ فقال سعيد بن جبير: لبياض

=

=

ثيابهم، وقيل كانوا قصارين، يبيضون الثياب، وقيل لأن قلوبهم كانت نقية طاهرة من كل نفاق وريبة فسموا بذلك مدحا لهم، وإشارة إلى نقاء قلوبهم، كالثوب الأبيض، وهذا كما يقال فلان نقي الجيب، طاهر الذيل، إذا كان بعيدا عن الأفعال الذميمة، وفلان دنس الثياب: إذا كان مقدما على ما لا ينبغي.

واختلفوا في سبب استنصار المسيح بالحواريين على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه استنصر بهم طلبًا للحماية من الكفار الذين أرادوا قتله حين أظهر دعوته. وهذا قول مجاهد.

والثاني: أنه استنصر بهم ليتمكن من إقامة الحجة وإظهار الحق. وهذا معنى قول السدي، والحسن.

والثالث: لتمييز المؤمن الموافق من الكافر المخالف. أفاده الماوردي.

قال الشنقيطي: لم يبين هنا الحكمة في ذكر قصة الحواريين مع عيسى ولكنه بين في سورة الصف، أن حكمة ذكر قصتهم هي أن تتأسى بهم أمة محمد صلى ﷺ في نصرة الله ودينه، وذلك في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله).

قوله تعالى: {آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٥٢]، أي: "صدقنا بالله، واشهد أنتَ يا عيسى بأننا مسلمون".

قال محمد بن إسحاق: "{واشهد بأنا مسلمون}، لا ما يقول هؤلاء الذين يحاجونك فيه".

قوله تعالى: {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)} [آل عمران: ٥٣].

ربنا صدَّقنا بما أنزلت من الإنجيل، واتبعنا رسولك عيسى عليه السلام، فاجعلنا ممن شهدوا لك بالوحدانية ولأنبيائك بالرسالة، وهم أمة محمد ﷺ الذين يشهدون

=

=

للرسل بأنهم بلّغوا أممهم.

قوله تعالى: {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ} [آل عمران: ٥٣]، أي: ربنا صدّقنا بما أنزلت على نبيّك عيسى من كتابك".

قال الماتريدي: "يعني - والله أعلم -: بما أنزلت من الكتب السماوية التي أنزلها على الرسل جميعا، فإن أرادوا بما أنزلت على عيسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فالإيمان بواحد من الكتب أو بواحد من الرسل: إيمان بالكتب كلها وبالرسل جميعا".

قوله تعالى: {وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ} [آل عمران: ٥٣]،: أي: "صرنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به".

قال مجمد بن إسحاق: "أي هكذا كان قولهم وإيمانهم".

قوله تعالى: {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٥٣].

أي: اكتبنا في جملة من شهد لك بالتوحيد ولأنبيائك بالتصديق، والمقصود من هذا أنهم لما أشهدوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على إسلام أنفسهم، حيث قالوا (واشهد بأنا مسلمون) فقد أشهدوا الله تعالى على ذلك تأكيدا للأمر، وتقوية له، وأيضا طلبوا من الله مثل ثواب كل مؤمن شهد لله بالتوحيد ولأنبيائه بالنبوة.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس: "{فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}: أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

وفي رواية ابن المنذر عن ابن عباس: "مع محمد وأمته إنهم شهدوا له أنه بلغ، وشهدوا للرسل أنهم بلغوا".

ونقل الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس: "{فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}: مع أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

قال الطبري: أي: "فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقرُّوا لك بالتوحيد، وصدّقوا رسلك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما

=

=

تكرمهم به من كرامتك، وأحِلَّنا محلهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصدَّ عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك".

قال الزجاج: "وحقيقة الشاهد أنه الذي يبين تصحيح دعوى المدعي، فالمعنى صدقنا بالله واعترفنا بصحة ما جاء به النبي ﷺ وثبتنا، فاكتبنا مع من فعل فعلنا".

قوله تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)} [آل عمران: ٥٤].

ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام، بأن وكَّلوا به من يقتله غِيْلة، فألقى الله شَبَه عيسى على رجل دلَّهم عليه فأمسكوا به، وقتلوه وصلبوه ظنًا منهم أنه عيسى عليه السلام، والله خير الماكرين. وفي هذا إثبات صفة المكر لله -تعالى- على ما يليق بجلاله وكماله؛ لأنه مكر بحق، وفي مقابلة مكر الماكرين.

قوله تعالى: {وَمَكَرُوا} [آل عمران: ٥٤]، أي: "ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل".

قال ابن أبي زمنين: أي: "مكروا بقتل عيسى".

قال الطبري: "وكان مكرهم الذي وصفهم الله به، مُواطأة بعضهم بعضًا على الفتك بعيسى وقَتْله".

قال ابن عباس: "يريد: أن عامة بني إسرائيل كفروا به، وهموا بقتله، وتواطئوا على الفتك به، فذلك مكرهم به".

قال الماتريدي: أي: "مكروا بنبي الله عيسى - عليه السلام - حيث كذبوه وهموا بقتله".

قال الواحدي: "أصل "المكر" في اللغة: السعي في الفساد في خفية، ومداجاة".

قال الزجاج: يقال: "مكر الليل، وأمكر": إذا أظلم".

قوله تعالى: {وَمَكَرَ اللهُ} [آل عمران: ٥٤]، أي: "ومكر الله بهم فأهلكهم، ورفع عيسى إليه".

قال أبو عبيدة: يعني"أهلكهم الله".

=

=

قال السمرقندي: "أي جازاهم جزاء المكر".

قال الزمخشري: وذلك" أن رفع عيسى إلى السماء وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل".

قال عبدالقاهر الجرجاني: أي: "صونه عيسى عن بأسهم وصرفه الشرّ إليهم في الدنيا والآخرة من حيث لا يشعرون، وإنما قيل: {خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} لأن إيصال الشر ما يمدح وذلك إذا كان مع العدو من غير غدر وخيانة، فالله متصف به خير الماكرين".

قال مقاتل: "وذلك أن كفار بني إسرائيل عمدوا إلى رجل فجعلوه رقيبا على عيسى ليقتلوه فجعل الله شبه عيسى على الرقيب فأخذوا الرقيب فقتلوه وصلبوه، وظنوا أنه عيسى، ورفع الله- عز وجل- عيسى إلى سماء الدنيا من بيت المقدس، ليلة القدر في رمضان، فذلك قوله- سبحانه-: {ومكروا} بعيسى ليقتلوه يعني اليهود {ومكر الله} بهم حين قتل رقيبهم وصاحبهم".

قال السدي: "ثم إن بني إسرائيل حَصروا عيسى وتسعةَ عشر رجلا من الحواريِّين في بيت، فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتي فيقتل وله الجنة؟ فأخذها رجل منهم، وصُعِد بعيسى إلى السماء، فذلك قوله: {ومكرُوا ومكر الله والله خير الماكرين}، فلما خرج الحواريون أبصرُوهم تسعةَ عشر، فأخبروهم أن عيسى قد صُعد به إلى السماء، فجعلوا يعدّون القوم فيجدُونهم ينقصون رجلا من العِدّة، ويرون صورةَ عيسى فيهم، فشكُّوا فيه. وعلى ذلك قتلوا الرجل وهم يُرَوْن أنه عيسى وصَلبوه، فذلك قول الله عز وجل: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} [سورة النساء: ١٥٧]".

ونقل الثعلبي عن ابن عباس: "إنّ ملك بني إسرائيل أراد قتل عيسى، وقصده أعوانه. فدخل خوخة فيها كوّة، فرفعه جبرئيل من الكوّة إلى السماء. فقال الملك:

=

=

لرجل منهم خبيث أدخل عليه فاقتله فدخل الخوخة فألقى الله عليه شبه عيسى فخرج إلى النّاس فخبرّهم أنّه ليس في البيت فقتلوه وصلبوه وظنّوا أنّه عيسى".

وفي المعنى نفسه نقل الواحدي عن ابن عباس: "وذلك أن أحد الإنجيلية ممن آمن به، نافق، فدل عليه، فجعله الله تعالى في سورة عيسى، فأخذ فصلب".

قال أهل التواريخ: "حملت مريم بعيسى ولها ثلاثة عشر سنة ودارت بعيسى بيت اللحم من أرض أورشليم لمضي خمسة وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل، ولإحدى وخمسين سنة مضت من ملك الكلدانيين وأوحى الله عز وجلّ لأمّه على رأس ثلاثين سنة، ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاثين سنة وكانت نبوّته ثلاث سنين، وعاشت أمّه مريم بعد رفعه ستّ سنين".

قال ابن الجوزي: "قال سعيد بن المسيب: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. وقال مقاتل: رفع من بيت المقدس ليلة القدر في رمضان. وقيل: عاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين. ويقال: ماتت قبل رفعه".

وفي قوله تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ} [آل عمران: ٥٤]، ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنهم مكروا بالمسيح عليه السلام بالحيلة عليه في قتله، ومكر الله في ردهم بالخيبة لإلقاء شبه المسيح على غيره، وهو معنى قول السدي، ومحمد بن إسحاق.

والثاني: مكروا بإضمار الكفر، ومكر الله بمجازاتهم بالعقوبة. وهذا معنى قول الفراء.

والثالث: أن مكره بهم أن سلط عليهم فارس، فقتلوهم، وسبوا ذراريهم، لقوله: {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا} [الإسراء: ٥]. قاله الأصم.

قوله تعالى: {وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: ٥٤]، أي: والله: "أقواهم مكرا

=

إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥).

{إِذْ قَالَ الله يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيك} قَابِضك {وَرَافِعك إِلَيَّ} مِنْ الدُّنْيَا مِنْ غَيْر مَوْت {وَمُطَهِّرك} مُبْعِدك {مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِل الَّذِينَ اتَّبَعُوك} صَدَّقُوا بِنُبُوَّتِك مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى {فَوْق الَّذِينَ كَفَرُوا} بِك وَهُمْ الْيَهُود يَعْلُونَهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْف {إِلَى يَوْم الْقِيَامَة ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعكُمْ فَأَحْكُم بَيْنكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} مِنْ أَمْر الدِّين[1].

=

وأنفذهم كيدا وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب".

قال مقاتل: "يعني: أفضل مكرا منهم".

قال الثعلبي: "أي أفضل المعاقبين".

قال ابن عثيمين: أي: "ما من أحد يمكر إلا ومكر الله فوقه وخير منه".

وقال الشنقيطي: لم يبين هنا مكر اليهود بعيسى ولا مكر الله باليهود، ولكنه بين في موضع آخر أن مكرهم به محاولتهم قتله، وذلك في قوله (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وبين أن مكره بهم إلقاؤه الشبه على غير عيسى وإنجاؤه عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وذلك في قوله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)، وقوله (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه).

(والله خير الماكرين) سبحانه وتعالى. وقد تقدم القول في صفة المكر والخداع والإسهزاء تحت الآية رقم (١٥) من سورة البقرة.

(١) قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: ٥٥]، أي: "إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ".

=

=

قال الحسن: "رفعه إليه وهو عنده في السماء".

وقد اختلف المفسرون في معنى "التوفي" في قوله: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} [آل عمران: ٥٥]، على أقوال:

أحدها: أن معناه: إني قابضك برفعك إلى السماء من غير وفاة بموت، وهذا قول الحسن، وابن جريج، وابن زيد، والكلبي، ومطر الورّاق، ومحمد بن جعفر بن الزبير.

قال الثعلبي: "يدل عليه قوله فلما {تَوَفَّيْتَنِي} [المائدة: ١١٧]، أي: قبضتني إلى السماء وأنا حي، لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه لا بعد موته. وعلى هذا القول للتوفي تأويلان:

أحدهما: إني رافعك إلي وافيا لن ينالوا منك. من قولهم: توفيت كذا واستوفيته أي أخذته تاما.

والآخر: إني مسلمك، من قولهم: توفيت منه كذا أي سلمته".

والثاني: متوفيك وفاة نوم للرفع إلى السماء، وهذا قول الربيع بن أنس، والحسن وغيرهم، وعزاه ابن كثير والشوكاني للأكثرين.

واستدلوا: بقوله تعالى (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار).

وقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

وكان ﷺ إذا قام من النوم يقول (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور) رواه البخاري.

وقوله تعالى (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا

=

=
اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما. وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا).

قال ابن كثير: والضمير في قوله (قبل موته) عائد على عيسى، أي: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة.

والمعنى: "ورافعك وأنت نائم، حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب".

ورجّحه ابن كثير، فقال: "وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ [وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام: ٦٠] وقال تعالى: {اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر: ٤٢] وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا قام من النوم -: "الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ"، وقال الله تعالى: {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ} إلى قوله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [النساء: ١٥٦ - ١٥٩] والضمير في قوله: {قَبْلَ مَوْتِهِ} عائد على عيسى، عليه السلام، أي: وإن من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، على ما سيأتي بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلّهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام".

قال الثعلبي: "يدل عليه قوله: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} [الأنعام: ٦٠]، أي: ينيمكم، لأن النوم أخو الموت، وقوله الله: {يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ
=

=

تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر: ٤٢]".

والثالث: متوفيك وفاة بموت، وهذا قول ابن عباس، ووهب بن منبه، وضعّفه الطبري، والواحدي.

ومعنى الآية على هذا الوجه: "قال الله لعيسى: إني متوفيك حين يأتي أجلك. ولن أسلطهم عليك ليقتلوك. وقد حقق الله وعده إذ ألقى شبهه على يهوذا فقتلوه، وأنجى عيسى ورفعه إليه. وسيبقى إلى آخر الزمان ليبلغ شريعة محمد ﷺ للناس. ثم يتوفاه بعد ذلك... فالآية على هذا كناية عن عصمته من الأعداء، مشفوعة بالبشارة برفعته".

قال الثعلبي: "يدل عليه: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ} [السجدة: ١١]، وقوله: {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} [يونس: ٤٦]، وله على هذا القول تأويلان:

أحدهما: ما قال وهب: «توفى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه».

والآخر: ما قاله الضحاك وجماعة من أهل المعاني: إن في الكلام تقديما وتأخيرا، معناه إني رافعك إلي... ومطهرك من الذين كفروا: ومتوفيك بعد إنزالك من السماء كقوله عز وجل: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى} [طه: ١٢٩].

وقال الشاعر:

ألا يا نخلة من ذات عرق... عليك ورحمة الله السلام

أي عليك السلام ورحمة الله.

وقال آخر:

جمعت وعيبا نخوة ونميمة... ثلاث خصال لسن من ترعوي

أي جمعت نخوة ونميمة وعيبا.

=

=

وقيل للحسن بن الفضل: «هل تجد نزول عيسى (عليه السلام) في القرآن. فقال: نعم. قوله: {وَكَهْلًا} [آل عمران: ٤٦]، وهو لم يكتهل في الدنيا، وإنما معناه: وكهلا بعد نزوله من السماء».

وعن محمد بن إبراهيم أن أمير المؤمنين أبا جعفر حدثه عن الآية عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها والمهدي من أهل بيتي في أوسطها»".

والرابع: أنه من المقدم والمؤخر، بمعنى: رافعك ومتوفيك بعده، وهذا قول الفراء.

والخامس: وقيل: أن معناه: إني متوفيك عن شهواتك وحظوظ نفسك، قاله أبو بكر محمد بن موسى الواسطي.

قال البيضاوي: "أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت".

وحسّنه الثعلبي قائلا: "ولقد أحسن فيما قال، لأن عيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة".

والسادس. وقيل: أجعلك كالمتوفى، لأنه بالرفع يشبهه.

والسابع: وقيل: آخذك وافيا بروحك وبدنك.

والثامن: وقيل: متوفيك: متقبل عملك. قال أبو حيان: "ويضعف هذا من جهة اللفظ".

والتاسع: وقيل: {وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}: "معناه: رافعك إلى كرامتي".

قال الثعلبي: "وقيل: معناه رافعك بالدرجة في الجنة ومقربك إلى الإكرام".

قال الشنقيطي: ... الوجه الثالث: أن (متوفيك) اسم فاعل توفاه إذا قبضه وحازه إليه ومنه قولهم: (توفى فلان دينه) إذا قبضه إليه.. فيكون معنى (متوفيك) على هذا

=

=

قابضك منهم إلي حيا، وهذا القول هو اختيار بن جرير، ... ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما الجمع بأنه توفاه ساعات أو أياما ثم أحياه فالظاهر أنه من الإسرائيليات، وقد نهى ﷺ عن تصديقها وتكذيبها.

وقيل: إن الوفاة في الآية بمعنى الموت، وهذا مروي عن ابن عباس. وهذا القول يحتمل وجهين:

الوجه الأول: أن الله توفاه ثم رفعه بعد ذلك إلى السماء.

الوجه الثاني: أن في الآية تقديما وتأخيرا فيكون المعنى: إني رافعك إلي، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا، وهذا من المقدم الذي معناه التأخير.

قال السمرقندي: قوله تعالى (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى) ففي الآية تقديم وتأخير، ومعناه إني رافعك من الدنيا إلى السماء، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء على عهد الدجال.

وقد ضعف ابن جرير الوجه الأول فقال: ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله، لم يكن بالذي يميته ميتة أخرى، فيجمع عليه ميتتين، لأن الله إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم.

وقال القرطبي - بعد أن أورد الوجه الأول -: وهذا فيه بعد، فإنه صح في الأخبار عن النبي ﷺ نزوله وقتله الدجال.

وقيل: أن الوفاة هنا بمعنى: مستوفي أجلك، ومتم عمرك، وذلك بعصمتك من قتل أعدائك، ومؤخرك إلى أجلك المقدر، ومميتك بعد ذلك لا قتلا بأيديهم.

وهذا اختيار الزمخشري، وأبي السعود، والقاسمي.

وقيل: أن الوفاة هنا بمعنى: متقبل عملك، وقد أورد هذا المعنى ابن عطية وضعفه فقال: وهذا ضعيف من جهة اللفظ.

=

=

والراجح-والله أعلم- ان المعنى: "إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة ذكَرها، اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه".

قال ابن عطية: وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من: "أن عيسى في السماء حي، وأنه ينزل في آخر الزمان، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويقتل الدجال، ويفيض العدل، وتظهر به الملة، ملة محمد ﷺ، ويحج البيت، ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعا وعشرين سنة، وقيل: أربعين سنة ثم يميته الله تعالى".

قال ابن عباس: "ما لبس موسى إلا الصوف وما لبس عيسى إلا الشعر حتى رفع".

قوله تعالى: {وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران: ٥٥]، أي: "ومخلّصك من الذين جحدوا بما جئتهم به من الحق، برفعي إياك إلى السماء".

قال الحسن: ": طهَّره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه".

قال الثعلبي: "أي مخرجك من بينهم ومنجيك منهم".

قال ابن كثير: "أي: برفعي إياك إلى السماء".

قال البيضاوي: أي: "من سوء جوارهم أو قصدهم".

قال الراز: "المعنى مخرجك من بينهم ومفرق بينك وبينهم، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه أخبر عن معنى التخليص بلفظ التطهير وكل ذلك يدل على المبالغة في إعلاء شأنه وتعظيم منصبه عند الله تعالى".

قوله تعالى: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [آل عمران: ٥٥]، أي: "وجاعل الذين اتبعوك على منهاجك وملَّتك من الإسلام وفطرته، فوق الذين جحدوا نبوّتك وخالفوا سبيلهم" إلى يوم القيامة.

قال النسفي: "أي المسلمين، لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع

=

=

دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى".

قال قتادة: "هم أهلُ الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسُنته، فلا يزالون ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة".

قال ابن جريج: ": ناصرُ من اتبعك على الإسلام، على الذين كفروا إلى يوم القيامة".

قال السدي: "أما {الذين اتبعوك}، فيقال: هم المؤمنون، ويقال: بل هم الرّوم".

قال الحسن: "جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة. قال: المسلمون من فوقهم، وجعلهم أعلى ممن ترك الإسلام إلى يوم القيامة".

وفي رواية أخرى عن الحسن: "هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته، لا يزالون ظاهرين على أهل الشرك إلى يوم القيامة".

قال الربيع: هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته، وملته، وسنته لا يزالون ظاهرين على أهل الشرك إلى يوم القيامة".

وقال ابن زيد في قول الله: {ومطهرك من الذين كفروا}: قال: الذين كفروا من بني إسرائيل، {وجاعل الذين اتبعوك}: قال: الذين آمنوا به من بني إسرائيل وغيرهم، {فوق الذين كفروا}: النصارى فوقَ اليهود إلى يوم القيامة. قال: فليس بلدٌ فيه أحدٌ من النصارى، إلا وهم فوق يهودَ، في شرقٍ ولا غرب، هم في البلدان كلِّها مستذلون".

قال ابن كثير: "وهكذا وقع؛ فإن المسيح، عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء تَفَرَّقت أصحابه شيَعًا بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، ورَد على كل فريق، فاستمروا كذلك قريبا من ثلاثمائة سنة، ثم نَبَع لهم ملك من ملوك اليونان، يقال له:

=

قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفا، وقيل: جهلا منه، إلا أنه بَدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة - التي هي الخيانة الحقيرة - وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصَلّوا له إلى المشرق وصوروا له الكنائس، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارت ما يزيد على اثنى عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة المَلْكِيَّة منهم. وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيَّدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفار، عليهم لعائن الله فلما بعث الله محمدًا ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق - كانوا هم أتباع كُل نبي على وجه الأرض - إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملّته وطريقته، مع ما قد حَرّفوا وبدلوا".

وذكر أهل العلم في معنى "الفوقية" في قوله تعالى: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [آل عمران: ٥٥]، ثلاثة أوجه من التفسير:

أحدها: أنهم فوقهم بالبرهان والحجة. رجّحه الراغب.

والثاني: أنهم فوقهم في اليد والبسطة والعز والغلبة. قاله ابن زيد.

والثالث: أنهم فوقهم يوم القيامة في الجنة، إذ هم في الغرفات آمنون، والذين كفروا في أسفل السافلين!

قال النسفي: "يعلونهم بالحجة وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [آل عمران: ٥٥] وجوه:

=

أحدها: أنهم المسلمون من أمة محمد ﷺ، لأنهم صدقوا بنبوته، وأنه روح الله وكلمته، فو الله ما اتبعه من دعاه ربا، ومعنى الآية: أن الذين آمنوا به فوق الذين كذّبوه وكذَبوا عليه، وهذا قول السدي، الحسن، وقتادة، والربيع، وابن جريج، والشعبي، ومقاتل، والكلبي، ورجّحه الزجاج.

والثاني: أنهم النصارى فوق اليهود، لأن النصارى أعز واليهود أذل. وهذا معنى قول ابن زيد.

قال الماوردي: "وفي هذا دليل على أنه لا يكون مملكة إلى يوم القيامة بخلاف الروم".

والثالث: أنهم الحواريون فوق الذين كفروا. قاله الضحاك ومحمد بن ابان.

والرابع: وقيل: هم الروم. حكاه السدي.

وعلى القول بأنهم: النصارى أو الحواريون، "يكون معنى الاتباع الادعاء والمحبة لا اتباع الدين والملة".

والراجح أن متبعوه " هم المسلمون، لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع، دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى". والله أعلم.

(وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) وهكذا وقع؛ فإن المسيح ﷺ لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعا بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، ورد على كل فريق، فاستمروا كذلك قريبا من ثلاثمائة سنة، ثم نبع لهم ملك من ملوك اليونان، يقال له: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفا، وقيل: جهلا منه، إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة –التي هي الخيانة

=

=

الحقيرة-وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق وصوروا له الكنائس، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة الملكية منهم. وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفار، عليهم لعائن الله.

قال الرازي: قوله تعالى (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) فيه وجهان:

الأول: أن المعنى: الذين اتبعوا دين عيسى يكونون فوق الذين كفروا به، وهم اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة، فيكون ذلك إخبارا عن ذل اليهود وإنهم يكونون مقهورين إلى يوم القيامة، فأما الذين اتبعوا المسيح عليه السلام فهم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله وأما بعد الإسلام فهم المسلمون، وأما النصارى فهم وإن أظهروا من أنفسهم موافقته فهم يخالفونه أشد المخالفة من حيث أن صريح العقل يشهد أنه عليه السلام ما كان يرضى بشيء مما يقوله هؤلاء الجهال، ومع ذلك فإنا نرى أن دولة النصارى في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود فلا نرى في طرف من أطراف الدنيا ملكا يهوديا ولا بلدة مملوءة من اليهود بل يكونون أين كانوا بالذلة والمسكنة وأما النصارى فأمرهم بخلاف ذلك.

الثاني: المراد بالفوقية بالحجة والدليل.

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ} [آل عمران: ٥٥]،: أي "ثم مصيركم إليّ يوم البعث".

قال أبو العالية: "يرجعون إليه بعد الحياة".

قال السمرقندي: "يعني الذين اتبعوك، والذين كفروا كلهم مرجعهم إليّ".

=

=

قوله تعالى: {فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [آل عمران: ٥٥]، أي: "فأقضي حينئذ بين جميعكم بالحق فيما كنتم تختلفون فيه من أمر عيسى".

قال الثعلبي: يعني: "من الدين وأمر عيسى -عليه السلام-".

قال السمرقندي: أي: "بين المؤمنين والكفار من الدين".

قال أبو حيان: "هذا إخبار بالحشر والبعث، والمعنى ثم إلى حكمي، وهذا عندي من الالتفات".

قال المراغي: "وهذا شامل للمسيح والمختلفين معه، وشامل للاختلاف بين أتباعه والكافرين به".

قال ابن عطية: "الخطاب لعيسى، والمراد الإخبار بالقيامة والحشر فلذلك جاء اللفظ عاما من حيث الأمر في نفسه لا يخص عيسى وحده فكأنه قال له: ثُمَّ إِلَيَّ، أي إلى حكمي وعدلي، يرجع الناس، فخاطبه كما تخاطب الجماعة إذ هو أحدها، وإذ هي مرادة في المعنى، وفي قوله تعالى: فَأَحْكُمُ إلى آخر الآية وعد لعيسى والمؤمنين ووعيد للكافرين".

* مسألة في ذكر نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان.

قبل أن نتحدَّث عن نزول عيسى بن مريم عليه السلام يحسُنُ بنا أن نتعرَّف على صفته التي وردت بها النَّصوص الشرعية..

* صفة عيسى عليه السلام: صفته التي جاءت بها الروايات أنه رجلٌ، مربوع القامة، ليس بالطويل ولا بالقصير، أحمر، جعدٌ، عريض الصدر، سبط الشعر، كأنما خرج من ديماس - أي: حمام - له لِمَّة قد رجَّلها تملأ ما بين منكبيه.

الأحاديث الواردة في ذلك: منها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليلة أسري بي لقيتُ موسى... فنعته إلى أن قال: ولقيتُ عيسى... فنعتهُ فقال: ربعةٌ، أحمرُ، كأنما خرج من ديماس يعني: الحمام)

=

=

وروى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (رأيت عيسى وموسى وإبراهيم، فأما عيسى؛ فأحمر جعد عريض الصدر)، وروى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني... فذكر الحديث، وفيه: وإذا عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ قائم يصلي، أقرب الناس به شبهًا عروة بن مسعود الثقفي) أخرجه مسلم، وفي الصحيحين عن عبد اله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (أراني ليلة عند الكعبة، فرأيت رجلًا آدم كأحسن ما أنت راءٍ من أدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم، قد رجلها، فهي تقطر ماء، متكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين، يطوف بالبيت، فسألت: من هذا؟ فقيل: هذا المسيح بن مريم)، وفي رواية للبخاري عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (لا والله؛ ما قال النبي ﷺ لعيسى أحمر، ولكن قال: فذكر تمام الحديث بنحو الرواية السابقة)، وفي رواية لمسلم عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال ﷺ: "فإذا رجل آدم... إلى أن قال: رجل الشعر)

والجمع بين هذه الروايات من كونه في بعضها أحمر، وبعضها آدم، وما جاء أنه سبط الشعر، وفي بعضها بأنه جعد بأنه لا منافاة بين الحمرة والأدمة؛ لجواز أن تكون أدمته صافية، وأما ما جاء من إنكار ابن عمر لرواية أن عيسى أحمر؛ فهو مخالف لما حفظه غيره، فقد روى أبو هريرة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أحمر اللون، وأما كونه في رواية سبط الشعر، وفي أخرى أنه جعد، والجعد ضد السبط، فيمكن أن يجمع بينهما بأنه سبط الشعر، وأما وصفه بأنه جعد؛ فالمراد بذلك جعودة في جسمه لا شعره، وهو اجتماع اللحم واكتنازه.

* صفة نزوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: بعد خروج الدَّجَّال، وإفساده في الأرض، يبعث الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فينزل إلى الأرض، ويكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق الشام، وعليه مهرودتان، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه

=

=

تحدر منه جمان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، ويكون نزوله على الطائفة المنصورة، التي تقاتل على الحق، وتكون مجتمعة لقتال الدَّجَّال، فينزل وقت إقامة الصلاة، يصلي خلف أمير تلك الطائفة، قال ابن كثير في النهاية (١/ ١٤٤): "هذا هو الأشهر في موضع نزوله أنه على المنار البيضاء الشرقية بدمش، وقد رأيت في بعض الكتب أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي جامع دمشق، فلعل هذا هو المحفوظ... وليس بدمشق منارة تعرف بالشرقية سوى التي إلى جانب الجامع الأموي بدمشق من شرقية، وهذا هو الأنسب والأليق؛ لأنه ينزل وقد أقيمت الصلاة، فيقول له إمام المسلمين: يا روح الله! تقدم. فيقول: تقدم أنت؛ فإنه أقيمت لك. وفي رواية: (بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمة الله هذه الأمة) أخرجه مسلم، وذكر ابن كثير أيضا أنه في زمنه سنة إحدى وأربعين وسبع مئة جدَّد المسلمون منارة من حجارة بيض، وكان بناؤها من أموال النصارى الذين حرقوا المنارة التي كانت مكانها، ولعل هذا يكون من دلائل النبوة الظاهرة، حيث قيض الله بناء هذه المنارة من أموال النصارى، لينزل عيسى بن مريم عليها، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل منهم جزية، ولكن من أسلم وإلا قتل، وكذلك غيرهم من الكفار ا. هـ

ففي حديث النواس بن سمعان الطويل عند مسلم في ذكر خروج الدَّجَّال ثم نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ﷺ: (إذا بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه - أي: يطلب الدَّجَّال - حتى يدركه بباب لد، فيقتله، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة).

=

=

* أدلة نزوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان ثابت في الكتاب والسنة الصحيحة المتواترة، وذلك علامة من علامات السَّاعة الكبرى.

أ- أدلة نزوله من القرآن الكريم:

١- قال الله تعالى: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ} إلى قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} [الزخرف: ٥٧ - ٦١]. فهذه الآيات جاءت في الكلام على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجاء في آخرها قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} [الزخرف: ٦١]؛ أي: نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل يوم القيامة علامة على قرب السَّاعة، ويدلُّ على ذلك القراءة الأخرى: {وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ}؛ بفتح العين واللام؛ "أي: علامة وأمارة على قيام السَّاعة، وهذه القراءة مروية عن ابن عباس ومجاهد والأعمش ولكن لم يقرأ بها أحد من العشرة فهي شاذة، وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير هذه الآية: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ}؛ قال: (هو خروج عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل يوم القيامة)

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٢٢): "الصحيح أنه - أي: الضمير - عائد على عيسى؛ فإن السياق في ذكره.. واستبعد أن يكون معنى الآية: ما بعث به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من ذوي الأسقام.. وأبعد من ذلك ما روي عن بعض العلماء أن الضمير في {وَإِنَّهُ} عائد على القرآن الكريم.

٢- وقال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُم} إلى قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)} [النساء: ١٥٧ - ١٥٩].

فهذه الآيات؛ كما أنها تدلُّ على أن اليهود لم يقتلوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يصلبوه، بل رفعه الله إلى السماء؛ كما في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ

=

وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: ٥٥]. فإنها تدلُّ على أن من أهل الكتاب من سيؤمن بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آخر الزمان، وذلك عند نزوله وقبل موته؛ كما جاءت بذلك الأحاديث المتواترة الصحيحة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٢٢ - ٣٢٣) في جوابه لسؤال وجه إليه عن وفاة عيسى ورفعه: "الحمد لله، عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حي، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا وإماماً مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضعه الجزية، وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدَّجَّال، ومن فارقت روحه جسده؛ لم ينزل جسده من السماء، وإذا أحيي؛ فإنه يقوم من قبره، وأما قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران: ٥٥]؛ فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت، إذ لو أراد بذلك الموت؛ لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين؛ فإن الله يقبض أرواحهم، ويعرج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: {وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا}، ولو كان قد فارقت روحه جسده؛ لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء، أو غيره من الأنبياء، وقد قال تعالى في الآية الأخرى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ} [النساء: ١٥٧ - ١٥٨]، فقوله هنا: (بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْه) يبين أنه رفع بدنه وروحه؛ كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه، إذ لو أريد موته؛ لقال: وما قتلوه وا صلبوه، بل مات...

ولهذا قال من قال من العلماء: إني متوفيك؛ أي: قابضك؛ أي: قابض روحك وبدنك؛ يقال: توفيت الحساب واستوفيته، ولفظ (التوفي) لا يقتضي نفسه توفي الروح دون البدن، ولا توفيهما جميعًا؛ إلا بقرينة منفصلة، وقد يراد به توفي النوم؛

=
كقوله تعالى: {اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} [الزمر: ٤٢]، وقوله:{هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام: ٦٠]، وقوله: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} [الأنعام: ٦١]ا. هـ

وليس الكلام في هذا البحث عن رفع عيسى عليه السلام، وإنما جاء ذكر ذلك لبيان أنه رفع ببدنه وروحه، وأنه حي الآن في السماء، وسينزل في آخر الزمان، ويؤمن به من كان موجودًا من أهل الكتاب؛ كما قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [النساء: ١٥٩].

قال ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٨): "حدثنا ابن بشار؛ قال: حدثنا سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}؛ قال: قبل موت عيسى بن مريم".

ثم قال ابن جرير بعد سياقه للأقوال في معنى هذه الآية: "وأولى الأقوال بالصحة قول من قال: تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى"

وروى بسنده عن الحسن البصري أنه قال: "قبل موت عيسى، والله إنه الآن حي عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون".

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤١٥): "ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفع إليه، وإنه باقٍ حي، وأنه سينزل قبل يوم القيامة؛ كما دلَّت على ذلك الأحاديث المتواترة" وذكر في النهاية (١/ ١٣٧) أنه روي عن ابن عباس وغيره أنه أعاد الضمير في قوله: {قَبْلَ مَوْتِهِ} على أهل الكتاب، وقال: "إن ذلك لو صح لما كان
=

=

منافيًا لهذا، ولكن الصحيح في المعنى والإسناد ما ذكرناه".

ب- أدلة نزوله من السنة المطهرة: الأدلَّة من السنة على نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كثيرة ومتواترة، سبق ذكر بعضها، ولم نذكر جميع الأحاديث الواردة في نزوله؛ خشية أن يطول البحث، وقد جاءت هذه الأحاديث في الصحاح والسنن والمسانيد وغيره من دواوين السنة، وهي تدلُّ دلالة صريحة على ثبوت نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان، ولا حجة لمن ردها، أو قال: إنها أحاديث آحاد لا تقوم بها الحجة، أو إن نزوله ليس عقيدة من عقائد المسلمين التي يجب عليهم أن يؤمنوا بها؛ لأنه إذا ثبت الحديث؛ وجب الإيمان به، وتصديق ما أخبر به الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يجوز لنا رد قوله.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ٢٩١) - بعد ذكره الخلاف في معنى وفاة عيسى-: "وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال: "معنى ذلك: إني قابضك من الأرض، ورافعك إلى"؛ لتواتر الأخبار عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدَّجَّال ا. هـ

وقال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٢٣): "تواترت الأحاديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أخبر بنزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا" ا. هـ

وقال صديق حسن في الإذاعة (ص١٦٠): "الأحاديث في نزوله عَلَيْهِ السَّلَامُ كثيرة، ذكر الشوكاني منها تسعة وعشرين حديثًا؛ ما بين صحيح، وحسن، وضعيف منجبر، منها ما هو مذكور في أحاديث الدَّجَّال... ومنها ما هو مذكور في أحاديث المنتظر، وتنضم إلى ذلك أيضًا الآثار الواردة عن الصحابة، فلها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في ذلك" ثم ساقها وقال: "جميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع" ا. هـ

وممن جمع الأحاديث في نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الشيخ محمد أنور شاه الكشميري في

=

=

كتابه "التصريح بما تواتر في نزول المسيح"، فذكر أكثر من سبعين حديثًا.
وقال صاحب عون المعبود (١١/ ٤٥٧): "تواترت الأخبار عن النبي ﷺ في نزول عيسى بن مريم ﷺ من السماء بجسده العنصري إلى الأرض عند قرب السَّاعة، وهذا هو مذهب أهل السنة" ا. هـ
وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري (٦/ ٤٦٠): "نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان مما لم يختلف فيه المسلمون؛ لورود الأخبار الصحاح عن النبي ﷺ بذلك، وهذا معلوم من الدين بالضرورة، لا يؤمن من أنكره" ا. هـ
وقال في تعليقه على مسند الإمام أحمد (١٢/ ٢٥٧): "وقد لعب المجددون أو المجردون في عصرنا الذي نحيا فيه بهذه الأحاديث الدالَّة صراحة على نزول عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان، قبل انقضاء الحياة الدُّنيا، بالتأويل المنطوي على الإنكار تارة، وبالإنكار الصريح أخرى! ذلك أنهم - في حقيقة أمرهم - لا يؤمنون بالغيب، أو لا يكادون يؤمنون، وهي أحاديث متواترة المعنى في مجموعها، يعلم مضمون ما فيها من الدين بالضرورة، فلا يجديهم الإنكار ولا التأويل" ا. هـ
وقال العلامة الألباني في تحقيق شرح العقيدة الطحاوية (ص ٥٠١): اعلم أن أحاديث الدجال ونزول عيسى عليه السلام متواترة يجب الإيمان بها، ولا تغتر بمن يدعي فيها أنها أحاديث آحاد، فإنهم جهال بهذا العلم، وليس فيهم من تتبع طرقها، ولو فعل لوجدها متواترة كما شهد بذلك أئمة هذا العلم كالحافظ ابن حجر وغيره، ومن المؤسف حقًا أن يتجرأ البعض على الكلام فيما ليس من اختصاصهم، لا سيما والأمر دين وعقيدة! وإن من هؤلاء أخيرًا المدعو عز الدين بليق في كتابه "موازين القرآن والسنة" الذي زعم فيه تقليدًا لغيره ممن لا معرفة عنده بهذا العلم - أن روايات نزول عيسى بعد الدجال إنما هي من رواية وهب بن
=

=

منبة وكعب الأحبار وهذا اختلاق محض، فلا وجود لهما في شيء منها مطلقًا، وقد كنت قديمًا خرجت نحو أربعين حديثًا ليس لهما فيها ذكر! ا. هـ
ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكره طائفة من العلماء في عقيدة أهل السنة والجماعة، وأنه ينزل لقتل الدَّجَّال قبحه الله.
* الحكمة في نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دون غيره: تلمس بعض العلماء الحكمة في نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، في آخر الزمان دون غيره من الأنبياء، ولهم في ذلك عدة أقوال:
١- الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبين الله تعالى كذبهم، وأنه الذي يقتلهم ويقتل رئيهم الدَّجَّال، كما سبق بيان ذلك في الكلام على قتال اليهود، ورجح الحافظ ابن حجر هذا القول على غيره في الفتح (٦/ ٤٩٣).
٢- إن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وجد في الإنجيل فضل أمة محمد كما في قوله تعالى: {وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} [الفتح: ٢٩]، فدعا الله أن يجعله منهم، فاستجاب الله دعاءه، وأبقاه حتى ينزل آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام، قال الإمام مالك كما في تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٣): "بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا". وقال ابن كثير: "وصدقوا في ذلك؛ فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة والأخبار المتداولة" ا. هـ
وقد ترجم الإمام الذهبي لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتابه تجريد أسماء الصحابة (١/ ٤٣٢) فقال: "عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: صحابي، ونبي؛ فإنه رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الإسراء، وسلم عليه، فهو آخر الصحابة موتًا" ا. هـ
٣- إن نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من السماء؛ لدنو أجله، ليدفن في الأرض، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها، فيوافق نزوله خروج الدَّجَّال، فيقتله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

=

٤- إنه ينزل مكذبًا للنصارى، فيظهر زيفهم في دعواهم الأباطيل، ويهلك الله الملل كلها في زمنه إلا الإسلام؛ فإنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية.

٥- إن خصوصيته بهذه الأمور المذكورة لقول النبي ﷺ: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، ليس بيني وبينه نبي) أخرجه البخاري ومسلم.

فرسول الله ﷺ أخص الناس به، وأقربهم إليه؛ فإن عيسى بشر بأن رسول الله ﷺ يأتي من بعده، ودعا الخلق إلى تصديقه والإيمان به؛ كما في قوله تعالى: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦]. وفي الحديث: قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك؟ قال: (نعم؛ أنا دعوة أبي أبراهيم وبشرى أخي عيسى"). وهو مخرج في الصحيحة (١٥٤٥، ١٥٤٦).

* بماذا يحكم عيسى عليه السلام؟: يحكم عيسى عليه السلام بالشريعة المحمدية، ويكون من أتباع محمد ﷺ؛ فإنه لا ينزل بشرع جديد؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان، وباقٍ إلى قيام السَّاعة، لا ينسخ، فيكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة، ومجددًا لأمر الإسلام، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمكم منكم؟! فقلت (القائل الوليد بن مسلم) لابن أبي ذئب: إن الأوزاعي حدثنا عن الزهري عن نافع عن أبي هريرة: "وإمامكم منكم". قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمكم منكم؟ قلت: تخبرني؟ قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ)، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة قال: فينزل عيسى بن مريم ﷺ، فيقول أميرهم: تعال صل بنا. فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمة الله هذه الأمة") أخرجه مسلم.

=

قال القرطبي في التذكرة (ص٦٧٧ - ٦٧٨): "ذهب قوم إلى أنه بنزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يرتفع التكليف؛ لئلا يكون رسولاً إلى أهل ذلك الزمان؛ يأمرهم عن الله تعالى، وهذا (يعني: كونه رسولًا بعد محمد) أمر مردود بقوله تعالى: {وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠]، وقوله عليه الصلاة والسلام: "لا نبي بعدي"، وقوله: "وأنا العاقب؛ يريد آخر الأنبياء وخاتمهم. وإذا كان ذلك؛ فلا يجوز أن يتوهم أن عيسى ينزل نبيًا بشريعة متجددة غير شريعة محمد نبينا ﷺ، بل إذا نزل؛ فإنه يكون يومئذٍ من أتباع محمد ﷺ؛ كما أخبر ﷺ، حيث قال لعمر: "لو كان موسى حيًا؛ ما وسعه إلا اتباعي"، فينزل وقد علم بأمر الله تعالى له في السماء قبل أن ينزل ما يحتاج إليه من علم هذه الشريعة للحكم به بين الناس، والعمل به في نفسه، فيجتمع المؤمنون عند ذلك إليه، ويحكمونه على أنفسهم... ولأن تعطيل الحكم غير جائز، وأيضًا؛ فإن بقاء الدُّنيا إنما يكون بقتضى التكليف إلى أن لا يقال في الأرض: الله، الله" ا. هـ

والذي يدلُّ على بقاء التكليف بعد نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صلاته مع المسلمين، وحجه، وجهاده للكفار، فأما صلاته؛ فقد سبق في الأحاديث ذكر ذلك، وكذلك قتاله للكفار وأتباع الدَّجَّال، وأما حجه؛ ففي صحيح مسلم عن حنظلة الأسلمي؛ قال: سمعت أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدث عن النبي ﷺ؛ قال: (والذي نفسي بيده؛ ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمرًا، أو ليثنينهما") أي: يجمع بين الحج والعمرة.

وأما وضع عيسى للجزية عن الكفار - مع أنها مشروعة في الإسلام قبل نزوله عَلَيْهِ السَّلَامُ -؛ فليس هذا ناسخًا لحكم الجزية جاء به عيسى شرعًا جديدًا؛ فإن مشروعية أخذ الجزية مقيد بنزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأخبار نبينا محمد ﷺ، فهو المبين للنسخ بقوله لنا: (والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلًا، فليسكرن الصليب، وليقتلن

=

=

الخنزير، وليضعن الجزية") أخرجه مسلم.

* انتشار الأمن وظهور البركات في عهده عَلَيْهِ السَّلَامُ: وزمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ زمن أمن وسلام ورخاء، يرسل الله فيه المطر العزيز، وتخرج الأرض ثمرتها وبركتها، ويفيض المال، وتذهب الشحناء والتباغض والتحاسد، فقد جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل عند مسلم في ذكر الدَّجَّال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعائه عليهم وهلاكهم، وفيه قوله ﷺ: (ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس)، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (والأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل... فيهلك الله في زمانه المسيح الدَّجَّال، وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم)، وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (والله لينزلن عيسى بن مريم حكمًا وعادلًا..

وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال؛ فلا يقبله أحد) قال النووي في شرح مسلم (٢/ ١٩٢): "ومعناه أن يزهد الناس فيها- أي: الإبل - ولا يرغب في اقتنائها؛ لكثرة الأموال، وقلة الآمال، وعدم الحاجة، والعلم بقرب القيامة، وإنما ذكرت القلاص؛ لكونها أشرف الإبل، التي هي أنفس الأموال عند العرب، وهو شبيه

=

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦).

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا} بِالْقَتْلِ وَالسَّبْي وَالْجِزْيَة {وَالْآخِرَة} بِالنَّارِ {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} مَانِعِينَ مِنْهُ.

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧).

=

بمعنى قول الله عز وجل: {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} [التكوير: ٤]، ومعنى: "لا يسعى عليها": لا يعتنى بها". وذهب القاضي عياض إلى أن المعنى: أي: لا تطلب زكاتها إذ لا يوجد من يقبلها، وأنكر هذا القول النووي.

❁ مدة بقائه بعد نزوله ثم وفاته: وأما مدة بقاء عيسى عليه السلام في الأرض بعد نزوله؛ فقد جاء في بعض الروايات أنه يمكث سبع سنين، وفي بعضها أربعين سنة، ففي رواية الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (فيبعث الله عيسى بن مريم... ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذر ة من خير أو إيمان إلا قبضته)، وفي رواية الإمام أحمد وأبي داود: (فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون) وكلا هاتين الروايتين صحيحة، وهذا مشكل؛ إلا أن تحمل رواية السبع سنين على مدَّة إقامته بعد نزوله، ويكون ذلك مضافًا إلى مُكثِه في الأرض قبل رفعه إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثًا وثلاثين سنة على المشهور. والله أعلم.

{وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات فَيُوَفِّيهِمْ} بِالْيَاءِ وَالنُّون {أُجُورهمْ وَاَللَّه لَا يُحِبّ الظَّالِمِينَ} أَيْ يعاقبهم روي أنه تَعَالَى أَرْسَلَ إِلَيْهِ سَحَابَة فَرَفَعَتْهُ فَتَعَلَّقَتْ بِهِ أُمّه وَبَكَتْ فَقَالَ لَهَا إِنَّ الْقِيَامَة تَجْمَعنَا وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلَة الْقَدْر بِبَيْتِ الْمَقْدِس وَلَهُ ثَلَاث وَثَلَاثُونَ سَنَة وَعَاشَتْ أُمّه بَعْده سِتّ سِنِينَ وَرَوَى الشَّيْخَانِ حَدِيث أَنَّهُ يَنْزِل قُرْب السَّاعَة وَيَحْكُم بِشَرِيعَةِ نَبِيّنَا وَيَقْتُل الدَّجَّال وَالْخِنْزِير وَيَكْسِر الصَّلِيب وَيَضَع الْجِزْيَة وَفِي حَدِيث مُسْلِم أَنَّهُ يَمْكُث سَبْع سِنِينَ وَفِي حَدِيث عَنْ أبي داود الطيالسي أربعين سنة يتوفى وَيُصَلَّى عَلَيْهِ فَيَحْتَمِل أَنَّ الْمُرَاد مَجْمُوع لُبْثه فِي الْأَرْض قَبْل الرَّفْع وَبَعْده.

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨).

{ذَلِكَ} الْمَذْكُور مِنْ أَمْر عِيسَى {نَتْلُوهُ} نَقُصّهُ {عَلَيْك} يَا مُحَمَّد {مِنْ الْآيَات} حَال مِنْ الْهَاء فِي نَتْلُوهُ وَعَامِله مَا فِي ذَلِكَ مِنْ مَعْنَى الْإِشَارَة {وَالذِّكْر الْحَكِيم} الْمُحْكَم أَيْ القرآن(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن الحسن؛ قال: أتى رسول الله ﷺ راهبا نجران، فقال أحدهما: من أبو عيسى؟ وكان رسول الله ﷺ لا يعجل حتى يأمره ربُّه؛ فنزل عليه: {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)} [آل عمران: ٥٨ - ٦٠].

أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٠٤، ٣٠٥ رقم ٦٦٣): ثنا أبي ثنا موسى إسماعيل التبوذكي ثنا مبارك بن فضالة سمعت الحسن. ورجاله ثقات؛ لكنه مرسل.

وعنه أيضا قال: جاء راهبا نجران إلى النبي ﷺ، فقال لهما: "أسلِما؛ تسلَما"، =

=

فقالا: قد أسلمنا قبلك، فقال: "كذبتما؛ يمنعكما من الإسلام سجودكما للصليب، وقولكما: اتخذ الله ولدًا، وشربكما الخمر"، فقالا: ما تقول في عيسى؟ قال: فسكت النبي ﷺ. ونزل القرآن: {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)}؛ فدعاهما رسول الله ﷺ إلى الملاعنة، قال: وجاء بالحسن والحسين، وفاطمة وأهله وولده عليهم السلام، قال: فلما خرجا من عنده؛ قال أحدهما لصاحبه: اقرر بالجزية ولا تلاعنه؛ فأقر بالجزيه، قال: فرجعا، فقالا: نقر بالجزيه ولا نلاعنك.

أخرجه أبو الشيخ في "تفسيره" -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٦٧)، و"الوسيط" (١/ ٤٤٣) - من طريق يحيى ووكيع عن مبارك بن فضالة عن الحسن به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال.والثانية: مبارك بن فضالة صدوق يدلس، وقد عنعنه.

* قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران: ٥٦]، أي: "فأما الذين جَحدوا نبوّتك يا عيسى وخالفوا ملتك، وبذلك يكونوا كفروا بالله ورسله".

قوله تعالى: {فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [آل عمران: ٥٦]، أي: "فإني أعذبهم عذابًا شديدًا، أما في الدنيا فبالقتل والسباء والذلة والمسكنة، وأما في الآخرة فبنار جهنم".

قال أبو مالك: "فهم أصحاب النار يعذبون فيها".

وقد فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه وأطراه من النصارى؛

=

=

عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق (وما لهم من الله من واق).

والدنيا هي هذه الحياة التي نعيشها التي قبل الآخرة، وسميت لدنيا لسببين:

السبب الأول: لأنها قبل الآخرة في الزمن.

السبب الثاني: لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة. كما قال تعالى (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) وقال تعالى (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء) رواه الترمذي، وقال ﷺ (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري.

قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران: ٥٦]، " أي ليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله".

قال الطبري: "وما لهم من عذاب الله مانعٌ، ولا عن أليم عقابه لهم دافع بقوة ولا شفاعة، لأنه العزيز ذُو الانتقام".

فلا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم العذاب، قال تعالى (يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه).

(وأما الذين آمنوا) أي: آمنوا بقلوبهم وانقادوا.

(وعملوا الصالحات) أي: وعملوا بجوارحهم، الأعمال الصالحات، من الأفعال والأقوال، الواجبات والمستحباب، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة.

قال ابن عباس: "يقول: أدوا فرائضي".

وعنه أيضا: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

قال زيد بن أسلم: "رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ".

=

=

قال الطبري: أي: "وأما الذين صدّقوك يا عيسى وأقرّوا بنبوتك وبما جئتهم من الحق وعملوا بما فرضت من فرائضي على لسانك".

العمل الصالح لا يكون صالحا إلا بشرطين: الشرط الأول: الإخلاص، لقوله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرى ما نوى)، الشرط الثاني: المتابعة للنبي ﷺ لقوله ﷺ (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد). رواه مسلم

ودائما يقرن الله العمل بالصالح، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحا.

قال تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ...).

وقال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ...).

وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا).

والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به.

والإيمان شرعا: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان.

قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول

بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين، الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

قوله تعالى: {فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ} [آل عمران: ٥٧]، أي: ": فيعطيهم جزاءَ أعمالهم الصالحة كاملا لا يُبخسون منه شيئًا ولا يُنقصونه".

=

=

يوفيهم أجورهم في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات.

وقال تعالى (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون).

وقال تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما).

قال مقاتل: "يعني فيوفوا أجورهم في الآخرة".

قال ابن كثير: "أي: في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات".

وقرأ الحسن وحفص ويونس: {فَيُوَفِّيهِمْ} بالياء، والباقون بالنون.

قوله تعالى: {وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ٥٧]،تحذير شديد للظالمين، وأعظم الظلم الشرك بالله تعالى كما تعالى (إن الشرك لظلم عظيم).

قال ابن عباس: "قوله: {الظالمين}، يقول: الكافرين".

قال أبو عبيدة: "أي: الكافرين".

قال محمد ابن إسحاق: "{الظالمين}: أي المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم الطاعة وقلوبهم مصرة على المعصية".

قال السمعاني: "أي: لا يرحم الكافرين، ولا يثني عليهم بالجميل".

قال ابن أبي زمنين: يعني: المشركين".

قال الزجاج: "أي لا يرحمهم، ويعذبهم ولا يثني عليهم خيرا، هذا معنى البغض من الله، ومعنى المحبة منه الرحمة والمغفرة والثناء والجميل".

قال الماتريدي: "لأنه لا يحب الظلم".

قال السمرقندي: "أي لا يرضى دين الكافرين".

قال الراغب: "تنبيه أنه لا يظلم خلقه، فمن لا يحب شيئا لا يتعاطاه مع استغنائه

=

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩).

{إنَّ مَثَل عِيسَى} شَأْنه الْغَرِيب {عِنْد الله كَمَثَلِ آدَم} كَشَأْنِهِ فِي خَلْقه مِنْ غَيْر أَب وَهُوَ مِنْ تَشْبِيه الْغَرِيب بِالْأَغْرَبِ لِيَكُونَ أَقْطَع لِلْخَصْمِ وَأَوْقَع فِي النَّفْس

=

عنه".

قوله تعالى: {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)} [آل عمران: ٥٨]أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله الله تعالى، وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى في سورة مريم (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون).

قال محمد ابن إسحاق: "{ذلك نتلوه عليك} يا محمد من الآيات".

قال ابن كثير: "أي: هذا الذي قَصَصْنَاه عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره".

قوله تعالى: {مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ٥٨]، " أي من آيات القرآن الكريم المحكم".

قال ابن كثير: أي: "هو مما قاله الله تعالى، وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك".

قال محمد بن إسحاق: {والذكر الحكيم}: القاطع الفاصل الحق الذي لم يخلطه الباطل من الخبر عن عيسى وعن ما اختلفوا فيه من أمره، فلا تقبلن خبرا غيره".

(تنبيه) تأويل المصنف لصفة الرحمة بالثواب هو جريا منه رَحِمَهُ اللهُ على مذهب الأشاعرة وهو مذهب باطل مخالف لمذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة،وقد تقدم بيان الحق في ذلك تحت الآية رقم (٣) من سورة الفاتحة.

{خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ} بَشَرًا {فَيَكُون} أَيْ فَكَانَ وَكَذَلِكَ عِيسَى قَالَ لَهُ كُنْ مِنْ غَيْر أَب فَكَانَ.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠).

{الْحَقّ مِنْ رَبّك} خَبَر مُبْتَدَأ مَحْذُوف أَيْ أَمْر عِيسَى {فَلَا تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ} الشَّاكِّينَ فيه(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن السدي؛ قال: لما بُعث رسول الله ﷺ، وسمع به أهل نجران؛ أتاه منهم أربعة نفر من خيارهم؛ منهم: العاقب، والسيد ماسرجس ومارنجر فسألوه ما يقول في عيسى؟ فقال: "هو عبد الله، وروحه، وكلمته"، قالوا هم: لا؛ ولكنه هو الله؛ نزل من ملكه؛ فدخل في جوف مريم، ثم خرج منها، فأرانا قدرته وأمره، فهل رأيت قط إنسانًا خلق من غير أب؛ فأنزل الله عز وجل: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣/ ٢٠٧، ٢٠٨) من طريق أحمد بن المفضل ثنا أسباط بن نصر عن السدي به. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال. والثانية: أسباط بن نصر؛ ضعيف.

وعن الأزرق بن قيس؛ قال: جاء أسقف نجران والعاقب إلى رسول الله ﷺ؛ فعرض عليهما الإسلام، فقالا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال: "كذبتما؛ منع الإسلام منكما ثلاث: قولكما: اتخذ الله ولدًا، وسجودكما للصليب، وأكلكما لحم الخنزير"، قالا: فمن أبو عيسى؟ فلم يرد عليهما؛ فأنزل الله عز وجل: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ}.

أخرجه عبد بن حميد في "تفسيره"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٦٧٩): حدثنا روح بن عبادة، عن عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن الأزرق بن قيس: (وذكره).
=

=

ورجاله ثقات؛ لكنه مرسل.

وعن قتادة؛ قال: ذُكر لنا أن سيدي أهل نجران، وأسقفهم: السيد والعاقب، لقيا نبي الله؛ فسألاه عن عيسى، فقالا: لكل آدمي أب؛ فما بال عيسى لا أب له؟! فنزلت.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣/ ٢٠٧)، وعبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٦٧٩)، و"الدر المنثور" (٢/ ٢٢٨) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. ورجاله ثقات؛ لكنه مرسل.

وعن عكرمة؛ قال: نزلت في العاقب والسيد من أهل نجران، وهما نصرانيان.

أخرجه ابن جرير في "جامع البيان" (٣/ ٢٠٨) من طريق الحسين بن داود الملقب والمعروف بسنيد عن حجاج بن محمد المصيصي عن ابن جريج عنه به.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال. والثانية: ابن جريج؛ مدلس، وقد عنعن. والثالثة: سنيد هذا صاحب "التفسير"؛ ضعيف.

وعن ابن جريج؛ قال: بلغنا أن نصارى أهل نجران قدم وفدهم على النبي ﷺ، فيهم السيد والعاقب، وهما يومئذ سيدا أهل نجران، فقالوا: يا محمد! فيم تشتم صاحبنا؟! قال: "من صاحبكما؟ "، قالا: عيسى بن مريم؛ تزعم أنه عبد، قال رسول الله ﷺ: "أجل؛ إنه عبدُ الله، وكلمتهُ ألقاها إلى مريم، وروح منه"؛ فغضبوا، وقالوا: إن كنت صادقًا، فأرنا عبدًا يحيي الموتى ويبرئ الأكمه ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه! لكنه الله، فسكت حتى أتاه جبريل؛ فقال: يا محمد {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [المائدة: ١٧]، فقال رسول الله ﷺ: "يا جبريل! إنهم سألوني أن أخبرهم بمَثَل عيسى؟ قال جبريل: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)} "؛ فلما أصبحوا؛ عادوا؛

=

=

فقرأ عليهم الآيات.

أخرجه سنيد في "تفسيره"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٦٨٠، ٦٨١) -ومن طريقه ابن جرير في "جامع البيان" (٣/ ٢٠٧) - عن حجاج المصيصي عن ابن جريج به. وإسناده ضعيف جدًا، كما تقدم مرارًا.

وعن الشعبي؛ قال: قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، فقالوا: حدثنا عن عيسى بن مريم؟ قال: "رسول الله، وكلمته ألقاها على مريم"، قالوا: ينبغي لعيسى أن يكون فوق هذا؛ فأنزل الله: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ}؛ قال: ما ينبغي لعيسى أن يكون مثل آدم؛ فأنزل الله: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} [آل عمران: ٦١] الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٢٢٩)، وعزاه لابن المنذر، وهو مرسل.

* قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ} [آل عمران: ٥٩]، في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب.

(كمثل آدم) فإن الله خلقه من غير أب ولا أم بل: (خلقه من تراب) كما قال تعالى (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب).

وقال تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون).

وقال تعالى (والله خلقكم من تراب).

(ثم قال له كن فيكون) والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى بكونه مخلوقا من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا، ولكن الرب عز وجل، أراد أن يظهر قدرته لخلقه، حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى؛ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم

=

=

(ولنجعله آية للناس).

قوله تعالى: {خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٥٩]، أي: خلقه من تراب من غير أب ولا أم، ثم قال له كن فكان".

قال محمد بن جعفر بن الزبير: "فإن قالوا: خُلق عيسى من غير ذكر، فقد خلقت آدمَ من تراب بتلك القدرة من غير أنثى ولا ذكر، فكان كما كانَ عيسى لحمًا ودمًا وشعرًا وبَشرًا، فليس خلقُ عيسى من غير ذكر بأعجبَ من هذا".

قال ابن كثير: "والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى بكونه مخلوقا من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادًا. ولكن الرب، عَزّ وجل، أراد أن يظهر قدرته لخلقه، حين خَلَق آدم لا من ذكر ولا من أنثى؛ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ} [مريم: ٢١]".

قال الرازي: أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران على الرسول ﷺ، وكان من جملة شبههم أن قالوا: يا محمد، لما سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى، فقال: إن آدم ما كان له أب ولا أم ولم يلزم أن يكون ابنا لله تعالى، فكذا القول في عيسى عليه السلام، هذا حاصل الكلام، وأيضا إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم؟ بل هذا أقرب إلى العقل، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولده من التراب اليابس.

قوله تعالى: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)} [آل عمران: ٦٠].

أي: هذا القول هو الحق في عيسى، الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا

=

=

بعد الحق إلا الضلال.

قال محمد بن جعفر بن الزبير: "ما جاءك من الخبر عن عيسى".

قال مقاتل: "يعني: من هذا الذي قال الله في عيسى".

قال ابن كثير: "أي: هذا القول هو الحق في عيسى، الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه".

قال الزجاج: أي: "الذي أنبأناك به في قصة عيسى عليه السلام هو الحق من ربك".

قوله تعالى: {فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [آل عمران: ٦٠]، أي: "فلا تكن من الشاكين".

قال ابن عباس: "قال الحسن: يقول: يا محمد فلا تكن في شك مما قالا".

قال قتادة: "يعني: فلا تكن في شكّ من عيسى أنه كمثل آدم، عبدُ الله ورسوله، وكلمةُ الله ورُوحه".

قال الربيع: "، يقول: فلا تكن في شكّ مما قصصنا عليك أنّ عيسى عبدُ الله ورسوله، وكلمةٌ منه ورُوحٌ، وأنّ مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تُراب ثم قال له كن فيكون".

قال محمد بن جعفر بن الزبير: "أي: قد جاءك الحق من ربك فلا تمترِ فيه".

قال الثعلبي: "الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته لأنه لم يكن ينهاه في أمر عيسى".

وقال ابن عاشور: الخطاب في (فلا تكن من الممترين) للنبي صلى الله عليه وسلم والمقصود التعريض بغيره، والمعرض بهم هنا هم النصارى الممترون الذين امتروا في الإلاهية بسبب تحقق أن لا أب لعيسى.

وقال ابن عطية: ونهي النبي عليه السلام في عبارة اقتضت ذم الممترين، وهذا يدل على أن المراد بالامتراء غيره، ولو قيل: فلا تكن ممتريا لكانت هذه الدلالة أقل، ولو قيل فلا تمتر لكانت أقل ونهي النبي عليه السلام عن الامتراء مع بعده عنه على جهة

=

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١).

{فَمَنْ حَاجَّك} جَادَلَك مِنْ النَّصَارَى {فِيهِ مِنْ بَعْد مَا جَاءَك مِنْ الْعِلْم} بِأَمْرِهِ {فقُلْ} لَهُمْ {تعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسنَا وَأَنْفُسكُمْ} فَنجْمَعهُمْ {ثُمَّ نَبْتَهِل} نَتَضَرَّع فِي الدُّعَاء {فَنَجْعَل لَعْنَة الله عَلَى الْكَاذِبِينَ} بِأَنْ نَقُول اللَّهُمَّ الْعَنْ الْكَاذِب فِي شَأْن عِيسَى وَقَدْ دَعَا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفْد نَجْرَان لِذَلِكَ لَمَّا حَاجُّوهُ بِهِ فَقَالُوا حَتَّى نَنْظُر فِي أَمْرنَا ثُمَّ نَأْتِيك فَقَالَ ذَوُو رَأْيهمْ لَقَدْ عَرَفْتُمْ نُبُوَّته وَأَنَّهُ مَا بِأَهْلِ قَوْم نَبِيًّا إلَّا هَلَكُوا فَوَادِعُوا الرَّجُل وَانْصَرِفُوا فَأَتَوْا

=

التثبيت والدوام على حاله.

وقال الزمخشري: ونهيه عن الامتراء وجل رسول الله ﷺ أن يكون ممتريا من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفا لغيره.

وقال الآلوسي: قوله تعالى (فلا تكن من الممترين) خطاب له ﷺ، ولا يضر فيه استحالة وقوع الامتراء منه عليه السلام كما في قوله تعالى (ولا تكونن من المشركين) بل قد ذكروا في هذا الأسلوب فائدتين.

إحداهما: أنه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب تحركت منه الأريحية فيزداد في الثبات على اليقين نورا على نور.

وثانيتهما: أن السامع يتنبه بهذا الخطاب على أمر عظيم فينزع وينزجر عما يورث الامتراء لأنه ﷺ مع جلالته التي لا تصل إليها الأماني إذا خوطب بمثله فما يظن بغيره ففي ذلك زيادة ثبات له صلوات الله تعالى وسلامه عليه ولطفه بغيره، وجوز أن يكون خطابا لكل من يقف عليه ويصلح للخطاب.

الرَّسُول صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ خَرَجَ وَمَعَهُ الْحَسَن وَالْحُسَيْن وَفَاطِمَة وَعَلِيّ وَقَالَ لَهُمْ إذَا دَعَوْت فَأَمِّنُوا فَأَبَوْا أَنْ يُلَاعِنُوا وَصَالَحُوهُ عَلَى الْجِزْيَة رَوَاهُ أَبُو نُعَيْم وَعَنْ بن عَبَّاس قَالَ لَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَالًا وَلَا أَهْلًا وَرُوِيَ لَوْ خرجوا لاحترقوا.

إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢).

{إنَّ هَذَا} الْمَذْكُور {لَهُوَ الْقَصَص} الْخَبَر {الْحَقّ} الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ {وَمَا مِنْ إلَه إلَّا الله وَإِنَّ الله لَهُوَ الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْحَكِيم} فِي صُنْعه.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣).

{فَإِنْ تَوَلَّوْا} أَعْرَضُوا عَنْ الْإِيمَان {فَإِنَّ الله عَلِيم بِالْمُفْسِدِينَ} فَيُجَازِيهِمْ وَفِيهِ وَضْع الظَّاهِر مَوْضِع المضمر[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: إن وفد نجران أتوا النبي ﷺ؛ فقالوا: ما تقول في عيسى ابن مريم؟ فقال: "هو روح الله، وكلمته، وعبد الله ورسوله"، قالوا: هل لك أن نلاعنك أنه ليس كذلك؟ قال: "وذاك أحب إليكم؟ "، قالوا: نعم، قال: "فإذا شئتم"؛ فجاء النبي ﷺ وجمع ولده والحسن والحسين، فقال رئيسهم: لا تلاعنوا هذا الرجل؛ فوالله لئن لاعنتموه؛ ليخسفن أحد الفريقين، فجاءوا فقالوا: يا أبا القاسم! إنما أراد أن يلاعنك سفهاؤنا وإنا نحب أن تعفينا، قال: "قد أعفيتكم"، ثم قال: "إن العذاب قد أظل نجران".

أخرجه ابن شاهين -ومن طريقه الواحدي في أسباب النزول (ص ٦٧، ٦٨) -، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (١/ ٣٧٨، ٣٧٩)، =

=

والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٥٩٣، ٥٩٤)، وأبو نعيم في "دلائل النبوة" (ص ٢٩٧، ٢٩٨) من طريقين عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن جابر به. وأخرجه الحاكم عن شيخه علي بن عيسى الحيري عن أحمد بن محمد الأزهري عن علي بن حجر عن علي بن مسهر عن داود به.

أما الباقون؛ فمن طريق بشر بن مهران عن محمد بن دينار عن داود به.

فمدار الحديث عند الحاكم على أحمد الأزهري هذا؛ قال ابن حبان في "المجروحين" (١/ ١٦٣، ١٦٥): "كان ممن يتعاطى حفظ الحديث، ويجري مع أهل الصناعة فيه، ولا يكاد يذكر له باب إلا وأغرب فيه عن الثقات، ويأتي فيه عن الأثبات بما لا يتابع عليه، ذاكرته بأشياء كثيرة؛ فأغرب علي فيها في أحاديث الثقات؛ فكأنه كان يعملها في صباه".

وقال الدارقطني: "منكر الحديث"، وقال: "ضعيف الحديث"، وقال ابن عدي: "حدث بمناكير".

كما في "الكامل" (١/ ٢٠٥)، و"اللسان" (١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

وشيخ الحاكم لم نرَ أحدًا تكلم فيه بمدح أو ذم.

أما الطريق الثانية؛ ففيها بشر بن مهران الحذاء؛ قال ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" (٢/ ٣٧٩ رقم ١٤٧٦): "سمع منه أبي أيام الأنصاري وترك حديثه، وأمرني أن لا أقرأ عليه حديثه".

وقال ابن حبان في "الثقات" (٨/ ١٤٠): "روى عنه البصريون الغرائب".

وشيخه محمد بن دينار؛ صدوق سيئ الحفظ؛ كما في "التقريب" (٢/ ١٦٠).

وبذلك؛ يتبين أن الطريقين لا يقوي بعضهما بعضًا؛ للضعف الشديد فيهما، وعليه؛ فالحديث ضعيف جدًا.

أما الحاكم؛ فقال: "حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه"، ووافقه

=

=
الذهبي.

وتعقبهما الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (١/ ٣٧٩) بقوله: "هكذا قالا، وقد رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسلًا، وهذا أصح".

يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى ما أخرجه ابن أبي حاتم في "التفسير" (٢/ ٣١٠ رقم ٦٧٨)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (١٢/ ٩٨ رقم ١٢٢٣٣، ١٤/ ٥٤٩ رقم ١٨٨٦٠)، وسعيد بن منصور في "سننه" (٣/ ١٠٤٤ رقم ٥٠٠)، وابن جرير (٣/ ٢٠٧، ٢١١) من طريق هشيم وشعبة وجرير بن عبد الحميد ثلاثتهم عن المغيرة عن الشعبي بلفظ: "لما عرض رسول الله ﷺ الملاعنة على أهل نجران؛ قَبِلَ ذلك منه السَّيِّدُ والعاقبُ، فرجعا إلى رجل منهم كان نجيبًا، فقال لهما: ما صنعتما شيئًا، والله لئن كان نبيًا؛ لا يعصيه الله فيكم، وإن كان ملكًا؛ ليستبدنكم، فقالا له: ما ترى؟ قال: أرى أن تغدوا؛ فإنه يغدو لميعادكما، فإذا غدا عليكما؛ فإنه سيعرض عليكما الملاعنة، فإذا عرض ذلك عليكما؛ فقولا له: نعوذ بالله.

وغديا وغدا رسول الله ﷺ آخذ بيد حسن، وحسين يتبعه، وفاطمة تمشي من خلفه، فقال لهما: "هل لكما في الأمر الذي انطلقتما عليه من الملاعنة؟ "، فقالا: نعوذ بالله، قال: فردد ذلك عليهما، فقالا: نعوذ بالله -مرتين، أو ثلاثًا-، فقال لهما: "هل لكما في الإسلام أن تسلما ويكون لكما ما للمسلمين وعليكما ما على المسلمين؟ "؛ فلم يقبلا ذلك وكرهاه، فقال لهما: "هل لكما في الجزية تؤديانها وأنتم صاغرون؛ كما قال الله عز وجل؟ "؛ فقبلا ذلك، وقالا: لا طاقة لنا بحرب العرب.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد، وأما ما يخشى من تدليس المغيرة؛ فشعبة لا يروي عن مشايخه المدلسين إلا ما هو مسموع لهم كما هو معروف. والحديث
=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٢٣٢)، وزاد نسبته لعبد بن حميد وأبي نعيم.

وله شاهد من حديث سعد بن أبي وقاص: أخرجه الترمذي (رقم ٢٩٩٩)، والحاكم (٣/ ١٥٠) من طريق قتيبة بن سعيد ثنا حاتم بن إسماعيل عن بكير بن مسمار عن عامر بن سعد عن أبيه؛ قال: لما نزلت هذه الآية: {نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ}؛ دعا رسول الله عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، فقال: "اللهم هؤلاء أهلي".

قال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي. قلنا: وهو وهم؛ فإن البخاري لم يخرج لبكير بن مسمار، وإنما هو من رجال مسلم؛ فهو على شرط مسلم، والله أعلم.

وقال الترمذي: "حديث حسن غريب صحيح".

وعن سلمة بن عبد يشوع عن أبيه عن جده -قال يونس: وكان نصرانيًا؛ فأسلم-: أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن تنزل عليه {طس} - سليمان: "بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد النبي رسول الله ﷺ إلى أسْقُف نجران وأهل نجران: إنْ أسلمتم؛ فإني أحمَدُ إليكم الله إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بَعدْ: فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولايةِ الله من ولاية العباد، فإن أبيتم؛ فالجزية، فإن أبيتم؛ فقد آذنتكم بحرب، والسلام".

فلما أتى الأسقف الكتاب وقرأه؛ فَظِعَ به، وذعره ذعرًا شديدًا، فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له: شُرَحْبيل بن وَدَاعَةَ، وكان من أهل هَمْدَان، ولم يكن أحدٌ يُدْعى إذا نزلت معضلة قَبْلَهُ؛ لا الأيهم، ولا السَّيِّد، ولا العاقب، فدفع الأسقف كتاب رسولِ الله ﷺ إلى شُرَحْبيل، فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريم! ما رأيك؟ فقال شُرَحْبيلُ: قد علمتُ ما وَعَدَ الله إبراهيم في ذريَّة إسماعيل من النبوة، فما

=

=

يُؤمِنُ أن يكون هذا هو ذلك الرجل، ليس لي في النبوّةِ رَأيٌ، لو كان أمرٌ من أمْر الدنيا، أشرتُ عليك فيه، وجهدت لك، فقال له الأسقف: تَنَحَّ فاجلس، فتنحَّى شرحبيل فجلس ناحية.

فَبعثَ الأسقف إلى رجل من أَهْلِ نَجْران يقال له: عبد الله بن شُرَحْبيل، وهو من ذي أصبح من حِمْيَر، فأقرأَهُ الكتاب، وسأله عن الرأيِ فيه، فقال له مثل قول شُرَحبيلَ، فقال له الأسقف: فاجْلِس، فتنحى فجلس ناحيةً.

فبعث الأسقف إلى رجلٍ من أَهْلِ نَجْران يقالُ له: جَبَّارُ بن فيضٍ من بني الحارث بن كعب -أحد بني الحَماسِ-، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شُرَحبيل وعبد الله، فأمره الأسقف؛ فتنحى فجَلس ناحية.

فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جَمْعًا؛ أمرَ الأسقف بالناقوس فَضُرِبَ به، ورُفعتِ المُسُوحُ في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار وإذا كان فزعهم ليلًا ضربوا بالناقوسِ ورفعت النيرانُ في الصوامع، فاجتمع -حين ضُربَ الناقوس ورُفعت المسوح- أهل الوادي أعلاهُ وأسلفه، وطُول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتابَ رسولِ الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه؛ فاجتمع رأي أهل الوادي منهم على أن يبعثوا شُرَحْبيل بن وَدَاعة الهمداني وعبد الله بن شُرَحْبيل الأصبحي وجبار بن فيض الحارثي فيأتونهم بخبرِ رسول الله ﷺ، فانطلق الوفد، حتى إذا كانوا بالمدينة؛ وضعوا ثياب السفر عنهم ولبسوا حُلَلا لهم يجرُّونها من حَبَرةٍ، وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتَوْا رسولَ الله ﷺ، فسلَّموا عليه، فلم يَرُدَّ عليهم السلامَ، وتصدُّوا لكلامه نهارًا طويلًا فلم يكلمهم وعليهم تلك الحُللِ والخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وكانا معرفةً لهم؛ كانا يجْدَعان العتائر إلى نجران في الجاهلية فيشتروا لهما من بَزِّها وثمرها وذُرَتها،

=

=

فوجدوهما في ناسٍ من المهاجرين والأنصار في مجلسٍ، فقالوا: يا عثمان! ويا عبد الرحمن! إن نبيَّكُما كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلَّمنَا عليه فلم يَرُدَّ سَلَامَنَا، وتصدَّينا لكلامه نهارًا طويلًا فأعيانا أن يُكَلِّمَنَا؛ فما الرأي منكما: أنعودُ أم نرجع؟ فقالا لعليٍّ بن أبي أبي طالبٍ -وهو في القوم-: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟! فقال عليٌّ لعثمان ولعبد الرحمن رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أرى أن يضعوا حُلَلَهُمْ هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم، ثم يعودون إليه.

ففعل وفد نجران ذلك، ووضعوا حللهم وخواتيمهم، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ فسلموا؛ فردَّ بسلامهم، ثم قال: "والذي بعثني بالحق؛ لقد أَتَوْني المرة الأولى وإنّ إبليس لمعهم".

ثم ساءلهم وساءلوه، فلم تزل به وبهم المسألة؛ حتى قالوا له: ما تقول في عيسى بن مريم؛ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يَسُرّنا إِنْ كنت نبيّا أن نعلم ما تقول فيه، فقال رسول الله ﷺ: "ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركما بما يقال في عيسى".

فأصبح الغدُ وَقَدْ أَنزل الله عز وجل هذه الآية: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ} إلى قوله: {فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}.

فأبَوا أنْ يُقروا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعْدَ ما أخبرهم الخَبَرَ؛ أقبل مشتملًا على الحسن والحسين في خميل لَهُ وفاطمة تمشي عند ظهرِهِ للملاعنة، وله يومئذ عِدَّة نسوةٍ، فقال شرحبيل لصاحبيه: يا عبد الله بن شُرحبيل! ويا جبار بن فيض! قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأي، وإني والله أرى أمْرًا مقبلًا: إن كان هذا الرجل ملكًا مبعوثًا فكنا أول العرب طعن في عَيْنه وردَّ عليه أمرَهُ؛ لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور قومه حتى

=

=

يصيبونا بجائحة، وإِنَّا لأدْنَى العرب منهم جوارًا، وإن كان هذا الرجل نبيًا مُرْسلًا فلاعَنَّاهُ؛ فلا يبقى على وجه الأرض مِنَّا شَعْرٌ ولا ظُفرٌ إلا هَلَكَ، فقال له صاحباه: فما الرأي يا أبا مريم؛ فقد وضعَتْكَ الأمور على ذراع؟! فهات رأيك، فقال: رَأيي أنْ أُحَكِّمُهُ؛ فإني أرى رجلًا لا يحكم شططًا أبدًا، فقالا له: أنت وذاك.

فتلقى شُرحبيل رسول الله ﷺ، فقال: إني قد رأيتُ خيرًا من ملاعنتك، فقال: "وما هو؟"، قال شرحبيل: حُكْمكَ اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصَّباحَ، فمهما حكمت فينا؛ فهو جائزٌ، فقال رسول الله ﷺ: "لعل وراءك أَحَدٌ يُثَرِّبُ عليك؟!"، فقال شرحبيل: سل صاحبيَّ فسألهما، فقالا له: ما ترِد الوادي ولا تصدُرُ إلا عن رأي شُرحبيل، فقال رسول الله ﷺ: "كافرٌ -أو قال: جاحدٌ- موفقٌ"، فرجع رسول الله ﷺ يلاعنهم، حتى إذا كان الغدُ؛ أتوه، فكتب لهم هذا الكتاب: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هذا ما كتب محمدٌ النبيُّ رسول الله ﷺ لنجران؛ إذ كان عليهمُ حُكْمهُ في كل ثمرةٍ وكل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق، وأفضَلَ عليهم، وتُرِكَ ذلك كله على ألفيّ حلةٍ من حلل الأواقي؛ في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، ومع كل حُلةٍ أوقيَّةٌ من الفضة، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقي؛ فبالحساب، وما قَضَوْا من دُرُوع أو خيل أو رِكاب أو عُروضٍ؛ أُخِذَ منهم بالحساب، وعلى نَجرانَ مؤنة رسلي، ومتعتهم ما بين عشرين يومًا فُدونَهُ، ولا تُحبس رسلي فوق شَهْرٍ، وعليهم عَارِيَّة ثلاثين دِرْعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا؛ إذا كان كيد ومعرّة، وما هلك مما أَعَارُوْا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب؛ فهو ضمانٌ على رسلي حتى يؤدوه إليهم، ولنجران وحاشيتها جوَارُ الله وذمة محمد النبي على أنفسهم وملّتهم وأرضيهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعهم، وأن لا يغيَّروا مما كانوا عليه، ولا يغيَّرُ حق من حقوقهم وَلَا ملّتهِمْ، ولا يغيَّروا أُسْقُفٌ عن اسقفيته ولا واهب من رهبانيتِه، ولا واقهًا من

=

=

وقيهاه، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم دنيَّة ولا دَمَ جاهليةً ولا يُحْشَرُوْنَ ولا يُعْشرون ولا يَطأُ أرضهم جيشٌ، ومن سأل فيهم حَقًّا؛ فبينهم النَّصَفُ غير ظالمين ولا مظلومين بنجران، ومن أَكَلَ رِبًا من ذي قَبَلٍ؛ فذمتي منهِ بريئة، ولا يؤخذ منهم رجلٌ بظلم آخر، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله عز وجل وذمةُ محمد رسول الله ﷺ أبدًا حتى يأتي الله بأمره، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلمٍ".

شهد أبو سفيان بن حَرْبٍ، وغيلانُ بن عَمْرٍو، ومالك بن عوف من بني نصرٍ، والأقرع بن حابسٍ الحنظليُّ، والمغيَرةُ وكتب. حتى إذا قبضوا كتابَهُمْ؛ انصرفوا إلى نَجْرَانَ، فتلقاهم الأسقُفُ ووجوه نجرانَ على مسيرةِ ليلةٍ من نجران، ومع الأسقف أخ له من أمه -وهو وابن عمِّه من النسب- يقال له: بشرُ بن معاوية؛ وكنيته: أبو علقمة، فَدَفَعَ الوفدُ كتابَ رسول الله ﷺ إلى الأسقُفِّ، فبينا هو يقرأهُ وأبو علقمة معه وهما يسيران؛ إذْ كبتَ ببشر ناقته، فتعس بشر، غير أنه لا يُكنِّي عن رسول الله ﷺ، فقال له الأسقف عند ذلك: قد والله تَعَّسْت نبيًا مرسلًا، فقال بشر: لا جَرَمَ، والله لا أحلُّ عنها عَقْدًا حتى آتيه، فضرب وجه ناقته نحو المدينة وثَنَى الأسقف ناقته عليه، فقال له: افهَمْ عني، إني إنما قلتُ هذا؛ لِيُبَلِّغَ عني العَرَبَ مخافة أن يرَوْا أنا أخذنا حقَّه أو رَضِينا نصرَتَهُ، أو بَخَعْنَا لهذا الرجل بما لم تبخع به العرب، ونحن أعَزُّهُمْ وأجمعهم دارًا، فقال له بشرٌ: لا، والله لا أقبل ما خَرَجَ من رأسك أبدًا، فضرب بشرٌ ناقته وهو مولي للأسقف ظهره، وهو يقول:

إليك تَعْدُوُ قَلِقًا وَضِيَنُها ... معترضًا في بطنها جَنينُهَا

مخالفًا دين النصارى دينُهَا

حتى أتى النبي ﷺ، فأسلم ولم يزل مع النبي ﷺ حتى استُشهد أبو علقمة بْعدَ ذلك، وَدَخل وفد نجران، فأتى الرَّاهب ليثَ بن أبي شمرٍ الزَّبيْديَّ -وهو في رأس

=

=

صومعةٍ- فقال له: إن نبيًّا بُعِثَ بتهامة، وإنه كتب إلى الأسقف؛ فأجمع رأي أهل الوادي على أن يسير إليه شرحبيل بن وداعَةَ وعبد الله بن شرحبيل وجَبَّار بن فيض فتأتونهم بخبره، فساروا حتى أتوا النبي ﷺ فدَعاهم إلى الملاعنة، فكرهوا ملاعنَتَهُ وَحَكَّمَهُ شرحبيل، فحكم عليهم حُكْمًا وكتبَ لهم به كتابًا، ثم أقبل الوَفْدُ بالكتاب حتى دُفعوا إلى الأسقف، فبينا الأسقف يقرأهُ وبشر مَعه؛ إذ كبت بشر ناقته فَتَعَّسَهُ، فشهد الأسقف أنه نبيٌّ مرسل، فانْصَرَفَ أبو علقمة نحْوه يريد الإِسلام، فقال الراهب: انزلوني؛ وإلَّا رميت نفسي من هذه الصومعة؛ فأنزلوه، فانطلق الراهب بهدية إلى رسول الله ﷺ منها هذا البُرْدُ الذي يلبسه الخلفاءُ، والقَعْبُ والعصا، وأقام الراهبُ بعد ذلك سنين يسمع كيف ينزل الوحي والسُّنن والفرائض والحدود، وأبَى الله للراهب الإِسلام فلم يُسلم، واستأذَنَ رسول الله ﷺ في الرجعة إلى قومه، فأَذِنَ له، وقال ﷺ: "لك حاجتك يا راهبُ؛ إذ أبيت الإِسلام؟! "، فقال له الراهب: إن لي حاجةً ومعَاذَ الله إن شاء الله، فقال له رسول الله ﷺ: "إن حاجتك واجبةٌ يا راهب! فاطلبها إذا كان أحبَّ إليك"، فرجع إلى قومه فلم يَعُد حتى قُبضَ رسول الله ﷺ.

وإنَّ الأسقُفَّ أبا الحارث أتى رسول الله ﷺ ومعه السيدُ والعاقب ووجوه قَوْمِهِ، وأقاموا عنده يسمعون ما يُنزِلُ الله عز وجل عليه، فكتبَ للأسقف هذا الكتاب ولأساقفَّةِ نجران: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. من محمد النبي ﷺ للأسقُفِّ أبي الحارث وكل أساقفةِ نَجْرَانَ وكهنتهم ورُهْبانهم وبيعهِمْ وأهل بيعهِمْ ورقيقهم وملَّتهِم ومتواطئهم، وعلى كل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير جوار الله ورسوله؛ لا يغيَّرُ أسقُفٌ من أسقفَّتَهِ، ولا راهبٌ من رهبانيته، ولا كاهنٌ من كهانته، ولا يغيَّرُ حقٌ من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا مما كانوا عليه، على ذلك جوارُ الله ورسوله أبدًا ما نَصَحُوا الله، وأصلحوا عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين".

=

=

وكَتَب المغيرةُ بن شعبة.

فلما قبَضَ الأسقفُّ الكتاب استأْذَنَ في الانصراف إلى قومه ومن معه؛ فأذن لَهُمْ فانصرفوا حتى قُبض النبي ﷺ.

أخرجه يونس بن بكير في "زياداته على ابن إسحاق في المغازي" -ومن طريقه البيهقي في "الدلائل" (٥/ ٣٨٥ - ٣٩١) - عن سلمة به. وسنده ضعيف جدًا؛ لأنه مسلسل بالمجاهيل؛ فسلمة وأبوه وجده مجهولون.

وعن عبد الله بن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا: أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ -وهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم-؛ منهم: السيد وهو الكبير، والعاقب وهو الذي يكون بعده، وصاحب رأيهم، فقال رسول الله ﷺ لهما: "أسلما"، قالا: قد أسلمنا، قال: "ما أسلمتما"، قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك، قال: "كذبتما؛ منعكما من الإسلام ثلاث فيكما: عبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، وزعمكما أن لله ولدًا، ونزل {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)} "، فلما قرأها عليهم؛ قالوا: ما نعرف ما تقول! ونزل: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} من القرآن: {فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ} الآية {ثُمَّ نَبْتَهِلْ} : يقول: يجتهد في الدعاء أن الذي جاء به محمد هو الحق وهو العدل، وأن الذي تقولون هو الباطل، وقال لهم: "إن الله قد أمرني إن لم تقبلوا هذا: أن أباهلكم"، قالوا: يا أبا القاسم! بل نرجع؛ فننظر في أمرنا ثم نأتيك، قال: فخلا بعضهم ببعض وتصادقوا فيما بينهم؛ فقال السيد للعاقب: قد والله علمتم أن الرجل لنبي مرسل، ولئن لاعنتموه؛ إنه لاستئصالكم. وما لاعن قوم نبيًا قط؛ فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، فإن أنتم لم تتبعوه، أبيتم إلا إلف دينكم؛ فواعدوه وارجعوا إلى بلادكم، وقد كان رسول الله ﷺ خرج بنفر من أهله؛ فجاء عبد المسيح بابنه وابن أخيه، وجاء رسول الله ﷺ ومعه عليٌّ وفاطمة والحسن

=

=

والحسين، فقال رسول الله ﷺ: "إن أنا دعوت؛ فأمّنوا أنتم"، فأبوا أن يلاعنوه، وصالحوه على الجزية، فقالوا: يا أبا القاسم! نرجع إلى ديننا وندعك ودينك، وابعث معنا رجلًا من أصحابك يقضي بيننا، ويكون عندنا عدلًا فيما بينا، فقال رسول الله ﷺ: "ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين"، فنظر حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه، فقال: "اذهب مع هؤلاء القوم فاقض بينهم بالحق".

أخرجه أبو نعيم في "دلائل النبوة" (ص ٢٩٨، ٢٩٩) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. ومن دون ابن عباس رضي الله عنهما كلهم كذابون.

وعن محمد بن جعفر بن الزبير: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} [آل عمران: ٦٢] إلى قوله: {فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤]؛ فدعاهم إلى النصف وقطع عنهم الحجة، فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله عنه، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمره بما أمره به من ملاعنتهم، إن ردّوا عليه؛ دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم! دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب -وكان ذا رأيهم-، فقالوا: يا عبد المسيح! ما ترى؟ قال: والله يا معشر النصارى! لقد عرفتم أن محمدًا نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعَنَ قوم نبيًا قط؛ فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وأنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إِلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم؛ فوادعوا الرجل، ثم انصرفوا إلى بلادكم؛ حتى يريكم زمن رأيه، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم! قد رأينا أن لا نلاعنك، وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلًا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا؛ فإنكم عندنا رضا.

=

=

أخرجه ابن إسحاق في "السيرة" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٣/ ٢١١، ٢١٢) -: عن محمد به. وسنده ضعيف؛ لأنه معضل.

وأخرجه أبو بكر بن مردويه في "التفسير"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٦٨٢، ٦٨٣) عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج: أن وفد أهل نجران قدموا على رسول الله؛ فذكر القصة، وفيها: أن أشرافهم كانوا اثني عشر رجلًا.

وسنده ضعيف؛ ابن إسحاق مدلس، وقد عنعن، هذا إن صح السند إليه؛ لأننا لا نعرف حال من دون ابن إسحاق.

وعن ابن عباس: أن ثمانية من أساقف العرب من أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ؛ منهم: العاقب والسيد؛ فأنزل الله: {فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا} إلى قوله: {ثُمَّ نَبْتَهِلْ}؛ يريد: ندع الله باللعنة على الكاذب، فقالوا: أخرّنا ثلاثة أيام، فذهبوا إلى بني قريظة والنضير وبني قينقاع، فاستشاروهم، فأشاروا عليهم أن يصالحوه، ولا يلاعنوه وهو النبي الذي نجده في التوراة؛ فصالحوا النبي ﷺ على ألف حلة في صفر، وألف في رجب ودراهم.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٢٣٢)، وعزاه لأبي نعيم في "الدلائل".

* قوله تعالى: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أي: نحضرهم في حال المباهلة.

قوله تعالى (فمن حاجك فيه) المحاجة المجادلة، وسميت المجادلة محاجة، لأن كل واحد من المتجادلين يدلي بحجته من أجل أن يخصم الآخر ويحجه، وقوله

=

=

(فيه) أي: في عيسى، في شأنه وقضيته.

قال الربيع: "يقول: من حاجك في عيسى".

قال قتادة: "أي: في عيسى: أنه عبدُ الله ورسوله، من كلمة الله وروحه".

قال الطبري: أي: "فمن جادلك، يا محمد، في المسيح عيسى ابن مريم".

قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} [آل عمران: ٦١]، أي: "بعدما وضح لك الحق واستبان".

قال الطبري: "من بعد ما جاءك من العلم الذي قد بيَّنته لك في عيسى أنه عبد الله".

قال محمد بن جعفر بن الزبير: "أي: من بعد ما قصصت عليك من خبره، وكيف كان أمره".

قال ابن كثير: "أي: نحضرهم في حال المباهلة".

قال الربيع: "فقال لهم النبي ﷺ: هلم أداعيكم فأتيا كان الكاذب أصابته اللعنة والعقوبة من الله عاجلا. قالوا: نعم".

قال الشعبي: "لما نزلت: {فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم}، أخذ رسول الله ﷺ الحسن والحسين ثم انطلق".

روي عن الحسن في قوله: "{تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم} قرأها النبي ﷺ عليهما ودعاهما إلى المباهلة وأخذ بيد فاطمة والحسن والحسين وقال أحدهما لصاحبه: اصعد الجبل ولا تباهله فإنك إن باهلته بؤت باللعن قال: فما ترى؟ قال: أرى أن تعطيه الخراج ولا نباهله".

وقال السدي: "فأخذ بيد الحسن والحسين وفاطمة وقال لعلي: اتبعنا، فخرج معهم ولم يخرج يومئذ النصارى قالوا: إنا نخاف أن يكون هذا هو النبي وليس دعوة الأنبياء كغيرهم فتخلفوا، فقال رسول الله ﷺ: لو خرجوا إلا احترقوا، فصالحوه على صلح على أن له عليهم ثمانين ألفا".

=

=

وعن أبي جعفر: {وأنفسنا وأنفسكم}، قال: النبي وعلي".

قال ابن كثير: "أي: نحضرهم في حال المباهلة".

قال الربيع: "فقال لهم النبي ﷺ: هلم أداعيكم فأتيا كان الكاذب أصابته اللعنة والعقوبة من الله عاجلا. قالوا: نعم".

قال الشعبي: "لما نزلت: {فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم}، أخذ رسول الله ﷺ الحسن والحسين ثم انطلق".

روي عن الحسن في قوله: "{تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم} قرأها النبي ﷺ عليهما ودعاهما إلى المباهلة وأخذ بيد فاطمة والحسن والحسين وقال أحدهما لصاحبه: اصعد الجبل ولا تباهله فإنك إن باهلته بؤت باللعن قال: فما ترى؟ قال: أرى أن تعطيه الخراج ولا نباهله".

وقال السدي: "فأخذ بيد الحسن والحسين وفاطمة وقال لعلي: اتبعنا، فخرج معهم ولم يخرج يومئذ النصارى قالوا: إنا نخاف أن يكون هذا هو النبي وليس دعوة الأنبياء كغيرهم فتخلفوا، فقال رسول الله ﷺ: لو خرجوا إلا احترقوا، فصالحوه على صلح على أن له عليهم ثمانين ألفا".

وعن أبي جعفر: {وأنفسنا وأنفسكم}، قال: النبي وعلي".

قال ابن عاشور: والابتهال مشتق من البهل وهو الدعاء باللعن ويطلق على الاجتهاد في الدعاء مطلقا لأن الداعي باللعن يجتهد في دعائه والمراد في الآية المعنى الأول.

(فنجعل لعنت الله على الكاذبين) أي: منا ومنكم.

وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران، أن النصارى حين قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردا عليهم.

=

=

والمباهلة لم تتم بين رسول الله ﷺ وبين النصارى.

عن حذيفة قال (جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال فقال أحدهما لصاحبه لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فلاعنا، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا. فقال «لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين». فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال «قم يا أبا عبيدة بن الجراح». فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة).

وعن ابن عباس، قال (قال أبو جهل: إن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عيانا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا) رواه أحمد.

وفي صحيح مسلم (أنه لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا) رواه مسلم.

قال ابن تيمية: فلما دعاهم إلى المباهلة طالبوا أن يمهلهم حتى يشتوروا، فاشتوروا فقال بعضهم لبعض تعلمون أنه نبي، وأنه ما باهل قوم نبيا إلا نزل بهم العذاب، فاستعفوا من المباهلة فصالحوه وأقروا له بالجزية عن يد وهم صاغرون لما خافوا من دعائه عليهم، لعلمهم أنه نبي، فدخلوا تحت حكمه كما يدخل أهل الذمة الذين في بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله، وأدوا إليه الجزية عن يد وهم صاغرون، وهم أول من أدى الجزية من النصارى.

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} [آل عمران: ٦٢]، " أي: إن هذا الذي أوحينا إليك من هذه البينات والحجج التي آتيناك لهو القصص الحق".

قال ابن كثير: "أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق

=

=

الذي لا مَعْدل عنه ولا محيد".

قال ابن عباس: "يقول: إن هذا الذي قلنا في عيسى هو الحق".

قال الطبري: "إن هذا الذي أنبأتك به، يا محمد، من أمر عيسى فقصصته عليك من أنبائه، وأنه عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتها إلى مريم وروح منّي، لهو القصَص والنبأ الحق، فاعلم ذلك".

قوله تعالى: (وما من إله إلا الله) تأكيد لوحدانية الله، فهو المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق.

وفي هذا رد النصارى في تثليثهم، وكذا فيه رد على سائر الثنوية.

قال الطبري: أي: "واعلم أنه ليس للخلق معبودٌ يستوجبُ عليهم العبادةَ بملكه إياهم إلا معبودك الذي تعبُدُه".

قال السعدي: أي: "فهو المألوه المعبود حقا الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة".

قال الزجاج: "«من» دخلت توكيدا. ودليلا على نفي جميع من ادعى المشركون أنهم آلهة، أي إن عيسى ليس بإله، لأنهم زعموا إنه إله، فأعلم الله عز وجل أن لا إله إلا هو، وأن من آتاه الله آيات يعجز عنها المخلوقون فذلك غير مخرج له من العبودية لله، وتسميته إلها كفر بالله".

قوله تعالى: {وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ٦٢]، أي هو جل شأنه "العزيز في ملكه الحكيم في صنعه".

قال الطبري: أي "العزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، الحكيم في تدبيره، لا يدخل ما دبره وَهَنٌ، ولا يلحقه خللٌ".

فهو العزيز الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات، وأذعنت له سكان الأرض والسماوات.

=

=

وهو الحكيم الذي له الحكمة الكاملة البالغة، الذي يضع الأشياء في مواضعها، وينزلها منازلها.

قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)} [آل عمران: ٦٣

فإن أعرضوا عن تصديقك واتباعك فهم المفسدون، والله عليم بهم، وسيجازيهم على ذلك.

قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} [آل عمران: ٦٣]، "أي: فإن أعرضوا عما أتيت به من البيان".

قال أبو عبيدة: "فإن كفروا، وتركوا أمر الله".

قال محمد بن إسحاق: "فإن تولوا على كفرهم".

قال البغوي: أي: "أعرضوا عن الإيمان".

قال الطبري: أي: "فإن أدبر هؤلاء الذين حاجُّوك في عيسى، عما جاءك من الحق من عند ربك في عيسى وغيره من سائر ما آتاك الله من الهدى والبيان".

قال الراغب: "أي إن أعرضوا عن الإصغاء إلى الحق والتزامه، وعن الإجابة إلى المباهلة".

قال الصابوني: "أي: إن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد".

قوله تعالى: {فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} [آل عمران: ٦٣]، أي: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر، الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمه.

قال الطبري: أي: ": فإن الله ذو علم بالذين يعصون ربهم، ويعملون في أرضه وبلاده بما نهاهم عنه، وذلك هو إفسادهم، فهو عالم بهم وبأعمالهم، يحصيها عليهم ويحفظها، حتى يجازيهم عليها جزاءَهم".

قال ابن كثير: "أي: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به،

=

=

وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر، الذي لا يفوته شيء".

قال الراغب: أي" فإن حالهم في كونهم مفسدين ظاهرة، وعقوبتهم واجبة، فهو تعالى معاقبهم".

قال الصابوني: أي: "فإنهم مفسدون والله عليم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء".

قال البغوي: {بالمفسدين}: أي: "الذين يعبدون غير الله، ويدعون الناس إلى عبادة غير الله".

قال البيضاوي: "وعيد لهم ووضع المظهر موضع المضمر ليدل على أن التولي عن الحجج والإعراض عن التوحيد، إفساد للدين والاعتقاد المؤدي إلى فساد النفس بل وإلى فساد العالم".

(تتمة): المباهَلة: الملاعَنة، والابتِهال: الاجتِهاد في الدُّعاء، وإخلاصه بإنزال اللعنة على الكاذب من المتلاعنَيْن

فالمقصود بالمباهلة: دعاء الفريقين المتكاذبين، كلًا بالهلاك على الطرف الكاذب وذريته (١).

* متى يدعى لها؟: تكون بعد استنفاذ كافة السبل الدعوية، من بيان، وحوار، ومناظرة، مع إصرار الخصم وجحوده وعناده.

فإذا استمر الخصم على الافتراء والكذب، دعي إلى المباهلة، لقوله تعالى: {فَمَنْ حَآجّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ...} الآية [آل عمران: ٦١]، أي من أبَنْتَ له الحق، وأقمت عليه الحجة، فأبى وعاند.. فادعه بعد ذلك إلى المباهلة. ففي هذا دليل على أنها آخر المطاف.

قال ابن كثير: (كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى -بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوهم، وعنادهم -إلى المباهلة) (٢).

=

=

وقال ابن القيم: (.. أن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا، بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة) (٣)

كيفيتها: يدعو أحد الطرفين الآخر لها.. ويجتمعان في مكان واحد، مع أهليهما وذريتهما، ثم يدعو بعضهم على بعض: أن ينزل الله لعنته على الكاذب منهما.

دليلها: قوله تعالى: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [ال عمران: ٦١].

وبعد نزول هذه الآية دعا رسول الله ﷺ وفد نجران، بعد أن ناظرهم وأقام عليهم الحجة، وأَبَوا الإسلام، وأصروا على الافتراء - كما سبق ذكره - دعاهم إلى المباهلة، فخافوا وأبوا، ثم سالموا ودفعوا الجزية.

فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فو الله لئن كان نبيًا فلاعنّاه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا..) (١) الحديث.

* مسألة: فيما تشرع فيه المباهلة: تشرع المباهلة في كل أمر أساس في الدين، ينكره الخصم، ويفتري فيه، وللمباهل فيه برهان من الله لا اجتهاد فيه.

ولذلك لا تشرع المباهلة في الأمور الاجتهادية، ولا الفرعية، فإن الخطأ في الاجتهاد لا يلاعن عليه، بل يؤجر صاحبه بشروطه المعروفة.

* هيئتها: أنْ يحضر هو وأهلُه وأبناؤُه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى أنْ يُنزِل عقوبتَه ولعنتَه على الكاذبين.

قال الألوسي: "وإنما ضمَّ رسول الله - صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم - إلى النَّفس الأبناءَ والنِّساءَ مع أنَّ القَصد من المباهَلة تبيُّن الصادق من الكاذب، وهو يختصُّ

=

به وبِمَن يُباهِله؛ لأنَّ ذلك أتَمُّ في الدلالة على ثقته بحاله، واستِيقانه بصدقه، وأكمل نكاية بالعدو، وأوفر إضرارًا به لو تمَّت المباهلة".

* صيغة المباهلة: ليس للمباهلة صيغةٌ معيَّنة عند أهل السنَّة والجماعة، فهي تُقال بأيَّة صيغة، حيث يدعو المتلاعنَيْن بالدُّعاء بإنزال اللعنة على الكاذِب فيهما.

* شروط المباهلة:

وللمباهَلة عدَّة شروط مستنبطة، منها:

١- إخلاص النيَّة لله - سبحانه وتعالى - وألاَّ يكون الانتصار لهوى النفس أو لأمرٍ من أمور الدنيا.

٢- أنْ يترتَّب عليها مصلحة شرعيَّة؛ كإحقاق الحق، وإقامة الحجة، وكشف الباطل.

٣- صحَّة ما عليه المباهل وصدقه فيه.

٤- تقديم النُّصح قبلها ومحاولة إزالة الشُّبَه.

* هل ما تزال المباهلة مشروعة؟:

المباهلة مشروعة في الكتاب والسنة كما سبق بيانه، وإذا شرع أمر في الكتاب والسنة، فلا يقبل دعوى نسخه، أو تخصيصه، إلا بدليل قطعي، لا بالظن والاجتهاد..

ودعوى بعضهم أنها خاصة بالنبي ﷺ دعوى مردودة، لأن الأمر للنبي أمر للأمة، ما لم يأت دليل يمنعه، وليس ثمة دليل مانع على هذه الدعوى.

قال ابن القيم: (وقد أمر الله سبحانه بذلك- أي بالمباهلة- رسوله ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك..) وقد تتابع المسلمون على استخدام هذه الوسيلة، مما يؤكد بقاء مشروعيتها ا.هـ

وقد دعا إلى المباهلة ابن عباس، والأوزاعي، والعسقلاني، وغيرهم.

=

الأدلة: أولًا: الكتاب:

قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [البقرة: ٩٤ - ٩٥].

قال الطبري: "وهذه الآية ممَّا احتجَّ الله بها لنبيِّه محمدﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مُهاجَره، وفضَح بها أحبارهم وعلماءَهم، وذلك أنَّ الله- جلَّ ثناؤه- أمَر نبيَّهﷺ أنْ يدعوهم إلى قضيَّة عادِلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمَرَه الله أنْ يدعو الفريق الآخَر من النصارى - إذ خالَفُوه في عيسى، صلوات الله عليه وجادَلوا فيه - إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة.

وقال لفريق اليهود: إنْ كنتم محقِّين فتمنَّوا الموت، فإنَّ ذلك غير ضارِّكم، إنْ كنتم مُحقِّين فيما تدّعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل إن أعطيتم أمنيتكم من الموت إذا تمنَّيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جنانه، إنْ كان الأمر كما تزعُمون من أنَّ الدار الآخِرة لكم خالصة دوننا، وإنْ لم تعطوها علم الناس أنَّكم المبطِلُون ونحن المحقُّون في دعوانا، وانكَشَف أمرُنا وأمرُكم لهم.

فامتنعت اليهود من إجابة النبيﷺ إلى ذلك؛ لعلمها أنها إنْ تمنَّت الموت هلكت، فذهبت دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق النصارى- الذين جادَلوا النبي، ﷺ، في عيسى إذ دعوا إلى المباهلة- من المباهلة.

فبلغنا أنَّ رسول اللهﷺ قال: (ولو أنَّ اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعِدهم في النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول اللهﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا)".

٢- وقال تعالى: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ

=

=
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [آل عمران: ٦١].

قال ابن كثيرٍ: "{نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ} [آل عمران: ٦١]؛ أي: نحضرهم في حال المباهَلة، {ثُمَّ نَبْتَهِلْ}؛ أي: نلتعن، {فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}؛ أي: منَّا ومنكم".

وقال عبدالرحمن السعدي: "فوصلت به وبهم الحال إلى أنْ أمَرَه الله- تعالى- أنْ يُباهِلهم؛ فإنَّه قد اتَّضَح لهم الحق، ولكنَّ العناد والتعصُّب مَنعاهم منه".

٣- وقال تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا} [مريم: ٧٥].

قال ابن كثير: "وهذه مباهَلة للمشركين الذين يَزعُمون أنَّهم على هدًى فيما هم فيه".

٤- وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الجمعة: ٦].

قال ابن كثير: "فهم - عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحبَّاؤه، وقالوا: لن يدخُل الجنة إلاَّ مَن كان هودًا أو نصارى، دعوا إلى المباهلة والدُّعاء على أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين، فلمَّا نكلوا عن ذلك علم كلُّ أحدٍ أنهم ظالمون؛ لأنَّهم لو كانوا جازِمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلمَّا تأخَّروا علم كذبهم".

ثانيًا: السنة:

عن حذيفة رضي الله عنه قال: "جاء العاقب والسيِّد صاحِبَا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرِيدان أنْ يُلاعِناه فقال أحدُهما لصاحبه: لا تفعل، لا تفعل، فوالله لو كان نبيًّا
=

فلاعنَّا لا نُفلِح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنَّا نعطيك ما سألتنا وابعَثْ معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعثْ معنا إلاَّ أمينًا، فقال: (لأبعثنَّ معكم رجلًا أمينًا حق أمين)، فاستَشرَف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: (قم يا أبا عبيدة بن الجرَّاح)، فلمَّا قام قال رسول الله ﷺ: (هذا أمين هذه الأمَّة) قال الحافظ ابن حجر: "وفيها مشروعيَّة مباهَلة المخالِف إذا أصرَّ بعد ظهور الحجَّة".

ثالثًا: الآثار:

١- عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: "مَن شاء لاعنتُه - أي: باهَلتُه - لأُنزِلت سورة النساء القُصرَى بعد الأربعة الأشهر وعشرًا".

٢- عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: "مَن شاء باهَلتُه أنَّه ليس للأمَة ظِهار".

٣- وعنه أيضًا رضي الله عنهما: "مَن شاء باهَلتُه أنَّ المسائل لا تعول".

٤- وعن عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا} [الأحزاب: ٣١]، قال: "مَن شاء باهَلتُه أنها نزَلت في أزواج النبي".

قال صديق حسن خان: "والمباهَلة جائزةٌ بعد النبيِّ ﷺ في أمرٍ مهمٍّ شرعًا، وقَع فيه اشتباهٌ وعناد لا يتيسَّر دفعُه إلا بها، وقد باهَل بعضُ السَّلَف؛ كالحافظ ابن القيِّم في مسألة صفات الباري والحافظ ابن حجر وغيرُهما جماعةً من المقلِّدة، فلم يقوموا بها وانهزَمُوا - ولله الحمد - ومَن منع منها الأمَّة بعد رسول الله ﷺ فلم يُصِبْ ولم يأتِ بدليلٍ وكأنَّه جاهلٌ بمسائل الدين".

وسُئِلت اللجنة الدائمة: هل هي خاصَّة بالنبي - ﷺ؟ وإنْ لم تكن كذلك، فهل هي خاصَّة مع النصارى؟

فأجابت: "ليست المباهَلة خاصَّة بالرسول ﷺ مع النصارى، بل حكمُها عامٌّ له ولأمَّته مع النصارى وغيرهم؛ لأنَّ الأصل في التشريع العموم، وإنْ كان الذي وقَع

=

منها في زمنه ﷺ في طلبه المباهلة من نصارى نجران فهذه جزئيَّة تطبيقيَّة لمعنى الآية لا تدلُّ على حصْر الحكم فيها".

وقد طلَب المباهَلةَ من العلماء المتقدِّمين والمتأخِّرين والمعاصِرين كثيرٌ؛ منهم: الأوزاعي، وابن تيميَّة، وابن قيِّم الجوزيَّة، وابن حجر، ومحمد بن عبدالوهَّاب، وصديق حسن خان، وثناء الله الأمر تسري، وأبو مشاري الكويتي، ومحمد بن سليمان البراك، ومحمد بن عبدالرحمن الكوس.

* الممتنِع من المباهلة: الممتنِع من المباهلة يُعتبَر مبطلًا مهزومًا، غير عالِمٍ أنَّه على الْحق.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة- في امتِناع النصارى عن مباهَلة النبي، ﷺ، بعد أنْ دعاهم لها -: "والنصارى لَمَّا لم يعلموا أنهم على الحق نكلوا عن المباهلة" [٣٢].

* عاقبة المباهلة: ذكَر بعض العلماء أنَّ عاقبة المباهلة تقَع عاجلًا بأحَد المتباهلَيْن، أو في مدَّة لا تَتجاوَز الشهرين.

قال الحافظ ابن حجر: "بعد أن ذكر قصة وفد " نجران " وما فيها من الفوائد، قال: (وفيها مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة، وقد دعا « ابن عباس » {إلى ذلك ثم « الأوزاعي »، ووقع ذلك لجماعة من العلماء؛ ومما عرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلا لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة) ثم قال: (ووقع لي ذلك مع شخص كان يتعصب لبعض الملاحدة فلم يقم بعدها غير شهرين".

وقد بين « السخاوي » في كتابه (القول المنبي عن ترجمة « ابن عربي ») من هو الشخص الذي باهل ومن هو الملحد الذي تباهلوا لأجله حيث قال: (سمعت شيخنا « ابن حجر » - رَحِمَهُ اللَّهُ - مرارا يقول: إنه جرى بيني وبين شخص يقال له «

=

=

ابن الأمين » من المحبين لـ « ابن عربي » منازعة كبيرة في أمر « ابن عربي » حتى نلت من « ابن عربي » لسوء مقالته فلم يسهل ذلك بالرجل المنازع لي في أمره؛ وكان بـ " مصر " شيخ يقال له « الشيخ صفاء » فهددني المذكور بأن يغريه بي فيذكر للسلطان أن بـ " مصر " جماعة منهم فلان - يذكرون الصالحين بالسوء ونحو ذلك -، فقلت: ما للسلطان في هذا مدخل لكن نتباهل أنا وإياك في أمره لأنه قل ما يتباهل اثنان فكان أحدهما كاذبا إلا وأصيب، فأجاب للمباهلة.

قال شيخنا: فقلت له: قل " اللهم إن كان « ابن عربي » على ضلال فالعني بلعنتك "، فقال ذلك، وقلت أنا: "اللهم إن كان « ابن عربي » على هدى فالعني بلعنتك "، وافترقنا.

قال: وكان يسكن " الروضة "، فاستضافه شخص من أبناء الجند جميل الصورة فحضر عنده لضيافته، ثم بدا له عدم المبيت عنده وخرج في أول الليل وصحبه من يشيعه إلى " الشختور "، فلما رجع أحس بشيء مر على رجله فقال لأصحابه: "مر على رجلي شيء ناعم فانظروا "، فلم يروا شيئا، وما رجع إلى منزله إلا وقد عمي بصره وما أصبح إلا ميتا، وكان ذلك في " ذي القعدة "، وكانت المباهلة في " رمضان " في نفس السنة، قال: وكنت قد عرفت من حضر أن من كان مبطلا لا تمضي عليه السنة) انتهى

قلت هو أمرٌ لم يثبت عن النبي ﷺ فيه شيء؛ فلا داعي لتحديد مدَّة معيَّنة؛ فلعلَّ وقوعها يكون على الفور، ولعلَّه يقع بعد شهرين، ولعلَّه يقع بعد سنة أو أكثر، ولعلَّه يقَع في الآخِرة وليس في الدنيا.

ونظرًا لخطورة الدعوة إلى المباهلة أو قبول الدعوة إليها، فالأَوْلَى عدم التوسُّع في هذا الباب والخوض فيه، إلاَّ لِمَن تيقَّن له أنَّه لا طريق سِواها في جلْب مصلحة شرعيَّة أو درء مفسَدة قائمة؛ حيث إنَّ المقصود الرئيس منها هو استِبيان الحق

=

قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤).

{قل يأهل الْكِتَاب} الْيَهُود وَالنَّصَارَى {تَعَالَوْا إلَى كَلِمَة سَوَاء} مَصْدَر بِمَعْنَى مُسْتَوٍ أَمْرهَا {بَيْننَا وَبَيْنكُمْ} هِيَ {أَ} ن {لا نَعْبُد إلَّا الله وَلَا نُشْرِك بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذ بَعْضنا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُون الله} كَمَا اتَّخَذْتُمْ الْأَحْبَار وَالرُّهْبَان {فَإِنْ تَوَلَّوْا} أَعْرَضُوا عَنْ التَّوْحِيد {فَقُولُوا} أَنْتُمْ لَهُمْ {اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} مُوَحِّدُونَ[1].

=

ومعرفة الخطأ وإقامة الحجَّة على المخالِف.

(١) ذكر سبب النزول.

قال الثعلبيُّ: قال المفسرون: قدم وفدُ نجران، فالتقوا مع اليهود، فاختصموا في إبراهيم؛ فقالوا: يا محمد! إنّا اختلفنا في إبراهيم؛ فزعمت اليهود: أنه كان يهوديًا، وهم على دينه، وهم أولى الناس به، وزعمت النصارى: أنه كان نصرانيًا، وهم على دينه، وهم أولى الناس به؛ فقال النبي ﷺ: "كِلَا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه، بل كان حنيفًا ومسلمًا"، فقالت اليهود: يا محمد! ما نريد أن نتخذك ربًا؛ كما اتخذت النصارى عيسى ربًا؛ فأنزل الله عز وجل: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}.

قال الحافظ ابن حجر في "العجاب" (٢/ ٦٨٧، ٦٨٨): "وإطلاقه على قائل هذا -مع ضعفه- أنه قول المفسرين مما يُنكرُ عليه؛ فإن هذه الآية أنزلها الله في قصة وفد نجران قبل أن يقع اجتماعهم باليهود، فلما أبوا وبذلوا الجزية واطمأنوا؛ اجتمعوا بيهود المدينة عند النبي ﷺ أو فيما بينهم، فتجادلوا إلى أن ذكروا إبراهيم
=

=

ونزلت الآيات التي بعدها في إبراهيم".

* قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [آل عمران: ٦٤]، أي: "قل يا محمد لأهل الكتاب: هلمّوا إلى كلمة عدل بيننا وبينكم".

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة) والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا.

اختلف في المراد بأهل الكتاب هنا:

فقيل: نصارى نجران. وقيل: اليهود. وقيل: اليهود والنصارى.

قال الطبري: وإنما قلنا عنى بقوله (يا أهل الكتاب) أهل الكتابين، لأنهما جميعا من أهل الكتاب، ولم يخصص جل ثناؤه بقوله (يا أهل الكتاب) بعضا دون بعض، فليس بأن يكون موجها ذلك إلى أنه مقصود به أهل التوراة، بأولى منه بأن يكون موجها إلى أنه مقصود به أهل الإنجيل، ولا أهل الإنجيل بأولى أن يكونوا مقصودين به دون غيرهم من أهل التوراة. وإذ لم يكن أحد الفريقين بذلك بأولى من الآخر لأنه لا دلالة على أنه المخصوص بذلك من الآخر، ولا أثر صحيح فالواجب أن يكون كل كتابي معنيا به. لأن إفراد العبادة لله وحده، وإخلاص التوحيد له، واجب على كل مأمور منهي من خلق الله. واسم"أهل الكتاب"، يلزم أهل التوراة وأهل الإنجيل، فكان معلوما بذلك أنه عني به الفريقان جميعا.

قال الربيع: أي" عدل بيننا وبينكم".

قال مقاتل: يعني: "كلمة العدل وهي الإخلاص".

قال ابن كثير: "هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم".

ثم وصفها: (سواء بيننا وبينكم) أي: عدل، نستوي نحن وأنتم فيها.

=

=

وفي تفسير: {كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [آل عمران: ٦٤]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن كلمة السواء: لا إله إلا الله. قاله أبو العالية.

والثاني: أنها: الدعوة إلى الإسلام. قاله الحسن.

والثالث: أن الرسول-ﷺ- دعاهم إلى النصف وقطع عنهم الحجة. وهذا قول محمد بن إسحاق، ومحمد بن جعفر بن الزبير.

وفي الذين عناهم الله في الآية الكريمة قولان:

أحدهما: أنهم الوفد من نصارى نجران، وهذا قول الحسن والسدي، وابن زيد، ومحمد بن جعفر بن الزبير.

والثاني: انهم يهود المدينة، وهذا قول قتادة، والربيع، وابن جريح.

والراجح-والله أعلم- " أن يكون كل كتابيّ معنيًّا به. لأن إفرادَ العبادة لله وحدَه، وإخلاصَ التوحيد له، واجبٌ على كل مأمور منهيٍّ من خلق الله".

قال الجصاص: قوله تعالى (كلمة سواء) يعني والله أعلم: كلمة عدل بيننا وبينكم نتساوى جميعا فيها؛ إذ كنا جميعا عباد الله.

قوله تعالى: {أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} [آل عمران: ٦٤]، " أي: أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكًا".

قال الطبري: "والكلمة العدل، هي أن نوحِّد الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبود سواه، فلا نشرك به شيئًا".

قال التستري: "وأصل العبادة: التوحيد مع أكل الحلال وكف الأذى، ولا يحصل الأكل الحلال إلاَّ بكف الأذى، ولا كف الأذى إلاَّ بأكل الحلال، وأن تعلموا أكل الحلال وترك أذى الخلق والنية في الأعمال كما تعلموا فاتحة الكتاب، ليصفوا إيمانكم وقلوبكم وجوارحكم، فإنما هي الأصول".

قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا

=

=

فاعبدون).

وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت).

والشرك: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

قوله تعالى: {وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} [آل عمران: ٦٤]، أي: ولا يعبد بعضنا بعضا من دون الله.

قال ابن جريج: "يقال: إن الربوبية أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم في غير عبادة".

قال عكرمة: "سجود بعضهم لبعض"، " قوله: {أربابا}: يعني الأصنام".

قال مقاتل: "لأنهم اتخذوا عيسى ربا".

قال الطبري: أي: "ولا يدين بعضُنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله، ويعظِّمه بالسجود له كما يسجدُ لربه".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ} [آل عمران: ٦٤] وجهان:

أحدهما: هو طاعة الاتباع لرؤسائهم في أوامرهم بمعاصي الله، وهذا قول ابن جريح.

والثاني: سجود بعضهم لبعض، هذا قول عكرمة.

وقال ابن جريج أيضا: يعني: يطيع بعضنا بعضا في معصية الله.

وقال عكرمة: يعني يسجد بعضنا لبعض.

قال الطبري: قوله تعالى (أربابا من دون الله) أنزلوهم منزلة ربهم في قبول التحريم والتحليل لما لم يحرمه الله، ولم يحله.

أخرجه الترمذي وحسنه من حديث عدي بن حاتم (أنه لما نزلت هذه الآية قال: ما كنا نعبدهم يا رسول الله فقال ﷺ: أما كانوا يحللون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم فقال عليه السلام: هو ذاك).

=

يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥).

وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ الْيَهُود إبْرَاهِيم يَهُودِيّ وَنَحْنُ على دينه وقالت النصارى كذلك {يأهل الْكِتَاب لِمَ تُحَاجُّونَ} تُخَاصِمُونَ {فِي إبْرَاهِيم} بِزَعْمِكُمْ أَنَّهُ عَلَى دِينكُمْ

=

قال شيخ الإسلام في معنى قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله): هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا، حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، يكون على وجهين:

الأول: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله، فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركا، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم.

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب.

قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} [آل عمران: ٦٤]، أي: "فإن أعرضوا عما دعوتَهم إليه".

قال ابن كثير: "أي: فإن تولوا عن هذا النَّصَف".

قوله تعالى: {فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤]، " أي: فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم".

قال مقاتل: "يعني فإن أبوا التوحيد فقولوا لهم أنتم: اشهدوا باننا مخلصون بالتوحيد".

قال الزجاج: "أي مقرون بالتوحيد مستسلمون لما أتتنا به الأنبياء من قبل الله عز وجل".

{وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل إلا من بعده} بزمن طويل وبعد نزولها حَدَثَتْ الْيَهُودِيَّة وَالنَّصْرَانِيَّة {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} بُطْلَان قَوْلكُمْ}.

هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦).

{هَا} لِلتَّنْبِيهِ {أَنْتُمْ} مُبْتَدَأ يَا {هَؤُلَاءِ} وَالْخَبَر {حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْم} مِنْ أَمْر مُوسَى وَعِيسَى وَزَعْمكُمْ أَنَّكُمْ عَلَى دِينهمَا {فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْم} مِنْ شَأْن إبْرَاهِيم {وَاَللَّه يَعْلَم} شَأْنه {وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} قَالَ تَعَالَى تَبْرِئَة لِإِبْرَاهِيم.

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧).

{مَا كَانَ إبْرَاهِيم يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا} مَائِلًا عَنْ الْأَدْيَان كُلّهَا إلَى الدِّين الْقَيِّم {مُسْلِمًا} مُوَحِّدًا {وما كان من المشركين}.

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨).

{إنَّ أَوْلَى النَّاس} أَحَقّهمْ {بِإِبْرَاهِيم لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} فِي زَمَانه {وَهَذَا النَّبِيّ} مُحَمَّد لِمُوَافَقَتِهِ لَهُ فِي أَكْثَر شَرْعه {وَاَلَّذِينَ آمَنُوا} مِنْ أُمَّته فَهُمْ الَّذِينَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولُوا نَحْنُ عَلَى دِينه لَا أَنْتُمْ {وَاَللَّه وَلِيّ الْمُؤْمِنِينَ} نَاصِرهمْ وحافظهم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده؛ فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًا، وقالت =

=

النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًا؛ فأنزل الله عز وجل فيهم: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ} إلى قوله: {وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:٦٨]؛ فقال أبو رافع القرظي -حين اجتمع عنده النصارى والأحبار، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام-: أتريد منا يا محمد! أن نعبدك؛ كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟! فقال رجل من أهل نجران نصراني، يقال له: الرّبّيس-: وذلك تريد يا محمد! وإليه تدعو؟! -أو كما-، قال: فقال رسول الله ﷺ: "معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمرَ بعبادة غيره؛ ما بذلك بعثني ولا أمرني"؛ فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)} [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

ثم ذكر ما أخذ عليهم وعلى آبائهم من الميثاق بتصديقه؛ إذا هو جاءكم، وإقراره به على أنفسهم، فقال: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ} [آل عمران: ٨١] إلى قوله: {مِّنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١].

أخرجه ابن إسحاق في "السيرة (٢/ ١٨٠، ١٨١ - ابن هشام) -ومن طريقه ابن جرير في "جامع البيان" (٣/ ٢١٦)، والبيهقي في "الدلائل" (٥/ ٣٨٤) -: ثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس. وهذا سند ضعيف؛ شيخ ابن إسحاق مجهول؛ كما قال الحافظان الذهبي وابن حجر.

وعن الشعبي؛ قال: قالت اليهود: إبراهيم على ديننا، وقالت النصارى: هو على ديننا؛ فأنزل الله عز وجل: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)}؛ فأكذبهم الله وأدحض حجتهم؛ يعني:

=

=

اليهود الذي ادعوا أن إبراهيم مات يهوديًا.

أخرجه ابن جرير في "جامع البيان" (٣/ ٢١٧): ثني إسحاق بن شاهين الواسطي ثنا خالد بن عبد الله عن داود بن أبي هند عن الشعبي به. وسنده ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال. والثانية: إسحاق بن شاهين شيخ الطبري؛ لم نجد له ترجمة.

وعن عبد الرحمن بن غنم؛ قال: إنه لما خرج أصحاب النبي ﷺ إلى النجاشي؛ أدركهم عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معيط؛ فأرادوا عنتهم والبغي عليهم، فقدموا على النجاشي، وأخبروه: أن هؤلاء الرهط الذين قدموا عليك من أهل مكة؛ إنما يريدون أن يخبلوا عليك ملكك، ويفسدوا عليك أرضك، ويشتموا ربك؛ فأرسل إليهم النجاشي، فلما أن أتوه؛ قال: ألا تسمعون ما يقول صاحباكم هذان؟ لعمرو بن العاص، وعمارة بن أبي معيط: يزعمان أنما جئتم لتخبلوا عليَّ ملكي، وتفسدوا عليَّ أرضي؛ فقال عثمان بن مظعون، وحمزة: إن شئتم فخلوا بين أحدنا وبين النجاشي فنكلمه، فأنا أَحْدثُكم سِّنًا، فإن كان صوابًا؛ فالله يأتي به، وإن كان أمرًا غير ذلك؛ قلتم: رجل شاب لكم في ذلك عذر؛ فجمع النجاشي قسيسيه ورهبانه وتراجمته، ثم سألهم: أرأيتكم صاحبكم هذا الذي من عنده جئتم: ما يقول لكم، وما يأمركم به، وما ينهاكم عنه؟ هل له كتاب يقرأه؟ قالوا: نعم؛ هذا الرجل يقرأ ما أنزل الله عليه، وما قد سمع منه، وهو يأمر بالمعروف، ويأمر بحسن المجاورة، ويأمر باليتيم، ويأمر بأن يُعبد الله وحد ولا يُعبد معه إله آخر. فقرأ عليه سورة الروم وسورة العنكبوت، وأصحاب الكهف، ومريم. فلما أن ذكر عيسى في القرآن؛ أراد عمرو أن يغضبه عليهم، فقال: والله إنهم ليشتمون عيسى ويسبونه، قال النجاشي: ما يقول صاحبكم في عيسى؟ قال: يقول: إن عيسى عبدُ الله، ورسولهُ، وروحهُ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم؛ فأخذ النجاشي نفثة من

=

=

سواكه قدر ما يقذي العين، فحلف ما زاد المسيح على ما يقول صاحبكم ما يزن ذلك القذى في يده من نفثة سواكه؛ فأبشروا، ولا تخافوا؛ فلا دهونة -يعني: بلسان الحبشة- اليوم على حزب إبراهيم، قال عمرو بن العاص: ما حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاؤوا من عنده ومن اتبعهم؛ فأنزلت ذلك اليوم خصومتهم على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)}.

أخرجه عبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٦٩٠،٦٩١)، و"الدر المنثور" (٢/ ٢٣٧، ٢٣٨) من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن به. وسنده ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: ضعف شهر بن حوشب.

الثانية: عبد الرحمن بن غنم من التابعين، ولم يدرك الواقعة؛ فهو مرسل.

* قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ} [آل عمران: ٦٥]، " أي يا معشر اليهود والنصارى لم تجادلون وتنازعون في إبراهيم وتزعمون أنه على دينكم".

ينكر تعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم.

قال مجاهد: يعني: "اليهود والنصارى، برأه الله منهم حين ادعت كل أمة أنه منهم، وألحق به المؤمنين من كان من أهل الكتاب الحنيفية". وروي عن أبي العالية والسدي نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ} [آل عمران: ٦٥]، " أي: والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إلا من بعده".

فكيف تدعون أيها اليهود، أنه كان يهوديا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة

=

=

على موسى، وكيف تدعون، أيها النصارى، أنه كان نصرانيا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر.

قال مقاتل: "أي: بعد موت إبراهيم".

قال الثعلبي: أي: "بعد مهلك إبراهيم بزمان طويل، وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفا سنة".

قال ابن عباس: "فأخبرهم الله أنّ التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده، وبعده كانت اليهودية والنصرانية".

قال الحسن: "والله ما أنزلت التوراة والإنجيل إلا على ملة إبراهيم، فلم تحاجون في إبراهيم".

قال قتادة: "كانت اليهودية بعد التوراة، وكانت النصرانية بعد الإنجيل".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [آل عمران: ٦٥]، أي: أفلا" تفقَهون خطأ قيلكم".

وهو توبيخ على استحالة مقالتهم، وتنبيه على ما يظهر به غلطهم ومكابرتهم.

قال الرازي: اعلم أن اليهود كانوا يقولون: إن إبراهيم كان على ديننا، والنصارى كانوا يقولون: كان إبراهيم على ديننا، فأبطل الله عليهم ذلك بأن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده فكيف يعقل أن يكون يهوديا أو نصرانيا؟.

وقال القرطبي: قال الزجاج: هذه الآية أبين حجة على اليهود والنصارى؛ إذ التوراة والإنجيل أنزلا من بعده وليس فيهما اسم لواحد من الأديان، واسم الإسلام في كل كتاب.

ويقال: كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى أيضا ألف سنة.

قا المراغي: أي: "أن المتقدم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعا له".

قال السعدي: لما ادعى اليهود أن إبراهيم كان يهوديا، والنصارى أنه نصراني، وجادلوا على ذلك، رد تعالى محاجتهم ومجادلتهم من ثلاثة أوجه:

=

=

أحدها: أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم به علم، فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويجادلوا في أمر هم أجانب عنه وهم جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل سواء أخطأوا أم أصابوا فليس معهم المحاجة في شأن إبراهيم.

الوجه الثاني: أن اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة، والنصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم، فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم متقدم عليهم، فهل هذا يعقل؟! فلهذا قال (أفلا تعقلون) أي: فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا
ذلك.

الوجه الثالث: أن الله تعالى برأ خليله من اليهود والنصارى والمشركين، وجعله حنيفا مسلما، وجعل أولى الناس به من آمن به من أمته، وهذا النبي وهو محمد ﷺ ومن آمن معه، فهم الذين اتبعوه وهم أولى به من غيرهم، والله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركين، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب.

قوله تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} [آل عمران: ٦٦]، أي: ها انتم جادلتم وخاصمتم "بما كان في زمانكم وأدركتموه".

وهذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا به، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها.

قال الثعلبي: "يعني: في أمر محمد، لأنهم كانوا يعلمونه مما يجدون من نعته في كتابهم فحاجوا به بالباطل".

=

=

قال الصابوني: "أي: ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتم وخاصمتم في شأن عيسى وقد عشتم زمانه فزعمتم ما زعمتموه".

قال قتادة: "يقول: فيما شهدتم ورأيتم وعاينتم". وروي عن أبي العالية نحو ذلك.

قال السدي: "أما {الذي لهم به علم}، فما حرّم عليهم وما أمروا به".

قال الحسن: "يعذر من حاج بعلم، ولا يعذر من حاج بالجهل".

قال ابن كثير: "هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإنَّ اليهود والنصارى تَحَاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علْم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا به، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم بردّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها".

قال القرطبي: في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده فقال عز وجل (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحآجون فيما ليس لكم به علم).

واختلفت القراءة في قوله: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ} [آل عمران: ٦٦]، فقرأه أهل المدينة بغير همز ولا مد إلا بقدر خروج الألف الساكنة، وقرأ أهل مكة مهموزا مقصورا على وزن "هعنتم"، وقرأ أهل الكوفة بالمد والهمز، وقرأ الباقون بالمد دون الهمز.

قوله تعالى: {فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} [آل عمران: ٦٦]، أي: "فلم تجادلون وتخاصمون في الذي لا علم لكم به من أمر إبراهيم ودينه".

قال الثعلبي: أي: "من حديث إبراهيم فليس في كتابكم أنه كان يهوديا أو نصرانيا".

قال البغوي: يقول: "وليس في كتابكم أنه كان يهوديا أو نصرانيا، وقيل حاججتم فيما لكم به علم يعني في أمر محمد ﷺ لأنهم وجدوا نعته في كتابهم، فجادلوا فيه

=

=

بالباطل".

قال قتادة: يعني: "فيما لم تشاهدوا ولم تروا ولم تعاينوا". وروي عن أبي العالية نحو ذلك

قال السدي: "وأما {الذي ليس لهم به علم}، فشأن إبراهيم".

قال الحسن: "لا يعذر من حاج بالجهل".

قوله تعالى: {وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٦٦]، أي: "والله يعلم ما حاججتم فيه، وأنتم جاهلون به".

قال الزمخشري: "والله يعلم علم ما حاججتم فيه وأنتم جاهلون به".

قال الصابوني: "أي: والله يعلم الحقَّ من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك".

قوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا} [آل عمران: ٦٧]، " أي ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا على دين النصرانية".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا} [آل عمران: ٦٧]، أي: ولكن كان"مائلًا عن الأديان كلها إلى الدين القيم".

قال ابن كثير: "أي: مُتَحَنفًا عن الشرك قَصْدًا إلى الإيمان".

قال الطبري: "{حنيفا}: يعني: متبعًا أمرَ الله وطاعته، مستقيمًا على محجَّة الهدى التي أمر بلزومها، {مسلما}: يعني: خاشعًا لله بقلبه، متذللا له بجوارحه، مذعنًا لما فَرَض عليه وألزمه من أحكامه".

وقوله تعالى: {حَنِيفًا} [آل عمران: ٦٧]، لأهل اللغة فيه قولان:

الأول: أن الحنيف هو المستقيم.

قال الطبري: "(الحنيف)، فإنه المستقيم من كل شيء".

ومنه قيل للأعرج: أحنف، تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للديغ: سليم، والمهلكة: مفازة، قالوا: فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف.

=

=

الثاني: أن الحنيف المائل، لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها، وتحنف إذا مال، فالمعنى أن إبراهيم عليه السلام حنف إلى دين الله، أي مال إليه، فقوله: {بل ملة إبراهيم حنيفا}، أي: مخالفا لليهود والنصارى منحرفا عنهما.

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {حَنِيفًا} [آل عمران: ٦٧]، على أقوال:

أحدها: أن الحنيفية حج البيت، والحنيف هو الحاج. وهذا قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعطية، وكثير بن زياد، وعبدالله بن قاسم، والضحاك، والسدي.

وقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم الإسلام (الحنيفية)، لأنه أول إمام لزم العباد - الذين كانوا في عصره، والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة - اتباعه في مناسك الحج، والائتمام به فيه. قالوا: فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته، فهو (حنيف)، مسلم على دين إبراهيم".

والثاني: أنها اتباع الحق، قاله مجاهد، والربيع بن أنس.

والثالث: أنها: اتباع إبراهيم في شرائعه التي هي شرائع الإسلام.

فقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم (الحنيفية)، لأنه أول إمام سن للعباد الختان، فاتبعه من بعده عليه. قالوا: فكل من اختتن على سبيل اختتان إبراهيم، فهو على ما كان عليه إبراهيم من الإسلام، فهو " حنيف " على ملة إبراهيم".

والرابع: أن "الحنيف": هو المخلص دينه لله وحده، قاله السدي، ومقاتل بن سليمان، وخصيف.

والخامس: وقيل: (الحنيفية) الإسلام. فكل من ائتم بإبراهيم في ملته فاستقام عليها، فهو (حنيف).

=

=

قال القفال: "وبالجملة فالحنيف لقب لمن دان بالإسلام كسائر ألقاب الديانات، وأصله من إبراهيم عليه السلام".

والسادس: أن الحنيف: المستقيم. قاله محمد بن كعب، وروي عن عيسى بن جارية مثله.

السابع: أن الحنيف: الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم. قاله أبو قلابة.

الثامن: أن الحنيف: الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلا. قاله أبو العالية.

التاسع: أن الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات، والعمات، وما حرم الله عز وجل، والختان. وكانت حنيفة في الشرك: كانوا أهل الشرك، وكانوا يحرمون في شركهم الأمهات والبنات والخالات والعمات، وكانوا يحجون البيت، وينسكون المناسك. قاله قتادة.

والصواب: أن (الحنيفية) هو الإستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته.

قال الثعلبي: "فالحنيف الذي يوحد ويحج ويضحي ويختن ويستقبل القبلة وهو أسهل الأديان وأحبها إلى الله وأهله أكرم الخلق على الله".

قال الإمام الطبري: "لو كانت الحنيفية حج البيت، لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء. وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفا بقوله: {ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين} [سورة آل عمران: ٦٧]، فكذلك القول في الختان. لأن " الحنيفية " لو كانت هي الختان، لوجب أن يكون اليهود حُنفاء. وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا} [سورة آل عمران: ٦٧].

فقد صحّ إذًا أن " الحنيفية " ليست الختانَ وحدَه، ولا حجَّ البيت وحده، ولكنه

=

=

هو ما وصفنا: من الاستقامة على ملة إبراهيم، واتباعه عليها، والائتمام به فيها.
فإن قال قائل: أوَ ما كان مَنْ كان من قبل إبراهيم ﷺ، من الأنبياء وأتباعهم، مستقيمين على ما أمروا به من طاعة الله استقامةَ إبراهيم وأتباعه؟
قيل: بَلى. فإن قال: فكيف أضيف " الحنيفية " إلى إبراهيم وأتباعه على ملته خاصة، دون سائر الأنبياء قبله وأتباعهم؟ قيل: إنّ كل من كان قبل إبراهيم من الأنبياء كان حنيفًا متّبعًا طاعة الله، ولكن الله تعالى ذكره لم يجعل أحدًا منهم إمامًا لمن بعده من عباده إلى قيام الساعة، كالذي فعل من ذلك بإبراهيم، فجعله إمامًا فيما بيّنه من مناسك الحج والختان، وغير ذلك من شرائع الإسلام، تعبُّدًا به أبدًا إلى قيام الساعة. وجعل ما سنّ من ذلك عَلَمًا مميّزًا بين مؤمني عباده وكفارهم، والمطيعِ منهم له والعاصي. فسمِّي الحنيفُ من الناس " حنيفًا " باتباعه ملته، واستقامته على هديه ومنهاجه، وسُمِّي الضالُّ من ملته بسائر أسماء الملل، فقيل: "يهودي، ونصرانيّ، ومجوسيّ "، وغير ذلك من صنوف الملل".
قوله تعالى: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: ٦٧]، "أي: كان مسلمًا ولم يكن مشركًا".
قال الطبري: "وهذا تكذيبٌ من الله عز وجل دعوَى الذين جادلوا في إبراهيم وملته من اليهود والنصارى، وادَّعوا أنه كان على ملتهم وتبرئة لهم منه، وأنهم لدينه مخالفون وقضاءٌ منه عز وجل لأهل الإسلام ولأمة محمد ﷺ أنهم هم أهل دينه، وعلى منهاجه وشرائعه، دون سائر أهل الملل والأديان غيرهم".
في هذا ثناء على إبراهيم من وجوه ثلاثة:
أولا: إمامته، ووجهها: أننا أمرنا باتباعه، والمتبوع هو الإمام، كما في قوله تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا).
ثانيا: أنه حنيف، والحنيف هو المائل عن كل دين سوى الإسلام.

=

=

ثالثا: أنه ليس فيه شرك في عمله لقوله (وما كان من المشركين).

قال الشنقيطي: قوله تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن تدل على أن إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لم يكن مشركا يوما؛ لأن نفي الكون الماضي في قوله (وما كان من المشركين) يدل على استغراق النفي لجميع الزمن الماضي كما دل عليه قوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل..) الآية، وقد جاء في موضع آخر ما يوهم خلاف ذلك وهو قوله (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي.. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ... فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر..) الآية، ومن ظن ربوبية غير الله فهو مشرك بالله كما دل عليه قول الله تعالى عن الكفار (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) والجواب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أنه مناظر لا ناظر ومقصوده التسليم الجدلي: أي هذا ربي على زعمكم الباطل، والمناظر قد يسلم المقدمة الباطلة تسليما جدليا ليفحم بذلك خصمه، فلو قال لهم إبراهيم في أول الأمر: الكوكب مخلوق لا يمكن أن يكون ربا، لقالوا له: كذبت، بل الكوكب رب، ومما يدل لكونه مناظرا لا ناظر قوله تعالى: (وحاجه قومه..).

ورجح هذا القول ابن قتيبة، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير وغيرهم.

لأن الله نفى عن إبراهيم الوقوع في الشرك في الماضي في قوله (وما كان من المشركين).

ولأن الله تعالى قال بعد سرد القصة (وحاجه قومه) وقال تعالى (وتلك حجتنا) فدل ذلك على أنه في حال مناظرة ومحاجة.

وقيل: إن قول إبراهيم (هذا ربي) هو على تقدير استفهام محذوف، أي: أهذا

=

=

ربي؟ ومعناه: إنكار أن يكون مثل هذا ربا.

وهذا قول جمع من أهل العلم كالبغوي، وابن عطية، والرازي وغيرهم.

استدل بن جرير على أنه غير مناظر من قوله تعالى (لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) ولا دليل فيه على التحقيق؛ لأن الرسل يقولون مثل ذلك تواضعا وإظهارا لالتجائهم إلى الله كقول إبراهيم (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) وقوله هو وإسماعيل (ربنا واجعلنا مسلمين لك) الآية.

قال ابن عاشور: فقد جاء إبراهيم بالتوحيد، وأعلنه إعلانا لم يترك للشرك مسلكا إلى نفوس الغافلين، وأقام هيكلا وهو الكعبة، أول بيت وضع للناس، وفرض حجه على الناس: ارتباطا بمغزاه، وأعلن تمام العبودية لله تعالى بقوله (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا) وأخلص القول والعمل لله تعالى فقال (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا).

وتطلب الهدى بقوله (ربنا واجعلنا مسلمين لك) (وأرنا مناسكنا وتب علينا).

وكسر الأصنام بيده (فجعلهم جذاذا).

وأظهر الانقطاع لله بقوله (الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يميتني ثم يحيين).

وتصدى للاحتجاج على الوحدانية وصفات الله (قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين)، (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) (وحاجه قومه).

قال الرازي: قوله تعالى (وما كان من المشركين) وهو تعريض بكون النصارى مشركين في قولهم بإلهية المسيح وبكون اليهود مشركين
في قولهم بالتشبيه.

=

=

قوله تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} [آل عمران: ٦٨]، يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي - يعني محمدا ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن بعدهم.

قال ابن عباس: "وهم المؤمنون".

قال قتادة: "يقول: الذين اتبعوه على ملّته وسنَّته ومنهاجه وفطرته".

قال الطبري: أي" إنّ أحقّ الناس بإبراهيم ونصرته وولايته، هم: الذين سلكوا طريقَه ومنهاجه، فوحَّدوا الله مخلصين له الدين، وسنُّوا سُنته، وشرَعوا شرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به".

قوله تعالى: {وَهَذَا النَّبِيُّ} [آل عمران: ٦٨]، أي: "محمد -ﷺ -".

قال قتادة: "وهو نبي الله محمد".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران: ٦٨]أي: حافظ المؤمنين ومتولي أمورهم وناصرهم.

قال الطبري: "يعني: والذين صدّقوا محمدًا، وبما جاءهم به من عند الله".

قال قتادة: "وهم المؤمنون الذين صدّقوا نبيّ الله واتبعوه. كان محمد رسول الله ﷺ والذين معه من المؤمنين، أولى الناس بإبراهيم".

قال الحسن: "كل مؤمن ولي لإبراهيم ممن مضى وممن بقي".

قوله تعالى: {وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ٦٨]، أي: "والله ناصرُ المؤمنين".

قال ابن كثير: "أي: ولي جميع المؤمنين برسله".

عن عبد الله بن مسعود قال: "قال رسول الله ﷺ: إن لكل نبيّ ولاةً من النبيين، وإن وليِّي منهم أبِي وخليل رَبّي، ثم قرأ: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين}".

وقال قتادة: "لقد أعظم على الله الفرية من قال: يكون مؤمنا فاسقا، ومؤمنا جاهلا،

=

=

ومؤمنا خائنا قال الله تعالى في كتابه: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين}، فالمؤمن ولي الله والمؤمن حبيب الله".

والمراد بالولاية هنا الولاية الخاصة، لأن الولاية تنقسم إلى قسمين:

ولاية عامة: مقتضاها أن يرزقهم ويعطيهم وأيضا القهر والسلطان والملك، وهذه للمؤمنين والكفار.

ودليلها هذه الآية (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق).

وقوله تعالى (وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون).

ولاية خاصة، وهذه خاصة بالمؤمنين مقتضاها النصر والتأييد والتسديد والتوفيق والإخراج من الظلمات إلى النور.

كما قال تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور).

وقال تعالى (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم).

وقال تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

فالله ولي المؤمنين: لأنه يواليهم بالنصر والثواب الجزيل، كما قال ﷺ في الحديث القدسي (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب) رواه البخاري.

والمؤمنون أولياء الله كقوله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لأنهم يوالونه بالطاعة.

قال ابن القيم: فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، وليست بكثرة صوم ولا صلاة

قال تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) أي: يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلالة.

قال الشنقيطي: هذه ثمرة ولايته تعالى للمؤمنين، وهي إخراجه لهم من الظلمات إلى النور بقوله تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور).

=

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩).

وَنَزَلَ لَمَّا دَعَا الْيَهُود مُعَاذًا وَحُذَيْفَة وَعَمَّارًا إِلَى دِينهمْ {وَدَّتْ طَائِفَة مِنْ أَهْل الْكِتَاب لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسهمْ} لِأَنَّ إِثْم إِضْلَالهمْ عَلَيْهِمْ وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يُطِيعُونَهُمْ فِيهِ {وما يشعرون} بذلك.

=

وبين في موضع آخر أن من ثمرة ولايته إذهاب الخوف والحزن عن أوليائه، وبين أن ولايتهم له تعالى بإيمانهم وتقواهم وذلك في قوله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون).

وصرح في موضع آخر أنه تعالى ولى نبيه ﷺ وأنه أيضا يتولى الصالحين وهو قوله تعالى (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين).

قاعدة: كل من كان إيمانه أكمل، فولاية الله له أكمل، لأن الحكم المعلق بوصف يزداد قوة بقوة هذا الوصف فيه.

كقوله تعالى (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها، (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض: وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر.

وكقوله تعالى (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) في هذا دليل على أن من تأثر بالموعظة فإن هذا من علامات إيمانه، وكلما كان تأثره أقوى كان إيمانه أقوى، لأن الشيء إذا علق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه.

يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠).

{يأهل الْكِتَاب لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله} الْقُرْآن الْمُشْتَمِل عَلَى نَعْت مُحَمَّد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {وأنتم تشهدون} تعلمون أنه الحق.

يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١).

{يأهل الْكِتَاب لِمَ تُلْبِسُونَ} تَخْلِطُونَ {الْحَقّ بِالْبَاطِلِ} بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّزْوِير {وَتَكْتُمُونَ الْحَقّ} أَيْ نَعْت النَّبِيّ {وَأَنْتُمْ تعلمون} أنه حق[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال عبد الله بن الصيف وعدي بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية؛ حتى نلبس عليهم دينهم؛ لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم؛ فأنزل الله عز وجل فيهم: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} إلى قوله: {وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٧٣].

أخرجه ابن إسحاق في "السيرة" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٣/ ٢٢٠) -: ثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وسنده ضعيف؛ لجهاله شيخ ابن إسحاق.

وأخرجه ابن أبي حاتم في "التفسير" (٢/ ٣٣٥ رقم ٧٥٥) عن محمد بن أبي محمد به معضلًا دون ذكر عكرمة ومن بعده.

* قوله تعالى: {وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ} [آل عمران: ٦٩]، أي: "تمنّت جماعة من اهل الكتاب لو يصدّونكم عن الاسلام حسدا وبغيا.".

قال سفيان: "كل شيء في آل عمران من ذكر أهل الكتاب فهو في النصارى".

قال الطبري: "و" الإضلال " في هذا الموضع، الإهلاكُ، من قول الله عز وجل: {وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [السجدة: ١٠]، يعني: إذا =

=

هلكنا، ومنه قول الأخطل في هجاء جرير:

كُنْتَ القَذَى فِي مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ... قَذَفَ الأَتِيُّ بِهِ فَضَلّ ضلالا

يعنى: هلك هلاكًا، وقول نابغة بني ذبيان:

فَآبَ مُضِلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ... وَغُودِرَ بِالجَوْلانِ حَزْمٌ ونَائِلُ

يعني مهلكوه".

قال الرازي: علم أنه تعالى لما بين أن من طريقة أهل الكتاب العدول عن الحق، والإعراض عن قبول الحجة بين أنهم لا يقتصرون على هذا القدر، بل يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول عليه السلام بإلقاء الشبهات كقولهم: إن محمدا عليه السلام مقر بموسى وعيسى ويدعي لنفسه النبوة، وأيضا إن موسى عليه السلام أخبر في التوراة بأن شرعه لا يزول، وأيضا القول بالنسخ يفضي إلى البداء، والغرض منه تنبيه المؤمنين على أن لا يغتروا بكلام اليهود.

فأهل الكفر والضلال دائما يريدون إضلال أهل الإيمان.

قوله تعالى (طائفة من أهل الكتاب) اعلم أن (من) ههنا للتبعيض وإنما ذكر بعضهم ولم يعمهم لأن منهم من آمن وأثنى الله عليهم بقوله (منهم أمة مقتصدة) (ومن أهل الكتاب أمة قائمة).

(وما يضلون إلا أنفسهم) أي: لا يعود وبال ذلك إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم.

قوله تعالى: {وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ} [آل عمران: ٦٩]، "أي: وما يهلكون غير أنفسهم".

قال الطبري: "يعني بـ {أنفسهم}: أتباعهم وأشياعَهم على ملّتِهم وأديانهم، وإنما أهلكوا أنفسَهم وأتباعهم بما حاولوا من ذلك لاستيجابهم من الله بفعلهم ذلك سخَطه، واستحقاقهم به غَضَبه ولعنته، لكفرهم بالله، ونقضِهم الميثاقَ الذي أخذ الله عليهم في كتابهم، في اتباع محمد ﷺ وتصديقه، والإقرار بنبوّته".

=

=

قوله تعالى: {وَمَا يَشْعُرُونَ} [آل عمران: ٦٩]، أي: وما يفطنون لذلك، وما يشعرون أنهم ممكور بهم".

قال الطبري: "{وما يشعرون}، بأنهم لا يضلون إلا أنفسهم، بمحاولتهم إضلالكم أيها المؤمنون".

قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ} [آل عمران: ٧٠] أي: يا أهل الكتاب "لم تجحدون بالقرآن".

قال السدي: "أما {آيات الله}، فمحمد ﷺ".

وقال مقاتل بن حيان: "{لم تكفرون بآيات الله}، يقول: لم تكفرون بالحجج".

قال مقاتل بن سليمان: {آيات الله}، "يعني القرآن".

قال الثعلبي: {أهل الكتاب}: "يعني: اليهود والنصارى، {آيات الله}: يعني القرآن وبيان نعت محمد ﷺ".

قال عباد بن منصور: "سألت الحسن عن قوله: {لم تكفرون}، قال: تجحدون".

وقد اختلف في المراد بآيات الله على أقوال:

القول الأول: أن المراد منها الآيات الواردة في التوراة والإنجيل، وعلى هذا القول فيه وجوه:

أحدها: ما في هذين الكتابين من البشارة بمحمد عليه السلام،

ومنها: ما في هذين الكتابين؛ أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفا مسلما.

ومنها: أن فيهما أن الدين هو الإسلام.

واعلم أن على هذا القول المحتمل لهذه الوجوه نقول: إن الكفر بالآيات يحتمل وجهين:

أحدهما: أنهم ما كانوا كافرين بالتوراة بل كانوا كافرين بما يدل عليه التوراة فأطلق اسم الدليل على المدلول على سبيل المجاز، والثاني: أنهم كانوا كافرين بنفس

=

التوراة لأنهم كانوا يحرفونها وكانوا ينكرون وجود تلك الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ.

فأما قوله تعالى (وأنتم تشهدون) فالمعنى على هذا القول أنهم عند حضور المسلمين، وعند حضور عوامهم، كانوا ينكرون اشتمال التوراة والإنجيل على الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ، ثم إذا خلا بعضهم مع بعض شهدوا بصحتها، ومثله قوله تعالى (تبغونها عوجا وأنتم شهداء).

واعلم أن تفسير الآية بهذا القول، يدل على اشتمال هذه الآية على الإخبار عن الغيب لأنه عليه السلام أخبرهم بما يكتمونه في أنفسهم، ويظهرون غيره، ولا شك أن الإخبار عن الغيب معجز.

القول الثاني: في تفسير آيات الله أنها هي القرآن وقوله (وأنتم تشهدون) يعني أنكم تنكرون عند العوام كون القرآن معجزا ثم تشهدون بقلوبكم وعقولكم كونه معجزا.

القول الثالث: أن المراد بآيات الله جملة المعجزات التي ظهرت على يد النبي ﷺ وعلى هذا القول فقوله تعالى (وأنتم تشهدون) معناه أنكم إنما اعترفتم بدلالة المعجزات التي ظهرت على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الدالة على صدقهم، من حيث أن المعجز قائم مقام التصديق من الله تعالى فإذا شهدتهم بأن المعجز إنما دل على صدق سائر الأنبياء عليهم السلام من هذا الوجه، وأنتم تشهدون حصول هذا الوجه في حق محمد ﷺ كان إصراركم على إنكار نبوته ورسالته مناقضا لما شهدتهم بحقيته من دلالة معجزات سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على صدقهم.

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} [آل عمران: ٧٠]، أي: "وأنتم تعلمون انه حق".

قال الحسن: يعني: "تعرفون وتجحدون وتعلمون أنه الحق".

=

قال ابن جريج: يعني: "على أن الدين الإسلام ليس لله دين غيره".

قال السدي: "أما {تشهدون}، فتشهدون أنه الحق يجدونه عندهم مكتوبا".

قال الربيع بن أنس: "تشهدون أن نعت نبي الله ﷺ في كتابكم، ثم تكفرون به ولا تؤمنون به وأنتم تجدونه عندكم في التوراة والإنجيل: النبي الأمي". وروي عن قتادة نحو ذلك.

وعن مقاتل بن حيان: "قوله: {لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون}، أن القرآن حق وأن محمدا ﷺ رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل".

وقال مقاتل بن سليمان: أي: "أن محمدا رسول الله ونعته معكم فى التوراة".

قال الثعلبي: "إن نعته مذكور في التوراة والإنجيل".

قال ابن كثير: "أي: تعلمون صدقها وتتحققون حقها".

قال السمرقندي: {وأنتم تشهدون} "بأنه نبي، لأنهم كانوا يخبرون بأمره قبل مبعثه ويقال: بآيات الله، يعني بعجائبه ودلائله. ويقال: بآية الرجم".

قال ابن أبي زمنين: "يعني به خاصة علمائهم؛ لأنهم يجدون نعت محمد في كتابهم، ثم كفروا به وأنكروه".

قال الطبري: "وإنما هذا من الله عز وجل، توبيخٌ لأهل الكتابين على كفرهم بمحمد ﷺ وجحودهم نبوّته، وهم يجدونه في كتبهم، مع شَهادتهم أن ما في كتبهم حقٌّ، وأنه من عند الله".

قال الراغب: "الشهادة: الإخبار بالشيء عن مشاهدة: إما ببصر، أو ببصيرة، ثم يعبر بها عن المعرفة القطعية لصحة ما يدعي، وإن كان المدعى عليه منكرا بلسانه كقولك لخصمك: أنت تشهد أن الأمر بخلاف ما تذكره".

قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} [آل عمران: ٧١].

اللبس الخلط، أي: لم تخلطون الحق بالباطل بإلقاء الشبه والتحريف.

=

=

قال قتادة: "يقول: لم تلبسون اليهودية والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أنّ دين الله الذي لا يقبل غيرَه، الإسلام، ولا يجزي إلا به؟". وري عن الربيع، وابن جريج نحو ذلك.

وقال ابن زيد: "{الحقّ}: التوراة التي أنزل الله على موسى،و{الباطل}، الذي كتبوه بأيديهم"،

قال الطبري: "وكان خلطهم الحقّ بالباطل، إظهارهم بألسنتهم من التصديق بمحمد ﷺ وما جاء به من عند الله، غيرَ الذي في قلوبهم من اليهودية والنصرانية".

قال الرازي: لبس الحق بالباطل فإنه يحتمل ههنا وجوها:

أحدها: تحريف التوراة، فيخلطون المنزل بالمحرف، عن الحسن وابن زيد.

وثانيها: إنهم تواصوا على إظهار الإسلام أول النهار، ثم الرجوع عنه في آخر النهار، تشكيكا للناس، عن ابن عباس وقتادة.

وثالثها: أن يكون في التوراة ما يدل على نبوته ﷺ من البشارة والنعت والصفة ويكون في التوراة أيضا ما يوهم خلاف ذلك، فيكون كالمحكم والمتشابه فيلبسون على الضعفاء أحد الأمرين بالآخر كما يفعله كثير من المشبهة.

ورابعها: أنهم كانوا يقولون محمدا معترف بأن موسى عليه السلام حق، ثم إن التوراة دالة على أن شرع موسى عليه السلام لا ينسخ وكل ذلك إلقاء للشبهات.

قوله تعالى: {وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧١]، أي: و" تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد -ﷺ- وأنتم تعلمون ذلك".

قال تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون).

وقال تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم

=

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢).

{وقالت طائفة من أهل الكتاب} اليهود بعضهم {آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا} أَيْ القرآن {وجه النهار} أوله {واكفروا} دِينهمْ إذْ يَقُولُونَ مَا رَجَعَ هَؤُلَاءِ عَنْهُ بَعْد دُخُولهمْ فِيهِ وَهُمْ أُولُو عِلْم إلَّا لعلمهم بطلانه.

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣).

وقالوا أيضا {وَلَا تُؤْمِنُوا} تُصَدِّقُوا {إلَّا لِمَنْ تَبِعَ} وَافَقَ {دِينكُمْ} قَالَ تَعَالَى {قُلْ} لَهُمْ يَا مُحَمَّد {إنَّ الْهُدَى هُدَى الله} الَّذِي هُوَ الْإِسْلَام وَمَا عَدَاهُ ضَلَال

=

عذاب أليم).

وقال ﷺ (من كتم علما ألجم بلجام من نار) رواه أبو داود.

قال الطبري: "و{الحق} الذي كتموه: ما في كتُبهم من نعت محمد ﷺ ومبعثه ونبوّته".

قال قتادة: "، كتموا شأنَ محمد، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وَينهاهم عن المنكر". وروي عن الربيع مثل ذلك.

قال مقاتل بن سليمان: "وذلك أن اليهود أقروا ببعض أمر محمد- ﷺ- وكتموا بعضا".

وقال ابن جريج: {تكتمون الحق}، الإسلام، وأمرَ محمد ﷺ {وأنتم تعلمون} أنّ محمدًا رسولُ الله، وأنّ الدين الإسلامُ".

وَالْجُمْلَة اعْتِرَاض {أَنْ} أَيْ بِأَنْ {يُؤْتَى أَحَد مِثْل مَا أُوتِيتُمْ} مِنْ الْكِتَاب وَالْحِكْمَة وَالْفَضَائِل وَأَنْ مَفْعُول تُؤْمِنُوا وَالْمُسْتَثْنَى مِنْهُ أَحَد قُدِّمَ عَلَيْهِ الْمُسْتَثْنَى الْمَعْنَى لَا تُقِرُّوا بِأَنْ أَحَدًا يُؤْتَى ذَلِكَ إلَّا لِمَنْ اتَّبَعَ دِينكُمْ {أَوْ} بِأَنْ {يُحَاجُّوكُمْ} أَيْ الْمُؤْمِنُونَ يَغْلِبُوكُمْ {عِنْد رَبّكُمْ} يَوْم الْقِيَامَة لِأَنَّكُمْ أَصَحّ دِينًا وَفِي قِرَاءَة أَأَنْ بِهَمْزَةِ التَّوْبِيخ أَيْ إيتَاء أَحَد مِثْله تُقِرُّونَ بِهِ قال تعالى {قُلْ إنَّ الْفَضْل بِيَدِ الله يُؤْتِيه مَنْ يَشَاء} فَمِنْ أَيْنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَا يُؤْتَى أَحَد مِثْل مَا أُوتِيتُمْ {وَالله وَاسِع} كَثِير الفضل {عليم} بمن هو أهله.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤).

{يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم}(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي مالك؛ قال: قالت اليهود بعضهم لبعض: آمنوا معهم بما يقولون أول النهار، وارتدوا آخره؛ لعلهم يرجعون معكم، فاطلع الله على سرهم؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ} الآية.

أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٣/ ١٠٥٢ رقم ٥٠٢ - تكملة)، وابن جرير في "جامع البيان" (٣/ ٢٢١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (رقم ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٨٢ - آل عمران) من طرق عن أبي مالك به.

وسنده صحيح؛ لكنه مرسل. والحديث مختصر ومطول عند بعضهم.

وعن أبي مالك؛ قال: كان اليهود يقول أحبارهم للذين من دونهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم؛ فأنزل الله: {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٣٤١ رقم ٧٨٤) من طريق إسرائيل عن السدي عن أبي مالك به. وسنده حسن؛ لكنه مرسل.

=

=

* قوله تعالى: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [آل عمران: ٧٢]، أي: وقالت جماعة من اليهود.

قال الزجاج: "الطائفة الجماعة، وهم إليهود".

بعد هذه النداءات المتكررة لأهل الكتاب، والحجج الباهرة التي ساقها لهم على صحة هذا الدين والتوبيخات المتعددة التي وبخهم بها لانصرافهم عن الحق ومحاولتهم صرف غيرهم عنه بعد كل ذلك، أخذ القرآن في سرد بعض المسالك الخبيثة التي سلكها اليهود لكيد الإسلام والمسلمين فبدأ ببيان مسلك لئيم من مسالكهم الكثيرة، وهو أن بعضهم كان يظهر الإيمان لفترة من الوقت ثم يرجع عنه إلى الكفر، ليوهم ضعاف العقول أنه ما رجع عن الإسلام إلا بعد أن دخله فوجده دينا ليس بشيء- في زعمه- استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك لكي يطلع أتباعه على مسالك اليهود ومكرهم حتى يحذروهم.

وقد اختلف أهل التفسير في صفة المعنى الذي أمرت به هذه الطائفة من الإيمان وجه النهار وكفر آخره، وفيه قولان:

أحدهما: أن ذلك كان أمرًا منهم إياهم بتصديق النبي ﷺ في نبوّته وما جاء به من عند الله، وأنه حق، في الظاهر من غير تصديقه في ذلك بالعزم واعتقاد القلوب على ذلك وبالكفر به وجحود ذلك كله في آخره. وهذا قول قتادة، وأبي مالك، والسدي.

والثاني: بل الذي أمرَت به من الإيمان: الصلاةُ، وحضورها معهم أول النهار، وتركُ ذلك آخرَه. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد.

قوله تعالى: {آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ} [آل عمران: ٧٢]، " أي: ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه".

=

قال مجاهد: "قال: صلوا معهم الصبح، ولا تصلّوا معهم آخرَ النهار، لعلكم تستزلُّونهم بذلك".

قال قتادة: "{وجه النهار}: اول النهار".

قال الربيع: "{وجه النهار}: أول النهار، {واكفروا آخره}، يقول: آخر النهار".

وسمَّى أوّل النهار: وجه النهار، لأنه أحسنه، وأوّلُ ما يواجه الناظرَ فيراه منه، كما يقال لأول الثوب: وجهه، ومن ذلك قول ربيع بن زياد:

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بمَقْتَلِ مَالِكٍ... فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [آل عمران: ٧٢]، أي: "لعلهم يرجعون عن دينهم معكم ويَدَعونه".

قال ابن عباس: "لعلهم ينقلبون عن دينهم".

قال السدي: "لعلهم يشكّون".

قال مجاهد: "لعلهم يرجعون عن دينهم".

قتادة: "يقول: لعلهم يدَعون دينهم، ويرجعون إلى الذي أنتم عليه".

قال مقاتل بن سليمان: "يعني: لكي يرجعوا عن دينهم إلى دينكم".

قال ابن كثير: "هذه مكيدة أرادوها ليلْبسُوا على الضعفاء من الناس أمْر دينهم، وهو أنهم اشْتَوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويُصَلّوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما رَدّهم إلى دينهم اطّلاعهُم على نقيصة وعيب في دين المسلمين".

و هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا (لعلهم =

=

يرجعون).

فأنت إذا تأملت في هذه الآيات الكريمة تراها قد حكت عن طائفة من أهل الكتاب طريقة ماكرة لئيمة، هي تظاهرهم بالإسلام لفترة من الوقت ليحسن الظن بهم من ليس خبيرا بمكرهم وخداعهم، حتى إذا ما اطمأن الناس إليهم جاهروا بكفرهم ورجعوا إلى ما كانوا عليه، ليوهموا حديثي العهد بالإسلام أو ضعاف الإيمان، أنهم قوم يبحثون عن الحقيقة، وأنهم ليس عندهم أي عداء للنبي ﷺ بل إن الذي حصل منهم هو أنهم بعد دخولهم في الإسلام وجدوه دينا باطلا وأنهم ما عادوا إلى دينهم القديم إلا بعد الفحص والاختبار وإمعان النظر في دين الإسلام.

والمتتبع لمراحل التاريخ قديما وحديثا يرى أن الدهاة في السياسة والحرب يتخذ هذه الخدعة ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب في صفوف أعدائه.

قال بعض العلماء: هذا النوع الذي تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام مبنى على قاعدة طبيعية في البشر، وهي أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه. وقد فقه هذا، هرقل، ملك الروم، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبي ﷺ أن قال له: «هل يرتد أحد من أتباع محمد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان: لا. وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على بواطنه وخوافيه، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب.

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم يلبسون الحق بالباطل أردف ذلك بأن حكى عنهم نوعا واحدا من أنواع تلبيساتهم، وهو المذكور في هذه الآية.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفائدة في إخبار الله تعالى عن تواطئهم على هذه الحيلة من وجوه:

الأول: أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم، وما أطلعوا عليها أحدا من

=

=

الأجانب، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب، فيكون معجزا.

الثاني: أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لهذه الحيلة أثر في قلوب المؤمنين، ولولا هذا الإعلان لكان ربما أثرت هذه الحيلة في قلب بعض من كان في إيمانه ضعف.

الثالث: أن القوم لما افتضحوا في هذه الحيلة صار ذلك رادعا لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس.

وسمى أول النهار وجها، لأنه أول ما يواجهك منه، وأول وقت ظهوره ووضوحه.

(لعلهم يرجعون) أي: آمنوا في أول النهار واكفروا في آخره، بأن تعودوا إلى اليهودية، أملا في أن ينخدع بحيلتكم هذه بعض المسلمين، فيشكوا في دينهم، ويعودوا إلى الكفر بعد دخولهم في الإسلام.

وفي هذا كشف عن مقصدهم الخبيث، وهو ابتغاؤهم رجوع بعض المؤمنين عن دينهم الحق إلى ما كانوا عليه من باطل.

قوله تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} [آل عمران: ٧٣].

أي: لا تطمئنوا وتظهروا سركم وما عندكم إلا لمن اتبع دينكم ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم.

قال أبو عبيدة: أي: "لا تقرّوا: لا تصدّقوا".

قال الفراء: "فإنه يقال: إنها من قول اليهود. يقول: ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم".

قال الطبري: أي: "لا تؤمنوا إلا لمن آمن بدينكم، ومَنْ خالفه فلا تؤمنوا له".

قال الثعلبي: أي: "ولا تصدقوا إلا من وافق ملتكم وصلى إلى قبلتكم".

قال الزجاج: "قيل: المعنى: لا تجعلوا تصديقكم النبي في شيء مما جاءكم به إلا لليهود، فإنكم إن قلتم ذلك للمشركين كان عونا لهم على تصديقه، وقال أهل

=

=

اللغة وغيرهم من أهل التفسير: ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم، أي لا تصدقوا أن يعطى أحد من علم النبي ﷺ مثل ما أعطيتم".

وقال الزمخشري: أي: "ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار، إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأن إسلامهم كان أغيظ لهم".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} [آل عمران: ٧٣]، وجهان:

أحدهما: معناه لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم. قاله الكلبي، وهو قول الجمهور.

والثاني: أن المعنى: لا تعترفوا بالحق إلا لمن تبع دينكم.

واخْتُلِفَ في الذين قالوا ذلك على قولين:

أحدهما: أنهم كافة اليهود، قال ذلك بعضهم لبعض، وهذا قول قتادة، والربيع، والسدي، وابن زيد.

والثاني: أنهم يهود خيبر قالوا ذلك ليهود المدينة، وهذا قول الحسن.

واختلف في سبب نهيهم أن يؤمنوا إلا لِمَنْ تَبعَ دينهم على قولين:

أحدهما: أنهم نُهُوا عن ذلك لِئَلَّا يكون طريقًا لعبدة الأوثان إلى تصديقه، وهذا قول الزجاج.

والثاني: أنهم نُهُوا عن ذلك لِئَلاَّ يعترفوا به فيلزمهم العمل بدينه لإقرارهم بصحته.

وقد ذكر الماتريدي في تفسير قوله تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} [آل عمران: ٧٣]، وجوها:

أحدها: يحتمل أن يكون في السر، أي لاتصدقوهم في السرّ، وإن أعطيتم لهم الظاهر.

والثاني: أن يكون بعد ما أظهرتم، اكفروا آخره.

=

=

والثالث: أن المعنى: لا تؤمنوا بما جاء به، إلا لأجل من تبع دينكم؛ فيكون عندهم قدوة، يتقرر عندهم -بالذي فعلتم- أنكم أهل الحق؛ فيتبعكم كيفما تصيرون إليه.

والرابع: ويحتمل: {لا تؤمنوا}: لا تصدقوا فيما يخبركم عن أوائلكم، {إلا لمن تبع دينكم} على المنع عن تصديق الرسول فيما يخبرهم من التحريف والتبديل.

وفي قوله تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} [آل عمران: ٧٣]، وجهان:

أحدهما: البيان هو ما بين الله؛ إذ هو الحق، وكل ما فيه الصرف عنه فهو تلبيس وتمويه.

والثاني: ويحتمل: أن يكون الدين هو الذي دعا إليه بما أوضحه وأنار برهانه، لا الدين الذي دعا إليه أولئك المنحرفون.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ} [آل عمران: ٧٣]، أي: "قل لهم يا محمد: الهدى ليس بأيديكم وإنما الهدى هدى الله، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه".

فهو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان، بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وإن كتمتم -أيها اليهود- ما بأيديكم من صفة محمد في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين. وهذه جملة معترضة.

قال الكلبي: "يقول: دين الله هو الإسلام".

قال الزمخشري: "معناه أن الهدى هدى الله، من شاء أن يلطف به حتى يسلم، أو يزيد ثباته على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدكم وحيلكم وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين".

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن جريج: "قوله: {إن الهدى هدى الله}، قال: هذا الأمر الذي أنتم عليه".

=

=

قوله تعالى: {أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} [آل عمران: ٧٣]، أي: "خشية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم".

يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، ويساووكم فيه، ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن أبي مالك، وسعيد بن جبير: {أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم} قالا: "أمة محمد".

وعن السدي: "يقول: ما أوتي أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد".

قال مجاهد: "حسدا من يهود أن تكون النبوة في غيرهم، وأرادو أن يتابعوا على دينهم".

وقال قتادة: "يقول: "لما أنزل الله عز وجل كتابا مثل كتابكم، وبعث نبيا كنبيكم حسدتموهم على ذلك". وروي عن الربيع بن انس مثل ذلك.

قال الأخفش: أي: "لا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم".

قال السمرقندي: أي: "لن يعطى أحد مثل ما أوتيتم من دين الإسلام، والقرآن الذي فيه الحلال والحرام".

قال ابن أي زمنين: أي: "فإنه لن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم".

قال الزجاج: "قيل في المعنى: {قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم}، أي: الهدى هو هذا الهدى، لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم".

قال الزمخشري: "يعنى أن ما بكم من الحسد والبغي- أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب- دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، والدليل عليه قراءة ابن كثير: {أأن يؤتى أحد}، بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ، بمعنى: إلا أن يؤتى أحد".

قال الفراء: أي: "لا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أوقعت {تؤمنوا}، على

=

=

{أن يؤتى}، كأنه قال: ولا تؤمنوا أن يعطى أحد مثل ما أعطيتم، فهذا وجه.
ويقال: قد انقطع كلام اليهود عند قوله {ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم}، ثم صار الكلام من قوله: قل يا محمد إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتى أهل الإسلام، وجاءت {أن}، لأن في قوله: {قل إن الهدى} مثل قوله: إن البيان بيان الله، فقد بين أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتى أهل الإسلام".
قال الماتريدي: "أي: لن يؤتى - والله أعلم - من الكتاب والحجج، ويحتمل أن يكون صلة قوله: {إن الهدى هدى الله}، وهو دينه، أو ما دعا إليه، ثم يقول: {أن يؤتى} بمعنى: لن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أهل الإسلام من الحجج والبينات، التي توضح أن الحق في أيديكم".
قال النّحّاس: "هذه الآية من أشكل ما في السورة وقد ذكرناه، والإعراب يبيّنها. فيها أقوال:
فمن قال: إنّ في الكلام تقديما وتأخيرا فإنّ المعنى: ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلّا من اتّبع دينكم وجعل اللام زائدة فهو عنده استثناء ليس من الأول وإلّا لم يجز التقديم.
ومن قال: المعنى على غير تقديم ولا تأخير جعل اللام أيضا زائدة أو متعلقة بمصدر، أي: لا تجعلوا تصديقكم إلّا لمن اتّبع دينكم بأن يؤتى أحد من العلم برسالة النبي ﷺ مثل ما أوتيتم.
وتقدير ثالث: أي: كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم".
فنستنتج أن في قوله تعالى: {أَنْ يُؤْتَى} [آل عمران: ٧٣]، وجهان:
أحدهما: أن يتصل بقو له: {ولا تؤمنو}، تقديره: ولا تؤمنوا بأن يؤتى أحد، لكن حذف الجار لكثرة حذفه مع "أن".
والثاني: أن يتصل بقوله: {قل إن الهدى هدى الله}، ويكون كلام اليهود قد انقطع
=

=

عند قوله: {ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم}.

قوله تعالى: {أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ} [آل عمران: ٧٣]، أي: "أو خشية أن يحاجوكم به عند ربكم".

فيتخذوه حجة عليكم مما بأيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة وتتركب الحجة في الدنيا والآخرة.

فهم على هذا التفسير يعلمون ويعتقدون بأن المؤمنين قد أوتوا مثلهم من الدين والفضائل عن طريق محمد ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين، ولكنهم لشدة حسدهم وبغضهم للنبي ﷺ ولأتباعه، قد تواصوا فيما بينهم بأن يكتموا هذا العلم وتلك المعرفة، ولا يظهروا ذلك إلا فيما بينهم، وصدق الله إذ يقول في شأنهم الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.

وهناك وجه آخر في التفسير: والتقدير: ولا تصدقوا أن أحدا يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم أو يمكنه أن يحاججكم عند ربكم إلا لمن تبع دينكم أي إلا من كان على ملتكم اليهودية، أما أن يكون من غيركم كهذا النبي العربي فلا يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة، لأنهما- في زعمهم- حكر على بنى إسرائيل.

فهم على هذا الوجه من التفسير يزعمون أنهم غير مصدقين ولا معتقدين بأن المسلمين قد أوتوا كتابا ودينا وفضائل مثل ما أوتوا هم، أي اليهود، ويرون أنفسهم- لغرورهم وانطماس بصيرتهم- أنهم أهدى سبيلا من كل من سواهم من البشر.

قال ابن جريج: "قال بعضهم لبعض: لا تخبرونهم بما بين الله لكم في كتابه، فيخاصموكم عند ربكم، فتكون لهم حجة عليكم".

قال الزجاج: "ومعنى: {أو يحاجوكم عند ربكم}: أي: ليس يكون لأحد حجة

=

=

عند الله في الإيمان به لعلم من عنده. إلا من كان مثلكم".
قال الأخفش: أي: "ولا تؤمنوا أن يحاجوكم [{عند ربكم}]".
قال ابن أبي زمنين: أي: "ولن يحاجكم بمثل دينكم أحد عند ربكم".
أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن السدي: "{أو يحاجوكم عند ربكم}، يقول اليهود: فعل الله بنا كذا وكذا من الكرامة حتى أنزل علينا المن والسلوى".
قال الماتريدي: "قوله: {أو يحاجوكم عند ربكم}: راجع إلى قوله: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} [آل عمران: ٧٣]، فـ {يحاجوكم عند ربكم} أنهم قد آمنوا به مرة وأقروا له؛ وهو كقوله: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ} [البقرة: ٧٦]: أنهم كانوا يظهرون لهم الإسلام والإيمان، ثم إذا خلوا قالوا: {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة: ١٤]؛ فقال بعضهم لبعض: لا تظهروا لهم الإسلام؛ فيحاجوكم عند ربكم في الآخرة؟ !".
نستنتج بأن في قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} [آل عمران: ٧٣]، وجهان:
أحدهما: أن في الكلام حذفًا، وتقديره: قل إن الهدى هدى الله ألاَّ يُؤْتَى أحدٌ مثل ما أوتيتم أُيها المسلمون، ثم حذف (لا) من الكلام لدليل الخطاب عليها مثل قوله تعالى: {يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا} [النساء: ١٧٦] أي لا تضلوا، وهذا معنى قول السدى، وابن جريج.
والثاني: أن معنى الكلام: قل إن الهدى هدى الله فلا تجحدوا أن يُؤتى أحد مثل ما أوتيتم.
وقرأ ابن كثير: «أأن يؤتى» بهمزتين: الأولى مخففة، والثانية ملينة على الاستفهام، مثل: أأنتم أعلم، أي لا يعطى أحد مثل ما أعطيتم وهو متصل بقوله {ولا تؤمنوا

=

=

إلا لمن تبع دينكم} {أن يؤتى أحد} ويكون قوله {إن الهدى هدى الله} خبرا اعترض في وسط الكلام ولم يغير من المعنى شيئا وإذا حمل الكلام على هذا كان قوله أن يؤتى بعد من الحكاية عن اليهود يقول لا تصدقوا أن يعطى أحد مثل ما أعطيتم.

وقرأ الباقون: {أن يؤتى}، بلا استفهام، وتأويله ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وقد بينا في كتاب التفسير.

وفي قوله تعالى: {أَوْ يُحَآجُّوكُم عِندَ رَبِّكُم}} [آل عمران: ٧٣]، وجهان:

أحدهما: يعني ولا تؤمنوا أن يُحَاجّوكم عند ربكم، لأنه لا حجة لهم، وهذا قول الحسن، وقتادة.

والثاني: إن معناه حتى يُحَاجُّوكم عند ربكم، على طريق التبعيد، كما يقال: لا تلقاه أو تقوم الساعة، وهذا قول الكسائي، والفراء.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} [آل عمران: ٧٣]، أي: "قل لهم -أيها الرسول-: إن الفضل والعطاء والأمور كلها بيد الله وتحت تصرفه".

فالأمور كلها تحت تصريفه، وهو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء ويعمي بصره وبصيرته، ويختم على سمعه وقلبه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة والحكمة.

قال ابن جريج: "{قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء}، يعني: "الإسلام".

قال مقاتل: "قل يا محمد: {إن الفضل} يعني: الإسلام والنبوة".

قال الزجاج: "أي نبوته وهداه يؤتيه من يشاء".

قال السمرقندي: "يعني النبوة، والكتاب والهدى، بتوفيق الله، يوفق من يشآء".

قال ابن أبي زمنين: "وفضل الله: الإسلام".

قال الزمخشري: "يريد الهداية والتوفيق".

=

=

قال السدي: "قال: يا أمة محمد فإن الذي أعطيتكم أفضل، فقولوا: {إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء}".

قوله تعالى: {وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٧٣]، أي: والله " كثير العطاء واسع الإنعام يعلم من هو أهل له".

قال التستري: "أي كثير العطاء يقدر بقدرته الأزلية أن يعطى جميع ما يسأل، وهو المحيط بكل شيء، كما قال: وسع كل شيء علما [طه: ٩٨]".

قال مقاتل: أي: {عليم} "بمن يؤتيه الفضل".

قال السمرقندي: أي: والله" واسع الفضل، عليم بمن يؤتيه الفضل".

قال ابن جرير: واسع يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير.

وقال الخطابي: الواسع: هو الغني الذي وسع غناه مفاقر عباده، ووسع رزقه جميع خلقه.

وقال السعدي: الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة، والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

فالله عز وجل واسع العطاء، كثير الإفضال على خلقه، والخلق كلهم يتقلبون في رحمته وفضله، يعطي من يشاء ويمنع، ويخفض من يشاء ويرفع، بعلمه الذي وسع كل شيء وحكمته.

قوله تعالى: {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} [آل عمران: ٧٤]، أي: "يخص بالرحمة من يشاء".

قال الحسن: "رحمته الإسلام يختص بها من يشاء".

وقال مجاهد: "النبوّة، يخصُّ بها من يشاء". وروي عن الربيع، وابن جريج مثل ذلك.

=

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥).

{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَاب مَنْ إِنْ تَأْمَنهُ بِقِنْطَارٍ} أَيْ بِمَالٍ كَثِير {يُؤَدِّهِ إِلَيْك} لِأَمَانَتِهِ كَعَبْدِ الله بْن سَلَام أَوْدَعَهُ رَجُل أَلْفًا وَمِائَتَيْ أُوقِيَّة ذَهَبًا فَأَدَّاهَا إِلَيْهِ {وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْك} لِخِيَانَتِهِ {إِلَّا مَا دُمْت عَلَيْهِ قَائِمًا} لَا تُفَارِقهُ فَمَتَى

=

قال الطنطاوي: "أى يختص بالنبوة وما يترتب عليها من الهداية والنعم من يشاء من عباده".

قال السمرقندي: "يعني: بدينه يعطيه من يشاء من عباده".

قال ابن أبي زمنين: "أي: بدينه؛ وهو الإسلام، {من يشاء} يعني: المؤمنين".

قال المراغي: "أي إن فضله الواسع ورحمته العامة يعطيهما بحسب مشيئته، لا كما يزعم أهل الكتاب من قصرها على الشعب المختار من بنى إسرائيل، فهو يبعث من يشاء نبيا ويبعثه رسولا".

قال ابن كثير: "أي: اختصكم - أيها المؤمنون - من الفضل بما لا يُحَد ولا يُوصَف، بما شرف به نبيكم محمدًا ﷺ على سائر الأنبياء وهداكم به لأحمد الشرائع".

قوله تعالى: {وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [آل عمران: ٧٤]، أي: والله صاحب الفضل الواسع الكثير".

قال السمرقندي: "أي ذو المن العظيم، لمن اختصه بالإسلام".

قال سعيد بن جبير: "العظيم يعني: وافر".

فَارَقْته أَنْكَرَهُ كَكَعْبِ بْن الْأَشْرَف اسْتَوْدَعَهُ قُرَشِيّ دِينَارًا فَجَحَدَهُ {ذَلِكَ} أَيْ تَرْك الْأَدَاء {بِأَنَّهُمْ قَالُوا} بِسَبَبِ قَوْلهمْ {لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ} أَيْ الْعَرَب {سَبِيل} أَيْ إثْـم لِاسْتِحْلَالِهِمْ ظُلْـم مـن خـالف ديـنهم ونـسبوه إليـه تعـالى قـال تَعَـالَى {وَيَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِب} فِي نِسْبَة ذَلِكَ إلَيْهِ {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ.

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦).

{بلى} عليهم فيه سَبِيل {مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ} الَّذِي عَاهَدَ عَلَيْهِ أَوْ بِعَهْدِ الله إلَيْهِ مِنْ أَدَاء الْأَمَانَة وَغَيْره {وَاتَّقَى} الله بِتَرْكِ الْمَعَاصِي وَعَمِلَ الطَّاعَات {فَإِنَّ الله يُحِبّ الْمُتَّقِينَ} فِيهِ وَضْع الظَّاهِر مَوْضِع الْمُضْمَر أَيْ يُحِبّهُمْ بِمَعْنَى يُثِيبهُمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} [آل عمران: ٧٥]، أي: "ومن أهل الكتاب الذي إنْ تأمنه، يا محمد، على عظيم من المال كثير، يؤدِّه إليك ولا يخنْك فيه".

فيخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم (من إن تأمنه بقنطار) أي: من المال الكثير.

واختلفوا في مقدار القنطار على سبعة أقاويل:

أحدها: أنه ألف ومائتا أوقية، وهو قول معاذ بن جبل، وأبي هريرة، وعاصم بن أبي النجود، ورواه زر بن حبيش عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله (ﷺ): "القنطار ألف أوقية ومئتا أوقية".

والثاني: أنه ألف ومائتا دينار، وهو قول ابن عباس، والضحاك، والحسن، وقد رواه الحسن عن النبي ﷺ.

والثالث: أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار، وهو قول ابن عباس، والضحاك، والحسن.

=

=

والرابع: أنه ثمانون ألفًا من الدراهم، أو مائة رطل من الذهب، وهو قول سعيد بن المسيب، وقتادة، وأبي صالح، والسدي.

والخامس: أنه سبعون ألفًا، قاله ابن عمر، ومجاهد.

والسادس: أنه ملء مسك ثور ذهبًا، قاله أبو نضرة، والكلبي.

والسابع: أنه المال الكثير، وهو قول الربيع.

والراجح أن القنطار: هو المال الكثير، كما قال الربيع بن أنس.

(يؤده إليك) أي: وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك.

وقرأ أبو عمرو وحمزة: {يُؤَدِّهْ}، بجزم الهاء، وهي لغة لبعض العرب، واللغة المعروفة هي بإظهار الكسرة.

قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} [آل عمران: ٧٥]، أي: "ومنهم الذي إن تأمنه على دينار يخنْك فيه فلا يؤدِّه إليك".

قال مالك بن دينار قال: "إنما سمي الدينار لأنه دين ونار، معناه: إن من أخذه بحقه فهو دينه، ومن أخذه بغير حقه فله النار".

قال القرطبي: (ومن حفظ الكثير وأداه فالقليل أولى، ومن خان في اليسير أو منعه فذلك في الكثير أكثر).

وقال ابن كثير: (فإن منهم {مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ} [آل عمران:٧٥]، أي: من المال {يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} أي: وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك {وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا} أي: بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه).

قال الثعالبي: (وعدم تأدية ما فوق الدينار من قوله تعالى: {بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} [آل عمران:٧٥]، وهو من قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى، والأعلى على الأدنى؛ فلذلك كان الحكم في المسكوت أولى، وإنما يكون ذلك إذا عرف المقصود من

=

=

الحكم، وانه أشد مناسبة في المسكوت).
قوله تعالى: {إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ} [آل عمران: ٧٥]، أي: "إلا أن تلح عليه بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه".

قال ابن كثير: "أي: بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه... يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم".

وفي قوله تعالى: {إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ} [آل عمران: ٧٥]، وجوه:

أحدها: أن المعنى: إلا ما دمت عليه قائمًا بالمطالبة والإقتضاء، وهذا قول مجاهد، وعطاء، وقتادة، والربيع بن أنس.

والثاني: بالبينة. قاله نمير بن اوس.

والثالث: قائمًا على رأسه، وهو قول السدي.

الرابع: بالملازمة. أفاده الماوردي.

قال الطبري: واختلف أهل التأويل في تأويل قوله (إلا ما دمت عليه قائما):
فقال بعضهم: إلا ما دمت له متقاضيا.
وقال آخرون: معنى ذلك: إلا ما دمت قائما على رأسه.
ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأولى القولين بتأويل الآية، قول من قال: معنى ذلك: إلا ما دمت عليه قائما بالمطالبة والاقتضاء، من قولهم: قام فلان بحقي على فلان حتى استخرجه لي، أي عمل في تخليصه، وسعى في استخراجه منه حتى استخرجه.

قال الرازي: المراد من ذكر القنطار والدينار ههنا العدد الكثير والعدد القليل، يعني أن فيهم من هو في غاية الأمانة حتى لو اؤتمن على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها، ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى لو أؤتمن على الشيء القليل، فإنه يجوز

=

=

فيه الخيانة.

فأهل الكتاب منهم الأمين ومنهم الخائن لكن أكثرهم خونة كما قال تعالى (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون).

قال القرطبي: وذكر تعالى قسمين: من يؤدي ومن لا يؤدي إلا بالملازمة عليه؛ وقد يكون من الناس من لا يؤدي وإن دمت عليه قائما، فذكر تعالى القسمين لأنه الغالب والمعتاد والثالث نادر؛ فخرج الكلام على الغالب.

قال الطبري: فإن قال قائل: وما وجه إخبار الله عز وجل بذلك نبيه ﷺ، وقد علمت أن الناس لم يزالوا كذلك: منهم المؤدي أمانته والخائنها؟

قيل: إنما أراد جل وعز بإخباره المؤمنين خبرهم - على ما بينه في كتابه بهذه الآيات - تحذيرهم أن يأتمنوهم على أموالهم، وتخويفهم الاغترار بهم، لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين.

فتأويل الكلام: ومن أهل الكتاب الذي إن تأمنه، يا محمد، على عظيم من المال كثير، يؤده إليك ولا يخنك فيه، ومنهم الذي إن تأمنه على دينار يخنك فيه فلا يؤده إليك، إلا أن تلح عليه بالتقاضي والمطالبة.

قال ابن الجوزي: فان قيل: لم خص أهل الكتاب بأن فيهم خائنا وأمينا والخلق على ذلك، فالجواب: أنهم يخونون المسلمين استحلالا لذلك، وقد بينه في قوله تعالى (ليس علينا في الأميين سبيل) فحذر منهم.

قال في التسهيل: وذكر القنطار مثالا للكثير؛ فمن أداه: أدى ما دونه، وذكر الدينار مثالا للقليل، فمن منعه منع ما فوقه بطريق الأولى.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} [آل عمران: ٧٥].

أي: إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين، وهم العرب؛ فإن الله قد أحلها لنا.

=

=

قال الطبري: "من أجل أنه يقول: لا حرَج علينا فيما أصبنا من أموال العرب".

قال ابن كثير: "أي: إنَّمَا حَمَلهم على جُحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حَرَج في أكل أموال الأميّن، وهم العرب؛ فإن الله قد أحلها لنا".

قال سعيد بن جبير: "لما قال أهل الكتاب: ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل قال نبي الله: كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر".

ولأهل التفسير في سبب استباحتهم له قولان:

أحدهما: لأنهم مشركون من غير أهل الكتاب، وهو قول قتادة، والسدي.

والثاني: لأنهم تحولوا عن دينهم الذي عاملناهم عليه، وهذا قول الحسن وابن جريج.

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧٥]، " أي: يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون".

قال ابن جريج: "يعني: ادّعاءهم أنهم وجدُوا في كتابهم قولهم: {ليس علينا في الأميين سبيل}".

قال السدي: "فيقول على الله الكذب وهو يعلم يعني الذي يقول منهم - إذا قيل له: ما لك لا تؤدي أمانتك؟ -: ليس علينا حرج في أموال العرب، قد أحلها الله لنا!".

قال ابن كثير: "أي: وقد اختلقوا هذه المقالة، وائتفكوا بهذه الضلالة، فَإن الله حَرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بُهْت".

قلت فيه وجوه:

الأول: أنهم قالوا: إن جواز الخيانة مع المخالف مذكور في التوراة وكانوا كاذبين في ذلك وعالمين بكونهم كاذبين فيه، ومن كان كذلك كانت خيانته أعظم وجرمه

=

=

أفحش.

الثاني: أنهم يعلمون كون الخيانة محرمة.

الثالث: أنهم يعلمون ما على الخائن من الإثم.

قوله تعالى: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى} [آل عمران: ٧٦]، " أي: بلى عليكم حرج وسبيل وإثم في الأميين إذا أكلتم أموالهم وظلمتموهم، فليس كما زعموا بل عليهم فيه إِثم لكنْ من أدّى الأمانة منهم وآمن بمحمد ﷺ واتقى الله واجتنب محارمه".

قال الحسن: "أمروا أن يؤدوا إلى كل مسلم عهده".

قال ابن كثير: "أي: لكن من أوفى بعهده منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه، من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك، واتقى محارم الله تعالى واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيد البشر".

قال الزمخشري: "والضمير في {بعهده}، راجع إلى {من أوفى}، على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه.

فإن قلت، فهذا عام يخيل أنه لو وفي أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله.

قلت: أجل، لأنهم إذا وفوا بالعهود وفوا أول شيء بالعهد الأعظم، وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه.

ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى، على أن كل من وفى بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه، ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء".

=

=

قال المراغي: "أي: بلى عليكم في الأميين سبيل، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات، فمن أقرضك مالا إلى أجل، أو باعك بثمن مؤجل أو ائتمنك على شيء وجب عليك الوفاء به، وأداء الحق له فى حينه دون حاجة إلى الإلحاف في الطلب أو إلى التقاضي، وبذلك قضت الفطرة وحتّمت الشريعة.

وفي هذا إيماء إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقا واجبا لذاته، بل العبرة عندهم بالمعاهد، فإن كان إسرائيليا وجب الوفاء له، ولا يجب الوفاء لغيره، والعهد ضربان:

أحدهما: عهد المرء لأخيه في العقود والأمانات كما تقدم.

والثاني: عهد الله تعالى، وهو ما يلتزم به المؤمن لربه من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله.

واليهود لم يفوا بشيء منهما، إذ لو وفّوا بعهد الله لآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوا النور الذي أنزل معه، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى صلوات الله عليه".

قوله تعالى: {فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ٧٦]، أي: "فإن الله يحب الذين يتقونه فيخافون عقابه ويحذرون عذابه".

قال أبو حيان: "وأتى بلفظ: المتقين، عاما تشريفا للتقوى دحضا عليها".

قال البيضاوي: "أَشْعَرَ بأن التقوى ملاك الأمر وهو يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي".

قال المراغي: "وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد المتقين الإخلاف والغدر- محبته تعالى ورحمته لهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا إيماء إلى أن الوفاء بالعهود، واتقاء الإخلاف فيها وفي سائر المعاصي والخطايا هو الذي يقرب العبد من ربه، ويجعله أهلا لمحبته. أما الانتساب إلى شعب بعينه فلا قيمة له عند الله، وفي هذا

=

=

تعريض بأن أصحاب هذا الرأى من اليهود ليسوا على حظ من التقوى، وهى الدعامة الأساسية في كل دين قويم".

قال رسول الله -ﷺ-: "لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس".

وعن ميمون أبي حمزة قال: كنت جالسا عند أبي وائل، فدخل رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ، فقال له شقيق بن سلمة: ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلى، سمعته يقول: يحبس الناس يوم القيامة في بقيع واحد فينادي مناد: أين المتقون؟ فيقومون في كنف الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر. قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة".

وفي هذا فضل عظيم للمتقين، الذين يتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال ابن القيم: مراتب التقوى: التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات، والثانية: حميتها عن المكروهات، والثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولى تعطي العبد حياته، والثانية تفيده صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته.

(تنبيه) تأويل المصنف لصفة المحبة بالثواب هو جريا منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مذهب الأشاعرة وهو مذهب باطل مخالف لمذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة، وسيأتي بيان الحق بتوسع في ذلك تحت الآية رقم (١٤٦) من نفس هذه السورة المباركة.

* مسألة: حكم المبايعة مع الحربيين: البيع مع الحربي على نوعين:

النوع الأول: بيع منفعة متبادلة متساوية متقاربة؛ كسائر البيوع في انتفاع البائع

=

=

والمشتري بالبيع بينهما؛ واحد ينتفع بالعين، والآخر ينتفع بالمال، وقد يتبايعان عينا بعين، فإن تقاربا في الانتفاع، جاز؛ وهذا هو الأصل في سائر البيوع، وقد كان كثير من صناعة السلاح من السيوف والرماح والألبسة في زمن النبوة: من صنع المحاربين من أهل اليمن وفارس والروم والأقباط، قبل عهد من عاهد، وإسلام من أسلم منهم.

وما زال صنع السلاح في اليهود والنصارى والمشركين أكثر من المسلمين إلى اليوم، وعند الملحدين أكثر من غيرهم، وسبب قوة الكفار بصناعة السلاح: أنهم أحرص الناس على الحياة، فيريدون الحفاظ عليها، والمؤمنون أحرص الناس على الموت، فلا يحرصون على أسباب الحياة، لهذا ينتصر المسلمون بالإقدام أكثر من السلاح.

وإن جاز هذا النوع من البيع، فمن باب أولى جواز البيع الذي ينتفع به المسلم أكثر من الحربي.

النوع الثاني: بيع ينتفع له الحربي أكثر من المسلم، فهذا أدناه الكراهة، وأعلاه التحريم، وربما الكفر؛ فمن باع عليهم شيئا لا ينتفع به انتفاعا كبيرا كمن يشتري لنفسه الكماليات ليسد لهم الحاجيات والضروريات؛ فهذه تقوية لهم، فإنهم لم يكونوا محاربين إلا وقد وجدوا منعة وقوة في المال، وسدا في الحاجة، فمنعوا الجزية، واستعدوا للقتال، ولو احتاجوا، لنزلوا تحت حكم المسلمين.

وبمقدار علوهم ومنعتهم بمثل هذا البيع: يزداد النهي كراهة فتحريما، ومن أعلى مراتب التحريم: بيعهم السلاح ليقاتلوا به المسلمين، فقد يصل ذلك بصاحبه إلى الكفر، إذا لم يكن للمسلمين انتفاع مقبول يقابل بيع السلاح، يكون أكبر من انتفاع المشركين بالسلاح وأعظم.

* الشراكة بين المسلم والكتابي: اختلف العلماء في الشراكة بين المسلم

=

=

والمعاهد، مع اتفاقهم على جواز البيع وصحته بينهما؛ لأن الشراكة دائمة لا بيع عارض، اختلفوا في ذلك على أقوال:

الأول: قال أبو حنيفة بعدم الجواز؛ وهو قول محمد بن الحسن.

الثاني: قالوا بالجواز إذا كان المسلم هو المتصرف بالبيع والشراء؛ وبهذا قال مالك وأحمد في رواية، وجوز الشراكة أبو يوسف بلا قيد.

قال أحمد: يشارك اليهودي والنصراني، ولكن لا يخلو اليهودي والنصراني بالمال دونه، ويكون هو الذي يليه؛ لأنه يعمل بالربا.

ورواه ليث عن عطاء وطاوس ومجاهد.

وليث مع ضعفه فإنه إذا روى قولا عن جماعة فقرنهم كطاوس وعطاء ومجاهد يقع منه خلط قول بعضهم ببعض.

الثالث: قال الشافعي وأحمد في رواية بكراهة الشراكة مطلقا.

❋ علة منع الشراكة بين السلم والكافر: يظهر أن أكثر من منع من الشراكة بين المسلم والكافر لم يمنعها لذات الشراكة؛ وإنما هو لخشية وقوعه في كسب حرام؛ ولذا قيدوا جوازها بكون المسلم متصرفا، وهذا ظاهر قول مالك وأحمد؛ ولهذا علل أحمد ذلك بأكلهم الحرام، وهذا التعليل الذي لأجله نهى السلف عن المشاركة كابن عباس وابن سيرين والضحاك والحسن؛ فعن أبي حمزة قال: قلت لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن رجلا جلابا، يجلب الغنم، وإنه ليشارك اليهودي والنصراني؟ قال: لا يشارك يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا، قال: قلت: لم؟ قال: لأنهم يربون، والربا لا يحل.

ولهذا جوزوا أن يكون التصرف بيد المسلم؛ كما قال ابن سيرين: لا تعط الذمي مالا مضاربة، وخذ منه مالا مضاربة، فإذا مررت بأصحاب صدقة، فأعلمهم أنه مال ذمي.

=

=

ومن هذا تشديد أحمد في المجوسي أكثر من الكتابي؛ لأنه يحل الحرام أكثر من الكتابي، قال: ما أحب مخالطته ومعاملته؛ لأنه يستحل ما لا يستحل هذا. وقال حنبل: قال عمي: لا تشاركه ولا تضاربه.

ولما كان أصل التبايع بين المسلم وغير المسلم الحل، والأدلة في ذلك مستفيضة، والشراكة إنما هي بيع وشراء، ولكها اختصت بالديمومة، فالبيعة الواحدة يقوم عليها صاحبها حتى يقبضها، وأما البيع الدائم المستمر، فيحصل فيه الغفلة والاتكال وأمن الشريك، فلا يصح القول بتحريم الشراكة مطلقا؛ وإنما هي على حالتين:

حالات الشراكة بين المسلم والكافر:

الحالة الأولى: إذا كانت يد المسلم المتصرفة أو الرقيبة على الشراكة، فيأمن من الحرام، فهي جائزة، ولو لم يكن متصرفا، بل تكفي رقابته وضبطه لعقوده ومداخل المال عليه ومخارجه منه.

وقد لا يكون الشريك متصرفا، لكنه رقيب يحسب ويضبط، فحكمه حكم المتصرف في الجواز، وكلما كان جنس المبيع ونوعه معروفا، فهذا يدفع ظن التصرف بالمال حراما من الكافر؛ فالمضاربة المطلقة تختلف عن المقيدة، والمزارعة تختلف عن غيرها من أنواع الشراكة، وقد ترجم البخاري في "صحيحه"، فقال: (باب مشاركة الذمي والمشركين في المزارعة)؛ لأن التصرف في المزارعة أضيق من المضاربة بالمال، وقد جاء في "الصحيح" جملة من الأحاديث في مزارعة النبي ﷺ مع أهل الذمة؛ كما في "الصحيحين"، من حديث ابن عمر وغيره.

الحالة الثانية: إذا كانت يد الكافر هي المتصرفة بلا رقيب من المسلم على تصرفه، فهذه شراكة لا تجوز؛ لاحتمال دخول الحرام عليه؛ من ربا ورشوة وغرر

=

=

وغير ذلك.

وتحريم الشراكة بين المسلم والكافر مطلقا بلا قيد: مخالف للأدلة المستفيضة، فالشراكة من جنس البيع والشراء، ولكنها منتظمة، وفي "الصحيح"، عن عائشة، قالت: اشترى رسول الله ﷺ من يهودي طعاما بنسيئة، ورهنه درعه.

وقد أرسل ﷺ إلى آخر يطلب منه ثوبين إلى الميسرة.

وأكلهم المعلوم مباح؛ فقد أضافه يهودي بخبز وإهالة سنخة؛ كما في "المسند"،و"السنة"؛ من حديث أنس، وأصله في "الصحيح" عنه.

تصرف الشريك الكافر بمال المسلم:

والتصرف سواء كان بيد المسلم أو بيد الكافر، فهو من الوكالة بينهما، ووكالة المسلم للكافر والعكس صحيحة في البيوع وغيرها على الأصح، ما لم تتضمن محرما جميع الخمر، أو إهانة للمسلم وعلوا للكافر عليه؛ كشراء العبد المسلم للكافر، ولأجل هذا خالف أبو يوسف أبا حنيفة ومحمد بن الحسن تخريجا على جواز الوكالة والكفالة بين الشريكين المسلم والكافر.

وإن باع أو اشترى الشريك المتصرف الكافر ما هو محرم على شريكه المسلم، كالخمر والخنزير - فسد البيع، وعليه الضمان، لأن التصرف وكالة، وعقد الوكيل يقع للموكل، والمسلم لا يثبت له ملك على الخمر والخنزير، ومثل هذا: الربا والميتة.

* وأما العقود المحرمة بين المسلمين، فهي محرمة بين المسلمين وبين أهل الذمة في بلاد المسلمين بلا خلاف، نص على الإجماع غير واحد كابن تيمية، وكذلك فهي ممنوعة بين أهل الذمة أنفسهم في دار الإسلام أيضا بالاتفاق، وإنما اختلف في العقود المحرمة بين المسلم والكافر في دار حرب إذا دخلها المسلم

=

=

بأمان أو غير أمان، إذا كان الانتفاع للمسلم والضرر على غيره، كالربا وبعض صور الجهالة والغرر، وفي ذلك أقوال:

الأول: ذهب جمهور العلماء إلى التحريم؛ وهو قول المالكية والشافعية، والصحيح في قول الحنابلة، وهو قول أبي يوسف والأوزاعي؛ لأن تلك المعاملات محرمة بعينها؛ فلا يجوز أن تكون عليها معاقدة بين مسلم ومسلم، ولا مسلم وكافر، ولا أن يؤذن فيما بين كافر وكافر، والله حرم الربا حتى على أهل الكتاب، كما في قوله تعالى: {وأخذهم الربا وقد نهوا عنه} [النساء: ١٦١]، فلا يجور الإذن لهم بما حرمه الله عليهم، ولا يجوز التعامل معهم بما حرمه الله علينا في القرآن، وحرمه عليهم في التوراة والإنجيل والقرآن.

الثاني: ذهب الحنفية: إلى جواز ذلك إذا كان المنتفع من العقد المسلم، كالدينار بالدينارين آجلا، ولا يجوز للمسلم أن يشتري منه الدرهم بدرهمين.

ومن الحنفية من يجيزه بلا قيد انتفاع المسلم بالعقد، وبقولهم يقول بعض الحنابلة كابن مفلح، ولكن قيد بعدم وجود الأمان.

ومن محققي الحنفية من يحمل إطلاقات الحنفية بالجواز على التقييد بانتفاع المسلم من الكافر، وليس انتفاع الكافر من المسلم، كابن الهمام وابن عابدين، وهذا أصح؛ لأن الله حينما جعل تعاقد المسلمين على أن يأكل أحدهما مال الآخر بالربا وشبهه ظلما وحراما، فتعاقد المسلم مع الكافر على أن يأكل الكافر مال المسلم أظهر في التحريم على المسلم أن يأذن بذلك أو يعاقد عليه.

والأظهر: تحريم التعاقد بالربا ونحوه بين المسلم والكافر في دار الكفر، وأما خبر مكحول مرسلا: (لا ربا بين مسلم وحربي)، أو (لا ربا بين أهل حرب)، فلا أصل له، وقد قال الشافعي: "ليس بثابت". ويحتج به الحنفية في هذا الباب، ولا أصل له حتى عند محققيهم من أهل الحديث كالزيلعي، ومن أهل الفقه كابن الهمام.

=

إِنَّ الَّـذِينَ يَـشْتَرُونَ بِعَهْـدِ اللهِ وَأَيْمَـانِهِمْ ثَمَنًـا قَلِـيلًا أُولَئِكَ لَا خَـلَاقَ لَهُـمْ فِـي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُـمْ عَـذَابٌ أَلِـيمٌ (٧٧).

وَنَزَلَ فِي الْيَهُود لَمَّا بَدَّلُوا نَعْت النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَهْد الله إِلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاة وَفِيمَنْ حَلَفَ كَاذِبًا فِي دَعْوَى أَوْ فِي بَيْع سِلْعَة {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ}

=

* حكم تبايع المسلم والكافر بالخمر والخنزير: لا يدخل في هذا تجويز بيع الخمر ولحم الخنزير عليهم؛ لأن الخمر والخنزير والميتة محرم لذاته وعينه على المسلم، سواء أخذه أو أعطاه بطيب نفس أو ببيع، أما المال، فيجوز فيه الهبة والعطية، فهو لا يحرم لذاته؛ وإنما لأنه أخذ بغير طيب نفس، فالربا أخذ لأن المحتاج ألجئ إليه، فصار أكلا لماله بالباطل ولو عاقد عليه برضاه في الظاهر، فهو قد ألجئ إليه في الحال وتضرر به في المال بالزيادة فيه.

روى عبد الرزاق وابن المنذر، عن سويد بن غفلة؛ قال: بلغ عمر بن الخطاب أن عماله يأخذون الجزية من الخمر، فناشدهم ثلاثا، فقال بلال: إنهم ليفعلون ذلك، قال: فلا تفعلوا، ولكن ولوهم بيعها، فإن اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها.

ومن الجهل تجويز سرقة المسلم من الكافر في دار الحرب التي دخلها بأمان، وتخريج ذلك على قول أبي حنيفة، فهذا لا أعلم من قال به.

وبقوله تعالى: {ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما} استدل بعض الحنفية على ملازمة الغريم لغريمه، وبعضهم استدل بها على جواز حبس المدين، وقد تقدم الكلام على هذا في البقرة عند قوله تعالى: {وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة} [البقرة: ٢٨٠].

يَسْتَبْدِلُونَ {بِعَهْدِ الله} إِلَيْهِمْ فِي الْإِيمَان بِالنَّبِيِّ وَأَدَاء الْأَمَانَة {وَأَيْمَانهمْ} حَلِفهمْ بِهِ تَعَالَى كَاذِبِينَ {ثَمَنًا قَلِيلًا} مِنْ الدُّنْيَا {أُولَئِكَ لَا خَلَاق} نَصِيب {لَهُمْ فِي الْآخِرَة وَلَا يُكَلِّمهُمْ الله} غَضَبًا {وَلَا يَنْظُر إِلَيْهِمْ} يَرْحَمهُمْ {يَوْم الْقِيَامَة وَلَا يُزَكِّيهِمْ} يُطَهِّرهُمْ {وَلَهُمْ عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: "من حلف على يمين؛ يقتطع بها مال امرئ مسلم، وهو فيها فاجر؛ لقي الله وهو عليه غضبان"، ثم أنزل الله تصديق ذلك: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)}، ثم إن الأشعث بن قيس خرج إلينا؛ فقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟ قال: فحدثناه، قال: فقال: صدق، لفيَّ نزلت، كانت بيني وبين رجل خصومةٌ في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "شاهداك أو يمينهُ"، قلت: إنه إذًا يحلف ولا يبالي؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من حلف على يمين؛ يستحق بها مالًا، وهو فيها فاجر؛ لقي الله وهو عليه غضبان"، ثم أنزل الله تصديق ذلك، ثم اقترأ هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} إلى قوله: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

أخرجه البخاري (٥/ ٣٣ رقم ٢٣٥٦، ٢٣٥٧، ص ٧٣ رقم ٢٤١٦، ٢٤١٧، ص ١٤٥ رقم ٢٥١٥، ٢٥١٦، ص ٢٧٩ رقم ٢٦٦٦، ٢٦٦٧، ص ٢٨٠ رقم ٢٦٦٩، ٢٦٧٠، ص ٢٨٦، ٢٨٧ رقم ٢٦٧٦، ٢٦٧٧، ص ٢١٢، ٢١٣ رقم ٤٥٤٩، ٤٥٥٠، ص ٥٤٤ رقم ٦٦٥٩، ١١/ ٥٥٨ رقم ٦٦٧٦، ٦٦٧٧، ص ١٧٧، ١٧٨ رقم ٧١٨٣، ٧١٨٤)، ومسلم (١/ ١٢٢، ١٢٣ رقم ٢٢٠، ٢٢١) من طرق عن ابن مسعود به.

=

=

وعن عبد الله بن أبي أوفى: أن رجلًا أقام سلعته؛ فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعطها؛ فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا}.

قال ابن أبي أوفى: الناجش آكل ربا خائن.

أخرجه البخاري (٥/ ٢٨٦ رقم ٢٥٧٥، ٨/ ٢١٣ رقم ٤٥٥١).

وعن عدي بن عميرة؛ قال: خاصم رجل من كندة -يقال له امرؤ القيس بن عابس -رجلًا من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض؛ فقضى على الحضرمي بالبيّنة؛ فلم تكن له بينة، وقضى على امرئ القيس باليمين؛ فقال الحضرمي: إن أمكنته من اليمين يا رسول الله! ذهبت والله -أو ورب الكعبة- أرضي، فقال رسول الله ﷺ: "من حلف على يمين كاذبة؛ ليقتطع بها مال أخيه؛ لقي الله وهو عليه غضبان"، قال رجاء: وتلا رسول الله ﷺ: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا}؛ فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله؟! قال: "الجنة"، قال: فاشهد أني قد تركتها له كلها.

أخرجه أحمد (٤/ ١٩١، ١٩٢)، والنسائي في "الكبرى" (٣/ ٤٨٦ رقم ٥٩٩٦)، وابن جرير الطبري في "جامع البيان" (٣/ ٢٢٩)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٧/ ١٢ رقم ٢٦٥)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (١٠/ ٢٥٤)، و"الشعب" (٤/ ٢١٦، ٢١٧ رقم ٤٨٤٠)، والخطيب في "الفصل للوصل المدرج في النقل" (١/ ٥٤١، ٥٤٢) عن جرير بن حازم، قال: سمعت عدي بن عدي يحدث عن رجاء بن حيوة والعرس بن عميرة عن أبيه عدي بن عمير قال: كان، وذكره. والحديث قال عنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٩/ ٢٥٥): حديث صحيح وقوله في الإسناد: "عن أبيه" الضمير عائد إلى عدي ابن عدي- وهو ابن عميرة الكندي-. وأخرجه البيهقي في "سننه الكبرى" ١٠/ ٢٥٤، وفي "الشعب" (٤٨٤٠) من طريق أبي أسامة، والطبراني في "الكبير" ١٧/ (٢٦٥) من طريق

=

=

عارم، كلاهما عن جرير بن حازم، بهذا الإسناد. وأخرجه ابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٢٤٤٤)و(٢٤٤٥)، والنسائي في "الكبرى" (٥٩٩٥)، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (٤٤٧٨)، والدارقطني ٤/ ١٦٦ - ١٦٧و١٦٧و٢١٥، والبيهقي ١٠/ ٢٥٤ من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أبي الزبير محمد بن مسلم، عن عدي بن عدي، عن أبيه. قلنا: وهذا إسناد منقطع، قال أبو حاتم: لم يسمع من أبيه. وأخرجه الطبراني في "الكبير" ١٧/ (٢٦٦)و(٢٦٧)، والدارقطني ٤/ ١٦٦ - ١٦٧ من طريق يحيى بن سعيد، عن أبي الزبير، عن عدي بن عدي. لم يذكر "عن أبيه" وقال: له صحبة! وتعقبه الحافظ في "الإصابة" ٥/ ٢٦٩ بقوله: بل هو تابعي معروف، ثم قال: وليست لعدي بن عدي صحبة. وأخرجه الطبراني في "الكبير" ١٧/ (٣٤١) في مسند العرس بن عميرة، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن شيبان بن فروخ، عن جرير بن حازم، عن عدي بن عدي، عن رجاء بن حيوة والعرس بن عميرة، به. لم يذكر عدي بن عميرة.

وعن الشعبي؛ قال: إن رجلًا أقام سلعته أول النهار، فلما كان آخره؛ جاء رجل يساومه، فحلف لقد منعها أول النهار من كذا وكذا، ولولا المساء؛ ما باعها به؛ فأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣/ ٢٣٠): ثنا محمد بن المثنى ثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي عن داود بن أبي هند عن الشعبي به. ورجاله ثقات؛ لكنه مرسل.

وعن عكرمة؛ قال: نزلت هذه الآية في أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وكعب بن

=

=

الأشرف وحيي بن أخطب.

أخرجه ابن جرير في "جامع البيان" (٣/ ٢٢٩) من طريق الحسين بن داود الملقب سنيد، وهذا في "تفسيره"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٦٩٨): ثني حجاج بن محمد بن نصير عن ابن جريج عن عكرمة به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: ضعف سنيد صاحب "التفسير"، وقد بينا ذلك مفصلًا فيما مضى.

الثانية: عنعنة ابن جريج.

الثالثة: الإرسال.

وعن ابن جريج؛ قال: وقال آخرون: إن الأشعث بن قيس اختصم هو ورجل إلى رسول الله ﷺ في أرض كانت في يده لذلك الرجل؛ أخذها لتعززه في الجاهلية؛ فقال النبي ﷺ: "أقم بينتك"، قال الرجل: ليس يشهد لي أحد على الأشعث؛ قال: "فلك يمينه"، فقام الأشعث ليحلف؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية، فنكل الأشعث، وقال: إني أشهد الله وأشهدكم أن خصمي صادق؛ فرد إليه أرضه وزاده من أرض نفسه زيادة كثيرة؛ مخافة أن يبقى في يده شيء من حقه، فهي لعقب ذلك الرجل بعده.

أخرجه سنيد في "تفسيره"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٦٩٨) -ومن طريقه ابن جرير في "جامع البيان" (٣/ ٢٢٩، ٢٣٠) -: ثني حجاج عن ابن جريج. وسنده ضعيف جدًا.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: إن ناسًا من علماء اليهود أُولي فاقة كانوا ذوي حظ من علم التوراة، فأصبتهم سَنَةٌ؛ فأتوا إلى كعب بن الأشرف يستميرونه، فسألهم كعب: هل تعلمون أن هذا الرجل -يعني رسول الله- في كتابكم؟ قالوا: نعم، وما تعلمه أنت؟ قال: لا، فقالوا: فإنا نشهد أنه عبد الله ورسوله، قال كعب: لقد قدمتم عليّ وأنا أريد أن أميركم وأكسوكم، فحرمكم الله خيرًا كثيرًا، قالوا: فإنه

=

=

شبه لنا، فرويدًا حتى نلقاه، فانطلقوا، فكتبوا صفة سوى صفته، ثم أتوْا النبي ﷺ فكلموه، ثم رجعوا إلى كعب، فقالوا: قد كنا نرى أنه هو فأتيناه، فإذا هو ليس بالنعت الذي نعت لنا، وأخرجوا النعت الذي كتبوه فنظر إليه كعب؛ ففرح، ومارهم وأنفق عليهم؛ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية.

ذكره ابن حجر في "العجاب" (٢/ ٧٠٢)، وقال: "قال ابن الكلبي: عن أبي صالح عن ابن عباس وذكره". ومن دون ابن عباس كَذَبة.

قال الحافظ في "الفتح" (٨/ ٢١٣): "وقص الكلبي في "تفسيره" في ذلك قصة طويلة وهي محتملة -أيضًا-!!؛ لكن المعتمد في ذلك ما ثبت في "الصحيح".

وعنه -أيضًا- قال: نزلت في امرئ القيس بن عابس استعدى عليه عيدان بن أشوع في أرض ولم تكن لهم بينة؛ فأمره رسول الله ﷺ أن يحلف.

قال ابن حجر في "العجاب" (٢/ ٧٠٣): "نقل الثعلبي عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس وذكره". وسنده ضعيف جدًا، تالف، واهٍ بمرة؛ جويبر هذا متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

قال الحافظ في "العجاب" (١/ ٢١١) -بعد سرد مرويات الضعفاء-: "ومنهم: جويبر بن سعيد -وهو واه-، روى التفسير عن الضحاك بن مزاحم -وهو صدوق- عن ابن عباس؛ ولم يسمع منه شيئًا".

* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} [آل عمران: ٧٧]، أي: إن الذين "يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل".

والاشتراء في لغة العرب: الاستبدال، فكل شيء استبدلته بشيء فقد اشتريته

قوله: (بعهد الله) هو ما عاهدوا عليه من الإيمان بالنبي ﷺ.

وقيل: بعهد الله، أي: بعهدهم مع الناس، وأضافه الله إلى نفسه لأنه أمر بالوفاء به.

=

=

قال تعالى (وأوفوا بعهد الله).

قوله: (وأيمانهم) أي: ويشترون أيضا بأيمانهم ثمنا قليلا.

والأيمان جمع يمين، وهي الحلف بالله تعالى، فيحلف على جحد حق واجب عليه، أو يحلف على دعوى حق له، وهو كاذب قال الرازي: قوله تعالى (إن الذين يشترون بعهد الله) يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه ما نصب عليه الأدلة ويدخل فيه المواثيق المأخوذة من جهة الرسول، ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه، لأن كل ذلك من عهد الله الذي يلزم الوفاء به.

قال تعالى (ومنهم من عاهد الله لئن ءاتانا من فضله لنصدقن) الآية وقال (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا) وقال (يوفون بالنذر) وقال: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه).

(ثمنا قليلا) وهي حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل.

قال الآلوسي: وصف ذلك بالقلة لقلته في جنب ما يفوتهم من الثواب ويحصل لهم من العقاب.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ووجه المشابهة بين إعراضهم وبين الاشتراء، أن إعراضهم عن آيات القرآن لأجل استبقاء السيادة، والنفع في الدنيا يشبه استبدال المشتري في أنه يعطي ما لا حاجة له به ويأخذ ما إليه احتياجه وله فيه منفعته.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثمنا قليلا) وقد أجمل العوض الذي استبدلوا به، فلم يبين أهو الرئاسة أو الرشى التي يأخذونها ليشمل ذلك اختلاف أحوالهم فإنهم متفاوتون في المقاصد التي تصدهم عن اتباع الإسلام على حسب اختلاف هممهم.

قال القرطبي: وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول من فعل فعلهم.

سئل الحسن البصري عن قوله تعالى (ثمنا قليلا) قال: الثمن القليل الدنيا

=

=

بحذافيرها.

فالثمن القليل: يشمل المال والمنصب والجاه والشهرة والرفعة، فإن أحبار اليهود لو آمنوا بمحمد ﷺ لذهبت عنهم بعض ما هم فيه من المكانة والمنزلة والرفعة.

وقد صدق من قال من السلف: من أحب أن يعرف ذهب دينه.

وقد ذكر العلامة المعلمي أن المنزلة والجاه من موانع الهداية فقال رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكر الوجه الأول:

الوجه الثاني: أن يكون قد صار في الباطل جاه وشهرة ومعيشة، فيشق عليه أن يعترف بأنه باطل فتذهب تلك الفوائد.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ} [آل عمران: ٧٧]، أي: أولئك" لا حظ لهم في خيرات الآخرة".

عن ابن عباس: "يعني قوله: {لا خلاق لهم في الآخرة}: يقول: نصيب". وروي عن مجاهد والسدي نحو ذلك.

وقال قتادة: "ليس لهم في الآخرة جهة عند الله".

وقال الحسن: "ليس له دين".

والآخرة يوم القيامة، وسمي يوم القيامة آخرة لأنه آخر مراحل البشر.

قوله تعالى: {وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ} [آل عمران: ٧٧]، أي: "ولا يكلمهم الله بما يسرُّهم".

لكن الله قد يكلمهم كلام إهانة كما قال تعالى (قال اخسأوا فيها ولا تكلمون).

قال الثعلبي: أي: "كلاما ينفعهم ويسرّهم، قاله المفسرون، وقال المفضل: {وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ}: بقبول حجّة يحتجّون بها".

قال أبو السعود: "أي بما يسُرّهم أو بشيء أصلًا وإنما يقع ما يقع من السؤال والتوبيخِ والتقريعِ في أثناء الحساب من الملائكةِ عليهمِ السَّلامُ أولا ينتفعون

=

=

بكلماتِ الله تعالى وآياتِه والظاهرُ أنه كنايةٌ عن شدة غضبِه وسَخَطِه نعوذ بالله من ذلك".

وذكر الزجاج في قوله تعالى: {وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ} [آل عمران: ٧٧]، وجهان:

أحدهما: أن يكون إسماع الله أولياءه كلامه بغير سفير، خصوصية يخص الله بها أولياءه كما كلم موسى فكان ذلك خصوصية له دون البشر أجمعين.

والثاني: وجائز أن يكون {ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم} تأويله الغضب عليهم، والإعراض عنهم كما تقول: "فلان لا ينظر إلى فلان ولا يكلمه، وتأويله أنه غضبان عليه، وإن كلمه بكلام سوء لم ينقض ذلك.

قوله تعالى: {وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران: ٧٧]، أي: "ولا يعطف عليهم بخير، مقتًا من الله لهم".

قال الأخفش: "فهذا مثل قولك للرجل: ما تنظر إلي، اذا كان لا ينيلك شيئا".

قال الثعلبي: "أي لا يرحمهم ولا يعطف عليهم ولا يحسن إليهم ولا يكلمهم خيرا. يقال نظر فلان لفلان، ونظر إليه إذا رحمه وأحسن إليه".

قوله تعالى: {وَلَا يُزَكِّيهِمْ} [آل عمران: ٧٧]، أي: "ولا يطهرهم من دَنس ذنوبهم وكفرهم".

قال الزجاج: أي: "لا يجعلهم طاهرين ولا يثني عليهم خيرا".

قال ابن عطية: "يحتمل معنيين، أحدهما يطهرهم من الذنوب وأدرانها، والآخر ينمي أعمالهم، فهي تنمية لهم، والوجهان منفيان عنهم في الآخرة".

قال الرازي: قوله تعالى (ولا يزكيهم) ففيه وجوه الأول: أن لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة بل يعاقبهم عليها والثاني: لا يزكيهم أي لا يثني عليهم كما يثني على أوليائه الأزكياء والتزكية من المزكى للشاهد مدح منه له.

واعلم أن تزكية الله عباده قد تكون على ألسنة الملائكة كما قال (والملائكة

=

=

يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وقال (وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفى الأخرة).

وقد تكون بغير واسطة، أما في الدنيا فكقوله (التائبون العابدون) وأما في الآخرة فكقوله (سلام قولا من رب رحيم).

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: ٧٧]، أي: "ولهم عذاب موجع".

قال ابن عباس: أي: "نكال موجع".

قال الشَّافِعِي رحمه الله تعالى: من ادعى مالًا، فأقام عليه شاهدًا، أو ادعي عليه مال، فكانت عليه يمين، ئظِرَ في قيمة المال، فإن كان عشرين دينارًا فصاعدًا، وكان الحكم بمكة: أحْلِف بين المقام والبيت على ما يَدّعى، ويُدعى عليه، وإن كان بالمدينة حُلف على منبر رسول الله ﷺ، ومن كان ببلد غير مكة والمدينة، أحلِفَ على عشرين دينارًا، أو على العظيم من الدم والجراح، بعد العصر في مسجد ذلك البلد ويتلى عليه: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} الآية".

عن عباد بن منصور قال: "سألت الحسن عن قوله: {أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم}، فقال: هؤلاء أقوام باعوا خلاقهم بالدنيا فقال: أنبأكم الله كيف يصنع بهم".

عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ (ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم" قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال: "المسبل، والمنفق سلعته بالحلف بالكاذب) رواه مسلم.

وعن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ (من حلف على يمين هو فيها فاجر، ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان، فقال الأشعث: في والله

=

=

كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: ألك بينة؟ " قلت: لا فقال لليهودي: احلف، فقلت: يا رسول الله، إذا يحلف فيذهب مالي. فأنزل الله عز وجل (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) متفق عليه.

* مسألة: في هذه الآية تغليظ اليمين، وتعظيم عهد الله، ووجوب الوفاء به، وأن من أعظم الحرام الأكل باليمين مالا حراما؛ فذلك المال من أعظم السحت، ففي الصحيح؟ من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: "أن رجلا أقام سلعة وهو في السوق، فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعط؛ ليوقع فيها رجلا من المسلمين، فنزلت: {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا}".

وهذه الآية نزلت في الأشعث بن قيس ويهودي تخاصما؛ كما في "الصحيحين"؛ قال الأشعث: في والله كان ذلك؛ كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجحدني، فقدمته إلى النبي ﷺ: فقال لي رسول الله ﷺ: (ألك بينة؟)، قلت، لا، قال؛ فقال لليهودي: (احلف)، قال: قلت: يا رسول الله، إذا يحلف ويذهب بمالي، فأنزل الله تعالى: {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا}، إلى آخر الآية.

وفي "الصحيح" أيضا أن الخصومة كانت بين الأشعث وابن عم له.

وفي "الصحيحين" أيضا قال ﷺ: (شاهداك أو يمينه).

ومن قال في يمينه: (على عهد الله)، أو (عهد علي)، فهي يمين على الصحيح؛ وهذا قول مالك وأحمد؛ لأن الله قدمها على المين في الآية لعظمها في التوكيد، قال: {يشترون بعهد الله وأيمانهم}، وقيدها عطاء والشافعي بالنية، فمن نواها يمينا، فهي يمين.

وكان السلف ينهون عن الحلف بالعهد، لعظمه وعظم أثره عند عدم الوفاء به، قال النخعي: كانوا ينهوننا عن الحلف بالعهد.

=

=

وكل يمين يؤكل بها مال حرام، فهي غموس ولو لم تكن مغلظة باللفظ، ففي "الصحيح"، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم)، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ ! قال: (المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب).

* كفارة العهد واليمين الغموس: ذكر الله كفارة الأيمان، ولم يذكر كفارة العهد واليمين الغموس؛ كما في قوله تعالى: {ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم} [المائدة: ٨٩]، وفرق الله بين العهد واليمين هنا، فجعل العهد أعظم ويلحق به اليمين الغموس، وقد اختلف العلماء في حكم الكفارة في اليمن الغموس:

القول الأول: قول جمهور الفقهاء؛ كمالك وأبي حنيفة والثوري وأحمد: أنه لا كفارة فيها، لأن الله لما ذكر العهد - وهو يمين غموس - رهب وخوف وتوعد، ولم يذكر الكفارة، كما ذكرها في الأيمان، وهذا ظاهر في حديث ابن مسعود في قصة الأشعث؛ حيث قال ﷺ: (من حلف على يمين صبر، يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان)، ولم يأمر بالكفارة لعظمها، روى ابن المنذر عن ابن المسيب؛ قال: "اليمين الفاجرة من الكبائر".

وقد توعد الله قائلها بأنه لا خلاق له في الآخرة؛ أي: لا نصيب له.

وقال بأنه لا كفارة في اليمين الغموس جماعة من السلف؛ كابن عباس، فقد روى الطبري، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "اليمين الصبر الكاذبة، يحلف بها الرجل على ظلم أو قطيعة، فتلك لا كفارة لها إلا أن يترك ذلك الظلم، أو يرد ذلك المال إلى أهله، وهو قوله - تعالى ذكره -: {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا}".

وروى البيهقي، عن أبي العالية، قال: قال أبو عبد الرحمن - يعني ابن مسعود -:

=

=

كنا نعد من الذنب الذي لا كفارة له اليمين الغموس، فقيل: ما اليمين الغموس؟ قال: "اقتطاع الرجل مال أخيه باليمين الكاذبة".

القول الثاني وهو قول الشافعي والأوزاعي ومعمر: أن اليمين الغموس فيها كفارة؛ لأن الله جعل الإيمان على قسمين: (لغو) وعفا عن كفارتها، (ومنعقدة) وهي التي فيها كفارة، وهي ما عدا اللغو.

وجرى الشافعية في ذلك على قاعدتهم في كفارة العمد؛ لأنهم يرون العمد أولى في وجوب الكفارة من الخطأ، فتعمد الإنسان فعل المحرم لا يخرجه من تبعته، ومن تبعته كفارته، وهذا يجب عندهم فيما هو أغلظ من اليمين كالقتل العمد، فيوجبون فيه الكفارة، وكقضاء الصلاة المكتوبة المتروكة عمدا فيجب فيها القضاء، كما يجب في تركها خطأ بالإجماع.

والقاعدة عند أحمد وأصحابه: أن قتل العمد لا كفارة فيه، ويطردون هذا في اليمين الغموس؛ فلا يرون الكفارة فيها، وأحمد وأصحابه يوجبون القضاء للمكتوبة المتروكة عمدا، كسائر الأئمة الأربعة، وأخرج أحمد قضاء الصلاة المكتوبة من قاعدة التكفير في العمد في القتل واليمين الغموس؛ أخذا بظاهر الأدلة، ولم يخرج الصلاة من القاعدة جماعة من العلماء؛ كابن تيمية وابن رجب وغيرهما، ومسألة الصلاة تحتاج إلى بسط ليس هذا محله.

ويأتي الكلام على كفارة قتل العمد في موضعه بإذن الله.

والأرجح: عدم وجوب الكفارة في اليمين الغموس؛ لأنه قول عامة الصحابة وأكثر التابعين، كابن مسعود وابن عباس وحماد بن سلمة.

ولأن الله ذكر كفارة الإيمان في غير سياق العمد بالكذب، ولما ذكر اليمين الغموس في هذا الموضع وغيره، لم يذكر الكفارة فيها، ومجرد اليمين لا يجعل فيها كفارة، كاليمين مع الاستثناء: لا كفارة فيها وهي يمين.

=

=

وهكذا في أحاديث الوعد من اليمين الغموس لا يذكر معها كفارة، والأحاديث فيها متواتر في النهي عنها والشديد على فاعلها من غير ذكر كفارة في واحد منها؛ ومن ذلك ما روى جابر عن النبي، أنه قال: (من حلف على منبري هذا بيمين آثمة، تبوأ مقعده من النار).

وفي الباب عن ابن مسعود وأبي ذر وعمران وغيرهم.

وعدم وجوب الكفارة لا يسقط عنه تكفير ذنبه ببقية أنواع المكفرات التي هي أعظم من كفارة اليمن؟ بالإكثار من الاستغفار، والطاعات، والصدقات، والوجل القلبي من الذنب، والخوف من عاقبته، فذلك يخفف الذنب ويزيله بإذن الله.

* كفارة اليمين الخطأ: من حلف يمينا ويرى أنه صادق في نفسه، فبان مخطئا، فلا كفارة عليه ولا إثم، إلا أن يمينه الخطأ لا تبطل حقا، ولا تحق الباطل، قال إبراهيم النخعي: "إذا حلف الرجل على اليمين وهو يرى أنه صادق، وهو كاذب، فلا يؤاخذ بها".

* وفي الآية: دليل على أن حكم الحاكم لا يسقط الحق الباطن؛ وإنما يجري هذا على الخلاف الظاهر، فيحكم على نحو ما يسمع ويرى مما ظهر له من الأدلة، وهذا لا خلاف فيه في الأموال والدماء؛ وإنما الخلاف في النكاح، وتقدم ذلك في سورة البقرة عند قوله تعالى: {ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون (١٨٨)} [البقرة: ١٨٨].

* استحلاف الكافر: استحلاف الكافر كاستحلاف المسلم عند عدم وجود البينة عليه في الحقوق، فإن نكل، وجب عليه الحق، وإن حلف، سقط الحق عنه، لظاهر حديث الأشعث وخصومته مع اليهودي، في قول النبي ﷺ للأشعث؟ (ألك بينة؟)، قلت: لا، قال؛ فقال لليهودي: (احلف).

=

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨).

{وَإِنَّ مِنْهُمْ} أَيْ أَهْل الْكِتَاب {لَفَرِيقًا} طَائِفَة كَكَعْبِ بْن الْأَشْرَف {يَلْوُونَ أَلْسِنَتهمْ بِالْكِتَابِ} أَيْ يَعْطِفُونَهَا بِقِرَاءَتِهِ عَنْ الْمُنَزَّل إلَى مَا حَرَّفُوهُ مِنْ نَعْت النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْوه {لِتَحْسَبُوهُ} أَيْ الْمُحَرَّف {مِنْ الْكِتَاب} الَّذِي أَنْزَلَهُ الله {وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَاب وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْد الله وَمَا هُوَ مِنْ عِنْد الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِب وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ[1].

=

وتطلب اليمين من الكافر بصيغة جائزة لا محرمة، فلا يستحلف بلفظ كفر؛ كقول النصراني: والمسيح، أو يقسم بالصليب أو مخلوق، ولا أن يقسم المشرك بصنمه ووثنه، ولا الجاهلي بأبيه وأمه؛ وإنما يستحلف بالخالق، كقوله: والله، أو بما يؤمن به من ألفاظ توافق الحق في الظاهر ولو اعتقدها بباطنه على غير ذلك، وفي "الصحيح"؛ من حديث البراء بن عازب، أن النبي ﷺ قال ليهودي: (أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟).

واليمين تنعقد من الكافر وكذا النذر الذي يكون لله لا يشرك معه أحد به، وهذا قول جماعة من العلماء كالحنابلة والشافعية، سواء كان حنثه في يمينه في كفره أو بعد إسلامه؛ وذلك لما ثبت في "الصحيح"، أن عمر رضي الله عنه نذر في الجاهلية أن يعتكف في المسجد الحرام، فأمره النبي ﷺ بالوفاء بنذره، خلافا لأهل الرأي كأبي حنيفة وغيره فلا يرون انعقاد يمين الكافر.

(١) قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ} [آل عمران: ٧٨]، أي وإن من اليهود طائفة يفتلون ألسنتهم في حال قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل

=

=

كلام الله عن المراد".

قال ابن عباس: "وهم اليهود" / " وروي عن الربيع وقتادة نحو ذلك.

وقال الحسن: "هم أهل التاب كلهم".

قال مقاتل: "يعني باللي التحريف بالألسن في أمر محمد- ﷺ-".

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن اليهود، عَليهم لعائن الله، أن منهم فريقا يُحَرِّفون الكلم عن مواضعه ويُبَدِّلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد به".

وفي تفسير قوله تعالى: {يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ} [آل عمران: ٧٨]، قولان:

أحدهما: أن المعنى زيدون في كتاب الله ما لم ينزل الله. قاله ابن عباس.

والثاني: أن المعنى: يحرفونه. وهذا قول مجاهد، وروي عن الشعبي والحسن، وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ} الضمير يعود على أهل الكتاب؛ لأن الآيات سياقها واحد، وفي أول الآيات قال: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ} [آل عمران: ٧٥]، وهنا قال: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ}، اللّي معناه: العطف، ومنه ليّ الحبل. فمعنى يلوون ألسنتهم: أي يعطفونها. و"اللي" هنا يشمل "اللي" اللفظي و"اللي" المعنوي. واللي اللفظي تارة يأتون بكلام من عندهم ويقرأونه قراءة الكتاب المنزل فيتوهم مَن يسمعه من الناس أنه من الكتاب المنزل، يعني يلحن الكلام كما يلحن القرآن، فيظنه السامع أنه من عند الله، هذا نوع. والنوع الثاني من اللي اللفظي التحريف، تحريف الكلم بلفظه كما حرف بعض المبتدعة قول الله تعالى: {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤] إلى قوله: "وكلّم اللهَ موسى تكليمًا" يريد بذلك أن يكون التكليم من موسى إلى الله.

أما التحريف المعنوي فهو تفسير الكلام بغير ما أراد الله، فيقول: معنى الآية كذا وكذا على خلاف ما أرادها الله به، فصار اللي ثلاث أقسام:

=

=

الأول: لي باللفظ، لكنه لا يتعلق بنفس الكتاب المنزل، إنما يأتي بكلام من عنده فيأتي به يتغنى به كما يتغنى بالكتاب المنزل، فيظن السامع أنه من عند الله.

والثاني من اللي: ليٌّ لفظي يتعلق بتغيير هيئة الكتاب المنزل وذلك ما يسمى بالتحريف اللفظي.

والثالث: اللي المعنوي، فيقول: معنى الآية كذا وكذا، وهذا لا شك أنه لي باللسان يلوون ألسنتهم بالكتاب؛ لأن الكتاب يريد كذا وهم يقولون المراد كذا.

هؤلاء المحرِّفة الذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه.

قوله تعالى: {لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ} [آل عمران: ٧٨]، "أي: لتظنوا أن هذا المحرّف من كلام الله وما هو إلا تضليل وبهتان".

{لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ}: اللام هذه يحتمل أن تكون للتعليل، ويحتمل أن تكون للعاقبة. والفرق بينهما أن لام التعليل تحمل على الشيء، ولام العاقبة تكون غاية للشيء. فمثلًا إذا قلت: حضرت لأقرأ، اللام للتعليل، يعني أن الذي حملني على الحضور هو القراءة. وإذا قلت: اصطدت هذا الصيد ليكون غداءً لي، هذه للعاقبة، ومنه قوله تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [القصص: ٨]، فإن آل فرعون لم يلتقطوه لهذا السبب أبدًا، ولو علموا أنه يكون عدوًا وحزنًا لهم ما التقطوه. هنا {لِتَحْسَبُوهُ} هل المعنى أنهم يلوون ألسنتهم بالكتاب من أجل أن يضلوكم فتظنوا أنه من عند الله، أو أنهم يلوون ألسنتهم بالكتاب من غير قصد فتظنونه من عند الله؟.

الظاهر الأول. أنهم يفعلون هذا ليوهموا الناس أنه من عند الله. {لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ} أي لتظنوه من الكتاب المنزل، وهو من الكتاب الملوي الذي حصل به اللي والتبديل.

قال الله تعالى: {وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ}:

=

=

هذا إبطال له لما أرادوه من ليِّهم ألسنتهم بالكتاب فيظن الظان أنه من الكتاب فقال الله: {وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ} والكتاب الذي أشير إليه هنا التوراة إذا كان هذا اللي واقعًا من اليهود، والإنجيل إذا كان هذا اللي واقعًا من النصارى، و"الكتاب" اسم جنس صالح لهذا وهذا.

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ} [آل عمران: ٧٨]، " أي: وينسبونه إلى الله وهو كذبٌ على الله، وهم يعلمون أنهم كذبوا وافتروا على الله".

قال الربيع بن أنس: "هم أعداء الله اليهود حرفوا كتاب الله، وابتدعوا فيه، وزعموا أنه من عند الله".

قال وهب بن مُنَبِّه: "إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول".

قال ابن كثير: "فإن عَنَى وَهْب ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير، وزيادات كثيرة ونقصان، ووَهْم فاحش. وهو من باب تفسير المعبر المعرب، وفَهْم كثير منهم بل أكثرهم، بل جميعهم فاسد. وأما إن عَنَى كتب الله التي هي كتبه من عنده، فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء".

{وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ}: الضمير يعود على مَنْ لووا ألسنتهم بالكتاب يقولون: هو من عند الله. فأبطل الله هذه الدعوى بقوله: {وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ} ولهذا يحسن بالقارئ أن يقف فيقول مثلًا: {لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ} ثم يقول: {وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ}.

=

=
{وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ} ويقف، ثم يقول: {وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ}.
قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧٨]، " أي: يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون".
{وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ}: أيضًا هم يقولون على الله الكذب سواء بالتحريف اللفظي أو بالتحريف المعنوي.
وقوله: {وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ} يقولون هنا مضمنة معنى يفترون، ولهذا تعدت بعلى "يقولون على الله الكذب" في أحكامه وفي أفعاله وفي أسمائه وفي صفاته، وفي كل ما يتعلق به سبحانه وتعالى، فهم مثلًا قالوا: {يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة: ٦٤]، وكذبوا، وقالوا: {إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ} [آل عمران: ١٨١]، وكذبوا، وقالوا: إن الله تعب واستراح، وكذبوا. وكل ما وصفوا الله به مما لا يليق به فهم كاذبون فيه.
وقوله: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}:
الجملة حالية حال من الواو في يقولون، يعني يقولون الكذب وهم عالمون بأنه كذب. فيكون هذا أشد إثمًا ممن قال الكذب وهو لا يعلم أنه كذب.
قال الحسن: "هم أهل الكتاب كلهم قد كذبوا على الله، وحرفوا الكلم عن مواضعه".
قال الزجاج: "أي وهم يعلمون أئهم يكذبون".
قال الطبري: أي: "ويتعمّدون قيل الكذب على الله والشهادة عليه بالباطل، والإلحاقَ بكتاب الله ما ليس منه، طلبًا للرياسة والخسيس من حُطام الدنيا".
قال ابن كثير: "وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله".
قال المراغي: "أي وهم يعلمون كذبهم في ذلك لأن ما جاء من عند الله فهو في كتابه، والتوراة التي بين أيديهم ليس فيها خيانة الأميين، ولا أكل أموالهم بالباطل،
=

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا

=

وهم يعلمون ذلك حق العلم، لكنهم لما لم يكتفوا بالكتاب ولجأوا إلى التقليد وعدّوا كلام أحبارهم دينا، وهؤلاء قالوا في الدين بالرأى والهوى، وحرفوا الكلم عن مواضعه ليؤيدوا آراءهم، وجدوا من هذه الأقوال ما يساعدهم على ما يدّعون".

قال السعدي: "وهذا أعظم جرما ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك".

قال الشافعي: "والناس صنفان:

أحدهما: أهل الكتاب، بدلّوا من أحكامه، وكفروا بالله، فافتعلوا كذبًا صاغوه بألسنتهم، فخلطوه بحق الله الذي أنزل إليهم، فذكر تبارك وتعالى لنبيه من كفرهم فقال: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧٨] الآية، ثم قال: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [آل عمران: ٧٩].

ثانيهما: وصنف كفروا بالله فابتدعوا ما لم يأذن به الله، ونصبوا بأيديهم حجارة وخُشُبًا، وصورًا استحسنوها، ونبذوا أسماء افتعلوها، ودعوها آلهة عبدوها، فإذا استحسنوا غير ما عبدوا منها ألفوه ونصبوا بأيديهم غيره فعبدوه: فأولئك العرب.

وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا، وفي عبادة ما استحسنوا من حوت ودابة ونجم ونار وغيره".

لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩).

وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ نَصَارَى نَجْرَان إنَّ عِيسَى أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوهُ رَبًّا وَلَمَّا طَلَبَ بَعْض الْمُسْلِمِينَ السُّجُود لَهُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {مَا كَانَ} يَنْبَغِي {لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيه الله الْكِتَاب وَالْحُكْم} أَيْ الْفَهْم لِلشَّرِيعَةِ {وَالنُّبُوَّة ثُمَّ يَقُول لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُون الله وَلَكِنْ} يَقُول {كُونُوا رَبَّانِيِّينَ} عُلَمَاء عَامِلِينَ مَنْسُوبِينَ إلَى الرَّبّ بِزِيَادَةِ أَلِف وَنُون تَفْخِيمًا {بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {الْكِتَاب وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} أَيْ بِسَبَبِ ذَلِكَ فَإِنَّ فَائِدَته أن تعملوا.

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠).

{وَلَا يَأْمُرَكُمْ} بِالرَّفْعِ اسْتِئْنَافًا أَيْ الله وَالنَّصْب مطلقا عَطْفًا عَلَى يَقُول أَيْ الْبَشَر {أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَة وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا} كَمَا اتَّخَذَتْ الصَّابِئَة الْمَلَائِكَة وَالْيَهُود عُزَيْرًا وَالنَّصَارَى عِيسَى {أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْد إذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} لَا يَنْبَغِي لَهُ هَذَا[(١)].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال أبو رافع القرظي -حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام-: أتريد يا محمد! أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران -نصراني يقال له: الرِّبِّيس-: أو ذاك تريد منا يا محمد! وإليه تدعونا -أو كما قال؟! فقال رسول الله ﷺ: "معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره؛ ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني" -أو كما قال-؛ فأنزل الله عز وجل في ذلك من =

=

قولهم: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ الله الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} الآية إلى قوله: {بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٨٠].

أخرجه ابن إسحاق في "السيرة" (٢/ ١٨٠، ١٨١ - ابن هشام) -ومن طريقه ابن جرير "جامع البيان" (٣/ ٢٣٢)، والبيهقي في "الدلائل" (٥/ ٣٨٤) -: ثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وسنده ضعيف؛ لجهالة شيخ ابن إسحاق.

والحديث أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٣٦٩، ٣٧٠ رقم ٨٧٥) بسنده عن محمد به معضلًا دون ذكر عكرمة ومن بعده.

وعن الحسن؛ قال: بلغني أن رجلًا قال: يا رسول الله! نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض؛ أفلا نسجد لك؟! قال: "لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله" فأنزل الله عز وجل هذه الآية إلى قوله: {بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤].

أخرجه عبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٠٥) عن روح بن عبادة عن عوف بن أبي جميلة عن الحسن به. ورجاله ثقات؛ لكنه مرسل.

وعن ابن جريج؛ قال: كان ناس من اليهود يتعبدون الناس من دون ربهم؛ بتحريفهم كتاب الله عن موضعه؛ فقال الله: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ الله الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)}، ثم يأمر الناس بغير ما أنزل الله في كتابه.

أخرجه سنيد في "تفسيره"؛ كما في العجاب (٢/ ٧٠٥) -ومن طريقه ابن جرير في "جامع البيان" (٣/ ٢٣٢) -، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٣٦٤ رقم ٨٥١، ٨٥٤) من طرق عن ابن جريج.

=

=

وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ} [آل عمران: ٧٩]، " أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحُكْم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني مع الله".

وفي هذا رد على أولئك الجاهلين الذين زعموا أن بعض النبيين يصح له أن يطلب من الناس أن يعبدوه من دون الله.

والمعنى: لا يصح ولا ينبغي ولا يستقيم عقلا لبشر آتاه الله تعالى وأعطاه: (الكتاب) الناطق بالحق، الآمر بالتوحيد، الناهي عن الإشراك، وآتاه (الحكم) أي العلم النافع والعمل به، وآتاه

(النبوة) أي الرسالة التي يبلغها عنه سبحانه إلى الناس، ليدعوهم إلى عبادته وحده، وإلى مكارم الأخلاق، لا يصح له ولا ينبغي بعد كل هذه النعم أن يكفرها ثم يقول للناس بعد هذا العطاء العظيم الذي وهبه الله له كونوا عبادا لي من دون الله أي: لا ينبغي ولا يعقل من بشر آتاه الله كل هذه النعم أن يقول للناس هذا القول الشنيع وهو كونوا عبادا لي من دون الله، لأن الأنبياء الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة يحجزهم خوفهم من الله، وإخلاصهم له، عن أن يقولوا هذا القول المنكر، كما يحجزهم عنه أيضا ما امتازوا به من نفوس طاهرة، وقلوب نقية، وعقول سليمة ... لأنهم لو فرض أنهم قالوا ذلك لأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر فهو سبحانه القائل (ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين).

قال ابن كثير: فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى.

ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته، قال:

=

=

وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضا -يعني أهل الكتاب-كانوا يتعبدون لأحبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله. والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) وفي المسند، والترمذي -كما سيأتي-أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: (بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم).

فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أمر الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام، إنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام، فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق.

وقال السعدي: أي: يمتنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي، أن يأمر الناس بعبادته، وبعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أربابا، لأن هذا هو الكفر، فكيف وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟

(ولكن كونوا) أي: ولكن يقول لهم: كونوا، فحذف القول لدلالة الكلام عليه.

وفي قوله تعالى: {وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [آلأ عمران: ٧٩]، وجهان:

أحدهما: أن الحكم: العلم. قاله ابن عباس.

والثاني: أن الحكم: اللب. قاله مجاهد.

قوله تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ} [آل عمران: ٧٩]، " أي: ولكن يقول الرسول للناسِ: كونوا رَبَّانيين".

=

=

أي: مقبلين على طاعة الله تعالى وعبادته وحده بجد ونشاط وإخلاص، بسبب كونكم تعلمون غيركم الكتاب الذي أنزله الله لهداية الناس وبسبب كونكم دارسين له، أي قارئين له بتمهل وتدبر.

وقوله تعالى ولكن كونوا ربانيين استدراك قصد به إثبات ما ينبغي للرسل أن يقولوه بعد أن نفى عنهم ما لا ينبغي لهم أن ينطقوا به، أي: لا ينبغي لبشر آتاه الله نعما لا تحصى أن يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله، ولكن الذي ينبغي له أن يقوله لهم هو قوله: كونوا ربانيين أي مخلصين له سبحانه العبادة إخلاصا تاما.

واختلف في تفسير قوله تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ} [آل عمران: ٧٩]، على تسعة وجوه:

أحدها: فقهاء. قاله مجاهد.

والثاني: حكماء علماء. قاله أبو رزين.

والثالث: فقهاء علماء ، وهو قول ابن عباس، الحسن، ومجاهد- في رواية أخرى-، والضحاك، وقتادة، وسعيد بن جبير -في رواية عنه-، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس، وعطية، ويحيى بن عقيل.

والرابع: الفقهاء المعلمون. قاله ابن عباس أيضا.

والخامس: حكماء فقهاء. قاله ابن عباس-في رواية اخرى-، والسدي.

والسادس: حكماء أتقياء ، وهو قول سعيد بن جبير.

والسابع: حلماء علماء حكماء. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.

والثامن: أن المراد: كونوا أهل عبادة، وأهل تقوى لله. قاله الحسن -في رواية أخرى-.

والتاسع: أنهم الولاة الذين يربّون أمور الناس ، وهذا قول ابن زيد.

قال الطبري: "وأولى الأقوال عندي بالصواب في «الربانيين»: أنهم جمع: «رباني»،

=

=

وأن «الرباني» المنسوب إلى «الرَّبَّان»، الذي يربُّ الناسَ، وهو الذي يُصْلح أمورهم، ويربّها، ويقوم بها".

وفي أصل «الرباني»، قولان:

أحدها: أنه الذي يربُّ أمور الناس بتدبيره، يُصْلح أمورهم، ويقوم بها، ومنه قول علقمة بن عبدة:

وَكُنْتُ امْرَأً أَفْضَتْ إِلَيْكَ رِبَابَتِي... وَقَبْلَكَ رَبَّتْنِي، فَضِعْتُ، رُبُوبُ

فسمي العالم ربّانيًا لأنه بالعلم يدبر الأمور، بتعليمه إياهم الخيرَ ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم.

ولذلك قال مجاهد: "وهم فوق الأحبار"، لأن "الأحبارَ" هم العلماء، و"الرباني" الجامعُ إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم.

والثاني: أنه مضاف إلى عالم الرب ، وهو علم الدين ، فقيل لصاحب العلم الذي أمر به الرب ربّاني.

قوله تعالى: {بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران: ٧٩]، " أي: بتعليمكم الناس الكتاب ودراستكم إيّاه".

قال الطبري: يعني: "بعلمكم الكتابَ ودراستكم إياه وقراءتكم، ودراستهم إياه: تلاوته، وقيل: دراستهم: الفقه".

قال الرازي: دلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيا، فمن اشتغل بالتعلم والتعليم لا لهذا المقصود ضاع سعيه وخاب عمله وكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء مونقة بمنظرها ولا منفعة بثمرها ولهذا قال ﷺ (نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع).

وقرئ: {تُعَلِّمُون}، بالتشديد، من التعليم.

=

=

قوله تعالى: {وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا} [آل عمران: ٨٠]، " أي: وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله - ملائكة أو أنبياء".

وخصص الملائكة والنبيين بالذكر لأن عبادتهما قد شاعت عند كثير من الناس، فقد وقع في عبادة الملائكة «الصابئة» الذين كانوا يقيمون في بلاد الكلدان، وتبعهم بعض المشركين من العرب، ووقع في عبادة بعض النبيين كثير من النصارى فقد اتخذوا المسيح إلها يعبد وزعموه ابن الله وكثير من اليهود عبدوا عزيزا وزعموه ابن الله.

قال ابن كثير: "أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل ولا ملك مُقَرَّب".

وقرئ: {وَلا يَأْمُرُكُمْ}، برفع الراء، على وجه الابتداء من الله بالخبر عن النبي ﷺ أنه لا يأمرك.

قوله تعالى: {أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٨٠]، " أي: أيأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله؟".

كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون).

وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت).

وقال تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون).

وقال تعالى إخبارا عن الملائكة (ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين).

والاستفهام في قوله أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون للإنكار الذي بمعنى النفي.

=

وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١).

{وَ} اذْكُرْ {إذ} حِين {أَخَذَ الله مِيثَاق النَّبِيِّينَ} عَهْدهمْ {لَمَا} بِفَتْحِ اللَّام لِلِابْتِدَاءِ وَتَوْكِيد بمعنى الْقَسَم الَّذِي فِي أَخْذ الْمِيثَاق وَكَسْرهَا مُتَعَلِّقَة بِأَخَذَ وَمَا مَوْصُولَة عَلَى الْوَجْهَيْنِ أَيْ لِلَّذِي {آتَيْتُكُمْ} إيَّاهُ وَفِي قِرَاءَة آتَيْنَاكُمْ {مِنْ كِتَاب وَحِكْمَة ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُول مُصَدِّق لِمَا مَعَكُمْ} مِنْ الْكِتَاب وَالْحِكْمَة وَهُوَ مُحَمَّد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ} جَوَاب الْقَسَم إنْ أَدْرَكْتُمُوهُ وَأُمَمهمْ تَبَع لَهُمْ فِي ذَلِكَ {قَالَ} تَعَالَى لَهُمْ {أَأَقْرَرْتُمْ} بِذَلِكَ {وَأَخَذْتُمْ} قَبِلْتُمْ {على ذلك إصْرِي} عَهْدِي {قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا} عَلَى أنفسكم وأتباعكم ذلك

=

قال الطبري: أي: "أيأمُركم أيها الناس، نبيُّكم، بجحود وحدانية الله بعد إذ أنتم له منقادون بالطاعة، متذللون له بالعبودة، أي أن ذلك غير كائن منه أبدًا".

قال ابن كثير: "أي: لا يَفْعَل ذلك؛ لأنَّ من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} الآية، [النحل: ٣٦] وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى إخبارًا عن الملائكة: {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٢٩]".

{وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ} عَلَيْكُمْ وَعَلَيْهِمْ.

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢).

{فَمَنْ تَوَلَّى} أَعْرَض {بَعْد ذَلِكَ} الْمِيثَاق {فأولئك هم الفاسقون}[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ} [آل عمران: ٨١]، " أي اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيّين".

فاذكر يا محمد لمن أرسلناك إليهم، اذكر هذا العهد والميثاق.

وسمي الميثاق عهدا، لأن كلا من المتعاهدين يتوثق به مع الآخر.

قال الحسن: ": أخذ الله ميثاق النبيين: ليبلِّغن آخرُكم أولكم، ولا تختلفوا".

قال السدي: "لم يبعث الله عز وجل نبيًّا قطُّ من لدُنْ نوح، إلا أخذ ميثاقه ليؤمننّ بمحمد ولينصرنَّه إن خَرَج وهو حيّ، وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به ولينصرُنَّه إن خَرَج وهم أحياء".

ولأهل العلم في تفسير الميثاق قولان:

أحدهما: أنه أخذ ميثاق النبيين أن يأخذوا على قومهم بتصديق محمد -ﷺ-، وهذا قول علي، وابن عباس، وقتادة، والسدي.

والثاني: أنه أخذ ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا. وهذا قول طاووس، وقتادة.

قوله تعالى: {لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} [آل عمران: ٨١].

أي: للذي أعطيتكم من الكتاب والحكمة.

وقال بعض العلماء: إن (لما) بمعنى مهما، والمراد مهما أوتيتم من كتاب وحكمة.

وقرأ سعيد بن جبير: {لَمَّا} بتشديد الميم، وقرأ يحيى بن رئاب والأعمش وحمزة والكسائي {لِمَا}، بجرّ اللام وتخفيف الميم، وأما الباقون: {لما}، بفتح اللام =

=

وتخفيف الميم وقرئ.

وقرئ: {آتيتكم} على التفريد وهو المختار لموافقة الخط، وقرأه آخرون: {آتيناكم} على الجمع.

قوله تعالى: {ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ} [آل عمران: ٨١]، " أي: ثم جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم".

قال يحيى بن سلام: "أخذ الله على النبيين أن يعلموا أمر محمد، ما خلا محمدا من النبيين فإنه لا نبي بعده، ولكنه قد أخذ عليه أن يصدق بالأنبياء كلهم، ففعل ﷺ".

قال طاوس: "هذه الآية لأهل الكتاب ، أخذ الله ميثاقهم أن يؤمنوا لمحمد ويصدقوه".

قال السدي: "فيقول اليهود: أخذت ميثاق الناس لمحمد وهو الذي ذكر في الكتاب عندكم".

قال عطاء: "أخذ ميثاق أهل الكتاب لئن جاءهم رسول مصدق بكتبهم التي عندهم التي جاء بها الأنبياء ليؤمنن به ولينصرنه، فأقروا بذلك، وأشهدوا الله على أنفسهم فلما جاءهم محمد ﷺ صدق بكتبهم الأنبياء التي كانت قبله، {فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون}".

قوله تعالى: {لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ} [آل عمران: ٨١]، " أي لتصدقنه ولتنصرنه".

قال مقاتل: "يعني لتصدقن به إن بعث ولتنصرنه إذا خرج".

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم، عليه السلام، إلى عيسى عليه السلام، لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين

=

=

لما آتيتكم من كتاب وحكمة) أي: لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة.

قيل: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به، ولينصرنه، وأمر الله النبي أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث فيهم محمدا عليه السلام وهو حي وهم أحياء ليؤمنن به، ولينصرنه.

وهذا رفعة وعظمة بين الأنبياء وتعريف وتشريف بين البشرية جمعاء.. إذ هذه مكانة عظيمة، والله جل وعلا يعلم أن النبي ﷺ لن يكون إلا في آخر الزمان، وأنه خاتم الأنبياء.. فإذا جعل الميثاق على كل نبي بعث أنه يقر ويؤخذ عليه الميثاق إن بعث محمد وهو حي، أو بعث في أمته بعد وفاته أن يأخذ العهد والميثاق على الإيمان بمحمد ﷺ وعلى نصرته وأتباعه؟

وقيل: أخذ الله تعالى ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضا ويأمر بعضهم بالإيمان بعضا، فذلك معنى النصرة بالتصديق. وهذا قول سعيد بن جبيروقتادةوطاوسوالسديوالحسن، وهو ظاهر الآية،

قال ابن الجوزي: قال بعض أهل العلم: إنما أخذ الميثاق على النبيين، وأممهم، فاكتفى بذكر الأنبياء عن ذكر الأمم، لأن في أخذ الميثاق على المتبوع دلالة على أخذه على التابع، وهذا معنى قول ابن عباس، والزجاج.

قوله تعالى: {قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي} [آل عمران: ٨١]، " أي أأقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي؟".

قال محمد بن إسحاق: "أي ثقل ما حملتم من عهدي".

والإصر: العهد. قاله ابن عباس، ومجاهد والربيع بن أنس والسدي، وقتادة.

وقرئ: {أصرى}، بالضم.

قوله تعالى: {قَالُوا أَقْرَرْنَا} [آل عمران: ٨١]، أي: "قالوا: اعترفنا".

قوله تعالى: {قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١]، أي: قال

=

=

الله لهم: "اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم".

قال الزمخشري: "وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: الخطاب للملائكة".

قوله تعالى: {فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ} [آل عمران: ٨٢]، أي: فمن "أعرض ونكث عهده".

قال ابن كثير: "أي: عن هذا العهد والميثاق".

قال الطبري: أي: "فمن أعرَض عن الإيمان برسلي الذين أرسلتهم بتصديق ما كان مع أنبيائي من الكتب والحكمة، وعن نصرتهم، فأدبر ولم يؤمن بذلك، ولم ينصر، ونكث عهدَه وميثاقه، بعد العهد والميثاق الذي أخذَه الله عليه".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: ٨٢]، أي: أولئك هم "الخارجون من دين الله وطاعة ربهم".

قال علي بن أبي طالب-كرّم الله وجهه-: "فمن تولى عنك، يا محمد، بعد هذا العهد من جميع الأمم " فأولئك هم الفاسقون "، هم العاصون في الكفر".

عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت: قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا -قال: فسري عن رسول الله ﷺ وقال: والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين).

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق، وإنه - والله-لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني.

=

أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣).

{أَفَغَيْر دِين الله يَبْغُونَ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء أَيْ المتولون {وله أسلم} إنقاد {من في السماوات وَالْأَرْض طَوْعًا} بِلَا إبَاء {وَكَرْهًا} بِمُعَايَنَةِ مَا يلجئ إليه {وإليه يرجعون} بِالتَّاءِ وَالْيَاء وَالْهَمْزَة فِي أَوَّل الْآيَة لِلْإِنْكَارِ[1].

=

وفي بعض الأحاديث (لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي).

فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، دائما إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لفصل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النوبة إليه، فيكون هو المخصوص به.

(١) قوله تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ} [آل عمران: ٨٣]، أي: أفغير طاعة الله تلتمسون وتريدون".

وقرئ: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ تَبْغُونَ}، على وجه الخطاب.

الدين يطلق على الجزاء وعلى الشرط، يعني على العمل وجزائه.

فمن إطلاقه على الجزاء قول الله تبارك وتعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)} [الانفطار: ١٣ - ١٩].

وقال تعالى في سورة الفاتحة: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)} [الفاتحة: ٤] الدين هنا

=

=

بمعنى الجزاء.

ومن إتيان الدين بمعنى العمل والشريعة قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)} [الكافرون: ٦] وقوله تعالى: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣] أي شريعة. وهنا {أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ} دين الله يعني شريعته التي شرعها لعباده، وأضافها الله لنفسه، بيانًا لأهميتها، وأنها الشريعة العادلة النافعة التي لا يقوم الخلق إلا بها؛ لأنها شريعة الله، فهي أكمل الشرائع. وأضافها لنفسه أيضًا لأنه الذي شرعها. أحيانًا يضاف الدين إلى العامل مثل قوله: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦] أصلها (ولي ديني) فيضاف إلى العامل باعتبار أنه أخذ به وتمسك به، ويضاف إلى الله باعتبار أنه هو الذي شرعه ووضعه لعباده.

وقوله: {يَبْغُونَ} أي يطلبون. وهذا الاستفهام للإنكار والتوبيخ. ينكر على من يطلب غير دين الله ويوبخه. وفيها قراءة "تبغون" (أفغير دين الله تبغون) قراءة سبعية، وعلى هذا يحسن أن نقرأ أحيانًا (أفغير دين الله تبغون) وأحيانًا نقول: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ} إلا إذا كنا بحضرة عوام فلا نقرأ القراءتين وإنما نقرأ عندهم ما يعرفون؛ لأنك لو قرأت عند العامة بالقراءتين لتسلطوا عليك من جهة، ولَانْحَطَّ قدر القرآن في أعينهم من جهة أخرى، ولأجلبوا عليك بالخيل والرجل، وقالوا: ما بقي عليك إلا أن تغير القرآن، ولتحسَّبوا عليك ليلًا ونهارًا. فإذن لا تقرأ بغير ما يعرفون. أما فيما بينك وبين الله فاقرأ هذا أحيانًا، وهذا أحيانًا، بشرط أن تكون متيقنًا لهذه القراءة، لأن هذا كلام الله فلابد أن تتيقن.

قوله تعالى: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [آل عمران: ٨٣]، أي: "ولله أسلم وانقاد وخضع أهل السماوات والأرض طائعين ومكرهين".

والواو هذه للحال، يعني والحال أنه أسلم له من في السموات والأرض طوعًا

=

=

وكرهًا "أسلم" إسلامًا كونيًا ليس إسلامًا شرعيًا؛ لأن الإسلام الشرعي ليس فيه إكراه؛ ولأن الإسلام الشرعي لا يعم من في السماء والأرض بل يعم من في السماء، ولا يعم من في الأرض وقوله: {وَلَهُ أَسْلَمَ} أي انقاد انقيادًا كونيًا، وإنما قال: {وَلَهُ أَسْلَمَ} بعد قوله: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ} لإقامة الحجة على من لم يسلم لله شرعًا ولم يتبع دينه.

كأنما يقال: لقد أسلمت لله كونًا، فيجب أن تسلم له شرعًا؛ لأن الربَّ الذي يدبر الخلق كما يشاء، شاءوا أم كرهوا، هو الذي يجب أن نتمشى على شرعه. فيكون هذا كالدليل لما سبق.

وقوله: {أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، {مَنْ} أتى بمن الدالة على العاقل تغليبًا لجانب العقلاء؛ لأننا لو قسنا من في السموات والأرض لكان الأكثر العقلاء؛ لأن السموات ما من موضع أربعة أصابع إلا وملكٌ قائم لله أو راكع أو ساجد، والسماء واسعة جدًّا، ما يعلم سعتها إلا الله: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات: ٤٧]، السماء الدنيا أوسع بكثير من الأرض، والسماء الثانية أوسع بكثير من السماء الدنيا، وهلُمَّ جرًّا.. كل سماء أوسع مما تحتها.

وقوله: {وَالْأَرْضِ} الأرض مفرد لكن المراد بها الجنس فيشمل الأرضين، والأرضون سبع بظاهر القرآن وصريح السنة. ظاهر القرآن قوله: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: ١٢]، فإن المثلية هنا ليست بالكيفية، وليست بالكمية يعني بالثقل، السماء أعظم من الدنيا، لكنها بالعدد مثلهن في العدد.

وصريح السنة قوله ﷺ: "من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين"، وفي هذا الحديث دليل على أن السبع متطابقة يعني بعضها داخل بعض؛ لأنه يقول طوقه يوم القيامة من سبع أرضين، وهو إنما غصبه

=

=

من الأرض العليا الظاهرة. فتكون الثانية في جوفها، والثالثة في جوف الثانية، وهلم جرا، تكون متطابقة. وبه نعرف أن من قال: إن المراد بالسبع سبع القارات فقد أخطأ؛ لأنها لو كانت سبع قارات فما هي صلة الأرض الثانية والثالثة وما بعدها بالأرض التي حصل فيها الغصب.

وقوله: {طَوْعًا وَكَرْهًا} طوعًا يحتمل أن يكون مصدرًا منصوبًا على أنه صفة لمصدر محذوف، والتقدير إسلامًا طوعًا. ويحتمل أنه مصدر منصوب على الحال مؤول باسم الفاعل. حال من قوله: {أَسْلَمَ مَنْ} يعني التقدير: وله أسلم من في السموات والأرض طائعين ومكرهين.

والطوع ما فعل بالاختيار، والإكراه ما فعل بغير الاختيار.

قال الطبري: أي: "وله خَشع من في السموات والأرض فخضع له بالعبودة، وأقرّ له بإفراد الربوبية، وانقاد له بإخلاص التوحيد والألوهية".

قال المراغي: أي: "وقد خضع لله تعالى وانقاد لحكمه أهل السموات والأرض، ورضوا طائعين مختارين لما يحل بهم من تصاريف أقداره".

قال أبو السعود: "أي طائعين بالنظر واتباعِ الحجةِ وكارهين بالسيف ومعاينةِ ما يلجىء الى الإسلام كنَتْق الجبلِ وإدراكِ الغرقِ والإشرافِ على الموت أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخَّرين كالكفرة فإنهم لايقدرون على الامتناع عما قُضيَ عليهم".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [آل عمران: ٨٣]، ستة أوجه:

أحدها: أن المؤمن أسلم طوعًا والكافر أسلم عند الموت كَرْهًا، وهذا قول قتادة.

والثاني: أنه الإقرار بالعبودية وإن كان فيه من أشرك في العبادة، وهذا قول مجاهد.

والثالث: أنه سجود المؤمن طائعًا وسجود ظل الكافر كرهًا، وهو مروي عن

=

=

مجاهد أيضًا.

والرابع: طوعًا بالرغبة والثواب. وكرهًا بالخوف من السيف، اوهو قول الحسن، ومطر.

والخامس: أن إسلام الكاره حين أخذ منه الميثاق فأقر به، وهذا قول ابن عباس.

والسادس: معناه أنه أسلم بالانقياد والذلة وإن أنكر ألوهته بلسانه، وهو قول عامر الشعبي، والزجاج.

قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران: ٨٣] " أي: إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة، فيجازي كل عاملٍ بعمله".

قال أبو العالية: "يرجعون إليه بعد الحياة".

قال السعدي: أي: "وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل".

قال المراغي: "أي وإليه يرجع من اتخذ غير الإسلام دينا من اليهود والنصارى وسائر الخلق، وحينئذ يجازون بإساءتهم وترك الدين الحق، وفي هذا وعيد وتهديد لهم".

وقرئ: {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، على وجه الخطاب، بناءً على القراءة في (تبغون). يعني هؤلاء الذين هم مسلمون لله سوف يرجعون إلى الله سبحانه وتعالى، وينبئهم بما عملوا، ويحاسبهم على ما أرسل إليهم من الرسل.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة قالوا مثلًا: لو اختلفت القراءة في آية فهل لك أن تقرأ في أولها بقراءة واحدة وفي آخرها بقراءة أخرى.

أ - فمن العلماء من قال: نعم يصح؛ لأن الكل وارد ولكن الراوي أو القارئ الذي رواها هو الذي يبقي على ما روى، أما أنا فمنقول إلي، وقد ثبت أن الرسول ﷺ قرأ أول الآية على هذا الوجه وآخر الآية على هذا الوجه، فلي أن أقرأها

=

قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

=

بالوجهين، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

ب - وبعضهم قال: لا، إذا قرأت بقراءة واحدة لا تقرأ بقراءة الثاني في آخر الآية، فمثلًا في الآية التي معنا: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} يصح، ويكون المراد {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} من في السموات والأرض.

أما في الإعراب فنقول: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ} فيها استفهام يليه حرف عطف، وقد ذكرنا في مثل هذا التركيب للعلماء قولين:

القول الأول: أن الهمزة للاستفهام، وحرف العطف الذي بعدها عاطف لما بعده على مقدر بينه وبين الهمزة يعينه السياق.

والقول الثاني: أن الهمزة للاستفهام، والفاء حرف عطف على ما سبق، لكنها أخرت لتكون الصدارة للاستفهام، وتقدير الكلام على هذا الوجه (فأغير دين الله يبغون)، وهذا الوجه أحسن من الوجه الأول؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير؛ ولأن الأول الذي يحتاج إلى تقدير قد يعييك في بعض الأحيان أن تجد شيئًا تقدره يناسب المقام، مثلًا: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ} [يوسف: ١٠٩]، إذا قلنا إنها معطوف على محذوف قد تقدر أغفلوا فلم يسيروا في الأرض. هنا {أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ} أضلوا فغير دين الله يبغون؛ لأن من بغى غير دين الله فهو ضال.

وقوله: {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} يعني كما أنه له السلطان الكامل عليهم في الدنيا فإنهم أيضًا يرجعون إليه في الآخرة. وتقديم المتعلق يدل على العموم أو يدل على التخصيص؛ لأن المتعلق هو مفعول الفعل، وتقديم المفعول يفيد الحصر يعني يرجعون إلى الله لا إلى غيره، وسوف ينبئهم بما عملوا إذا رجعوا إليه.

مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤).

{قُلْ} لَهُمْ يَا مُحَمَّد {آمَنَّا بِاَللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيل وَإِسْحَاق وَيَعْقُوب وَالْأَسْبَاط} أَوْلَاده {وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبّهمْ لَا نُفَرِّق بَيْن أَحَد مِنْهُمْ} بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيب {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} مُخْلِصُونَ فِي الْعِبَادَة وَنَزَلَ فِيمَنْ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بالكفار.

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥).

{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْر الْإِسْلَام دِينًا فَلَنْ يُقْبَل مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَة مِنْ الْخَاسِرِينَ} لِمَصِيرِهِ إلَى النَّار الْمُؤَبَّدَة عَلَيْهِ(١).

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا} [آل عمران: ٨٤]، أي: "قل لهم، يا محمد آمَنَّا بالله أنه ربنا وإلهنا، آمَنَّا أيضًا بما أنزل علينا من وَحيه وتنزيله".

قال ابن كثير: "يعني: القرآن".

قال عطاء بن يسار: "كان اليهود يجيئون إلى أصحاب النبي ﷺ، فيحدثونهم فيسبحون، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله".

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجود الله، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته.

وحد الضمير في (قل) وجمع في (آمنا): يحتمل: أن يكون هو وأمته مأمورين بذلك، وإنما حذف معطوفه؛ لفهم المعنى، والتقدير: قل يا محمد أنت وأمتك: آمنا بالله، كذا قدره ابن عطية.

ويحتمل: أن المأمور بذلك نبينا وحده، وإنما خوطب بلفظ الجمع؛ تعظيما له.

=

=

قال السعدي: في قوله (قولوا) فيها إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

(وما أنزل علينا) أي: القرآن العظيم، ويشمل السنة لقوله تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة).

قوله تعالى: {وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ} [آل عمران: ٨٤]، أي: "وآمَنَّا أيضًا بما أنزل على إبراهيم خليل الله، وعلى ابنيه إسماعيل وإسحاق، وابن ابنه يعقوب وبما أنزل على الأسباط، وهم ولد يعقوب الاثنا عشر".

قال ابن كثير: "أي: من الصحف والوحي".

{وَالأَسْبَاطِ}: "هم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - هو يعقوب - الاثنى عشر".

قال أبو العالية: "{الأسباط}: هو يوسف وإخوته بنوا يعقوب اثنا عشر رجلا، ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط". وروي عن قتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقال السدي: "وأما الأسباط فهم بنو يعقوب: يوسف، وبنيامين وروبيل، ويهوذا وشمعون، ولاوي، ودان وقهاث".

ولم يبين هنا هذا الذي أنزل إلى إبراهيم، ولكن بين في سورة الأعلى أنه صحف، وأن من جملة ما في تلك الصحف (بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى) وذلك في قوله (إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى).

قال البخاري: الأسباط قبائل بني إسرائيل، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، وهذا اختيار الطبري.

=

=

قوله تعالى: {وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى} [آل عمران: ٨٤]، أي: "وآمَنَّا أيضًا مع ذلك بالذي أنزل الله على موسى وعيسى من الكتب والوَحْي".

قال ابن كثير: "يعني: بذلك التوراة والإنجيل".

أي: من التوراة والإنجيل والآيات كاليد والعصا وكإخراج الموتى بإذن الله، قال تعالى (ثم آتينا موسى الكتاب) وهو التوراة بالإجماع، وذكر ما أوتيه عيسى وهو الإنجيل كما في قوله تعالى (وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل).

قوله تعالى: {وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ} [آل عمران: ٨٤].

أي: ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعا ونصدق بما جاءوا به من عند الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات.

قال ابن كثير: "وهذا يَعُم جميعَ الأنبياء جملة".

قال قتادة: "أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله".

قال سليمان بن حبيب المحاربي: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة ولا نعمل بما فيها".

سؤال: فإن قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟

قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقا في زمانه فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود والنصارى لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز عليه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يده، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق. (مفاتيح الغيب)

قوله تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ} [آل عمران: ٨٤] أي: "لا نكفر ببعض ونؤمن ببعض، بل نؤمن بجميعهم".

فنؤمن على هذا الوجه، فلا نفرق بين أحد منهم في الإيمان بهم، لا في الاتباع، فلا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى.

=

=

قال قتادة: "أمر الله المؤمنين أن لا يفرقوا بين أحد منهم".

قال ابن كثير: "يعني: بل نؤمن بجميعهم".

قال الطبري: أي: "لا نصدّق بعضهم ونكذّب بعضَهم، ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم، كما كفرت اليهود والنصارى ببعض أنبياء الله وصدّقت بعضًا، ولكنا نؤمن بجميعهم، ونصدّقهم".

قال ابن عاشور: ومعنى (لا نفرق بين أحد منهم) أننا لا نعادي الأنبياء، ولا يحملنا حب نبينا على كراهتهم، وهذا تعريض باليهود والنصارى، وحذف المعطوف وتقديره لا نفرق بين أحد وآخر، وتقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة.

وهذه الآية شعار الإسلام وقد قال الله تعالى (وتؤمنون بالكتاب كله).

قوله تعالى: {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٨٤].

أي: منقادون أو مخلصون أنفسنا له تعالى لا نجعل له شريكا فيها، وفيه تعريض بإيمان أهل الكتاب فإنه بمعزل من ذلك.

قال مقاتل: يعني: مخلصين".

قال الطبري: أي: "ونحن ندين لله بالإسلام لا ندين غيره، ونحن له منقادون بالطاعة، متذللون بالعبودة، مقرّون لهُ بالألوهة والربوبية، وأنه لا إله غيره".

قال ابن كثير: "فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم مُصَدِّقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} [آل عمران: ٨٥]، أي: "ومن يطلب دينا غيرَ دين الإسلام ليدين به، فلن يقبل الله منه".

والمراد بالإسلام هنا: الإسلام الخاص الذي جاء به نبينا محمد ﷺ.

قال ابن كثير: "أي: من سلك طريقًا سوى ما شَرَعَه الله فلن يُقْبل منه".

=

=

وفي الاسلام في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن الأسلام هاهنا الاستسلام إلى الله، وتفويض الأمر إليه، وذلك أمر مراد من الناس في كل زمان ومن كل أمة وفي كل شريعة.

قال الراغب: "الدين في اللغة الطاعة وفي التعارف: وضع إلهي ينساق به الناس إلى النعيم الدائم، فبين تعالى أن من تحرى طاعة وانسياقا إلى النعيم من غير الاستسلام له على ما يأمره به. ويصرفه فيه فلن يقبل منه دنيء من أعماله، وهو في الآخرة من الذين خسروا أنفسهم".

والثاني: أن المراد بالإسلام شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، فبين أن من تحرى بعد بعثته شريعة أو طاعة لله من غير متابعته في شريعته فغير مقبول منه.

قال الراغب: "وهذا الوجه داخل في الأول، فمعلوم أن من الاستسلام الانقياد لأوامر من

صحت نبوته وظهر صدقه".

قوله تعالى: {وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: ٨٥]، أي: وهو في الآخرة من "الباخسين أنفسَهم حظوظَها من رحمة الله عز وجل".

والخسران في الآخرة هو حرمان الثواب وحصول العقاب شبه في تضييع زمانه في الدنيا باتباع غير الإسلام بالذي خسر في بضاعته.

قال السمعاني: "وحق لمن يبتغي غير دين الإسلام أن يصبح غدا من الخاسرين".

قال عكرمة: "قوله: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا}، فقالت الملل: نحن مسلمون، فأنزل الله تعالى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا}، فحج المسلمون وقعد الكفار".

مسألة: في تعريف الإسلام.

الإسلام في اللغة:

=

=

قال الخطابي: "السلم بفتح السين واللام: الاستسلام والإذعان كقوله تعالى: {وألقوا إليكم السلم} [النساء: ٩٠] أي الانقياد، وهو مصدر يقع على الواحد والاثنين والجمع".

وقال أبو بكر الرازي: "واستسلم أي انقاد".

والاستسلام لله: الذل والخضوع له.

وقال الإمام أبو بكر الإسماعيلي: "ومنهم من ذهب إلى أن الإسلام مختص بالاستسلام لله والخضوع له والانقياد لحكمه فيما هو مؤمن به".

وقال ابن جرير الطبري: "وكذلك الإسلام وهو الانقياد بالتذلل والخشوع والفعل منه أسلم، بمعنى: دخل في السلم، كما يقال أقحط القوم: إذا دخلوا في القحط، وأربعوا: إذا دخلوا في الربيع، فكذلك أسلموا: إذا دخلوا في السلم، وهو الانقياد بالخضوع، وترك الممانعة، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل قوله: {إن الدين عند الله الإسلام} إن الطاعة التي هي الطاعة عنده الطاعة له، وإقرارا الألسن والقلوب بالعبودية والذلة، وانقيادها له بالطاعة فيما أمر ونهى، وتذللها له بذلك من غير استكبار عليه ولا انحراف عنه دون إشراك غير من خلقه معه في العبودية والألوهية".

* الإسلام في الشرع:

قال قتادة: "الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه، لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به".

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تعريف الإسلام: "هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله".

وقال الشيخ السعدي: "هو الانقياد لله وحده ظاهرا وباطنا بما شرعه على ألسنة

=

=

رسله".

وقال الشيخ ابن عثيمين: "هو استسلام العبد لله ظاهرا وباطنا بفعل أوامره واجتناب نواهيه فيشمل الدين كله".

* الدليل من الكتاب: قال تعالى {ورضيت لكم الإسلام دينا} [المائدة: ٣]، {إن الدين عند الله الإسلام} [آل عمران: ١٩]. {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} [آل عمران: ٨٥].

* الدليل من السنة: روى مسلم عن طاوس أن رجلا قال لعبد الله بن عمر ألا تغزو فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الإسلام بني على خمسة شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت".

* أقوال العلماء:

قال أبو العالية: "الإسلام: الإخلاص لله وحده وعبادته، لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وسائر الفرائض لهذا تبع".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الإسلام الذي هو دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين فيستسلم لله وحده لا شريك له، ويكون سالما له بحيث يكون متألها له غير متأله لما سواه".

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهو أن يجمع معنيين: أحدهما الانقياد والاستسلام، والثاني إخلاص ذلك وإفراده".

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإسلام يقتضي الاستسلام والانقياد والطاعة".

* أحكام وفوائد:

* العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام:

إن اسم الإيمان تارة يذكر مفردا غير مقرون باسم الإسلام. وتارة يذكر مقرونا فمن أمثلة ذكره مقرونا بالإسلام قوله تعالى: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين

=

=

والمؤمنات} [الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا} [الحجرات: ١٤]، وقال تعالى: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} [الذاريات: ٣٥، ٣٦] وقول جبريل عليه السلام في حديث عمر بن الخطاب: "ما الإسلام، وما الإيمان".

ومن أمثلة ذكر الإيمان مفردا قوله تعالى {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: {آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير (٧) وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين} [الحديد: ٧، ٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان".

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

ومن أمثلة ذكر الإسلام مفردا قوله تعالى: {إن الدين عند الله الإسلام} وقوله تعالى: {ورضيت لكم الإسلام دينا}، وقوله: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} [آل عمران: ٨٥]، وقوله: {ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة} [البقرة: ٢٠٨].

والتفريق بين الإسلام والإيمان من المسائل التي وقع فيها الخلاف بين السلف رحمهم الله ولهم فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنهما شيء واحد فلا فرق بين الإسلام والإيمان:

وممن قال بذلك:

=

=

الإمام البخاري حيث بوب في صحيحه فقال: "باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام الإيمان والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي ﷺ له، ثم قال: "جاء جبريل عليه السلام يعلمكم دينكم" فجعل ذلك كله دينا. وما بين النبي ﷺ لوفد عبد القيس من الإيمان وقوله تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} [آل عمران: ٨٥]".

قال ابن حجر: "تقدم أن المصنف يرى أن الإيمان والإسلام عبارة عن معنى واحد فلما كان ظاهر سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام وجوابه يقتضي تغايرهما، وأن الإيمان تصديق بأمور مخصوصة والإسلام إظهار أعمال مخصوصة أراد أن يرد ذلك بالتأويل إلي طريقته، قوله وبيان أي مع بيان الاعتقاد والعمل دين. وقوله وما بين أي مع ما بين للوفد أن الإيمان هو الاسم حيث فسره في قصتهم بما فسر به الإسلام هنا وقوله أي مع ما دلت عليه الآية أن الإسلام هو الدين، ودل عليه خبر أبي سفيان أن الإيمان هو الدين فاقتضى ذلك أن الإسلام والإيمان أمر واحد هذا محصل كلامه".

محمد بن نصر المروزي يرى أن الإيمان هو الإسلام فيقول: "وقالت طائفة وهم الجمهور الأعظم من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث الإيمان الذي دعا الله العباد إليه وافترضه عليهم هو الإسلام الذي جعله الله دينا ارتضاه لعباده ودعاهم إليه".

ونقل عنه شيخ الإسلام أنه قال: "وقد ذكرنا تمام الحجة في أن الإسلام هو الإيمان، وأنهما لا يفترقان ولا يتباينان".

الإمام الحافظ ابن منده حيث بوب لذلك في كتاب الإيمان فقال: "ذكر الأخبار الدالة والبيان الواضح من الكتاب والسنة أن الإيمان والإسلام اسمان لمعنى واحد".

=

=

وإلى هذا الرأي يذهب ابن عبد البر حيث قال: "الذي عليه جماعة أهل الفقه والنظر أن الإيمان والإسلام سواء بدليل ما ذكرنا من كتاب الله عز وجل قوله: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} [الذاريات: ٣٥، ٣٦] وعلى القول بأن الإيمان هو الإسلام جمهور أصحابنا وغيرهم من الشافعية والمالكية وهو قول داود وأصحابه وأكثر أهل السنة والنظر المتبعين للسلف والأثر إلى أن قال والصحيح عندنا ما ذكرت لك".

القول الثاني: إنهما شيئان متغايران مطلقا سواء اجتمعا أو افترقا:

وقال به جماعة من السلف منهم:

١ - الإمام الزهري: حيث يرى: "إن الإسلام الكلمة والإيمان العمل".

ولبيان معنى كلام الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ أنقل ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: "ولما كان كل من أتى بالشهادتين صارا مسلما متميزا عن اليهود والنصارى، تجري عليه أحكام الإسلام؛ كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه، فلهذا قال الزهري: الإسلام الكلمة، وعلى ذلك وافقه أحمد وغيره، وحين وافقه لم يرد أن الإسلام الواجب هو الكلمة وحدها، فإن الزهري أجل من أن يخفى عليه ذلك".

٢ - الإمام أحمد كما ذكره عنه عبد الملك الميموني قال: قلت: لأبي عبد الله تفرق بين الإيمان والإسلام قال: نعم.

وقال ابنه صالح: "سئل أبي عن الإسلام والإيمان. فقال: قال ابن أبي ذئب: الإسلام القول والإيمان العمل فقيل ما تقول أنت؟ قال: الإسلام غير الإيمان".

قال ابن منده: "وقال بهذا القول جماعة من الصحابة والتابعين منهم عبد الله بن عباس والحسن ومحمد بن سيرين وهو مذهب جماعة من أئمة الآثار".

قال ابن عبد البر: "وقد ذهبت طائفة من أهل الحديث إلى أن الإيمان والإسلام معنيان".

=

=

القول الثالث: أن الإسلام والإيمان إذا أطلق أحدهما مفردا شمل الدين كله أصوله وفروعه من اعتقاداته وأقواله وأفعاله. وأما إذا قرن بينهما وذكرا معا فعند ذلك يفترقان فيراد بالإسلام حينئذ الأعمال والأقوال الظاهرة ويراد بالإيمان الاعتقادات الباطنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "... فإذا قيل إن الإسلام والإيمان التام متلازمان لم يلزم أن يكون أحدهما هو الآخر كالروح والبدن فلا يوجد عندنا روح إلا مع البدن، ولا يوجد بدن حي إلا مع الروح وليس أحدهما الآخر فالإيمان كالروح فإنه قائم بالروح ومتصل بالبدن، والإسلام كالبدن ولا يكون البدن حيا إلا مع الروح بمعنى أنهما متلازمان لا أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر".

وقال ابن رجب: "... فإنه يتضح بتقرير أصل وهو أن من الأسماء ما يكون شاملا لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالا على بعض تلك المسميات، والاسم المقرون به دال على باقيها وهذا كاسم الفقير والمسكين فإذا أفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاج فإذا قرن أحدهما بالآخر دل أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات والآخر على باقيها، هكذا اسم الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده، فإذا قورن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ودل الآخر على الباقي وقد صرح بهذا المعنى جماعة من الأئمة قال أبو بكر الإسماعيلي في رسالته إلى أهل الجبل: قال كثير من أهل السنة والجماعة إن الإيمان قول وعمل، والإسلام فعل ما فرض الله على الإنسان أن يفعله إذا ذكر كل اسم على حدته مضموما إلى آخر فقيل: المؤمنون والمسلمون جميعا مفردين أريد بأحدهما معنى لم يرد به الآخر، وإذا ذكر أحد الاسمين شمل الكل وعمهم.

وقد ذكر هذا المعنى أيضا الخطابي في كتابه "معالم السنن" وتبعه عليه جماعة من

=

=

العلماء من بعده، ويدل على صحة ذلك أن النبي ﷺ فسر الإيمان عند ذكره مفردا في حديث وفد عبد القيس بما فسر به الإسلام المقرون بالإيمان في حديث جبريل، وفسر في حديث آخر الإسلام بما فسر به الإيمان كما في مسند الإمام أحمد عن عمرو بن عنبسة قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: "أن تسلم قلبك لله وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك" قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: "الإيمان". قال: وما الإيمان؟ قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت" قال: فأي الأعمال أفضل؟ قال: "الهجرة" قال: فما الهجرة؟ قال: "أن تهجر السوء" قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: "الجهاد". فجعل النبي ﷺ الإيمان أفضل الإسلام وأدخل فيه الأعمال، وبهذا التفصيل يظهر تحقيق القول في مسألة الإيمان والإسلام هل هما واحد أو مختلفان فإن أهل السنة والحديث مختلفون في ذلك وصنفوا في ذلك تصانيف متعددة فمنهم من يدعي أن جمهور أهل السنة على أنهما شيء واحد منهم محمد بن نصر المروزي وابن عبد البر، وقد روي هذا القول عن سفيان الثوري من رواية أيوب بن سويد الرملي عنه وأيوب فيه ضعف ومنهم من يحكي عن أهل السنة التفريق بينهما كأبي بكر بن السمعاني وغيره وقد نقل هذا التفريق بينهما عن كثير من السلف منهم قتادة وداود بن أبي هند وأبو جعفر الباقر والزهري وحماد بن زيد وابن مهدي وشريك وابن أبي ذئب وأحمد ابن حنبل وأبو خيثمة ويحيى بن معين وغيرهم على اختلاف بينهم في صفة التفريق بينهما وكان الحسن وابن سيرين يقولان مسلم ويهابان مؤمن وبهذا التفصيل الذي ذكرناه يزول الاختلاف، فيقال إذا أفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذ وإن قرن بين الاسمين كان بينهما فرق والتحقيق في الفرق بينهما أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته والإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده له وذلك يكون بالعمل وهو الدين كما

=

=

سمى الله في كتابه الإسلام دينا، وفي حديث جبريل سمى النبي ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان دينا، وهذا أيضا مما يدل على أن أحد الاسمين إذا أفرد دخل فيه الآخر وإنما يفرق بينهما حيث قرن أحد الاسمين بالآخر فيكون حينئذ المراد بالإيمان جنس تصديق القلب وبالإسلام جنس العمل وفي المسند للإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال الإسلام علانية والإيمان في القلب وهذا لأن الأعمال تظهر علانية والتصديق في القلب لا يظهر وكان النبي ﷺ يقول في دعائه إذا صلى على الميت اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان لأن الأعمال بالجوارح وإنما يتمكن منه في الحياة.

فأما عند الموت فلا يبقى غير التصديق بالقلب ومن هنا قال المحققون من العلماء كل مؤمن مسلم فإن من حقق الإيمان ورسخ في قلبه قام بأعمال الإسلام كما قال ﷺ: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"، فلا يتحقق القلب بالإيمان إلا وتنبعث الجوارح في أعمال الإسلام وليس كل مسلم مؤمنا، فإنه قد يكون الإيمان ضعيفا فلا يتحقق القلب به تحققا تاما مع عمل جوارحه أعمال الإسلام فيكون مسلما وليس بمؤمن الإيمان التام كما قال تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا} [الحجرات: ١٤] فلم يكونوا منافقين بالكلية على أصح التفسيرين وهو قول ابن عباس وغيره بل كان إيمانهم ضعيفا ويدل عليه قوله تعالى: {وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا}".

وبه تعرف معنى الجملة المشهورة في ذلك: أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

فمتى قرن الإسلام والإيمان كان المراد بالإسلام الأعمال الظاهرة والمراد بالإيمان ما يكون في القلب من التصديق وعمل القلب، وهذا يدل عليه حديث

=

=

جبريل عليه السلام عندما سأل النبي ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا". قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال فأخبرني عن الإيمان قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره". قال: صدقت ... الحديث.

وإن ذكر أحدهما شمل الآخر. وهو ما يدل عليه حديث وفد عبد القيس حيث فسر الإيمان بما فسر به الإسلام في حديث جبريل حيث قال ﷺ لهم: "أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس ... " الحديث.

وقال ابن سعدي: "اعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره.

فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسما لما في القلب من الإقرار والتصديق والإسلام اسما للأعمال الظاهرة".

❊ الإسلام بالمعنى العام والخاص:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا؟ وهو نزاع لفظي، فإن الإسلام الخاص الذي بعث الله به محمدا ﷺ المتضمن لشريعة القرآن - ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا وأما الإسلام العام، المتناول لكل شريعة

=

=

بعث الله بها نبيا من الأنبياء - فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء".

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإسلام بالمعنى العام هو التعبد لله بما شرع منذ أن أرسل الله الرسل إلى أن تقوم الساعة كما ذكر الله عز وجل ذلك في آيات كثيرة تدل على أن الشرائع السابقة كلها إسلام لله عز وجل. قال الله تعالى عن إبرهيم: {ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك} [البقرة: ١٢٨].

والإسلام بالمعنى الخاص بعد بعثة النبي ﷺ يختص بما بعث به محمد ﷺ لأن ما بعث به النبي ﷺ نسخ جميع الأديان السابقة فصار من اتبعه مسلما ومن خالفه ليس بمسلم، فأتباع الرسل مسلمون في زمن رسلهم، فاليهود مسلمون في زمن موسى ﷺ، والنصارى مسلمون في زمن عيسى ﷺ، وأما حين بعث النبي محمد ﷺ فكفروا به فليسوا بمسلمين".

* الإسلام الكوني والشرعي:

قال الشيخ ابن عثيمين: "الإسلام لله تعالى نوعان:

الأول: إسلام كوني وهو الاستسلام لحكمه الكوني وهذ عام لكل من في السماوت والأرض من مؤمن وكافر، وبر وفجر لا يمكن لأحد أن يستكبر عنه.

ودليله قوله تعالى: {وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون} [آل عمران: ٨٣].

الثاني: إسلام شرعي وهو الاستسلام لحكمه الشرعي وهذا خاص بمن قام بطاعته من الرسل وأتباعهم بإحسان، ودليله في القرآن كثير".

* هل الجهاد من أركان الإسلام؟:

عن يزيد بن بشر عن ابن عمر: قال: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان". فقال له رجل: والجهاد في سبيل الله. قال ابن عمر: الجهاد حسن. هكذا حدثنا رسول الله ﷺ.

=

كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦).

{كَيْفَ} أَيْ لَا {يَهْدِي الله قَوْمًا كَفَرُوا بَعْد إيمَانهمْ وَشَهِدُوا} أَيْ شَهَادَتهمْ {أَنَّ الرَّسُول حق و} قد {جَاءَهُمْ الْبَيِّنَات} الْحُجَج الظَّاهِرَات عَلَى صِدْق النَّبِيّ {وَاَلله لَا يَهْدِي الْقَوْم الظَّالِمِينَ} أَيْ الْكَافِرِينَ.

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧).

{أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين}.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨).

{خَالِدِينَ فِيهَا} أَيْ اللَّعْنَة أَوْ النَّار الْمَدْلُول بِهَا عَلَيْهَا {لَا يُخَفَّف عَنْهُمْ الْعَذَاب وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} يُمْهَلُونَ.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩).

{إلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْد ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا} عَمَلهمْ {فَإِنَّ الله غَفُور} لَهُمْ

=

قال الحافظ ابن رجب: "وفي حديث معاذ بن جبل: "إن رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد". وذروة سنامه: أعلى شيء فيه، ولكنه ليس من دعائمه وأركانه التي بني عليها، وذلك لوجهين:

أحدهما: أن الجهاد فرض كفاية عند جمهور العلماء ليس بفرض عين بخلاف هذه الأركان.

والثاني: أن الجهاد لا يستمر فعله إلى آخر الدهر، بل إذا نزل عيسى ﷺ ولم يبق حينئذ ملة إلا ملة الإسلام فحينئذ تضع الحرب أوزارها ويستغة ي عن الجهاد بخلاف هذه الأركان فإنها واجبة على المؤمنين إلى أن يأتي أمر الله وهم على ذلك".

{رَحِيم} بِهِمْ(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه: سلوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إن فلانًا قد ندم، وإنه قد أمرنا أن نسألك: هل له من توبة؟ فنزلت: {كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} إلى {غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٨٩]؛ فأرسل إليه قومه؛ فأسلم.

أخرجه أحمد (١/ ٢٤٧)، والنسائي في المجتبى (٧/ ١٠٧)، وفي الكبرى (١١٠٦٥)، والطبري (٣/ ٣٤٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٩١٤، ٩٢٤)، والطحاوي في مشكل الآثار (٧/ ٣٠٧، رقم ٢٨٦٩)، وابن حبان (٤٤٧٧)، والحاكم (٢/ ١٤٢)، (٤/ ٣٦٦)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٩٧)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٧٥) والحديث صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وصححه ابن دقيق العيد في الإقتراح (١٠٥)، وجود إسناده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٨)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٣٠٦٦)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (ص ٤٥ - ٤٦)، والصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٥٨٥)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤/ ٩٣): صحيح، علي بن عاصم متابع، ومن فوقه ثقات من رجال الصحيح.

وعن السدي؛ قال: أنزلت في الحارث بن سويد الأنصاري، كفر بعد إيمانه؛ فأنزل الله هذه الآيات إلى: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} [البقرة: ٣٩] ثم تاب وأسلم، ونسخها الله عنه؛ فقال: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا} [آل عمران: ٨٩].

=

=

أخرجه ابن جرير في "جامع البيان" (٢/ ٢٤٢) من طريق عمرو بن حماد القناد ثنا أسباط بن نصر عنه به. سنده ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال. والثانيه: أسباط بن نصر؛ ضعيف.

وعن عكرمة؛ قال: نزلت في أبي عامر الراهب والحارث بن سويد بن الصامت ووحوح بن الأسلت في اثني عشر رجلًا رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش، ثم كتبوا إلى أهلهم: هل لنا من توبة؟ فنزلت: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} [آل عمران: ٨٩] الآيات.

أخرجه سنيد في "تفسيره"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧١١) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٣/ ٢٤٢) -: ثني حجاج بن محمد بن نصير عن ابن جريج قال: قال عكرمة فذكره.

وسنده ضعيف جدًا؛ فيه ثلاث علل: الأولى: الإرسال. والثانيه: عنعنة ابن جريج؛ لأنه مدلس.

والثالثة: ضعف سنيد.

وعن مجاهد؛ قال: لحق رجل بأرض الروم؛ فتنصر، ثم كتب إلى قومه: أرسلوا، هل لي من توبة؟ قال: فحسبت أنه آمن ثم رجع.

أخرجه ابن جرير في "جامع البيان" (٢/ ٢٤٢) من طريق سنيد في "تفسيره": ثني حجاج عن ابن جريج: أخبرني عبد الله بن كثير عن مجاهد به. وسنده ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال. والثانية: ضعف سنيد.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن الحارث بن سويد بن الصامت رجع عن الإسلام في عشرة رهط، فلحقوا بمكة، فندم الحارث بن سويد؛ فرجع، حتى إذا كان قريبًا من المدينة؛ أرسل إلى أخيه الجلاس بن سويد: أني ندمت على ما صنعت؛ غسل

=

=

لي رسول الله ﷺ، فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ فهل لي من توبة إن رجعت؟ وإلا؛ ذهبت في الأرض. فأتى الجلاس بن سويد النبي ﷺ؛ فأخبره بخبر الحارث بن سويد وندامته، وقد شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ فهل له من توبة؟ فأنزل الله: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا}؛ فأرسل الجلاس إلى أخيه: أن الله قد عرض عليك التوبة. فأقبل إلى المدينة، واعتذر إلى رسول الله ﷺ وتاب إلى الله من صنيعه، وقبل النبي ﷺ منه.

أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٢/ ٦٤٢، ٦٤٣ رقم ١٧١٨، ص ٧٧ رقم ٢٠٦٨)، وابن منده في "معرفة الصحابة"؛ كما في "أسد الغابة" (١/ ٣٤٦) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. ومن دون ابن عباس كلهم كذابون.

وعن أبي صالح مولى أم هانئ -باذام-: أن الحارث بن سويد بايع رسول الله ﷺ وآمن به، ثم لحق بأهل مكة، وشهد أحدًا، فقاتل المسلمين ثم سقط في يده فرجع إلى مكة؛ فكتب إلى أخيه جلاس بن سويد: يا أخي! إني قد ندمت على ما كان مني فأتوب إلى الله، وأرجع إلى الإسلام؛ فاذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فإن طمعت لي في توبة؛ فاكتب إلي، فذكره لرسول الله ﷺ؛ فأنزل الله: {كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ}، قال: فقال قوم من أصحابه ممن كان عليه: يتمتع ثم يراجع إلى الإسلام؛ فأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)} [آل عمران: ٩٠].

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٤/ ٤٠٠ رقم ١٨٦٢٥): ثنا زيد بن الحباب: ثنا موسى بن عبيدة قال: أخبرني عبد الله بن عبيدة عن أبي صالح مولى أم هانئ به. وسنده تالف؛ مسلسل بالضعفاء والمتروكين، عدا شيخ ابن أبي شيبة.

* قوله تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} [آل عمران: ٨٦]، "أي:

=

=

كيف يستحق الهْداية قوم كفروا بعد إِيمانهم".

واستفهام للتعجيب والتعظيم لكفرهم، أي: كيف يستحق الهداية قوم كفروا بعد إيمانهم.

قال الطبري: أي: "كيف يُرشد الله للصواب ويوفّق للإيمان، قومًا جحدُوا نبوّة محمد ﷺ، بعد تصديقهم إياه وإقرارهم بما جاءَهم به من عند ربه".

قوله تعالى: {وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ} [آل عمران: ٨٦]، أي: بعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمدا رسول الله.

قوله تعالى: {وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [آل عمران: ٨٦]، أي: "وجاءهم الحجج من عند الله والدلائلُ بصحة ذلك".

قال السعدي: لأنهم عرفوا الحق فرفضوه، ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس، وانقلاب القلب جزاء له، إذ عرف الحق فتركه، والباطل فآثره، فولاه الله ما تولى لنفسه.

قال الرازي: اعلم أنه تعالى استعظم كفر القوم من حيث أنه حصل بعد خصال ثلاث:

أحدها: بعد الإيمان.

وثانيها: بعد شهادة كون الرسول حقا.

وثالثها: بعد مجيء البينات، وإذا كان الأمر كذلك كان ذلك الكفر صلاحا بعد البصيرة وبعد إظهار الشهادة، فيكون الكفر بعد هذه الأشياء أقبح لأن مثل هذا الكفر يكون كالمعاندة والجحود، وهذا يدل على أن زلة العالم أقبح من زلة الجاهل.

قوله تعالى: {وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ٨٦]، أي: "والله لا يوفّق للحق والصّواب الجماعة الظَّلَمة".

=

=

والآية تهديد لكل ظالم، وأعظم الظلم الشرك بالله تعالى.

الهداية المنفية هنا هداية التوفيق، أما هداية البيان والإرشاد فهي حاصلة لكل أحد.

قال الشوكاني: وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد اليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده.

وفي قوله تعالى (والله لا يهدي القوم الظالمين) يقال: ظاهر الآية أن من كفر بعد إسلامه لا يهديه الله ومن كان ظالما، لا يهديه الله؛ وقد رأينا كثيرا من المرتدين قد أسلموا وهداهم الله، وكثيرا من الظالمين تابوا عن الظلم.

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن من العام المخصوص، أي: لا يهدي القوم الكافرين الذين سبق في علمه عدم هدايتهم وشقاؤهم شقاء أزليا.

كقوله (إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون (٩٦) ولو جاءتهم كل آية).

وقوله (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون). ونحو ذلك من الآيات. وعلى أن هذه الآية الكريمة من العام المخصوص بآيات أخر فلا إشكال.

القول الثاني: لا يهدي الظالمين ما داموا مصرين على ظلمهم، فإن رزقهم الله التوبة والإنابة زال اسم الظلم عنهم، ولم يدخلوا في عداد الظالمين، فصار لا إشكال في هدايتهم. (الشنقيطي).

قال ابن الجوزي: "وقوله: {كيف يهدي الله قوما كفروا} استفهام في معنى الجحد، أي: لا يهديهم الله. وفيه طرف من التوبيخ، كما يقول الرجل لعبده: كيف أحسن إلى من لا يطيعني. أي: لست أفعل ذلك والمعنى: أنه لا يهدي من عاند بعد أن بان له الصواب. وهذا محكم لا وجه لدخول النسخ عليه وقد زعم قوم منهم السدي أن هذه الآيات منسوخات بقوله: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك}".

=

=

ثم ذكر ابن الجوزي عن السدي: "{كيف يهدي الله قوما كفروا} قال: نزلت في الحارث ثم أسلم فنسخها الله عزوجل فقال: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا}.

قال ابن الجوزي: "وقد بينا فيما تقدم أن الاستثناء ليس بنسخ وإنما هو مبين، أن اللفظ الأول لم يرد به العموم وإنما المراد به من عاند ولم يرجع إلى الحق بعد وضوحه، ويؤكد هذا أن الآيات خبر، والنسخ لا يدخل في الأخبار بحال".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧)} [آل عمران: ٨٧].

أولئك الظالمون جزاؤهم أنَّ عليهم لعنة الله والملائكة والناسِ أجمعين، فهم مطرودون من رحمة الله.

(أولئك) المشار إليهم، الذين كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا أن الرسول حق.

(جزاؤهم أن عليهم لعنة الله) أي: يلعنهم الله، أي: يطردهم من رحمته.

(والملائكة) أي: والملائكة تلعنهم، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(والناس أجمعين) أي: يطلبون من الله أن يلعنهم.

واختلف العلماء بالمراد في الناس هنا:

فقيل: المؤمنون فقط.

وقيل: المراد أغلب الناس.

لكن هذا ضعيف، لأن أغلب الناس كفار كما قال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله).

ولذلك الصحيح أن الكافر يلعن الكافر، ويكون لذلك في الدنيا والآخرة، أما في

=

=

الدنيا، فكون الكافر يلعن الكافر في الدنيا بأن يدعو الكافر مثلا على الظالم، فإذا قال الكافر - مثلا - لعن الله الظالم، دخل هو نفسه في اللعنة، وأما كون الكفار يلعن بعضهم بعضا في الآخرة فهذا واضح من قوله تعالى (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) وكذلك من قوله تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها).

قال ابن كثير: "أي: يلعنهم الله ويلعنهم خلقه".

قال الطبري: أي: "أن يحلّ بهم من الله الإقصاء والبعد، ومن الملائكة والناس الدعاءُ بما يسوؤهم من العقاب من جميعهم... وإنما جعل ذلك جل ثناؤه ثواب عملهم، لأن عملهم كان بالله كفرًا".

قال أبو العالية: "يعني {الناس أجمعين}: المؤمنين، إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون".

وقال السدي: "أما: {لعنة الله والملائكة والناس أجمعين}، فإنه لا يتلاعن اثنان مؤمنان ولا كافران فيقول أحدهما: لعن الله الظالم، إلا وجبت تلك اللعنة على الكافر لأنه ظالم، فكل أحد من الخلق يلعنه".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)} [آل عمران: ٨٨].

ماكثين في النار، لا يُرفع عنهم العذاب قليلا ليستريحوا، ولا يُؤخر عنهم لمعذرة يعتذرون بها.

قوله تعالى (خالدين فيها) الضمير عائد على اللعنة، وقيل: على النار وإن لم تكن ذكرت؛ لأن المعنى يقتضيها.

ورجح الرازي الأول وقال: والأول أولى لوجوه.

الأول: أن الضمير إذا وجد له مذكور متقدم فرده إليه أولى من رده إلى ما لم يذكر.

=

=

الثاني: أن حمل هذا الضمير على اللعنة أكثر فائدة من حمله على النار، لأن اللعنة هو الإبعاد من الثواب بفعل العقاب في الآخرة وإيجاده في الدنيا، فكان اللعن يدخل فيه النار وزيادة فكان حمل اللفظ عليه أولى.

الثالث: أن قوله (خالدين فيها) إخبار عن الحال، وفي حمل الضمير على اللعن يكون ذلك حاصلا في الحال، وفي حمله على النار لا يكون حاصلا في الحال، بل لا بد من التأويل؛ فكان ذلك أولى.

(لا يخفف عنهم العذاب) أي: لا يخفف عنهم طرفة عين. بل هو دائم متواصل.

كما قال تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور)

وقال تعالى (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون).

وقال تعالى (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم).

قال أبو العالية: "يعني في النار، في اللعنة".

قال مقاتل: "في اللعنة مقيمين فيها".

قال ابن كثير: أي: في اللعنة".

قوله تعالى: {لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ} [آلأ عمران: ٨٨]، " أي: لا يُفتَّر عنهم العذاب ولا يُخَفَّف عنهم".

قال الطبري: "لا ينقصون من العذاب شيئًا في حال من الأحوال، ولا ينفَّسون فيه".

قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} [آلأ عمران: ٨٨]، أي: "ولا هم ينظرون لمعذرة يعتذرون".

=

=

قال مقاتل: "يعني لا يناظر بهم العذاب".

فلا يمهلون أو يؤجلون، بل يكون حاضرا متصلا بعذاب مثله فكأنه تعالى أعلمنا أن حكم دار العذاب والثواب بخلاف حكم الدنيا فإنهم يمهلون فيها إلى آجال قدرها الله تعالى، وفي الآخرة لا مهلة ألبتة فإذا استمهلوا لا يمهلون، وإذا استغاثوا لا يغاثون وإذا استعتبوا لا يعتبون، وقيل لهم (اخسئوا فيها ولا تكلمون).

وقيل: هو من النظر أي: لا ينظر الله إليهم فيرحمهم.

قال الماوردي: (ولا هم ينظرون) يحتمل وجهين:

أحدهما: لا يؤخرون عنه ولا يمهلون.

والثاني: لا ينظر الله عز وجل إليهم فيرحمهم.

قال الطبري: "وذلك كله عَينُ الخلود في العقوبة في الآخرة".

قال أبو العالية: "هو كقوله: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: ٣٥ - ٣٦]".

قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} [آل عمران: ٨٩]، أي: "إلا الذين تابوا من بعد ارتدادهم عن إيمانهم".

فأصلحوا ما كانوا أفسدوه، وغروا به من تبعهم ممن لا علم له.

قال ابن عطية: والإصلاح عام في القول والعمل.

قال الطبري: "فراجعوا الإيمان بالله وبرسوله، وصدّقوا بما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند ربهم".

قوله تعالى: {وَأَصْلَحُوا} [آل عمران: ٨٩]، أي: "وأصلح ما أفسد من عمله".

قال مقاتل: "{وأصلحوا} في العمل فيما بقي".

قال الطبري: أي: "وعملوا الصالحات من الأعمال".

قوله تعالى: {فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٨٩]، أي: فإن الله" متفضل عليه

=

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠).

وَنَزَلَ فِي الْيَهُود {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} بِعِيسَى {بَعْد إيمَانهمْ} بِمُوسَى {ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا} بِمُحَمَّدٍ {لَنْ تُقْبَل تَوْبَتهمْ} إذَا غَرْغَرُوا أَوْ مَاتُوا كفارا {وأولئك هم الضالون.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١).

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّار فَلَنْ يُقْبَل مِنْ أَحَدهمْ مِلْء الْأَرْض} مِقْدَار مَا يَمْلَؤُهَا {ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ} أَدْخَلَ الْفَاء فِي خَبَر إنَّ لِشَبَهِ الَّذِينَ بِالشَّرْطِ وَإِيذَانًا بِتَسَبُّبِ عَدَم الْقَبُول عَنْ الْمَوْت عَلَى الْكُفْر {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} مَانِعِينَ مِنْهُ[1].

=

بالرحمة والغفران".

قال الطبري: أي: إن الله" {غفور}: ساتر عليه ذنبه الذي كان منه من الرّدّة، فتاركٌ عقوبته عليه، وفضيحته به يوم القيامة، غيرُ مؤاخذه به إذا مَات على التوبة منه، {رحيم}: متعطِّف عليه بالرحمة".

قال ابن كثير: (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه: أنه من تاب إليه تاب عليه.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} [آل عمران: ٩٠]، أي: إن الذين ارتدوا عن الإسلام إلى الكفر".

يقول تعالى متوعدا ومتهددا لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرا، أي: استمر عليه إلى الممات، ومخبرا بأنه لا يقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال تعالى (وليست

=

=

التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم.

قال الطبري: أي: "إن الذين كفروا من اليهود بمحمد ﷺ عند مَبعثه، بعد إيمانهم به قبل مبعثه".

قوله تعالى: {ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا} [آل عمران: ٩٠]، " أي: استمروا على الكفر إلى الممات".

قال ابن أبي زمنين: "أي: ماتوا على كفرهم".

قال السمرقندي: "أي ثبتوا على كفرهم بقولهم: نقيم بمكة ما بدا لنا".

قال السعدي: أي: "ثم ازداد كفرا إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى".

قوله تعالى: {لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [آل عمران: ٩٠]، " أي: لا تقبل منهم توبة ما أقاموا على الكفر".

قال السعدي: "أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة} {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} فالسيئات ينتج بعضها بعضا، وخصوصا لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة".

ولأهل التفسير في قوله تعالى: {لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [آل عمران: ٩٠]، وجهان:

احدهما: لأنهم: تابوا من بعض ولم يتوبوا من الأصل. وهذا قول أبي العالية.

والثاني: أنهم ازدادوا كفرا حين حضرهم الموت، فـ {لن تقبل توبتهم} حين حضرهم الموت. وهذا قول قتادة، وعطاء، والحسن.

قال القاسمي: "وقد أشكل على كثير قوله تعالى لن تقبل توبتهم مع أن التوبة عند

=

=

الجمهور مقبولة كما في الآية قبلها، وقوله سبحانه: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده} [الشورى: ٢٥]، وغير ذلك.

فأجابوا: بأن المراد عند حضور الموت. قال الواحدي في (الوجيز): «لن تقبل توبتهم لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت، وتلك التوبة لا تقبل» - انتهى-، أي كما قال تعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت} [النساء: ١٨]، الآية. وقيل عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم أي لا يتوبون، كقوله: {أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون} [البقرة: ٦]. وإنما كنى بذلك تغليظا في شأنهم وإبرازا لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة، وقيل: لأنهم توبتهم لا تكون إلا نفاقا لارتدادهم وازديادهم كفرا. وبقي للمفسرين وجوه أخرى، هي في لتأويل أبعد مما ذكر. ولا أرى هذه الآية إلا كآية النساء: {إن الذين آمنوا ثم كفروا} إلخ. وكلاهما مما يدل صراحة على أن من تكررت ردته لا تقبل توبته، وإلى هذا ذهب إسحاق وأحمد كما قدمنا، وذلك لرسوخه في الكفر".

قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ} [آل عمران: ٩٠]، أي: وأولئك هم" الخارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي".

قال الطبري: أي: "هم الذين ضلوا سبيل الحقّ فأخطأوا منهجه، وتركوا نِصْف السبيل وهُدَى الدين، حَيرةً منهم، وعَمىً عنه".

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على اقوال:

أحدها: أن المراد: {إن الذين كفروا} ببعض أنبيائه الذين بعثوا قبل محمد ﷺ، {بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا} بكفرهم بمحمد، {لن تقبل توبتهم}، عند حُضور الموت وحَشرجته بنفسه. وهذا قول الحسن، وقتادة.

والثاني: أن المعنى: إن الذين كفروا من أهل الكتاب بمحمد، بعد إيمانهم بأنبيائهم، {ثم ازدادوا كفرًا}، يعني: ذنوبًا، {لن تقبل توبتهم}، من ذنوبهم، وهم

=

=

على الكفر مقيمون. قاله أبو العالية.

والثالث: أن معنى ذلك: إن الذين كفروا بعد إيمانهم بأنبيائهم، {ثم ازدادوا كفرًا}، يعني: بزيادتهم الكفر: تمامُهم عليه، حتى هلكوا وهم عليه مقيمون، {لن تقبل توبتهم}، لن تنفعهم توبتهم الأولى وإيمانهم، لكفرهم الآخِر وموتهم. وهذا قول عكرمة.

والرابع: أن معنى قوله: {ثم ازدادوا كفرًا}، ماتوا كفارًا، فكان ذلك هو زيادتهم من كفرهم. وقالوا: معنى {لن تقبل توبتهم}، لن تقبل توبتهم عند موتهم. وهذا قول السدي.

والراجح: أنه عنى بها اليهود، لأن الآيات قبلها وبعدها فيهم نزلت، فأولى أن تكون هي في معنى ما قبلها وبعدها، إذ كانت في سياق واحد، ومعنى الآية: "إن الذين كفروا من اليهود بمحمد ﷺ عند مَبعثه، بعد إيمانهم به قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفرًا بما أصَابوا من الذنوب في كفرهم ومُقامهم على ضلالتهم، لن تقبل توبتهم من ذنوبهم التي أصابوها في كفرهم، حتى يتوبوا من كفرهم بمحمد ﷺ، ويراجعوا التوبة منه بتصديقه بما جاء به من عند الله".

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ} [آل عمران: ٩١]، أي: إن الذين" كفروا ثم ماتوا على الكفر ولم يتوبوا".

قال الحسن: "هو كل كافر".

قال ابن كثير: "أي: من مات على الكفر".

قال الطبري: "أي: جحدوا نبوة محمد ﷺ ولم يصدقوا به وبما جاء به من عند الله من أهل كل ملة، يهودها ونصاراها ومجوسها وغيرهم،: وماتوا على ذلك من جحود نبوته وجحود ما جاء به".

قوله تعالى: {فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} [آل عمران:

=

٩١]، " أي: لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا".
قال ابن كثير: "أي: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قُرْبة، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جُدْعان - وكان يُقْرِي الضيفَ، ويَفُكُّ العاني، ويُطعم الطعام -: هل ينفعه ذلك؟ فقال: "لا إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِن الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لي خَطِيئَتِي يوم الدِّينِ"".
قال الطبري: ": فلن يقبل ممن كان بهذه الصفة في الآخرة جَزَاءٌ ولا رِشْوةٌ على ترك عقوبته على كفره، ولا جُعْلٌ على العفو عنه ولو كان له من الذهب قدرُ ما يملأ الأرضَ من مشرقها إلى مغربها، فرَشَا وَجزَى على ترك عقوبته وفي العفو عنه على كفره عوضًا مما الله مُحلٌّ به من عذابه. لأنّ الرُّشا إنما يقبلها من كان ذَا حاجة إلى ما رُشى. فأما من له الدنيا والآخرة، فكيف يقبل الفدية، وهو خلاق كل فدية افتدَى بها مفتدٍ منْ نفسه أو غيره؟".
روي عن أنس بن مالك: "أن نبي الله ﷺ كان يقول: يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيتَ لو كان لك ملءُ الأرض ذهبًا، أكنت مفتديًا به؟ فيقول: نعم! قال فيقال: لقد سُئلت ما هو أيسرُ من ذلك! فذلك قوله: {إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كفارٌ فلن يُقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهبًا ولو افتدى به}".
قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: ٩١]، أي: هؤلاء لهم عند الله في الآخرة عذابٌ موجع".
قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران: ٩١]، " أي ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه".
قال الطبري: "وما لهم من قريب ولا حميم ولا صديق ينصره، فيستنقذه من الله ومن عذابه كما كانوا ينصرونه في الدنيا على من حاول أذَاه ومكروهه".
قال ابن كثير: "أي: وما لهم من أحد يُنْقِذهم من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم

=

عقابه".

فمن مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربة،

كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان -وكان يقري الضيف، ويفك العاني، ويطعم الطعام-: هل ينفعه ذلك؟ فقال: لا إنه لم يقل يوما من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

قال النووي: معنى الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة، لكونه كافرا، وهو معنى قوله ﷺ: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين، أي لم يكن مصدقا بالبعث، ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل.

قال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب).

وقال تعالى (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). فعلق حبوط العمل بموته على الكفر.

وقال تعالى (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين). وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضا ذهبا ما قبل منه.

كما قال تعالى (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة).

وقال تعالى (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة). وقال تعالى (لا بيع فيه ولا خلال).

وقال (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم).

مسألة: الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما).

=

=

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: هذه الآية الكريمة تدل على أن المرتدين بعد إيمانهم، المزدادين كفرًا، لا يقبل الله توبتهم إذا تابوا؛ لأنه عبر بـ "لن" الدالة على نفي الفعل في المستقبل.

مع أنه جاءت آيات أخر دالة على أن الله يقبل توبة كل تائب قبل حضور الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها، كقوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال/ ٣٨]، وقوله: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [الشورى/ ٢٥]، وقوله: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ} [الأنعام/ ١٥٨]، فإنه يدل بمفهومه على أن التوبة قبل إتيان بعض الآيات مقبولة من كل تائب.

وصرح تعالى بدخول المرتدين في قبول التوبة قبل هذه الآية مباشرة في قوله تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ} إلى قوله: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)} [آل عمران/ ٨٦ - ٨٩]، فالاستثناء في قوله: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا} راجع إلى المرتدين بعد الإيمان، المستحقين للعذاب واللعنة إن لم يتوبوا.

ويدل له -أيضًا- قوله تعالى: {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ} الآية [البقرة/ ٢١٧]؛ لأن مفهومه أنه إنْ تاب قبل الموت قبلت توبته مطلقًا.

والجواب من أربعة أوجه:

الأول -وهو اختيار ابن جرير ونقله عن رفيع أبي العالية-: أن المعنى: أن الذين كفروا من اليهود بمحمد ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفرًا بما أصابوا من الذنوب في كفرهم، لن تقبل توبتهم من ذنوبهم التي أصابوها في كفرهم حتى يتوبوا من كفرهم.

ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ}؛ لأنه يدل على أن توبتهم

=

=

مع بقائهم على ارتكاب الضلال، وعدمُ قبولها حينئذ ظاهرٌ.

الثاني -وهو أقربها عندي-: أن قوله تعالى: {لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} يعني: إذا تابوا عند حضور الموت.

ويدل لهذا الوجه أمران:

الأول: أنه تعالى بين في مواضع أخر أن الكافر الذي لا تقبل توبته هو الذي يصر على الكفر حتى يحضره الموت فيتوب في ذلك الوقت، كقوله تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ} [النساء/ ١٨]، فجعل التائب عند حضور الموت والميت على كفره سواء، وقوله تعالى: {فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} الآية [غافر/ ٨٥]، وقوله في فرعون: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)} [يونس/ ٩١].

فالإطلاق الذي في هذه الآية يقيَّد بقيدِ تأخير التوبة إلى حضور الموت؛ لوجوب حمل المطلق على المقيد، كما تقرر في الأصول.

والثاني: أنه تعالى أشار إلى ذلك بقوله: {ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا}، فإنه يدل على عدم توبتهم في وقت نفعها.

ونقل ابن جرير هذا الوجه الثاني -الذي هو التقييد بحضور الموت- عن الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي.

الثالث: أن معنى {لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} أي: إيمانهم الأول؛ لبطلانه بالردة بعده.

ونقل ابن جرير هذا القول عن ابن جريج. ولا يخفى ضعف هذا القول وبعده عن ظاهر القرآن.

الرابع: أن المراد بقوله: {لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}: أنهم لم يوفقوا للتوبة النصوح حتى تقبل منهم.

=

=

ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧)} [النساء/ ١٣٧]، فإن قوله تعالى: {وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧)} يدل على أن عدم غفرانه لهم لعدم توفيقهم للتوبة والهدى، كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ} [النساء/ ١٦٨ - ١٦٩]، وكقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦)} الآية [يونس/ ٩٦].

ونظير الآية على هذا القول قوله تعالى: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)} [المدثر/ ٤٨] أي: لا شفاعة لهم أصلًا حتى تنفعهم، وقوله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} الآية [المؤمنون/ ١١٧]؛ لأن الإله الآخر لا يمكن وجوده أصلًا، حتى يقوم عليه برهان أو لا يقوم عليه.

قال مقيده -عفا الله عنه-: مثل هذا الوجه الأخير هو المعروف عند النُّظَّار بقولهم: السالبة لا تقضي بوجود الموضوع.

وإيضاحه: أن القضية السالبة عندهم صادقة في صورتين؛ لأن المقصود منها عدم اتصاف الموضوع بالمحول، وعدم اتصافه به يتحقق في صورتين:

الأولى: أن يكون الموضوع موجودًا، إلا أن المحمول منتفٍ عنه، كقولك: ليس الإنسان بحجر، فالإنسان موجود والحجرية منتفيةٌ عنه.

والثانية: أن يكون الموضوع من أصله معدومًا؛ لأنه إذا عدم تحقق عدم اتصافه بالمحمول الوجودي، لأن العدم لا يتصف بالوجود، كقولك: لا نظير لله يستحق العبادة. فإن الموضوع -الذي هو النظير لله- مستحيل من أصله، وإذا تحقق عدمه تحقق انتفاء اتصافه باستحقاق العبادة ضرورةً.

وهذا النوع من أساليب اللغة العربية، ومن شواهده قول امرئ القيس:

=

=

علـى لاحـبٍ لا يهتـدى بمنـاره إذا سَـافَهُ العَـوْدُ النَّبَـاطِيُّ جرجـرا

لأن المعنى: على لاحبٍ لا منار له أصلًا حتى يهتدى به.

وقول الآخر:

لا تُفْـزِعُ الأرنـبَ أهوالُهـا ولا تـرى الـضبَّ بهـا يَنْجَحِـر

لأنه يصف فلاةً بأنها ليس فيها أرانب ولا ضباب حتى تفزع أهوالُها الأرنبَ، أو ينجحر فيها الضب، أي: يدخل الجحر أو يتخذه.

وقد أوضحت مسألة أنَّ السالبة لا تقتضي وجود الموضوع في أرجوزتي في المنطق في مبحث انحراف السور، وأوضحت فيها -أيضًا- في مبحث التحصيل والعدول: أن من الموجبات ما لا يقتضي وجود الموضوع، نحو: بحر من زئبق ممكن، والمستحيل معدوم. فإنها موجبتان، وموضوع كل منهما معدوم. وحررنا هناك التفصيل فيما يقتضي وجود الموضوع وما لا يقتضيه.

وهذا الذي قررنا من أن المرتد إذا تاب قبلت توبته، ولو بعد تكرر الردة ثلاث مرات أو أكثر = لا منافاة بينه وبين ما قاله جماعة من العلماء الأربعة وغيرهم، وهو مروي عن عليٍّ وابن عباس: من أن المرتد إذا تكرر منه ذلك يقتل ولا تقبل توبته، واستدل بعضهم على ذلك بهذه الآية؛ لأن هذا الخلاف في تحقيق المناط [لا في نفس المناط، والمتناظران قد يختلفان في تحقيق المناط] [*] مع اتفاقهما على أصل المناط.

وإيضاحه: أن المناط مكان النوط، وهو التعليق. ومنه قول حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وأنـت زنـيمٌ نِـيطَ في آل هاشـمٍ كما نيط خلف الراكبِ القدحُ الفردُ

والمراد به: مكان تعليق الحكم، وهو العلة، فالمناط والعلة مترادفان اصطلاحًا، إلا أنه غلب التعبير بلفظ المناط في المسلك الخامس من مسالك العلة، الذي هو

=

=

المناسبة والاخالة، فإنه يسمى تخريج المناط، وكذلك في المسلك التاسع الذي هو تنقيح المناط.

فتخريج المناط هو: استخراج العلة بمسلك المناسبة والإخالة. وتنقيح المناط هو: تصفية العلة وتهذيبها حتى لا يخرج شيء صالح لها، ولا يدخل شيء غير صالح لها، كما هو معلوم في محله.

وأما تحقيق المناط -وهو الغرض هنا- فهو: أن يكون مناط الحكم متفقًا عليه بين الخصمين، إلا أن أحدهما يقول: هو موجود في هذا الفرع، والثاني يقول: لا. ومثاله: الاختلاف في قطع النباش، فإن أبا حنيفة -رحمه الله تعالى- يوافق الجمهور على أن السرقة هي مناط القطع، ولكنه يقول: لم يتحقق المناط في النباش؛ لأنه غير سارق، بل هو آخذ مال عارض للضياع كالملتقط من غير حرز.

فإذا حققت ذلك، فاعلم أن مراد القائلين أنه لا تقبل توبته: أن أفعاله دالة على خبث نيته وفساد عقيدته، وأنه ليس تائبًا في الباطن توبة نصوحًا، فهم موافقون على أنَّ التوبة النصوح مناط القبول كما ذكرنا، ولكن يقولون: أفعال هذا الخبيث دلت على عدم تحقيق المناط.

ومن هنا اختلف العلماء في توبة الزنديق، أعني: المستسر بالكفر، فمن قائل: لا تقبل توبته، ومن قائل: تقبل، ومن مفرق بين إتيانه تائبًا قبل الاطلاع عليه وبين الاطلاع على نفاقه قبل التوبة، كما هو معروف في فروع مذاهب الأئمة الأربعة؛ لأن الذين يقولون: "يقتل ولا تقبل توبته" يرون أن نفاقه الباطن دليل على أن توبته تَقِيَّةٌ لا حقيقة، واستدلوا بقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا} [البقرة/ ١٦٠]، فقالوا: الإصلاح شرط، والزنديق لا يُطَّلع على إصلاحه؛ لأن الفساد إنما أتى مما أسره، فإذا اطلع عليه وأظهر الإقلاع لم يزل في الباطن على ما كان عليه.

والذي يظهر أن أدلة القائلين بقبول توبته مطلقًا أظهر وأقوى، كقوله ﷺ لأسامة

=

=

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "هلا شققت عن قلبه"، وقوله للذي سارَّه في قتل رجل: "أليس يصلي؟" قال: بلى. قال: "أولئك الذين نهيت عن قتلهم"، وقوله لخالد لما استأذنه في قتل الذي أنكر القسمة: "إني لم أومر بأن أنقب عن قلوب الناس". وهذه الأحاديث في الصحيح. ويدل لذلك -أيضًا- إجماعهم على أن أحكام الدنيا على الظاهر، والله يتولى السرائر.

وقد نص تعالى على أن الأيمان الكاذبة جُنَّةٌ للمنافقين في الأحكام الدنيوية بقوله: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً} [المجادلة/ ١٦]، وقوله: {سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ} [التوبة/ ٩٥]، وقوله: {وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ} الآية [التوبة/ ٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وما استدل به بعضهم من قتل ابن مسعود لابن النواحة صاحب مسيلمة، فيجاب عنه بأنه قتله لقول النبي ﷺ حين جاءه رسولًا لمسيلمة: "لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك". فقتله ابن مسعود تحقيقًا لقوله ﷺ، فقد روي أنه قتله لذلك.

فإن قيل: هذه الآية الدالة على عدم قبول توبتهم أخص من غيرها؛ لأن فيها القيد بالردة وازدياد الكفر، فالذي تكررت منه الردة أخص من مطلق المرتد، والدليل على الأعم ليس دليلًا على الأخص؛ لأن وجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص.

فالجواب: أن القرآن دل على قبول توبة من تكرر منه الكفر إذا أخلص في الإنابة إلى الله.

ووجه دلالة القرآن على ذلك أنه تعالى قال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧)} [النساء/ ١٣٧]، ثم بين أن المنافقين داخلون فيهم بقوله تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨)} الآية [النساء/ ١٣٨].

=

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢).

{لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ} أَيْ ثَوَابه وَهُوَ الْجَنَّة {حَتَّى تُنْفِقُوا} تَصَدَّقُوا {مِمَّا تُحِبُّونَ}

=

ودلالة الاقتران وإن ضعفها الأصوليين فقد صححتها جماعة من المحققين، ولا سيما إذا اعتضدت بدلالة القرينة عليها، كما هنا؛ لأن قوله تعالى: {لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨)} فيه الدلالة الواضحة على دخولهم في المراد بالآية، بل كونُها في خصوصهم قال به جماعةٌ من العلماء.

فإذا حققت ذلك، فاعلم أن الله تعالى نص على أن من أخلص التوبة من المنافقين تاب الله عليه، بقوله: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)} [النساء/ ١٤٥ - ١٤٧].

وقد كان مخشي بن حمير رضي الله عنه من المنافقين الذين أنزل الله فيهم قوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة/ ٦٥ - ٦٦] فتاب إلى الله بإخلاص، فتاب الله عليه، وأنزل الله فيه: {إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً} الآية [التوبة/ ٦٦].

فتحصَّل أن القائلين بعدم قبول توبة من تكررت منه الردة، يعنون الأحكام الدنيوية، ولا يخالفون في أنه إذا أخلص التوبة إلى الله قبلها منه؛ لأن اختلافهم في تحقيق المناط كما تقدم. والعلم عند الله تعالى.

مِنْ أَمْوَالِكُمْ {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ} فَيُجَازِي عَلَيْهِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢]، " أي: لن تكونوا من الأبرار ولن تدركوا الجنة حتى تنفقوا من أفضل أموالكم".

قال الطبري: أي: "لن تنالوا -أيها المؤمنون- جنة ربكم، حتّى تتصدقوا مما تحبون من نفيس أموالكم".

قال الحسن: يعني: "من المال".

قال قتادة: "يقول: لن تنالوا برَّ ربكم حتى تنفقوا مما يعجبكم، ومما تهوَوْن من أموالكم".

وفي تفسير {البرّ} [آل عمران: ٩٢]، أقوال:

أحدها: أنه الجنة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعمر بن ميمون، والسدّي.

والثاني: انه الطاعة. قاله عطاء.

والثالث: أنه الخير. قاله أبو روق.

والرابع: انه التقوى. قاله مقاتل بن سليمان.

والخامس: ان المعنى: لن تكونوا أبرارا. قاله الحسن.

قال الطبري: "قال كثير من أهل التأويل {البر}: الجنة، لأن بر الربّ بعبده في الآخرة، إكرامه إياه بإدخاله الجنة".

ومعنى الآية: لن تنالوا حقيقة البر، ولن تبلغوا ثوابه الجزيل الذي يوصلكم إلى رضا الله، وإلى جنته التي أعدها لعباده الصالحين، إلا إذا بذلتم مما تحبونه وتؤثرونه من الأموال وغيرها في سبيل الله، وما تنفقوا من شيء- ولو قليلا- فإن الله به عليم، وسيجازيكم عليه بأكثر مما أنفقتم وبذلتم.

أي: لن تنالوا وتدركوا وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة (حتى تنفقوا مما تحبون) أي: من أموالكم =

=

النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم. (تفسير السعدي).

قال السعدي: فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورقتها.

أ- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس فلما أنزلت هذه الآية (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وإن أحب أموالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله قال، فقال رسول الله ﷺ بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه) متفق عليه.

ب-وعن ابن عمر قال (أصاب عمر أرضا بخيبر فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها فقال يا رسول الله إني أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط هو أنفس عندي منه فما تأمرني به قال «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها» قال فتصدق بها عمر أنه لا يباع أصلها ولا يبتاع ولا يورث ولا يوهب. قال فتصدق عمر في الفقراء وفى القربى وفى الرقاب وفى سبيل الله وابن السبيل والضيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقا غير متمول فيه. قال فحدثت بهذا الحديث محمدا فلما بلغت هذا المكان غير متمول فيه. قال محمد غير متأثل مالا. قال ابن عون وأنبأني من قرأ هذا الكتاب أن فيه غير متأثل مالا) متفق عليه

=

=

ج- وعن أبى ذر قال (قلت يا رسول الله أي الأعمال أفضل قال «الإيمان بالله والجهاد في سبيله». قال قلت أي الرقاب أفضل قال «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنا ...) رواه مسلم.

د- كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه إلى ربه امتثالا لقوله تعالى (لن تنالوا البر ...).

هـ- قال القرطبي: وكذلك فعل زيد بن حارثة، عمد مما يحب إلى فرس له يقال له «سبل» وقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إلى من فرسي هذه، فجاء بها إلى النبي ﷺ.

و- واشترى ابن عمر جارية أعجبته فأعتقها فقيل له: لم أعتقتها ولم تصب منها؟ فقال (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ز- وأعتق ابن عمر نافعا مولاه، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار، قالت صفية بنت أبي عبيد: أظنه تأول قول الله عز وجل (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون).

ك- وكان الربيع بن خثيم إذا جاءه السائل يقول لمولاته: يا فلانة أعطي السائل سكرا، فإن الربيع يحب السكر.

ط- وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدالا من سكر ويتصدق بها، فقيل له: هلا تصدقت بقيمتها؟ فقال: لأن السكر أحب إلي فأردت أن أنفق مما أحب.

وقال الحسن: إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تدركوا ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون.

قوله تعالى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٩٢]، أي: "ومهما تنفقوا من شيء صغير أو كبير فتتصدقوا به من أموالكم، فإن الله ذو علم بذلك كله، فيجازي صاحبه عليه في الآخرة".

=

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣).

وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ الْيَهُود إِنَّك تَزْعُم أَنَّك عَلَى مِلَّة إِبْرَاهِيم وَكَانَ لَا يَأْكُل لُحُوم الْإِبِل وَأَلْبَانهَا {كُلّ الطَّعَام كَانَ حِلًّا} حَلَالًا {لِبَنِي إِسْرَائِيل إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيل} يَعْقُوب {عَلَى نَفْسه} وَهُوَ الْإِبِل لَمَّا حَصَلَ لَهُ عِرْق النَّسَا بِالْفَتْحِ وَالْقَصْر فَنَذَرَ إنْ شُفِيَ لَا يَأْكُلهَا فَحُرِّمَ عَلَيْهِ {مِنْ قَبْل أَنْ تُنَزَّل التَّوْرَاة} وَذَلِكَ بَعْد إبْرَاهِيم وَلَمْ تَكُنْ عَلَى عَهْده حَرَامًا كَمَا زَعَمُوا {قُلْ} لَهُمْ {فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا} لِيَتَبَيَّن صِدْق قَوْلكُمْ {إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِيهِ فَبُهِتُوا وَلَمْ يَأْتُوا بِهَا قال تعالى.

فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤).

{فَمَنْ افْتَرَى عَلَى الله الْكَذِب مِنْ بَعْد ذَلِكَ} أَيْ ظُهُور الْحُجَّة بِأَنَّ التَّحْرِيم إنَّمَا كَانَ مِنْ جِهَة يَعْقُوب لَا عَلَى عَهْد إبْرَاهِيم {فَأُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ} الْمُتَجَاوِزُونَ الْحَقّ إلَى الباطل.

=

قال قتادة: "يقول: محفوظٌ لكم ذلك، اللهُ به عليمٌ شاكرٌ له".

قال مقاتل بن سليمان: "يعنى: عالم به، يعنى: بنياتكم".

قال الثعلبي: "أي فإنّ الله يجازي عليه لأنّه إذا علمه جازى عليه".

قال السعدي: ولما كان الإنفاق على أي: وجه كان مثابا عليه العبد، سواء كان قليلا أو كثيرا، محبوبا للنفس أم لا وكان قوله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احترز تعالى عن هذا الوهم بقوله (وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم) فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه على حسب نياتكم ونفعه.

قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥).

{قُلْ صَدَقَ الله} فِي هَذَا كَجَمِيعِ مَا أَخْبَرَ بِهِ {فَاتَّبِعُوا مِلَّة إِبْرَاهِيم} الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا {حَنِيفًا} مَائِلًا عَنْ كُلّ دِين إِلَى الْإِسْلَام {وما كان من المشركين}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان إسرائيل أخذه عرق النساء، فكان يبيت له زقاء؛ فجعل لله عليه إن شفاه: ألا يأكل العروق؛ فأنزل الله -تعالى-: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ} قال سفيان: له زقاء: صياح.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٤)، والبيهقي في "الكبرى" (١٠/ ٨) -، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (ص ٣٩٧ رقم ٩٥٣ - آل عمران)، والحاكم (٢/ ٢٩٢) - وعنه البيهقي (١٠/ ٨) -، والطبري (٤/ ٥) من طرق عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. والحديث قال عنه الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ في "العجاب" (٢/ ٧١٦).

ونقل الثعلبي عن الكلبي وأبي روق: أن النبي ﷺ لما قال: "أنا على ملة إبراهيم"؛ قالت اليهود: كيف: وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟! فقال النبي ﷺ: "كان ذلك حلًّا لإبراهيم؛ فنحن نحله"، فقالت اليهود: كل شيء نحرمه؛ فإنه كان محرمًا على نوح وإبراهيم وهلم جرا حتى انتهى إلينا؛ فأنزل الله -تعالى- تكذيبًا لهم: {كُلّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا}.

ذكره الحافظ في "العجاب" (٢/ ٧١٦)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٧٥، ٧٦).

وهو تالف لحال الكلبي وأبي روق.

=

* قوله تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} [آل عمران: ٩٣]، " أي كل الأطعمة كانت حلالًا لبني إسرائيل".

والطعام: مصدر بمعنى المطعوم، والمراد به هنا كل ما يطعم ويؤكل.

وحلا: مصدر أيضا بمعنى حلالا، والمراد الإخبار عن أكل الطعام بكونه حلالا، لا نفس الطعام، لأن الحل كالحرمة مما لا يتعلق بالذوات.

قوله تعالى: {إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ} [آل عمران: ٩٣]، أي إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه قبل نزول التوراة، وهو لحم الإبل ولبنها، ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبة على معاصيهم".

وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

قال الطبري: أي: "إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من غير تحريم الله ذلك عليه، فإنه كان حرامًا عليهم بتحريم أبيهم إسرائيل ذلك عليهم، من غير أن يحرمه الله عليهم في تنزيل ولا وحي".

أخرج عبدالرزاق من طريق الثوري عن ابن عباس: "كان إسرائيل أخذه عرق النسا ، فكان يبيت له زقاء ، فجعل لله عليه إن شفاه ألا يأكل العروق" فأنزل الله تعالى: {كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه} [آل عمران: ٩٣]، قال سفيان: «له زقاء» قال: «صياح»".

واختلفوا في تحريم إسرائيل على نفسه هل كان بإذن الله تعالى أم لا - على اختلافهم في اجتهاد الأنبياء- على قولين:

أحدهما: لم يكن إلا بإذنه وهو قول من زعم أن ليس لنبي أن يجتهد.

والثاني: باجتهاده من غير إذن، وهو قول من زعم أن للنبي أن يجتهد.

واختلف أهل التفسير في الذي كان إسرائيل حرَّمه على نفسه على أقوال:

أحدها: أن الذي حرّمه إسرائيل على نفسه العُرُوق. قاله ابن عباس، ومجاهد،

=

وأبي مجلز، وقتادة.

والثاني: أن الذي حرمه لحوم الإبل وألبانُها. وهذا قول الحسن، وعبدالله بن كثير، وعطاء بن ابي رباح.

والثالث: أن الذي حرم: زائدة الكبد والكليتين والشحم إلا ما على الظهور. وهذا قول عكرمة.

قوله (من قبل أن تنزل التوراة) أي: كانت حلالا لهم قبل نزول التوراة.

قوله تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران: ٩٣]، " أي: قل لهم يا محمد ائتوني بالتوراة واقرءوها عليَّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم".

ومعنى الآية: قال بعض العلماء: كل أنواع الأطعمة كانت حلالا لبنى إسرائيل قبل نزول التوراة إلا شيئا واحدا كان محرما عليهم قبل نزولها

وهو ما حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه، فإنهم حرموه على أنفسهم اقتداء به، فلما أنزل الله التوراة حرم عليهم فيها بعض الطيبات بسبب بغيهم وظلمهم.

هذا هو الحق الذي لا شك فيه، فإن جادلوك يا محمد في هذه المسألة فقل لهم على سبيل التحدي: أحضروا التوراة فاقرءوها ليتبين الصادق منا من الكاذب، إن كنتم صادقين في زعمكم أن ما حرمه الله عليكم فيها كان محرما على نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

قال الزمخشري: "أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم مما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم، لا تحريم قديم كما يدعونه، فروى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه".

واختلفوا في تحريم اليهود ذلك على أنفسهم على أقوال:

=

=

أحدها: أنهم حرموه على أنفسهم اتباعًا لإسرائيل. وهذا قول الضحاك.

والثاني: أن اسرائيل حرّمه على نفسه وولده، وذلك حين اصابه عرق النساء. ولم يكن ذلك محرما عليهم في التوراة. قاله عطية.

والثالث: أن التوراة نزلت بتحريمها فحرموها بعد نزولها. وهذا معنى قول السدي.

والرابع: أن الله لم يحرّمه عليهم في التوراة، وإنّما حرّم عليهم بعد التوراة لظلمهم وكفرهم، وكان بنو إسرائيل كلما أصابوا ذنبا عظيما حرّم الله عليهم طعاما طيبا، أو صبّ عليهم رجزا وهو الموت، وذلك قوله تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ} [النساء: ١٦٠]، وقوله: {وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ إلى قوله وَإِنَّا لَصادِقُونَ} [الأنعام: ١٤٦]. قاله الكلبي.

قال الماوردي: "الأول أصح".

قال ابن عطية: قوله تعالى (كل الطعام كان حلا ...) إخبار بمغيب عن محمد ﷺ وجميع الأميين لا يعلمه إلا الله وعلماء أهل الكتاب، وذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى الآية: الرد على اليهود في قولهم في كل ما حرموه على أنفسهم من الأشياء: إنها محرمة عليهم بأمر الله في التوراة، فأكذبهم الله بهذه الآية، وأخبر أن جميع الطعام كان حلا لهم، إلا ما حرم إسرائيل على نفسه خاصة، ولم يرد به ولده، فلما استنوا هم به جاءت التوراة بتحريم ذلك عليهم، وليس من التوراة شيء من الزوائد التي يدعون أن الله حرمها.

وقال في التسهيل: الآية إخبار أن الأطعمة كانت حلالا لبني إسرائيل (إلا ما حرم إسرائيل) أبوهم يعقوب (على نفسه) وهو لحم الإبل ولبنها، ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها، عقوبة لهم على معاصيهم، وفيها رد عليهم

=

=

في قولهم: إنهم على ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن الأشياء التي هي محرمة كانت محرمة على إبراهيم، وفيها دليل على جواز النسخ ووقوعه؛ لأن الله حرم عليهم تلك الأشياء بعد حلها، خلافا لليهود في قولهم: إن النسخ محال على هذه الأشياء، وفيها معجزة للنبي ﷺ؛ لإخباره بذلك من غير تعلم من أحد، وسبب تحريم إسرائيل لحوم الإبل على نفسه أنه مرض، فنذر إن شفاه الله. أن يحرم أحب الطعام إليه شكرا لله وتقربا إليه، ويؤخذ من ذلك أنه يجوز للأنبياء أن يحرموا على أنفسهم باجتهادهم. ... (التسهيل)

قال السعدي: وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات البينات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له به.

قال ابن كثير: الآية شرع في الرد على اليهود، قبحهم الله، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله، عز وجل، قد نص في كتابهم التوراة أن نوحا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك. وكان الله، عز وجل، قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك. وكان التسري على الزوجة مباحا في شريعة إبراهيم، وقد فعله الخليل إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعا وقد فعله يعقوب، عَلَيْهِ السَّلَامُ، جمع بين الأختين، ثم حرم ذلك عليهم في التوراة. وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث الله به محمدا ﷺ من الدين القويم،
=

=

والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم فما بالهم لا يؤمنون؟ ولهذا قال تعالى {كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة} أي: كان حلا لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل، ثم قال: {قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين}؛ فإنها ناطقة بما قلناه {فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون}.

قوله تعالى: {فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)} [آل عمران: ٩٤].

أي: فمن تعمد الكذب على الله تعالى بأن زعم بأن ما حرمته التوراة على بنى إسرائيل من المطاعم بسبب ظلمهم وبغيهم، كان محرما عليهم وعلى غيرهم قبل نزولها، فأولئك الذين قالوا هذا القول الكاذب هم المتناهون في الظلم: المتجاوزون للحدود التي شرعها الله تعالى، وسيعاقبهم سبحانه على هذا الظلم والافتراء عذابا أليما لا مهرب لهم منه ولا نصير.

افترى: من الافتراء وهو اختلاق الكذب، وأصله من فرى الأديم إذا قطعه لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له في الوجود، والكذب: الإخبار بخلاف الواقع.

قوله تعالى (من بعد ذلك) أي: من بعد قيام الحجة وظهور البينة.

قوله تعالى: {فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ} [آل عمران: ٩٤]، أي: "فمن كذب على الله منا ومنكم".

قال مقاتل: "بأن الله حرمه في التوراة".

قال الزمخشري: أي: "بزعمه أن ذلك كان محرما على بنى إسرائيل قبل إنزال التوراة".

قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} [آل عمران: ٩٤]، أي: "من بعد مجيئكم بالتوراة

=

=

وتلاوتها إياها".

قال مقاتل: أي: "من بعد ذلك البيان"".

قال البيضاوي: أي: "ابتدعه على الله بزعمه أنه حرم ذلك قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومن قبلهم".

قال الزمخشري: أي: "من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة".

وتحتمل الإشارة بـ {ذلك} في الآية الكريمة أن تكون إلى ثلاثة أشياء:

أحدها: أن تكون إلى التلاوة إذ مضمنها بيان المذهب وقيام الحجة، أي فمن كذب منا على الله تعالى أو نسب إلى كتب الله ما ليس فيها فهو ظالم واضع الشيء غير موضعه.

والثاني: أن تكون الإشارة إلى استقرار التحريم في التوراة، لأن معنى الآية: {كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ} [آل عمران: ٩٣]، ثم حرمته التوراة عليهم عقوبة لهم، {فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ}، وزاد في المحرمات فهو الظالم.

والثالث: أن تكون الإشارة إلى الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه، وقبل نزول التوراة، أي من تسنن بيعقوب وشرع ذلك دون إذن من الله، ومن حرم شيئا ونسبه إلى ملة إبراهيم فهو الظالم، ويؤيد هذا الاحتمال الأخير، قوله تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ} [النساء: ١٦٠] فنص على أنه كان لهم ظلم في معنى التحليل والتحريم، وكانوا يشددون فشدد الله عليهم، كما فعلوا في أمر البقرة.

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [آل عمران: ٩٤]، أي: فأولئك هم" المعتدون المكابرون بالباطل".

قال الطبري: "يعني: فهم الكافرون، القائلون على الله الباطل".

=

=

قال الزمخشري: أي: "المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات".

قال السعدي: "وأي ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عنادا وتكبرا وتجبرا، وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات البينات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها".

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك انه قال في تفسير هذه الآية: "وكذبوا وافتروا ولم ينزل التوراة بذلك". قال ابن بأبي حاتم: "يعني بتحريم العروق".

قوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)} [آل عمران: ٩٥].

قل لهم -أيها الرسول- صَدَق الله فيما أخبر به وفيما شرعه. فإن كنتم صادقين في محبتكم وانتسابكم لخليل الله إبراهيم عليه السلام فاتبعوا ملَّته التي شرعها الله على لسان محمد ﷺ، فإنها الحق الذي لا شك فيه. وما كان إبراهيم عليه السلام من المشركين بالله في توحيده وعبادته أحدًا.

قوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللهُ} [آل عمران: ٩٥].

أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بألسنتهم: صدق الله، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة على من أنكرها، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقا لله أعظمهم علما ويقينا بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية.

قال الواحدي: "في هذا وفي جميع ما أخبر به".

قال السمعاني: "يعني: فيما أخبر وأنزل".

قال مقاتل: "حين قال الله- سبحانه- {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا} ... إلى

=

=

آخر الآية، وقالت اليهود والنصارى: كان إبراهيم والأنبياء على ديننا، فقال النبي- ﷺ- فقد كان إبراهيم يحج البيت وأنتم تعلمون ذلك فلم تكفرون بآيات الله يعني بالحج، فذلك قوله- سبحانه- {قل صدق الله}".

قال الراغب: "معنى قوله: قل اعتقد وأخبر أن ذلك من قول الله تعالى، وهو صادق، وحقيقة قوله: {صدق الله} إقرار بأن الله قد أخبر، فإنه إذا ثبت كونه من خبره ثبت. كونه صدقا، ونبه أن ما أخبر من قوله: {كل الطعام كان حلا} وسائر ما تقدم صدق، وأنه ملة إبراهيم، وأوجب عليهم اتباعه في تحنفه أي في استقامته".

قال الآلوسي: قوله تعالى (قل صدق الله) أي ظهر وثبت صدقه في أن كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه وقيل: في أن محمدا ﷺ على دين إبراهيم عليه السلام وأن دينه الإسلام، وقيل: في كل ما أخبر به ويدخل ما ذكر دخولا أوليا وفيه كما قيل: تعريض بكذبهم الصريح.

وقال ابن عاشور: قوله تعالى (قل صدق الله) وهو تعريض بكذبهم لأن صدق أحد الخبرين المتنافيين يستلزم كذب الآخر، فهو مستعمل في معناه الأصلي والكنائي.

وفي الآية ثناء على الله تعالى وقد قال تعالى (وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا).

قال في التسهيل: قوله تعالى (صدق الله) أي الأمر كما وصف، لا كما تكذبون أنتم. ففيه تعريض بكذبهم.

قوله تعالى: {فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ} [آل عمران: ٩٥]، أي: "فاتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم".

وهذا أمر باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وبتركه حصول الشقاوة، وفي هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم مشركون غير موحدين.

=

=

كما قال تعالى (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين).

وقال تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا).

وقال تعالى (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين).

وقال تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين).

وملة إبراهيم: هي الحنيفية السمحة، وهي الإسلام كما قال تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين).

وقال تعالى (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين).

والحنيفية: دين جميع الأنبياء؛ ولكن أضيفت إلى إبراهيم الخليل عليه السلام؛ لأنه أكمل الخلق تحقيقا للتوحيد مع نبينا ﷺ؛ وإبراهيم: الأب، ومحمد ﷺ: الابن؛ فاستحق أن تنسب إلى الأب دون الابن؛ فيقال: ملة إبراهيم على جهة التشريف له؛ وإن كانت هي ملة الأنبياء جميعا.

ملة إبراهيم هي عبادة الله مخلصين له الدين، فهي توحيد الله فلم يدعو معه غيره ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه فقال (يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين).

وقال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين). وقال تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم).

=

=

وقال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين).

قوله تعالى (وما كان من المشركين) في هذا ثناء على إبراهيم عليه السلام. وقد أثنى الله عليه في آيات كثيرة.

قال الطبري: أي: "فاتبعوا ما قد أجمع جميعُكم على تصويبه من ملته الحنيفية، ودعوا ما اختلفتم فيه من سائر الملل غيرها، أيها الأحزاب، فإنها بدَع ابتدعتموها إلى ما قد أجمعتم عليه أنه حق، فإن الذي أجمعتم عليه أنه صوابٌ وحق من ملة إبراهيم، هو الحق الذي ارتضيتُه وابتعثتُ به أنبيائي ورسلي، وسائرُ ذلك هو الباطل الذي لا أقبله من أحد من خلقي جاءَني به يوم القيامة".

قال ابن كثير: "أي: اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مِرْية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٦١] وقال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: ١٢٣]".

قوله تعالى: {حَنِيفًا} [آل عمران: ٩٥]، أي: "مائلًا عن الأديان الزائفة كلها".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: ٩٥]، أي: و"لم يكن إبراهيم يشرك في عبادته أحدًا من خلقه".

قال مقاتل: "يقول: لم يكن يهوديا ولا نصرانيا".

قال الطبري: "وإنما عنى جل ثناؤه بالمشركين، اليهودَ والنصارَى وسائر الأديان، غير الحنيفية. قال: لم يكن إبراهيم من أهل هذه الأديان المشركة، ولكنه كان حنيفًا مسلمًا".

قال الراغب: "وفي قوله: {وما كان من المشركين} تعريض بهم، كأنه قيل: أنتم

=

=

مشركون في اتخاذ بعضكم بعضا أربابا، وإبراهيم لم يكن مشركا، فإذن ليس دينكم دين إبراهيم، وكما نفى في قوله: {ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا} أنه منهم نفى في هذه الآية كونه مشركا".

عن عبد الله بن عمرو قال: "أفاض جبريل بإبراهيم صلى الله عليهما، فصلى به بمنى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم غدا من منى إلى عرفة فصلى به الصلاتين: الظهر والعصر، ثم وقف له حتى غابت الشمس، ثم دفع حتى أتى المزدلفة، فنزل بها، فبات وصلى، ثم صلى كأعجل ما يصلي أحد من المسلمين، ثم وقف به كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين، ثم دفع منه إلى منى، فرمى وذبح، ثم أوحى الله تعالى إلى محمد أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين".

مسألة: في الآية: دليل على أن الأصل في الطعام الحل، وجميع ما أوجده الله في الأرض من مأكول وملبوس ومشروب ومسكون ومفروش، وقد تقدم ذلك في قول الله تعالى: {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا} [البقرة: ٢٩] وفي قوله: {ياأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا} [البقرة: ١٦٨].

* ويظهر أن تحريم شيء من الطعام على النفس كان في شرعة يعقوب جائزا، وأما في شرعة محمد ﷺ، فغير جائز، وتحريم الإنسان الطعام على نفسه أخف من تحريمه على الناس؛ لأن تحريم الحلال على حالين:

الأول: تحريم خاص عارض؛ كمن يحرم على نفسه طعاما، خوفا من مرض أو سمنة، أو طلبا للصحة، أو خشية من ألا تدوم النعمة فتنقطع فتتبعه النفس؛ فهذا لا بأس به.

الثاني: تحريم عام على الناس، وهذا تشريع وحق لله ليس لأحد من خلقه.

وتحريم الرجل طعاما واحدا أو أكثر على نفسه - تدينا - لا يجوز بحال؛ لأنه معارضة لتشريع الله في حكمه، وإذا كان لمقصد آخر غير التعبد، فقد منع الله

=

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦).

وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا قِبْلَتنَا قَبْل قِبْلَتكُمْ {إِنَّ أَوَّل بَيْت وُضِعَ} مُتَعَبَّدًا {لِلنَّاسِ} فِي الْأَرْض {لَلَّذِي بِبَكَّةَ} بِالْبَاءِ لُغَة فِي مَكَّة سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَبُكّ أَعْنَاق الْجَبَابِرَة أَيْ تَدُقّهَا بَنَاهُ الْمَلَائِكَة قَبْل خَلْق آدَم وَوُضِعَ بَعْده الْأَقْصَى وَبَيْنهمَا أَرْبَعُونَ سَنَة كَمَا فِي حَدِيث الصَّحِيحَيْنِ وَفِي حَدِيث أَنَّهُ أَوَّل مَا ظَهَرَ عَلَى وَجْه الْمَاء عِنْد خَلْق السَّمَاوَات وَالْأَرْض زُبْدَة بَيْضَاء فَدُحِيَتْ الْأَرْض مِنْ تَحْته {مُبَارَكًا} حَال مِنْ الَّذِي أَيْ ذَا بَرَكَة {وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} لِأَنَّهُ قِبْلَتهمْ.

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧).

{فِيهِ آيَات بَيِّنَات} مِنْهَا {مَقَام إِبْرَاهِيم} أَيْ الْحَجَر الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ عِنْد بِنَاء الْبَيْت فَأَثَّر قَدَمَاهُ فِيهِ وَبَقِيَ إِلَى الْآن مَعَ تَطَاوُل الزَّمَان وَتَدَاوُل الْأَيْدِي عَلَيْهِ وَمِنْهَا تَضْعِيف الْحَسَنَات فِيهِ وَأَنَّ الطَّيْر لَا يَعْلُوهُ {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} لَا يُتَعَرَّض إِلَيْهِ بِقَتْلٍ أَوْ ظُلْم أَوْ غَيْر ذَلِكَ {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاس حِجّ الْبَيْت} وَاجِب بِكَسْرِ الْحَاء وَفَتْحهَا لُغَتَانِ فِي مَصْدَر حَجَّ قَصَدَ وَيُبْدَل مِنْ النَّاس {مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} طَرِيقًا فَسَّرَهُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالزَّادِ وَالرَّاحِلَة رَوَاهُ الْحَاكِم وَغَيْره {وَمَنْ

=

المؤمنين من ذلك، وكل تحريم لما أحله الله يدخل في عموم قوله: {لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا} [المائدة: ٨٧].

ولما حرم النبي ﷺ على نفسه العسل، أنزل الله عليه قوله تعالى: {ياأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم} [التحريم: ١]، وسبب النزول في "الصحيحين" من حديث عائشة.

كَفَرَ} بِاللهِ أَوْ بِمَا فَرَضَهُ مِنْ الْحَجّ {فَإِنَّ الله غَنِيّ عَنْ الْعَالَمِينَ} الْإِنْس وَالْجِنّ وَالْمَلَائِكَة وَعَنْ عِبَادَتهمْ(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن جريج؛ قال: بلغنا أن اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة، وقال المسلمون: الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبي ﷺ؛ فنزل: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ} حتى بلغ: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ} [آل عمران: ٩٧]، وليس ذلك في بيت المقدس {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آل عمران: ٩٧] وليس ذلك في بيت المقدس {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} [آل عمران: ٩٧] وليس ذلك في بيت المقدس.

أخرجه أبو الوليد الأزرقي في "أخبار مكة" (١/ ٧٥) -ومن طريقه الواحدي في "الوسيط" (١/ ٤٧٠) - من طريق سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج أخبرني ابن جريج به. وسنده ضعيف جدًا.

وعن عكرمة؛ قال: لما نزلت هذه الآية: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} [آل عمران: ٨٥]؛ قالت اليهود: فنحن على الإسلام، فماذا يبغي منا محمد؟ فأنزل الله عز وجل حجًا مفروضًا: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ} الآية، قال رسول الله ﷺ: "كتب عليكم الحج".

وفي رواية: لما نزلت هذه الآية -فذكر نحو الحديث السابق-، وزاد فيه: فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: حجهم -يقول: اخصمهم-، فقل لهم: حجوا، فقالوا: لم يكتب علينا؛ فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ}؛ فقال لهم: إن كنتم مسلمين؛ فإن الله عز وجل قد فرض على المسلمين حج البيت، فأبوا، وقالوا: ليس علينا حج، قال عكرمة: {وَمَنْ كَفَرَ} ومن أهل الملل: {فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}.

=

=
أخرجه الفاكهي في "أخبار مكة" (١/ ٣٧٣ رقم ٧٨٣، ٧٨٤)، والطبري في "جامع البيان" (٣/ ٢٤١، ٤/ ١٥)، وعبد بن حميد والفريابي وسعيد بن منصور؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧١٩) من طرق عنه وبألفاظ متقاربة.
وهوضعيف؛ لإرساله.
وعن الحارث بن يزيد؛ أنه قال: يا رسول الله! الحج في كل عام؟ فنزلت: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} .
ذكره أبو نعيم الأصبهاني -معلقًا- في "معرفة الصحابة" (٢/ ٨١٣ - ط دار الوطن) من طريق محمد بن مروان السدي -الصغير- عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن الحارث به.
ومن دون ابن عباس كذابون متهمون.
وعن مجاهد؛ قال: آية فرقت بين المسلمين وأهل الكتاب لما نزلت: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} [آل عمران: ٨٥]، قالت اليهود: قد أسلمنا؛ فنزلت: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} الآية، فقالوا: لا نحجه أبدًا.
ذكره الحافظ في "العجاب" (٢/ ٧١٩) وعزاه لسعيد بن منصور من طريق ليث بن أبي سليم عن مجاهد به. وسنده ضعيف؛ فيه علتان:
الأولى: الإرسال.
الثانية: ضعف ليث بن أبي سليم.
وعن الضحاك؛ قال: في قوله: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} ؛ قال: لما نزلت آية الحج؛ جمع رسول الله ﷺ أهل الأديان كلهم، فقال: "يا أيها الناس! إن الله عز وجل كتب عليكم الحج؛ فحجوا"؛ فآمنت به ملة واحدة وهي من صدّق النبي ﷺ وآمن به، وكفرت به خمس ملل، قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نستقبله؛ فأنزل الله عز وجل: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ
=

=

{الْعَالَمِينَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ١٤) عن جويبر عن الضحاك به. والحديث قال عنه المناوي في "الفتح السماوي" (١/ ٣٨٩): "وهو معضل، وجويبر؛ متروك الحديث ساقط".

وعن سعيد بن المسيب؛ قال: نزلت في اليهود حيث قالوا: الحج إلى مكة غير واجب؛ فأنزل الله: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}.

ذكره الحافظ في "العجاب" (٢/ ٧٢٠) وقال: "وروى أبو حذيفة النهدي من "تفسير سفيان الثوري" عن إبراهيم بن يزيد الخوزي عن محمد بن جعفر قال: قال سعيد: فذكره".

وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علل: الأولى: الإرسال.

والثانية: إبراهيم الخوزي هذا؛ متروك الحديث؛ كما في "التقريب" (١/ ٤٦).

الثالثة: أبو حذيفة النهدي؛ وهو موسى بن مسعود الثقفي؛ صدوق سيئ الحفظ، وكان يصحف.

* قوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} [آل عمران: ٩٦] "أي إن أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله: المسجد الحرام الذي هو بمكة".

والمراد الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال (قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، قلت: ثم أي؟ قال: ثم حيث أدركت الصلاة فصل، فكلها مسجد).

=

=

متفق عليه.

قال القاسمي: أي لنسكهم وعباداتهم، للبيت الذي في البكة، وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لايخفى".

قال ابن كثير: "يُخْبر تعالى أن أول بيت وُضع للناس، أي: لعموم الناس، لعبادتهم ونُسُكهم، يَطُوفون به ويُصلُّون إليه ويَعتكِفُون عنده، {لَلَّذِي بِبَكَّةَ} يعني: الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام -الذي يَزْعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجِه، ولا يَحجُّون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه".

قال البيضاوي: "والواضع هو الله عزوجل ومعنى وضع الله بيتًا للناس أنه جعله متعبدًا لهم فكأنه قال إن أول متعبد للناس الكعبة".

واختلف في قوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ} [آلأ عمران: ٩٦]، على أقوال:

أحدها: أنه أول بيت ظهر على وجه الماء عندما خلق الله السماء والأرض فخلقه الله قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على الأرض فدحيت الأرض من تحتها، هذا قول عبد الله بن عمرو ومجاهد وقتادة والسدي.

والثاني: أنه أوّل بيت وضع: بني في الأرض. قاله علي بن الحسين.

والثالث: أنه أول بيت بناه آدم في الأرض، قاله ابن عباس.

والرابع: أنه أول بيت مبارك، أي: وضع فيه البركة. قاله علي، والضحاك.

والخامس: انه اول بيت وضع للناس يحج إليه لله. قاله ابن عباس أيضا.

والسادس: أنه أول بيت جعل قبلة للناس.

والسابع: أن معناه: إن أول مسجد ومتعبد وضع للناس يعبد الله فيه، يدل عليه قوله: {أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتًا} [يونس: ٨٧]، يعني: مساجدهم وَاجْعَلُوا

=

=

بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً}، وقوله: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [النور: ٣٦] يعني: المساجد. وهذا قول علي، والحسن، والكلبي والفراء، ورجحه ابن كثير.

وفي تفسير قوله تعالى: {بَكَّة} [آل عمران: ٩٦]، أربعة أقاويل:

أحدها: أن بكة البيت والمسجد، ومكة: الحرم كله، وهذا قول ابن شهاب، وضمرة بن ربيعة، وإبراهيم.

والثاني: أن بكة هي مكة، وهو الضحاك، وأبي عبيدة.

والثالث: أن بكة موضع البيت والمطاف، ومكة غيره في الموضع، يريد القرية، قاله أبو مالك، وروي عن عطية وإبراهيم النخعي، وأبي صالح، ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

والرابع: أن مكة من الفج إلى التنعيم، وبكة من البيت إلى البطحاء. قاله ابن عباس.

والخامس: أن البيت وما حوله بكة، وما وراء ذلك مكة. وهذا قول عكرمة، وميمون بن مهران.

وفي المأخوذ منه بكة أقوال:

أحدها: أنه مأخوذ من الزحمة، يقال تَبَاّك القوم بعضهم بعضًا إذا ازدحموا، فبكة مُزْدَحَمُ الناس للطواف. وهذا معنى قول عطاء، وأبو جعفر.

والثاني: أنها سميت بكة، لأنها تَبُكُّ الظلمة، وأعناق الجبابرة، إذ ألحدوا فيها بظلم لم يمهلوا. وهذا قول عبدالرحمن بن الزبير، ومحمد بن زيد بن مهاجر.

والثالث: أن بكة بكت بكا، الذكر فيها كالأنثى. رواه عتبة بن قيس عن ابن عمر.

والرابع: إنما سميت بكة لأن الناس يجيئون من كل جانب حجاجا. قاله عبدالله بن الزبير، ومقاتل بن حيان.

والخامس: إن الله بك به الناس جميعا، فيصلي النساء أمام الرجال، ولا يفعل ذلك

=

=

ببلد غيره. وهذا قول قتادة، وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعمرو بن شعيب، ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقرأ ابن السميقع: "{وَضَعَ}، بفتح الواو والضاد، يعني: وضعه الله".

قوله تعالى: {مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٦]، " أي: وضع ذلك البيت ذا بركة وهدى للعالمين".

قال مقاتل بن حيان: "قوله: {مباركا}، جعلناه آمنا وجعل فيه الخير والبركة"، "يعني بالهدى: قبلتهم".

قال البيضاوي: "{مباركا}: كثير الخير لما يحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب وتكفير السيآت {وهدى للعالمين} لأنه قبلتهم ومتعبدهم".

قال المراغي: "تطلق البركة على معنيين: أحدهما النموّ والزيادة، وثانيهما البقاء والدوام كما يقال تبارك الله، والبركة والهداية من فضائله الحسية والمعنوية.

أما الأولى: فهى أنه قد أفيض عليه من بركات الأرض وثمرات كل شىء مع كونه بواد غير ذى زرع كما قال الله تعالى: {يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ} فترى الأقوات والثمار في مكة كثيرة جيدة، وأقل ثمنا من كثير من البلاد ذوات الخيرات الوفيرة كمصر والشام.

وأما الثانية: فلأن القلوب تهوى إليه، فتأتى الناس مشاة وركبانا من كل فج عميق لأداء المناسك الدينية من الحج والعمرة، ويولّون وجوههم شطره في صلاتهم وربما لا تمضى ساعة من ليل أو نهار إلا وهناك ناس يتوجهون إليه، ولا شك أن هذه الهداية من أشرف أنواع الهدايات.

وكل هذا ببركة دعوة إبراهيم صلوات الله عليه {رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}".

=

=

قال السعدي: "{مباركا} أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى {ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام} {وهدى للعالمين} والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به، وأما هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التي ذكر الله تعالى في قوله {فيه آيات بينات}".

وفي تفسير العالمين قولان:

أحدهما: أن الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم من الملائكة على الأرض، والأرض أربع زوايا في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته. قاله أبو العالية.

والثاني: أن العالمين ألف أمة ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وهذا قول تبيع.

البيت الحرام كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره. ووجه بركته:

أولا: أن الطاعات إذا أتى بها في هذا البيت ازداد ثوابها.

قال ﷺ (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام).

وقال ﷺ (من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه).

وقال ﷺ (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) ومعلوم أنه لا أكثر بركة مما يجلب المغفرة والرحمة.

وثانيها: قال القفال رحمه الله تعالى: ويجوز أن يكون بركته ما ذكر في قوله تعالى (يجبى إليه ثمرات كل شيء) فيكون كقوله (إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله).

وثالثها: فيه زمزم، وقد قال ﷺ (ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم).

=

=

ورابعها: ما دعا به إبراهيم لمكة، أن يبارك الله في ثمارها ومدها وصاعها.

قوله تعالى: (وهدى للعالمين) وجه هدايته للعالمين:

أولا: أنه قبلة للمؤمنين، يهتدون به إلى جهة صلاتهم.

ثانيا: أن به دلائل وآيات تدل على الخالق سبحانه وتعالى.

ثالثا: أنه هدى للعالمين إلى الجنة.

قوله تعالى: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ} [آل عمران: ٩٧]، أي: "فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد، منها: مقام إبراهيم".

قال ابن كثير: "أي: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله تعالى عَظَّمه وشرفه، قوله تعالى: {مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ}، يعني: الذي لَمَّا ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقا بجدار البيت، حتى أخّره عُمَر بن الخطاب، رضي الله عنه، في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطُّوَّاف، ولا يُشَوِّشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [البقرة: ١٢٥]"".

قال الماوردي: "الآية في مقام إبراهيم أثر قدميه وهو حجر صلد؟ والآية في غير المقام: أمن الخائف، وهيبة البيت وامتناعه من العلو عليه، وتعجيل العقوبة لمن عتا فيه، وما كان في الجاهلية من أصحاب الفيل".

وقرأ ابن عباس: "{فِيهِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ}، يعني بها: مقام إبراهيم، يراد بها: علامة واحدةٌ".

واختلف في تفسير قوله تعالى: {مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ} [آل عمران: ٩٧]، على أقوال:

أحدها: أن {مقام إبراهيم}، هو الحج كله. وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، والشعبي.

الثاني: أنه عرفة والمزدلفة والجمار. وهو قول عطاء بن أبي رياح، وروي عن ابن

=

=

عباس، مجاهد، والشعبي، نحو ذلك.

الثالث: أنه الحرم كله. وهو قول مجاهد، والنخعي، وكذا رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

الرابع: إن المراد بالمقام إنما هو (الحَجَرُ) الذي كان إبراهيم عليه السلام، يقوم عليه لبناء الكعبة، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير.

ثم هؤلاء ذكروا وجهين:

أحدهما: هو الحجر الذي قام عليه حين رفع بناء البيت، وهو قول ابن عباس في رواية سعيد ابن جبير عنه، وروي عن جابر وقتادة وسعيد بن جبير. نحو ذلك.

إذ لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل، عليه السلام، به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، كلَّما كَمَّل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها هكذا، حتى تم جدارات الكعبة، بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

ومَوطئُ إبراهيم في الصخر رطبة... على قدميه حافيًا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا.

وثانيهما: وقيل: بل هو الذي وضعته زوج إسماعيل لإبراهيم حيث غسلت رأسه وهو راكب. وهو قول السدي، وحكاه الرازي في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس.

وقال ابن جبير ناقدًا هذا القول: "ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه".

خامسا: وقال آخرون: بل {مقام إبراهيم}، هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام. قاله قتادة، والربيع، والسدي.

=

=

والراجح: أن المقام هو (الحجر) لما يعضده هذا القول من الأخبار، إذ ثبت بالأخبار أنه قام على هذا الحجر عند المغتسل ولم يثبت قيامه على غيره فحمل هذا اللفظ وعليه أكثر أهل العلم. وقد ثبت دليله عند مسلم من حديث جابر، وعند البخاري أيضًا.

فهو الحجر الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقا بجدار البيت، حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى).

ولم يخالف عمر على تحريكه أحد من الصحابة، وعمر هو الذي أنزل الله الصلاة خلف المقام بعد تعريضه بذلك للنبي ﷺ؛ فنزل القرآن موافقا لقوله.

كما اختلفوا في قوله: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ} [آل عمران: ٩٧]، على وجوه:

أحدها: أن الآيات، هي: مقام إبراهيم والمشعر الحرام ونحو ذلك. قاله ابن عباس، ومجاهد.

والثاني: أن الآيات البينات، هي: مقام إبراهيم، ومن دخله كانَ آمنا. وهذا قول الحسن.

والثالث: أن الآيات البينات، هي: مقام إبراهيم. وهذا قول السدي، ومجاهد -في إحدى الروايات عنه- على قراءة التوحيد.

والراجح-والله أعلم- أن الآيات البينات، منهنّ مقام إبراهيم، ومنهن الحجرُ، ومنهن الحطيمُ.

قوله تعالى: {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آل عمران: ٩٧]، أي: "ومن يدخله من الناس مستجيرًا به، يكن آمنًا حتى يخرج منه". وهذه آية أخرى.

=

=

كما قال الله تعالى (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم).
وقال تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف).
وقال تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا).
وقال إبراهيم (رب اجعل هذا بلدا آمنا).
وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع أشجارها وقلع ثمارها.
قال ابن كثير: "يعني: حَرَمُ مكة إذا دخله الخائف يأمنُ من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية".
قال الماوردي: "معناه أنه عطَّف عليه قلوب العرب في الجاهلية فكان الجاني إذا دخله أمِنَ".
وأما في "الأمن" ففيه قولان:
أحدهما: أنه من النار، وهذا قول يحيى بن جعدة.
والثاني: من القتال بحظر الإيجال على داخليه، وأما الحدود فتقام على من جنى فيه. وهو قول قتادة، ومجاهد، والحسن، والسدي، وعطاء، وعبيد بن عمير، وعامر، والشعبي.
واختلفوا في الجاني إذ دخله في إقامة الحد عليه فيه قولان:
أحدهما: تقام عليه، وهو مذهب الشافعي.
والثاني: لا تقاوم حتى يُلجأ إلى الخروج منه، وهذا قول ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وهو مذهب أبي حنيفة.
قوله تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران: ٩٧]، " أي فرضٌ لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق".
قال الطبري: أي: "وفرضٌ واجبٌ لله على من استطاع من أهل التكليف السبيلَ

=

=

إلى حجّ بيته الحرام الحج إليه".

قال ابن كثير: "هذه آية وُجُوب الحج عند الجمهور. وقيل: بل هي قوله: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} [البقرة: ١٩٦] والأول أظهر، وقد وَرَدَت الأحاديثُ المتعددة بأنه أحدُ أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا، وإنما يجب على المكلَّف في العُمْر مَرّة واحدة بالنص والإجماع".

وفي الاستطاعة إلى الحج أربعة أقاويل:

أحدها: أنها بالمال، وهي الزاد والراحلة، قاله عمر بن الخطاب، وابن عباس، والحسن، وعمرو بن دينار، وعطاء، والسدي، وسعيد بن جبير، وهو قول الشافعي.

واستندوا على قولهم بما رواه ابن عمر: "قام رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: ما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة»".

والثاني: أنها بالبدن، وهي الصحة، قاله عكرمة، وهو قول مالك.

والثالث: أنها بالمال والبدن، وهذا معنى قول ابن زيد، وهو قول أبي حنيفة.

والرابع: أن السبيل التي إذا استطاعها المرء كان عليه الحج: الطاقةُ للوصول إليه بغير مانع ولا حائل. وهذا قول ابن الزبير، والضحاك، وعطاء، وعامر، والحسن - في إحدى الروايات عنهم،

والراجح-والله أعلم- إنّ أداء الحج على قدر الطاقة، "لأن " السبيل " في كلام العرب: الطريقُ، فمن كان واجدًا طريقًا إلى الحج لا مانعَ له منه من زَمانة، أو عَجز، أو عدوّ، أو قلة ماء في طريقه، أو زاد، أو ضعف عن المشي، فعليه فرضُ الحج، لا يجزيه إلا أداؤه. فإن لم يكن واجدًا سبيلا أعني بذلك: فإن لم يكن مطيقًا الحجَّ، بتعذُّر بعض هذه المعاني التي وصفناها عليه فهو ممن لا يجدُ إليه طريقًا ولا يستطيعه. لأن الاستطاعة إلى ذلك، هو القدرة عليه".

=

=

تعريف الحج لغة: القصد، يقال: حج كذا بمعنى قصد.
وشرعا: التعبد لله بأداء المناسك على صفة مخصوصة في وقت مخصوص.
(من استطاع إليه سبيلا) أي: واجب على المستطيع الوصول إليه.
واختلف العلماء في المراد بالسبيل هنا:
فذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالسبيل الزاد والراحلة.
وهذا قول جمهور العلماء.
لحديث ابن عمر. قال: قال ﷺ (السبيل الزاد والراحلة).
قال الشوكاني: ولا يخفى أن هذه الطرق يقوي بعضها بعضا فتصلح للاحتجاج بها.
وقال الشنقيطي: حديث الزاد والراحلة لا يقل بمجموع طرقه عن درجة القبول والاحتجاج.
وقد ذكر الترمذي أن أكثر أهل العلم على العمل بها.
وقد روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس في تفسير السبيل أنه قال: أن يصح بدن العبد، ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به، وسنده صحيح.
والمراد بالزاد: ما يتزود به، وهو في الأصل الطعام الذي يتخذ للسفر، والمراد هنا: ما يحتاج إليه في ذهابه ورجوعه من مأكول ومشروب وكسوة، والراحلة: الناقة التي تصلح لأن يرحل عليها.
وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالاستطاعة على قدر الطاقة.
واختار هذا ابن جرير في تفسيره.
فيدخل في ذلك الزاد والراحلة وأمن الطريق ووجود مكان صالح للمبيت بالمشاعر وزوال الموانع من أداء الحج أيا كانت، ونحو ذلك.
وقال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: الصحيح أن المراد بالسبيل في قوله تعالى: (من

=

=

استطاع إليه سبيلا) المراد الطريق الذي يوصلك إلى مكة أي طريق كان، سواء كان زادا أو راحلة أو مشيا على الأقدام، أو ما أشبه ذلك.

قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧]، "أي: من ترك الحج فإن الله مستغنٍ عن عبادته وعن الخلق أجمعين".

قال الطبري: أي: "ومن جَحد ما ألزمه الله من فرض حَجّ بيته، فأنكره وكفر به، فإن الله غنيّ عنه وعن حجه وعمله، وعن سائر خَلقه من الجن والإنس".

قال الجزائري: أي: و"من كفر بالله ورسوله وحج بيته بعد ما ذكر من الآيات والدلائل الواضحات فإنه لا يضر إلا نفسه، أما الله تعالى فلا يضره شيء وكيف وهو القاهر فوق عباده والغني عنهم أجمعين".

قال أبو صالح: "فرض الله الحج على الناس، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧]، وجوه:

أحدها: يعني: من كفر بزعمه أن الحج ليس بفرض عليه، وهو قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والضحاك، وعطاء، وعطية العوفي، وعمران القطان.

والثاني: هو لا يرى حَجَّهُ برًا ولا تركه مأثمًا، وهو أحد قولي ابن عباس، ومجاهد -في إحدى الروايات، والحسن، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم.

والثالث: أن المعنى: ومن كفر بالله واليوم الآخر. وفي المعنيين قولان:

القول الأول: أنهم اليهود، لأنه لما نزل قوله تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنهُ}، فقالوا نحن مسلمون فأُمِرُوا بالحج فلم يحجوا، فأنزل الله هذه الآية. وهذا معنى قول عكرمة، وسعيد بن المسيب.

القول الثاني: أنهم الملل الكافرة من أهل الأديان كلها، ممن لم يؤمنوا بالحج ولم

=

=

يصلوا ولم يستقبلوا البيت، وهذا قول الضحاك، وروي عن مجاهد، وعامر، وابن عباس، وعكرمة -في إحدى الروايات عنهما، نحو ذلك.

والرابع: أن المعنى: ومن كفر بهذه الآيات التي في مقام إبراهيم. وهذا قول ابن زيد.

والخامس: أن المعنى: ومن كفر بالبيت. وهذا قول عطاء بن ابي رباح، والضحاك في إحدى الروايات.

والسادس: أن كفره بالبيت: تركه إياه حتى يموت. وهذا قول السدي.

والراجح أن معنى قوله: {ومن كفر}، أي: "ومن جحد فرضَ ذلك وأنكرَ وُجوبه، فإن الله غني عنه وعن حَجه وعن العالمين جميعًا". والله أعلم.

قال ابن الجوزي: "قوله تعالى: {ولله على الناس حج البيت}، قال السدي: «هذا الكلام تضمن وجوب الحج على جميع الخلق الغني والفقير والقادر والعاجز، ثم نسخ في حق عادم الاستطاعة بقوله: {من استطاع إليه سبيلا}»، قلت: وهذا قوله قبيح، وإقدام بالرأي الذي لا يستند إلى معرفة اللغة العربية التي نزل بها القرآن على الحكم بنسخ القرآن، وإنما الصحيح ما قاله النحويون كافة في هذه الآية، فإنهم قالوا: (من) بدل من (الناس) وهذا بدل البعض، كما يقول: ضربت زيدا برأسه، فيصير تقدير الآية: ولله على من استطاع من الناس الحج أن يحج".

(فإن الله غني عن العالمين) غني سبحانه عن جميع الخلق وعن عباداتهم وطاعاتهم.

كما قال تعالى (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد).

وقال تعالى (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين).

وقال تعالى (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم).

=

=

وقال تعالى (ومن كفر فإن الله غني حميد).

وقال تعالى (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر).

* مسألة: في هذه الآية بيان منزلة البيت العتيق المسجد الحرام مسجد الكعبة وقدمه، وقد وضع قواعدة إبراهيم وابنه إسماعيل، كما في قوله تعالى: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل} [البقرة: ١٢٧]، وقيل: إن المراد بالوضع في الآية: هو وضع البركة والهدى للناس، لا وضع البناء، فوضع القواعد شيء، ووضع البيت شيء، ووضع الهداية والبركة والأمان فيه شيء آخر؛ فما كل أحكام البيت الحرام نزلت مرة واحدة؛ ولذا جاء عند البيهقي؛ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا: (أن الله أمر آدم وحواء ببناء البيت والطواف فيه)، ولا يصح.

وصح عن بعض السلف، كقتادة؛ أن أول من طاف به آدم.

وفي ذلك بعض الأقوال عن وهب بن منبه وغيره.

وليس في ذلك شيء مرفوع صحيح عن النبي ﷺ يعتمد عليه.

وفي "الصحيحين"، عن أبي ذر رضي الله عنه؛ قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام)، قلت: ثم أي؟ قال: (المسجد الأقصى)، قلت: كم بينهما؟ قال: (أربعون سنة، وأينما أدركتك الصلاة، فصل، فهو مسجد).

* تسمية مكة بـ (بكة): سميت بكة: قيل؛ لأن الناس يأتونها من كل مكان؛ وبهذا قال عبد الله بن الزبير. وقيل: لأنها تبك الجبابرة.

وقيل: لأن الله جعل الرجل فيها كالمرأة؛ يبك الرجل المرأة، وتبك المرأة الرجل، وهم في الحكم سواء؛ وهذا مروي عن ابن عمر، وأبي جعفر محمد بن علي، وعتبة بن قيس.

وقيل: تبك الظلمة؛ فلا يقع فيها ظلم ويطول، فالله يزيل الظالم ولا يمهله فيها.

وقال عكرمة وأبو مالك والنخعي وغيرهم: بكة، هي الكعبة وما حولها، وما وراء

=

=

ذلك يسمى: مكة، وقال ابن عباس: بكة: من الفج إلى التنعيم، ومكة: من البيت إلى البطحاء.

* وفي الآية: فضل المسجد القديم على الجديد، وقد اختلف العلماء في التفضيل بين المسجد القديم والمسجد الحديث الذي يجتمع فيه الناس أكثر من غيره، على قولين؟ وهما قولان في مذهب الحنابلة، ويأتي تفصيل ذلك في سورة التوبة في قوله تعالى: {لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه} [التوبة: ١٠٨].

والمسجد الحرام أفضل من غيره في المنزلة والصلاة والاعتكاف وسائر القربات.

* أخذ بعض السلف الترخيص في اجتماع الرجال والنساء في المسجد الحرام للعبادة بلا مماسة، على خلاف الأصل المانع من الاختلاط.

ومن هذه الآية يؤخذ التيسير في مواضع الصفوف؛ خاصة عند المشقة والزحام، ولا يختلف العلماء: أن السنة أن مواضع صفوف الرجال أمام النساء، وأن التباعد هو الأفضل، ولكن يخفف في ذلك عند الزحام في المسجد الحرام، فقد روى ابن أبي حاتم، عن عتبة بن قيس؛ قال: "بكة بكت بكا، الذكر فيها كالأنثى، قيل له: عمن هذا؟ قال: عن ابن عمر".

وهو عنه: صحيح.

وروى سعيد عن قتادة قوله: "إن الله بك به الناس جميعا، فيصلي النساء أمام الرجال، ولا يفعل ذلك في بلد إلا في مكة".

وحكاه ابن أبي حاتم، عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعمرو بن شعيب ومقاتل بن حيان.

وبهذا استدل غير واحد على أن السترة في البيت الحرام يخفف في حكمها أكثر من غيره، لما سبق، ولمشقة ذلك على الناس، وهذا ظاهر قول من سبق من السلف،

=

=

ونص عليه أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين وابن الزبير وطاوس، ومحمد بن الحنفية وابن جريج وقال به أحمد، فقال "مكة ليست كغيرها؛ كأن مكة مخصوصة". وقال به ابن تيمية.

روى ابن أبي حاتم، عن عطاء بن السائب، عن أبي جعفر، محمد بن علي بن الحسين: مرت امرأة بين يدي رجل وهو يصلي وهي تطوف بالبيت، فدفعها، فقال أبو جعفر: "إنها بكة؛ يبك بعضهم بعضا".

وروى عبد الرزاق، عن ابن طاوس، عن أبيه، قال: "لا يقطع الصلاة بمكة شيء، لا يضرك أن تمر المرأة بين يديك".

وروى عن أبي عامر، قال: "رأيت ابن الزبير يصلي في المسجد، فتريد المرأة أن تجيز أمامه، وهو يريد السجود، حتى إذا هي أجازت سجد في موضع قدميها".

ويعضد هذا دفع المشقة، خاصة مع كثرة الناس رجالا ونساء في المسجد الحرام في هذا الزمن.

وأما حديث كثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة، عن بعض أهله، عن جده؛ أنه رأى النبي ﷺ يصلي مما يلي باب بني سهم والناس يمرون بين يديه وليس بينهما سترة، قال سفيان: ليس بينه وبين الكعبة سترة، فرواه أحمد وأبو داود، وفي إسناده جهالة، وقد أعله ابن المديني، وأشار البخاري إلى علته في الصحيح؛ لقد ترجم بابا فقال: (باب السترة بمكة وغيرها).

❋ مسألة: تحريم الصيد وعضد الشجر بمكة: قد جعل الله مكة حرما آمنا لا يصاد صيدها، ولا يعضد شوكها، والصيد والشجر في الحرم على نوعين:

النوع الأول: صيد الحرم وشجره الأصلي محرم، والمراد بالشجر الذي ينبت طبيعة في الأرض ولا يستنبته الناس.

النوع الثاني: صيد الحرم وشجره غير الأصلي، والمراد بالصيد غير الأصلي هو

=

=

المجلوب من خارج الحرم ليذبح داخله، فهذا لا حرج فيه، والشجر غير الأصلي الذي يستنبته الناس في مزارعهم بالغرس أو البذر كالنخل والعنب وأشجار الزينة التي يستنبتها الناس للظل وغيره في البيوت والطرقات والحدائق، فلا حرمة لها، وهي كحال الحيوانات الإنسية الغنم والبقر والإبل التي تنحر وتذبح، لأنها ليست صيدا مستوحشا، ومثلها الدجاج والحمام التي يربيها الإنسان؛ لا حرمة لها.

* صيد الأهلي المتوحش: وإذا كانت الحمام تحت تربيته، ثم استوحشت ولحقت بصيد الحرم فتوحشت، أخذت اسم صيد الحرم وحرمته، ما لم يكن قد ملكها بمال، فلحقت بصيد الحرم، جاز له صيدها وتنفيرها لأخذها، لأنها ملك له، ومال الإنسان المملوك حق، وهو أعظم حرمة من صيد الحرم، فلا تغلب حرمة الحرم عليه لمجرد توحشه بعد ملكه؛ لأن حرمة الملك له أعظم عند الله.

وقوله تعالى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين} دليل على فرضية الحج في الإسلام، وركنيته فيه، ففي "الصحيحين"، من حديث ابن عمر، قال ﷺ: (إن الإسلام بني على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت).

وإنما قدمت الصلاة والزكاة والصوم على الحج في الحديث؛ لأنها أسبق في زمن الفرض، وآكد من جهة العمل، وأعم من جهة خطاب المكلفين؛ فالصلاة يؤمر بها من غير إثم الصبي وهو ابن سبع، وتجب في كل الأرض على المكلف ذكرا أو أنثى، الصحيح والمريض كل بحسبه، وتتعدد في اليوم والليلة، وأما بقية الأركان، ففرضها بين حولي كالزكاة والصيام، وبين مرة في العمر كالحج.

وأما الزكاة، فالخطاب يتوجه للمكلفين أوسع من خطاب المكلفين في الصيام، فقدمت الزكاة؛ لأنها تجب في الأموال، لا على الأشخاص؛ كزكاة الفطر؛ وهذا

=

=

أعم في خطابها، فتجب الزكاة في مال الصحيح والمريض، الصغير والكبير، والعاقل والمجنون، ومن عجز عن القيام بنفسه، قام بها وليه.

وأما الصيام، فعلى الأشخاص المكلفين، ويسقط بالعجز، فلا يجب على الصغير والمجنون والمريض والمسافر، ثم إن الزكاة فريضة متعدية من الغني إلى الفقير، بخلاف الصوم، فهو عبادة لازمة لفاعلها، والزكاة قد تجب في الحول أكثر من مرة في الزروع والثمار التي يتكرر حصادها وقطافها في العام؛ لهذا كانت الزكاة أوسع خطابا من الصيام؛ فقدمت وتلت الصلاة في القرآن في مواضع كثيرة؛ قال تعالى في الأمر بها: {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} [البقرة: ٤٣]، وعن عيسى قال: {وأوصاني بالصلاة والزكاة} [مريم: ٣١]، وعن إسماعيل قال: {وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا} [مريم: ٥٥]، وقال في الإخبار عن المؤمنين: {وأقام الصلاة وآتى الزكاة} [البقرة: ١٧٧]، وقال: {وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة} [البقرة: ٢٧٧]، وقال: {والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة} [النساء: ١٦٢]، وقال: {الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون} [المائدة: ٥٥]، وقال عن أمهات المؤمنين: {وأقمن الصلاة وآتين الزكاة} [الأحزاب: ٣٣]، وغير ذلك؛ فالزكاة أكثر الأحكام اقترانا في القرآن بالصلاة.

ثم جاء الصوم في أركان الإسلام بعد الزكاة على قول الأكثر؛ لأنه يليها في سعة المخاطبين، ثم جاء الحج بعد الصيام؛ لأن الصيام أوسع في التكليف؛ فهو في كل عام، والحج في العمر مرة، ثم إن الحج محصور في بقعة معينة، والصوم تكليف يؤدى في كل الأرض.

* وإنما تأخر فرض الحج؛ لأن أرضه التي يؤدى عليها - وهي مكة - ليست في يد المسلمين؛ فتأخر الخطاب حتى تتهيأ الأسباب.

مع أن مشروعية الحج باقية قبل فرضه، وكان الناس قبل البعثة على بقية من

=

=

مناسك إبراهيم الخليل، وقد حج النبي ﷺ على مناسك إبراهيم قبل هجرته؛ كما في "الصحيحين"؛ من حديث جبير بن مطعم، وقد لحق مناسك الخليل تبديل في أهل مكة وغيرهم إلا قليلا.

* حكم تارك الحج: قد جعل الله الحج علما على انقياد الناس وبقائهم على دين محمد دين الإسلام، فكانوا يقبلون على النبي ﷺ بأنفسهم أو برسلهم أو بأقوالهم عند قومهم، ويسلمون رغبة ورهبة، فيؤاخذون على ظاهرهم، ثم لما فرض الله الحج، امتاز أهل الاتباع والانقياد من أهل النفاق؛ ولذا قال تعالى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين}؛ روى ابن أبي حاتم، عن ابن أبي نجيح، عن عكرمة؛ قال: "لما أنزل الله قوله تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا} [آل عمران: ٨٥]، قالت الملل: نحن مسلمون، فأنزل الله: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا}، فحج المسلمون، وقعد الكفار".

والكفر في الآية يراد به الجحود على قول عامة السلف؛ وبهذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد.

قال ابن عمر ومجاهد: من كفر؛ أي: بالله واليوم الآخر.

وقال ابن عباس: من زعم أنه لم ينزل. صح هذا عن ابن عباس من غير وجه.

ولم يثبت عن النبي ﷺ في تكفير تارك الحج كسلا حديث، ولا عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، إلا ما جاء عن عمر بن الخطاب، فيما رواه البيهقي والإسماعيلي؛ من حديث ابن غنم، عن عمر؛ قال: "من أطاق الحج، فلم يحج، فسواء عليه مات يهوديا أو نصرانيا".

وهو صحيح عنه، ويظهر أن مراده في ذلك من ترك الحج غير مؤمن بوجوبه؛ ففي لفظه عند سعيد بن منصور؛ من حديث الحسن، عنه؛ قال: "أن يضربوا عليهم

=

قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨).

{قل يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله} تَصْرِفُونَ {عَنْ سَبِيل الله} أَيْ دِينه.

قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩).

{مَنْ آمَنَ} بِتَكْذِيبِكُمْ النَّبِيّ وَكَتْم نِعْمَته {تَبْغُونَهَا} أَيْ تَطْلُبُونَ السَّبِيل {عِوَجًا} مَصْدَر بِمَعْنَى مُعْوَجَّة أَيْ مَائِلَة عَنْ الْحَقّ {وَأَنْتُمْ شُهَدَاء} عَالِمُونَ بِأَنَّ الدِّين الْمَرْضِيّ الْقَيِّم هُوَ دِين الْإِسْلَام كَمَا فِي كِتَابكُمْ {وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} مِنْ الْكُفْر وَالتَّكْذِيب وَإِنَّمَا يُؤَخِّركُمْ إلَى وقتكم ليجازيكم[١].

=

الجزية؛ ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين! "، والجزية لا تضرب على المرتد الذي دخل الإسلام، ثم ارتد بترك الحج تساهلا؛ وإنما تضرب على الكتابي الأصلي، واختلف في المشركين؛ لأن المرتد يقتل؛ فعمر يخاطب من زعم الإسلام ولم يؤمن بالحج، لا من دخل الإسلام وخرج منه بترك الحج تهاونا.

وإدراك عذر تارك الحج شاق؛ لأنه يوكل إلى الأفراد وأمانتهم وديانتهم؛ فموانع الحج كثيرة ظاهرة وباطنة، ومن البواطن ما لا يدركه أحد إلا صاحبه؛ ولهذا يشدد الحاكم في أداء الحج في الخطاب، لا في العقاب.

وقد جاء القول بكفر تارك الحج عن ابن مسعود وسعيد بن جبير عند اللالكائي؛ ولا يصح، وروي ذلك عن نافع والحكم وإسحاق، وهو رواية عن أحمد، وقول ابن حبيب من المالكية.

(١) ذكر سبب النزول.

عن زيد بن أسلم؛ قال: مرَّ شاس بن قيس -وكان شيخًا قد عسا في الجاهلية،

=

=

عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم- على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه؛ فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار؛ فأمر فتى شابًا من اليهود -وكان معه- قال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، وذكرهم يوم بعاث، وما كان قبله، وانشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار -وكان يوم بعاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج-؛ ففعل؛ فتكلم القوم عند ذلك؛ فتنازعوا، وتفاخروا؛ حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب: أوس بن قيظي أحد بني حارثه بن الحارث من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعه؛ وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة، والظاهرة: الحرة؛ فخرجوا إليها وتحاور الناس، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال: "يا معشر المسلمين! الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؛ بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا؟! "؛ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فالقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وما صنع؛ فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ

=

=

وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا}.

وأنزل الله عز وجل في أوس بن قيظي وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا مما أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)} إلى قوله: {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٠٥].

أخرجه ابن إسحاق في "المغازي" (٢/ ١٨٥ - ابن هشام) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ١٦، ١٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (رقم ١٠٤٧، ١٠٦٤)، وأبو الشيخ في "تفسيره" -ومن طريقه ابن الأثير في "أسد الغابة" (١/ ٣١٦، ٣١٧) -: ثني الثقة عن زيد بن أسلم به. والحديث قال عنه الحافظ في "الإصابة" (١/ ٨٧): "إسناده مرسل، وفيه راو مبهم".

وعن عكرمة؛ قال: كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال في الجاهلية، فلما جاء الإسلام؛ اصطلحوا، وألف الله بين قلوبهم، وجلس يهودي في مجلس فيه نفر من الأوس والخزرج، فأنشد شعرًا قاله أحد الحيين في حربهم فكأنهم دخلهم من ذلك، فقال الحي الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا وكذا، فقال الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا وكذا، فقالوا: تعالوا نرد الحرب جذعًا كما كانت، فنادى هؤلاء: يا آل أوس! ونادى هؤلاء: يا آل خزرج! فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال؛ فنزلت هذه، فجاء النبي ﷺ حتى قام بين الصفين؛ فقرأها، ورفع صوته، فلما سمعوا صوته؛ أنصتوا وجعلوا يستمعون، فلما فرغ؛ ألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضًا وجعلوا يبكون.

أخرجه إسحاق بن راهويه في "تفسيره"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٢٣) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٧٦) -، وعبد بن حميد في "تفسيره"؛

=

=

كما في "العجاب" (٢/ ٧٢٤)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٤٤٥ رقم ١٠٧٨ - آل عمران) من طرق عن حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن مجاهد؛ قال: كان جماع قبائل الأنصار بطنين: الأوس والخزرج، وكان بينهما في الجاهلية حرب ودماء وشنآن، حتى مَنَّ الله عليهما بالإسلام وبالنبي ﷺ؛ فأطفأ الله الحرب التي كانت بينهم، وألف بينهم بالإسلام، قال: فبينا رجل من الأوس ورجل من الخزرج قاعدان يتحدثان ومعهما يهودي جالس فلم يزل يذكرهم أيامهما والعداوة التي بينهما؛ حتى استبا، ثم اقتتلا، قال: فنادى هذا قومه، وهذا قومه، فخرجوا بالسلاح، وصفّ بعضهم لبعض، قال: ورسول الله ﷺ يومئذ شاهد بالمدينة، فجاء رسول الله ﷺ فلم يزل يمشي إلى هؤلاء وإلى هؤلاء يسكنهم حتى رجعوا ووضعوا السلاح، قال: فأنزل الله -تعالى- في القرآن في ذلك: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ} إلى قوله: {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٠٥].

أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٢٨/ ١) -ومن طريقه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٤٣٧، ٤٣٨ رقم ١٠٦٥)، والطبري في "جامع البيان" (٤/ ١٧، ١٨) -: ثني جعفر بن سليمان الضبعي عن حميد الأعرج عن مجاهد به. وهذا مرسل حسن الإسناد.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان الأوس والخزرج يتحدثون، فغضبوا؛ حتى كان بينهم حرب، فأخذوا السلاح بعضهم إلى بعض؛ فنزلت: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ} إلى قوله -تعالى-: {فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا} [آل عمران: ١٠٣].

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ١٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/

=

=

٤٣٩ رقم ١٠٦٩)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٧٧، ٧٨)، والفريابي؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٢٦) -ومن طريقه الطبراني في "الكبير" (١٢/ ٩٨، ٩٩ رقم ١٢٦٦٦) - جميعهم من طريق قيس بن الربيع عن الأغر بن الصباح عن خليفة بن حصين عن أبي نصر عنه به.

وقيس بن الربيع؛ صدوق، تغير لما كبر، أدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به؛ كما في "التقريب" (٢/ ١٢٨)؛ فالسند ضعيف، لكنه لم يتفرد به؛ فأخرجه الأشجعي في "تفسير سفيان الثوري"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٢٥) -ومن طريقه البخاري في "التاريخ الكبير" (٧٦/ ٧٢٥ - الكنى) - مختصرًا، والطبراني في "الكبير" (١٢/ ٩٩ رقم ١٢٦٦٧)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٧٨) عن سفيان الثوري عن الأغر به. وهذه متابعة قوية من الثوري لقيس بن الربيع؛ فصح الحديث ولله الحمد.

وعن السدي؛ قال: نزلت في ثعلبة بن غنمة الأنصاري، كان بينه وبين أناس من الأنصار كلام، فمشى بينهم يهودي من بني قينقاع؛ فحمل بعضهم على بعض؛ حتى همت الطائفتان من الأوس والخزرج أن يحملوا السلاح؛ فيقاتلوا؛ فأنزل الله عز وجل: {إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ}، يقول: إن حملتم السلاح؛ فاقتتلتم؛ كفرتم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ١٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٣/ ٧١٩ رقم ٣٨٩٧ - ط الباز) من طريق أحمد بن المفضل عن أسباط عن السدي به. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال. والثانية: أسباط ضعيف.

* قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ} [آل عمران: ٩٨]، أي: "يا معشر يهود بني إسرائيل وغيرهم، لم تجحدونُ حجج الله التي آتاها محمدًا في

=

كتبكم وغيرها، التي قد ثبتت عليكم بصدقه ونبوَّته وحُجته".

قال السدي: "أما {آيات الله}، فمحمد ﷺ".

وفي إحدى الروايات عن السدي: "{لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ}، يقول: لما تكفرون بالحج".

وهذا تعنيف من الله تعالى لكفرة أهل الكتاب، على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصدهم عن سبيله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشروا به ونوهوا، من ذكر النبي ﷺ الأمي الهاشمي العربي المكي، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله تعالى على ذلك بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومقاتلتهم الرسول المبشر بالتكذيب والجحود والعناد، وأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي: وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون.

وقد تقدم معنى الكفر بآيات الله.

فإن قيل: ولم خص أهل الكتاب بالذكر دون سائر الكفار؟.

قلنا لوجهين:

الأول: أنا بينا أنه تعالى أورد الدليل عليهم من التوراة والإنجيل على صحة نبوة محمد عليه السلام، ثم أجاب عن شبههم في ذلك، ثم لما تم ذلك خاطبهم فقال (يا أهل الكتاب) فهذا الترتيب الصحيح.

الثاني: أن معرفتهم بآيات الله أقوى لتقدم اعترافهم بالتوحيد وأصل النبوة، ولمعرفتهم بما في كتبهم من الشهادة بصدق الرسول والبشارة بنبوته.

قوله تعالى: {وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: ٩٨]، " أي: والله مطلع

=

على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها".

قال الحسن: "هم اليهودُ والنصارى".

قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ} [آل عمران: ٩٩] ، أي: يا أهل الكتاب" لمَ تصرفون الناس عن دين الله الحق، وتمنعون من أراد الإيمان به؟".

قال الطبري: أي: يا أهل الكتاب" لم تضِلُّون عن طريق الله ومحجَّته التي شرَعها لأنبيائه وأوليائه وأهل الإيمان".

قال الربيع: "لم تصدون عن الإسلام وعن نبي الله ﷺ".

قال الحسن: "هم اليهود والنصارى".

عن ابن عباس: "قوله: {تصدون عن سبيل الله} قال: عن دين الله".

قوله تعالى (عن سبيل الله) أي: عن دينه وشرعه، وسمي الدين سبيلا، لأنه موصل إليه، وأضيف إلى الله لوجهين:

الوجه الأول: أن الله هو الذي وضعه سبيلا للخلق يمشون عليه.

الوجه الثاني: أنه موصل إلى الله، فمن سلك السبيل الذي وضعه الله للعباد فسيصل إلى الله تعالى.

(وما الله بغافل عما تعملون) أي: أنه تعالى رقيب على أعمالكم لا يخفي عليه خافية، وسيجازيهم عليها، وفي هذا وعيد وتهديد.

وقرأ الحسن: {تصدون}، بضم التاء وكسر الصاد وهما لغتان.

قال البيضاوي: قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من ءامن) كرر الخطاب والاستفهام مبالغة في التقريع ونفي العذر لهم، وإشعارا بأن كل واحد من الأمرين مستقبح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب.

قال الرازي: قال المفسرون: وكان صدهم عن سبيل الله بإلقاء الشبه والشكوك في

=

=

قلوب الضعفة من المسلمين وكانوا ينكرون كون صفته ﷺ في كتابهم.

قوله تعالى: {تَبْغُونَهَا عِوَجًا} [آل عمران: ٩٩]، " أي: تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجّة".

وفي قوله تعالى: {تَبْغُونَهَا عِوَجًا} [آل عمران: ٩٩]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أنهم (أي اليهود والنصاراى) كانوا إذا سألهم أحد: هل تجدون محمدا؟ قالوا: لا. فصدوا الناس عنه وبغوا محمدا عوجا: هلاكا. قاله السدي.

والثاني: أنه يعني: ترجون بمكة غير الإسلام. وهذا قول أبي مالك.

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ} [آل عمران: ٩٩]، " أي: وأنتم عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم".

قال أبو جعفر: "وأنتم شهداء على ذلك فيما تقرأون من كتاب الله أن محمدا رسول الله وأن الإسلام دين الله، تجدون ذلك في التوراة والإنجيل".

قال الطبري: "يعني: شهداء على أنّ الذي تصدّون عنه من السبيل حقٌّ، تعلمونه وتجدونه في كتبكم".

قال ابن عاشور: قوله تعالى (وأنتم شهداء) ومعناه وأنتم عالمون أنها سبيل الله، وقد أحالهم في هذا الكلام على ما في ضمائرهم مما لا يعلمه إلا الله، لأن ذلك هو المقصود من وخز قلوبهم، وانثنائهم باللائمة على أنفسهم، ولذلك عقبه بقوله (وما الله بغافل عما تعملون) وهو وعيد وتهديد وتذكير لأنهم يعلمون أن الله يعلم ما تخفي الصدور، وهو بمعنى قوله في موعظتهم السابقة (والله شهيد على ما تعملون) إلا أن هذا أغلظ في التوبيخ لما فيه من إبطال اعتقاد غفلته سبحانه، لأن حالهم كانت بمنزلة حال من يعتقد ذلك.

قوله تعالى: {وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: ٩٩]، أي: "وليس الله بغافل عن أعمالكم".

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠).

وَنَزَلَ لَمَّا مَرَّ بَعْض الْيَهُود عَلَى الْأَوْس وَالْخَزْرَج وَغَاظَهُمْ تَأَلُّفهمْ فَذَكَّرُوهُمْ بِمَا كَانَ بَيْنهمْ فِي الْجَاهِلِيَّة مِنْ الْفِتَن فَتَشَاجَرُوا وَكَادُوا يَقْتَتِلُونَ {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب يَرُدُّوكُمْ بَعْد إيمَانكُمْ كَافِرِينَ}.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١).

{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ} اسْتِفْهَام تَعْجِيب وَتَوْبِيخ {وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَات الله وَفِيكُمْ رَسُوله وَمَنْ يَعْتَصِم} يَتَمَسَّك {بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم}[1].

=

قال ابن كثير: "أخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي: وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون".

قال القاسمي: وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى، فإن الله عز وجل إذا كان عالما بما يعملونه، مطلعا عليه غير غافل عنه، كان لمجازاتهم بالمرصاد.

والغفلة صفة منفية فيجب نفيها عن الله مع إثبات ضدها، فالله لا يغفل لكمال علمه.

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران: ١٠٠].

أي: يا أيها الذين آمنوا بقلوبهم وانقادوا وعملوا بجوارحهم.

والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر

=

=

الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به.

والإيمان شرعا: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان.

تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد:

الأولى: العناية والاهتمام به والتنبيه.

الثانية: الإغراء، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان، كما تقول يا ابن الأجود جد.

الثالثة: أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصا في الإيمان.

قال الأعمش عن خيثمة: "ما تقرأون من القرآن {يا أيها الذين آمنوا}، فإن في التوراة "يا أيها المساكين".

وروي أن "رجلا أتى عبد الله ابن مسعود فقال: أعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله تعالى يقول: {يا أيها الذين آمنوا}، فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

قوله تعالى: {إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [آل عمران: ١٠٠]، أي: "إن تطيعوا جماعة ممن ينتحل الكتابَ من أهل التوراة والإنجيل، فتقبلوا منهم ما يأمرونكم به".

قال مقاتل بن سليمان: "يعني طائفة من الذين أوتوا الكتاب يعني أعطوا التوراة".

قال سعيد بن جبير: "{فريقا}: يعني طائفة".

قال الزجاج: "يعني بالفريق الصنف".

قوله تعالى: {يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [آل عمران: ١٠٠]، أي: "يضلّوكم فيردّوكم بعد إيمانكم جاحدين"".

قال السدي: "يقول: إن حملتم السلاح فاقتتلتم كفرتم".

=

=

قال الزجاج: "أي: إن قلدتموهم ردوكم كافرين، أي: وإن كنتم على غير دينهم وكنتم في عقدكم ذلك كافرين فكذلك إن أطعتموهم او اتبعتوهم فأنتم كافرون".
قال السمعاني: "يعني: يردونكم إلى اليهودية والنصرانية".
قال الطبري: "فنهاهم جَلّ ثناؤه أن ينتصحوهم، ويقبلوا منهم رأيًا أو مشورةً، ويعلِّمهم تعالى ذكره أنهم لهم منطوُون على غِلٍّ وغِش وحسد وبغض".
أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن الربيع بن أنس في قوله: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين}: قال: "فقد تقدم فيهم كما تسمعون، وقد حذركموهم، وأنبأكم بضلالتكم، فلا تأتمنوهم على دينكم، ولا تنتصحوهم على أنفسكم، فإنهم الأعداء والحسدة والضلال، كيف تأتمنون قوما كفروا بكتابهم وقتلوا رسلهم؟ أولئك هم أهل التهمة والعداوة".
قال ابن عاشور: إقبال على خطاب المؤمنين لتحذيرهم من كيد أهل الكتاب وسوء دعائهم المؤمنين، وقد تفضل الله على المؤمنين بأن خاطبهم بغير واسطة خلاف خطابه أهل الكتاب إذ قال (قل يا أهل الكتاب) ولم يقل: قل يأيها الذين آمنوا، (إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من الذين أوتوا الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منحهم به من إرسال رسوله.
وفي قوله تعالى (يردوكم بعد إيمانكم كافرين) تنبيه على أن المقصد الأقصى لهؤلاء اليهود والمنافقين أن يردوا المسلمين عن الإسلام.
كما قال تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق).
وقال تعالى (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء).
وقال تعالى (ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم

=

=

أكبر).

وقال تعالى (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا).

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين).

وقال تعالى (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم).

قوله تعالى: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [آل عمران: ١٠١]، " أي: كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تتنزّل عليكم والوحي لم ينقطع ورسول الله حيٌ بين أظهركم؟".

عن قتادة: "قوله: {وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله}، قال: علمان بينان: نبي الله وكتاب الله، فأما نبي الله فمضى عليه الصلاة والسلام، وأما كتاب الله فأبقاه الله بين أظهركم رحمة من الله، ونعمة فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته".

قال ابن عاشور: قوله تعالى (وفيكم رسوله) حقيقية ومؤذنة بمنقبة عظيمة، ومنة جليلة، وهي وجود هذا الرسول العظيم بينهم، تلك المزية التي فاز بها أصحابه المخاطبون، وبها يظهر معنى قوله صلى ﷺ فيما رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري (لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه).

وفي الآية دلالة على عظم قدر الصحابة وأن لهم وازعين عن مواقعة الضلال: سماع القرآن، ومشاهدة أنوار الرسول عليه السلام فإن وجوده عصمة من ضلالهم.

والأكثرون على تخصيص هذا الخطاب بأصحاب رسول الله ﷺ أو الأوس والخزرج منهم، ومنهم من جعله عاما لسائر المؤمنين وجميع الأمة، وعليه معنى

=

=

كونه ﷺ فيهم، إن آثاره وشواهد نبوته فيهم لأنها باقية حتى يأتي أمر الله، ولم يسند سبحانه التلاوة إلى رسوله عليه الصلاة والسلام إشارة إلى استقلال كل من الأمرين في الباب، وإيذانا بأن التلاوة كافية في الغرض من أي تال كانت.

قال القرطبي: ويدخل في هذه الآية من لم ير النبي ﷺ؛ لأن ما فيهم من سنته يقوم مقام رؤيته.

قال ابن كثير: يعني: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهارا، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى (وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) والآية بعدها.

وكما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه (أي المؤمنين أعجب إليكم إيمانا؟ قالوا: الملائكة. قال: وكيف لا يؤمنون وهم عند ربهم؟ وذكروا الأنبياء قال: وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن. قال: وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟. قالوا: فأي الناس أعجب إيمانا؟ قال: قوم يجيؤون من بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها).

قوله تعالى: {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١]، "أي: توكلا عليه واعتمادا ودعاء واستعانة، ويتمسك بدينه الحق الذي بيَّنه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق، وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم".

وفي هذا حث على الاعتصام بالله، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية. وقد أمر الله بالاعتصام به:

فقال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا).

وقال تعالى (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اتقُوا الله حَقّ تُقَاته} بِأَنْ يُطَاع فَلَا يُعْصَى وَيُشْكَر فَلَا يُكْفَر وَيُذْكَر فَلَا يُنْسَى فَقَالُوا يَا رَسُول الله وَمَنْ يَقْوَى عَلَى هَذَا فَنُسِخَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى {فَاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ} {وَلَا تَمُوتُنَّ إلَّا وَأَنْتُمْ مسلمون} موحدون.

=

ونعم النصير).

وقال تعالى (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما).

قال الربيع بن أنس: "والاعتصام هو: الثقة بالله".

وقال ابن جريج: "{ومن يعتصم بالله}: يؤمن بالله".

أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع رفع الحديث إلى النبي ﷺ أنه قال: "إن الله قضى على نفسه أنه من آمن به هداه، ومن وثق به أنجاه. قال الربيع: وتصديق ذلك في كتاب الله: {ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم}".

وفي: {صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١]، أربعة اقوال:

أحدها: أن"الصراط المستقيم: كتاب الله عزّ وجل". رواه علي بن أبي طالب عن رسول الله-ﷺ-.

والثاني: أن" الصراط: الإسلام". رواه النواس بن سمعان الأنصاري عن رسول الله- ﷺ-.

والثالث: أن "الصراط المستقيم: هو النبي ﷺ وصاحباه بعده رضي الله عنهما". قاله أبو العالية. قال الحسن: "صدق أبو العالية ونصح".

والرابع: أن الصراط المستقيم: الحق. وهذا قول مجاهد.

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣).

{وَاعْتَصِمُوا} تَمَسَّكُوا {بِحَبْلِ الله} أَيْ دِينه {جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} بَعْد الْإِسْلَام {وَاذْكُرُوا نِعْمَة الله} إنْعَامه {عَلَيْكُمْ} يَا مَعْشَر الْأَوْس وَالْخَزْرَج {إذْ كُنْتُمْ} قَبْل الْإِسْلَام {أَعْدَاء فَأَلَّفَ} جَمَعَ {بَيْن قُلُوبكُمْ} بِالْإِسْلَامِ {فَأَصْبَحْتُمْ} فَصِرْتُمْ {بِنِعْمَتِهِ إخْوَانًا} فِي الدِّين وَالْوِلَايَة {وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا} طَرَف {حُفْرَة مِنْ النَّار} لَيْسَ بَيْنكُمْ وَبَيْن الْوُقُوع فِيهَا إلَّا أَنْ تَمُوتُوا كُفَّارًا {فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا} بِالْإِيمَانِ {كذلك} كما بين لكم ما ذكر {يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون}(1).

---

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران: ١٠٢]، أي: "يا معشر من آمنوا بالله ورسوله".

قال مقاتل بن سليمان: "يعني الأنصار".

قوله تعالى: {اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢] أي: اتقوا الله تقوى حقة".

قال الطبري: أي: "خافوا الله وراقبوه بطاعته واجتناب معاصيه، حقّ خوفه، وهو أن يُطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا يُنسى".

قال الزجاج: "أي اتقوه فيما يحق عليكم أن تتقوه فيه".

وفي قوله تعالى: {اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢] وجوه:

أحدها: معناه: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. قاله عبدالله ابن مسعود، وروي عن "مرة الهمداني والربيع بن خثيم، وعمرو بن ميمون، والحسن، وطاوس، وقتادة، وإبراهيم النخعي وأبي سنان، والسدي"، ومقاتل بن سليمان نحو ذلك.

=

=

والثاني: المعنى: أن يجاهد في سبيل الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد.

والثالث: هو أن يعترفوا بالحق في الأمن والخوف.

والرابع: هو أن يُطَاع، ولا يُتَّقى في ترك طاعته أحدٌ سواه.

والخامس: أنه لا يتق الله العبد حق تقاته، حتى يخزن من لسانه. وهذا قول أنس.

قال ابن عاشور: التقوى حاصلها امتثال الأمر، واجتناب المنهي عنه، في الأعمال الظاهرة، والنوايا الباطنة.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: انتقل من تحذير المخاطبين من الانخداع لوساوس بعض أهل الكتاب، إلى تحريضهم على تمام التقوى، لأن في ذلك زيادة صلاح لهم ورسوخا لإيمانهم، وهو خطاب لأصحاب محمد ﷺ ويسري إلى جميع من يكون بعدهم. وهذه الآية أصل عظيم من أصول الأخلاق الإسلامية.

قوله تعالى: {وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢]، "أي: تمسكوا بالإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام".

قال طاوس: أي: "على الإسلام، وعلى حُرْمة الإسلام".

وقال المفضل: "المحسنون الظن بالله".

قال الزجاج: أي: "كونوا على الإسلام فإذا ورد عليكم الموت صادفكم على ذلك".

قال ابن كثير: "أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، فعياذًا بالله من خلاف ذلك".

وقد اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة أم لا على قولين:

=

=

القول الأول: أنها محكمة غير منسوخة، وقد اختار هذا القول الطبري، وابن تيمية، وابن عقيل، ورجحه ابن عطية، والقرطبي، والقاسمي، وابن عاشور.

قالوا إن قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) بيان وتفسير لقوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) والمعنى: فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم.

قال ابن تيمية: فإن الله يقول (فاتقوا الله ما استطعتم) وهذا تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) قال ابن مسعود

وغيره: حق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، أي: بحسب استطاعتكم، فإن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، قال تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت).

وقال ابن عطية بعد ذكره هذا القول (وهذا القول هو الصحيح).

القول الثاني: أنها منسوخة، وإليه ذهب ابن عباس في أحد قوليه، وهو قول قتادة، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، وأبي العالية، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد، ومقاتل بن سليمان.

قالوا: إن قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) ناسخة لقوله (اتقوا الله حق تقاته).

قال سعيد بن جبير: "لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفا على المسلمين: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦]، فنسخت الآية الأولى". وروي عن زيد بن أسلم نحو هذا التفسير.

وروي عن أبي العالية وقتادة ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والسدي: "إنها نسختها {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦]".

وقال مقاتل: "وليس في آل عمران من المنسوخ إلا هذا".

في الآية الأمر بتقوى الله، وقد جاءت آيات كثيرة تأمر بتقوى الله.

=

=

والتقوى مأخوذة من الوقاية، وهي: أن يجعل الإنسان لنفسة وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وهذا من أجمع التعاريف، وقد جاء في معناها آثار عدة عن السلف كلها داخلة تحت خذا المعنى.

قال علي: التقوى: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضى بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقال ابن مسعود: حقيقة تقوى الله: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وقال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله.

قال ابن القيم: وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى.

وروي أن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى؟ فقال: هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت؟ قال: تشمرت وحذرت، قال: فذاك التقوى.

قال ابن المعتز:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى
كن مثل ماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى.

قال ابن القيم: مراتب التقوى:

التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات، والثانية: حميتها عن

=

=

المكروهات، والثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولى تعطي العبد حياته، والثانية تفيده صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته.

قال القرطبي: ذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله، من يقوى على هذا؟ وشق عليهم فأنزل الله عز وجل (فاتقوا الله ما استطعتم) فنسخت هذه الآية.

قال مقاتل: وليس في آل عمران من المنسوخ شيء إلا هذه الآية.

وقيل: إن قوله (فاتقوا الله ما استطعتم) بيان لهذه الآية.

والمعنى: فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم، وهذا أصوب؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى.

(ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذا بالله من خلاف ذلك.

قال الرازي: لفظ النهي واقع على الموت، لكن المقصود الأمر بالإقامة على الإسلام، وذلك لأنه لما كان يمكنهم الثبات على الإسلام حتى إذا أتاهم الموت أتاهم وهم على الإسلام، صار الموت على الإسلام بمنزلة ما قد دخل في إمكانهم، ومضى الكلام في هذا عند قوله (إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون).

قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا} [آل عمران: ١٠٣]، "أي: وتمسكوا بدين الله وكتابه جميعًا".

قال الطبري: أي: "وتمسَّكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عَهده إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله".

=

وفي تفسير قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا} [آل عمران: ١٠٣] ستة أقوال:

أحدها: الحبل: القرآن، وهو قول ابن مسعود، وقتادة، والسدي، والضحاك.

روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله -ﷺ- قال: "كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ المَمْدُودُ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ".

والثاني: أنه دين الله وهو الإسلام، وهذا قول ابن زيد.

والثالث: أنه عهد الله، وهو قول مجاهد، وعطاء. وهو مروي عن قتادة أيضا. كما قال في الآية بعدها: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ} [آل عمران: ١١٢] أي بعهد وذمة.

والرابع: هو الإخلاص لله والتوحيد، وهو قول أبي العالية.

والخامس: هو الجماعة، روي عن عبدالله بن مسعود وابن عباس أن المراد به: الجماعة، ومما يؤيد هذا المعنى حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة) قالوا: يا رسول الله، ومن هذه الواحدة؟ قال: (الجماعة) ثم قال: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا}.

والسادس: أنه طاعة الله. قاله الحسن.

وجميع الأقوال الواردة في المراد بحبل الله صحيحة، ويمكن القول بها جميعا أو ببعضها عند تفسير الآية، فاختلافها من باب اختلاف التنوع لا التضاد.

قال القرطبي - رحمه الله - بعد ذكره للأقوال في معنى (حبل الله): (والمعنى كله متقارب متداخل).

وقال أبو حيان - رحمه الله -: (أقوال السلف يقرب بعضها من بعض).

=

و"الحبل"، يطلق على السبب الذي يوصَل به إلى البُغية والحاجة، ولذلك سمي الأمان "حبلا"، لأنه سبب يُوصَل به إلى زوال الخوف، والنجاة من الجزَع والذّعر، ومنه قول أعشى بني ثعلبة:

وَإِذَا تُجَوِّزُهَا حِبَالُ قَبِيلَةٍ... أَخَذَتْ مِنَ الأُخْرَى إِلَيْكَ حِبَالَها

ومنه قول الله عز وجل: {إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ} [سورة آل عمران: ١١٢].

قال الماوردي: "وسُمَّي ذلك حبلًا لأن المُمْسِكَ به ينجو مثل المتمسك بالحبل ينجو من بئر أو غيرها".

قال السمرقندي: قال بعض الحكماء: إن مثل من في الدنيا، كمثل من وقع في بئر، فيها من كل نوع من الآفات، فلا يمكنه أن يخرج منها والنجاة من آفاتها إلا بحبل وثيق، فكذلك الدنيا دار محنة، وفيها كل نوع من الآفات، فلا سبيل إلى النجاة منها إلا بالتمسك بحبل وثيق، وهو كتاب الله تعالى.

قوله تعالى: {وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣]، أي: "ولا تتفرقوا عن دين الله".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣]، وجهان:

أحدهما: عن دين الله الذي أمر فيه بلزوم الجماعة، وهذا قول ابن مسعود، وقتادة.

والثاني: عن رسول الله -ﷺ-.

وقد وردت الآيات الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف.

قال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات).

وقال تعالى (وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد).

وقال تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين).

وقال تعالى (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه).

=

=

عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال (إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا، يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم؛ ويسخط لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال) متفق عليه.

وعنه. قال: قال ﷺ (... ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا).

وعن أبي مسعود قال (كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم). رواه مسلم

وعن جندب. عن النبي ﷺ قال (اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفت فقوموا عنه).

وعن عبادة. قال (خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرا لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة).

قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ} [آل عمران: ١٠٣]، "أي: اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب".

عن ابن عباس قوله: "{نعمت الله}، يقول: عافية الله".

قوله تعالى: {إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ} [آل عمران: ١٠٣]، " أي حين كنتم قبل الإسلام أعداء الداءً فألف بين قلوبكم بالإسلام وجمعكم على الإيمان".

وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإحن وذحول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى (هو

=

=

الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم الله منها: أن هداهم للإيمان. وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين، فعتب من عتب منهم لما فضل عليهم في القسمة بما أراه الله، فخطبهم فقال (يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟ " كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن).

قال ابن عاشور: قوله: (واذكروا نعمت الله عليكم) تصوير لحالهم التي كانوا عليها ليحصل من استفظاعها انكشاف فائدة الحالة التي أمروا بأن يكونوا عليها وهي الاعتصام جميعا بجامعة الإسلام الذي كان سبب نجاتهم من تلك الحالة، وفي ضمن ذلك تذكير بنعمة الله تعالى، الذي اختار لهم هذا الدين، وفي ذلك تحريض على إجابة أمره تعالى إياهم بالاتفاق.

التذكير بنعمة الله تعالى طريق من طرق مواعظ الرسل.

قال تعالى حكاية عن هود (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح).

وقال عن شعيب (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم).

وقال الله لموسى (وذكرهم بأيام الله).

وهذا التذكير خاص بمن أسلم من المسلمين بعد أن كان في الجاهلية، لأن الآية خطاب للصحابة ولكن المنة به مستمرة على سائر المسلمين، لأن كل جيل يقدر أن لو لم يسبق إسلام الجيل الذي قبله لكانوا هم أعداء وكانوا على شفا حفرة من النار.

قال السدي: أما: {إذ كنتم أعداء}، ففي حرب ابن سُمَير، {فألف بين قلوبكم}، بالإسلام".

=

=

قال قتادة: "، كنتم تذابحون فيها، يأكل شديدكم ضعيفكم، حتى جاء الله بالإسلام، فآخى به بينكم، وألّف به بينكم. أما والله الذي لا إله إلا هو، إنّ الألفة لرحمة، وإن الفرقة لعذابٌ".

واختلف فيمن أريد بهذه الآية على قولين:

أحدهما: أنهم مشركو العرب لِمَا كان بينهم من الصوائل، وهذا قول الحسن.

والثاني: أنهم الأوس والخزرج لِمَا كان بينهم من الحروب في الجاهلية حتى تطاولت مائة وعشرين سنة إلى أن ألّفَ الله بين قلوبهم بالإسلام فتركت تلك الأحقاد، وهذا قول ابن إسحاق.

قوله تعالى: {فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: ١٠٣]، أي: ": فأصبحتم بتأليف الله عز وجل بينكم بالإسلام إخوانا متصادقين".

قال قتادة: "وذكر لنا أن رجلا قال لابن مسعود: كيف أصبحتم؟ قال: أصبحنا بنعمة الله إخوانًا".

قوله تعالى: {وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا} [آل عمران: ١٠٣].

أي: المعنى أنكم كنتم مشرفين بكفركم على جهنم، لأن جهنم مشبهة بالحفرة التي فيها النار فجعل استحقاقهم للنار بكفرهم كالإشراف منهم على النار، والمصير منهم إلى حفرتها، فبين تعالى أنه أنقذهم من هذه الحفرة، وقد قربوا من الوقوع فيها.

قال الربيع بن أنس: "يقول: كنتم على الكفر بالله، " فأنقذكم منها "، من ذلك، وهداكم إلى الإسلام".

قال السدي: "يقول: كنتم على طرَف النار، من مات منكم أوبِقَ في النار، فبعث الله محمدا ﷺ فاستنقذكم به من تلك الحفرة".

قال مقاتل بن حيان: "أنقذكم الله من الشرك إلى الإيمان".

=

=

قال الحسن: أي: "العصبية".

قال الطبري: أي: "على حرف حُفرةٍ من النار. وإنما ذلك مثَلٌ لكفرهم الذي كانوا عليه قبل أن يهديهم الله للإسلام. يقول تعالى ذكره: وكنتم على طرَف جهنم بكفركم الذي كنتم عليه قبل أن يُنعم الله عليكم بالإسلام، فتصيروا بائتلافكم عليه إخوانًا، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا على ذلك من كفركم، فتكونوا من الخالدين فيها، فأنقذكم الله منها بالإيمان الذي هداكم له".

قال الشنقيطي: قوله تعالى (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) هذه الآية الكريمة تدل على أن الأنصار ما كان بينهم وبين النار إلا أن يموتوا مع أنهم كانوا أهل فترة، والله تعالى يقول (وما كنا معذبين إلا أن نبعث رسولا) ويقول (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل).

والذي يظهر في الجواب - والله تعالى أعلم - أنه برسالة محمد ﷺ لم يبق عذر لأحد، فكل من لم يؤمن به فليس بينه وبين النار إلا أن يموت، كما بينه تعالى بقوله (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) الآية.

وما أجاب به بعضهم من أن عندهم بقية من إنذار الرسل الماضين تلزمهم بها الحجة، فهو جواب باطل؛ لأن نصوص القرآن مصرحة بأنهم لم يأتهم نذير كقوله تعالى (لتنذر قوما ما أنذر أباؤهم).

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٣]، " أي: مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات".

قال السدي: "{كذلك}، يعني: هكذا".

قال سعيد بن جبير: "يعني ما بيّن في هذه الآية".

قال الطبري: أي: "كما بيَّن لكم ربكم في هذه الآيات، فكذلك يبين لكم سائر حججه".

=

=

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: ١٠٣]، أي: لأجل أن تهتدوا".

قال الزجاج: "أي: لتكونوا على رجاء هدايته".

قال الطبري: أي: "لتهتدوا إلى سبيل الرشاد وتسلكوها، فلا تضِلوا عنها".

قال أبو مالك: "لعلّ: أي: كي".

قال ابن عاشور: نعمة أخرى وهي نعمة التعليم والإرشاد، وإيضاح الحقائق حتى تكمل عقولهم، ويتبينوا ما فيه صلاحهم.

والبيان هنا بمعنى الإظهار والإيضاح.

والآيات يجوز أن يكون المراد بها النعم، ويجوز أن يراد بها دلائل عنايته تعالى بهم وتثقيف عقولهم وقلوبهم بأنوار المعارف الإلهية، وأن يراد بها آيات القرآن فإنها غاية في الإفصاح عن المقاصد وإبلاغ المعاني إلى الأذهان.

(فائدة) لقد وردت عن السلف الكرام أقوال كثيرة في الحث على التمسك بكتاب الله تعالى وأن الهدى والخير والفلاح كله في ذلك وأنه يجب على كل المسلمين الرجوع إلى كتاب الله والتمسك به في كل أحوالهم واختلافاتهم كما قال الله سبحانه وتعالى: فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ [النساء:٥٩]. وكما في قوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا).

وهذا هو منهج كل من جاء بعد السلف الكرام من التابعين ومن تبعهم من علماء المسلمين وعامتهم وفي كتب شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتلميذه ابن القيم وغيرهما كالطبري وابن كثير وأهل الحديث كالشيخين وغيرهما ممن تزخر بأقوالهم المكتبات الإسلامية في كتبهم من الأقوال والشروحات ما لا مزيد عليه في وجوب التمسك بكتاب الله والعمل به والرجوع إليه. وعلى هذا "فقد اتفق المسلمون سلفهم وخلفهم من عصر الصحابة إلى عصرنا هذا أن الواجب عند الاختلاف في أي أمر من أمور الدين بين الأئمة والمجتهدين هو الرد إلى كتاب الله تعالى وسنة

=

=

نبيه عليه الصلاة والسلام الناطق بذلك الكتاب العزيز ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩] ومعنى الرد إلى الله سبحانه الرد إلى كتابه ومعنى الرد إلى رسوله ﷺ الرد إلى سنته بعد وفاته وهذا مما لا خلاف فيه بين جميع المسلمين".

- وهم يؤكدون أن الخير كله فيها وأن الشر كله في الابتعاد عنها وفي الابتداع الذي يسببه اتباع الهوى والبعد عن السنة والسير خلف التأويلات الباطلة التي هلك بسببها الكثير ممن جرفتهم التيارات المنحرفة ومن تلك الأقوال.- قال عبد الله بن مسعود "اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم".- وعن معاذ بن جبل من كلام له رضي الله عنه قال: "فإياكم وما ابتدع فإنما ابتدع ضلالة".- وقال حذيفة: اتقوا الله يا معشر القراء خذوا طريق من قبلكم فوالله لئن سبقتم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا وإن تركتموه يمينًا وشمالًا فقد ضللتم ضلالًا بعيدًا".- وعن عبد الله بن مسعود قال: يجيء قوم يتركون من السنة مثل هذا يعني الإصبع فإن تركتموهم جاؤوا بالطامة الكبرى وإنه لم يكن أهل كتاب قط إلا كان أول ما يتركون السنة وإن آخر ما يتركون الصلاة ولولا أنهم يستحيون لتركوا الصلاة.- وعن عبد الله بن الديلمي قال: إن أول ذهاب الدين ترك السنة يذهب الدين سنة سنة كما يذهب الحبل قوة قوة.- وعن حسان بن عطية قال: ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة - وعن عمر بن عبد العزيز قال: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله عزّ وجلّ واستكمال لطاعته وقوة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها فمن اقتدى بما سنوا فقد اهتدى ومن استبصر بها بصر ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله عزّ وجلّ ما تولاه وأصلاه جهنم وساءت مصيرا.

- وأقوالهم في هذا الصدد كثيرة وإنما تلك أمثلة يكتفي بها طالب الحق الحريص

=

=

على سلامة دينه من غوائل أقوال أهل الباطل الذين يقدمون البدع على السنة ويحلونها محلها ويعتبرونها دينًا يجب اتباعه.

استدلالهم على وجوب العمل بما ورد عن الصحابة رضي الله عنهم:

يعمل السلف بما ثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم امتثالًا لأمر النبي ﷺ فإن الصحابة أفقه وأعرف بما يقولون وقد زكاهم الله ورسوله وبذلك تعتبر أقوالهم وأفعالهم سنة يجب العمل بها وخصوصًا الخلفاء الراشدين منهم.

ومما ورد في وجوب العمل بما صح عن الصحابة:- جاء عن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها عضوا عليها بالنواجذ).- وعن خصوص أبي بكر وعمر رضي الله عنهما جاء قوله ﷺ: (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) وهذا يدل على مزيد فضلهما ووجوب الاقتداء بهما.

وعلى هذا أجمع السلف وهو من أسس عقائدهم وقد مدح الله السلف الكرام من الصحابة ومن سار على نهجهم بقوله تعالى: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ [التوبة:١٠٠] فهم السابقون الأولون وأصحاب الشرف العظيم في وقوفهم إلى جانب نبيهم في ساعة العسرة وفدائهم له بأموالهم وأنفسهم وهم أول المجاهدين في سبيل الله من هذه الأمة.

وكانت نسبتهم في البداية بالنسبة إلى نسبة الكفار كنسبة الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود فإن الأرض كلها على الشرك وعبادة الأصنام.

فاستعذبوا العذاب في سبيل نشر النور إرضاءً لله تعالى وقربًا إليه ولا يوجد مسلم على ظهر الأرض إلا وهو مدين للصحابة بالشكر والتقدير على نصرتهم رسول الله ﷺ وعلى فتوحاتهم التي عمت أكثر البقاع في عهودهم المجيدة.

=

=

وتلك الحقيقة يعيها كل مسلم إلا من فسدت فطرته وانحرف واتبع هواه كالرافضة الذين ذهبوا يسبونهم ويكفرونهم مضادة للآية الكريمة: وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ [الحشر: ١٠] ولهذا فقد كان ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ حينما يدحض النصرانية ويثبت لهم تحريف كتابهم يستدلون عليه أن المسلمين أيضًا أثبتوا أن في القرآن تحريفًا وزيادةً ونقصًا فيقول لهم لا تحتجوا بكلام الرافضة واحتجوا بكلام المسلمين أو نحو ذلك لمعرفته التامة بأنه لا يمكن أن يقدم مسلم يؤمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا أن يدعي بأن هذا القرآن الموجود بين أيدينا قد تخلى الله عن وعده بحفظه أو أنه سلط عليه من يغيره ويبدله فإن من اعتقد حدوث هذا فقد خرج عن الإسلام إن كان يدعيه وكفر به.

وقوف السلف عند حدود النص

أما بالنسبة لوقوف السلف عند حدود النص وعدم الخوض فيما لا مجال للعقل فيه فهذا دليل من أقوى الأدلة على عمق فهمهم وقوة ذكائهم وحرصهم على ما ينفعهم في دينهم، به يظهر صدق متابعتهم لنبيهم عليه الصلاة والسلام وحرصهم على إقامة سنته والبعد عن ما يكدرها فقد علموا أن العقل من أكبر نعم الله على عباده وأن الله جعله عونًا لصاحبه وربط الله به كثيرًا من القضايا ونوّه به وبعلو شأنه ولكن السلف مع هذا يعلمون علم اليقين أن العقل له حد ينتهي إليه فإذا تجاوزه انقلب إلى الجهل والحمق سنة الله في خلقه وإن تكلف الأمور التي لا سبيل لمعرفتها إلا عن طريق النص يعتبر تعديًا وظلمًا وقد يجر إلى القول على الله بغير علم والكذب عليه مع أنهم ليسوا في حاجة إلى ذلك فإن السنة واضحة ونهج من سبقهم فيها واضح وقد يجر كذلك إلى إحداث البدع وهو الأمر الذي ينفر منه السلف أشد نفور ويحذرون منه أشد تحذير فطالما جر عدم الوقوف عند النصوص إلى إحداث البدع والخرافات بل وإماتة كثير من السنن كما هو الحال

=

=

عند أصحاب الأهواء وعباد العقول وتقديمهم لها على النصوص،. وكم من الفظائع والمآسي ارتكبت بسبب عدم فهم النصوص كما يحدثنا عنها التاريخ بل وإن تكفير أهل البدع بعضهم بعضًا ودليلهم واحد لهو أقوى الأدلة على مضار عدم فهم النصوص إذ إنه لا يوجد أي نص يؤدي إلى تكفير العاملين به بعضهم بعضًا وهو أمر معروف بداهة.

إعراض السلف عن أهل البدع

أما إعراضهم عن أهل البدع وعن مخالطتهم فقد أصبح أمرًا معلومًا بالضرورة عند أهل السنة فقد حذروا من مجالسة أهل البدع والاستماع إليهم لعلمهم أن أصحاب البدع يوردون شبهات يضللون بها العامة قال تعالى: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ [الأنعام:٦٨].

وقال تعالى: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ [النساء:١٤٠].وقال النبي ﷺ: (إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة). وفي رواية: (وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة). وقال النبي ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) وقال ﷺ: (من رغب عن سنتي فليس مني).

وهذه الآيات والأحاديث كلها تدل على وجوب الإعراض عن المبتدعين وعن أقوالهم وما يحدثونه في دينهم بأهوائهم التي يقدمونها على السنة ومن هنا كانت نفرة أهل السنة عن أهل البدع اتباعًا لأمر الله وأمر المصطفى ﷺ ونصحًا لأنفسهم ولغيرهم.

وقد أكد السلف التحذير من أهل البدع ووجوب البعد عنهم.- قال ابن مسعود رضي الله عنه: وستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء

=

=

ظهورهم عليكم بالعلم وإياكم والبدع والتنطع والتعمق وعليكم بالعتيق.- عن مجاهد قال: قيل لابن عمر: إن نجده يقول كذا وكذا فجعل لا يسمع منه كراهية أن يقع في قلبه منه شيء. وعن تحذيرهم من سماع كلام القدرية جاء عن أبي أمامة الباهلي قال: "ما كان شرك قط إلا كان بدؤه تكذيب بالقدر ولا أشركت أمة قط إلا بدؤه تكذيب بالقدر وإنكم ستبلون بهم أيتها الأمة فإن لقيتموهم فلا تمكنوهم من المسألة فيدخلوا عليكم الشبهات" - وعن تحذيرهم من الدخول في الخصومات مع أهل الأهواء جاء رجل إلى الحسن البصري فقال: "يا أبا سعيد إني أريد أن أخاصمك. فقال الحسن: إليك عني فإني قد عرفت ديني إنما يخاصمك الشاك في دينه" - وعن بغض أهل الأهواء وحب الابتعاد عنهم قال أبو الجوزاء: "لئن يجاورني قردة وخنازير أحب إلي من أن يجاورني أحد منهم". يعني أهل الأهواء.- وكان الحسن يقول: "لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم".وكان ابن طاوس جالسًا فجاء رجل من المعتزلة قال: فجعل يتكلم قال فأدخل ابن طاوس إصبعيه في أذنيه وقال لابنه: أي بني أدخل إصبعيك في أذنيك واشدد ولا تسمع من كلامه شيئًا. قال معمر راوي الخبر يعني أن القلب ضعيف.وروى الدارمي عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: "إذا رأيت قومًا يتناجون في دينهم بشيء دون العامة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة".وكان الشافعي ينهى النهي الشديد عن الكلام في الأهواء ويقول: "أحدهم إذا خالف صاحبه قال كفرت والعلم فيه أنما يقول أخطأت". وقال علي بن المديني: "من قال فلان مشبه علمنا أنه جهمي ومن قال فلان مجبر علمنا أنه قدري ومن قال فلان ناصبي علمنا أنه رافضي".

وقد رويت عن السلف من النصوص الكثيرة ما لا يحتمل المقام ذكرها هنا وكلها تهدف إلى أمر واحد هو اجتناب أهل البدع والتحذير منهم امتثالًا لقول الله تعالى:

=

= وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [الأنعام:٦٨].
وقوله تعالى: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا [النساء:١٤٠].

وفي عدم مجالستهم حماية للعقيدة وحماية لقلوبهم لئلا تميل إلى شيء من شبهات أهل الباطل وحتى لا تنتشر أفكارهم بين الناس وفيه كذلك قيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أهل البدع إن لم يجدوا من يرد عليهم تمادوا في باطلهم وضعف في نفوس الناس الإحساس بوجوب تغيير المنكر بل يستمرئون بعد ذلك وقد يعترض البعض فيقول إن مجالستهم ومناظرتهم فيها إقامة للحجة عليهم ودعوة لهم للرجوع أو يقول قد ناظر بعض السلف أهل الباطل كما فعل ابن عباس مع الخوارج وعمر بن عبد العزيز معهم أيضًا والمناظرة المشهورة لعبد العزيز الكناني مع بشر المريسي وغير ذلك والجواب والله أعلم أن مناظرة السلف لأهل البدع تعتبر بالجملة قليلة ولا يناظرونهم إلا إذا رأوا أن المصلحة تقتضي ذلك وفي مجامع عامة وعلنية.

وهي أيضًا لا تكون إلا مع من يرجى منه الرجوع أما المعاندين منهم المصرين على بدعهم الداعين إليها فإنهم كانوا يحذرونهم ويحذرون منهم وهذا من باب الحزم وإنكار المنكر والبعد عن الشر قبل الوقوع فيه فإن مجالسة أهل البدع والاستماع لكلامهم قد يجذب الشخص إليهم وقد يتشوش فكره بكلامهم فإذا حسم الشر من أوله كان أضمن لسلامته ومن هنا فإنه يجب الحذر من قراءة كتب المخالفين والاستماع لخطبهم وكلامهم قبل أن يحصن الشخص نفسه بالقراءة عنهم ومرد شبهاتهم. وقد أخبر النبي ﷺ: (أن من وقع في الشبهات فقد وقع في =

=

الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه).

* أما لزومهم جماعة المسلمين وتحذيرهم من التفرق فهذا أحد الأسس التي قامت عليها عقيدتهم امتثالًا لأمر الله تعالى وأمر نبيه ﷺ فقد استفاضت الأدلة من كتاب الله عزّ وجلّ ومن سنة نبيه ﷺ على وجوب لزوم الجماعة والحذر من التفرق وما يؤدي إليه مهما كان نوعه.

وفي كتاب الله تعالى وسنة المصطفى ﷺ ما يوضح ويؤكد هذا الجانب بمزيد من العناية والبيان.

١ - الأدلة من كتاب الله تعالى:

- قال الله تعالى: وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ [آل عمران:١٠٣].

- وقال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ [الأنعام:١٥٩]

- وقال الله تعالى: وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ [آل عمران:١٠٥]

- قال الله تعالى: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ [الأنعام:١٥٣]

وهذه الآيات وغيرها مما جاء في معناها واضحة الدلالة والمراد، وكلها تهدف إلى منع التفرق في الآراء والمعتقدات التي لا يتصف بها قوم إلا كانوا في طريقهم إلى الفضل رغم وضوح هذه الأدلة ورغم حاجة الأمة الإسلامية إلى العمل بمفهوم هذه الآيات البينات إلا أن المسلمين في عصرنا هذا لم يستفيدوا منها بل كان بعضهم قريبًا من حال الذين أخبر الله عنهم أنهم ازدادوا بمجيء البينات اختلافًا وفرقة وبعدًا عن منهج الله تعالى. قال تعالى: وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ [البينة:٤]. فما أكثر ما يجتمع المسلمون في شكل مؤتمرات

=

=

وندوات ولقاءات ويكون شعارهم هو العمل بهذه الآية: وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ [آل عمران:١٠٣] ولكنهم يخرجون وهم على أشد ما يكونون من الاختلاف والتنافر وما أكثر ما يقرأ المسلمون هذه النصيحة الإلهية: وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ [آل عمران:١٠٥].

وما أكثر ما يقرؤون غيرها من الآيات ولكن لماذا لم يستفيدوا منها؟

والجواب: أنهم حينما يجتمعون يكون كل فريق وحزب في غاية الإصرار على أن حبل الله الذي يجب التمسك به هو ما هو عليه وحزبه ويجب على الآخرين الانضواء تحت رايتهم والسير على نهجهم وكل يرى نفس هذا الرأي وبالتالي يكون اجتماعهم لتعميق هذه الفرقة فلا يستفيدون من تلاوة هذه الآيات شيئًا لعدم إخضاع رغباتهم وأهوائهم لتحكيمها ولعدم رضاهم بالرجوع إلى الحق الذي هدى الله إليه سلف هذه الأمة وصلح عليه أمرهم وما دام كل حزب وكل فرقة تستدل بالآيات على أن الآخرين مفارقين للحق وأن الحق هو بأيديهم فقط وما داموا كذلك فلا أمل في عودة الوحدة الإسلامية. ومن عجيب أمر أهل الأهواء أن البينات التي تفصل النزاعات أصبحت هي بمفاهيم هؤلاء البدعية مصدر الاختلاف والنزاع بسبب عدم التسليم لمفهومها الصحيح وإلا فهي ليست كذلك وحبل الله وصراطه المستقيم واحد لا تعدد فيه وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ [الأنعام:١٥٣] فكيف يتعدد الحق؟ وكيف تصبح كل تلك الفرق والطوائف المبتعدة عن سنة المصطفى ﷺ وعن سبيل المؤمنين؟ كيف يصبحون كلهم على حق؟.

٢- الأدلة من السنة النبوية.

وكما تعددت الأدلة من كتاب الله تعالى على النهي عن التفرق وعلى وجوب التمسك بالجماعة تعددت الأدلة كذلك من السنة النبوية على هذا الجانب الهام

=

=

في العقيدة الإسلامية.

ومما ورد في ذلك:١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يرضى لكم ثلاثًا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم) ٢ - عن حذيفة رضي الله عنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر قال: نعم. قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن. قلت: وما دخنه قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر قلت: فهل بعد الخير من شر قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت: يا رسول الله صفهم لنا قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا قلت فما تأمرني إن أدركني ذلك قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية..) الحديث.- وعن عرفجة بن شريح الأشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان) - وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس والثيب الزاني والمارق من الدين التارك للجماعة)

- وهذه الأحاديث وغيرها مما وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم كلها تؤكد على وجوب لزوم الجماعة والتحذير من التفرق ولو تمسك بها المسلمون وحققوها لكانوا على الخير الذي مضى عليه السلف الكرام من الصحابة ومن تبعهم بإحسان ولعاد

=

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤).

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّة يَدْعُونَ إلَى الْخَيْر} الْإِسْلَام {وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَر وَأُولَئِكَ} الدَّاعُونَ الْآمِرُونَ النَّاهُونَ {هُمْ الْمُفْلِحُونَ} الْفَائِزُونَ وَمِنْ لِلتَّبْعِيضِ لِأَنَّ مَا ذُكِرَ فَرْض كِفَايَة لَا يَلْزَم كُلّ الْأُمَّة وَلَا يَلِيق بِكُلِّ أَحَد كَالْجَاهِلِ[1].

=

للمسلمين سؤددهم وكرامتهم التي فقدت في عصرنا الحاضر بسبب التفرق وعدم الإذعان لتعاليم الشريعة السمحاء ومع ذلك لا يزال الخير إن شاء الله في أمة محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة ما داموا متمسكين بالحق قولًا وعملًا والله تعالى يقول: إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ [الرعد:١١].

(١) قوله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ} [آل عمران: ١٠٤].

أي: وليكن منكم أيها المؤمنون الذين من الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله.

قال الكلبي: "يعني: جماعة".

وقال مقاتل: "يعني: عصبة".

قال الزجاج: يعني: "ولتكونوا كلكم أمة".

قال الضحاك: "قال " هم أصحاب رسول الله ﷺ خاصة وهم الرواة".

قال مقاتل بن حيان: "ليكن منكم قوم، يعني: واحد أو اثنين أو ثلاث نفر فما فوق ذلك". وفي رواية أخرى له: "قوله: {أمة}، يقول: إماما يقتدى به كما قال لإبراهيم كان أمة قانتا يقول: إماما مطيعا لربه يقتدى به".

قال الأخفش: "و"أمة" في اللفظ واحد وفي المعنى جمع فلذلك قال {يدعون}".

قال أبو عبيدة: "قال " الأمة هاهنا الجماعة، والأمة في أشياء سوى هاهنا: الإمام

=

=

الذي يؤتم به " وقوله {وادكر بعد أمة} معناه: "بعد قرن".
قال الماتريدي: قوله: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ}، " يحتمل أن يكون هذا خبرا في الحقيقة، وإن كان في الظاهر أمرا؛ فإن كان خبرا ففيه دلالة أن جماعة منهم إذا قاموا على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - سقط ذلك عن الآخرين؛ لأنه ذكر فيه حرف التبعيض، وهو قوله: {منكم أمة...} الآية.
ويحتمل أن يكون على الأمر في الظاهر والحقيقة جميعا، ويكون قوله: {منكم} - صلة، فإن كان على هذا ففيه أن على كل أحد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وذلك واجب؛ كأنه قال: كونوا أمة {وينهون عن المنكر} الآية؛ لأنه ذكر - جل وعز - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في آي كثيرة من كتابه، منها هذا: رولتكن منكم أمة...} الآية، ومنها قوله: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر}، وذم من تركهما بقوله: {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}.
وروي عن عكرمة أن ابن عباس رضي الله عنهما قال له: "قد أعياني أن أعلم ما يفعل بمن أمسك عن الوعظ، فقلت: أنا أعلمك ذلك، اقرأ الآية الثانية: {أنجينا الذين ينهون عن السوء...}، فقال لي: أصبت".
فاستدل ابن عباس رضي الله عنه - بهذه الآية على أن الله أهلك من عمل السوء، ومن لم ينه عنه من يعمله، فجعل - والله أعلم - الممسكين عن نهي الظالمين مع الظالمين في العذاب".
قوله تعالى: {يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} [آل عمران: ١٠٤]، أي: "يدعون الناس إلى الإسلام وشرائعه".
والخير وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه.
قال مقاتل بن حيان: "إلى الإسلام".

=

=

قال السمرقندي: "ويقال: إلى جميع الخيرات".

قوله تعالى: {وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} [آل عمران: ١٠٤]، أي: ويأمرون "بكل معروف".

قال المظهري: "اى ما عرف من الشرع حسنه واجبا كان او مندوبا".

قال الكلبي: يعني باتباع محمد -ﷺ-".

قال مقاتل بن حيان: "يأمرون بطاعة ربهم".

قال أبو العالية: "كل آية يذكرها الله في القرآن، فذكر الأمر بالمعروف، فالأمر بالمعروف أنهم دعوا إلى الله وحده وعبادته لا شريك له، دعاء من الشرك إلى الإسلام".

قال الراغب: "المعروف: ما يستحسنه العقل ويرد به الشرع".

قال الطبري: أي: "يأمرون الناس باتباع محمد ﷺ ودينه الذي جاء به من عند الله".

قوله تعالى: {وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: ١٠٤] أي: وينهون "عن كل منكر".

قال المظهري: "يعنى: ما أنكره الشرع من المحرمات والمكروهات".

وقال ابن أبي زمنين: "يعني: الشرك بالله".

قال السمرقندي: "يعني: الجبت والطاغوت. ويقال: المنكر، يعني العمل الذي بخلاف الكتاب والسنة. ويقال: ما لا يصلح في العقل".

قال الطبري: ": يعني وينهون عن الكفر بالله والتكذيب بمحمد وبما جاء به من عند الله، بجهادهم بالأيدي والجوارح، حتى ينقادوا لكم بالطاعة".

قال مقاتل بن حيان: "وينهون عن معصيته، يعني: معصية ربهم".

قال أبو العالية: "كل آية ذكر الله في القرآن، فذكر النهي عن المنكر، النهي عن

=

=

عبادة الأوثان والشيطان".

وروي عن سفيان الثوري أنه قال: "إنما يجب النهي عن المنكر إذا فعل فعلًا يخرج عن الاختلاف، أي اختلاف العلماء".

قال بعض أهل العلم: "إنما أمر بعض الناس بقوله، {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ}، ولم يأمر جميع الناس، لأن كل واحد من الناس لا يحسن الأمر بالمعروف، وإنما يجب على من يعلم. ويقال: إن الأمراء، يجب عليهم الأمر والنهي باليد، والعلماء باللسان، والعوام بالقلب، وهنا كما قال عليه الصلاة والسلام: «إذا رَأَى أَحَدٌ مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلك أَضْعَفُ الإيمانِ».

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: "بحسب امرئ إذا رأى منكرًا، لا يستطيع النكير أن يعلم الله من قلبه أنه كاره.".

وروي عن بعض الصحابة أنه قال: "أن الرجل إذا رأى منكرًا، لا يستطيع النكير عليه، فليقل ثلاث مرات: اللهم إِنَّ هذا منكر، فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه".

وقال الزمخشري: قوله {ولتكن منكم أمة}، "من للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا، أو على من الإنكار عليه عبث، كالإنكار على أصحاب المآصر والجلادين وأضرابهم. وقيل «من» للتبيين، بمعنى: وكونوا أمة تأمرون، كقوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون}".

قال الراغب: "المنكر: ما يستقبحه العقل ويحظره الشرع، وعلى ذلك يقال

=

=

للسخاء المعروف في نحو قول الشاعر:

ولم أر كالمعروف أما مذاقه... فحلو وأما وجهه فجميل".

قال السعدي: "وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله (ولتكن منكم أمة) إلخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين".

وقرأ ابن الزبير: «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويستعينون بالله على ما أصابهم»،. ورويت أيضا عن عثمان بن عفان وابن مسعود.

قال ابن الأنباري: "هذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلام من كلامه، غلط فيه بعض الناقلين، فألحقه بألفاظ القرآن، يدل على ذلك أن عثمان بن عفان قرأ:

=

=

"ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم"، فما يشك عاقل في أن عثمان لا يعتد هذه الزيادة من القرآن؛ إذْ لم يكتبها في مصحفه الذي هو إمام المسلمين".

قال ابن عطية: "فهذا [الوجه من القراءة]، وإن كان لم يثبت في المصحف، ففيه إشارة إلى التعرض لما يصيب عقب الأمر والنهي".

قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤]، أي: "الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب".

قال الزجاج: "أي: والذين ذكرناهم المفلحون، والمفلح الفائز بما يغتبط به".

قال ابن عباس: "أي الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا".

قال الطبري: أي: "المنجحون عند الله الباقون في جناته ونعيمه".

قال السعدي: أي: "الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب".

قال ابن قدامة: في هذه الآية بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، لأنه قال (ولتكن منكم أمة) ولم يقل: كونوا آمرين بالمعروف.

قال في التسهيل: وقوله: منكم: دليل على أنه فرض كفاية لأن من للتبعيض، وقيل: إنها لبيان الجنس، وأن المعنى: كونوا أمة. وتغيير المنكر يكون باليد وباللسان وبالقلب، على حسب الأحوال.

(فائدة): الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله أصل عظيم من آكد الأصول الإسلامية وأوجبها وألزمها، حتى ألحقه بعض العلماء بالأركان التي لا يقوم بناء الإسلام إلا عليها، وإنما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب للأمر بالمعروف الذي رأسه وأصله التوحيد، وللنهي عن المنكر الذي رأسه وأصله الشرك والعمل لغير الله، وشرع الجهاد لأجل ذلك، وإن كان الجهاد قدرًا زائدًا على مجرد الأمر والنهي.

=

=

إذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله يتوقف قيام الدين، فلولاه ما قام الإسلام، ولا ظهر دين الله، ولا علت كلمته، ويتوقف أيضًا قيام الدولة الإسلامية واستقامتها وصلاحها على القيام به، كما أن صلاح العباد متوقف على القيام به.

وبيان ذلك: أن جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهي، والأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف، والنهي الذي بعث الله به رسوله هو النهي عن المنكر، وبهذا نعت الله النبي والمؤمنين فقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ} التوبة آية: ٧١، وجميع الولايات -كولاية الحكم، وولاية الحرب، وولاية المال، وولاية الحسبة، وغيرها، إنما مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وولي الأمر إنما نُصِّب ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا هو مقصود الولاية، ولهذا يجب على كل ولي أمر أن يستعين بأهل الصدق والعدل، فإن تعذر ذلك استعان بالأمثل فالأمثل.

بل إن صلاح العباد جميعهم يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ إن صلاح العباد ومعائشهم في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس كما قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ} آل عمران آية: ١١٠، ولا يرى تركه والمداهنة فيه إلا من أضاع حظه ونصيبه من العلم والإيمان، فما أَجَلَّ هذا الأصل وما أَعْظَمَهُ وأخطر شأنه في الإسلام؟

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات، وأجلها وأفضلها.

ولقد دل على وجوبه الكتاب والسنة، كما نقل الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم كابن عطية، والجصاص، والغزالي، وابن حزم، والنووي، وأبي

=

=
المعالي الجويني وغيرهم.
وإذا تأملت نصوص الكتاب والسنة في طلب هذا الأمر العظيم ألفيت ذلك قد ورد باستفاضة كبيرة جدا مع تنوع في الأساليب.
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الحرج والإثم عن الباقين، وإن لم يقم به أحد أثم القادرون جميعا، وفي المنكر المعين يأثم كل من علم به وكانت لديه القدرة على إنكاره فلم ينكر ولم يكن له عذر في سكوته. وينبغي هنا التفطن إلى أمرين هما:
الأول: أن الإنكار بالقلب لا ينفك عن أحد أبدا كما سيأتي.
الثاني: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يتحول إلى فرض عين وذلك إذا كان المنكر المراد رفعه أو المعروف المراد إيجاده وفعله لا يتمكن من القيام به - أي الأمر والنهي- إلا فلان بعينه، فإنه يتعين عليه.. كذلك يقال إذا لم يعلم به غيره. وهذا يكثر وقوعه في البيوت، فإن الناس غالبا لا يطلعون على ما يدور فيها فـ (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) وهو جزء من حديث رواه البخاري (٥٢٠٠)، ومسلم (١٨٢٩). من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
هذا وقد دار خلاف طويل حول قوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير) [آل عمران: ١٠٤] ومحور الخلاف هو قوله منكم هل (من) هنا بيانية أو تبعيضية؟! فذهب جماعة منهم الزجاج والرازي والبغوي إلى أنها بيانية، ورجحه من المعاصرين صاحب صفوة الآثار والمفاهيم (٤/ ٢٧٠).
قال الزجاج في تفسيره معاني القرآن (١/ ٤٥٢ - ٤٥٣): ومعنى (ولتكن منكم أمة) -والله أعلم- ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف، ولكن (من) تدخل ههنا لتخص المخاطبين من سائر الأجناس وهي مؤكدة أن الأمر للمخاطبين، ومثل هذا من كتاب الله فاجتنبوا الرجس من الأوثان [الحج:
=

=

٣٠] ليس يأمرهم باجتناب بعض الأوثان، ولكن المعنى: اجتنبوا الأوثان فإنها رجس. ومثله من الشعر قول الشاعر:

أخو رغائب يعطيها ويسألها * يأبى الظلامة منه النوفل الزفر

أي: هو النوفل الزفر. لأنه قد وصفه بإعطاء الرغائب والنوفل: الكثير الإعطاء للنوافل والزفر: الذي يحمل الأثقال.

والدليل على أنهم أمروا كلهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوله جل وعلا: كنتم خير أمة [آل عمران: ١١٠] ا. هـ.

وقال الرازي في تفسيره (٨/ ١٦٧) بعد نقله حجة أصحاب القول الأول -وهو هذا- (إذا ثبت هذا فنقول معنى هذه الآية: كونوا أمة دعاة إلى الخير، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وأما كلمة (من) فهي هنا للتبيين لا للتبعيض كقوله تعالى: فاجتنبوا الرجس من الأوثان [الحج: ٣٠] ويقال: لفلان من أولاده جند يريد بذلك جميع أولاده لا بعضهم..) ا. هـ.

وقال أبو السعود في تفسيره (٢٠/ ٦٧): وقيل (من) بيانية كما في قوله تعالى: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم... [الفتح: ٢٩] الآية، والأمر من كان الناقصة والمعنى (كونوا أمة تدعون...) كقوله تعالى: كنتم خير أمة... [آل عمران: ١١٠] ولا يقتضي ذلك كون الدعوة فرض عين، فإن الجهاد من فروض الكفاية مع ثبوته بالخطابات العامة ا. هـ.

ويمكننا تلخيص ما يمكن أن يستدل به أصحاب هذا القول فيما يلي:

١- إيجاب الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله: كنتم خير أمة أخرجت....

٢- أنه ليس أحد من المكلفين إلا وجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد أو اللسان أو القلب.

=

=

ومما ينبغي التنبه له أن أصحاب هذا القول يقولون: إنه وإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبا على الكل إلا أنه متى قام به البعض سقط عن الباقين، ونظيره قوله تعالى: انفروا خفافا وثقالا [التوبة: ٤١] وقوله: إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما... [التوبة: ٣٩] فالأمر عام وكذا الوعيد، ثم إذا قامت به طائفة وقعت الكفاية وزال التكليف عن الباقين.

وذهب آخرون كمقاتل بن حيان، وابن جرير، وابن كثير، وابن العربي، والقرطبي، والشوكاني، إلى أنها تبعيضية.

أخرج ابن أبي حاتم برقم (١١٢٥) بإسناد حسن عن مقاتل بن حيان في قوله: ولتكن منكم أمة... [آل عمران: ١٠٤] يقول: (ليكن منكم قوم يعني: واحد أو اثنين أو ثلاثة نفر فما فوق ذلك).

وقد جوز الزجاج في معاني القرآن (١/ ٤٢٥ - ٤٥٣) هذا المعنى مع ميله إلى الأول كما هو ظاهر كلامه حيث قال: (ويجوز أن تكون أمرت منهم فرقة لأن قوله ولتكن منكم ذكر الدعاة إلى الإيمان، والدعاة ينبغي أن يكونوا علماء بما يدعون إليه، وليس الخلق كلهم علماء، والعلم ينوب فيه بعض الناس عن بعض، وكذلك الجهاد) (١٢) ا. هـ.

وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٢٦٧): ومن تبعيضية متعلقة بالأمر، أو بمحذوف وقع حالا من الفاعل وهو أمة أو يدعون صفتها أي: لتوجد منكم أمة داعية إلى الخير، والأمة هي الجماعة التي يؤمها فرق الناس، أي يقصدونها ويقتدون بها، أو من الناقصة وأمة اسمها. ويدعون خبرها، أي: ولتكن منكم أمة داعين إلى الخير. وأيا كان فتوجيه الخطاب إلى الكل مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقين، ولو أخل بها الكل أثموا جميعا ا. هـ.

=

=

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٩٠): يقول الله تعالى: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك هم المفلحون... والمقصود من هذه الآية: أن تكون فرقة من هذه الأمة منصوبة لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (من رأى منكم منكرا..)) الحدي ا. هـ.

ثم إن أصحاب هذا القول اختلفوا في التبعيض في الآية على قولين هما: الأول: أن فائدة كلمة من هي أن في القوم من لا يقدر على الدعوة ولا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل النساء والمرضى والعاجزين.

الثاني: أن هذا التكليف مختص بالعلماء ويدل عليه وجهان:

١- أن هذه الآية مشتملة على الأمر بثلاثة أشياء: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومعلوم أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير وبالمعروف وبالمنكر، فإن الجاهل ربما دعا إلى الباطل، وأمر بالمنكر، ونهى عن المعروف، فثبت بهذا أن التكليف متوجه إلى العلماء، ولا شك أنهم بعض الأمة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: فلولا نفر من كل فرقة منهم طآئفة ليتفقهوا في الدين... [التوبة: ١٢٢].

٢- أنا أجمعنا على أن ذلك واجب على سبيل الكفاية، بمعنى أنه متى قام به البعض سقط عن الباقين، وإذا كان كذلك كان المعنى: ليقم بذلك بعضكم، فكان في الحقيقة إيجابا على البعض لا على الكل والله أعلم.

وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم (٧٠) من حديث أبي سعيد.

=

=
قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح صحيح مسلم: (قوله ﷺ "فليغيره " أمر إيجاب بإجماع الأمة، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة وهو أيضا من النصيحة التي هي الدين.) انتهى.
وقال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفروق (٤/ ٢٥٧): "قال العلماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الفور إجماعا فمن أمكنه أن يأمر بمعروف وجب عليه " انتهى.
وقال النووي أيضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٣): في بيان من يجب عليه إنكار المنكر: "ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف، ثم إنه قد يتعين -أي يصير واجبا على شخص بعينه- كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على المنكر أو تقصير في المعروف، قال العلماء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه بل يجب عليه فعله فإن الذكرى تنفع المؤمنين " انتهى.
فإنكار المنكر إذا لا يتقيد بعدد بحيث ينكر مرة أو مرتين ثم يترك؛ بل من رأى منكرا وقدر على إنكاره، وجب عليه ذلك.
لكن اختلف العلماء في مسألة الإنكار على من يظن أنه لا ينزجر عن المنكر بالإنكار عليه فمنهم من يرى وجوب الإنكار عليه إعذارا إلى الله، وتأميلا في أن ينتفع الموعوظ، وهو ظاهر كلام النووي السابق. ومنهم من يرى عدم الوجوب لكنه يستحب عنده.
قال السفاريني الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١/ ٢١٥): هل من شرط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رجاء حصول
=

=

المقصود أو لا؟ على روايتين عن الإمام أحمد رضي الله عنه. نقل أبو الحارث الوجوب، ونقل حنبل عكسه. قال في نهاية المبتدئين: وإنما يلزم الإنكار إذا علم حصول المقصود ولم يقم به غيره، وعنه إذا رجا حصوله، وهو الذي ذكره ابن الجوزي، وقيل ينكره وإن أيس من زواله وخاف أذى أو فتنة.

وقال في نهاية المبتدئين: إنما يجوز الإنكار فيما لا يرجى زواله وإن خاف أذى، وقيل لا، وقيل يجب. والذي ذكره القاضي في المعتمد أنه لا يجب ويخير في رفعه إلى الإمام خلافا لمن قال يجب رفعه. قال في الآداب: وإذا لم يجب الإنكار فهو أفضل من تركه، جزم به ابن عقيل. قال القاضي خلافا لأكثرهم في قولهم ذلك قبيح ومكروه إلا في موضعين: أحدهما: كلمة حق عند سلطان جائر.

والثاني: إظهار الإيمان عند ظهور كلمة الكفر. انتهى.

وقال الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين النووية: حكى القاضي أبو يعلى روايتين عن الإمام أحمد في وجوب إنكار المنكر على من يعلم أنه لا يقبل منه وصحح القول بوجوبه وهو قول أكثر العلماء، وقد قيل لبعض السلف في هذا فقال يكون لك معذرة " انتهى.

وقد قيل لبعض السلف في هذا فقال يكون لك معذرة، وهذا كما أخبر الله عن الذين أنكروا على المعتدين في السبت أنهم قالوا لمن قال لهم {لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون} [الأعراف: ١٦٤] ا. هـ

وقال ابن رشد رحمه الله في "البيان والتحصيل": "إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم بثلاثة شروط:

أحدها: أن يكون عارفا بالمعروف والمنكر. إذ لا يأمن من أن ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر لجهله بحكمهما.

=

=

والثاني: أن لا يؤدي إنكاره المنكر إلى منكر أكبر منه مثل أن ينهاه عن شرب الخمر فيؤول نهيه عن ذلك إلى قتل نفس وما أشبه ذلك.

والثالث: أن يعلم أو يغلب على ظنه أن إنكاره المنكر مزيل له ، وأن أمره مؤثر ونافع. فالشرطان: الأول والثاني مشترطان في الجواز، والشرط الثالث مشترط في الوجوب فإذا عدم الشرط الأول والثاني لم يجز أن يأمر ولا ينهى ، وإذا عدم الشرط الثالث ووجد الشرط الأول والثاني جاز له أن يأمر وينهى ولم يجب ذلك عليه " انتهى نقلا عن "المدخل" لابن الحاج (١/ ٧٠) باختصار.

وقال الغزالي في الإحياء (٢/ ٣٢٨): "إذا علم أنه لا يفيد إنكاره، ولكنه لا يخاف مكروها فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها، لكن تستحب لإظهار شعائر الإسلام وتذكير الناس بأمر الدين " انتهى.

وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية ، إذا قام به من يكفي سقط عن الناس ، وإذا لم يقم به من يكفي: وجب على الناس أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، لكن لابد أن يكون بالحكمة، والرفق، واللين؛ لأن الله أرسل موسى وهارون إلى فرعون وقال: (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) طه/ ٤٤، أما العنف: سواء كان بأسلوب القول، أو أسلوب الفعل: فهذا ينافي الحكمة ، وهو خلاف ما أمر الله به.

ولكن أحيانا يعترض الإنسان شيء يقول: هذا منكر معروف ، كحلق اللحية مثلا ، كل يعرف أنه حرام، خصوصا المواطنون في هذا البلد ، ويقول: لو أنني جعلت كلما رأيت إنسانا حالقا لحيته - وما أكثرهم - وقفت أنهاه عن هذا الشيء: فاتني مصالح كثيرة ، ففي هذه الحال: ربما نقول بسقوط النهي عنه؛ لأنه يفوت على نفسه مصالح كثيرة ، لكن لو فرض أنه حصل لك اجتماع بهذا الرجل في دكان أو في مطعم أو في مقهى: فحينئذ يحسن أن تخوفه بالله ، وتقول: هذا أمر محرم،

=

=

وأنت إذا أصررت على الصغيرة صارت في حقك كبيرة ، وتقول الأمر المناسب " انتهى من "لقاءات الباب المفتوح" (١١٠/ ٥).

(فرع): متى يتعين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هناك أحوال يجب فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوبا عينيا.

يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين على من تعينه الدولة للقيام به، قال نظام الدين النيسابوري كما في غرائب القرآن ورغائب الفرقان على هامش ابن جرير (٤/ ٣): إن نصب لذلك رجل تعين عليه بحكم الولاية وهو المحتسب ا. هـ

وقال الماوردي في الأحكام السلطانية (ص٢٤٠): إن فرضه متعين على المحتسب بحكم الولاية وفرضه على غيره داخل في فروض الكفاية ا. هـ

ويكون فرض عين أيضا إذا كان المعروف في موضع تطمس معالمه والمنكر يقترف فيه، ولا يعرف ذلك إلا رجل واحد، أو لا يقدر على إزالته إلا رجل واحد تعين عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال النووي في المنهاج (٢/ ٢٣): إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية ثم إنه قد يتعين إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو ا. هـ

وكذا إذا احتاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جدال واحتجاج ومناقشة كان فرض عين على من يصلح لذلك إذا لم يوجد غيره، يقول ابن العربي المالكي في أحكام القرآن، (١/ ١٢٢): الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية... وقد يكون فرض عين إذا عرف المرء من نفسه صلاحية النظر والاستقلال بالجدال أو عرف ذلك منه ا. هـ

وبين الإمام النووي في المنهاج (٢/ ٢٣) هذا الأمر بأسلوب آخر فقال: ثم إنه قد يتعين إذا كان لا يتمكن من إزالته إلا هو كمن يرى زوجته أو ولده.. على منكر أو

=

=

تقصير في المعروف.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في كتاب الحسبة في الإسلام (ص٣٧): وهو فرض كفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره ا. هـ

وسئل علماء اللجنة الدائمة (١٢/ ٣٢٩): هل ما تضمنه القرآن الكريم والسنة الصحيحة من نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالبيان والإرشاد يدل على وجوب ذلك عينا على كل عالم، لا تبرأ ذمته إلا بذلك، أو هذا فرض كفاية إذا قام به بعضهم كفى عن الباقين؟

فأجابوا: الحكم في ذلك يختلف باختلاف قلة العلماء وكثرتهم وتفاوتهم في العلم والمنزلة، فقد يحتاج الناس إلى بيان الحكم الشرعي ولا يوجد بينهم من العلماء إلا واحد، فيجب عليه وجوبا عينيا أن يجيب السائل، ويرشد الحيران، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقد يكون بينهم عدد كثير من العلماء، لكن لا يقوى على البيان والإرشاد، أو الأمر والنهي منهم إلا واحد، إما لسعة علمه أو لقوة مركزه أو لفصاحته وحسن بيانه، فيجب عليه عينا أن يقوم بالبيان والنصح والأمر والنهي، وقد يكون في البلد كثير من العلماء، وكل منهم يقوى على الأمر والنهي والبيان، فيجب عليهم البيان وجوبا كفائيا، فإن قام أحدهم بما وجب سقط عن الباقين، وإن لم يقم بذلك أحد أثموا جميعا ا. هـ

(تنبيه): شَرْط سقوط الحرج عن الباقين، إذا قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من يكفي هو أن يكون سكوته لعلمه أن هذا الواجب قد قام به من يكفي.

قال ابن النحاس في كتابه تنبيه الغافلين (ص١٥ - ١٦): "واعلم أن مقتضى فرض الكفاية، أنه إذا قام به البعض حاز الأجر الجزيل من الله تعالى، وسقط الحرج عن الباقين، ولكن يشترط في سقوط الحرج هنا أن يكون الساكت عن الأمر والنهي إنما سكت لعلمه بقيام من قام عنه بالغرض، فإن سكت ولم يعلم بقيامه، فالظاهر

=

=

-والله أعلم- أنه لا يسقط عنه الحرج؛ لأنه أقدم على ترك واجب عمدًا، كما لو أقدم على الفطر في رمضان؛ ظانًّا منه النهار باقٍ وكان ليلًا، أو جامع ظانًّا أن الفجر قد طلع وكان ليلًا، فإنه يأثم بذلك.

(تنبيه ثاني): قال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: والإنكار بالقلب فرض على كل واحد؛ لأنه مستطاع للجميع، وهو بغض المنكر، وكراهيته، ومفارقة أهله عند العجز عن إنكاره باليد واللسان؛ لقول الله سبحانه: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) الأنعام/ ٦٨، وقال تعالى في سورة النساء: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) الآية، النساء/ ١٤٠، وقال تعالى: (والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما) الفرقان/ ٧٢، ومعنى لا يشهدون الزور لا يحضرونه. " فتاوى الشيخ ابن باز " (٣/ ٢١٢، ٢١٣).

(فرع): هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الفور أم على التراخي.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الأصل فيه يكون على الفور لكن هناك منكرات تحتمل التأجيل كصاحب المنكرات المتفاوتة في الصغر والكبر فتبدأ بالأكبر فالأصغر وكذلك الغضبان يُنكر عليه بعد هدوءه ونحو ذلك، وكما لو كان بحضرة المحتسب وقت وقوع المنكر من يحمل كلام المحتسب على غير محمله فيتضرر لسوء فهمه فللمحتسب أن يؤخر الإنكار حتى تحين الفرصة المناسبة وفي ذلك يقول العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: تأخير إنكار المنكر قد يكون من باب استعمال الحكمة في الدعوة إلى الله، فقد يكون هذا الرجل الفاعل للمنكر لا يناسب أن ننكر عليه في هذا الوقت بالذات، لكن سأحتفظ لنفسي بحق الإنكار عليه ودعوته إلى الحق في وقت يكون أنسب، وهذا في الحقيقة طريق صحيح، فإن هذا الدين -

=

=

كما نعلم جميعا- بدأ بالتدرج شيئًا فشيئًا، فأقر الناس على ما كانوا يفعلونه من أمور كانت في النهاية حرامًا من أجل المصلحة، فهذه الخمر مثلًا بين الله تعالى لعباده أن فيها إثمًا كبيرًا ومنافع للناس، وأن إثمها أكبر من نفعها، وبقي الناس عليها حتى نزلت آخر آية فيها تحرمها بتاتا، فإذا رأى إنسان من المصلحة أن لا يدعو هذا الرجل في هذا الوقت، أو في هذا المكان، ويؤخر دعوته في وقت آخر، أو في مكان آخر، لأنه يرى أن ذلك أصلح أو أنفع، فهذا لا بأس به.

(فرع): في حد الإكراه المسقط للأمر والنهي.

من المعلوم أن الإنسان يكره الأذى كالضرب، أو طول اللسان، أو الغيبة، وما من شخص يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا ويتوقع منه غالبا نوع من الأذى، لذلك كان لابد من معرفة حد المكروه الذي يسقط بسببه وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فاعلم أن مطالب الناس في هذه الدار ترجع إلى أربعة أمور يطلبها الإنسان لنفسه ومن أحب كالقرابة ونحوهم وهي:

الأول: مطلوب في النفس وهو العلم.

الثاني: مطلوب في البدن وهو الصحة.

الثالث: مطلوب في المال وهو الثروة.

الرابع: مطلوب في قلوب الناس وهو الجاه.

والمكروه في هذه الأمور الأربعة أمران:

الأول: زوال الموجود منها.

الثاني: امتناع المرتقب.

وكل واحد من هذين الأمرين يحصل بفواته الضرر، ولكي تجلى لك صورة الأمر نمثل لك على تعرض كل واحد من تلك المطالب الأربعة للزوال باعتبار ما هو

=

=

حاصل وموجود منها، لا ما كان مرتقبا.

فأما العلم: فلا يمكن لأحد رفعه من قلب صاحبه، وهذا من مزايا العلم وشرفه على غيره كما هو معلوم فانتفى المحذور من هذا الوجه.

وأما البدن: فقد يقصد بالعطب الكامل وذلك بالقتل فهذا يسقط الوجوب ولا ريب، وقد يقصد بأذى دونه كالضرب أو قطع شيء من الأعضاء ونحو ذلك، وهذا على قسمين وهما:

١- القسم الأول: ما كان الأذى فيه غير معتبر كالضربة الخفيفة ونحوها. فهي غير مؤثرة ولا معتبرة في إسقاط الوجوب.

٢- القسم الثاني: ما كان الأذى فيه معتبرا كالضرب المؤثر، وقطع شيء من الأعضاء وما جرى مجرى ذلك فإن هذا يسقط الوجوب.

وأما المال فهذا على قسمين أيضا وهما:

الأول: ما كان زواله غير مؤثر ولا منظور كنقص حبيبات من بر، أو درهم من ممتلكات المحتسب وهذا على سبيل التغليب، وإلا فلا شك أن ذلك يختلف باختلاف الناس.

الثاني: ما كان زواله مؤثرا على صاحبه، كإتلاف المال، أو جزء له قيمة معتبرة منه، وهذا مسقط للوجوب.

وأما الجاه فهو على قسمين أيضا وهما:

الأول: ما كان غير معتبر، وهو ما كان بنحو غيبة تقال فيه، أو لمز أمام أحد من الخلق، أو تجهيل أو نحو ذلك كأن يخرج من داره حاسر الرأس مثلا - وإن كان هذا يتفاوت ويختلف باختلاف الأعراف وتفاوتها - أو كأن يمنع من ركوب المراكب الفاخرة التي اعتاد ركوبها ونحو ذلك فهذا كله غير معتبر. وهذا هو الذي يعبر عنه بالجاه المحض.

=

=

الثاني: ما كان معتبرا، كأن يسود وجهه ويطاف به على حمار في السوق أو نحو ذا، فإن هذا يسقط الوجوب عنه وهو ما يعبر عنه بخوارم المروءة وليس كلها مسقطا للوجوب.

وأما التمثيل لما يخاف امتناع ما هو منتظر منها فكما يلي:

ففي جانب العلم: كأن يخشى الإنكار على معلمه أو من لو أنكر عليه لحال بينه وبين التعلم فيقال في هذا إن له ثلاثة أحوال.

الأولى: أن يجد غيره فهذا لا يسقط عنه الأمر والنهي فينكر عليه أو يأمره فإن امتنع من تعليمه ذهب وتعلم من غيره.

الثاني: أن لا يجد غيره لكن العلم الذي يتلقاه منه ليس فرضا في حقه فإن هذا أيضا لا يسقط الوجوب عنه.

الثالثة: أن لا يجد غيره والعلم الذي يتعلمه منه فرض في حقه، كتعلم الوضوء والصلاة ونحو ذلك، فإن القول بسقوط الإنكار عنه متجه والله أعلم.

وأما في البدن: فكأن يترك الإنكار على الطبيب خوفا من أن لا يداويه إذا اعتل أو خاف أن يتأخر عنه فتمتنع بسببه صحته المرتقبة.

وأما في المال: فكتركه الحسبة على السلطان وأصحابه، وعلى من يواسيه من ماله خوفا من أن يقطع إدراره في المستقبل ويترك مواساته.

وأما الجاه: فكتركه الحسبة على من يتوقع منه نصرة أو جاها في المستقبل فيخشى أن لا يحصل له ذلك الجاه أو كأن يخاف أن يقبح حاله عند السلطان الذي يتوقع منه ولاية. فإن هذا واللذين قبله لا يسقطان شيئا من وجوب الحسبة لأن هذه زيادات امتنعت.

والذي يمكن أن يستثنى من ذلك هو ما تدعو إليه الحاجة ويكون في فواته محذور يزيد على محذور السكوت على المنكر. كما إذا كان محتاجا إلى الطبيب لمرض

=

=

ناجز والصحة منتظرة من معالجة الطبيب ويعلم أن في تأخره عنه شدة الضنا به وطول المرض وقد يفضي إلى الهلاك فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرخص له في ترك الحسبة.

المسألة الثانية: هل للإنسان أن يسكت عن الإنكار بيده أو بلسانه خوفا على منصبه؟!

الجواب: أن صاحب هذا المنصب إن كان بقاؤه فيه لا يقدم نفعا للمسلمين ولا لدعوتهم إما لطبيعته وإما لحال صاحبه أو غير ذلك، فإن هذا لا يجوز له أن يسكت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل بقاء هذا المنصب.

أما إن كان بقاؤه فيه ينتج منه مصالح للأمة وخدمات للدعوة إلى الله تعالى كالخطيب في منبره أو المعلم أو نحو ذلك فقد يسوغ له أن يسكت عن بعض الأمور إذا غلب على ظنه أن إنكاره لها يكون سببا في إبعاده عن هذا المنصب.

أما إن كان يؤدي إلى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلية فهذا لا يظهر وجهه والله أعلم.

وبالجملة فإن الأمور تقدر بقدرها ولكل حالة حكم والله المستعان، لكن ينبغي الحذر من مداخل الهوى في هذا الباب، فقد يصور المرء لنفسه أن منصبه مهم لخدمة الدعوة ومصلحتها وإنما الذي يحركه في ذلك هواه.

(فائدة): قال تعالى: (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين) [الأنفال: ٦٥] ثم نزل قوله: الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين) [الأنفال: ٦٦] قال ابن عباس: (فكتب أن لا يفر مائة من مائتين)، قال سفيان: وقال ابن شبرمة: (وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا) رواه البخاري (٤٦٥٢) ا. هـ.

=

=

المسألة الثالثة: هل يشترط في الخوف من لحوق المكروه غلبة الظن، أو يكفي في ذلك تجويز الوقوع؟ وما ضابط ذلك:

قال الغزالي في الإحياء (٢/ ٣١٦ - ٣١٧): فإن قيل: فالمكروه الذي تتوقع إصابته إن لم يكن متيقنا ولا معلوما بغالب الظن ولكن كان مشكوكا فيه، أو كان غالب ظنه أنه لا يصاب بمكروه، ولكن احتمل أن يصاب بمكروه، فهذا الاحتمال هل يسقط الوجوب حتى لا يجب إلا عند اليقين بأنه لا يصيبه مكروه، أم يجب في كل حال، إلا إذا غلب على ظنه أنه يصاب بمكروه؟! قلنا: إن غلب على الظن أنه يصاب بمكروه لم يجب، وإن غلب على الظن أنه لا يصاب وجب، ومجرد التجويز لا يسقط الوجوب فإن ذلك ممكن في كل حسبة. وإن شك فيه من غير رجحان فهذا محل النظر، فيحتمل أن يقال: الأصل الوجوب بحكم العمومات، وإنما يسقط بمكروه، والمكروه هو الذي يظن أو يعلم حتى يكون متوقعا. وهذا هو الأظهر. ويحتمل أن يقال: إنه إنما يجب عليه إذا علم أنه لا ضرر فيه عليه، أو ظن أنه لا ضرر عليه. والأول أصح، نظرا إلى قضية العمومات الموجبة للأمر بالمعروف. فإن قيل: فالتوقع للمكروه يختلف بالجبن والجراءة فالجبان الضعيف القلب يرى البعيد قريبا حتى كأنه يشاهده ويرتاع منه. والمتهور الشجاع يبعد وقوع المكروه به بحكم ما جبل عليه من حسن الأمل حتى إنه لا يصدق به إلا بعد وقوعه، فعلى ماذا التعويل؟! قلنا: التعويل على اعتدال الطبع وسلامة العقل.. ا. هـ.

وإنما تؤتى الدعوات من أحد هذين الصنفين الذين ذكرهما فالمتهور يوقع نفسه ومن معه في مهالك تجهز عليهم وعلى دعوتهم وتفتح الباب على مصراعيه لعدوهم المتربص لضربهم ونسف جهودهم في الدعوة.. وهذا النوع يفسد في الغالب أكثر مما يصلح، ولا حيلة معه إلا بأن يروض نفسه ولو تكلفا، كما ينبغي

=

=

له أن يستشير من هو أعقل وأعلم منه، وعليه أن يقبل المشورة.

أما ضعيف القلب والذي يخاف ظله.. ويتوهمه عدوا يطارده فعليه أن يعود نفسه على الإقدام حتى في حال خوفه لعل هذا الخوف أن يزول عنه.. وهذا النوع من الخلق لا يقل خطرا على الدعوات من الأول، ولذا فلا ينبغي أن يولى هذان على رجلين أبدا. فهذا الضعيف كم من جهاد عطل بسببه، وكم من عمل بر أو حلقة علم جمدت نتيجة لأوهامه، وبالجملة فإن مجالسة هذا الصنف -أعني الأخير- تفسد قوى النفس وتجلب الوهن والوهم والخوف من النسمات ومثل هذا والذي قبله لا يصلح أن يحمل دعوة ولا أن يوجه أمة فمن أراد السلامة فعليه اجتنابهما، وعند البخاري (٥٧٠٧) (فر من المجذوم فرارك من الأسد) بل إن مجالسة المجاذيم أهون من مجالسة صاحب الوهن إن كان وهنه متعديا كما سبق، لأن الجذام إذا أصيب به الإنسان -بإذن الله- تآكلت أطرافه وتعطلت قواها.

أما هذا الواهن الموهن فإن مجالسته سبب لتآكل قوى القلب وتلاشيها حتى يصير صاحبها لا يقدر على تحريك ساكن.

وغالبا ما يكون الأول -أعني المتهور- أكثر صدقا من الثاني، لكنه لقلة علمه أو عقله وتجربته يتسرع فيوقع نفسه فيما هو في غنى عن الوقوع فيه.

أما الثاني فغالبا ما يكون سبب ضعفه إنما هو خوفه على نفسه أو منصبه، وهذا قد يوقعه في المداهنة كثيرا. والله المستعان.

ومما يدل على أن مجرد هيبة الناس لا تكفي في إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قام خطيبا فكان فيما قال: (ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه. قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد والله رأينا فهبنا) أخرجه أحمد (٣/ ٨٤) وغيره، والحديث صححه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (١٦٤)، وصححه العلامة الألباني

=

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥).

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا} عَنْ دِينهمْ {وَاخْتَلَفُوا} فِيهِ {مِنْ بَعْد مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَات} وَهُمْ الْيَهُود وَالنَّصَارَى {وأولئك لهم عذاب عظيم}.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦).

{يَوْم تَبْيَضّ وُجُوه وَتَسْوَدّ وُجُوه} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة {فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوههمْ} وَهُمْ الْكَافِرُونَ فَيُلْقَوْنَ فِي النَّار وَيُقَال لَهُمْ تَوْبِيخًا {أَكَفَرْتُمْ بعد إيمانكم} يوم أخذ الميثاق {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}.

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧).

=

في الصحيحة (١٦٨)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٨/ ٣١٨): حديث صحيح.

قال أبو المنذر إسماعيل بن عمر كما في نزهة الفضلاء (٢/ ٦٥٣): سمعت أبا عبد الرحمن العمري الزاهد يقول: إن من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله، بأن ترى ما يسخطه فتجاوزه، ولا تأمر ولا تنهى خوفا من المخلوق. من ترك الأمر بالمعروف خوف المخلوقين نزعت منه الهيبة، فلو أمر ولده لاستخف به ا. هـ.

والحاصل أن هناك بعض الأمور بها يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن المكلف باليد واللسان، لكن إذا سقط عنه الوجوب فليس معنى ذلك أن ينتفي في حقه ويمنع منه بل قد يكون مستحبا كما أنه يكون محرما أو مكروها في بعض الأحيان. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخالد بن عثمان السبت (ص٩٦).

{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوههمْ} وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ {فَفِي رحمة الله} أي جنته {هم فيها خالدون}.

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨).

{تِلْكَ} أَيْ هَذِهِ الْآيَات {آيَات الله نَتْلُوهَا عَلَيْك} يَا مُحَمَّد {بِالْحَقِّ وَمَا الله يُرِيد ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ} بِأَنْ يَأْخُذهُمْ بِغَيْرِ جُرْم[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [آل عمران: ١٠٥]، "أي: ولا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في الدين واختلفوا فيه، من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحات".

ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم.

قال الحسن: "هم اليهود والنصارى".

قال الثعلبي: "قال أكثر المفسرين: هم اليهود والنصارى. وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأمة".

قال الربيع: "هم أهل الكتاب، نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا ويختلفوا، كما تفرق واختلف أهل الكتاب".

قال مقاتل بن حيان: "يقول للمؤمنين: لا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا يعني اليهود " {من بعد ما جاءهم البينات} يقول: "تفرقوا واختلفوا من بعد موسى، فنهى الله المؤمنين أن يتفرقوا بعد نبيهم كفعل اليهود".

قال ابن عباس: "ونحو هذا في القرآن أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله".

قال مقاتل بن سليمان: "فوعظ الله المؤمنين لكي لا يتفرقوا، ولا يختلفوا كفعل =

=

أهل الكتاب".

قال الزجاج: "أي لا تكونوا كأهل الكتاب، يعني به إليهود والنصارى وكتابهم جميعا التوراة، وهم مختلفون، كل فرقة منهم - وإن اتفقت في باب النصرانية أو اليهودية - مختلفة أيضا، كالنصارى الذين هم نسطورية ويعقوبية وملكانية، فأمر الله بالاجتماع على كتابه، وأعلم أن التفرق فيه يخرج أهله إلى مثل ما خرج إليه أهل الكتاب في كفرهم".

قال ابن كثير: "ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم".

قال الماتريدي: "و{البينات}: هي الحجج التي أتى بها، ويحتمل: بيان ما في كتابهم من صفة رسولنا محمد ﷺ ونعته الشريف، ويحتمل: تفرقوا عما نهج لهم الله، وأوضح لهم الرسل؛ فأبدعوا لأنفسهم الأديان بالأهواء، فحذرنا ذلك، وعرفنا أن الخير كله في اتباع من جعله الله حجة له، ودليلا عليه، وداعيا إليه، ولا قوة إلا بالله".

قال الراغب: "التفرق على ثلاثة أضرب: تفرق بالأبدان، وتفرق بالأقو ال والأفعال، وتفرق بالاعتقادات، وكذلك الاختلاف؛ إلا أن الأظهر في الاختلاف أن يكون بالأقوال والأفعال والاعتقادات، وفي التفرق أن يكون بالأبدان، وذكر تعالى اللفظين، ليبين أن أهل الكتاب تجادلوا بكل ذلك".

قال الشافعي: "الاختلاف وجهان:

أحدهما: فما كان لله فيه نص حكم، أو لرسوله سنة، أو للمسلمين فيه إجماع، لم يسع أحدًا علم من هذا واحدًا أن يخالفه.

والثاني: وما لم يكن فيه من هذا واحد، كان لأهل العلم الاجتهاد فيه بطلب الشبهة بأحد هذه الوجوه الثلاثة، فإذا اجتهد من له أن يجتهد، وسِعهُ أن يقول بما وجد

=

=

الدلالة عليه، بأن يكون في معنى كتاب، أو سنة، أو إجماع، فإن ورد أمر مشتبه يحتمل حكمين مختلفين، فاجتهد فخالف اجتهاده اجتهاد غيره، وَسِعَه أن يقول بشيء، وغيره بخلافه، وهذا قليل إذا نظر فيه".

عن معاوية. أن رسول الله ﷺ قال (إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة -يعني الأهواء-كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء، كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله. والله -يا معشر العرب-لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغيركم من الناس أحرى ألا يقوم به).

وقال ابن عاشور: وفيه إشارة إلى أن الاختلاف المذموم والذي يؤدي إلى الافتراق، وهو الاختلاف في أصول الديانة الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضا، أو تفسيقه، دون الاختلاف في الفروع المبينة على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار والأعصار، وهو المعبر عنه بالاجتهاد، ونحن إذا تقصينا تاريخ المذاهب الإسلامية لا نجد افتراقا نشأ بين المسلمين إلا عن اختلاف في العقائد والأصول، دون الاختلاف في الاجتهاد في فروع الشريعة.

قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٠٥]، أي: "وأولئك لهم عذاب عظيم يوم القيامة".

يعني الذين تفرقوا لهم عذاب عظيم في الآخرة بسبب تفرقهم، فكان ذلك زجرا للمؤمنين عن التفرق.

قال البيضاوي: "وعيد للذين تفرقوا وتهديد على التشبه بهم".

قوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران: ١٠٦]، " أي: يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة، وتسود وجوه الكافرين بالكفر

=

=

والمعاصي".

قال الزجاج: "أخبر الله بوقت ذلك العذاب، فقال: يوم تبيض وجوه".

قال السدي: "بالأعمال والأحداث".

قال ابن عباس: "تبيض وجوه أهل السنة والجماعة"، "تسود أهل البدع والضلالة".

قال التستري: "يعني: تبيض وجوه المؤمنين بنور إيمانهم".

قال الواحدي: "{يَوْمَ تَبْيَضُّ} أَيْ: وجوه المهاجرين والأنصار ومَنْ آمنَ بمحمدٍ عليه السلام، {وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} اليهود والنَّصارى ومَنْ كفر به".

قال الماوردي: "يعني به يوم القيامة، لأن الناس فيه بين مُثَابٌ بالجنة ومُعاقَبٌ بالنار فوصِف وجه المُثَاب بالبياض لإسفاره بالسرور، ووصف وجه المُعَاقَب بالسواد لإنكسافه بالحزن".

قال السمعاني: "{يوم تبيض وجوه} يعني: بالتوحيد {وتسود وجوه} بالشرك. وقيل: تبيض وجوه بالسنة، وتسود وجوه بالبدعة. وقيل: أراد به: في الدنيا تبيض وجوه بالقناعة، وتسود وجوه بالطمع. والأول أصح، ويشهد لذلك قوله تعالى: {وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة} الآية".

قال الطبري: أي: "أولئك لهم عذاب عظيمٌ في يوم تبيضُّ وجوه قوم وتسودُّ وجوه آخرين".

قال الراغب: "ابيضاض الوجه عبارة عن المسرة، واسودادها عن الغم، وعلى ذلك {ظل وجهه مسودا}، ثم قال: {من سوء ما بشر به}، وعلى ذلك قوله: {ووجوه يومئذ عليها غبرة}، وهذا الابيضاض والاسوداد أبلغ من المحسوسين، وقال بعض المتكلمين: يحمل ذلك على المحسوس، لكونه حقيقة فيه، وهذا خطأ، وذلك لأنه لم يعلم أن ذلك حقيقة فيهما جميعا، فليس الاسوداد

=

=

والابيضاض أكثر من كيفية عارضة في الوجه، قل ذلك أم كثر، ومعلوم أن من ناله غم شديد يعرض لوجهه - لتبرمه وتكدره -اسوداد في وجهه، وليس قلة السواد والبياض مما يخرج اللفظ عن الحقيقة، ثم حمل الآية على هذا أولى، لأن ذلك حاصل لأهل القيامة باتفاق، سواء كانوا في الدنيا سودانا أو بيضانا، وعلى ذلك {وجوه يومئذ ناضرة} وقوله: {وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة}".

وفي الذين اسودت وجوههم، خمسة أقوال: أحدها: أنهم كل من كفر بالله بعد إيمانه يوم الميثاق، قاله أُبيّ بن كعب. والثاني: أنهم الحرورية، قاله أبو أُمامة، وأبو إسحاق الهمذاني. والثالث: اليهود، قاله ابن عباس. والرابع: أنهم المنافقون، قاله الحسن. والخامس: أنهم أهل البدع، قاله قتادة.

قال الشنقيطي: بين في هذه الآية الكريمة أن من أسباب اسوداد الوجوه يوم القيامة الكفر بعد الإيمان وذلك في قوله (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) الآية.

وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكذب على الله:

وهو قوله تعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة).

وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك اكتساب السيئات:

وهو قوله (والذين كسبوا السيئات جزآء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما).

وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكفر والفجور:

وهو قوله تعالى (ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة).

وهذه الأسباب في الحقيقة شيء واحد عبر عنه بعبارات مختلفة، وهو الكفر بالله تعالى، وبين في موضع آخر شدة تشويه وجوههم بزرقة العيون وهو قوله (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) وأقبح صورة أن تكون الوجوه مسودا والعيون زرقا.

=

=

وفي وصف هذا اليوم بأنه تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه تهويل لأمره، وتعظيم لشأنه، وتشويق لما يرد بعد ذلك من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضة وأصحاب الوجوه المسودة، وترغيب للمؤمنين في الإكثار من التزود بالعمل الصالح وترهيب للكافرين من التمادي في كفرهم وضلالهم.

قال ابن عاشور: والبياض والسواد بياض وسواد حقيقيان يوسم بهما المؤمن والكافر يوم القيامة، وهما بياض وسواد خاصان لأن هذا من أحوال الآخرة فلا داعي لصرفه عن حقيقته.

قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [آل عمران: ١٠٦]، أي: "وأما أهل النار الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع: (أكفرتم بعد إيمانكم) في الكلام حذف، أي فيقال لهم (أكفرتم بعد إيمانكم)".

قال التستري: "الكافرين بظلم كفرهم".

قال الواحدي: "لأنَّهم شهدوا لمحمدٍ ﷺ بالنُّبوَّة فلمَّا قدم عليهم كذَّبوه وكفروا به".

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (أكفرتم) قال الزجاج: معناه: فيقال لهم: أكفرتم، فحذف القول لأن في الكلام دليلا عليه، كقوله تعالى (وإسماعيل ربنا تقبل منا)، أي: ويقولان: ربنا تقبل منا. ومثله (من كل باب. سلام عليكم) والمعنى: يقولون: سلام عليكم. والألف لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها التقرير والتوبيخ.

قوله تعالى (... بعد إيمانكم) يعني يوم الميثاق حين قالوا بلى.

ويقال: هذا لليهود وكانوا مؤمنين بمحمد ﷺ قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به.

وقال أبو العالية: هذا للمنافقين، يقال: أكفرتم في السر بعد إقراركم في العلانية.

وقال الطبري: وأولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بالصواب، القول الذي ذكرناه

=

=

عن أبي بن كعب أنه عنى بذلك جميع الكفار، وأن الإيمان الذي يوبخون على ارتدادهم عنه، هو الإيمان الذي أقروا به يوم قيل لهم: (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا).

ثم قال مبينا وجه الترجيح: وذلك أن الله جل ثناؤه جعل جميع أهل الآخرة فريقين: أحدهما سودا وجوهه، والآخر بيضا وجوهه. فمعلوم -إذ لم يكن هنالك إلا هذان الفريقان- أن جميع الكفار داخلون في فريق من سود وجهه، وأن جميع المؤمنين داخلون في فريق من بيض وجهه. فلا وجه إذا لقول قائل: عنى بقوله: "أكفرتم بعد إيمانكم، بعض الكفار دون بعض، وقد عم الله جل ثناؤه الخبر عنهم جميعهم، وإذا دخل جميعهم في ذلك، ثم لم يكن لجميعهم حالة آمنوا فيها ثم ارتدوا كافرين بعد إلا حالة واحدة، كان معلوما أنها المرادة بذلك.

قال ابن عاشور: وقدم عند وصف اليوم ذكر البياض، الذي هو شعار أهل النعيم، تشريفا لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله ونعمته، ولأن رحمة الله سبقت غضبه، ولأن في ذكر سمة أهل النعيم، عقب وعيد غيرهم بالعذاب، حسرة عليهم، إذ يعلم السامع أن لهم عذابا عظيما في يوم فيه نعيم عظيم.

ثم قدم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلا بمساءتهم.

وفي هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم أقاويل:

الأول: أنهم المنافقون، كفروا بعد إظهار الإيمان بالنفاق، وهو قول الحسن.

والثاني: أنهم الذين كفروا بالارتداد بعد إسلامهم، وهو قول مجاهد، والسدي، وقتادة.

والثالث: هم الذين كفروا من أهل الكتاب بالنبي -ﷺ- بعد إيمانهم بِنَعْتِهِ ووصفه، وهو قول الزجاج.

والرابع: أنهم اليهود. قاله الضحاك.

=

=

والخامس: هم جميع الكفار لإعراضهم عما يوجبه الإقرار بالتوحيد حين أَشْهَدَهُم الله تعالى على أنفسهم: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا} [الأعراف: ١٧٢]. وهو قول أبي بن كعب، وابن جريج، ورجّحه الطري.

والسادس: انهم الخوارج. قاله أبو أمامة.

قوله تعالى: {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [آل عمران: ١٠٦]، " أي: فذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم، فادخلوا جهنم وذوقوا مرارة العذاب وآلامه بسبب استمراركم على الكفر وموتكم عليه".

قال الرازي: أنه لو لم يذكر ذلك لكان الوعيد مختصا بمن كفر بعد إيمانه، فلما ذكر هذا ثبت الوعيد لمن كفر بعد إيمانه ولمن كان كافرا أصليا.

والأمر في قوله فذوقوا للإهانة والإذلال.

قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ} [آل عمران: ١٠٧]، "أي: وأما السعداء الأبرار الذين ابيضت وجوههم".

قال قتادة: "هؤلاء أهل طاعة الله، والوفاء بعهد الله".

قال أبي بن كعب: "الذين استقاموا على إيمانهم ذلك وأخصلوا له الدين فبيض وجوههم وأدخلهم في رضوانه وجنته".

قال الطبري: أي: "ممن ثبتَ على عهد الله وميثاقه، فلم يبدِّل دينه، ولم ينقلب على عَقِبيه بعد الإقرار بالتوحيد، والشهادة لربه بالألوهة، وأنه لا إله غيره".

قوله تعالى: {فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران: ١٠٧]، "أي فهم في الجنة مخلدون لا يخرجون منها أبدًا".

فالمراد برحمة هنا الجنة، كما في الحديث. قال ﷺ (قال تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء).

فرحمة الله هنا ليست الرحمة المذكورة في قوله تعالى (وربك الغفور ذو الرحمة)

=

=

لأن هذه الصفة صفة لله.

قال ابن قتيبة: وسمى الجنة رحمة، لأن دخولهم إياها كان برحمته.

قال الطبري: أي: "فهم في رحمة الله، يعني: في جنته ونعيمها باقون فيها أبدًا بغير نهاية ولا غاية".

قال ابن عباس: "{هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، أي: خالدا أبدا يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له".

قال سعيد بن جبير: "{هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، يعني: لا يموتون".

وهذا من أعظم تمام النعيم، أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآبدين.

وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غما.

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.

وجاءت الآيات الكثيرة بخلود أهل الجنة بالجنة.

قال أبو حيان: ولما أخبر تعالى أنهم مستقرون في رحمة الله بين أن ذلك الاستقرار هو على سبيل الخلود لا زوال منه ولا انتقال، وأشار بلفظ الرحمة إلى سابق عنايته بهم، وأن العبد وإن كثرت طاعته لا يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى.

وقال ابن عباس: المراد بالرحمة هنا الجنة، وذكر الخلود للمؤمن ولم يذكر ذلك للكافر إشعارا بأن جانب الرحمة أغلب.

وأضاف الرحمة هنا إليه ولم يضف العذاب إلى نفسه، بل قال (فذوقوا العذاب)

=

=

ولما ذكر العذاب علله بفعلهم، ولم ينص هنا على سبب كونهم في الرحمة.
قوله تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} [آل عمران: ١٠٨]، أي: "هذه مواعظ الله وعبره وحججه نقرؤها عليك-يا محمد-، بالصدق واليقين".
أي: هذه آيات الله وحججه وبيناته، والإشارة إلى طائفة من آيات القرآن السابقة من هذه السورة كما اقتضاه قوله (نتلوها عليك بالحق).
(نتلوها عليك) يا محمد، بواسطة جبريل، كما قال تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين).
(بالحق) الباء للمصاحبة، يعني أنها مصحوبة بالحق ونازلة بالحق، صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام، وتكون الباء للملابسة، أي: أنها نزلت من عند الله حقا بلا شك، وهو يشمل المعنيين جميعا، فهي نازلة من عند الله حقا بلا شك، وهي أيضا نازلة بالحق.
قال الزمخشري: أي: "تلك آيات الله الواردة في الوعد والوعيد نتلوها عليك ملتبسة بالحق والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه".
قال الواحدي: أي: "القرآن نبيّنها بالصدق".
قال قتادة: "{آيات الله}: القرآن".
قال محمد بن إسحاق: "{نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ}: يقول: بالفضل".
قال الطبري: "يعني بقوله: {تلك آيات الله: هذه الآيات التي ذكر فيها أمورَ المؤمنين من أنصار رسول الله ﷺ وأمور يهود بني إسرائيل وأهل الكتاب، وما هو فاعل بأهل الوفاء بعهده، وبالمبدِّلين دينه، والناقضين عهدَه بعد الإقرار به. ثم أخبر عز وجل نبيه محمدًا ﷺ أنه يتلو ذلك عليه بالحق، وأعلمه أن من عاقبَ من خلقه بما أخبر أنه معاقبه به: من تسويد وجهه، وتخليده في أليم عذابه وعظيم عقابه ومن جازاه منهم بما جازاه: من تبييض وجهه وتكريمه وتشريف منزلته

=

=

لديه، بتخليده في دائم نعيمه، فبغير ظلم منه لفريق منهم، بل بحق استوجبوه، وأعمال لهم سلفت، جازاهم عليها".

قوله تعالى: {وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ} [آل عمران: ١٠٨]، " أي: وما كان الله ليظلم أحدًا من العالمين".

قال الزجاج: "أي: من أعلم الله أنه يعذبه فباستحقاق يعذبه".

قال السمرقندي: "يعني لا يعذبهم بغير ذنب".

قال الماتريدي: "أي: لا يريد أن يظلمهم، وإن شئت قلت: قلت الإرادة صفة لكل فاعل في الحقيقة؛ فكأنه قال: لا يظلمهم، وكيف يظلم؟! وإنما يظلم بنفع تسره إليه النفس، أو ضرر يدفع به، فالغني بذاته متعال عن ذلك".

قال ابن كثير: "أي: ليس بظالم لهم بل هو الحَكَم العدل الذي لا يجور؛ لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه".

قال الزمخشري: "ونكر ظلما وقال للعالمين على معنى ما يريد شيئا من الظلم لأحد من خلقه".

قال أبو السعود: "تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه فإن تنكيرَ الظلم وتوجيهَ النفي إلى إرادته بصيغة المضارعِ دون نفسِه وتعليقَ الحكمِ بآحاد الجمع المعرف والالتفاتُ إلى الإسم الجليل إشعارا بعلة الحكم بيان لكمال نزاهتة عز وجل عن الظلم بما لا مزيدَ عليهِ أي ما يريد فردًا من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقتٍ من الأوقاتِ فضلًا عن أن يظلِمَهم فإن المضارعَ كما يفيد الاستمرارَ في الإثبات يفيده في النَّفي بحسبِ المقامِ كما أن الجملةَ الاسمية تدل بمعونة المقام على دوام الثبوتِ وعند دخولِ حرفِ النفي تدل على دوام الانتفاءِ لا على انتفاء الدوامِ وفي سبك الجملةِ نوعُ إيماءٍ إلى التعريض بأن الكفرَةَ

=

=

هم الظالمون ظلُموا أنفسَهم بتعريضِها للعذابِ الخالد كما في قوله تعالى {إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ الناس شَيْئًا ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}".

مسألة: اعلم رحمني الله وإياك أن تكفير أهل البدع على قسمين:

القسم الأول: الحكم العام.

وهو الحكم على المقالة أو على الفرقة بالكفر، فيقال فرقة كذا كافرة، ومن قال كذا فهو كافر.

هذا الأمر لابد وأن يكون مضبوطا بالكتاب والسنة؛ لأن الكفر كما قدمنا حكم شرعي لا يكون إلا من الكتاب والسنة وقد حكم العلماء على مقالات أنها كفر وعلى فرق أنها فرق كفر.

قال البخاري: وقال الثوري من قال القرآن مخلوق فهو كافر.

وقال ابن مقاتل سمعت بن المبارك يقول من قال: (إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا) (طه: من الآية١٤) مخلوق فهو كافر لا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك وقد قد ورد عن كثير من السلف القول بتكفير الجهمية لما أحدثوه من أقوال في حقيقتها كفر محض.

وذكر ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٤٤) عن خارجة بن مصعب أنه كان يقول: الجهمية كفار أبلغ نساءهم أنهن طوالق لا يحللن لهم، لا تعودوا مرضاهم، ولا تشهدوا جنائزهم ثم تلا طه إلى قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى). اهـ

وقال شارح نونية ابن القيم (١/ ١٤٧): وقد كان سلف الأمة وسادات الأئمة يرون كفر الجهمية أعظم من كفر اليهود كما قال عبد الله بن المبارك والبخاري وغيرهما ا. هـ

ولكن برغم أن العلماء قد حكموا على الجهمية بالكفر وعلى من قال مقالتهم

=

=

بالكفر؛ لكن لم يحكموا على كل معين قال بذلك بالكفر.
لأن موقف أهل السنة والجماعة السائرين على منهج السلف الصالح من تكفير أهل البدع والعقائد الفاسدة هو التفصيل وهو أن أهل البدع ليسوا على درجة واحدة فمنهم من هو مقطوع بتكفيرة كمن أتى بقول أو فعل مكفروتمت في حقه شروط التكفيروأنتفت موانعهومنهم من لا يحكم بكفره لانتفاء ذلك في حقه.
ثم إنّ القول في تكفير أهل البدع والتكفير عمومًا مبني على أصلين عظيمين:
أحدهما: دلالة الكتابوالسنة على أن القول أو الفعل الصادر من المحكوم عليه موجب للتكفير.
و ثانيهما: انطباق هذا الحكم على القائل المعيّن أو الفاعل المعيّن بحيث تتم شروط التكفير في حقهوتنتفي الموانع.
وهذان الأصلان أيضًا ينطبقان على الشخص عند الحكم عليه بالابتداع أو الفسق، وهو دلالة الكتاب والسنة على أن القول أو الفعل الصادر من المحكوم عليه بدعة، وكون القائل المعيّن أو الفاعل المعيّن تمت في حقه شروط التبديع وانتفت موانعه.
وطريقه أهل السنة بخلاف طريقة أهل البدع في هذه المسألة.
قال شيخ الإسلام في رده على البكري" (١/ ٣٧٧ - ٣٨٥):.. وهذه الطريقة التي سلكها هذا وأمثاله هي طريقة أهل البدع؛ الذين يجمعون بين الجهل والظلم، فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الصحابة ويكّفُرون من خالفهم في بدعتهم، كالخوارج المارقين الذين ابتدعوا ترك العمل بالسنة المخالفة في زعمهم للقرآن، وابتدعوا التكفير بالذنوب، وكفروا من خالفهم حتى كفروا عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومن والاهما من المهاجرين والأنصار وسائر المؤمنين، نقل الأشعري في كتاب "المقالات" أن الخوارج مجمعة على تكفير
=

=

علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكذلك الرافضة ابتدعوا تفضيل علي على الثلاثة وتقديمه في الإمامة والنص عليه، وادعوا العصمة له، وكفروا من خالفهم، وهم جمهور الصحابة وجمهور المؤمنين حتى كفروا أبا بكر وعمر وعثمان ومن ولاهم، هذا الذي عليه أئمتهم. وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الجهمية والقدرية وغيرهم سلكوا هذا المسلك ا. هـ وأما طريق أهل السنة في هذا الباب فيتضح بالنقول الآتية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥١ - ٣٥٣): وأما تعيين الفرق الهالكة فأقدم من بلغنا أنه تكلم في تضليلهم يوسف بن أسباط، ثم عبدالله بن المبارك، وهما إمامان جليلان من أجلاء أئمة المسلمين قالا: أصول البدع أربعة: الروافض، والخوارج، والقدرية، والمرجئة، فقيل لابن المبارك: والجهمية؟ فأجاب بأن أولئك ليسوا من أمة محمد ﷺ، وكان يقول: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، وهذا الذي قاله اتبعه عليه طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم، قالوا:

"إن الجهمية كفار لا يدخلون في الاثنتين والسبعين فرقة، كما لا يدخل فيهم المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وهم الزنادقة"

وقال آخرون من أصحاب أحمد وغيرهم: بل الجهمية داخلون في الاثنتين والسبعين فرقة وجعلوا أصول البدع خمس، فعلى قول هؤلاء: يكون كل طائفة من (المبتدعة الخمسة) اثنا عشر فرقة، وهذا يبنى على أصل آخر، وهو (تكفير أهل البدع) فمن أخرج الجهمية منهم لم يكفرهم، فإنه لا يكفر سائر أهل البدع بل يجعلهم من أهل الوعيد بمنزلة الفساق والعصاة، ويجعل قوله: هو في النار، مثل ما جاء في سائر الذنوب، مثل أكل مال اليتيم وغيره كما قال تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا يأكلون في بطونهم نارًا} (النساء:١٠)

ومن أدخلهم فيهم فهم على قولين:

=

=

منهم من يكفرهم كلهم، وهذا إنما قاله بعض المتأخرين المنسبين إلى الأئمة أو المتكلمين، وأما السلف والأئمة فلم يتنازعوا في عدم تكفير (المرجئة) (والشيعة) المفضلة (الشيعة المفضلة هم الشيعة الأُول الذين فضلوا عليًا على أبي بكر وعمر وهؤلاء لا يكفرون وإن كانوا مخالفين للصحابة جميعًا بما فيهم علي بن أبي طالب نفسه الذي ثبت عنه من ثمانين وجها أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وقال: من فضلني على أبي بكر جلدته حد المفترى.

وأما الشيعة الآخرون وهم أكثر من سبعين فرقة منهم الأمامية الإثنا عشرية، فهم الذين يقولون إن الله نص على إمامة علي واثنى عشر من أولاده، وهؤلاء يكفرون جميع المخالفين والصحابة إلا ثلاثة أو خمسة، ويقول جمهورهم بل اجماعهم في القرن الثالث والرابع بتحريف القرآن، ويفضلون هؤلاء الائمة الإثنى عشر على سائر الأنبياء والمرسلين، وكذلك الملائكة، ويدعون لهم علم الغيب والعصمة، وأنهم مفوضون في التشريع يشرعون ما شاءوا) ونحو ذلك، ولم تختلف نصوص أحمد في أنه لا يكفر هؤلاء، وإن كان من أصحابه من حكى في تكفير جميع أهل البدع -من هؤلاء وغيرهم- خلافًا عنه، أو في مذهبه، حتى أطلق بعضهم تخليد هؤلاء وغيرهم، وهذا غلط على مذهبه، وعلى الشريعة (لأن الذي لم يبلغه الحق والصواب، ومن لُبِّس عليه، فهو معذور والسلف يرون العذر بالجهل في الأصول والفروع، ومنهم من لم يكفر أحدًا من هؤلاء إلحاقًا لأهل البدع بأهل المعاصي، قالوا فكما أن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحدًا بذنب فكذلك لا يكفرون أحدًا ببدعة، والمأثور عن السلف والأئمة إطلاق أقوال بتكفير (الجهمية المحضة) الذين ينكرون الصفات، وحقيقة قولهم أن الله لا يتكلم ولا يرى، ولا يباين الخلق، ولا له علم ولا قدرة، ولا سمع ولا بصر ولا حياة، بل القرآن مخلوق، وأهل الجنة لا يرونه كما لا يراه أهل النار، وأمثال هذه المقالات،

=

=

وأما الخوارج والروافض ففي تكفيرهم نزاع وتردد عند أحمد وغيره. وأما القدرية الذين ينفون (الكتابة) والعلم فكفروهم (أي من ينفي أن يكون الله قد علم أفعال الخلق قبل أن يخلقهم، أو ينفي كتابة المقادير قبل الخلق)، ولم يكفروا من أثبت العلم ولم يثبت خلق الأفعال ا. هـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى أيضا (٧/ ٦١٨ - ٦١٩): والعلماء قد تنازعوا في تكفير أهل البدع والأهواء وتخليدهم في النار وما من الأئمة إلا من حكى عنه في ذلك قولان، كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وصار بعض أتباعهم يحكى هذا النزاع في جميع أهل البدع وفى تخليدهم، حتى التزم تخليدهم كل من يعتقد أنه مبتدع بعينه.

وفى هذا من الخطأ ما لا يحصى، وقابله بعضهم فصار يظن أنه لا يطلق كفر أحد من أهل الأهواء وإن كانوا قد أتوا من الإلحاد وأقوال أهل التعطيل والاتحاد.

والتحقيق في هذا أن القول قد يكون كفرا كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن الله لا يتكلم، ولا يرى في الآخرة، ولكن قد يخفى على بعض الناس أنه كفر فيطلق القول بتكفير القائل؛ كما قال السلف من قال القرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر، ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة كما تقدم؛ كمن جحد وجوب الصلاة والزكاة واستحل الخمر والزنا وتأول، فإن ظهور تلك الأحكام بين المسلمين أعظم من ظهور هذه، فإذا كان المتأول المخطئ في تلك لا يحكم بكفره إلا بعد البيان له واستتابته كما فعل الصحابة في الطائفة الذين استحلوا الخمر ففي غير ذلك أولى وأحرى ا. هـ

وقال أيضا في المصدر السابق (١٢/ ٥٠٠): فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم، بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدكم الحجة الرسالية التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل؛ وان كانت هذه

=

=

المقالة لا ريب أنها كفر، وهكذا الكلام في تكفير جميع المعينين، مع أن بعض هذه البدعة أشد من بعض، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين وإن اخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحبة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة ا. هـ

وقال أيضا في المصدر السابق (٢٣/ ٣٤٨ - ٣٤٩): فطائفة تحكى عن أحمد في تكفير أهل البدع روايتين مطلقا، حتى تجعل الخلاف في تكفير المرجئة والشيعة المفضلة لعلى، وربما رجحت التكفير والتخليد في النار وليس هذا مذهب أحمد ولا غيره من أئمة الإسلام؛ بل لا يختلف قوله أنه لا يكفر المرجئة الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل، ولا يكفر من يفضل عليا على عثمان؛ بل نصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم، وإنما كان يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته؛ لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول ظاهرة بينة، ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق، وكان قد ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم، وأنه يدور على التعطيل وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة؛ لكن ما كان يكفر أعيانهم، فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقول به، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط، والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية إن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة وغير ذلك، ويدعون الناس إلى ذلك، ويمتحنونهم ويعاقبونهم إذا لم يجيبوهم، ويكفرون من لم يجبهم حتى أنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقر بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وغير ذلك، ولا يولون متوليا، ولا يعطون رزقا من بيت المال إلا لمن يقول ذلك، ومع هذا فالإمام أحمد رحمه الله تعالى ترحم عليهم واستغفر لهم لعلمه بأنهم لمن يبين لهم أنهم مكذبون

=

=

للرسول ولا جاحدون لما جاء به؛ ولكن تأولوا فأخطأوا، وقلدوا من قال لهم ذلك، وكذلك الشافعي لما قال لحفص الفرد حين قال القرآن مخلوق كفرت بالله العظيم، بين له أن هذا القول كفر، ولم يحكم بردة حفص بمجرد ذلك؛ لأنه لم يتبين له الحجة التي يكفر بها، ولو اعتقد أنه مرتد لسعى في قتله، وقد صرح في كتبه بقبول شهادة أهل الأهواء والصلاة خلفهم، وكذلك قال مالك رَحِمَهُ اللهُ والشافعي وأحمد في القدري إن جحد علم الله كفر ا. هـ

وقال أيضا في المصدر السابق (٣/ ٢٢٩ - ٢٣١): ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وقد قلت لهم غير مرة: أنا أمهل من يخالفني ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلته فأنا أقر بذلك وأما ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بألفاظهم وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف هذا مع أني دائما ومن جالسني يعلم ذلك مني أني من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرا تارة وفاسقا أخرى وعاصيا أخرى وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية كما أنكر شريح قراءة من قرأ {بل عجبت ويسخرون} وقال إن الله لا يعجب، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال إنما شريح شاعر يعجبه علمه. كان عبد الله أعلم منه وكان يقرأ {بل عجبت} وكما نازعت عائشة وغيرها من الصحابة في رؤية محمد ربه وقالت: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ومع هذا لا نقول لابن عباس ونحوه من المنازعين لها: إنه مفتر على الله وكما نازعت في سماع الميت كلام الحي وفي تعذيب الميت ببكاء أهله وغير ذلك وقد آل الشر بين

=

=

السلف إلى الاقتتال مع اتفاق أهل السنة على أن الطائفتين جميعا مؤمنتان، وأن الاقتتال لا يمنع العدالة الثابتة لهم، لأن المقاتل وإن كان باغيا فهو متأول والتأويل يمنع الفسوق.

وكنت أبين لهم أنما نقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضا حق، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار وهي مسألة " الوعيد " فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة كقوله {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما} الآية وكذلك سائر ما ورد: من فعل كذا فله كذا. فإن هذه مطلقة عامة. وهي بمنزلة قول من قال من السلف من قال كذا: فهو كذا. ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه: بتوبة أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة، والتكفير هو من الوعيد فإنه وإن كان القول تكذيبا لما قاله الرسول، لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة. ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة وقد يكون الرجل لا يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئا ا. هـ

وقال السبكي في قضاء الأرب في أسئلة أهل حلب (ص٥٢٤) بعد أن قال بكفر غلاة الرافضة والقدرية النفاة للعلم وأن من شرط تكفير المعين اعتراف الشخص به، وأنه يبعد أن يحصل هذا الاعتراف، وأن التكفير لا ينكر إذا حصل شرطه، وأنه لا يكفي في ذلك أن يقال هذا من تلك الفرقة وإن كان يُحكم من حيث الجملة على من اعتقد بمكفر أنه كافر إلى أن قال: ولقد رأيت تصانيف جماعة يظن بهم أنهم من أهل العلم، ويتعلقون بشيء من رواية الحديث، وربما كان لهم نسك وعبادة، وشهرة بالعلم تكلموا بأشياء، ورووا أشياء تنبي عن جهلهم العظيم

=

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩).

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض} مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا {وَإِلَى الله تَرْجِع} تَصِير {الأمور}[(١)].

=

ويقدمون على تكفير من لا يستحق التكفير، وما سبب ذلك إلا ما هم عليه من فرط الجهل والتعصب، والنشأة على شيء لم يعرفوا سواه، وهو باطل، ولم يشتغلوا بشيء من العلم حتى يفهموا؛ بل هم في غاية الغباوة ا. هـ

وقال ابن مفلح في الفروع (٦/ ١٥٤): وقال شيخنا: نصوصه صريحة على عدم كفر الخوارج والقدرية والمرجئة وغيرهم وإنما كفَّر الجهمية لا أعيانهم، قال وطائفة تحكي عنه روايتين في تكفير أهل البدع مطلقا ، حتى المرجئة والشيعة المفضلة لعلي قال ومذاهب الأئمة أحمد وغيره مبنية على التفصيل بين النوع والعين ا. هـ

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الطرق الحكمية (١/ ٢٥٥) عن شهادة الفساق: فأما أهل البدع الموافقون لأهل الإسلام، ولكنهم مخالفون في بعض الأصول كالرافضة والقدرية والجهمية وغلاة المرجئة ونحوهم فهؤلاء أقسام: أحدها: الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له ، فهذا لا يكفر ولا يفسق.

(١) قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [آل عمران: ١٠٩]، أي: ولله تعالى وحده "ملك السموات والأرض خلقًا وتصرفًا وتدبيرًا".

قال ابن جرير: "أي أنه مالك جميع ذلك بغير شريك ولا نديد، وخالق جميعه دون آلهة ومعبود.

وقال ابن كثير: إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه".

قال أبو السعود: "أي: له تعالى وحده من غير شركة أصلا ما فيهما من المخلوقات الفائتة للحصر ملكا وخلقا إحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا وإيراد كلمة ما

=

=

إما لتغليب غير العقلاء على العقلاء وإما لتنزيلهم منزلة غيرهم إظهارا لحقارتهم في مقام بيان عظمته تعالى".

قال القاسمي: "أي له تعالى وحده، من غير شركة، ما فيهما من المخلوقات ملكا وخلقا إحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا".

قال ابن عباس: "ثم قال يا محمد لله الخلق كله السموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن، ومن فيهن وما بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على هذا العموم:

قال تعالى (ولله ما في السماوات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور).

وقال تعالى (ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا).

وقال تعالى (له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم).

وهذه الجملة تؤيد تفرده سبحانه بالألوهية، وذلك من جانبين:

الأول: حيث إن الجميع عبيد له جل جلاله، وليس للعبد أن يعبد غير مالكه، أو يشرك غيره معه في العبادة، وقد نهاه عن ذلك.

الثاني: وحيث إن الجميع عبيد له، فكيف يعبد مملوك -كائنا من كان- ويترك المالك، أو يشرك مملوك في العبادة مع المالك، وقد نهى عن ذلك.

والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: الرضا بقضاء الله، وأن الله لو قضى عليك مرضا فلا تعترض، ولو قضى عليك فقرا فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف

فيك كما يشاء..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون).

ويدل لذلك أيضا ما بينه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما

=

=

أرسلت إليه ليأتي، فأرسل يقرأ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب).

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبوله والقيام به، لأنك ملكه.

الفائدة الثالثة: أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكا لنا بل هو ملك لله، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار، كما قال تعالى (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير).

وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ...) رواه مسلم.

قوله تعالى: {وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [آل عمران: ١٠٩]، أي: "إلى الله مصير أمر جميع خلقه فيجازي كلا على قدر استحقاقهم منه".

فإلى الله وحده لا إلى غيره ترجع الأمور، أمور الدنيا والآخرة كما قال تعالى (وإليه يرجع الأمر كله) فالدنيا والآخرة كلها بيده سبحانه كما (وإن لنا للآخرة والأولى).

وهو المحمود على ذلك كله، كما قال تعالى (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة).

وقال تعالى (الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير).

قال السمرقندي: "يقول: تصير أمور العباد إلى الله في الآخرة".

قال أبو السعود: "أي إلى حكمه وقضائه لا إلى غيره شركة أو استقلالا ترجع أمور الخلق، فيجازي كلا منهم بما وعد له وأوعده من غير دخل في ذلك لأحد قط فالجملة مقررة لمضمون ما ورد في جزاء الفريقين وقيل هي معطوفة على ما

=

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠).

{كُنْتُمْ} يَا أُمَّة مُحَمَّد فِي عِلْم الله تَعَالَى {خَيْر أُمَّة أُخْرِجَتْ} أُظْهِرَتْ {لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَر وَتُؤْمِنُونَ بِاَللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْل الْكِتَاب لَكَانَ} الْإِيمَان {خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ} كَعَبْدِ الله بْن سَلَام رضي الله عنه وَأَصْحَابه {وَأَكْثَرهمْ الْفَاسِقُونَ} الْكَافِرُونَ(١).

=

قبلها مقررة لمضمونه فإن كون العالمين عبيده تعالى ومخلوقه ومرزوقه يستدعي إرادة الخير بهم".

(١) ذكر سبب النزول.

عن عكرمة؛ قال: نزلت في ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل.

أخرجه سنيد في "تفسيره"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٣٣) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٢٩) -: ثني حجاج بن محمد المصيصي؛ قال: قال ابن جريج؛ قال: عكرمة.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علل: الأولى: الإرسال. والثانية: عنعنة ابن جريج.

الثالثة: سنيد راوي التفسير ضعيف، لذا قال الحافظ في "الفتح" (٨/ ٢٢٥): وهذا موقوف فيه انقطاع".

* قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠]، أي: "أنتم يا أمة محمد خير الأمم أخرجت لأجل الناس".

قال مجاهد: "أنتم خير الناس للناس".

=

=

قال مقاتل بن سليمان: "يعني خير الناس للناس في زمانكم كما فضل بني اسرائيل في زمانهم".

قال الشافعي: "ففضيلتهم بكينونتهم من أمته دون أمم الأنبياء قبله".

وفيمن أريد بهذه الآية، أقوال:

أحدها: أنهم أهل بدر.

والثاني: أنهم المهاجرون. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، عكرمة، والضحاك.

والثالث: أنهم الصحابة. قاله الضحاك، وهو معنى قول عمر بن الخطاب.

والرابع: أنهم خير أهل بيت النبي ﷺ. قاله أبو جعفر.

والخامس: أنهم جمع المؤمنين من هذه الأمة.

قال أبو السعود: "وظاهر أن المراد بكل أمة أوائلهم وأواخرهم لاأوائلهم فقط فلا بد أن تكون أعقاب هذه الأمة أيضا داخلة في الحكم".

قال ابن كثير: "والصحيح أن هذه الآية عامةٌ في جميع الأمة، كل قَرْن بحسبه، وخير قرونهم الذين بُعثَ فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} أي: خيارا {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} الآية، وفي مسند الإمام أحمد، وجامع الترمذي، وسنن ابن ماجة، ومستدرك الحاكم، من رواية حكيم بن مُعَاوية بن حَيْدَة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ عزَّ وجَلَّ»".

وفي قوله تعالى: {كُنْتُمْ} [آل عمران: ١١٠]،، قولان:

أحدهما: أنها على أصلها، والمراد بها الماضي، ثم فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أن معناه: كنتم في اللوح المحفوظ.

=

=

والثاني: أن معناه: خلقتم وجدتم. ذكرهما الطبري وغيره.

والثالث: أن المعنى: كنتم مذ كنتم، ذكره ابن الأنباري.

والثاني: أن معنى كنتم: أنتم، كقوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ٩٦]. وهذا قول الكلبي، وذكره الفراء، والزجاج، والثعلبي.

قال ابن قتيبة: وقد "يأتي الفعل على بنية الماضي وهو دائم، أو مستقبل: كقوله: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠]، أي أنتم خير أمّة، وقوله: {وَإِذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ} [المائدة: ١١٦]، أي: وإذ يقول الله يوم القيامة، يدلك على ذلك قوله سبحانه: {هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ} [المائدة: ١١٩]، وقوله: {أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١]، يريد يوم القيامة. أي سيأتي قريبا فلا تستعجلوه، وقوله: {قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} [مريم: ٢٩]، أي من هو صبيّ في المهد، وكذلك قوله: {وَكانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ١٣٤]، وكذلك قوله: {وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [الأحزاب: ٢٧]، إنما هو: الله سميع بصير، والله على كل شيء قدير، وقوله: {وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحابًا فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ} [فاطر: ٩]، أي فنسوقه".

وفي قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠]، قولان:

أحدهما: أن معناه: كنتم خير الناس للناس. قاله أبو هريرة، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والربيع بن أنس، وعطاء، وعطية.

والثاني: أن معناه: كنتم خير الأمم التي أخرجت.

عن أبي هريرة (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال: خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام.

وهكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والربيع بن أنس، وعطية

=

=

العوفي (كنتم خير أمة أخرجت للناس) يعني: خير الناس للناس.

والمعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله).

فوجه خيرية هذه الأمة لبقية الأمم أن أمة محمد ﷺ تقاتل هذه الأمم حتى تدخلها الإسلام فتنجيها من عذاب الله يوم القيامة.

قال الرازي: قال الزجاج: قوله (كنتم خير أمة) ظاهر الخطاب فيه مع أصحاب النبي ﷺ، ولكنه عام في كل الأمة، ونظيره قوله (كتب عليكم الصيام) (كتب عليكم القصاص) فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ، ولكنه عام في حق الكل كذا ههنا.

وفي الآية فضيلة ظاهره للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، لأن خيرية هذه الأمة منوطة بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وإيمانها

بالله، فإذا تخلت عن إيمانها بالله وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر سلبت منها تلك الخيرية.

الحكمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال الشنقيطي: لأن استقراء القرآن دل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له ثلاث حكم، تضمنت هذه الآية من سورة الأعراف (قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) من تلك الحكم الثلاث اثنتين، فالحكم الثلاث:

الأولى: أن يقيم الإنسان عذره أمام ربه، ويخرج بذلك من عهدة التقصير في الأمر بالمعروف لئلا يدخل في قوله (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون).

وهذه الحكمة أشار لها بقوله (معذرة إلى ربكم).

الحكمة الثانية: هي رجاء انتفاع المذكر.

=

=

كما قال هنا عنهم (ولعلهم يتقون)، وذكر الله هذه الحكمة في قوله (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)

الحكمة الثالثة: هي إقامة الحجة لله على خلقه في أرضه نيابة عن رسله.

لأن الله يقول (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) فأهل العلم يقيمون حجة الله على خلقه بإقامة الحجة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال الرازي: اعلم أن هذا كلام مستأنف، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم.

وقال القرطبي: قوله تعالى: (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) مدح هذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببا لهلاكهم.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من سره أن يكون من أهل هذه الآية فليؤد شرط الله فيها، يريد من سره أن يكون من خير أمة فليؤمن بالله وليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر.

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد.

قوله تعالى: {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} [آل عمران: ١١٠]، أي: "تأمرون بالإيمان بالله ورسوله، والعمل بشرائعه".

قال ابن عباس: "تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، والا قرار بما أنزل الله

=

=

ويقاتلونهم عليه، ولا إله إلا الله أعظم المعروف".

وروي عن أبي العالية قال: "التوحيد".

قوله تعالى: {وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: ١١٠]، أي: "وتنهون عن الشرك بالله وتكذيب رسوله، وعن العمل بما نهى عنه".

قال ابن عباس: "هو التكذيب وهو أنكر المنكر".

وفي قوله تعالى: {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: ١١٠]، قولان:

أحدهما: أنه شرط في الخيرية، وهذا المعنى مروي عن عمر بن الخطاب، ومجاهد، والزجاج. والثاني: أنه ثناء من الله عليهم، قاله الربيع بن أنس.

قوله تعالى: {وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ} [آل عمران: ١١٠]، أي: "وتصدّقون بالله، فتخلصون له التوحيد والعبادة".

قال سعيد بن جبير: "يعني: تصدقون توحيد الله".

قال المراغي: "وهذا الوصف يصدق على الذين خوطبوا به أوّلا، وهم النبي ﷺ وأصحابه الذين كانوا معه وقت التنزيل، فهم الذين كانوا أعداء، فألف بين قلوبهم، واعتصموا بحبل الله جميعا، وكانوا يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يخاف ضعيفهم قويّهم، ولا يهاب صغيرهم كبيرهم، وملك الإيمان قلوبهم ومشاعرهم، فكانوا مسخرين لأغراضه فى جميع أحوالهم، وهذا الإيمان هو الذي قال الله فى أهله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} وقال فيهم أيضا {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}، وما فتئت هذه الأمة خير الأمم حتى تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وما تركتهما إلا باستبداد الملوك والأمراء من بني

=

=

أمية ومن حذا حذوهم، وأول من اجترأ منهم على إعلان هذه المعصية عبد الملك بن مروان حين قال على المنبر: من قال لى اتق الله ضربت عنقه وما زال الشر يزداد، والأمر يتفاقم حتى سلبت هذه الأمة أفضل مالها من مزية فى دينها ودنياها بعد الإيمان، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر".

قوله تعالى: {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [آل عمران: ١١٠]، "أي: ولو آمن أهل الكتاب بما أنزل على محمد وبما جاء به، لكان ذلك خيرًا لهم في الدنيا والآخرة".

قال النيسابوري: "يعني علماء السوء".

قوله تعالى: {مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١١٠]، " أي: منهم فئة قليلة مؤمنة".

قال ابن الجوزي: "{منهم المؤمنون}: من أسلم، كعبد الله بن سلام وأصحابه".

قال قتادة: "استثنى الله منهم ثلاثة كانوا على الهدى والحق".

قوله تعالى: {وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: ١١٠]، أي: والكثرة الكثيرة منهم خارجة عن طاعة الله".

قال ابن الجوزي: "يعني: الكافرين، وهم الذين لم يسلموا".

قال قتادة: "ذم الله أكثر الناس".

قال سعيد بن جبير: "الفاسقون يعني هم العاصون".

قال مقاتل بن سليمان: "يعني العاصين يعني اليهود".

قال الزجاج: "والفاسق الذي خرج عن أمر الله".

فالكثرة الكاثرة من الخلق ليسوا على الحق، بل هم خارجون عن الحق وعن طاعة الله.

والأدلة على هذا كثيرة:

قال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين).

=

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١).

{لَنْ يَضُرُّوكُمْ} أَيْ الْيَهُود يَا مَعْشَر الْمُسْلِمِينَ بِشَيْءٍ {إِلَّا أَذًى} بِاللِّسَانِ مِنْ سَبّ وَوَعِيد {وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمْ الْأَدْبَار} مُنْهَزِمِينَ {ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} عَلَيْكُمْ بَلْ لَكُمْ النَّصْر عَلَيْهِمْ[1].

=

وقال تعالى (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله).

وقال تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون).

وقال تعالى (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون).

وقال تعالى (وقليل من عبادي الشكور).

وقال تعالى (وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم).

وقال تعالى في شأن نوح (وما آمن معه إلا قليل).

وقال تعالى في الحديث القدسي (يا آدم أخرج بعث النار من ذريتك، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين) متفق عليه.

وقال ﷺ (إنما أنتم في الأمم كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض، أو الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود) متفق عليه.

وقال ﷺ (عرضت علي الأمم فرأيت النبي يمر ومعه الرجل، والنبي يمر ومعه الرجلان ...) متفق عليه.

(١) ذكر سبب النزول.

قال مقاتل بن سليمان: إن رؤوس اليهود: كعب وبحري والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر وابن صوريا عمدوا إلى مؤمنهم عبد الله بن سلام وأصحابه، فآذوهم؛ لإسلامهم؛ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية.

=

=

ذكره الواحدي معلقًا في "أسباب النزول" (ص ٧٨)، وقد تقدم أن تفسير مقاتل هذا واهٍ بمرة.

* قوله تعالى: {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى} [آل عمران: ١١١]، أي: "لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود إلا أذى باللسان من سب وطعن.

قال الثعلبي: "يعني وعيدا وطعنا. وقيل: دعاء إلى الضلالة. وقيل: كلمة الكفر إن يسمعوها منهم يتأذوا بها".

قال السمرقندي: "يعني باللسان بالسب وغيره، وليس لهم قوة القتال".

قال قتادة: "لن يضروكم إلا أذى تسمعونه منهم".

قال ابن جريج: "إشراكهم في عُزير وعيسى والصَّليب".

قال الحسن: "تسمعون منهم كذبًا على الله، يدعونكم إلى الضلالة".

قال الزجاج: "أي يؤذونكم بالبهت والتحريف، فأما العاقبة فتكون للمؤمنين".

قال الطبري: أي: ": لن يضركم، يا أهل الإيمان بالله ورسوله، هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب بكفرهم وتكذيبهم نبيَّكم محمدًا ﷺ شيئا، ولكنهم يؤذونكم بشركهم، وإسماعكم كفرهم، وقولهم في عيسى وأمه وعزير، ودعائهم إياكم إلى الضلالة، ولن يضروكم بذلك".

قال الماتريدي: "فيه بشارة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، بالأمن لهم عن أذى المشركين وضررهم، إلا أذى باللسان".

قال ابن عطية: قوله تعالى (لن يضروكم إلا أذى) معناه: لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال، وإنما هو أذى بالألسنة.

قال القرطبي: يعني كذبهم وتحريفهم وبهتهم؛ لا أنه تكون لهم الغلبة.

وقال الرازي: قوله تعالى (لن يضروكم إلا أذى) معناه: أنه ليس على المسلمين من كفار أهل الكتاب ضرر وإنما منتهى أمرهم أن يؤذوكم باللسان، إما بالطعن في

=

محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وإما بإظهار كلمة الكفر، كقولهم (عزير ابن الله)و(المسيح ابن الله)و(الله ثالث ثلاثة) وإما بتحريف نصوص التوراة والإنجيل، وإما بإلقاء الشبه في الأسماع، وإما بتخويف الضعفة من المسلمين.

قال القرطبي: فالآية وعد من الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين، أن أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام إلا إيذاء بالبهت والتحريف، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين.

قوله تعالى: {وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ} [آل عمران: ١١١]، أي: "وإن يقاتلكم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى يهزَموا عنكم، فيولوكم أدبارهم".

وهذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين. (ابن كثير).

قال الزجاج: "يعني به أهل الكتاب؛ وأعلمهم في هذه الآية أنهم إن قاتلوهم ولوهم الأدبار وسلبوا النصر وكذلك كان أمر إليهود".

قال السمرقندي: "يعني إن أعانوكم في القتال، فلا منفعة لكم منهم لأنهم {يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ} وينهزمون، ويقال: إن خرجوا إلى قتالكم، وأرادوا قتالكم يولون الأدبار، أي ينهزمون منكم".

قال القرطبي: وفي هذه الآية معجزة للنبي عليه السلام؛ لأن من قاتله من اليهود ولاه دبره.

وقال أبو حيان: هذه الجملة جاءت كالمؤكدة للجملة قبلها، إذ تضمنت الإخبار أنهم لا تكون لهم غلبة ولا قهر ولا دولة على المؤمنين، لأن حصول ذلك إنما يكون سببه صدق القتال والثبات فيه، أو النصر المستمد من الله، وكلاهما ليس

=

لهم.

وأتى بلفظ الإدبار لا بلفظ الظهور، لما في ذكر الإدبار من الإهانة دون ما في الظهور، ولأن ذلك أبلغ في الانهزام والهرب.

ولذلك ورد في القرآن مستعملا دون لفظ الظهور لقوله تعالى (سيهزم الجمع ويولون الدبر) (ومن يولهم يومئذ دبره) ثم لا ينصرون: هذا استئناف إخبار أنهم لا ينصرون أبدا.

وقال الآلوسي: وفي هذه الآية دلالة واضحة على نبوة نبينا ﷺ ولكونها من الإخبار بالغيب الذي وافقه الواقع لأن يهود بني قينقاع وبني قريظة والنضير ويهود خيبر حاربوا المسلمين ولم يثبتوا ولم ينالوا شيئا منهم ولم تخفق لهم بعد ذلك راية ولم يستقم أمر ولم ينهضوا بجناح.

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [آل عمران: ١١١]، أي: "ثم لا ينصرهم الله".

قال البيضاوي: أي: "ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم، نفي إضرارهم سوى ما يكون بقول وقرر ذلك بأنهم لو قاموا إلى القتال كانت الدبرة عليهم، ثم أخبر بأنه تكون عاقبتهم العجز والخذلان".

قال السمرقنديأي: "لا يُمْنَعون من الهزيمة، فكأنه يحكي ضعفهم عن القتال، يقول: لو كانوا عليكم لا يضرونكم، ولو كانوا معكم لا ينفعونكم، وهذا حالهم إلى يوم القيامة وَهُمْ اليهود ليس لهم شوكة، ولا قوة القتال في موضع من المواضع".

وقرئ: {لا ينصروا}، عطفا على يولوا على أن ثم للتراخي في الرتبة، فيكون عدم النصر مقيدا بقتالهم.

قال ابن الجوزي: "قال جمهور المفسرين: معنى الكلام: لن يضروكم ضرا باقيا في جسد أو مال، إنما هو شيء يسير سريع الزوال، وتثابون عليه. وهذا لا ينافي

=

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢).

{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّة أَيْنَ مَا ثُقِفُوا} حَيْثُمَا وُجِدُوا فَلَا عِزّ لَهُمْ وَلَا اعْتِصَام {إلَّا} كَائِنِينَ {بِحَبْلٍ مِنْ الله وَحَبْل مِنْ النَّاس} الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَهْدهمْ إلَيْهِمْ بِالْأَمَانِ عَلَى أَدَاء الْجِزْيَة أَيْ لَا عِصْمَة لَهُمْ غَيْر ذَلِكَ {وَبَاءُوا} رَجَعُوا {بِغَضَبٍ مِنْ الله وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَة ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ} أَيْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ {كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقّ ذلك} تأكيدا {بِمَا عَصَوْا} أَمْر الله {وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} يَتَجَاوَزُونَ الْحَلَال إلَى الْحَرَام[1].

=

الأمر بقتالهم فالآية محكمة على هذا، ويؤكده أنها خبر، والأخبار لا تنسخ.

وقال السدي: الإشارة إلى أهل الكتاب وذلك قبل أن يؤمر بقتالهم فنسخت بقوله: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر}، والأول أصح".

(١) قوله تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا} [آل عمران: ١١٢]، "أي: ألزمهم الله الذلة والصَّغَار أينما كانوا، فلا يأمنون".

قال الطبري: أي: "ألزم اليهود المكذبون بمحمد ﷺ الذلة أينما كانوا من الأرض، وبأي مكان كانوا من بقاعها، من بلاد المسلمين والمشركين".

قال الحسن: "أذلهم الله فلا مَنْعة لهم، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين".

وعن الحسن أيضا: "أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية".

قال ابن عباس: "هم أصحاب القبالات كفروا بالله العظيم".

قال ابن عاشور: "ومعنى ضرب الذلة اتصالها بهم وإحاطتها".

وقد اختلف في المراد بالذل هنا على أقوال:

=

=

الأول: أن المراد أن يحاربوا ويقتلوا وتغنم أموالهم وتسبى ذراريهم وتملك أراضيهم فهو كقوله تعالى: (اقتلوهم حيث ثقفتموهم).

الثاني: أن هذه الذلة هي الجزية، وذلك لأن ضرب الجزية عليهم يوجب الذلة والصغار.

والثالث: أن المراد من هذه الذلة أنك لا ترى فيهم ملكا قاهرا ولا رئيسا معتبرا، بل هم مستخفون في جميع البلاد ذليلون مهينون.

• ضربت عليهم الذلة لأنهم تكبروا، فكل متكبر مصيره إلى الذل عقوبة له.

قوله تعالى: {إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ} [آل عمران: ١١٢]، " أي: إلا إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين".

قيل: إن المراد بحبل من الله الإسلام، وقيل: إن حبل الله هو الذمة والعهد الذين أعطاهما الله لليهود والنصارى إذا أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

(وحبل من الناس) قيل: هو العهد.

قال ابن كثير: "أي: إلا بذمة من الله، وهو عَقْد الذمة لهم وضَرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة،و{وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ}: أي: أمان منهم ولهم، كما في المُهَادَن والمعاهَد والأسير إذا أَمَّنَه واحد من المسلمين ولو امرأة، وكذَا عَبْد، على أحد قولي العلماء".

قال قتادة: "إلا بعهد من الله وعهد من الناس". وروي عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي، والضحاك، وعكرمة، وابن زيد، مثل ذلك.

قال الطبري: "وأما {الحبل} الذي ذكره الله في هذا الموضع، فإنه السبب الذي يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين وعلى أموالهم وذراريهم، من عهد وأمان تقدم لهم عقده قبل أن يُثْقَفوا في بلاد الإسلام".

قال الزجاج: "والحبل العهد، فأعلم الله أنهم بعد عز كانوا فيه يبلغون في الذلة ما لا

=

=

يبلغه أهل مكة، وكانوا ذوي منعة ويسار، فأعلم الله أنهم يذلون أبدا إلا أن يعزوا بالذمة التي يعطونها في الإسلام. وما بعد الاستثناء، ليس من الأول أنهم أذلاء إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه".

أخرج الطبري عن ابن زيد: "في قوله: {أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس}، قال: إلا بعهد، وهم يهود. قال: والحبل العهد. قال: وذلك قول أبي الهيثم بن التَّيِّهان لرسول الله ﷺ حين أتته الأنصار في العقبة: أيها الرجل، إنا قاطعون فيك حبالا بيننا وبين الناس، يقول: عهودًا، قال: واليهود لا يأمنون في أرضٍ من أرض الله إلا بهذا الحبل الذي قال الله عز وجل. وقرأ: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة آل عمران: ٥٥]، قال: فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق يهود في شرق ولا غرب، هم في البلدان كلها مستذَلُّون، قال الله: {وَقَطَّعْنَاهُم فِي الأَرْضِ أُمَمًا} [سورة الأعراف: ١٦٨]، يهود".

قوله تعالى: {وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ} [آل عمران: ١١٢]، " أي: رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله".

قال الربيع بن أنس: "فحدث عليهم من الله غضب".

قال الطبري: أي: "وتحمَّلوا غضب الله فانصرفوا به مستحقِّيه".

قال السمرقندي: "استوجبوا الغضب من الله تعالى. ويقال: رجعوا بغضب من الله".

قال ابن كثير: "أي: أُلزموا فالتزَمُوا بغضب من الله، وهم يستحقونه".

قال الثعلبي: "ذمه لهم وتوعده إياهم في الدنيا، وإنزال العقوبة عليهم في العقبى، وكذلك بغضه وسخطه".

وفي تفسير: {بَاءُوا} [آل عمران: ١١٢]، ثلاثة أقوال:

=

=

أحدها: أن معناه: "استوجبوا". قاله سعيد بن جبير. وروي عن الضحاك نحو ذلك.

والثاني: أي: رجعوا". وهذا قول الكسائي.

والثالث: أن المعنى: أنهم احتملوا وأقروا به، ومنه الدعاء المأثور: "أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت". وهذا قول أبي عبيدة.

قوله تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ} [آل عمران: ١١٢]، " أي: لزمتهم الفاقة والخشوع فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم".

قال ابن كثير: "أي: أُلزِموا المسكنة قَدرًا وشَرْعًا".

قال الطبري: "ومعنى {المسكنة}: ذل الفاقة والفقر وخُشوعهما".

قال الثعلبي: أي: "جعلت عليهم وألزموا الذلة الذل والهوان،و{المسكنة}: يعني ذي فقر، ومنه سمي الفقير مسكينا لسكونه وقلة حركاته. يقال: ما في بني فلان أسكن من فلان، أي أفقر".

وفي تفسير: {الْمَسْكَنَةُ} [آل عمران: ١١٢]، قولان:

أحدهما: أنها الفاقة. قاله أبو العالية، وروي عن السدي والربيع بن أنس نحو ذلك.

والثاني: انها الخراج (الجزية). وهذا قول عطية، والضحاك. ويدل عليه قوله: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩].

قال الكلبي: "قال الكلبي: فترى الرجل منهم غنيًا، وعليه من البؤس والفقر والمسكنة".

قال السمرقندي: "ويقال: إنهم يظهرون من أنفسهم الفقر، لكيلا تضاعف عليهم الجزية".

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ} [آل

=

=

عمران: ١١٢]، " أي: ذلك الذل والصغار، بسبب جحودهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ظلمًا وطغيانًا".

قال ابن كثير: "أي: وإنما حملهم على ذلك الكبْر والبَغْي وَالْحسَد، فأعْقَبَهم ذلك الذِّلة والصَّغَار والمسكنة أبدا، متصلا بذلة الآخرة".

قال الطبري: أي: "بدلا مما كانوا يجحدون بآيات الله وأدلته وحججه، ويقتلون أنبياءه بغير حق ظلمًا واعتداء".

قال الزجاج: أي: "أمرهم ذلك وحقهم ذلك بكفرهم، فأعلم الله أنهم جعلت عقوبتهم هذه العقوبة الغليظة في الدنيا والآخرة لتغليظ ما ركبوه".

قال الثعلبي: "{يكفرون بآيات الله}، يعني: بصفة محمد ﷺ وإنه الرحيم في التوراة والإنجيل والفرقان".

قال ابن مسعود: "كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ثم تقوم بقلهم من آخر النهار".

قال الثعلبي: "ومعنى: {ويقتلون الأنبياء بعير الحق}: مثل أشعيا وزكريا ويحيى وسائر من قتل اليهود من الأنبياء، وفي الخبر: إن اليهود قتلوا سبعين نبيا من أول النهار [في ساعة واحدة، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار في ذلك اليوم".

وقال السمرقندي: المعنى: "ذلِكَ الذي يصيبهم بسبب كفرهم بمحمد-ﷺ- وبالقرآن، {وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ}، يعني: رضوا بما فعل آباؤهم، فكأنهم قتلوهم".

وقوله: {ويقتلون}، قراءة العامة بالتخفيف من "القتل"، وقرأ السلمي بالتشديد من التقتيل.

=

=

وقوله: {النبيين}، القراءة المشهورة بالتشديد من غيرهم، وتفرد نافع بهمز النبيئين، [ومده] فمن همز معناه: المخبر، من قول العرب: أنبأ النبي إنباءا، ونبأ ينبئ تنبئة بمعنى واحد، فقال الله عز وجل: {فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا} [التحريم: ٣].

ومن حذف الهمز فله وجهان:

أحدهما: إنه أراد الهمز فحذفه طلبا للخفة لكثرة استعمالها.

والوجه الآخر: أن يكون بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة وهي المكان المرتفع، يقال: نبيء الشيء عن المكان، أي ارتفع.

قال الشاعر:

إن جنبي عن الفراش لناب... كتجافي الأسر فوق الظراب

وفيه وجه آخر: قال الكسائي: النبي بغير همز: الطريق، فسمي الرسول نبيا، وإنما دقائق الحصا لأنه طريق إلى الهدى، ومنه قول الشاعر:

لأصبح رتما دقاق الحصى... مكان النبي من الكاثب

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران: ١١٢]، أي: إنما حَمَلهم على الكفر بآيات الله وقَتْل رُسُل الله" بسبب تمردهم وعصيانهم أوامر الله تعالى".

قال الطبري: أي: "فعلنا بهم ذلك بكفرهم، وقتلهم الأنبياء، ومعصيتهم ربَّهم، واعتدائهم أمرَ ربهم".

قال السمرقندي: استحقوا ذلك"الغضب، بأفعالهم، كلما ذكر الله عقوبة قوم في كتابه بيّن المعنى الذي يعاقبهم لذلك، لكيلا يظن أحد أنه عذّبهم بغير جُرْم".

قال ابن كثير: "أي: إنما حَمَلهم على الكفر بآيات الله وقَتْل رُسُل الله وقُيِّضوا لذلك أنّهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله، عز وجل، والغشيان لمعاصي الله،

=

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣).

{لَيْسُوا} أَيْ أَهْل الْكِتَاب {سَوَاء} مُسْتَوِينَ {مِنْ أَهْل الْكِتَاب أُمَّة قَائِمَة} مُسْتَقِيمَة ثَابِتَة عَلَى الْحَقّ كَعَبْدِ الله بْن سَلَام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأصحابه {يتلون آيات الله آناء الليل} أي سَاعَاته {وَهُمْ يَسْجُدُونَ} يُصَلُّونَ حَال.

يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤).

{يُؤْمِنُونَ بِاَللهِ وَالْيَوْم الْآخِر وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَر وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَات وَأُولَئِكَ} الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذَكَرَ الله {مِنْ الصَّالِحِينَ} وَمِنْهُمْ مَنْ لَيْسُوا كَذَلِكَ وَلَيْسُوا مِنْ الصَّالِحِينَ.

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥).

{وَمَا تَفْعَلُوا} بِالتَّاءِ أَيَّتهَا الْأُمَّة وَالْيَاء أَيْ الأمة القائمة {من خير فلن تكفروه} بِالْوَجْهَيْنِ أَيْ تَعْدَمُوا ثَوَابه بَلْ تُجَازَوْنَ عَلَيْهِ {والله عليم بالمتقين}[1].

=

والاعتداء في شرع الله".

قال قتادة: "اجتنبوا المعصية والعدوان فإن بهما هلك من هلك قبلك من الناس".

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: أخّر رسول الله ﷺ ليلةً صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد؛ فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: "أما إنه ليس من هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم"، قال: وأنزلت هذه الآية: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ

=

=
الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)}.
أخرجه أحمد (١/ ٣٩٦)، وابن أبي شيبة (١/ ٢٣٥)، والنسائي في الكبرى (١١٠٧٣)، والحارث (١٣٢ - بغية)، وأبو يعلى (٥٣٠٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٢٦)، والبزار (٣٧٥ - كشف)، والشاشي (٦٣١)، وابن حبان (١٥٣٠)، والطبري في تفسيره (٤/ ٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٨٧)، والواحدي في أسباب النزول (ص ١١٤) والحديث صححه ابن خزيمة وابن حبان كما قال الحافظ في العجاب (٢/ ٧٣٦)، وحسنه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٨٧)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الموارد (٢٣١)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٦/ ٣٠٤): صحيح لغيره، وهذا إسناده حسن لأجل عاصم وهو ابن أبي النجود، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين.
وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسيد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم؛ فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام؛ قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد وتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا؛ ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره؛ فأنزل الله عز وجل في ذلك: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ}.
أخرجه الطبري في جامع البيان (٤/ ٣٥)، وابن أبي حاتم في التفسير (ص ٤٨٥ رقم ١٢٢٠ - آل عمران)، والطبراني في الكبير (٢/ ٨٧ رقم ١٣٨٨)، ومن طريقه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٣٥٥، ٣٥٦ رقم ٣٨١)، وأبو نعيم في المعرفة (رقم ٨٩٤، ١٣٦٩)، وابن منده؛ كما في الإصابة (١/ ٣٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣١/ ٧٩)، وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٦٨، ٦٩ - المطبوع بهامش الإصابة)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٣٣ - ٥٣٤)، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣١/ ٧٩) وإسناده ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق.
=

=

وعن منصور بن المعتمر؛ قال: بلغني أنما نزلت في قوم يصلون فيما بين المغرب والعشاء.

أخرجه عبد الرزاق في "مصنفه" (٣/ ٤٤/ ٤٧٢٤)، والطبري في "جامع البيان" (٤/ ٣٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٢٣١) عن الثوري عن منصور به. وسنده صحيح إلى منصور؛ لكنه معضل.

* قوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً} [آل عمران: ١١٣]، " أي: ليس أهل الكتاب مستوين في المساوئ".

قال مقاتل: "يقول ليس كفار اليهود، والذين في الضلالة بمنزلة ابن سلام وأصحابه الذين هم على دين الله".

المشهور عن كثير من المفسرين -كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس- أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب [وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى (ليسوا سواء) أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: (من أهل الكتاب أمة قائمة) قال الآلوسي: قوله تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة) استئناف مبين لكيفية عدم التساوي ومزيل لما فيه من الإبهام.

قال ابن عاشور: قوله تعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون..) استئناف قصد به إنصاف طائفة من أهل الكتاب، بعد الحكم على معظمهم بصيغة تعمهم، تأكيدا لما أفاده قوله (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) فالضمير في قوله (ليسوا) لأهل الكتاب المتحدث عنهم آنفا، وهم اليهود، وهذه الجملة تتنزل من التي بعدها منزلة التمهيد.

=

=

قال ابن كثير: "أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا".

قال الماتريدي: "أي: لا سواء بين من آمن منهم -يعني: من أهل الكتاب- ومن لم يؤمن منهم؛ لأن منهم من قد آمن".

وفي تفسير قوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً} [آل عمران: ١١٣]، وجهان:

أحدهما: أن المعنى: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ". قاله ابن مسعود، السدي.

والثاني: أن المعنى: أن أهل الكتاب ليسوا متساوين في الصلاح والفاسد والخير والشر، وهذا معنى قول ابن عباس، وقتادة، وابن جريج.

قوله تعالى: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} [آل عمران: ١١٣]، " أي: منهم طائفة مستقيمة على دين الله".

قال ابن كثير: "أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشَرْعه مُتَّبِعة نبيَّ الله، فهي: {قَائِمَةٌ} يعني مستقيمة".

وفي تفسير قوله تعالى: {أمةٌ قَائِمَةٌ}} [آل عمران: ١١٣]، أقاويل:

أحدها: أنها أمة مستقيمة عادلة، من قولك: أقمت العود فقام، بمعنى استقام، وهو معنى قول الحسن، ومجاهد، وابن جريج، ومقاتل بن سليمان.

والثاني: أن المعنى: أنها أمة مطيعة، قائمة بطاعة الله، وهو قول السدي.

والثالث: أنها قائمة على كتاب الله وما أمر به فيه، وهو قول ابن عباس، وقتادة، والربيع.

والرابع: أنها قائمة في الصلاة، وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل كقوله تعالى: {والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما} [الفرقان: ٦٤]. وقوله: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل} [المزمل: ٢٠]. وقوله: {قم الليل}

=

=
[المزمل: ٢]. وقوله: {وقوموا لله قانتين} [البقرة: ٢٣٨].

والخامس: أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق، ملازمة له، غير مضطربة في التمسك به، كقوله: {إلا ما دمت عليه قائما} [آل عمران: ٧٥] أي ملازما للاقتضاء، ثابتا على المطالبة. ومنه قوله تعالى: {قائما بالقسط} [آل عمران: ١٨].

والظاهر هو القول الأخير، وإن كانت الأقوال الأخرى متقاربة المعنى مع ما قاله ابن عباس وقتادة، " مستقيمة على الهدى وكتاب الله وفرائضه وشرائع دينه، والعدلُ والطاعةُ وغير ذلك من أسباب الخير، من صفة أهل الاستقامة على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. ونظير ذلك، الخبرُ الذي رواه النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ أنه قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم ركبوا سفينة "، ثم ضرب لهم مثلا، فالقائم على حدود الله: هو الثابت على التمسك بما أمره الله به، واجتناب ما نهاهُ الله عنه".

قال ابن كثير: أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه متبعة نبي الله، فهي (قائمة) يعني مستقيمة.

وقال الطبري - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك ما قاله ابن عباس، وقتادة -أي: أمة ثابتة على أمر الله- ومن قال بقولهما على ما روينا عنهم، وإن كان سائر الأقوال الأخر متقاربة المعنى من معنى ما قاله ابن عباس وقتادة في ذلك).

وقرن الزمخشري بين قولين في المراد بالأمة القائمة بقوله: مستقيمة عادلة.

قوله تعالى: {يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران: ١١٣]، " أي: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم".

قال ابن كثير: "أي: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم".
=

=

قال الطبري: أي: "يتلون آيات الله آناء الليل في صلاتهم، وهم مع ذلك يسجدون فيها".

وفي قوله تعالى: {يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللهِ ءَانَآءَ اللَّيْلِ} [آل عمران: ١١٣]، قولان:

أحدهما: ساعات الليل، وهو قول الحسن، وقتادة، والربيع، وابن جريج، وأبي عبيدة، ومنه قول المتنخل الهذلي:

حُلْوٌ وَمُرٌّ كَعَطْفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ... فِي كُلِّ إِنْيٍ حذَاه اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ

والثاني: جوف الليل، وهو قول ابن عباس، والسدي.

واختلف في المراد بالتلاوة في هذا الوقت على قولين:

أحدهما: صلاة العَتْمَة، وهو قول عبد الله بن مسعود.

والثاني: صلاة المغرب والعشاء، رواه الثوري عن منصور.

وفي تفسير قوله: {وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران: ١١٣]، ثلاثة أقوال:

أحدها: يعني سجود الصلاة.

والثاني: يريد الصلاة، لأن القراءة لا تكون في السجود ولا في الركوع، وهذا قول الزجاج، والفراء.

ونظيره قوله: {وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف: ٢٠٦]، أي: يصلون، وفي القرآن: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ} [الفرقان: ٦٠]، أي: صلوا، وقوله: {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} [النجم: ٦٢].

والثالث: معناه يتلون آيات الله أناء الليل وهم مع ذلك يسجدون.

قوله تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [آل عمران: ١١٤]، أي: "، يصدِّقون بالله وبالبعث بعد الممات".

قال سعيد بن جبير: "يصدقون بتوحيد الله واليوم الآخر، ويصدقون بالغيب الذي فيه جزاء الأعمال".

=

=

قال مقاتل بن سليمان: "يعني: يصدقون بتوحيد الله والبعث الذي فيه جزاء الأعمال".

قال أبو السعود: "صفة أخرى لأمة مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى أي يؤمنون بها على الوجه الذي نطق به الشرع والإطلاق للإيذان بالغنى عن التقييد لظهور أنه الذي يطلق عليه الإيمان بهما لا يذهب الوهم إلى غيره وللتعريض بأن إيمان اليهود بهما مع قولهم عزير ابن الله وكفرهم ببعض الكتب والرسل ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الإيمان بهما في شئ أصلا ولو قيد بما ذكر لربما توهم أن المنتفي عنهم هو القيد المذكور مع جواز إطلاق الإيمان على إيمانهم بالأصل وهيهات".

قوله تعالى: {وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: ١٣٠]، أي: "يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله، وتصديق محمد ﷺ وما جاءهم به، وينهون الناس عن الكفر بالله، وتكذيب محمد وما جاءهم به من عند الله".

قال مقاتل بن سليمان: "يعني: إيمانا بمحمد- ﷺ- وينهون عن المنكر، يعني: عن تكذيب بمحمد- ﷺ-".

قال الزجاج: "ومعنى: {ويأمرون بالمعروف} ههنا أي يأمرون باتباع النبي ﷺ {وينهون عن المنكر}: عن الإقامة على مشاقته ﷺ".

قال أبو السعود: "صفتان أخريان لأمة أجريتا عليهم تحقيقا لمخالفتهم اليهود في الفضائل المتعلقة بتكميل الغير إثر بيان مباينتهم لهم في الخصائص المتعلقة بتكميل النفس وتعريضا بمداهنتهم في الاحتساب بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناس وصدهم عن سبيل الله فإنه أمر بالمنكر ونهي عن بالمعروف".

قوله تعالى: {وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} [آل عمران: ١١٤]، أي: "ويبتدرون فعل الخيرات".

=

=

قال مقاتل بن سليمان: "يعنى شرائع الإسلام".

قال أبو السعود: "صفة أخرى لأمة جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير والمسارعة في الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليته والقيام به وآثر الفور على التراخي أي يبادرون مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها بل بمبادتهم إلى الشرور وإيثار كلمة فى على ما وقع في قوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ} [آل عمران: ١٣٣].. الخ، للإيذان بأنهم مستقرون في أصل الخير متقلبون في فنونه المترتبة في طبقات الفضل لا أنهم خارجون عنها منتهون إليها".

قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: ١١٤]، أي: أولئك" هم من عداد الصالحين".

قال أبو السعود: "أي: من جملة من صلحت أحوالهم عند الله عز وجل واستحقوا رضاه وثناءه".

قال الماتريدي: "أي: ومن ذلك فعله - فهو صالح".

قال السمعاني: "وصفهم الله تعالى وشكرهم".

قال المراغي: "أي وهؤلاء الذين اتصفوا بجليل الصفات من الذين صلحت أحوالهم، وحسنت أعمالهم، فرضيهم ربهم، وفى هذا رد على اليهود الذين قالوا فيمن أسلم منهم: ما آمن بمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره.

والوصف بالصلاح هو غاية المدح، ونهاية الشرف والفضل، فقد مدح الله به أكابر الأنبياء كإسماعيل وإدريس وذى الكفل فقال: {وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}، وقال حكاية عن سليمان: {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}.

=

=

ولأنه ضد الفساد، وهو ما لا ينبغى فى العقائد والأفعال، فهو حصول ما ينبغي فى كل منهما، وذلك منتهى الكمال، ورفعة القدر، وعلوّ الشأن".

قال الراغب: "وبيّن تعالى في آخر الآية أن فاعل ذلك من الصالحين، والأقرب في {من} أن تكون للتبيين وأنهم هم الصالحون، ولذلك قال في الأول {وأولئك هم المفلحون}".

ويجدر القول بأن "المسارعة والمبادرة والعجلة تتقارب، لكن السرعة أعمها والمبادرة لا تكاد تستعمل إلا في البدن، والعجلة أكثر ما تستعمل فيما يتحرى عن غير فكر وروية، أو في إمضاء العزيمة قبل استكمال الروية، ولهذا يقال: "العجلة من الشيطان "، وقال تعالى: (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه)، فإن قيل: لو كانت مذمومة لما قال موسى: (وعجلت إليك رب لترضى).

قيل: موسى عليه السلام أورد ذلك على سبيل الاعتذار إبانة أنه قصد فعلا محمودا، وإن تحرى العجلة فيه، ومن قصد فعلا محمودا فقد يعذر في وقوع ما يكره منه، والمسارعة في الخير هي أن يتدرج الإنسان في ازدياد العرفة بفضله، واختياره والسرور بتعاطيه، وتقديمه على الأمور الدنيوية، وأن لا تؤخره عن أول وقت إمكان فعله وعلى ذلك قوله تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} [الحديد: ٢١]، ومدح تعالى قوما فقال: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة: ١٠]، أي يسابقون بهممهم وأبدانهم، فلذلك كرره، ولمراعاة المسارعة وكون بعض المسارعين أعلى منزلة من بعض قال تعالى: {هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ} [آل عمران: ١٦٣]".

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله، لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيرا، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض. ومن الإيمان

=

=

باليوم الآخر، لأنهم يصفونه بخلاف صفته. ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهم كانوا مداهنين. ومن المسارعة في الخيرات، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها. والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر الفور على التراخي وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم واستحقوا ثناءه عليهم. ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين فلن يكفروه لما جاء وصف الله عز وعلا بالشكر في قوله: {وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} [التغابن: ١٧] في معنى توفيه الثواب نفى عنه نقيض ذلك".

قوله تعالى: {وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ} [آل عمران: ١١٥]، "أي ما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله".

قال الربيع بن أنس: أي: "لن يضل عنكم".

قال مقاتل: "فلن يضل عنهم بل يشكر ذلك لهم".

قال الماتريدي: "أي: كيف يكفره، وهو الشكور الذي يقبل اليسير، ويعطي الجزيل".

قال المراغي: "أي وما يفعلوا من الطاعات فلن يحرموا ثوابه ولن يستر عنهم كأنه غير موجود".

قال السعدي: أي: "وأنهم مهما فعلوا {من خير} قليلا كان أو كثيرا {فلن يكفروه} أي: لن يحرموه ويفوتوا أجره، بل يثيبهم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى".

وقوله تعالى: {وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ} [آل عمران: ١١٥]، قرئت بالياء والتاء، قال الزجاج" وكلاهما صواب - كما قال الله عز وجل: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) - فالخطاب لسائر الخلق، ومن قال (فلن تكفروه) فهو لهؤلاء

=

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦).

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ} تَدْفَع {عَنْهُمْ أموالهم ولا أولادهم من الله} أي من عذابه {شيئا} وخصها بِالذِّكْرِ لِأَنَّ الْإِنْسَان يَدْفَع عَنْ نَفْسه تَارَة بفداء المال وتارة بالإستعانة بالأولاد {وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[1]}.

=

المذكورين وسائر الخلق داخل معهم في ذلك".

وفي حرف حفصة: "فلن تتركوه ": أي: لن تتركوه دون أن تجزوا عليه.

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١١٥]، أي لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر المتقين".

قال الثعلبي: أي: المؤمنين".

قال السمرقندي: "أي عليم بثوابهم، وهم مؤمنو أهل الكتاب، ومن كان بمثل حالهم".

عن ابن عباس: "{المتقين}، أي الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء منه".

وقال السدي: "{المتقين}، هم المؤمنون".

وقيل لمعاذ بن جبل: "من المتقون؟ قال: "قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة".

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران: ١١٦]، " أي: كفروا بآيات الله وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه".

والكفر لغة الستر والتغطية، ويسمى الليل (كافرا) لأنه يغطي كل شيء، وكل شيء غطى شيء فقد كفره، والكافر الزارع لأنه يغطي البذر بالتراب، وشرعا: ضد

=

=

الإيمان، فهو عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب.

قال الطبري: أي: "الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ وكذبوا به وبما جاءهم به من عند الله".

قال ابن عثيمين: يشمل كل من كفر بالله، فهذا حكمه".

وأصْلُ (الكفر) عند العرب: تَغطيةُ الشيء، ولذلك سمَّوا الليل " كافرًا "، لتغطية ظُلمته ما لبِستْه، كما قال الشاعر:

فَتَذَكَّرَا ثَقَلا رَثِيدًا، بَعْدَ مَا... أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمِينَهَا في كافِرِ

وقال لبيدُ بن ربيعة:

يَعْلُو طَرِيقةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرَا... فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومُ غَمَامُهَا

يعني غَطَّاها، فكذلك الذين جحدوا النبوّة من الأحبار من اليهود غَطَّوا أمر محمد ﷺ وكَتَمُوه الناسَ - مع علمهم بنبوّته، ووُجُودِهم صِفَتَه في كُتُبهم.

قوله تعالى: {لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا} [آل عمران: ١١٦]، " أي: لن تفيدهم الأموال والأولاد في الآخرة، من عذاب الله وأليم عقابه".

قال تعالى (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون).

وقال تعالى (ما أغنى عني ماليه).

وقال تعالى (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد).

وقال تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون).

=

=

وقال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى).

وقال تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين).

وهم قد ادعوا ذلك لأنفسهم كما قال تعالى عنهم (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) وقوله (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا). يعني في الآخرة كما أوتيته في الدنيا.

وقوله (ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى) أي: بدليل ما أعطاني في الدنيا.

قال ابن عاشور: وإنما خص الأموال والأولاد من بين أعلاق الذين كفروا؛ لأن الغناء يكون بالفداء بالمال، كدفع الديات والغرامات، ويكون بالنصر والقتال، وأولى من يدافع عن الرجل، من عشيرته، أبناؤه، وعن القبيلة أبناؤها.

وقال ابن عطية: وخص الله تعالى الأموال والأولاد بالذكر لوجوه:

منها: أنها زينة الحياة الدنيا، وعظم ما تجري إليه الآمال.

ومنها: أنها ألصق النصرة بالإنسان وأيسرها.

ومنها: أن الكفار يفخرون بالآخرة لا همة لهم إلا فيها هي عندهم غاية المرء وبها كانوا يفخرون على المؤمنين، فذكر الله أن هذين اللذين هما بهذه الأوصاف لا غناء فيهما من عقاب الله في الآخرة، فإذا لم تغن هذه فغيرها من الأمور البعيدة أحرى أن لا يغني.

ويوم القيامة لا ينفع إلا العمل الصالح.

قال تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم).

وقوله (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا) الآية.

وقوله (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به).

وقوله (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى).

=

=

قال الطبري: "لن تدفع أمواله التي جمعها في الدنيا، وأولاده الذين ربَّاهم فيها، شيئًا من عقوبة الله يوم القيامة إن أخرها لهم إلى يوم القيامة، ولا في الدنيا إنْ عجَّلها لهم فيها".

قال السمعاني: "أي: لا تدفع أموالهم بالفدية، ولا أولادهم بالنصرة من عذاب الله؛ وذلك أن الإنسان يدفع عن نفسه بفداء المال، وتارة بالاستعانة بالأولاد".

قال الزجاج: "أي لا تمنعهم أولادهم مما هو نازل بهم، لأنهم مالوا إلى الأموال في معاندتهم النبي ﷺ لأن الرياسة إنما قامت لهم - أعني - رؤساء إليهود - بمعاندتهم النبي ﷺ".

قال الصابوني: "أي لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم من عذاب الله شيئًا".

قال أبو السعود: "وتأخيرُ الأولاد عن الأموال مع توسيط حرف النفي بينهما إما لعراقة الأولادِ في كشف الكروب أو لأن الأموال أولُ عُدّة يُفزع إليها عند نزول الخطوب".

قال الثعلبي: "وإنما خص الأولاد لأنهم أقرب الأنساب إليه"، وإنما سمى المال غنى لأنه ينفع الناس ويدفع عنهم الفقر والنوائب".

قال الراغب: "ولما ذكر في الآية الأولى أن ما يفعله الإنسان من الخير لن يكفر، بين أن ما يعدونه خيرا إنما ينفع بعد الإيمان، فأما مع افتقاده فلا نفع، وذكر أجل ما هو عندهم خير، وهو الأموال والأولاد، وأنها لا تغني عنهم، وعلى ذلك ما حكى عن الكفار: {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ} [الحاقة: ٢٨]".

قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران: ١١٦]، " أي: أولئك الملازمون للنار" "لا يخرجون منها أبدا".

قال البغوي: "قوله تعالى (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وإنما جعلهم

=

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧).

{مَثَل} صِفَة {مَا يُنْفِقُونَ} أَيْ الْكُفَّار {فِي هَذِهِ الْحَيَاة الدُّنْيَا} فِي عَدَاوَة النَّبِيّ

=

من أصحابها لأنهم أهلها لا يخرجون منها ولا يفارقونها، كصاحب الرجل لا يفارقه".

قال المراغي: "لأن ظلمة أرواحهم، وفساد عقائدهم، وسوء أعمالهم، اقتضت خلودهم فى تلك الهاوية المظلمة المستعرة التي وقودها الناس والحجارة، قد أعدت لكل من جحد بآيات ربه، وأعرض عن دعوة أنبيائه ورسله، ولم يصغ إلا لداعى الهوى والشهوات".

قال الطبري: "وإنما جعلهم أصحابها، لأنهم أهلها الذين لا يخرجون منها ولا يفارقونها، كصاحب الرجل الذي لا يفارقه، وقرينه الذي لا يزايله، ثم أكد ذلك بإخباره عنهم إنهم " فيها خالدون "، أنّ صحبتهم إياها صحبة لا انقطاع لها، إذْ كان من الأشياء ما يفارق صاحبه في بعض الأحوال، ويزايله في بعض الأوقات، وليس كذلك صحبة الذين كفروا النارَ التي أصْلوها، ولكنها صحبة دائمة لا نهاية لها ولا انقطاع".

قال الرازي: اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد، وذلك لفوائد:

أحدها: ليظهر بذلك عدله سبحانه، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان.

وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه.

وثالثها: أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سببا للعرفان.

مِنْ صَدَقَة وَنَحْوهَا {كَمَثَلِ رِيح فِيهَا صِرّ} حَرّ أَوْ بَرْد شَدِيد {أَصَابَتْ حَرْث} زَرْع {قَوْم ظَلَمُوا أَنْفُسهمْ} بِالْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَة {فَأَهْلَكَتْهُ} فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ فَكَذَلِكَ نَفَقَاتهمْ ذَاهِبَة لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا {وَمَا ظَلَمَهُمْ الله} بِضَيَاعِ نَفَقَاتهمْ {وَلَكِنْ أَنْفُسهمْ يظلمون} بالكفر الموجب لضياعها(١).

---

(١) قوله تعالى: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ} [آل عمران: ١١٧]، " أي: شَبَهُ ما يتصدق به الكافر، كشبه ريح فيها برد شديد".

واختلف أهل التأويل في معنى " النفقة " التي ذكرها في هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها النفقة المعروفة في الناس. قاله مجاهد، ورجحه الطبري، وهو الظاهر.

والثاني: أن ذلك قوله الذي يقوله بلسانه، مما لا يصدِّقه بقلبه. وهذا قول السدي.

قال الماتريدي: "ضرب مثل نفقة الكفار التي أنفقوها بريح فيها صر أصابت حرث قوم، وذلك - والله أعلم - أنهم كانوا ينفقون ويعملون جميع الأعمال: من عبادة الأصنام والأوثان، ويقولون: {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى}، ظنوا أن تلك الأعمال والنفقات التي أنفقوها في صد الناس - تنفعهم في الآخرة، وتقربهم إلى الله، فأخبر أنها لا تنفع، فكان كالريح التي فيها صر وبرد، ظنوا أن فيها رحمة، وشيئا ينفع زروعهم، وينمو بها، فإذا فيها نار أحرقت حرثهم؛ كما طمعوا من أعمالهم ونفقاتهم التي في الدنيا - بالآخرة؛ قربة وزلفة إليه، فإذا هي مهلكة لأبدانهم؛ كالريح التي فيها صر كانت مهلكة؛ محرقة لزروعهم وحرثهم".

قال الرازي: "اعلم أنه تعالى لما بين أن أموال الكفار لا تغني عنهم شيئا، ثم إنهم ربما أنفقوا أموالهم في وجوه الخيرات، فيخطر ببال الإنسان أنهم ينتفعون بذلك، فأزال الله تعالى بهذه الآية تلك الشبهة، وبين أنهم لا ينتفعون بتلك الإنفاقات، وإن كانوا قد قصدوا بها وجه الله".

=

=

وفي تفسير "الصّرِّ" أقوال:

أحدها: هو البرد الشديد، وهو قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والربيع، والسدي، وعكرمة، وابن زيد، والضحاك، وشرحبيل بن سعد.

والثاني: برد وجليد. قاله عطاء.

والثالث: أنه نار. وهذا قول ابن عباس أيضا ومجاهد.

قال ابن كثير: "وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد - سيّما الجليد - يحرق الزروع والثمار، كما يحرق الشيء بالنار".

والرابع: أنه صوت لهب النار التي تكون في الريح، وهو قول الزجاج.

قال الماوردي: "وأصل الصّر: صوت من الصرير"، ومنه قوله تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} [الذاريات: ٢٩]. قيل: "هي: الصوت".

قال الرازي: قال أكثر المفسرين وأهل اللغة: الصر البرد الشديد. وهذا القول هو المروي عن: ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقتادة، وعكرمة، والربيع، والضحاك، وابن زيد، وبه قال أكثر المفسرين؛ كأبي عبيدة معمر بن المثنى، والطبري، والزجاج، والزمخشري، وأبي حيان.

والثاني: أن الصر: هو السموم الحارة والنار التي تغلي، وهو اختيار أبي بكر الأصم وأبي بكر ابن الأنباري.

قال ابن الأنباري: وإنما وصفت النار بأنها (فيها صر) لتصويتها عند الالتهاب، ومنه صرير الباب، والصرصر مشهور، والصرة الصيحة ومنه قوله تعالى (فأقبلت امرأته في صرة) وروى ابن الأنباري بإسناده عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في (فيها صر) قال فيها نار، وعلى القولين فالمقصود من التشبيه حاصل، لأنه سواء كان بردا مهلكا أو حرا محرقا فإنه يصير مبطلا للحرث والزرع فيصح التشبيه به.

قوله تعالى: {أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ} [آل عمران: ١١٧].

=

=

أي: أصابت تلك الريح المدمرة زرع قوم ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به، فكذلك الكفار يمحق الله أعمالهم الصالحة كما يذهب هذا الزرع بذنوب صاحبه.

قال مقاتل: "فلم يبق منه شيئا كما أهلكت الريح الباردة حرث الظلمة فلم ينفعهم حرثهم، فكذلك أهلك الله «نفقات» سفلة اليهود ومنهم كفار مكة التي أرادوا بها الآخرة فلم تنفعهم نفقاتهم".

قال الزجاج: أي: "فعاقبهم الله بإذهاب زرعهم - فأهلكته، فأعلم أن ضرر نفقتهم عليهم كضرر هذه الريح في هذا الزرع وقيل إنه يعني: به أهل مكة حين تعاونوا وأنفقوا الأموال على التظاهر على النبي ﷺ، وقال بعضهم: {مثل ما ينفقون}، أي: مثل أعمالهم في شركهم كمثل هذه الريح... وجملته أن ما أنفق في التظاهر على عداوة الدين مضر مهلك أهله في العاجل والأجل".

قال الماتريدي: "ي: يتأسفون على ما أنفقوا تأسف صاحب الزرع على ما كان أنفق فيه".

قال ابن كثير: "أي: أحرقته، يعني بذلك السَّفْعة إذا نزلت على حَرْث قد آن جدَادُه أو حَصَاده فدمَّرَتْه وأعدَمَتْ ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعَدمَه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذلك الكفار يمحق الله ثوابَ أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمرةَ هذا الحرث بذنوب صاحبه، وكذلك هؤلاء بَنَوْهَا على غير أصْل وعلى غير أساس".

قوله تعالى: {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [آل عمران: ١١٧]، " أي: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب".

أخرج ابن أبي حاتم "عن عباس في قوله: {لكن أنفسهم يظلمون}، قال:

=

=

يضرون".

وقال الحسن: "ينقصون".

قال السمرقندي: "يعني أصحاب الزرع هم ظلموا أنفسهم بمنع حق الله تعالى، فكذلك الكفار أبطلوا ثواب أعمالهم بالشرك بالله تعالى".

قال الماتريدي: "والظلم: ما ذكرنا: هو وضع الشيء في غير موضعه، فهو - والله أعلم - قال: هم الذين وضعوا أنفسهم في غير موضعها، لا أن وضع الله أنفسهم ذلك الموضع؛ لأنهم عبدوا غير الله، ولم يجعلوا أنفسهم خالصين سالمين لله، فهم الذين ظلموا أنفسهم؛ حيث أسلموها لغير الله، وعبدوا دونه، فذلك وضعها في غير موضعها؛ لأن وضعها موضعها هو أن يجعلوها خالصة لله، سالمة له".

وقيل: ما ضروا الله بعبادتهم غيره وبكفرهم به، إنما ضروا أنفسهم؛ إذ لا حاجة له إلى عبادتهم".

والمعنى أن الله لم يظلمهم حين لم يتقبل نفقاتهم بل هم تسببوا في ذلك، إذ لم يؤمنوا لأن الإيمان جعله الله شرطا في قبول الأعمال، فلما أعلمهم بذلك وأنذرهم لم يكن عقابه بعد ذلك ظلما لهم، وفيه إيذان بأن الله لا يخالف وعده من نفي الظلم عن نفسه.

قال ابن عاشور: ضرب لأعمالهم المتعلقة بالأموال مثلا، فشبه هيئة إنفاقهم المعجب ظاهرها، المخيب آخرها، حين يحبطها الكفر، بهيئة زرع أصابته ريح باردة فأهلكته، تشبيه المعقول بالمحسوس (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والسامعون عالمون بأن عقاب الأقوام الذين ظلموا أنفسهم غاية في الشدة، فذكر وصفهم بظلم أنفسهم لتذكير السامعين بذلك على سبيل الموعظة.

وقال الطبري في معنى الآية: شبه ما ينفق الذين كفروا، أي: شبه ما يتصدق به

=

=

الكافر من ماله، فيعطيه من يعطيه على وجه القربة إلى ربه وهو لوحدانية الله جاحد، ولمحمد ﷺ مكذب، في أن ذلك غير نافعه مع كفره، وأنه مضمحل عند حاجته إليه، ذاهب بعد الذي كان يرجو من عائدة نفعه عليه كشبه ريح فيها برد شديد، أصابت هذه الريح التي فيها البرد الشديد "حرث قوم"، يعني: زرع قوم قد أملوا إدراكه، ورجوا ريعه وعائدة نفعه "ظلموا أنفسهم"، يعني: أصحاب الزرع، عصوا الله، وتعدوا حدوده "فأهلكته"، يعني: فأهلكت الريح التي فيها الصر زرعهم ذلك، بعد الذي كانوا عليه من الأمل ورجاء عائدة نفعه عليهم.

يقول تعالى ذكره: فكذلك فعل الله بنفقة الكافر وصدقته في حياته، حين يلقاه، يبطل ثوابها ويخيب رجاؤه منها.

* مسألة: كل من قدم عملا في دنياه لدنياه، لم يؤجر عليه في أخراه؛ ففي "الصحيح"، عن عائشة؛ قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: (لا ينفعه؛ إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين).

ومثل هذا قول النبي ﷺ لابنة حاتم الطائي سفانة، حينما ذكرت مكارم أبيها وأخلاقه، فقال لها النبي ﷺ: (لو كان أبوك مسلما، لترحمنا عليه، خلوا عنها؛ فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق).

وذلك أن من الكفار والمسلمين من يفعل الإحسان بلا إخلاص؛ وإنما لما جبل عليه الإنسان من حب الخير ودفع الشر من إغاثة الملهوف وإكرام الضيف؛ فهذا لا يقبل ممن لم يحتسبه ولو كان مسلما؛ فكيف بكافر أراد بعمله الجاه والسمعة والذكر؟!

فلا ينتفع الكافر بعمله الصالح في الدنيا، لانتفاء القصد في العمل، وانتفاء الإسلام من العامل؛ ولذا قال تعالى قبل هذه الآية: {إن الذين كفروا لن تغني عنهم

=

=

أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} [آل عمران: ١١٦]، فذكر استحقاقهم النار لكفرهم، بعدما ذكر عدم انتفاعهم بعملهم في الدنيا.

* إذا أسلم الكافر وقد سبق منه عمل خير حال كفره، فالأعمال التي عملها حال الكفر على نوعين:

النوع الأول: أعمال أخلص فيها لله ولو كان في نفسه كافرا؛ فإن المشركين لهم أعمال ودعوات يخلصون بها لله ولو كانوا باقين على الشرك؛ فالله لا يقبلها لكفرهم وإن أخلصوا فيها؛ لأن الكفر يمنع رفع العمل وقبوله؛ فهذا النوع من العمل يحسب لصاحبه ويقبل منه بعد إسلامه؛ لما جاء في "الصحيحين"، عن حكيم بن حزام؛ أنه قال للنبي ﷺ: أرأيت أمورا كنت أتحنث بها في الجاهلية، هل لي فيها من شيء؟ فقال له رسول الله ﷺ: (أسلمت على ما أسلفت من خير).

وإذا أخلص من عمله شيئا حال كفره، فيعجل له نفعه في الدنيا فيستمتع بنعيمه فيها قبل الآخرة: {أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها} [الأحقاف: ٢٠].

النوع الثاني: أعمال أشرك بها حال كفره، فجعلها لمعبوده؛ أو أشرك الله مع معبوده؛ فهذه لا يقبل الله منها شيئا ولو كثرت؛ لظاهر الآية، ولما جاء في "الصحيح"؛ من حديث أبي هريرة؛ قال ﷺ: (قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه). وهذه لا تقبل من المسلم المرائي، فضلا عن الكافر الأصلي.

* إحباط عمل المرتد: من عمل صالحا وهو مسلم مخلصا ثم ارتد، حبط عمله بلا خلاف؛ لقوله تعالى في الكافرين: {فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة} [البقرة: ٢١٧]، وقوله: {ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله} [المائدة: ٥]، وقوله: {ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون} [الأنعام: ٨٨]،

=

=

وقوله: {والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم} [الأعراف: ١٤٧]، وقوله: {أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا} [الكهف: ١٠٥]، وقوله: {أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم} [الأحزاب: ١٩].

وقوله تعالى عن أعلى الناس منزلة وهم الأنبياء: {ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك} [الزمر: ٦٥].

وإنما وقع الخلاف فيمن عمل صالحا وهو مؤمن، ثم ارتد، ثم رجع إلى الإسلام؛ فهل يرجع إليه عمله الصالح السالف حال إسلامه؟.

وعمل الكافر الصالح الذي يخلصه لله وهو مشرك، فهذا يعجل له نفعه في الدنيا، وليس له في الآخرة به من نصيب، ومن عمل شيئا وأشرك مع الله فيه غيره وهو مشرك، فلا يلحقه نفعه في الدنيا والآخرة؛ وهذا ظاهر قوله تعالى: {حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة} [البقرة: ٢١٧].

والله يرزق الكافر كما يرزق الحيوان؛ لأن هذا مقتضى ربوبيته، فخلق الخلق وهو المتكفل بهم، وأصل الرزق من لوازم الربوبية، لا من لوازم الألوهية، وإن كان لله رزق لمن أطاعه، ومنع لمن عصاه؛ فهذا الرزق والمنع الخاص وليس هو العام، وقد سمى الله نفسه بـ (خير الرازقين)؛ لأنه يرزق الكافر والمؤمن؛ لأنه ربهم جميعا، وخلط كثير من العامة في هذا الباب دفع بعضهم إلى الإلحاد، فيرون الكافر يرزق مع كفره، ويرون المؤمن يحرم مع إيمانه، ويظنون أن الرزق من لوازم الألوهية، وهذا خطأ؛ فنعيم الدنيا من لوازم ربوبيته، ونعيم الآخرة من لوازم ألوهيته؛ فالكافر في النار، والمؤمن في الجنة.

ولهذا يستجيب الله للكافر دعاءه إذا كان مظلوما، ولا ينظر إلى دينه؛ كما يروى في الحديث: (اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافرا)؛ لأن عدله في كونه من ربوبيته كما

=

=

أنه من ألوهيته؛ حتى تستقيم الحياة فلا تفسد، فيجري الله عدله وانتصاره للمظلوم حتى في الحيوان؛ كما في "الصحيح"؛ من حديث أبي هريرة مرفوعا؛ قال رسول الله: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء، من الشاة القرناء)، ويروى في الأثر: "لو أن جبلا بغى على جبل، لدك الله الباغي منهما".

ويستجيب الله للكافر المظلوم دعوته ولو على مسلم؛ لمقتضى عدله سبحانه في كونه.

لهذا قد يستقيم عيش الكافر بالعدل كاستقامة عيش الحيوان، ولكن لا تستقيم آخرته إلا بالإسلام، وبالإسلام تستقيم الحياة الدنيا والآخرة جميعا، وبمقدار النقص في الإسلام يكون الميل في استقامة الحياتين.

وأما حقوق الكافر التي على المسلم في الدنيا، فإن لم يعجل الله للكافر حقه في الدنيا بعقوبة المسلم، أو رزق الكافر بنعيم دنيوي عاجل، فيحاسب عليها المسلم يوم القيامة؛ فتنقص من حسناته فتؤخذ منه، ولا توضع للكافر ولا ينتفع بها؛ لأن الحسنات المأخوذة هي جزاء عمل صالح للمسلم في الدنيا، فلو كانت من عمل الكافر نفسه، لم تقبل منه، فلا يأخذها الله من المسلم ليعطيها الكافر لينتفع بعمل غيره وهو لا ينتفع

بعمل نفسه، ولكنه يحرم نفعها لكفره، ويكون ما نزل به في الدنيا من عموم العقوبة والبلاء الذي يقدره الله عليه من مرض وخوف، وهم وحزن؛ فيطول عمر كافر ويقصر عمر آخر، ويمرض كافر ويصح آخر كحال البهائم، مع أن ظلمه محرم ويعاقب عليه الظالم ولو كان مسلما، كظلم الإنسان المسلم للبهيمة بقتلها صبرا، أو حرقها وهي حية وتعذيبها، يعاقب على فعلته تلك يوم القيامة، ولكن لا يلزم من عقوبته انتفاع البهيمة بذلك يوم القيامة بدخول الجنة والنعيم فيها، والكافر من باب أولى.

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَة} أَصْفِيَاء تُطْلِعُونَهُمْ عَلَى سِرّكُمْ {مِنْ دُونكُمْ} أَيْ غَيْركُمْ مِنْ الْيَهُود وَالنَّصَارَى وَالْمُنَافِقِينَ {لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} نُصِبَ بِنَزْعِ الْخَافِض أَيْ لَا يُقَصِّرُونَ لَكُمْ فِي الْفَسَاد {وَدُّوا} تَمَنَّوْا {مَا عَنِتُّمْ} أَيْ عَنَتَكُمْ وَهُوَ شِدَّة الضَّرَر {قَدْ بَدَتْ} ظَهَرَتْ {الْبَغْضَاء} الْعَدَاوَة لَكُمْ {مِنْ أَفْوَاههمْ} بِالْوَقِيعَةِ فِيكُمْ وَإِطْلَاع الْمُشْرِكِينَ عَلَى سِرّكُمْ {وَمَا تُخْفِي صُدُورهمْ} مِنْ الْعَدَاوَة {أَكْبَر قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَات} عَلَى عَدَاوَتهمْ {إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} ذَلِكَ فَلَا تُوَالُوهُمْ.

هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩).

{هَا} لِلتَّنْبِيهِ {أَنْتُمْ} يَا {أُولَاءِ} الْمُؤْمِنِينَ {تُحِبُّونَهُمْ} لِقَرَابَتِهِمْ مِنْكُمْ وَصَدَاقَتهمْ {وَلَا يُحِبُّونَكُمْ} لِمُخَالَفَتِهِمْ لَكُمْ فِي الدين {وتؤمنوا بِالْكِتَابِ كُلّه} أَيْ بِالْكُتُبِ كُلّهَا وَلَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِكُمْ {وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِل} أَطْرَاف الْأَصَابِع {مِنْ الْغَيْظ} شِدَّة الْغَضَب لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ائْتِلَافكُمْ وَيُعَبَّر عَنْ شِدَّة الْغَضَب بِعَضِّ الْأَنَامِل مَجَازًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ عَضّ {قُلْ

=

وإذا كان للمسلم على الكافر مظلمة دنيوية، فتؤخذ من سيئات المسلم وتوضع على الكافر؛ لأنه لا حسنات عنده تنفع المؤمن في آخرته.

مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ} أَيْ ابْقَوْا عَلَيْهِ إِلَى الْمَوْت فَلَنْ تَرَوْا مَا يَسُرّكُمْ {إِنَّ الله عَلِيم بِذَاتِ الصُّدُور} بما في قلوبكم وَمِنْهُ مَا يُضْمِرهُ هَؤُلَاءِ.

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠).

{إِنْ تَمْسَسْكُمْ} تُصِبْكُمْ {حَسَنَة} نِعْمَة كَنَصْرٍ وَغَنِيمَة {تَسُؤْهُمْ} تُحْزِنهُمْ {وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَة} كَهَزِيمَةٍ وَجَدْب {يَفْرَحُوا بِهَا} وَجُمْلَة الشَّرْط مُتَّصِلَة بِالشَّرْطِ قَبْل وَمَا بَيْنهمَا اعْتِرَاض وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ مُتَنَاهُونَ فِي عَدَاوَتكُمْ فَلِمَ تُوَالُوهُمْ فَاجْتَنِبُوهُمْ {وَإِنْ تَصْبِرُوا} عَلَى أَذَاهُمْ {وَتَتَّقُوا} الله فِي مُوَالَاتهمْ وَغَيْرهَا {لَا يَضُرّكُمْ} بِكَسْرِ الضَّاد وَسُكُون الرَّاء وَضَمّهَا وَتَشْدِيدهَا {كَيْدهمْ شَيْئًا إِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء {مُحِيط} عَالِم فَيُجَازِيهِمْ بِهِ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالًا من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية؛ فأنزل الله عز وجل فيهم؛ فنهاهم عن مباطنتهم تخوف الفتنة عليهم منهم؛ فأنزل: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ} إلى قوله: {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} [آل عمران: ١١٩].

أخرجه ابن إسحاق (٢/ ١٨٦ - ابن هشام) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٤٠) -: ثني محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

وسنده ضعيف؛ لجهالة شيخ ابن إسحاق.

وعن مجاهد: نزلت في المنافقين من أهل المدينة، نهى المؤمنين أن يتولوهم.

أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٧ رقم ١٢٦٦)، والطبري في "جامع البيان" (٤/ ٤٠، ٤٣)، وعبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٤٠) من طرق عن ابن أبي =

=

نجيح عنه به. وسنده صحيح إلى مجاهد؛ لكنه مرسل.

وقال مقاتل بن سليمان: دعا اليهود؛ منهم: أصبغ ورافع ابنا حرملة -وهما من رؤوسهم- عبد الله بن أُبي ومالك بن دخشم إلى اليهودية، وزينا لهم ترك الإسلام؛ حتى أرادوا أن يظهروا الكفر؛ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية: يحذر من اتباع اليهود، ويبين عداوتهم لهم.

ذكره الحافظ ابن حجر في "العجاب" (٢/ ٧٤٠)، وسنده واه بمرة؛ لما علم من حال تفسير مقاتل.

وأخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٩ رقم ١٢٧٣) عن محمد به معضلًا دون ذكر عكرمة ومن بعده

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ} [آل عمران: ١١٨]، أي: "يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم من عند ربهم، لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم من دون أهل دينكم وملَّتكم، فلا تتخذوا المنافقين أصدقاء تودونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من غير المؤمنين".

قال ابن كثير: يقول تبارك وتعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي: يُطْلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، قوله: {مِنْ دُونِكُمْ}، أي: من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل: هم خاصّة أهله الذين يطلعون على داخل أمره".

قال الزجاج: "الدخلاء الذين يستبطنون ويتبسط إليهم، يقال فلان بطانة لفلان أي مداخل له ومؤانس، فالمعنى أن المؤمنين أمروا ألا يداخلوا المنافقين ولا إليهود، وذلك أنهم كانوا لا يبقون غاية في التلبيس على المؤمنين. فأمروا بألا يداخلوهم لئلا يفسدوا عليهم دينهم".

=

=

قال الطبري: "وإنما جعل " البطانة " مثلا لخليل الرجل، فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه، لحلوله منه – في اطِّلاعه على أسراره وما يطويه عن أباعده وكثير من أقاربه – محلَّ ما وَلِيَ جَسده من ثيابه".

قال القرطبي: نهى الله عز وجل المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولجاء، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم أمورهم.

ويقال: كل من كان على خلاف مذهبك ودينك فلا ينبغي لك أن تحادثه؛ قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل).

وروي عن ابن مسعود أنه قال: اعتبروا الناس بإخوانهم.

ثم قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء. روى البخاري عن أبى سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال (ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه. وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه، والمعصوم من عصمه الله).

قال الرازي: اختلفوا في أن الذين نهى الله المؤمنين عن مخالطتهم من هم؟ على أقوال:

الأول: أنهم هم اليهود وذلك لأن المسلمين كانوا يشاورونهم في أمورهم ويؤانسونهم لما كان بينهم من الرضاع والحلف ظنا منهم أنهم وإن خالفوهم في الدين فهم ينصحون لهم في أسباب المعاش فنهاهم الله تعالى بهذه الآية عنه، وحجة أصحاب هذا القول أن هذه الآيات من أولها إلى آخرها مخاطبة مع اليهود

=

=

فتكون هذه الآية أيضا كذلك

الثاني: أنهم هم المنافقون، وذلك لأن المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوال المنافقين ويظنون أنهم صادقون

الثالث: المراد به جميع أصناف الكفار، والدليل عليه قوله تعالى (بطانة من دونكم) فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطانة من غير المؤمنين فيكون ذلك نهيا عن جميع الكفار وقال تعالى (يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) ومما يؤكد ذلك ما روي أنه قيل لعمر بن الخطاب ﵁: ههنا رجل من أهل الحيرة نصراني لا يعرف أقوى حفظا ولا أحسن خطا منه، فإن رأيت أن تتخذه كاتبا، فامتنع عمر من ذلك وقال: إذن اتخذت بطانة من غير المؤمنين، فقد جعل عمر ﵁ هذه الآية دليلا على النهي عن اتخاذ بطانة، وأما ما تمسكوا به من أن ما بعد الآية مختص بالمنافقين فهذا لا يمنع عموم أول الآية، فإنه ثبت في أصول الفقه أن أول الآية إذا كان عاما وآخرها إذا كان خاصا لم يكن خصوص آخر الآية مانعا من عموم.

• وصدر - سبحانه - النداء بوصف الإيمان، للإشعار بأن مقتضى الإيمان يوجب عليهم ألا يأمنوا من يخالفهم في عقيدتهم على أسرارهم، وألا يتخذوا أعداء الله وأعداءهم أولياء يلقون إليهم بالمودة، وألا يطلعوهم على ما يجب إخفاؤه من شئون وأمور خاصة بالمؤمنين.

قوله تعالى: {لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} [آل عمران: ١١٨].

أي: لا يقصرون لكم في الفساد، قال تعالى (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) أي فسادا وضررا.

قال ابن كثير: "أي: يَسْعَوْنَ في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة".

=

=

قال الزجاج: "أي لا يبقون غاية في إلقائهم فيما يضرهم، وأصل «الخبال» في اللغة: ذهاب الشيء، قال الشاعر:

ابني سليمي لستم ليد... إلايدا مخبولة العضد

أي قد ذهبت عضدها".

قال الثعلبي: "أي لا يقصرون ولا يتركون عهدهم وطاقتهم فيما يورثكم فوق الشر والفساد. يقال: ما ألوته خيرا أو شرا أي ما قصرت في فعل ذلك. ومنه قول ابن مسعود في عثمان: ولم تأل عن خير لأخرى باديه، وقال امرؤ القيس:

وما المرء مادامت حشاشة نفسه... بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

أي مقصر في الطلب، والخبال: الشر والفساد، قال الله تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا} [التوبة: ٤٧]".

قال القرطبي: بين تعالى المعنى الذي لأجله نهى عن المواصلة فقال: (لا يألونكم خبالا) يقول فسادا.

يعني لا يتركون الجهد في فسادكم، يعني أنهم وإن لم يقاتلوكم في الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد في المكر والخديعة، على ما يأتي بيانه.

قوله تعالى: {وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ} [آل عمران: ١١٨]، " أي: تمنوا مشقتكم وما يوقعكم في الضرر الشديد".

أي: أن هؤلاء الذين تصافونهم وتفشون إليهم أسراركم مع أنهم ليسوا على ملتكم، بجانب أنهم لا يألون جهدا في إفساد أمركم، فإنهم يحبون عنتكم ومشقتكم وشدة ضرركم، وتفريق جمعكم، وذهاب قوتكم.

قال الطبري: أي: "يتمنون لكم العنَت والشر في دينكم وما يسوءكم ولا يسرُّكم".

قال الثعلبي: "أي تمنوا ضركم وشركم وإثمكم وهلاككم".

قال الواحدي: أي: "تمنَّوا ضلالكم عن دينكم".

=

=

قال ابن كثير: أي: "ويودون ما يُعْنتُ المؤمنين ويخرجهم ويَشُقّ عليهم".
وفي قوله تعالى: {وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ} [آل عمران: ١١٨]، تأويلان:
أحدهما: ودوا إضلالكم عن دينكم، وهو قول السدي.
والثاني: ودوا أن تعنتوا في دينكم، أي: تحملون على المشقة فيه، وهو قول ابن جريج.
قال الزجاج: "ومعنى العنت: إدخال المشقة على الإنسان، يقال فلان متعنت فلانا، أي يقصد إدخال المشقة والأذى عليه، ويقال قد عنت العظم يعنت عنتا إذا أصابه شيء بعد الجبر، وأصل هذا كله مرق قولهم: (اكمة عنوت) إذا كانت طويلة شاقة المسلك، فتأويل أعنت فلانا، حملته على المشقة".
قوله تعالى: {قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} [آل عمران: ١١٨]، " أي: ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم".
قال مقاتل: "قد ظهرت العداوة بألسنتهم".
قال الثعلبي: "أي: "قد ظهرت امارة العداوة من أفواههم بالشتيمة والوقيعة في المسلمين. وقيل: باطلاع المشركين على أسرار المؤمنين. وقيل: هو مثل قوله: {ولتعرفنهم في لحن القول} [محمد: ٣٠]".
قال الطبري: "والذي بدا لهم منهم بألسنتهم، إقامتهم على كفرهم، وعداوتهم من خالف ما هم عليه مقيمونَ من الضلالة. فذلك من أوكد الأسباب في معاداتهم أهل الإيمان، لأن ذلك عداوة على الدين، والعداوة على الدين العداوة التي لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتعاديين إلى ملة الآخر منهما، وذلك انتقال من هدى إلا ضلالة كانت عند المنتقل إليها ضلالة قبل ذلك. فكان في إبدائهم ذلك للمؤمنين، ومقامهم عليه، أبينُ الدلالة لأهل الإيمان على ما هم عليه من البغضاء والعداوة".
وفي قراءة عبد الله: "{قد بدأ البغضاء}".

=

=

قال ابن كثير: أي: قد لاح على صفحات وجوههم، وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل.

وقال القرطبي: قوله تعالى (قد بدت البغضآء من أفواههم) يعني ظهرت العداوة والتكذيب لكم من أفواههم.

والبغضاء: البغض، وهو ضد الحب.

وخص تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة إشارة إلى تشدقهم وثرثرتهم في أقوالهم هذه، فهم فوق المتستر الذي تبدو البغضاء في عينيه.

قال الآلوسي: قوله تعالى (قد بدت البغضاء من أفواههم) أي ظهرت أمارات العداوة لكم من فلتات ألسنتهم وفحوى كلماتهم لأنهم لشدة بغضهم لكم لا يملكون أنفسهم ولا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم، وقال قتادة: ظهور ذلك فيما بينهم حيث أبدى كل منهم ما يدل على بغضه للمسلمين لأخيه، وفيه بعد إذ لا يناسبه ما بعده..

وقال الرازي: قوله (قد بدت البغضاء من أفواههم) إن حملناه على المنافقين ففي تفسيره وجهان:

الأول: أنه لا بد في المنافق من أن يجري في كلامه ما يدل على نفاقه ومفارقته لطريق المخالصة في الود والنصيحة، ونظيره قوله تعالى (ولتعرفنهم في لحن القول).

وقد قيل: كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفلتات اللسان.

قوله تعالى: {وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ} [آل عمران: ١١٨]، " اي: وما يبطنونه لكم من البغضاء أكثر مما يظهرونه".

قال قتادة: "وما تخفي صدورهم أكبر مما قد أبدوا بألسنتهم". وروي عن الربيع

=

=

مثل ذلك.

قال مقاتل: "يعنى ما تسر قلوبهم من الغش أكبر مما بدت بألسنتهم".

قال الفخر: "يعني الذي يظهر على لسان المنافق من علامات البغضاء أقل مما في قلبه من النفرة، والذي يظهر من علامات الحقد على لسانه أقل مما في قلبه من الحقد".

قوله تعالى: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ} [آل عمران: ١١٨]، أي: "قد بينا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه".

قال الصابوني: "أي: وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين".

قال مقاتل: "يقول ففي هذا بيان لكم منهم"

قال الواحدي" أَيْ: علامات اليهود في عداوتهم".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [آل عمران: ١١٨]، " أي: إن كنتم تعقلون عن الله أمره ونهيه".

قال الطبري: "إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه، وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم، ومبلغ عائدته عليكم".

قال أبو السعود: "أي إن كنتم من أهل العقل أو إن كنتم تعقلون ما بين لكم من الآيات والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه".

قوله تعالى: {هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ} [آل عمران: ١١٩].

أي: أنتم -أيها المؤمنون-تحبون المنافقين مما يظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم، لا باطنا ولا ظاهرا.

قيل: تحبون لهم الإسلام وهم يحبون أن تبقوا على الكفر.

وقيل: (تحبونهم) بسبب ما بينكم وبينهم من الرضاعة والمصاهرة، ولا يحبونكم

=

=

بسبب كونكم مسلمين.

وقيل: (تحبونهم) بسبب أنهم أظهروا لكم الإيمان (ولا يحبونكم) بسبب أن الكفر مستقر في باطنهم.

وقيل: (تحبونهم) بمعنى أنكم لا تريدون إلقاءهم في الآفات والمحن (ولا يحبونكم) بمعنى أنهم يريدون إلقاءكم في الآفات والمحن ويتربصون بكم الدوائر.

واعلم أن هذه الوجوه التي ذكرناها إشارة إلى الأسباب الموجبة لكون المؤمنين يحبونهم ولكونهم يبغضون المؤمنين، فالكل داخل تحت الآية، ولما عرفهم تعالى كونهم مبغضين للمؤمنين وعرفهم أنهم مبطلون في ذلك البغض صار ذلك داعيا من حيث الطبع، ومن حيث الشرع إلى أن يصير المؤمنون مبغضين لهؤلاء المنافقين.

قال مقاتل بن حيان: "ها أنتم أولاء معشر الأنصار".

قال الطبري: أي: "ها أنتم، أيها المؤمنون، الذين تحبونهم، تحبون هؤلاء الكفار، فتودونهم وتواصلونهم وهم لا يحبونكم بل يبطنون لكم العداوة والغش".

قال ابن قتيبة: "أي: ها أنتم يا هؤلاء تحبونهم".

قال ابن كثير: "أي: أنتم - أيها المؤمنون - تحبون المنافقين مما يظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم، لا باطنا ولا ظاهرا".

قال ابن أبي زمنين: "يقول للمؤمنين: أنتم تحبون المنافقين؛ لأنهم أظهروا الإيمان، فأحبوهم على ما أظهروا، ولم يعلموا ما في قلوبهم".

قال الزجاج: "خطاب للمؤمنين، أعلموا فيه أن منافقي أهل الكتاب لا يحبونهم وأنهم هم يصحبون هؤلاء المنافقين بالبر والنصيحة التي يفعلها المحب وأن المنافقين على ضد ذلك، فأعلم الله جل وعز المؤمنين ما يسره المنافقون وهذا

=

=

من آيات النبي ﷺ".

قال قتادة: "فوالله إن المؤمن ليحب المنافق ويأوى له ويرحمه. ولو أن المنافق يقدر على ما يقدر عليه المؤمن منه، لأباد خضراءه".

وقال ابن جريج: "المؤمن خير للمنافق من المنافق للمؤمن، يرحمه. ولو يقدر المنافق من المؤمن على مثل ما يقدر المؤمن عليه منه، لأباد خضراءه".

ولأهل العلم في قوله تعالى: {هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ} [آل عمران: ١١٩]، ثلاثة اوجه من التفسير:

أحدهما: أنهم المنافقون يجامعون المؤمنين بألسنتهم على الإيمان، فيحبونهم المؤمنون على ذلك. قاله الحسن، وروي عن قتادة نحوه.

والثاني: انهم الإباضية، وهذا قول أبي الجوزاء.

والثالث: أنهم اليهود، والمعنى: تحبونهم يعني اليهود ولا يحبونكم. وهذا قول مقاتل بن حيان.

قوله تعالى: {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} [آل عمران: ١١٩]، أي: وأنتم "تصدقون بكتب الله كلها، ليس عندكم في شيء منها شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والحيرة".

قال مقاتل: "كتاب محمد- ﷺ- والكتب كلها التي كانت قبله".

قال الرازي: "في الآية إضمار، والتقدير: وتؤمنون بالكتاب كله وهم لا يؤمنون به، وحسن الحذف لما بينا أن الضدين يعلمان معا فكان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر".

قال القرطبي: "والكتاب اسم جنس؛ قال ابن عباس: يعنى بالكتب".

قال ابن كثير: "أي: ليس عندكم في شيء منه شك ولا رَيْب، وهم عندهم الشك والرِّيَب والحِيرة".

=

=

قال الصابوني: "أي: وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها".

قوله تعالى: {وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا} [آل عمران: ١١٩]، أي: "إذا لقوا المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ أعطوهم بألسنتهم تقيةً حذرًا على أنفسهم منهم فقالوا لهم: قد آمنا وصدقنا بما جاء به محمد ﷺ، وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه".

قال مقاتل بن حيان: "يعني: المنافقين إذا لقوا المؤمنين أظهروا الإيمان فيحبونهم على ما أظهروا لهم، ويرون أنهم صادقون بما يقولون ولا يعلمون بما في قلوبهم من الشك والكفر بالنبي ﷺ".

قال الربيع بن أنس: "قوله: {وإذا لقوكم}، يعني: أهل النفاق إذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا ليس بهم إلا مخافة على دمائهم وأموالهم".

قال مقاتل بن سليمان: "يعني صدقنا بمحمد- ﷺ- وبما جاء به، وهم كذبة يعني اليهود مثلها فى المائدة- {وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر...} إلى آخر الآية".

قال الزجاج: "أي نافقوكم".

قوله تعالى: {وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [آل عمران: ١١٩]، "أي: وإذا خلت مجالسهم منكم عضوًا أطراف الأصابع من شدة الحنق والغضب لما يرون من ائتلافكم".

قال ابن عاشور: وعض الأنامل كناية عن شدة الغيظ والتحسر، والغيظ: غضب شديد يلازمه إرادة الانتقام.

والمعنى: أنه إذا خلا بعضهم ببعض أظهروا شدة العداوة، وشدة الغيظ على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة إلى عض الأنامل، كما يفعل ذلك أحدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فوات مطلوبه، ولما كثر هذا الفعل من الغضبان، صار

=

=

ذلك كناية عن الغضب حتى يقال في الغضبان: إنه يعض يده غيظا وإن لم يكن هناك عض، قال المفسرون: وإنما حصل لهم هذا الغيظ الشديد لما رأوا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم.

قال المراغي: أي: "وإذا هم صاروا فى خلاء حيث لايراهم المؤمنون أظهروا شدة العداوة والغيظ منهم، حتى ليبلغ الأمر إلى عضّ الأنامل كما يفعل أحدنا إذا اشتد غيظه، وعظم حزنه على فوات مطلوبه، وإنما فعلوا ذلك لما رأوا من ائتلاف المؤمنين، واجتماع كلمتهم، وصلاح ذات بينهم، ونصر الله إياهم حتى عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلا إلى التشفي منهم، فاضطروا إلى مداراتهم".

قال قتادة: "إذا لقوا المؤمنين قالوا: "آمنا "، ليس بهم إلا مخافة على دمائهم وأموالهم، فصانعوهم بذلك " وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ "، يقول: مما يجدون في قلوبهم من الغيظ والكراهة لما هم عليه. لو يجدون ريحًا لكانوا على المؤمنين، فهم كما نعت الله عز وجل".

قال الطبري: أي: "وإذا هم خلوا فصاروا في خلاء حيث لا يراهم المؤمنون، عضوا - على ما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم - أناملَهم، وهي أطراف أصابعهم، تغيُّظًا مما بهم من الموجدة عليهم، وأسىً على ظهرٍ يسنِدون إليه لمكاشفتهم العداوة ومناجزتهم المحاربة".

كان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية: {وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ}، قال: هم الإباضية".

وفي الأنامل قولان:

أحدهما: أنها أطراف الأصابع. قاله قتادة، والربيع، والزجاج.

والثاني: أنها الأصابع. وهذا قول عبدالله، والسدي، والضحاك.

قال الراغب: "والغيظ هو الغضب والغم، فإن الغضب يقال فيما معه القدرة، على

=

=

الانتقام، والغم فيما ليس معه قدرة الانتقام، والغيظ فيما ليس معه تمام القدرة على الانتقام، ولذلك يستعمل في صفات الله الغضب دون الغيظ".

قوله تعالى: {قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ} [آل عمران: ١١٩]، " أي: قل يا محمد: أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا".

فمهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه، ومعل كلمته ومظهر دينه، فموتوا أنتم بغيظكم.

قال الحجازي: أي: "أخبرهم يا محمد، أنهم لا يدركون ما يؤملون، فإن الموت دون ذلك".

قال الثعلبي: "إن قيل: كيف لا يموتون والله تعالى إذا قال لشيء كن فيكون؟

فالجواب: أن المراد ابقوا بغيظكم إلى الممات فإن مناكم عن الاسعاف محجوبة".

قال الطبري: "وخرَج هذا الكلام مخرج الأمر، وهو دعاء من الله نبيَّه محمدًا ﷺ بأن يدعو عليهم بأن يهلكهم الله، كمَدًا مما بهم من الغيظ على المؤمنين، قبل أن يروا فيهم ما يتمنون لهم من العنت في دينهم، والضلالة بعد هداهم، فقال لنبيه ﷺ: قل يا محمد: أهلكوا بغيظكم".

قال ابن كثير: "أي: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله مُتمّ نعمته على عباده المؤمنين ومُكَملٌ دينه، ومُعْلٍ كلمتَه ومظهر دينَه، فموتوا أنتم بغيظكم".

قال الماتريدي: "إنما كان يغيظهم ما كان للمسلمين من السعة، والنصر، والتكثر، والعز؛ فيكون في ذلك دعاء لهم بتمام ذلك، حتى لا يروا فيهم الغير".

قال السعدي: "ي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوؤكم، وتموتون

=

=

بغيظكم، فلن تدركوا شفاء ذلك بما تقصدون".

قال الرازي: وهو دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به، والمراد من ازدياد الغيظ ازدياد ما يوجب لهم ذلك الغيظ من قوة الإسلام وعزة أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي.

وقال ابن عاشور: قوله تعالى (قل موتوا بغيظكم) كلام لم يقصد به مخاطبون معينون لأنه دعاء على الذين يعضون الأنامل من الغيظ، وهم يفعلون ذلك إذا خلوا، فلا يتصور مشافهتهم بالدعاء على التعيين ولكنه كلام قصد إسماعه لكل من يعلم من نفسه الاتصاف بالغيظ على المسلمين وهو قريب من الخطاب الذي يقصد به عموم كل مخاطب نحو (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم).

والدعاء عليهم بالموت بالغيظ صريحه طلب موتهم بسبب غيظهم، وهو كناية عن ملازمة الغيظ لهم طول حياتهم إن طالت أو قصرت، وذلك كناية عن دوام سبب غيظهم، وهو حسن حال المسلمين، وانتظام أمرهم، وازدياد خيرهم، وفي هذا الدعاء عليهم بلزوم ألم الغيظ لهم، وبتعجيل موتهم به، وكل من المعنيين المكني بهما مراد هنا، والتكني بالغيظ وبالحسد عن كمال المغيظ منه المحسود مشهور، والعرب تقول: فلان محسد، أي هو في حالة نعمة وكمال.

قال القرطبي: إن قيل: كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشيء: كن فيكون.

قيل عنه جوابان:

أحدهما: قال فيه الطبري وكثير من المفسرين: هو دعاء عليهم، أي قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا.

فعلى هذا يتجه أن يدعو عليهم بهذا مواجهة وغير مواجهة بخلاف اللعنة.

الثاني: أن المعنى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون، فإن الموت دون ذلك، فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقي معنى التقريع والإغاظة.

=

=

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران: ١١٩].

أي: هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم، وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤملون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.

قال الطبري: أي: "إن الله ذو علم بالذي في صدور جميع خلقه".

قال مقاتل: "يعني: يعلم ما في قلوبهم من العداوة والغش للمؤمنين".

قال الثعلبي: أي: "بما في القلوب من خير وشر".

قال ابن كثير: "أي: هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم، وتُكِنُّه سَرَائرُكُم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها".

وفي حرف حفصة: "{قل موتوا بغيظكم لن تضرونا شيئا}".

قوله تعالى: {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ} [آل عمران: ١٢٠]، " أي: إن أصابكم ما يسركم من رخاءٍ وخصبٍ ونصرة وغنيمة ونحو ذلك ساءتهم".

وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعز أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سنة -أي: جدب-أو أديل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أحد، فرح المنافقون بذلك.

قال قتادة: "فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعة وظهورًا على عدوهم، غاظهم ذلك وساءهم".

قال الربيع: "، قال: هم المنافقون، إذا رأوا من أهل الإسلام جماعة وظهورًا على عدوهم، غاظهم ذلك غيظًا شديدًا وساءهم".

=

=

قال ابن كثير: "وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعزّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين".

قال الراغب: "الحسنة: عبارة عن كل ما يستحسنه الإنسان مما يسره من نعمة ينالها في بدنه وماله، وجاهه، والسيئة تضادها، والمس والإصابة يستعملان في الخير والشر، إلا أن المصيبة اختصت، بما يسوء".

وقرأ السلمي: {يمسسكم}، بالياء.

قوله تعالى: {وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا} [آل عمران: ١٢٠]، "أي: وإن أصابكم ما يضركم
من شدةٍ وجدبٍ وهزيمةٍ وأمثال ذلك سرتهم".

قال قتادة: "وإذا رأوا من أهل الإسلام فُرقة واختلافًا، أو أصيب طرف من أطراف المسلمين، سرَّهم ذلك وأعجبوا به وابتهجوا به. فهم كلما خرج منهم قَرْنٌ أكذبَ الله أحدوثته، وأوطأ محلَّته، وأبطل حجته، وأظهر عورته، فذاك قضاء الله فيمن مضى منهم وفيمن بقى إلى يوم القيامة".

قال الربيع: "وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافًا، أو أصيب طرفٌ من أطراف المسلمين، سرَّهم ذلك وأعجبوا به".

قال ابن كثير: "وإن أصاب المسلمين سيئة إما: جَدْب أو أُديل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أُحُد، فَرح المنافقون بذلك".

قال ابن عطية: ذكر الله تعالى المس في الحسنة ليبين أن بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل ذلك في السيئة بلفظ الإصابة، وهي عبارة عن التمكن.

لأن الشيء المصيب لشيء هو متمكن منه، أو فيه، فدل هذا النوع البليغ على شدة

=

=

العداوة، إذ هو حقد لا يذهب عند نزول الشدائد، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين.

وقال في التفسير الوسيط: فالجملة الكريمة بيان لفرط عداوة هؤلاء المنافقين للمؤمنين، حيث يحسدونهم على ما ينالهم من خير، ويشمتون بهم عند ما ينزل بهم شر.

وعبر في جانب الحسنة بالمس، وفي جانب السيئة بالإصابة، للإشارة إلى تمكن الأحقاد من قلوبهم، بحيث إن أي حسنة حتى ولو كان مسها للمؤمنين خفيفا وليس غامرا عاما فإن هؤلاء المنافقين يحزنون لذلك، لأنهم يستكثرون كل خير للمؤمنين حتى ولو كان هذا الخير ضئيلا.

• وقيل: والتعبير هنا بالمس مع الحسنة وبالإصابة مع السيئة لمجرد التفنن في التعبير، وقد سوى بينهما في غير هذا الموضع كقوله تعالى (إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة) وقوله سبحانه (إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا).

• قال القرطبي: والمعنى في الآية: أن من كانت هذه صفته من شدة العداوة والحقد والفرح بنزول الشدائد على المؤمنين، لم يكن أهلا لأن يتخذ بطانة، لا سيما في هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذي هو ملاك الدنيا والآخرة؛ ولقد أحسن القائل في قوله:

كل العداوة قد ترجى إفاقتها   إلا عداوة من عاداك من حسد.

قوله تعالى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} [آل عمران: ١٢٠]، " أي: وإن صبرتم على أذاهم واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم".

يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر

=

=

والتقوى، والتوكل

على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه.

قال ابن كثير: "يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكَيْدِ الفُجّار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه".

قال الزمخشري: أي: "وإن تصبروا على عداوتهم وتتقوا ما نهيتم عنه من موالاتهم. أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم.... وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقد قال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلا في نفسك".

قال الطبري: "ويعني بـ {كيدهم}، غوائلهم التي يبتغونها للمسلمين، ومكرهم بهم ليصدّوهم عن الهدى وسبيل الحق".

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: {لا يَضُرُّكُمْ} مخففة بكسر الضاد، وقرأ الضحاك بضم الضاد وجزم الراء خفيفة.

قال ابن عاشور: أرشد الله المؤمنين إلى كيفية تلقي أذى العدو: بأن يتلقوه بالصبر والحذر، وعبر عن الحذر بالاتقاء أي اتقاء كيدهم وخداعهم، وقوله (لا يضركم كيدهم شيئا) أي بذلك ينتفي الضر كله لأنه أثبت في أول الآيات أنهم لا يضرون المؤمنين إلا أذى، فالأذى ضر خفيف، فلما انتفى الضر الأعظم الذي يحتاج في دفعه إلى شديد مقاومة من القتال وحراسة وإنفاق، كان انتفاء ما بقي من الضر

=

=

هينا، وذلك بالصبر على الأذى، وقلة الاكتراث به، مع الحذر منهم أن يتوسلوا بذلك الأذى إلى ما يوصل ضرا عظيما، وفي الحديث (لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يدعون له ندا وهو يرزقهم).

وقال النسفي: وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى.

وقال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلا في نفسك.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: ١٢٠]، أي: "إن الله عالم بما يعمل هؤلاء الكفار".

قال الواحدي: يعني: "عالمٌ به فلن تعدموا جزاءه".

قال الطبري: "ن الله بما يعمل هؤلاء الكفار في عباده وبلاده من الفساد والصد عن سبيله، والعداوة لأهل دينه، وغير ذلك من معاصي الله "محيط" بجميعه، حافظ له، لا يعزب عنه شيء منه، حتى يوفيهم جزاءهم على ذلك كله، ويذيقهم عقوبته عليه"

قال الزمخشري: "بمعنى أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه".

وقرأ الأعمش والحسن: {تعملون}، بالتاء، والمعنى: "إن الله بما تعملون من الصبر والتقوى وغيرهما محيط، ففاعل بكم ما أنتم أهله".

* مسألة: نهى الله عموم المؤمنين عن اتخاذ من عادى الله بطانة، سواء كان ممن يظهر الإسلام من المنافقين وأهل الظلم والفجور والفسق والبدعة، أو من الكافرين الظاهرين، وكل ذلك داخل في الآية، وقد ذكر المفسرون من السلف جميع ذلك في معنى البطانة في هذه الآية.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدي وغيرهم: هم المنافقون.

ويروى عن أنس: أنهم المشركون.

=

=

أخرجه عنهم ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال ابن عباس ومحمد بن إسحاق: هم اليهود.

رواه عن ابن عباس: ابن جرير، وعن ابن إسحاق: ابن المنذر.

وكل ذلك من تنوع التفسير، لا من تعارضه.

ولا يدخل في معنى البطانة مؤاجرة الكافر ومعاقدته في البيع والشراء؛ فهذا لا أثر فيه على المسلمين، ولا علو للكافر فيه على المؤمنين، ولا ضرر عليهم منه، وهو مباح بلا خلاف، وقد مات النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي.

وإنما البطانة هي اتخاذه واليا أو مستشارا أو خازنا للمال، وكلما كانت الولاية والاستشارة والخزانة أكبر، كان أثرها أشد وتحريمها أعظم.

ويدخل في البطانة الكاتب، وأشد أنواعه: كاتب الأسرار للحاكم والأمير؛ روى البيهقي، عن عياض الأشعري؛ أن أبا موسى رضي الله عنه وفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومعه كاتب نصراني، فأعجب عمر رضي الله عنه ما رأى من حفظه، فقال: قل لكاتبك يقرأ لنا كتابا، قال: إنه نصراني لا يدخل المسجد، فانتهره عمر رضي الله عنه، وهم به، وقال: لا تكرموهم إذ أهانهم الله، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله، ولا تأتمنوهم إذ خونهم الله. والعلة في ذلك: ألا يخون أمانته فيعظم أثر الضرر به، وكذلك حتى لا يتأثر الناس بدينه، فيظنوا أن قربه للسلطان والحاكم لأجل دينه، فيعجبون به؛ لأن الناس تريد القرب من السلطان وتحاكي حاشيته وبطانته، وربما البطانة الكافرة والمنافقة تحسن مرة ومرات، وعاما أو أعواما، وإذا أساءت، تربصت فأثخنت وضرت وهدمت إحسانها في أعوام؛ وذلك لأنها تحسن حبا لدنياها وحظوتها ومكانتها، فإذا خشيت الزوال أو خافت على نفسها، لم يكن لها دين يصون رأيها وفعلها.

وكذلك: فإن عدم اتخاذهم من تعظيم الله وإجلاله؛ فلا يقرب من أبعده الله، ولا

=

=

يؤتمن من خونه الله، ولا يصدق من كذبه الله.

* أنواع البطانة: البطانة على نوعين: بطانة تخيير، وبطانة تقدير:

الأولى: بطانة تخيير؛ وهي من يملك الإنسان اتخاذها باختياره وإرادته؛ فلا يجوز للمسلم أن يتخذ بطانة من الكافرين والمنافقين.

الثانية: بطانة تقدير؛ وهي التي يبتلي الله بها الإنسان بلا اختيار منه؛ فتقرب منه طلبا للمصلحة وتسللا إلى دينه ودنياه لتنتفع منه، وهي من جملة الابتلاء الذي يقدره الله على العبد؛ كالأمراض والأسقام، والمصائب والهموم والجراحات؛ فهذا النوع ابتلاء وامتحان يقع حتى للأنبياء والأولياء؛ ففي البخاري، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ؛ قال: (ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى).

فالأنبياء لا يختارون بطانة الشر، ولكن يبتلون بها، يتقربون منهم ليصيبوا من دنياهم ويأمنوا بقربهم؛ كما كان يفعل المنافقون بقربهم من النبي ﷺ؛ كعبد الله بن أبي وغيره.

والواجب في البطانة الأولى: عدم التقريب والاصطفاء.

والواجب في البطانة الثانية: توقيها عند الابتلاء بها؛ لأنها قدر، كما يتوقى الإنسان البلاء؛ من مرض وخوف، وهم، وحر وبرد.

ويجوز في البطانتين العطية والهدية كفاية للشر، وأمنا من المكر، وتأليفا للقلب؛ ليقربوا من الحق، ويبتعدوا عن الباطل.

* ولاية الكافر: في قوله تعالى: {لا تتخذوا بطانة من دونكم} دليل بالأولى على عدم جواز تولية الكافر ولاية على المسلمين، فإن كان الله قد نهى عن اتخاذه بطانة للمؤمن، وخاصة صاحب الولاية، فكون الكافر يجعل بنفسه صاحب ولاية أولى

=

=

بالنهي؛ لأنه ما نهي عن البطانة إلا خوفا من تقريب صاحب الولاية واصطفائه له، فيبدي رأي سوء فيخون، أو يقتدي به من يراه فيتشبه به؛ وهذا في صاحب الولاية أصل، والكافر لا يكون واليا على مؤمن إلا مكرها.

وقوله تعالى: {من دونكم}؛ يعني: من دون المؤمنين، فتتخذون بطانة منافقة أو كافرة من دون أهل الإيمان أهل ملتكم.

* مجالسة الكافر والمنافق: في الآية: دليل على جواز مجالسة الكافر والمنافق؛ لقصر النهي في الآية على اتخاذهم بطانة، وهو تقريبهم، أما معاملتهم ومجالستهم العارضة؛ لتعليمهم وتوجيههم، وتأليفهم وتأمينهم؛ للأمن من مكرهم، فقد كان النبي ﷺ يجالس الصادق والمنافق، والصالح والفاسق، والمؤمن والكافر، ولكن لا يتخذ بطانة إلا أهل الحق، ولا يقول إلا حقا، والمفاصلة بين المسلم والكافر والفاسق والمنافق بكل حال ليس من الفقه في الدين، بل من صنع أهل الغلو والجهل.

* الاستعانة بالكافر في الحرب: الاستعانة بالكافر في الحرب؛ إن كان في قتال مسلمين، فلا يجوز، وإن كان في قتال كفار آخرين، فعلى حالين:

الأولى: إذا كان النفع بتلك الاستعانة للكافرين أكثر من المؤمنين، وهم رأس، والمسلمون تبع لهم، فيتقوى بها الكفر ويضعف الإسلام، فلا يجوز بالاتفاق؛ لأن هذا مظاهرة صريحة لتقوية الكفر على الإسلام.

الثانية: إذا كان النفع لأهل الإسلام أكثر، ونفع الكفار دون ذلك، والمسلمون رأس الأمر، والكفار لهم تبع، ففي المسألة خلاف:

- ذهب مالك: إلى عدم جواز الاستعانة بالكافر في الحرب؛ لعموم الآيات في النهي عن اتخاذهم بطانة وأولياء، ولما في "الصحيح"، عن عائشة رضي الله عنها؛ أن رجلا من المشركين كان ذا جرأة ونجدة جاء إلى النبي ﷺ يوم بدر يستأذنه في أن

=

=

يحارب معه، فقال ﷺ له: (ارجع؛ فلن أستعين بمشرك).

- وذهب جمهور الفقهاء: إلى الجواز بقيود وشروط؛ وهو قول أبي حنيفة والشافعي، واختلفوا في قدر هذه الشروط ونوعها، والأصح جواز الاستعانة في هذه الحال بشروط:

الأول: إذا كان في المسلمين عجز عن الاستقلال بأنفسهم في قتال كفار معتدين أو متربصين.

الثاني: إذا كان المسلمون أهل حل وعقد في أمر الحرب، وهم رأس الأمر، والكفار لهم تبع؛ كالأجراء عند السيد.

الثالث: أن يكون عدد الكفار قليلا؛ فلا شوكة لهم منفردين في الحرب؛ حتى لا يأتوا أهل الإسلام على غرة عند النصر؛ فيستبيحوا حرماتهم.

الرابع: أن يكون الكافر المستعان به مأمون الأمر، لا يعرف بخيانة ولا مخادعة؛ فيفشي سرا للعدو فيتضرر المسلمون بذلك.

وأما قول النبي ﷺ في غزوة بدر: (فلن أستعين بمشرك)، فهذا لانتفاء بعض تلك الشروط؛ فهو واحد لا يحتاج إليه، وفي المسلمين غنية وكفاية عنه؛ ويؤيد هذا أن النبي ﷺ قد استعان بالكفار بعد ذلك؛ كاستعانته بيهود بني قينقاع وقد قسم لهم، واستعان بصفوان بن أمية في هوازن، فلا يقال بنسخ حديث غزوة بدر لأخبار خيبر وحنين وهي بعدها.

والأمر مقرون بالسياسة والحاجة، والضرورة يحكمها أهل العلم بحسب النوازل واختلافها، وقد كان النبي ﷺ في أول أمره يستنصر بكافر على كافر؛ لعدم وجود المسلم المعين، كانتصاره بعمه أبي طالب على قريش، وكلجوء الصحابة إلى النجاشي وكان نصرانيا من أذية قريش؛ لعدم وجود مسلم يعين، وقد استأجر النبي ﷺ الدليل الكافر كما في هجرته، وهذا تحكمه الحاجة والعلم والديانة، لا

=

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١).

{وَ} اُذْكُرْ يَا مُحَمَّد {إِذْ غَدَوْت مِنْ أَهلك} من المدينة {تبوء} تُنْزِل {الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِد} مَرَاكِز يَقِفُونَ فِيهَا {لِلْقِتَالِ وَاَللهُ سَمِيع} لِأَقْوَالِكُمْ {عَلِيم} بِأَحْوَالِكُمْ وَهُوَ يَوْم أُحُد خَرَجَ النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفٍ أَوْ إِلَّا خَمْسِينَ رَجُلًا وَالْمُشْرِكُونَ ثَلَاثَة آلَاف وَنَزَلَ بِالشِّعْبِ يَوْم السَّبْت سَابِع شَوَّال سَنَة ثَلَاث مِنْ الْهِجْرَة وَجَعَلَ ظَهْره وَعَسْكَره إِلَى أُحُد وَسَوَّى صُفُوفهمْ وَأَجْلَسَ جَيْشًا مِنْ الرُّمَاة وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْد الله بْن جُبَيْر بِسَفْحِ الْجَبَل وَقَالَ انْضَحُوا عَنَّا بِالنَّبْلِ لَا يأتونا مِنْ وَرَائِنَا وَلَا تَبْرَحُوا غُلِبْنَا أَوْ نُصِرْنَا

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢).

{إِذْ} بَدَل مِنْ إِذْ قَبْله {هَمَّتْ} بَنُو سَلَمَة وَبَنُو حَارِثَة جَنَاحَا الْعَسْكَر {طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا} تَجْبُنَا عَنْ الْقِتَال وَتَرْجِعَا لَمَّا رَجَعَ عَبْد الله بْن أُبَيٍّ الْمُنَافِق وَأَصْحَابه وَقَالَ عَلَام نَقْتُل أَنْفُسنَا وَأَوْلَادنَا وَقَالَ لِأَبِي جَابِر السُّلَمِيّ الْقَائِل لَهُ أَنْشُدكُمْ الله فِي نَبِيّكُمْ وَأَنْفُسكُمْ لَوْ نَعْلَم قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ فَثَبَّتَهُمَا الله وَلَمْ يَنْصَرِفَا {وَاَللهُ وَلِيّهمَا} نَاصِرهمَا {وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ} لِيَثِقُوا بِهِ دُون غَيْره[1].

=

الأهواء واتخاذ الكافرين أولياء.

(١) ذكر سبب النزول.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: فينا نزلت: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا}، فقال: نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلمة، وما نحب -قال سفيان مرة: وما يسرني-: أنها لم تنزل؛ لقول الله: والله وليهما.

=

=

أخرجه البخاري (٧/ ٣٥٧ رقم ٤٠٥١، ٨/ ٢٥٥ رقم ٤٥٥٨)، ومسلم (٤/ ١٩٤٨ رقم ٢٥٠٥).

وعن مجاهد؛ قال: هم بنو حارثه، وكانوا من نحو أحد، وبنو سلمة، وكانوا من نحو سلع، وذلك يوم الخندق؛ كذلك قال.

أخرجه عبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٤٢)، وابن جرير الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٤٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٥١٢ رقم ١٣٢٢) من طرق عن ابن أبي نجيح عنه به.

و سنده صحيح؛ لكنه مرسل.

وعن قتادة: كان ذلك يوم أحد، والطائفتان هم بنو سلمة وبنو حارثة؛ حيان من الأنصار، همّوا بأمر؛ فعصمهم الله من ذلك.

أخرجه عبد بن حميد؛ كما في "العجاب"، وابن جرير في "جامع البيان" (٤/ ٤٧). وسنده صحيح إلى قتادة؛ لكنه مرسل.

* قوله تعالى: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ} [آل عمران: ١٢١]، " أي: اذكر يا محمد حين خرجت إلى أحد من عند أهلك".

من هذه الآية إلى قريب آخر السورة كله في غزوة أُحد وما يتعلق بها، فقوله: {وَإِذْ غَدَوْتَ} إذ: ظرف، عاملها محذوف تقديره: اذكر إذ غدوت، "وغدوت": بمعنى خرجت غُدوة أي في أول النهار كما كان الأمر كذلك، فإن النبي ﷺ خرج إلى غزوة أُحد في أول يوم السبت الحادي عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة. وفي هذا اليوم غدا الرسول الكريم من أهله.

قال مجاهد: "النبي ﷺ مشى يومئذ على رجليه يبوئ المؤمنين".

قال قتادة: "يوم أحد، غدا نبي الله ﷺ من أهله إلى أحد".

قال الزمخشري: "واذكر إذ غدوت من أهلك بالمدينة وهو غدوه إلى أحد من

=

=

حجرة عائشة رضى الله عنها".

وقوله: {مِنْ أَهْلِكَ} من: ابتدائية أي أن مبتدأ هذه الغدوة من أهله، من المدينة خرج النبي ﷺ غاديًا إلى أُحد بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم هل يخرج أو لا؟.

وسبب هذه الغزوة أن قريشًا لما قُتل من صناديدهم من قتل في بدر، سبعون رجلًا من كبرائهم، وأُسر منهم سبعون رجلًا، أرادوا أن يأخذوا بالثأر من النبي ﷺ، فخرجوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يريدون قتاله، وكانوا ثلاثة آلاف معهم العدة الكثيرة يريدون النبي ﷺ ليقضوا عليه، فعسكروا حول المدينة، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ استشار الصحابة هل يخرج إليهم أو لا؟ أما شباب الصحابة الذين لم يحضروا بدرًا فأشاروا على النبي ﷺ أن يخرج وقالوا: نخرج نقاتلهم، وأما بعض الصحابة فسكتوا، وأما المنافقون فقالوا: لا نخرج إليهم بل ندعهم فإن بقوا بقوا على شر حال، وإن ملوا رجعوا إلى مكة، وإن دخلوا المدينة نقاتلهم نحن بالسيوف ويقاتلهم النساء والصبيان بالحجارة من على السطوح، كذلك قال المنافقون لا نصحًا لله ورسوله ولكن جبنًا وخورًا وخداعًا وغشًا، فدخل النبي ﷺ بيته ولبس لأمة الحرب وتهيأ عليه الصلاة والسلام، فقال بعض الصحابة: لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج يعني ندموا، قالوا: ليتنا لم نتكلم بهذا، فلما خرج ولبس لأمة الحرب -وهو ما يوضع على الرأس- وتهيأ قالوا: يا رسول الله، إن شئت أن لا نخرج فعلنا، فقال عليه الصلاة والسلام: "ما كان ينبغي لنبي لبس لأمة الحرب أن يضعها حتى يفتح الله بينه وبين عدوه". فمضى وخرج من المدينة ومعه ألف مقاتل، وفي أثناء الطريق رجع عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين بنحو ثلث الجيش وقالوا: لو نعلم قتالًا لاتبعناكم، قال الله تعالى: {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ} [آل عمران: ١٦٧] فانخذلوا ولكن الصحابة رضوان الله عليهم بثباتهم وإيمانهم لم يضرهم ذلك شيئًا، واستمروا حتى نزلوا أُحدًا، ولما نزلوا

=

=

عبَّأهم النبي ﷺ أحسن تعبئة ورتَّبهم واختار منهم خمسين رجلًا من الرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم: لا تبرحوا مكانكم، جعلهم في سفح الجبل على شعبة منه قال: لا تبرحوا مكانكم سواء كانت لنا أم علينا، فبقوا يحمون ظهور المسلمين، فحصل القتال في أول النهار وكانت الدائرة على المشركين فتولوا الأدبار فجعل المسلمون يجمعون الغنائم، فلما رأى أهل الجبل حال المسلمين وأن المشركين قد ولّوا الأدبار وصار المسلمون يجمعون الغنائم قالوا: ننزل لنساعد إخواننا في جمع الغنائم فقد انتهت الحرب، فذكَّرهم أميرهم بقول رسول الله ﷺ: لا تبرحوا مكانكم سواء كانت لنا أم علينا، ولكنهم أصروا إلا أن ينزلوا فنزلوا، فلما رأى فرسان قريش أن الثغر خالٍ وليس هناك أحد يحمي المسلمين من ورائهم كروا عليهم بخيولهم من خلفهم ودخلوا، وكان على رأسهم قائدان عظيمان هما خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل قبل إسلامهما رضي الله عنهما، فاختلط الناس بالمسلمين من ورائهم وحصل ما قضى الله وأراد لحكمة عظيمة، وقُتل من المسلمين سبعون رجلًا وجُرح النبي عليه السلام، وكُسرت رباعيته، وشجَّ وجهه حتى كانت ابنته فاطمة تأتي بالحصير تحرقه وتذر رماده على جُرح النبي ﷺ ولكن الدم يندفع، وحصل من الابتلاء والامتحان ما الله قد قضاه وقدّره لحكمة عظيمة حتى يعلم الناس أن الله تعالى له الحكم وإليه المنتهى، وحتى يعلم الناس أنه لا نصر مع المعاصي أبدًا. هم عصوا النبي عليه السلام شرعًا وفرَّطوا فيما يلزمهم قدرًا، كيف ذلك؟ عصوا النبي ﷺ لأنه قال لهم: لا تبرحوا مكانكم، وتركوا ما يلزمهم قدرًا وهو حماية المسلمين من خلفهم؛ لأن هذا من الأسباب النافعة، وترك الأسباب النافعة سفه في العقل ونقص في الدين؛ لأن الله تعالى أمر بأن نأخذ بالأسباب وأعظمها التوكل على الله، ولكن لابد من أن نفعل الأسباب الحسية المادية، فهم رضي الله عنهم وعفا الله عنهم حصل منهم ما حصل فصارت النكبة العظيمة، الشهداء رضي الله عنهم

=

=

حملهم أهلهم إلى المدينة ليدفنوهم في البقيع، ولكن النبي ﷺ أمر أن يردوا إلى مصارعهم، ويدفنوا هناك في أُحد ففعلوا، والحكمة من ذلك -والله أعلم- أن المقتول في سبيل الله يبعث يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، ولا يغسل لئلا يزول هذا الدم من على جسده، ولا يكفن وإنما يدفن في ثيابه التي قُتل فيها، كل هذا من أجل أن يتحقق خروجه يوم القيامة من المكان الذي صُرع فيه وعلى الهيئة التي صُرع عليها.

المهم أن الله تعالى يذكّر نبيّه عليه الصلاة والسلام بهذه الغزوة العظيمة التي فيها من الأسرار والحكم ما يتبين به أن ذلك هو عين الصواب وعين الخيرة للمؤمنين، وقد ذكر الحافظ ابن القيم -رحمة الله عليه- في كتابه "زاد المعاد" من الحكم في هذه الغزوة ما لا تجده في أي كتاب آخر، فتحسن مراجعته فإنه مفيد.

قوله تعالى: {تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [آل عمران: ١٢١]، أي: "تتخذ للمؤمنين معسكرًا وموضعًا لقتال عدوهم".

"تبوئ" هذه الجملة حالية يعني حال كونك تبوئ، ومعنى تبوئ يعني تنزل، والتبوؤ: معناه النزول كما جاء في الحديث الصحيح: "من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار" أي فلينزل نفسه مقعدًا من النار، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} [الحشر: ٩] أي نزلوها.

قال: {تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ}: المؤمن هو المُقر بما يجب الإيمان به مع القبول والإذعان، وفي هذه شهادة من الله عز وجل أيما شهادة على أن هؤلاء الذين شهدوا هذه المعركة مؤمنون. {تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} الله أكبر، مقاعد للقتال أي يثبتون ويقعدون كثبوت القاعد، ولهذا قال: {مَقَاعِدَ} ولم يقل منازل من أجل أن تكون هذه الأماكن التي بوؤوها مكانًا ثابتًا كثبات القاعد في مجلسه، وليس المعنى أن الرسول ﷺ جعل لهم هذه المنازل وقال اجلسوا. بل هم

=

=

يتكيفون كما يناسب مصلحة الحرب لكنها سُميت مقاعد من أجل الثبات فيها.
{لِلْقِتَالِ}: يعني لقتال الأعداء، وتعلمون أن المقاتل لن يبقى في مكانه دائمًا إنما يكرّ ويفرُّ حسب ما تقتضيه المصلحة.

قال مقاتل: "يعني: توطن لهم مقاعد للقتال في الخندق قبل أن يستبقوا إليه ويستعدوا للقتال".

قال الزجاج: "روى أن النبي ﷺ رأى في منامه كان عليه درعا حصينة. فأولها المدينة، فأمر ﷺ المسلمين - حين أقبل إليهم المشركون بالإقامة بها إلى أن يوافيهم المشركون فتكون الحرب بها فذلك تبوئة المقاعد للقتال، وقال بعضهم معناه: مواطن للقتال، والمعنى واحد".

قال الماتريدي: "قيل: تهيئ للمؤمنين أمكنة القتال، وقيل: {تبوئ}: تنزل المؤمنين، وقيل: {تبوئ المؤمنين}: تتخذ للمؤمنين مقاعد لقتال المشركين، وقيل: {تبوئ}: توطن، وقيل: تستعد للقتال، كله يرجع إلى واحد".

وفي قراءة عَبْد الله: {تبويء للمؤمنين مقاعد للقتال}، قال الفراء: "والعرب تفعل ذلك، فيقولون: ردفك وردف لك".

وقرأ يحيى بن ثاب: {تبوي المؤمنين}، خفيفة غير مهموزة، قال الثعلبي: "والتشديد أفصح وأشهر، وتصديقه قوله تعالى: ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق «١»، وقال لنبوئنهم من الجنة غرفا".

واختلف في أي حرب كان قوله تعالى: {تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [آل عمران: ١٢١]، وفيه وجوه:

أحدها: أنه يوم أحد. قاله ابن عباس، وهو معنى قول عبدالرحمن بن عوف، وهو قول الأكثرين.

والثاني: أنه يوم الأحزاب. وهذا قول الحسن.

=

=

والثالث: وقيل: أنه كان يوم الخندق.

قوله تعالى: {وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: ١٢١]، أ أي سميع لما تقول لهم، "عليم" بأحوالهم. وقد نقول: إنَّ كلمة "سميع" أعم من كونها لما يقول لهم حين ترتيبهم وتبوئهم، فتكون أشمل، وهذا هو الأحسن لأنه كلما كان اللفظ شاملًا كان أحسن وأعم، "عليم" أي عليم بما يحدث من قول وفعل وحال وحاضر ومستقبل.ي: والله سميع لأقوالكم عليمٌ بأحوالكم".

قال محمد بن إسحاق: "أي: سميع لما يقولون، عليم بما يخفون".

قال الماتريدي: "يحتمل. سميع لمقالتكم؛ عليم بسرائركم، ويحتمل: سميع بذكركم الله والدعاء له؛ لأنهم أمروا بالذكر لله، والثبات للعدو بقوله - عز وجل - : (فاثبتوا واذكروا الله كثيرا)، وعليم بثوابكم، ويحتمل قوله: {سميع عليم {: البشارة من الله - عز وجل - بالنصر لهم، والأمن من ضرر يلحقهم؛ كقوله تعالى لموسى وهارون: {فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (٤٤) قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى (٤٥)} [طه: ٤٤ - ٤٥]، ثم قال - عز وجل -: {قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} [طه: ٤٦]، أمنهما من عدوهما بقوله - عز وجل -: {أسمع وأرى}، فعلى ذلك يحتمل ذا في قوله - عز وجل -: {سميع عليم}، ويكون سميع: أي: أسمع دعاءكم؛ بمعنى: أجيب، وأعلم ما به نصركم وظفركم".

قوله تعالى: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا} [آل عمران: ١٢٢]، "أي: حين كادت طائفتان من جيش المسلمين أن تجبنا وتضعفا وهمتا بالرجوع".

{إِذْ} قال المفسرون أو المعربون: إنها بدل من {إِذْ} الأولى، يعني يكون التقدير على هذا: (اذكر إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا).

{هَمَّتْ}: الهَمُّ يطلق على مجرد حديث النفس، ويطلق الهَمُّ على العزم، يعني أن

=

=

الإنسان قد يهم ويحدث نفسه هل يفعل أو لا يفعل، يقال هذا "هَمَّ" ويطلق على العزم المصمم الذي ينفذ إن لم يوجد مانع، وهنا الطائفتان وهما بنو سلمة وبنو حارثة همّوا أن يفشلوا، والفشل هنا بمعنى الجبن والخوف، يعني أن هاتين الطائفتين وقع في قلوبهما الهم بالانهزام، وسببه ما جرى من المنافق عبد الله بن أبي بن سلول الذي انخزل بنحو ثلث الجيش، وتعرفون أنه إذا انخزل ثلث الجيش فإن هذه ثُلمة كبيرة في الجيش، فهاتان القبيلتان همّتا أن تفشلا، أن تجبنا وترجعا ولكن الله تعالى ثبَّتهما، ولهذا قال: {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا} فثبّتهما سبحانه وتعالى فلم تفعلا ما عزمتا عليه.

قال الواحدي: أي: "أَنْ تجبنا، وذلك أنَّ هؤلاء همُّوا بالانصراف عن الحرب فعصمهم الله".

قال الطبري: "همَّا أن يضعفا ويجبنا عن لقاء عدوّهما".

قال ابن عباس: "الفشل: الجبن".

وقال محمد بن إسحاق: "{أن تفشلا}: أي أن يتخاذلا".

قال عكرمة: ": نزلت في بني سلِمة من الخزرج، وبني حارثة من الأوس، ورأسهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول".

قال قتادة: "وذلك يوم أحد، والطائفتان: بنو سلِمة وبنو حارثة، حيان من الأنصار، همُّوا بأمر فعصمهم الله من ذلك، وقد ذكر لنا أنه لما أنزلت هذه الآية قالوا: ما يسرُّنا أنَّا لم نَهُمَّ بالذي هممنا به، وقد أخبرنا الله أنه ولينا".

أي: "لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية. وإن تلك الهمة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى".

وقال السدي: "خرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل، وقد وعدهم الفتحَ إن صبروا. فلما رجع عبد الله بن أبي ابن سلول في ثلاثمائة فتبعهم أبو جابر السلمي

=

=

يدعوهم، فلما غلبوه وقالوا له: ما نعلم قتالا ولئن أطعتنا لترجعنَّ معنا وقال [الله عز وجل]: "إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا "، وهم بنو سلمة وبنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي، فعصمهم الله، وبقى رسول الله ﷺ في سبعمئة".

وقال الحسن: "هما طائفتان من الأنصار همتا أن تفشلا فعصمهما الله، فهزم الله عدوهم".

أخرج الطبري عن مجاهد في قول الله: "{إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا}، قال: بنو حارثة، كانوا نحو أُحُد، وبنو سلِمة نحو سَلْع، وذلك يوم الخندق".

قال الثعلبي: "{إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا}: تجبنا وتضعفا وتتخلفا عن رسول الله ﷺ، وهم بنو أسامة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد في ألف رجل، وقيل: تسعمائة وتسعين رجلا، وقال الزجاج: كان أصحاب رسول الله ﷺ في أحد وقت القتال ثلاثة آلاف، فخرج رسول الله ﷺ إلى أحد وقد وعد أصحابه الفتح إن صبروا، فلما بلغوا الشوط انخزل عبد الله بن أبي الخزرجي ثلث الناس فرجع في ثلاثمائة، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم أبو جابر السلمي فقال: أنشدكم الله في نبيكم وفي أنفسكم. فقال عبد الله بن أبي: لو نعلم قتالا لاتبعناكم. وهمت بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف مع عبد الله بن أبي فعصمهم الله فلم ينصرفوا، ومضوا مع رسول الله ﷺ، فذكرهم الله عظيم نعمته بعصمته فقال: إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما".

قال الزمخشري: "وعن ابن عباس رضى الله عنه: «أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا»، والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر

=

=

ويوطنها على احتمال المكروه، كما قال عمرو بن الأطنابة:

أقول لها إذا جشأت وجاشت... مكانك تحمدى أو تستريحى

حتى قال معاوية: عليكم بحفظ الشعر، فقد كدت أضع رجلي في الركاب يوم صفين، فما ثبت منى إلا قول عمرو بن الأطنابة. ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية".

قوله تعالى: {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا} [آل عمران: ١٢٢]، أي: "والله ناصرهما ومتولي امرهما".

وقوله: {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا} هذه ولاية خاصة، وولاية الله تعالى تنقسم إلى عامة وخاصة، فالولاية بمعنى التدبير للشؤون ولاية عامة، والتي بمعنى العناية أي تقتضي العناية ولاية خاصة، لأن الإنسان إذا هَمَّ بالمعصية أو بالذنب ثم حصل له من عند الله ما يمنعه منه فهذه ولاية خاصة من الله لا شك، فكثيرًا ما يهمُّ الإنسان بالذنب أو بترك الواجب يعني بالذنب من فعل المعصية أو ترك واجب فيجد في قلبه إذا هَمَّ بالمحرم انحلالًا عن هذه الهمة وعدولًا عنها، هذه ولاية من الله، وأحيانًا يهم بترك الواجب فيقيِّض الله له من يعينه عليه حتى يفعل، هذه أيضًا ولاية خاصة، فهاتان القبيلتان لمّا همتا تولاهما الله عز وجل بعنايته فلم تفشلا وبقيتا مع الجيش، وكان بعض هاتين الطائفتين يقول فرحا لقد كان من حظهم أن الله أخبر عنهم بهذا الخبر لأنه أخبر بأنهما همَّتا أن تفشلا، وأخبر بخبر آخر سارٍّ ومنقبة لهما وهو أن الله وليهما.

قال الثعلبي: أي"ناصرهما وحافظهما".

قال البيضاوي: "ي عاصمهما من اتباع تلك الخطرة، ويجوز أن يراد والله ناصرهما فما لهما يفشلان ولا يتوكلان على الله".

قال محمد بن إسحاق: "أي: المدافع عنهما ما همَّتا به من فشلهما، وذلك أنه إنما

=

كان ذلك منهما عن ضعف ووهن أصابهما، من غير شك أصابهما في دينهما، فتولى دفع ذلك عنهما برحمته وعائدته حتى سلمتا من وهنهما وضعفهما، ولحقتا بنبيهما ﷺ".

وقرأ ابن مسعود: {وَاللهُ وَلِيُّهُمْ}، قال الطبري: "وإنما جاز أن يقرأ ذلك كذلك، لأن الطائفتين، وإن كانتا في لفظ اثنين، فإنهما في معنى جماع، بمنزلة: الخصمين والحزبين.

قوله تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٢٢]، أي: "وعلى الله فليتوكل في أمورهم أهل الإيمان به".

"على الله" متعلقة بـ"يتوكل" وقدّمت لإفادة الحصر أي على الله لا على غيره فليتوكل، والتوكل: قال أهل العلم: هو صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به وفعل الأسباب التي أمر بها، هذا التعريف طويل ولكنه جامع، إذن لا يكفي أن تصدق الاعتماد على الله حتى يكون في قلبك ثقة بأن الله سيعينك ويكفيك كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: ٣]. ولا يكفي أيضًا أن تعتمد على الله وتثق به حتى تفعل الأسباب التي أمر بها؛ لأنك إن لم تفعل الأسباب التي أمر بها كنت متواكلًا لا متوكلًا، ويذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له: إن قومًا من أهل اليمن جاؤوا حجاجًا وليس معهم زاد فقالوا: نحن المتوكلون. فقال إنهم ليسوا بمتوكلين ولكنهم متواكلون، بمعنى أنهم مفرطون مهملون، فلو أن أحدًا قال: سأعتمد على الله تعالى في جلب الرزق وهو قادر على فعل الأسباب ولكن لم يفعل قلنا: أنت مهمل متواكل، افعل السبب: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} [الملك: ١٥]، قد يقول: ربما يموت قريب لي فأرثه فهذا من رزق الله، فنقول: فإذا لم يمت تقتله؟ نعوذ بالله ولو قتله ليأخذ ماله حُرِمَ =

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣).

وَنَزَلَ لَمَّا هُزِمُوا تَذْكِيرًا لَهُمْ بِنِعْمَةِ الله {وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ الله بِبَدْرٍ} مَوْضِع بَيْن مَكَّة وَالْمَدِينَة {وَأَنْتُمْ أَذِلَّة} بِقِلَّةِ الْعَدَد وَالسِّلَاح {فَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} نِعَمه[1].

=

من الميراث؛ لأن القاتل عمدًا لا يرث، فالحاصل أنه لابد لصحة التوكل من فعل الأسباب التي أمر الله بها، أما الأسباب التي لم يأمر الله بها فإنه لا يجوز للإنسان أن يتعاطاها.

وقوله: {فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} أمر المؤمنين أن يتوكلوا على الله؛ لأنه لا يمكن أن يحقق التوكل إلا المؤمن، فالتوكل من مقتضيات الإيمان، والإيمان الحقيقي من أسباب التوكل على الله.

قال مقاتل: "يعني فليثق المؤمنون به".

قال البيضاوي: "أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره لينصرهم كما نصرهم ببدر".

قال أبو السعود: أي: "في جميع أمورهم فإنه حسبهم وإظهار الاسم الجليل للتبرك والتعليل فإن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى واللام في المؤمنين للجنس فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليا وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته".

قال محمد بن إسحاق: "أي: من كان به ضعف من المؤمنين أو وهَن، فليتوكل عليّ، وليستعن بي أعنِه على أمره، وأدفع عنه، حتى أبلغ به وأقوّيه على نيته".

قال ابن عطية: "أمر في ضمنه التغبيط للمؤمنين بمثل ما فعله بنو حارثة وبنو سلمة من المسير مع النبي ﷺ".

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} [آل عمران: ١٢٣]، أي: "ولقد

=

=

نصركم الله يوم بدر وأنتم يومئذ قليلون".

قال ابن كثير: "كان في جمعة وافق السابع عشر من رمضان، من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا فيهم فرسان وسبعون بعيرا، والباقون مشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله"

قال ابن إسحاق: "يقول: وأنتم أقل عددًا وأضعف قوة".

قال الحسن: ": يقول: "وأنتم أذلة "، قليل، وهم يومئذ بضعة عشر وثلثمئة".

قال ابن عباس: "عدد أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر وكان المهاجرون منهم سبعة وسبعين، وكان الأنصار مائتين وستة وثلاثين".

قال ابن كثير: "أي: قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العَدَد والعُدَد؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٢٥ - ٢٧]".

قال الراغب: "وجعلهم أذلة لا على الحقيقة والمصدوقة، - فمن نصره الله فغير ذليل، ولكن على اعتبار العامة لقلتهم وقلة عدتهم، وهذه أيام تابع الله ذكرها وذكر المسلمين بعظم ما

أولاهم فيها تثبيتا لقلوبهم، وتذكيرا بنعمه عليهم".

=

=

قال الضحاك: "«بدر»، ماء عن يمين طريق مكة، بين مكة والمدينة".

قال قتادة: "وبدر ماء بين مكة والمدينة، التقى عليه نبي الله ﷺ والمشركون، وكان أول قتال قاتله نبي الله ﷺ وذكر لنا أنه قال لأصحابه يومئذ: "أنتم اليوم بعدَّة أصحاب طالوت يوم لقى جالوت": فكانوا ثلثمئة وبضعة عشر رجلا والمشركون يومئذ ألفٌ، أو راهقوا ذلك".

(وأنتم أذلة) أي: قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعدد؛ ولهذا قال في الآية الأخرى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم).

قال الشنقيطي: قوله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) وصف الله المؤمنين في هذه الآية بكونهم أذلة حال نصره لهم ببدر، وقد جاء في آية أخرى وصفه تعالى لهم بأن لهم العزة، وهي قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ولا يخفى ما بين العزة والذلة من التنافي والتضاد.

والجواب ظاهر: وهو أن معنى وصفهم بالذلة هو قلة عددهم وعددهم يوم بدر، وقوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) نزل في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق، وذلك بعد أن قويت شوكة المسلمين، وكثر عددهم، مع أن العزة والذلة يمكن الجمع بينهما باعتبار آخر، وهو أن الذلة باعتبار حال المسلمين من قلة العدد والعدد، والعزة باعتبار نصر الله وتأييده، كما يشير إلى هذا قوله تعالى (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات).

وقوله (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة)، فإن زمن الحال هو زمن عاملها، فزمان

=

=

النصر هو زمان كونهم أذلة، فظهر أن وصف الذلة باعتبار، ووصف العزة والنصر باعتبار آخر، فانفكت الجهة، والعلم عند الله.

قال الرازي: قوله تعالى (وأنتم أذلة) في موضع الحال، وإنما كانوا أذلة لوجوه:

الأول: أنه تعالى قال (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فلا بد من تفسير هذا الذل بمعنى لا ينافي مدلول هذه الآية، وذلك هو تفسيره بقلة العدد وضعف الحال، وقلة السلاح والمال، وعدم القدرة على مقاومة العدو، ومعنى الذل الضعف عن المقاومة ونقيضه العز وهو القوة والغلبة، روي أن المسلمين كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، وما كان فيهم إلا فرس واحد، وأكثرهم كانوا رجالة، وربما كان الجمع منهم يركب جملا واحدا، والكفار قريبين من ألف مقاتل ومعهم مائة فرس مع الأسلحة الكثيرة والعدة الكاملة.

الثاني: لعل المراد أنهم كانوا أذلة في زعم المشركين واعتقادهم، لأجل قلة عددهم وسلاحهم، وهو مثل ما حكى الله عن الكفار أنهم قالوا (ليخرجن الأعز منها الأذل).

وقال القرطبي: (أذلة) جمع ذليل، واسم الذل في هذا الموضع مستعار، ولم يكونوا في أنفسهم إلا أعزة، ولكن نسبتهم إلى عدوهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضي عند التأمل ذلتهم وأنهم يغلبون.

واختلف في المعنى الذي من أجله سمي بدر " بدرًا " على قولين:

أحدهما: أنه سمي بذلك، لأنه كان ماء لرجل يسمى " بدرًا "، فسمي باسم صاحبه. قاله الشعبي، ورجّحه الراغب، والبيضاوي وغيرهما.

والثاني: أن ذلك اسم سميت به البقعة، كما سمى سائر البلدان بأسمائها من غير إضافة إلى اسم صاحب. وهذا قول عبدالله بن جعفر، ومحمد بن صالح، ويحيى بن النعمان الغفاري.

=

=

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [آل عمران: ١٢٣]، أي: "فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه، لتشكروه على ما منَّ به عليكم من النصر".

قال ابن إسحاق: "أي: فاتقون، فإنه شكر نعمتي".

قال ابن الجوزي: "أي لتكونوا من الشاكرين.".

قال الرغب: "أمرهم بالتقوى المؤدية إلى شكرهم لها".

قال سفيان يعني ابن عيينة: على كل مسلم أن يشكر الله في نصره ببدر، يقول الله: {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون}".

قال الثعلبي: "جميع ما غزا رسول الله ﷺ بنفسه ست وعشرون غزوة، فأول غزوة غزاها غزوة ودان، وهي غزوة الأبواء، ثم غزوة بواط إلى ناحية رضوى، ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع، ثم غزوة بدر الأولى بطلب كرز بن جابر، ثم غزوة بدر الكبرى التي قتل الله فيها صناديد قريش، ثم غزوة بني سليم حتى بلغ الكدر ماء لبني سليم، ثم غزوة السويق يطلب أبا سفيان بن حرب حتى بلغ قرقرة الكدر، ثم غزوة ذي أمر وهي غزوة غطفان إلى نجد، ثم غزوة نجران: موضع بالحجاز فوق الفرع، ثم غزوة أحد ثم غزوة الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة ذات الرقاع من نجد، ثم غزوة بدر الأخيرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قريظة، ثم غزوة بني لحيان، ثم غزوة بني قردة، ثم غزوة بني المصطلق من بني خزاعة لقي فيها، ثم غزوة الحديبية لا يريد قتالا فصده المشركون، ثم غزوة خيبر، ثم غزوة الفتح: فتح مكة، ثم غزوة حنين لقي فيها، ثم غزوة الطائف حاصر فيها، ثم غزوة تبوك.

قاتل منها في تسع غزوات: غزوة بدر الكبرى، وهو يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وأحد في شوال سنة ثلاث، والخندق، وبني قريظة في شوال سنة أربع، وبني المصطلق، وبني لحيان في شعبان سنة خمس،

=

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤).

{إِذْ} ظَرْف لِنَصْرِكُمْ {تَقُول لِلْمُؤْمِنِينَ} تُوعِدهُمْ تَطْمِينًا {أَلَنْ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدّكُمْ} يُعِينكُمْ {رَبّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَاف مِنْ الْمَلَائِكَة مُنْزَلِينَ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد.

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥).

{بَلَى} يَكْفِيكُمْ ذَلِكَ وَفِي الْأَنْفَال بِأَلْفٍ لِأَنَّهُ أَمَدَّهُمْ أَوَّلًا بِهَا ثُمَّ صَارَتْ ثَلَاثَة ثُمَّ صَارَتْ خَمْسَة كَمَا قَالَ تَعَالَى {إِنْ تَصْبِرُوا} عَلَى لِقَاء الْعَدُوّ {وَتَتَّقُوا} الله فِي الْمُخَالَفَة {وَيَأْتُوكُمْ} أَيْ الْمُشْرِكُونَ {مِنْ فَوْرهمْ} وَقْتهمْ {هَذَا يَمْدُدْكُمْ رَبّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَاف مِنْ الْمَلَائِكَة مُسَوِّمِينَ} بِكَسْرِ الْوَاو وَفَتْحهَا أَيْ مُعَلَّمِينَ وَقَدْ صَبَرُوا وَأَنْجَزَ الله وَعْده بِأَنْ قَاتَلَتْ مَعَهُمْ الْمَلَائِكَة عَلَى خَيْل بُلْق عَلَيْهِمْ عَمَائِم صُفْر أَوْ بِيض أَرْسَلُوهَا بَيْن أَكْتَافهمْ.

وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦).

{وَمَا جَعَلَهُ الله} أَيْ الْإِمْدَاد {إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ} بِالنَّصْرِ {وَلِتَطْمَئِنّ} تَسْكُن {قُلُوبكُمْ بِهِ} فَلَا تجزع من كسرة الْعَدُوّ وَقِلَّتكُمْ {وَمَا النَّصْر إِلَّا مِنْ عِنْد الله الْعَزِيز الْحَكِيم} يُؤْتِيه مَنْ يَشَاء وَلَيْسَ بكثرة الجند[1].

=

وخيبر سنة ست، والفتح في رمضان سنة ثمان، وحنين في شوال سنة ثمان. فأول غزوة غزاها بنفسه وقاتل فيها بدر وآخرها تبوك".

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

عن الشعبي: أن المسلمين بلغهم يوم بدر: أن كرز بن جابر المحاربي يمد المشركين؛ فشق عليهم؛ فأنزل الله {أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)}، قال: فبلغت كرزًا الهزيمة، فلم يمد المشركين، ولم يمد المسلمون بالخمسة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٥٠)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٥٢٠ رقم ١٣٥٠) من طريقين عن داود بن أبي هند عن الشعبي به. وهو صحيح الإسناد إلى الشعبي؛ لكنه مرسل.

* قوله تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٢٤]، أي: "إذ تقول يامحمد للمؤمنين بك من أصحابك".

قوله تعالى: {أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ} [آل عمران: ١٢٤].

أي: إذ تقول يا محمد لأصحابك أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين.

قال الماوردي: "والكفاية مقدار سد الخلة، والاكتفاء الاقتصار عليه، والإمداد إعطاء الشيء حالًا بعد حال، والأصل في الإمداد هو الزيادة ومنه مد الماء وهو زيادته".

وفي الفرق بين أمدّه ويمده، قولان:

أحدهما: أن كل ما كان على جهة القوة والإعانة، قيل فيه: أمده يمده إمدادا، وكل ما كان على جهة الزيادة قيل: مده يمده مدا، ومنه قوله: {وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ} [لقمان: ٢٧]. وهذا قول المفضل.

والثاني: وقيل: أن المد في الشر، والإمداد في الخير. يدل عليه قوله تعالى:

=

=

{وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [البقرة: ١٥]، وقوله: {وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا} [مريم: ٧٩].

وقال في الخير {أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ} [الأنفال: ٩]، وقال: {يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ} [آل عمران: ١٢٥]، وقال: {وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ} [الإسراء: ٦].

وفي قراءة أبي: "{ألا يكفيكم أن يمدكم ربكم}، أي: يعطيكم ويعينكم".

قوله تعالى: {مُنْزَلِينَ} [آل عمران: ١٢٤]، أي: "منزلين لنصرتكم".

قال ابن عباس: "لم تُقاتل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عَددًا ومَددًا لا يضربون".

وأخرج الطبري عن أبي داود المازني، وكان شهد بدرًا، قال: "إني لأتبعُ رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أن قد قتله غيري".

أخرج الطبري عن عن محمد بن إسحاق قال: "حدثني عبد الله بن أبي بكر: أنه حُدِّث عن ابن عباس: أن ابن عباس قال: حدثني رجل من بني غفار قال: أقبلت أنا وابن عمّ لي حتى أصعدنا في جبل يُشرف بنا على بدر، ونحن مشركان، ننتظر الوقعة، على من تكون الدَّبْرة فننتهِبُ مع من ينتهب. قال: فبينا نحن في الجبل، إذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلا يقول: أقدم حيزوم. قال: فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك، ثم تماسكت".

وأخرج الطبري بسنده عن عكرمة مولى ابن عباس قال: "قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهلَ البيت، فأسلم العباس وأسلمتْ أم الفضل وأسلمتُ. وكان العباس يهاب قومه

=

=

ويكرَهُ أن يخالفهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه. وكان أبو لهب عدوّ الله قد تخلَّف عن بدر وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة. وكذلك صنعوا، لم يتخلَّف رجل إلا بعث مكانه رجلا. فلما جاء الخبرُ عن مُصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعِزًّا. قال: وكنت رجلا ضعيفًا، وكنت أعمل القِداح أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت القداح، وعندي أم الفضل جالسة، وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرُّ رجليه بشرٍّ حتى جلس على طُنُب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري. فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم! قال: قال أبو لهب: هلُمّ إليّ يا ابن أخي، فعندك الخبر! قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني، كيف كان أمرُ الناس؟ قال: لا شيء والله، إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا! وايم الله، مع ذلك ما لمتُ الناس، لقينا رجالا بيضًا على خيل بلق ما بين السماء والأرض ما تلِيق شيئًا، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت: تلك الملائكة!".

وعن ابن عباس قال: "كان الذي أسر العباس أبا اليَسَر كعب بن عمرو أخو بني سلِمة، وكان أبو اليسر رَجلا مجموعًا، وكان العباس رجلا جسيما، فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر: "كيف أسرت العباس أبا اليسر؟ ! قال: يا رسول الله، لقد أعانني عليه رجلٌ ما رأيته قبل ذلك ولا بعده، هيئته كذا وكذا! قال رسول الله ﷺ: "لقد أعانك عليه ملك كريم".

واختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم بَدْر أو يوم أُحُد؟ على أقوال:

أحدها: إن الله عز وجل كان وعد المؤمنين يوم بدر أن يمدَّهم بملائكته، إن أتاهم العدو من فورهم، فلم يأتوهم، ولم يُمَدُّوا. وهذا عامر الشعبي.

=

=

والثاني: كان هذا الوعد من الله لهم يوم بدر، فصبر المؤمنون واتقوا الله، فأمدهم بملائكته على ما وعدهم. وهذا قول مالك بن ربيعة، وابن عباس، والحسن، وقتادة، والربيع، ومجاهد.

والثالث: أن ذلك الإمداد كان يوم الاحزاب، وإنما وعدهم يوم بدر أن يمدَّهم إن صبروا عند طاعته وجهاد أعدائه، واتقوه باجتناب محارمه، أن يمدهم في حروبهم كلها، فلم يصبروا ولم يتقوا إلا في يوم الأحزاب، فأمدَّهم حين حاصروا قريظة. وهذا قول عبد الله بن أبي أوفى.

والرابع: وقال آخرون بنحو معنى القول الثالث، غير أنهم قالوا: لم يصبر القوم ولم يتقوا ولم يُمدوا بشيء في أُحُد. وهذا قول عكرمة، والضحاك، وابن زيد.

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبرَ عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين: ألن يكفيَكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة؟ فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددًا لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف، خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله. ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآف، ولا بالخمسة آلاف، ولا على أنهم لم يمدوا بهم، وقد يجوز أن يكون الله عز وجل أمدهم، على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك، ولا خبر عندنا صحَّ من الوجه الذي يثبت أنهم أمِدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف. وغير جائز أن يقال في ذلك قولٌ إلا بخبر تقوم الحجة به. ولا خبر به كذلك، فنسلم لأحد الفريقين قوله. غير أنّ في القرآن دلالةً على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة، وذلك قوله: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [سورة الأنفال: ٩] فأما في يوم أُحُد، فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبينُ منها في أنهم أمدوا. وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا، ويُنالَ منهم ما نيل

=

=

منهم، فالصواب فيه من القول أن يقال كما قال تعالى ذكره".

وقال ابن كثير: اختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين:

أحدهما: أن قوله: (إذ تقول للمؤمنين) متعلق بقوله (ولقد نصركم الله ببدر) وروي هذا عن الحسن البصري، وعامر الشعبي، والربيع بن أنس، وغيرهم. واختاره ابن جرير.

قال الرازي: وهو قول أكثر المفسرين، أي: أن ذلك يوم بدر.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية -على هذا القول-وبين قوله تعالى في قصة بدر (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم)

فالجواب: أن التنصيص على الألف هاهنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: (مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم، قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف.

القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) وذلك يوم أحد.

وهو قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والزهري، وموسى بن عقبة وغيرهم، لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف؛ لأن المسلمين فروا يومئذ -زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف؛ لقوله (بلى إن تصبروا وتتقوا) فلم يصبروا، بل فروا، فلم يمدوا بملك واحد. (تفسير ابن كثير).

=

=

• قال الرازي: والحجة عليه من وجوه:
الحجة الأولى: أن يوم بدر إنما أمد رسول الله ﷺ بألف من الملائكة قال تعالى في سورة الأنفال (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم إني ممدكم بألف من الملائكة) فكيف يليق ما ذكر فيه ثلاثة آلاف وخمسة آلاف بيوم بدر.
الحجة الثانية: أنه تعالى قال في هذه الآية (ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) والمراد ويأتوكم أعداؤكم من فورهم، ويوم أحد هو اليوم الذي كان يأتيهم الأعداء، فأما يوم بدر فالأعداء ما أتوهم، بل هم ذهبوا إلى الأعداء.
• قال الشنقيطي: قوله تعالى (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة) الآية، هذه الآية تدل على أن المدد يوم بدر من الملائكة من ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف، وقد ذكر تعالى في سورة الأنفال أن هذا المدد ألف بقوله (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين).
والجواب عن هذا من وجهين:
الأول: أنه وعدهم بألف ثم صارت ثلاثة آلاف ثم صارت خمسة كما في هذه الآية.
الثاني: أن آية الأنفال لم تقتصر على الألف، بل أشارت إلى الزيادة المذكورة في آل عمران، ولا سيما في قراءة نافع (بألف من الملائكة مردفين) بفتح الدال على صيغة اسم المفعول، لأن معنى (مردفين): متبوعين بغيرهم، وهذا هو الحق، وأما على قول من قال: إن المدد المذكور في آل عمران في يوم أحد، والمذكور في الأنفال في يوم بدر، فلا إشكال على قوله، إلا أن غزوة أحد لم يأت فيها مدد الملائكة. والجواب: أن إتيان المدد فيها على القول به مشروط بالصبر والتقوى
=

=

في قوله (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم) الآية، ولما لم يصبروا ولم يتقوا لم يأت المدد، وهذا قول مجاهد وعكرمة والضحاك والزهري وموسى بن عقبة وغيرهم، قاله بن كثير.

وفي قوله تعالى: {مُنْزِلِينَ} [آل عمران: ١٢٤] قراءتان:

إحداهما: {مُنْزِلِينَ}: بكسر الزاي، مخففا، يعني منزلين النصر. وهي قراءة أبو حيوة.

والثانية: {مُنْزَلِينَ}، مشددة مفتوحة الزاي على التكثير، وتصديقه قوله: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ} [الأنعام: ١١١]. وهي قراءة الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف وعمر ابن ميمون وابن عامر.

قوله تعالى: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا} [آل عمران: ١٢٥]، " أي: بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم في المعركة واتقيتم الله وأطعتم أمره".

كما قال تعالى (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط).

وقال تعالى (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين).

وقال تعالى (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور).

وقال تعالى (قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين).

قال ابن تيمية: فذكر الصبر والتقوى في هذه المواضع الأربعة، فالصبر يدخل فيه الصبر على المقدور، والتقوى يدخل فيها فعل المأمور وترك المحظور...فبين أنه مع الصبر والتقوى يمدهم بالملائكة وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: في قوله تعالى (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما

=

=

يعملون محيط) فبين سبحانه أنه مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين.

قوله تعالى: {وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا} [آل عمران: ١٢٥].

أي: من وجههم هذا، وقال مجاهد، وعكرمة، وأبو صالح: أي من غضبهم هذا. وقال الضحاك: من غضبهم ووجههم. وقال العوفي عن ابن عباس: من سفرهم هذا.

ففي قوله: {وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا} [آل عمران: ١٢٥]، وجهان:

أحدهما: يعني: من وجههم هذا، وهو قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، وعكرمة، والربيع، والسدي، وابن زيد.

والثاني: أن المعنى: من غضبهم هذا، وهو قول مجاهد، والضحاك، وأبي صالح، وعكرمة في إحدى الروايات عنه.

قال الماوردي: "وأصل الفور فور القِدْر، وهو غليانها عند شدة الحمى، ومنه فَوْرُ الغضب لأنه كَفَوْرِ القِدْر".

قوله تعالى: {يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ} [آل عمران: ١٢٥]، " أي: يزدكم الله مددًا من الملائكة".

قوله تعالى: {مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: ١٢٥]، أي: "معلَّمين على السلاح ومدربين على القتال".

عن السدي: "{مسومين}: معلمين".

قال مقاتل: "يعني معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الخيل، وأذنابها عليها البياض معتمين بالبياض وقد أرخوا أطراف العمائم بين أكتافهم".

قال ابن كثير: "أي: معلمين بالسِّيما".

قال الماتريدي: "وقوله: {مسومين} قيل: {منزلين}؛و{مسومين} سواء، وهو

=

=

من الإرسال؛ ومن التسويم، وقيل: معلمين بعلامة، وذلك - وألله أعلم - ليعلم المؤمنين حاجتهم إلى العلامة، لا أن الملائكة يحتاجون إلى العلامة".

قال الثعلبي: "والسومة: العلامة التي يعلم بها الفارس نفسه في الحرب".

أخرج الطبري بسنده عن الزبير بن المنذر، عن جده أبي أسيد - وكان بدريًا - فكان يقول: "لو أن بصري فُرِّج منه، ثم ذهبتم معي إلى أحد، لأخبرتكم بالشِّعب الذي خرجت منه الملائكة في عمائم صُفر قد طرحوها بين أكتافهم".

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كان سيما الملائكة أهل بدر الصوف الأبيض، وكان سيما الملائكة أيضا في نواصي خيولهم".

وعن أبي هريرة في هذه الآية: "{مسومين}، قال: بالعهن الأحمر".

واختلفوا في التسويم على قولين:

أحدهما: أنه كان بالصوف في نواصي الخيل وآذانها، وهو قول علي-كرّم الله وجهه-، وابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد، والضحاك.

الثاني: أن الملائكة نزلت يوم بدر على خيل بلق وعليهم عمائم صفر، وهو قول هشام بن عروة، وعبدالله بن الزبير، والربيع.

قال الزجاج: "ومعنى {مسومين}: أخذ من السومة، وهي العلامة، كانوا يعلمون بصوفة أو بعمامة أو ما أشبه ذلك،و{مسومين}: معلمين. وجائز أن يكون مسومين: قد سوموا خيلهم

وجعلوها سائمة".

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: ١٢٥]، على وجهين:

أحدهما: {مسومين} بكسر الواو، في قرأءة ابن كثير وأبو عمرو وعاصم، بمعنى أن الملائكة سوَّمتْ لنفسها.

والثاني: وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي {مسومين} مفتوحة، بمعنى أن الله

=

=

سوَّمها.

قوله تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ} [آل عمران: ١٢٦]، "} أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارةً لكم".

قال مجاهد: "إنما جعلهم الله ليستبشروا بهم".

قال مقاتل: "يعني مدد الملائكة".

قال الزجاج: "وما جعل ذكر المدد إلا بشرى لكم ولتمكنوا في حربكم".

قوله تعالى: {وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ} [آل عمران: ١٢٦]، أي: "وتطييبا لقلوبكم وتطمينا".

قال مقاتل: "يعني لتسكن إليه قلوبكم".

قال الزمخشري: أي: "وتطمئن به قلوبكم وتروا حفاية الله بكم، وإلا فالكثرة لا تغني شيئا إلا أن ينصر الله".

قوله تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ} [آل عمران: ١٢٦]، أي: وما النصر في الحقيقة إلا بعون الله وحده".

قال محمد بن إسحاق: "الأمر عندي إلا بسلطاني وقدرتي، وذلك أن العز والحكم إلي، لا إلى أحد من خلقي".

قال مقاتل: "وليس النصر بقلة العدد ولا بكثرته، ولكن النصر من عند الله".

قال ابن كثير: أي: "وإلا فإنما النصر من عند الله، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ. وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ.} [محمد: ٤ - ٦]".

قال الفخر: أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم

=

=

قاتلوا الكفار، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر وفيما سواه كانوا عددا ومددا لا يقاتلون ولا يضربون، وهذا قول الأكثرين.

وقال القرطبي: وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت.

قال تعالى (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان).

وقال تعالى (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) وهذا في يوم بدر.

عن رفاعة بن رافع، قال جاء جبريل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال (ما تعدون أهل بدر فيكم قال من أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها قال وكذلك من شهد بدرا من الملائكة) رواه البخاري.

(وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) أي: وإلا فإنما النصر من عند الله، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم)، ولهذا قال هاهنا (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) أي: هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمة في قدره والإحكام.

قال القرطبي: نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى، وإنما يحتاج إليه المخلوق فليعلق القلب بالله وليثق به، فهو الناصر بسبب وبغير سبب (إنمآ أمره إذآ أراد شيئا أن يقول له كن فيكون).

لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل (ولن تجد لسنة الله تبديلا)، ولا يقدح ذلك في التوكل.

=

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧).

{لِيَقْطَع} مُتَعَلِّق بنصركُمْ أَيْ لِيُهْلِك {طَرَفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا} بِالْقَتْلِ وَالْأَسْر {أَوْ يَكْبِتهُمْ} يُذِلّهُمْ بِالْهَزِيمَةِ {فَيَنْقَلِبُوا} يَرْجِعُوا {خَائِبِينَ} لَمْ يَنَالُوا مَا راموه.

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨).

=

وهو رد على من قال: إن الأسباب إنما سنت في حق الضعفاء لا للأقوياء؛ فإن النبي ﷺ وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء؛ وهذا واضح.

• قال ابن عاشور: وجملة (وما النصر إلا من عند الله) تذييل أي كل نصر هو من الله لا من الملائكة.

وإجراء وصفي العزيز الحكيم هنا لأنهما أولى بالذكر في هذا المقام، لأن العزيز ينصر من يريد نصره، والحكيم يعلم من يستحق نصره وكيف يعطاه.

وقال أبو حيان: قوله تعالى (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) حصر كينونة النصر في جهته، لا أن ذلك يكون من تكثير المقاتلة، ولا من إمداد الملائكة.

وذكر الإمداد بالملائكة تقوية لرجاء النصر لهم، وتثبيتا لقلوبهم.

قوله تعالى: {الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ١٢٦]، " أي: الغالب الذي لا يغلب في أمره الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه حكمته الباهرة".

وذكر وصف العزة وهو الوصف الدال على الغلبة، ووصف الحكمة وهو الوصف الدال على وضع الأشياء مواضعها من: نصر وخذلان وغير ذلك.

قال مقاتل: "{عزيز}، يعني: منيع، {حكيم} في أمره حكم النصر".

قال ابن كثير: "أي: هو ذو العزة التي لا تُرام، والحكمة في قَدره والإحكام".

وقال السعدي: وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد، بل يعتمد على الله، وإنما الأسباب وتوفرها فيها طمأنينة للقلوب وثبات على الخير.

وَنَزَلَتْ لَمَّا كُسِرَتْ رُبَاعِيَّته صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشُجَّ وَجْهه يَوْم أُحُد وَقَالَ كَيْفَ يَفْلَح قَوْم خَضَّبُوا وَجْه نَبِيّهمْ بِالدَّمِ {لَيْسَ لَك مِنْ الْأَمْر شَيْء} بَلْ الْأَمْر لِلَّهِ فَاصْبِرْ {أَوْ} بِمَعْنَى إِلَى أَنْ {يَتُوب عَلَيْهِمْ} بِالْإِسْلَامِ {أَوْ يُعَذِّبهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} بِالْكُفْرِ(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: كان رسول الله ﷺ يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه: "سمع الله لمن حَمِدَهُ، ربنا ولك الحمد"، ثم يقول وهو قائم: "اللهم! انج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم كسني يوسف، اللهم العن لحيان ورعلًا وذكوانَ وعصيّة؛ عصت الله ورسوله"، ثم بلغنا أنه ترك ذلك؛ لما أنزل: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٢٢٦ رقم ٤٥٦٠)، ومسلم في "صحيحه" (١/ ٤٦٦، ٤٦٧ رقم ٦٧٥).

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه؛ فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: "كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟! "؛ فأنزل الله عز وجل: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}.

أخرجه البخاري -معلقًا- (٧/ ٣٦٥)، ووصله مسلم في "صحيحه" (٣/ ١٤١٧ رقم ١٧٩١/ ١٠٤)، وغيره.

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخرة من الفجر يقول: "اللهم! العن فلانًا وفلانًا وفلانًا، بعد ما يقول: "سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد"؛ فأنزل الله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ =

=

يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧/ ٣٦٥ رقم ٤٠٦٩، ٨/ ٢٢٥، ٢٢٦ رقم ٤٥٥٩، ١٣/ ٣١٢ رقم ٧٣٤٦).

ورواه البخاري (٧/ ٣٦٥ رقم ٤٠٧٠) من طريق معمر عن ابن المبارك عن حنظلة بن أبي سفيان عن سالم بن عبد الله؛ قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام؛ فنزلت. قال الحافظ في "الفتح" (٧/ ٣٦٦): "وهو مرسل".

وقال في "العجاب" (٢/ ٧٤٧): "هكذا ذكره مرسلًا".

وقال ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (١/ ٤١٢): "هكذا ذكر هذه الزيادة البخاري معلقة مرسلة".

ورد عليه الحافظ في "التغليق" (٤/ ١٠٩)، "والفتح": بأنه موصول لا معلق، وما فيه إلا الإرسال.

ووصله أحمد (رقم ٥٦٧٤ - شاكر)، والطبري في "جامع البيان" (٤/ ٥٨) من طريق عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه به.

قلنا: وعمر بن حمزة؛ ضعيف.

قال الحافظ ابن حجر في "تغليق التعليق" (٤/ ١١٠): "إسناده حسن"!! وصححه الشيخ أحمد شاكر!! فوهما.

قلنا: وهذا متعقب، كيف لا والحافظ -نفسه- قال في "التقريب" -عن عمر هذا (٢/ ٥٣) -: "ضعيف"! لكنه توبع على أصل الحديث:

فقد أخرجه الترمذي (٥/ ٢٢٨ رقم ٣٠٠٥)، وأحمد (رقم ٥٨١٢، ٥٨١٣ - شاكر)، والطبري في "جامع البيان" (٤/ ٥٨)، وابن أبي حاتم في "التفسير" (٢/ ٥٣٥، ٥٣٦ رقم ١٣٩٢) من طريق محمد بن عجلان، والإمام أحمد (٥٩٩٧ -

=

=

شاكر) من طريق أسامة بن زيد الليثي، كلاهما عن نافع عن ابن عمر قال: كان النبي ﷺ يدعو على أربعة؛ فأنزل الله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}، قال: قد هداهم الله للإسلام.

قلنا: ابن عجلان وأسامة كلاهما صدوق؛ فكلاهما يقوي الآخر، وتصح الطريق إلى نافع؛ فالحديث بهذه المتابعة صحيح، والله أعلم.

وصححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على "المسند".

وروى ابن إسحاق في المغازي؛ كما في "الدر المنثور" (٢/ ٣١٣) -ومن طريقه النحاس في "الناسخ والمنسوخ" (ص ٨٧) -: ثني يعقوب بن عتبة عن سالم قال: جاء رجل من قريش إلى النبي ﷺ، فقال: إنك تنهى عن السبي، يقول: "قد سبي العرب". ثم تحول قفاه إلى النبي ﷺ وكشف استه؛ فلعنه ودعا عليه؛ فأنزل الله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} الآية ثم أسلم الرجل؛ فحسن إسلامه.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد، وإن كان فيه ابن إسحاق؛ وهو صدوق مدلس؛ لكنه إمام في المغازي والسير وصرح بالتحديث؛ لكنه ضعيف للإرسال وفي متنه نكارة واضحة؛ إذ الصحيح في سبب نزولها ما قدمنا.

ملاحظة: في حديث أبي هريرة: أن النبي دعا على أحياء من العرب وعلى مضر وذكوان ورعلًا الذين قتلوا السبعين قارئًا، وكان هذا في بئر معونة، وحديث أنس وغيره: أن ذلك كان في غزوة أحد، وقد وفق بينهما الحافظ في "الفتح" (٧/ ٣٦٦)، و"العجاب" (٢/ ٧٥١)؛ قال: "لكن يمكن الجمعُ بأنَّ نزولها تأخر حتى وقعت بئر معونة فكان يجمع في الدعاء بين مَنْ شج وجهه بأحد ومَنْ قتلَ أصحابَ بئر معونة؛ فنزلت الآية في الفريقين جميعًا فترك الدعاء على الجميع، وبقي بعد ذلك الدعاء للمستضعفين، إلى أنْ خلصوا وهاجروا، وهذه أولى من دعوى النزول مرتين".

=

=

وعن الحسن: أن النبي ﷺ قال يوم أحد: "كيف يفلح قوم دَمَوْا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الله عز وجل؟ "؛ فنزلت: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}.

وفي رواية: بلغني: أن رسول الله لما انكشف عنه أصحابه يوم أحد وكسرت رباعيته وجرح وجهه؛ قال -وهو يصعد على أحد-: "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم؟".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٥٧) بالرواية الأولى، وعبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٤٩)، و"الدر المنثور" (٢/ ٣١٢) من طريقين عن الحسن به. وهذا مرسل صحيح الإسناد ويشهد له حديث أنس السابق.

وعن قتادة: أن رباعية رسول الله ﷺ أصيبت يوم أحد، أصابها عتبة بن أبي وقاص وشجه في وجهه، فكان سالم مولى أبي حذيفة يغسل الدم والنبي ﷺ يقول: "كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم؟ "؛ فأنزل الله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}.

وفي رواية كسرت رباعيته وفرق حاجبه، وعليه درعان، والدم يسيل؛ فمر به سالم مولى أبي حذيفة فأجلسه ومسح الدم، فأفاق وهو يقول: "كيف بقومٍ فعلوا هذا بنبيهم؟ "؛ فنزلت.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ١/ ١٣١) -ومن طريقه ابن جرير "في جامع البيان" (٤/ ٥٧، ٥٨) -، وابن سعد في "الطبقات"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (١/ ٢٢١) عن معمر عنه به. وأخرجه ابن جرير في "جامع البيان" (٤/ ٥٧) من طرق أخرى عن قتادة. قال الزيلعي: "وهو معضل".

وعن الربيع بن أنس: أنزلت هذه الآية على رسول الله يوم أحد وقد شج رسول الله ﷺ في وجهه، وأصيبت رباعيته؛ فهمَّ رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم، فقال: "كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم؛ وهو يدعوهم إلى الله وهم يدعونه إلى الشيطان، ويدعوهم إلى الهدى ويدعونه إلى الضلالة، ويدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى

=

=

النار؟! "؛ فَهَمَّ أن يدعو عليهم؛ فأنزل الله عز وجل: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)}؛ فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء عليهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٥٧): حُدثت عن عمار ثنا ابن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع به. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه أربع علل، تقدم الكلام على ثلاثة منها تحت الآيتين (١، ٢) من هذه السورة، وأما الرابعة؛ فالانقطاع بين الطبري وعمار.

* قوله تعالى: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران: ١٢٧]، " أي: ذلك التدبير الإلهي ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر".

أي: أمركم بالجهاد والجلاد، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين. فقال: (ليقطع طرفا) أي: ليهلك أمة (من الذين كفروا) فاللام للتعليل، قيل متعلق بقوله (ولقد نصركم الله ببدر) وقيل: متعلق بقوله (وما النصر إلا من عند الله) وقيل: متعلق بمحذوف تقديره: فعل ذلك ليقطع طرفا.

قال ابن قتيبة: يعني: "بأسْر وقتل".

قال الثعلبي: "أي: ليهلك طائفة من الذين كفروا، نظيره قوله: {فقطع دابر القوم الذين ظلموا} [الأنعام: ٤٥]، أي: أهلك، وفي الأنفال: {ويقطع دابر الكافرين} [الأنفال: ٧]، وفي الحجر: {أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين} [الحجر: ٦٦]".

قال السدي: "معناه: ليهدم ركنا من أركان الشرك بالقتل والأسر، فقتل من سادتهم وقادتهم يوم بدر سبعين، وأسر منهم سبعين".

قال الماوردي: "ولم يقل وسطًا لأن الطرف أقرب للمؤمنين من الوسط، فاختص القطع بما هو إليهم أقرب كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ} [التوبة:

=

=

١٢٣]".

قال الحسن: "هذا يوم بدر، قطع الله طائفة منهم وبقيت طائفة".

قال محمد بن إسحاق: ": ليقطع طرفًا من المشركين بقتل ينتقم به منهم".

قال قتادة: "فقطع الله يوم بدر طرفًا من الكفار، وقتل صناديدهم ورؤساءهم، وقادتهم في الشر".

وقال السدي: "أنه كان يوم أحد، كان الذي قتل منهم ثمانية عشر رجلًا".

قوله تعالى: {أَوْ يَكْبِتَهُمْ} [آل عمران: ١٢٧]، أي: "أو يخزيهم بالخيبة مما رجوا من الظفر بكم".

وقد ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى أن معنى {يكبتهم} أي: يصرعهم، وبه قال أبو عبيدة معمر بن المثنى.

وروي عن مجاهد، وقتادة، والربيع: أن المعنى: يخزيهم، وبه قال الطبري، والزمخشري، وابن عاشور.

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى {يكبتهم}: يحزنهم؛ فالمكبوت هو المحزون، وممن قال بهذا: القرطبي، والشوكاني.

وقال الزجاج: {يكبتهم}: يهزمهم.

وكل هذه الأقوال متقاربة ومتداخلة، ويلزم من القول ببعضها القول بالآخر، فإذا انصرع الكافر حصل له الخزي والانهزام والحزن، وجميع الأقوال المذكورة في معنى الكبت قد جاءت في معاجم اللغة، مما يدل على صحتها وإمكان القول بها في تفسير الآية.

قال قتادة: "يخزيهم".

قال السدي: "يلعنهم"

قال الزجاج: "أي: يهزمهم".

=

=

وقال الخليل: "الكبت: الصرع على الوجه".

قال النضر بن شميل: "يغيظهم"

قال المبرد: "يظفر عليهم"

وقال أبو عبيدة: "الكَبْت: الإهلاك، تقول العرب: كبته الله لوجهه، أي صرعه الله".

وقيل: معنى {يَكْبِتَهُمْ}: "هو أن يغيظهم ويحزنهم، وكذلك قال في قوله في سورة المجادلة: {كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [المجادلة: ٥] ويقال: كبت الله عدوّك، وهو بما قال أبو عبيدة أشبه. واعتبارُها قوله: {وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ} [الأحزاب: ٢٥]، لأن أهل النظر يرون أن "التاء" فيه منقلبة عن "دال"، كأن الأصل فيه: يَكْبِدُهُم أي يصيبهم في أكبادهم بالحزن والغيظ وشدة العداوة. ومنه يقال: فلان قد أحرق الحزن كبدَه. وأحرقت العداوة كبده. والعرب تقول للعدو: أسود الكبد. قال الأعْشَى:

فما أُجْشِمْتُ من إتيان قَوْمٍ... هُمُ الأعداءُ والأكبادُ سُودُ

كأن الأكباد لما احترقت بشدة العداوة اسودت. ومنه يقال للعدو: كاشح؛ لأنه يخبأ العداوة في كَشْحِه. والكَشْحُ: الخاصرةُ وإنما يريدون الكبد لأن الكبد هناك".

قوله تعالى: {فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ} [آل عمران: ١٢٧]، أي: ": فيرجعوا عنكم خائبين، لم يصيبوا منكم شيئًا مما رجوا أن ينالوه منكم".

قال محمد بن إسحاق: "أي ويرجع من بقى منهم فلا خائبين لم ينالوا شيئا مما كانوا يأملون".

قال الزجاج: "الخائب الذي لم ينل ما أمل".

قال الماوردي: "والفرق بين الخائب والآيس أن الخيبة لا تكون إلا بعد أمل، واليأس قد يكون قبل أمل".

=

=

قال ابن عاشور: وقد استقرى أحوال الهزيمة فإن فريقا قتلوا فقطع بهم طرف من الكافرين، وفريقا كبتوا وانقلبوا خائبين، وفريقا من الله عليهم بالإسلام، فأسلموا، وفريقا عذبوا بالموت على الكفر بعد ذلك، أو عذبوا في الدنيا بالذل، والصغار، والأسر، والمن عليهم يوم الفتح، بعد أخذ بلدهم و"أو" بين هذه الأفعال للتقسيم.

وهذا القطع والكبت قد مضيا يوم بدر قبل نزول هذه الآية بنحو سنتين، فالتعبير عنهما بصيغة المضارع لقصد استحضار الحالة العجيبة في ذلك النصر المبين العزيز النظير.

قوله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} [آل عمران: ١٢٨]، " أي ليس لك يا محمد من أمر تدبير العباد شيء وإنما أمرهم إلى الله".

كما قال (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب).

وقال (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء).

وقال (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء).

عن أنس بن مالك (أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟ فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء)) رواه مسلم.

قال القرطبي: قال علماؤنا: قوله عليه السلام (كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم) استبعاد لتوفيق من فعل ذلك به.

وقوله تعالى (ليس لك من الأمر شيء) تقريب لما استبعده وإطماع في إسلامهم، ولما أطمع في ذلك قال ﷺ (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) كما في صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول (رب اغفر لقومي فإنهم لا

=

=

يعلمون).

قال علماؤنا: فالحاكي في حديث ابن مسعود هو الرسول ﷺ، وهو المحكي عنه؛ بدليل ما قد جاء صريحا مبينا، أنه ﷺ لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شقا شديدا وقالوا: لو دعوت عليهما فقال (إني لم أبعث لعانا ولكني بعثت داعيا ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) فكأنه ﷺ أوحي إليه بذلك قبل وقوع قضية أحد، ولم يعين له ذلك النبي؛ فلما وقع له ذلك تعين أنه المعني بذلك بدليل ما ذكرنا.

ويبينه أيضا ما قاله عمر له في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد دعا نوح على قومه فقال: (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) الآية، ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا؛ فقد وطئ ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلت (رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).

قال محمد بن إسحاق: "أي: ليس لك من الحكم شيء في عبادي، إلا ما أمرتك به فيهم".

قال الطبري: "ليس إليك، يا محمد، من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري، وتنتهيَ فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليّ والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضى فيهم وأحكمُ بالذي أشاء".

قال ابن كثير: "أي: بل الأمر كلّه إلي، كما قال: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: ٤٠] وقال {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ٢٧٢]. وقال {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: ٥٦]".

قال الماتريدي: أي: "إنما أنت عبد مأمور؛ فليس لك من الأمر؛ إنما ذلك إلى الواحد القهار، الذي لا شريك له ولا ند؛ كقوله: {يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ

=

=

شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} [آل عمران: ١٥٤]".

قال المراغي: "أي ليس إليك أيها الرسول من أمر خلقى إلا أن تنفذ فيهم أمرى، وتنتهى فيهم إلى طاعتى، ثم أمرهم بعد ذلك، والقضاء فيهم بيدي دون غيرى، أقضى فيهم وأحكم بالذي أشاء من التوبة، أو عاجل العذاب بالقتل والنقم، أو آجله بما أعددت لأهل الكفر بي من العذاب فى الآخرة".

قوله تعالى: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [آل عمران: ١٢٨] أي: "أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصرّوا على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب".

قال محمد بن إسحاق: "أو أتوب عليهم برحمتي، فإن شئتُ فعلتُ، أو أعذبهم بذنوبهم {فإنهم ظالمون}، أي قد استحقوا ذلك بمعصيتهم إياي".

قال العز بن عبدالسلام: أي: "بل إلى الله تعالى التوبة عليهم، أو الانتقام منهم".

قال الثعلبي: "وقال بعضهم: (أو) بمعنى (حتى) يعني: ليس لك من الأمر شيء حتى يتوب عليهم أو يعذبهم".

أخرج البخاري والنسائي "من طريق معمر عن الزهري حدثني سالم -هو ابن عبد الله- ابن عمر عن أبيه سمع رسول الله ﷺ يقول: إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: "اللهم العن فلانا وفلانا" بعد ما يقول: "سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد"، فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} الآية"-ﷺ-".

وقال أحمد: "حدثنا هشيم نا حميد عن أنس: أن النبي -ﷺ- كسرت رباعيته يوم أحد وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه فقال: "كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ " فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}".

وعن أنس بن مالك قال: "قال رسول الله ﷺ حين شُجَّ في جبهته وكسِرت رباعيته:

=

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩).

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض} مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا {يَغْفِر لِمَنْ يَشَاء} الْمَغْفِرَة لَهُ {وَيُعَذِّب مَنْ يَشَاء} تَعْذِيبه {وَاَللَّه غَفُور} لأوليائه {رحيم} بأهل طاعته[1].

=

لا يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم! فأوحى الله إليه: {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون}".

(١) قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [آل عمران: ١٢٩]، أي: "ولله ملك السماوات والأرض خلقا وملكا وتدبيرا".
قال السمرقندي: أي: "إن جميع الخلق في ملكه وعبيده".
قال البيضاوي: يعني: "خلقا وملكا فله الأمر كله لا لك".
قال ابن كثير: "أي: الجميع ملك له، وأهلهما عبيد بين يديه".
قال الطبري: أي: "ليس لك يا محمد، من الأمر شيء، ولله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها، دونك ودونهم، يحكم فيهم بما يشاء، ويقضي فيهم ما أحب".
قال ابن عباس: "قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".
وقال الرازي: إن المقصود من هذا تأكيد ما ذكره أولا من قوله (ليس لك من الأمر شيء) والمعنى أن الأمر إنما يكون لمن له الملك، وملك السموات والأرض
=

=

وليس إلا لله تعالى فالأمر في السموات والأرض ليس إلا لله، وهذا برهان قاطع.
قوله تعالى (السماوات) هذا جمع، وقد صرح الله في القرآن بأن السموات سبع كما قال تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات) وقال تعالى (الذي خلق سبع سماوات طباقا).
قوله تعالى (والأرض) جاء في القرآن التلميح بأنها سبع في قوله تعالى (الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن) أي في العدد، وجاءت في السنة التصريح بأنها سبع في قوله ﷺ (من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أراضين) متفق عليه.
قوله تعالى: {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ} [آل عمران: ١٢٩]، " فيتوب على من أحب من خلقه العاصين، ثم يغفر له".
والمغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه، فالله تعالى يغفر لمن يشاء من عباده، وهذه الآية مقيدة بالحكمة، أي: من اقتضت حكمته أن يغفر له غفر له، لأن جميع أفعال الله لحكمة، لأن الفعل لغير حكمة نقص وعبث والله منزه عن كل نقص وعبث.
وأيضا مقيدة بما عدا الشرك، فإن الله يقول (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء).
قال مجاهد: "يغفر لمن يشاء الكثير من الذنوب".
وقال الضحاك: "يغفر لمن يشاء الذنب العظيم".
قوله تعالى: {وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} [آل عمران: ١٢٩]، أي: "ويعاقب من شاء منهم على جرمه فينتقم منه".
يعني أنه ليس لأحد عليه حق يوجب عليه أن يغفر له، وليس لأحد عليه حق يمنعه من أن يعذبه، بل الملك له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.
قال الشيخ ابن عثيمين: وليعلم أن كل شيء علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون

=

=

بالحكمة، أي: أنه ليست مشيئة الله مشيئة مجردة هكذا تأتي عفوا، لا، بل هي مشيئة مقرونة بالحكمة، والدليل على ذلك قوله تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما) فلما بين أن مشيئتهم بمشيئة الله بين أن ذلك مبني على علم وحكمة.

روي عن مجاهد: "قوله: {ويعذب من يشاء} على الصغيرة".

وروي عن الضحاك: "{وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ}، على الذنب الصغير إذا أصرَّ على ذلك".

قوله تعالى: {وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ١٢٩]، أي: "والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم".

قال البيضاوي: يعني: "لعباده فلا تبادر إلى الدعاء عليهم".

قال ابن إسحاق: "أي يغفر الذنوب، ويرحم العباد، على ما فيهم".

قال الطبري: أي: "وهو الغفور الذي يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح، والرحيم بهم في تركه عقوبتهم عاجلا على عظيم ما يأتون من المآثم".

قال الراغب: "بين بهذه الآية تحقيق ما قدمه بأنه هو المالك للكل، وله المشيئة في غفران من شاء وتعذيب من شاء".

والغفور اسم من أسماء الله متضمن للمغفرة الواسعة كما قال تعالى (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة)، وقال تعالى (وربك الغفور ذو الرحمة) وقال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء).

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال (يدني المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع كنفه -أي ستره ورحمته- فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَة} بِأَلْفٍ وَدُونهَا بِأَنْ تَزِيدُوا فِي الْمَال عِنْد حُلُول الْأَجَل وَتُؤَخِّرُوا الطَّلَب {وَاتَّقُوا الله} بِتَرْكِهِ {لَعَلَّكُمْ

=

أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربي، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال الله: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم). رواه البخاري ومسلم

ومنه سمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

• فهما عظمت ذنوب العبد فإن مغفرة الله ورحمته أعظم كما قال تعالى (إن ربك وسع لمغفرة).

وقد تكفل الله بالمغفرة لمن تاب (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى).

بل من فضله وجود وكرمه أن تعهد بأن يبدل سيئات المذنبين إلى حسنات قال تعالى عن التائبين (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما).

(رحيم) اسم من أسماء الله، متضمن لصفة الرحمة لله الواسعة كما قال تعالى (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة) وقال تعالى (وربك الغني ذو الرحمة) وقال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون).

فالله رحيم بعباده حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والميلات.

• قال أبو حيان: قوله تعالى (والله غفور رحيم) في هذه الجملة ترجيح لجهة الإحسان والإنعام.

تُفْلِحُونَ} تَفُوزُونَ[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن عمرو بن أقيش كان له ربًا في الجاهلية؛ فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد، قال: فأين فلان؟ قالوا: بأحد، فلبس لَأْمَتَهُ وركب فرسه، ثم توجه قبلهم؛ فلما رآه المسلمون؛ قالوا: إليك عنا يا عمرو! قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى جرح؛ فحمل إلى أهله جريحًا، فجاء سعد بن معاذ؛ فقال لأخته: سليه: حمية لقومك، أو غضبًا لهم، أم غضبًا لله؟! فقال: بل غضبًا لله ولرسوله، فمات، فدخل الجنة وما صلى لله صلاة.

أخرجه أبو داود (٢٥٣٧)، والحاكم (٢/ ١١٣)، والبيهقي (٩/ ١٦٧)، وفي الشعب (٤٣١٦) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وحسنه العلامة الألباني في صحيح أبي داود الأم (٧/ ٢٩٢)، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٣٩٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه تحقيق سنن أبي داود (٤/ ١٩٠): إسناده حسن من أجل محمد بن عمرو -وهو ابن علقمة الليثي- أبو سلمة: هو ابن عبد الرحمن بن عوف، وحماد: هو ابن سلمة. وحسنه الحافظ في "الإصابة" ٤/ ٦٠٩.

(تنبيه): قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في "العجاب" (٢/ ٧٥٣): "ما زلت أبحث عن مناسبة ذكر آية الربا في وسط ذكر قصة أُحد؛ حتى وقفت على هذا الحديث؛ فكأنها نزلت فيه؛ فترك الربا وخرج إلى الجهاد فاستشهد، أو أن ورثته طالبوا بما كان له من الربا فنهوا عنه بالآية المذكورة". ا.هـ

ويمكن أن يُقال أيضا: بأن هذه الآية تتحدث عن غزوة حدث فيها هزيمة للمسلمين، وكان ذلك بسبب معصية من بعض الرُماة، وليس من جميعهم، حيث =

=

خالفوا أمر رسول الله ﷺ لهم بالثبات في مواقعهم على جبل الرُماة، فهنا يذكر لهم أمرًا لا يتفق مع تأييد الله عز وجل لعباده، ونصره لهم بحال من الأحوال، وهو أكل الربا، فهؤلاء آكلو الربا يستنزلون ألطاف الله، ويرجون تأييده ونصره، فأعلمهم الله بالحرب، فقال :فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ البقرة:٢٧٩. فكيف يُنصرون والله حرب لهم؟ فهذا من أعظم الأسباب الموجبة للخذلان والهزيمة في المعركة، فجاءت هذه الآية يُخاطب الله بها أهل الإيمان، ويُحذرهم وينهاهم من الربا.

وعن مجاهد؛ قال: كانوا يتبايعون إلى أجل؛ فنزلت: {لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافُ امُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "التفسير" (٢/ ٥٣٩ رقم ١٤٠٤) بسند صحيح إلى ابن جريج عن مجاهد به. وسنده ضعيف؛ ابن جريج مدلس، وقد عنعن، وهو لم يسمع من مجاهد؛ كما قال المزي في "تهذيب الكمال"، ثم هو مع ذلك مرسل.

وعن عطاء؛ قال: كانت ثقيف تداين بني المغيرة في الجاهلية، فإذا حلّ الأجل؛ قالوا: نزيدكم وتؤخرون؛ فنزلت: {لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافُ امُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

أخرجه ابن جرير في "جامع البيان" (٢/ ٥٩) من طريق مؤمل بن إسماعيل ثنا سفيان عن ابن جريج عن عطاء به. وسنده ضعيف؛ فيه مؤمل هذا وهو سيئ الحفظ، أما ما يخشى من عنعنة ابن جريج؛ فهي محمولة على الاتصال عن عطاء بخاصة، وهو مرسل.

* قوله تعالى: {لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً} [آل عمران: ١٣٠].

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافا مضاعفة، كما كانوا يقولون في الجاهلية -إذا حل أجل الدين: إما أن يقضي وإما أن يربي، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر، وهكذا كل عام، فربما تضاعف

=

=

القليل حتى يصير كثيرا مضاعفا.

قال ابن إسحاق: "أي: لا تأكلوا في الإسلام إذ هداكم الله له، ما كنتم تأكلون إذ أنتم على غيره، مما لا يحل لكم في دينكم".

قال الطبري: "وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم: أنّ الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل، فإذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه، فيقول له الذي عليه المال: أخِّر عنى ديْنك وأزيدك على مالك. فيفعلان ذلك. فذلك هو " الربا أضعافًا مضاعفة "، فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه".

قال سعيد بن جبير: "وذلك أن الرجل كان يكون له على الرجل مال فإذا حل لأجل طلبه من صاحبه، فيقول المطلوب أخر عني وأزيدك في مالك، فيفعلان ذلك فذلك الربا أضعافا مضاعفة، فوعظهم الله تعالى". وروي عن مقاتل بن حيان نحو ذلك.

قال الرازي: كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل، فإذا جاء الأجل ولم يكن المديون واجدا لذلك المال قال زد في المال حتى أزيد في الأجل فربما جعله مائتين، ثم إذا حل الأجل الثاني فعل ذلك، ثم إلى آجال كثيرة، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله (أضعافا مضاعفة).

وقال ابن عطية: قوله تعالى (أضعافا) نصب في موضع الحال، ومعناه: الربا الذي كانت العرب تضعف فيه الدين، فكان الطالب يقول: أتقضي أم تربي؟ وقوله (مضاعفة) إشارة إلى تكرار التضعيف عاما بعد عام، كما كانوا يصنعون، فدلت هذه العبارة المؤكدة على شنعة فعلهم وقبحه، ولذلك ذكرت حال التضعيف خاصة، وقد حرم الله جميع أنواع الربا، فهذا هو مفهوم الخطاب إذ المسكوت عنه من الربا في حكم المذكور، وأيضا فإن الربا يدخل جميع أنواعه التضعيف والزيادة

=

=

على وجوه مختلفة من العين أو من التأخير ونحوه.

وقال الشوكاني: قوله تعالى (أضعافا مضاعفة) ليس لتقييد النهي لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال، ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حل الأجل زادوا في المال مقدارا يتراضون عليه، ثم يزيدون في أجل الدين، فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة حتى يأخذ المربي أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء؛ وأضعافا حال، ومضاعفة نعت له.

وقال الشيخ ابن عثيمين: الصحيح أن هذا القيد لا مفهوم له، لأن هذا بناء على الواقع الغالب، وما كان كذلك فإنه لا مفهوم له.

قال القرطبي: وإنما خص الربا من بين سائر المعاصي؛ لأنه الذي أذن الله فيه بالحرب في قوله (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) والحرب يؤذن بالقتل؛ فكأنه يقول: إن لم تتقوا الربا هزمتم وقتلتم.

فأمرهم بترك الربا؛ لأنه كان معمولا به عندهم، والله أعلم.

وقوله تعالى (لا تأكلوا) خص الأكل لأنه معظم الأمر، كما قال (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) وكما لا يجوز أكل مال اليتيم لا يجوز إتلافه، ولكنه نبه بالأكل على ما سواه وكذلك قوله (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل).

قال ابن وهب: "سمعت ابن زيد يقول في قوله: "لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة "، قال: كان أبي يقول: إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السن. يكون للرجل فضل دين، فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له: تقضيني أو تزيدني؟ فإن كان عنده شيء يقضيه قضى، وإلا حوَّله إلى السن التي فوق ذلك إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية، ثم حِقَّة، ثم جَذَعة، ثم رباعيًا، ثم هكذا إلى فوق وفي العين يأتيه، فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل، فإن لم يكن عنده أضعفه

=

=

أيضًا، فتكون مئة فيجعلها إلى قابل مئتين، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمئة، يضعفها له كل سنة أو يقضيه. قال: فهذا قوله: {لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة}".

أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس: "نهى الله تعالى عن الربا كأشد النهي، فاتقوا الربا والريبة، وكان يقول: الربا من الكبائر".

وقال قتادة: "إياكم وما خالط هذه البيوع من الربا فإن الله قد أوسع الحلال وأكثره وأطابه، ولا يلجئنكم إلى المعصية فاقة".

وقرأ أبو جعفر وشيبة: {مضعفة}.

قال الراغب: "إن قيل: لم قال: (أضعافا مضاعفة) فجمع بين اللفظتين؟

قيل: قال بعضهم ذلك للتأكيد.

وقيل مضاعفة من الضعف لا من الضعف، ومعناه ما تعدونه ضعفا هو ضعف، أي نقص، كقوله: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو} [الروم: ٣٩]، وقوله: {يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا} [البقرة: ٢٧٦]، ومن هذا أخذ بعض المحدثين:

زيادة شيب وهي نقص زيادتي... وقوة جسم وهي من قوتي ضعف".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ} [آل عمران: ١٣٠].

أي: احذروا عقابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك اجتناب الربا بجميع أشكاله.

قال ابن إسحاق: "أي: فأطيعوا".

قال سعيد بن جبير: "واتقوا الله في أمر الربا فلا تأكلوا".

قال الطبري: أي: "واتقوا الله أيها المؤمنون، في أمر الربا فلا تأكلوه، وفي غيره مما أمركم به أو نهاكم عنه، وأطيعوه فيه".

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٣٠]، "أي: لتكونوا من الفائزين".

=

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١).

=

أي: لأجل أن تفلحوا، وتفوزوا وتحصلوا على المطلوب، وهي الجنة غاية المطالب، وتنجو من المرهوب وهي النار.

قال سعيد: "يعني: لكي تفلحون".

قال الطبري: أي: "لتنجحوا فتنجوا من عقابه، وتدركوا ما رغَّبكم فيه من ثوابه والخلود في جنانه".

قال ابن إسحاق: "أي: لعلكم أن تنجوا مما حذركم من عذابه، وتدركوا ما رغبكم فيه من ثوابه".

قال الراغب: "إن قيل: ما اتصال هذه الآية بما قبلها؟

قيل: إنه لما نهى عن الكفر فيما تقدم، وقبح صورته، وحذر منه، وبين قدرته عليهم حث قال: (ولله ما في السماوات) نهى هاهنا عن تعاطي أفعال الكفرة".

والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

فتقوى الله سبب للفلاح (وقد تقدم فضائل وثمرات التقوى).

• قال الشنقيطي: (لعل) تأتي في القرآن بمعنيين، قال بعض العلماء: هي على الترجي، ولكن الترجي بحسب ما يظهر للناس، أما الله فهو عالم بما كان فلا يصدق عليه الترجي كقوله لموسى وهارون (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) أي: على رجائكما وعلم بني آدم القاصر، أما الله فهو عالم أنه لا يذكر ولا يخشى.

الثاني: ما قاله بعض العلماء: إن كل (لعل) في القرآن مشتملة معنى التعليل بمعنى (لأجل) وعليه فـ (لعلكم تذكرون)، لأجل أن تتذكروا وتتعظوا بآياتنا وغرائب صنعنا وعجائبنا.

{وَاتَّقُوا النَّار الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} أَنْ تُعَذَّبُوا بها[١].

---

(١) قوله تعالى: {وَاتَّقُوا النَّارَ} [آل عمران: ١٣١].

أي فخافوا النار واتقوها واحذروها فإنها دار الكافرين، واجعلوا بينكم وبين عذابها وقاية، والوقاية من النار تكون بالإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر.

قال الطبري: أي: "واتقوا، أيها المؤمنون، النارَ أن تصلوْها بأكلكم الربا بعد نهيي إياكم عنه".

قوله تعالى: {الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٣١]، أي: "التي هيئت للكافرين".

قال محمد بن إسحاق: "أي: التي جعلت دارا لمن كفر بي".

قال السمرقندي: "يعني: خُلقت وهيئت للكافرين".

قال مقاتل بن حيان: "من أكل الربا فلم ينته فله النار".

قال الطبري: أي: "التي أعددتها لمن كفر بي، فتدخلوا مَدْخَلَهم بعد إيمانكم بي، بخلافكم أمري، وتركُكم طاعتي".

قال سعيد بن جبير: "فخوف آكل الربا من المؤمنين بالنار التي أعدت للكافرين".

عن معاوية بن قرة: "كان الناس يتأولون هذه الآية: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين}: اتقوا أن لا أعذبكم بذنوبكم في النار التي أعددتها للكافرين".

قال الثعلبي: "ثم خوفهم فقال: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين}، وفيه دليل على أن النار مخلوقة ردا على الجهمية، لأن المعدوم لا يكون معدا".

قال الراغب: "إعداد الشيء تهيئته قبل الحاجة إليه، وإنما أراد تقديره وإيجاده، فلا حاجة به تعالى إلى الإعداد، وأصله من: العد، وقولك: أعددت كذا لكذا، أي اعتبرت قدره بقدره".

ويجدر القول بأن المعتزلة يرون: أنه "من أتى بالكبيرة ومات عليها فإنه يخلد في =

=

النار كالكافر، فإنه وعد لأكل الربا النار كما وعد الكفار. وقال أكثر أهل العلم والتفسير: هذا الوعيد لمن استحل الربا ومن استحل الربا فإنه يكفر ويصير إلى النار. ويقال: معناه اتقوا العمل الذي ينزع منكم الإيمان فتستوجبوا النار، لأن من الذنوب ما يستوجب به نزع الإيمان ويخاف عليه، فمن ذلك عقوق الوالدين".

وإن قيل: "ما وجه ذكر: {اتقوا النار}، بعد قوله: {اتقوا الله}؟

قيل: قد تقدم أن قوله: {اتقوا الله} يقال باعتبار ذاته، واتقوا النار باعتبار عقابه، فالأول للأولياء الأصفياء، ولذلك وصله بالفلاح الذي هو أعلى درجة الثواب، والثاني للمذنبين، فلذلك وصله بالرحمة، ولما كانت المنزلة الأولى لا تحصل إلا لمن حصلت له المنزلة الثانية، حث كافة الناس على الاستعانة بتقوى عقوبته، والطاعة له ولرسوله في ترك الربا وغيره من المعاصي؛ ليصلوا إلى الرحمة ذريعة إلى الفلاح".

وإن قيل: "الفلاح لا يخرج من أن يكون رحمة؟

قيل: صحيح، ولكن الرحمة أعم من الفلاح، فكل فلاح رحمة، وليس كل رحمة فلاحا، ومن قال في قوله: {أعدت للكافرين} دلالة أن لا فاسق فيها، فليس باستدلال يوجب الركون إليه، لأن ما يصح أن يشترك فيه أقوام إذا قيل: أعد لفلان. فليس فيه أنه لم يعد لغيره. ثم قد ثبت أن النار دركات، فأكثر ما في ذلك أن النار المعدة للكافر ليست للفاسق".

وقد أمر الله باتقائها في آيات كثيرة:

فقال تعالى (واتقوا النار التي أعدت للكافرين).

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة).

وقال تعالى (فأنذرتكم نارا تلظى).

=

=

وقال تعالى (والصبح إذا أسفر. إنها لإحدى الكبر. نذيرا للبشر) قال الحسن البصري: والله ما أنذر العباد بشيء قط أدهى منها.

وقال ﷺ (اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة) متفق عليه.

واتقاء النار يكون: بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه.

• قوله تعالى (فاتقوا النار) ينبغي على المسلم أن يحذر من النار وأن يتقيها كما أمر الله عز وجل.

فقد أمر الله باتقائها كما في هذه الآية.

وأمر ﷺ بالاستعاذة منها. كما قال ﷺ (استعيذوا بالله من عذاب جهنم) متفق عليه.

وكان ﷺ يقول في صلاته (اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم) متفق عليه.

ومن صفات عباد الله الخوف منها، كما قال تعالى (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما).

(تنبيه): اعلم أنه لم يزل أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وأهل السنة، والحديث قاطبة. وفقهاء الإسلام، وأهل التصوف والزهد، على اعتقاد أن النار مخلوقة موجودة الآن، مستندين في ذلك إلى نصوص الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم،....، فإنهم دعوا الأمم إليها، وأخبروا بها، إلى أن نبغت نابغة من أهل البدع والأهواء فأنكرت أن تكون الآن مخلوقة موجودة، وقالت بل الله ينشئها يوم المعاد.

وأن خلق النار قبل الجزاء عبث فإنها تصير معطلة مددًا متطاولة ليس فيها سكانها؛ فردوا من النصوص الأصول والفروع، وضللوا كل من خالف بدعتهم هذه بما لا يسمن ولا يغني من جوع. ولهذا صار السلف الصالح ومن نحا نحوهم يذكرون في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان الآن موجودتان في الحال، ويذكر من صنف

=

=

في المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث كافة لا يختلفون فيها، منهم أبو الحسن الأشعري إمام الأشاعرة في كتابه (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين).

وقد ذكر الله تعالى النار في كتابه في مواضع كثيرة يتعسر حدها ويفوت عدها ووصفها. وأخبر بها على لسان نبيه ﷺ ونعتها فقال عز من قال فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [البقرة: ٢٤] وقال إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا [الكهف: ٢٩].

وقال إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا [الكهف: ١٠٢] وقال بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا [الفرقان: ١١] وقال تعالى أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا [نوح: ٢٥] وقال وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [الفتح: ٦] وقال وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ [الملك: ٥] وقال النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا [غافر: ٤٦] إلى غير ذلك من الأدلة القطعية التي كلها صيغ موضوعة للمعنى حقيقة فلا وجه للعدول عنها إلى المجازات إلا بصريح آية أو صحيح دلالة وأنى لهم ذلك؟

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة). وفيهما أيضًا أن النبي ﷺ: (رأى في صلاة الكسوف النار فلم ير منظر أفظع من ذلك) وفي البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: (اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء) وفيه دلالة على وجودها حال اطلاعه، ورواه الترمذي والنسائي أيضًا.

وفي الصحيح (باب صفة النار وأنها مخلوقة الآن) وعن أبي ذر عن النبي ﷺ (أبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال

=

=

رسول الله ﷺ: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير) رواه البخاري أي من ذلك التنفس.

وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله ﷺ: (الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء) رواه البخاري وفي رواية (من فور جهنم) رواه عن رافع بن خديج. وكل ذلك يفيد وجود النار الآن، وفي مسند أحمد وسنن أبي داود والنسائي من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما: (ولقد أدنيت النار مني حتى لقد جعلت أتقيها خشية أن تغشاكم) الحديث وفي صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ: قال (لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال رأيت الجنة والنار).

وفي مسند أحمد ومسلم والسنن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، قال: فرجع إليه وقال: فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحفت بالمكاره، فقال: ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها. قال فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد، قال اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فرجع إليه: فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها). قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

وفي الصحيحين من حديثه أيضًا يرفعه: (حجبت الجنة بالمكاره، وحجبت النار بالشهوات) وفي الباب أحاديث كثيرة، وقال الشيخ أحمد ولي الله المحدث

=

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)

{وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون}[1].

=

الدهلوي في عقائده: (الجنة والنار حق، وهما مخلوقتان اليوم، باقيتان إلى يوم القيامة) انتهى، ونحوه ومثله في الكتب الأخرى المؤلفة في أصول الدين.

(١) قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} [آل عمران: ١٣٢]، "أي اطيعوا الله ورسوله".

قال سعيد بن جبير: "يعني: في تحريم الربا".

والجملة هنا معطوفة على ما سبق، وقوله: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ} الطاعة هي موافقة الأمر، فعلًا للمأمور وتركًا للمحظور، فمن ترك مأمورًا به فليس بطائع، ومن فعل منهيًا عنه فليس بطائع، وأصلها من الطوع وهو الانقياد، ومنه قولهم: هذه ناقة طوع أي منقادة لقائدها لا تستعصي عليه.

{وَالرَّسُولَ}، "ال" فيه للعهد؛ لأن هذا الخطاب موجَّه لهذه إلَّا. وهذه الأمة رسولها واحد وهو محمَّد ﷺ. فتكون "ال" هنا للعهد الذهني. وذلك أن العهد ثلاثة أنواع: ذهني، وذكري، وحضوري، فإن كانت "ال" تشير إلى شيء مذكور فهي للعهد الذكري مثل قوله تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} [المزمل: ١٥، ١٦]، وإن كانت تشير إلى شيء حاضر فهي للعهد الحضوري مثل قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة: ٣] وهكذا كل "ال" تأتي بعد اسم الإشارة فهي للعهد الحضوري مثل: هذا الرجل، هذا الإنسان وما أشبهه. والثالث العهد الذهني الذي يكون معلومًا بالذهن، فهنا الرسول هو محمَّد ﷺ، وهو معهود ذهنًا.

قال الطبري: أي: "وأطيعوا الله، أيها المؤمنون، فيما نهاكم عنه من أكل الربا وغيره من الأشياء، وفيما أمركم به الرسول. يقول: وأطيعوا الرسول أيضًا كذلك".

=

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣).

{وَسَارِعُوا} بِوَاوٍ وَدُونَهَا {إِلَى مَغْفِرَة مِنْ رَبِّكُمْ وجنة عرضها السماوات وَالْأَرْض} أَيْ كَعَرْضِهِمَا لَوْ وُصِلَتْ إحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى وَالْعَرْض السِّعَة {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} الله بِعَمَلِ الطَّاعَات وترك المعاصي.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤).

=

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران: ١٣٢]، أي: "لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله".

(لعل) هنا للتعليل وليست للترجي، ولعلَّ تأتي كما مرَّ علينا كثيرًا للتعليل وللإشفاق، وللترجي وللتمني أحيانًا، والفرق بين التمني والترجي أن الترجي فيما يرجى حصوله، والتمني فيما لا يرجى حصوله إما لعسره وإما لتعذره، وهنا للتعليل يعني: إذا أطعتم الله والرسول حصلت لكم الرحمة، والرحمة يكون بها حصول المطلوب وزوال المكروه، وإذا قرنت بالمغفرة صارت المغفرة لزوال المكروه، والرحمة لحصول المطلوب، أي لعلكم تكونون في رحمة الله التي بها النجاة وحصول الثواب والأجر الكثير.

قال سعيد بن جبير: "يعني: لكي ترحمون فلا تعذبون".

قال الطبري: "لترحموا فلا تعذبوا".

وقد أخرج الطبري: عن ابن إسحاق: {وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون}، معاتبة للذين عصوْا رسوله حين أمرهم بالذي أمرهم به في ذلك اليوم وفي غيره - يعني: في يوم أُحُد".

{الَّـذِينَ يُنْفِقُـونَ} فِـي طَاعَـة الله {فِـي الـسَّرَّاء وَالـضَّرَّاء} الْيُـسْر وَالْعُـسْر {وَالْكَـاظِمِينَ الْغَـيْظ} الْكَـافِينَ عَـنْ إمْـضَائِهِ مَـعَ الْقُـدْرَة {وَالْعَـافِينَ عَـنْ النَّـاس} مِمَّنْ ظَلَمَهُـمْ أَيْ التَّـارِكِينَ عُقُـوبَتهمْ {وَاَللهُ يُحِـبّ الْمُحْـسِنِينَ} بِهَـذِهِ الْأَفْعَـال أَيْ يُثِيبهُمْ(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عطاء: أن المسلمين قالوا للنبي ﷺ: بنو إسرائيل كانوا أكرم على الله منا؛ كانوا إذا أذنب أحدهم أصبحت كفارة ذنبه في عتبة بابه مكتوبة: اجدع أذنك، افعـل كـذا، فسكت النبي ﷺ؛ فنزل: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}؛ فقال النبي ﷺ: "ألا أدلكم؟ ألا أخبركم بخير من ذلكم؟ "؛ فقرأ هذه الآيات.

أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٢/ ٦٢) -: ثني حجاج بن محمد المصيصي، وإسحاق بن راهويه في "تفسيره" -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٨٢) -، وعبد بن حميد في "تفسيره"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٥٤) كلاهما قال: أنا روح بن عبادة نا محمد بن عبد الملك بن جريج كلاهما [حجاج ومحمد] عن ابن جريج عن عطاء به.

قال الحافظ في "العجاب" (٢/ ٧٥٤): "وهذا سند قوي إلى عطاء".

* قوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} [آل عمران: ١٣٣]، " أي: بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتثال أوامره".

قال الطبري: أي: "وبادروا وسابقوا إلى ما يستر عليكم ذنوبكم من رحمته، وما يغطيها عليكم من عفوه عن عقوبتكم عليها".

عن سعيد: "{وسارعوا}، يقول: سارعوا بالأعمال الصالحة"، " {إلى مغفرة من ربكم}، قال: لذنوبكم".

قال ابن الجوزي: ومعنى الآية: بادروا إلى ما يوجب المغفرة.

=

=

وقال الرازي: في الكلام حذف والمعنى: وسارعوا إلى ما يوجب مغفرة من ربكم ولا شك أن الموجب للمغفرة ليس إلا فعل المأمورات وترك المنهيات، فكان هذا أمرا بالمسارعة إلى فعل المأمورات وترك المنهيات.

وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية مقدمة على التحلية.

قوله تعالى: {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} [آل عمران: ١٣٣]، " أي: وإلى جنة واسعة عرضها السماء والأرض".

تقديره كعرض فحذف المضاف؛ كقوله (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أي إلا كخلق نفس واحدة وبعثها، ونظيره في سورة الحديد (وجنة عرضها كعرض السمآء والأرض). (تفسير القرطبي).

قال ابن كثير: وقد قيل: إن معنى قوله (عرضها السماوات والأرض) تنبيها على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة (بطائنها من إستبرق) أي: فما ظنك بالظهائر؟

وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفها عرش الرحمن)

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) الآية.

قال القرطبي: قوله تعالى (عرضها السماوات والأرض) واختلف العلماء في تأويله؛ فقال ابن عباس: تقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض؛ فذلك عرض الجنة، ولا يعلم طولها إلا الله.

وهذا قول الجمهور، وذلك لا ينكر؛ فإن في حديث أبي ذر عن النبي ﷺ (ما

=

=

السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كدراهم ألقيت في فلاة من الأرض وما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض) فهذه مخلوقات أعظم بكثير جدا من السموات والأرض، وقدرة الله أعظم من ذلك كله.

قال سعيد بن جبير: "يعني عرض سبع سموات وسبع أرضين لو لصق بعضهن إلى بعض فالجنة في عرضهن".

قال ابن عباس: "تُقرن السموات السبع والأرضون السبع، كما تُقرن الثياب بعضها إلى بعض، فذاك عرض الجنة".

وفي رواية ابن أبي حاتم عن كريب قال: "أرسلني ابن عباس إلى رجل من أهل الكتاب أسأله عن هذه الآية جنة عرضها السماوات والأرض قال: فأخرج أسفار موسى فجعل ينظر قال: تلفق كما يلفق الثوب، وأما طولها فلا يقدر قدره إلا الله"، وروي عن يزيد بن أبي مالك نحو ذلك.

والله تعالى وصف عرض الجنة بالسموات والأرضين، أي: عرضها بعرض السموات والأرض، تشبيها به في السعة والعظم، كما قيل: {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة لقمان: ٢٨]، يعني: إلا كبعث نفس واحدة، وكما قال شقيق بن جزء بن رياح الباهلي:

كَأَنَّ عَذِيرَهُمْ بِجَنُوب سِلَّى... نَعَامٌ قَاقَ فِي بَلَدٍ قِفَارِ

أي: عذيرُ نعام، وكما قال ذوالخرق الطهوي:

حَسِبتَ بُغَامَ رَاحِلَتِي عَنَاقًا... وَمَا هي، وَيْبَ غَيْرِكَ بالعَنَاقِ

يريد صوت عناق.

وعن طارق بن شهاب قال: "جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال: تقولون: {جنة عرضها السموات والأرض}، أين تكون النار؟ فقال له عمر: أرأيت النهار إذا جاء

=

=

أين يكون الليل؟ أرأيت الليل إذا جاء، أين يكون النهار؟ فقال: إنه لمثلها في التوراة، فقال له صاحبه: لم أخبرته؟ فقال له صاحبه: دعه، إنه بكلٍّ موقنٌ". وروي عن ابن عباس نحو ذلك.

قال ابن عثيمين: "الآية لا تدل على أن الجنة ملأت السماوات والأرض وصارت في محلها، بل تدل على أن عرضها عرض السماوات والأرض وإن كانت هي فوقهم، ولذلك نقول أن الجنة فوق السماوات والأرض كلها، كما ثبت عن النبي -ﷺ- «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقها أو وفوقُها-روي بالوجهين- عرش الرحمن»، وهذا يدل أن الجنة فوق السماوات، وأما النار فهي أسفل السافلين، وعلى هذا فلايكون في الآية إشكالا اطلاقا، ويحتمل أن تقول: إن هذا اليهودي أراد أن يلبس ويشبّه في القرآن ويتبع ما تشابه، وإن النبي -ﷺ- -إذا صحّ الحديث- أجابه على وجه يبهت فيه ولا يتكلم على مقتضى عقله، فقال: «أين الليل إذا جاء النهار»".

قوله تعالى: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣]، "أي هيئت للمتقين لله".

قال ابن إسحاق: "أي: دارًا لمن أطاعني وأطاع رسولي".

قال ابن كثير: "أي: كما أعدّت النار للكافرين".

قال الطبري: أي: "أعدها الله للمتقين، الذين اتقوا الله فأطاعوه فيما أمرهم ونهاهم، فلم يتعدوا حدوده، ولم يقصِّروا في واجب حقه عليهم فيضيِّعوه".

قال الزجاج: "أي لمن اتقى المحارم، وروي عن النبي ﷺ «أن بين مصراعي باب الجنة مسيرة أربعين عاما»، وليأتين عليه يوم يزدحم عليه الناس؛ كما تزدحم الإبل وردت خمصا. ظماء".

قال سعيد بن جبير: "{أعدت للمتقين}، يعني: الذين يتقون الشرك".

قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ} [آل عمران: ١٣٤]، "أي: الذين

=

=

يبذلون أموالهم في في الشدة ولرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال كما قال تعالى (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)".

قال ابن عباس: "يقول: في العسر واليسر". وروي عن سعيد بن جبير مثل ذلك.

قال ابن كثير: "أي: في الشدة والرخاء، والمَنْشَط والمَكْرَه، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً} [البقرة: ٢٧٤]، والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمْر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مَرَاضِيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر".

قال الطبري: أي: "أعدت الجنة التي عرضها السموات والأرض للمتقين، وهم المنفقون أموالهم في سبيل الله، إما في صرفه على محتاج، وإما في تقوية مُضعِف على النهوض لجهاده في سبيل الله".

قال ابن الجوزي: ومعنى الآية: أنهم رغبوا في معاملة الله، فلم يبطرهم الرخاء فينسيهم، ولم تمنعهم الضراء فيبخلوا.

قال ابن عاشور: قوله تعالى (في السراء والضراء) وكأن الجمع بينهما هنا لأن السراء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة موجدة.

فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال، الذي هو عزيز على النفس، قد صارت لهم خلقا لا يحجبهم عنه

حاجب ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة.

قال الرازي: وإنما افتتح الله بذكر الإنفاق لأنه طاعة شاقة، ولأنه كان في ذلك الوقت أشرف الطاعات لأجل الحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

قوله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ} [آل عمران: ١٣٤]، أي: والذين "يمسكون

=

=

غيظهم مع قدرتهم على الانتقام".

قال مقاتل بن سليمان: "وهو الرجل يغضب في أمر فإذا فعله وقع في معصية، فيكظم الغيظ ويغفر".

قال ابن كثير: "أي: إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى: كتموه فلم يعملوه".

قال الطبري: أي: "والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه يقال منه: كظم فلان غيظه، إذا تجرَّعه، فحفظ نفسه من أن تمضي ما هي قادرةٌ على إمضائه، باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها، وأصل ذلك من: كظم القربة، يقال منه: كظمتُ القربة، إذا ملأتها ماء، وفلان كظيمٌ ومكظومٌ، إذا كان ممتلئًا غمًّا وحزنًا. ومنه قول الله عز وجل، {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} [سورة يوسف: ٨٤] يعني: ممتلئ من الحزن".

عن أبي هريرة في قوله: {والكاظمين الغيظ}: أن النبي ﷺ قال: "من كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاذه، ملأه الله أمنًا وإيمانًا".

قال ابن عباس: "فـ {الكاظمين الغيظ}، كقوله: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [سورة الشورى: ٣٧]، يغضبون في الأمر لو وقعوا به كان حرامًا، فيغفرون ويعفون، يلتمسون بذلك وجه الله".

قوله تعالى: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [آل عمران: ١٣٤]، أي: "والصافحين عن الناس عقوبةَ ذنوبهم إليهم وهم على الانتقام منهم قادرون".

قال ابن كثير: أي: "وعَفَوْا مع ذلك عمن أساء إليهم... أي: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم مَوجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: {وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} فهذا من مقامات الإحسان".

قال ابن عباس: "و {العافين عن الناس}، كقوله: {وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ} إلى (أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ) [سورة النور: ٢٢]، يقول: لا تقسموا

=

=

على أن لا تعطوهم من النفقة شيئًا واعفوا واصفحوا".

وروي عن الربيع بن أنس، وأبي العالية، ومكحول: {والعافين عن الناس}، قال: "عن المملوكين".

وقال زيد بن أسلم، ومقاتل: "عمن ظلمهم وأساء إليهم".

ورد في بعض الآثار: "يقول الله تعالى: ابنَ آدَمَ، اذْكُرْنِي إذَا غَضِبْتَ، أَذْكُرُكَ إذَا غَضِبْتُ، فلا أمحقك فيمن أمحق".

وفي الحديث: "ثلاث أُقْسِمُ عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عِزا، ومن تواضع لله رفعه الله".

وروى الحاكم في مستدركه من حديث موسى بن عُقبة، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة القُرشي، عن عُبَادة بن الصامت، عن أبي بن كعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: "من سره أن يُشْرَف له البنيان، وترفع له الدرجات فَلْيَعْفُ عمن ظلمه، ويعط من حرمه، ويَصِلْ من قطعه".

قوله تعالى: {وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٣٤]، أي: والله" يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها".

الذين يحسنون في معاملتهم مع الله، ومع الخلق.

وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال، ويدخل فيه الإحسان بالجاه، وبالشفاعة ونحو ذلك، وتعليم العلم النافع، وقضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم، وإزالة شدائدهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم.

ويدخل في ذلك الإحسان في عبادة الله، إخلاصا لله تعالى، ومتابعة للرسول ﷺ، كما قال تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) وقال تعالى (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه).

=

=

قال ابن إسحاق: "أي: وذلك الإحسان، وأنا أحب من عمل به".

روي عن إسحاق، قال: "وحدثت عن ابن حيان، في قوله عز وجل: {الذين ينفقون} قرأ حتى {والله يحب المحسنين} قال: يغيظون في الأمر، فيغفرون، ويعفون عن الناس، ومن يفعل ذلك فهو محسن، {والله يحب المحسنين}".

قال الطبري: أي: "فإن الله يحب من عمل بهذه الأمور التي وصف أنه أعدَّ للعاملين بها الجنة التي عرضُها السموات والأرض، والعاملون بها هم احسنون، وإحسانهم، هو عملهم بها".

عن أبي رجاء، عن الحسن قال: "يقال يوم القيامة: ليقم من كان له على الله أجر. فما يقوم إلا إنسان عفا، ثم قرأ هذه الآية: {والعافين عن الناس والله يحب المحسنين}".

نقل الثعلبي عن السقطي: "الإحسان أن يحسن وقت الإمكان، فليس في كل وقت يمكنك الإحسان".

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده "عن مقاتل بن حيان: {والعافين عن الناس}، ومن فعل ذلك وهو محسن {والله يحب المحسنين}، بلغني أن النبي ﷺ قال عند ذلك: إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصمه الله، وقد كانوا كثيرا في الأمم التي مضت".

وقال مقاتل بن سليمان: "ومن يفعل هذا فقد أحسن فذلك قوله: {والله يحب المحسنين}، فقال النبي -ﷺ-: إني أرى هؤلاء في أمتي قليلا، وكانوا أكثر في الأمم الخالية".

فالإحسان في عبادة الله: أن تقوم بالعمل متقنا فيه إخلاصا ومتابعة.

والإحسان إلى المخلوق: بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.

=

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥).

{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَة} ذَنْبًا قَبِيحًا كَالزِّنَا {أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسهمْ} بِمَا دُونه كَالْقُبْلَةِ {ذَكَرُوا الله} أَيْ وَعِيده {فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ} أَيْ لَا {يَغْفِر الذُّنُوب إِلَّا الله وَلَمْ يُصِرُّوا} يُدَاوِمُوا {عَلَى مَا فَعَلُوا} بَلْ أَقْلَعُوا عَنْهُ {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أَنَّ الَّذِي أَتَوْهُ مَعْصِيَة.

=

قال السعدي: والإحسان نوعان:

الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق: فسرها النبي ﷺ بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وأما الإحسان إلى المخلوق: فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده. (تفسير السعدي).

(تنبيه) تأويل المصنف لصفة المحبة بالثواب هو جريا منه رَحِمَهُ اللهُ على مذهب الأشاعرة وهو مذهب باطل مخالف لمذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة، وسيأتي بيان الحق بتوسع في ذلك تحت الآية رقم (١٤٦) من نفس هذه السورة المباركة.

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦).

{أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَة مِنْ رَبّهمْ وَجَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا} حَال مُقَدَّرَة أَيْ مُقَدَّرِينَ الْخُلُود فِيهَا إذَا دَخَلُوهَا {وَنِعْمَ أَجْر الْعَامِلِينَ} بِالطَّاعَةِ هَذَا الْأَجْر[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} [آل عمران: ١٣٥]، أي: والذين إذا ارتكبوا ذنبًا قبيحًا كالكبائر".

قيل: هذا معطوف على (المتقين) وقيل: هذا استئناف، وعلى هذا القول فإن هؤلاء صنف آخر.

قال الزمخشري: أي: "فعلة متزايدة القبح".

قال ابن كثير: أي: "والذين إذا صدر منهم ذنب".

قال الثعلبي: "يعني قبيحة خارجة عما أذن الله فيه، وأصل الفحش: القبيح والخروج عن الحد".

قال المراغي: "أي والذين إذا فعلوا من القبيح ما يتعدى أثره إلى غيره كالغيبة ونحوها".

وفي معنى "الفاحشة" ها هنا أقوال:

أحدهما: أنها الزنا، قاله جابر، والسدي، ومقاتل.

والثاني: الكبائر من المعاصي.

والثالث: أنها الظلم. قاله إبراهيم النخعي.

والرابع: أنها طوافهم بالبيت عراة. وهذا قول زيد بن اسلم.

قال الطبري: "ومعنى الفاحشة، الفعلة القبيحة الخارجة عما أَذِن الله عز وجل فيه. وأصل الفحش: القبح، والخروج عن الحد والمقدار في كل شيء. ومنه قيل =

=

للطويل المفرط الطول: إنه لفاحش الطول، يراد به: قبيح الطول، خارج عن المقدار المستحسن. ومنه قيل للكلام القبيح غير القصد: كلام فاحش، وقيل للمتكلم به: أفحش في كلامه، إذا نطق بفُحش".

قوله تعالى: {أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [آل عمران: ١٣٥]، أي: "أو ظلموا انفسهم بارتكاب المعاصي وتعريضها للعقاب".

قيل: الفاحشة الزنا، وظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة.

وقيل: الفاحشة الزنا، وظلم النفس سائر المعاصي.

وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة.

وقد جاء استعمال الفاحشة في القرآن بما قبح من الذنوب:

كالزنا: قال تعالى (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا).

واللواط: قال تعالى (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين).

ونكاح المحارم: قال تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا).

وظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب.

قال محمد بن إسحاق (ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ): "أي: بمعصية".

قال مقاتل بن حيان: أي: "أصابوا ذنوبا".

قال مقاتل بن سليمان: "ما كان نال منها دون الزنا".

قال الأصم: "{فعلوا فاحشة}: الكبائر {أو ظلموا أنفسهم}: بالصغائر".

قال الثعلبي: "وقيل: فعلوا فاحشة فعلا وظلموا أنفسهم قولا".

قال الزمخشري: أي: "أو أذنبوا أى ذنب كان مما يؤاخذون به".

قال الواحدي: "يعني: ما دون الزِّنا من قُبلةٍ أو لمسةٍ أو نظرٍ".

=

=

قال إبراهيم النخعي: "الظلم من الفاحشة، والفاحشة من الظلم".

قال الطبري: "يعني به: فعلوا بأنفسهم غير الذي كان ينبغي لهم أن يفعلوا بها. والذي فعلوا من ذلك، ركوبهم من معصية الله ما أوجبوا لها به عقوبته".

قال البيضاوي: "بأن أذنبوا أي ذنب كان وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة، ولعل الفاحشة ما يتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك".

قال المراغي: يعني: "أو فعلوا ذنبا يكون مقصورا عليهم كشرب الخمر ونحوه".

قال الماتريدي: "ظلموا انفسهم، حيث لم يسلموا أنفسهم لله خالصين، والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، فإذا لم يسلموا له - وضعوا أنفسهم في غير موضعها، لذلك صاروا ظلمة أنفسهم".

قوله تعالى: {ذَكَرُوا اللهَ} [آل عمران: ١٣٥]، أي: "ذكروا وعيد الله على ما أتوا من معصيتهم إياه".

قال مقاتل بن حيان: "ذكروا الله عند تلك الذنوب والفاحشة".

قال محمد بن إسحاق: "ذكروا نهي الله عنها وما حرم عليهم منها".

قال الواحدي: "أيْ: ذكروا عقاب الله".

قوله تعالى: {فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} [آل عمران: ١٣٥]، أي: "طلبوا الغفران لأجل ذنوبهم".

قال الطبري: أي: "فسألوا ربهم أن يستُر عليهم ذنوبهم بصفحه لهم عن العقوبة عليها".

قال ابن كثير: "أي: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقْلِعِين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه".

وقد قال ﷺ (وأتبع السيئة الحسنة تمحها).

قال ابن رجب: ولما كان العبد مأمورا بالتقوى في السر والعلانية مع أنه لابد أن

=

=

يقع منه أحيانا تفريط في التقوى، إما بترك بعض المأمورات، أو بارتكاب بعض المحظورات، فأمره أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة وهو أن يتبعها بالحسنة، قال الله (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود (أن رجلا أصاب من امرأة قبلة، ثم أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فسكت النبي ﷺ حتى نزلت هذه الآية، فدعاه فقرأها عليه، فقال رجل: هذا له خاصة؟ قال: (بل للناس عامة). (جامع العلوم والحكم).

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (إن رجلا أذنب ذنبا، فقال: رب إني أذنبت ذنبا فاغفره. فقال الله عبدي عمل ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنبا آخر فقال: رب، إني عملت ذنبا فاغفره. فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم عمل ذنبا آخر فقال: رب، إني عملت ذنبا فاغفره لي. فقال عز وجل: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنبا آخر فقال: رب، إني عملت ذنبا فاغفره فقال عز وجل: عبدي علم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء) متفق عليه.

وعن علي. قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيري استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني وصدق أبو بكر -أنه سمع رسول الله ﷺ قال (ما من رجل يذنب ذنبا فيتوضأ فيحسن -الوضوء -قال مسعر: فيصلي. وقال سفيان: ثم يصلي ركعتين -فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له) رواه الترمذي.

قال ابن رجب: قال عمر بن عبد العزيز: أيها الناس من ألم بذنب فليستغفر الله وليتب، فإن عاد فليستغفر الله وليتب، فإن عاد فليستغفر وليتب، فإنما هي خطايا

=

=

مطوقة في أعناق الرجال، وإن الهلاك في الإصرار عليها.

ومعنى هذا: أن العبد لا بد أن يفعل ما قدر عليه من الذنوب، كما قال النبي ﷺ: كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة ...، ولكن الله جعل للعبد مخرجا مما وقع فيه من الذنوب، ومحاه بالتوبة والاستغفار، فإن فعل فقد تخلص من شر الذنوب، وإن أصر على الذنب هلك. (جامع العلوم الحكم).

وكما يبغض الله تعالى المعصية ويتوعد عليها بالذنب: فإنه لا يحب أن يقنط عباده من رحمته عز وجل، وهو يحب أن يستغفره العاصي ويتوب إليه، ويود الشيطان أن لو يقع يأس وقنوط من العبد العاصي حتى يصده عن التوبة والإنابة.

قيل للحسن البصري: ألا يستحيى أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود، ثم يستغفر ثم يعود؟ فقال: ود الشيطان لو ظفر منكم بهذا، فلا تملوا من الاستغفار.

قوله تعالى: {وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ} [آل عمران: ١٣٥]، أي: "وأي أحد يغفر الذنوب؛ ما يغفرها إلا الله".

قال محمد بن إسحاق: "وعرفوا أنه لا يغفر الذنوب إلا هو".

قال الصابوني: أي: "لا يغفر الذنوب إلا الله".

عن الأسود بن سَرِيع؛ "أن النبي ﷺ أتي بأسير فقال: اللهمُ إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال النبي ﷺ: «عَرَفَ الْحقَّ لأَهْلِهِ»".

قال الخازن: وصف نفسه بسعة الرحمة وقرب المغفرة وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا إلى فضله وكرمه وإحسانه وعفوه ورحمته وفيه تنبيه على أن العبد لا يطلب المغفرة إلا منه وأنه القادر على عقاب المذنب وكذلك هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه فثبت أنه لا يجوز طلب المغفرة إلا منه.

وقال النسفي: وفيه تطييب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعث عليها، وردع عن

=

=

اليأس والقنوط، وبيان لسعة رحمته وقرب مغفرته من التائب، وإشعار بأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم.

قوله تعالى: {وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا} [آل عمران: ١٣٥]، أي: "ولم يقيموا على ذنوبهم عامدين للمقام عليها".

فتابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية، ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه.

قال مجاهد: "لم يمضوا على المعصية".

قال مقاتل: لم "يقيموا".

قال الحسن: "إتيان الذنب عمدا إصرار حتى يتوب".

وقال السدي: "فيسكتوا ولا يستغفروا".

وقال عطاء: "يغمضوا".

قال محمد بن إسحاق: "أي لم يقيموا على معصيتي، كفعل من أشرك بي فيما عملوا به من كفر بي".

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندنا، قول من قال: "الإصرار"، الإقامة على الذنب عامدا، وترك التوبة منه".

قال الواحدي: "أَيْ: لم يقيموا ولم يدوموا، بل أقرُّوا واستغفروا".

قال الزجاج: "الإصرار الإقامة على الشيء".

قال القرطبي: "الإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه".

قال الزمخشري: "الإصرار معناه: اعتزام الدوام على الأمر، وترك الإقلاع عنه، ومنه صر الدنانير: أي الربط عليها، ومنه قول أبي السمال قعنب العدوي: «علم الله أنها مني صرى»".

وقال سهل بن عبدالله: "والإصرار هو التسويف، والتسويف أن يقول: أتوب غدا،

=

=

وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غدا وغدا لا يملكه!".

وأصل "الإصرار": "الثبات على الشيء، قال الحطيئة: يصف الخيل:

عوابِسُ بالشُّعْثِ الكُماةِ إذا ابْتَغَوْا... عُلالَتَها بالمُحْصَداتِ أَصَرَّتِ

أي ثبتت على عدوها".

وقال قتادة: "إياكم والإصرار، فإنما هلك المصرون الماضون قدما قدما في معاصي الله، لا تنهاهم مخافة الله عن حرام حرمه الله، ولا يتوبون من ذنب أصابوه، حتى أتاهم الموت وهم على ذلك".

قوله تعالى: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٣٥]، أي: وهم يعلمون "أن الذي أتوه حرام ومعصية".

قال مقاتل: "أنها معصية".

قال السدي: "فيعلمون أنهم قد أذنبوا ثم أقاموا ولم يستغفروا".

قال عبدالله بن عبيد بن عمير: "وهم يعلمون إن تابوا، تاب الله عليهم".

قال ابن أبي نجيح: "{وهم يعلمون} أنه يغفر لمن استغفر ويتوب على من تاب".

قال محمد بن إسحاق: "{وهم يعلمون} ما حرمت عليهم من عبادة غيري".

قال الصابوني: أي: "وهم عالمون بقبحه".

قال الطبري: أي: "وهم يعلمون أنّ الله قد تقدم بالنهي عنها، وأوعد عليها العقوبةَ من ركبها".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ} [آل عمران: ١٣٦]، " أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب".

قال ميمون بن مهران: "وجبت لهم المغفرة".

قال ابن كثير: "أي: جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من الله".

=

=

عن سعيد بن جبير: في قول الله تعالى: {أولئك}، يعني: الذين فعلوا ما ذكر الله في هذه الآية".

أخرج ابن أبي حاتم عن عاصم، عن أبي عثمان: "أنه كان إذا تتلى هذه الآية: والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم إلى قوله: جزاؤهم مغفرة من ربهم قال: نعم ما جازاك على الذنب".

قوله تعالى: {وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [آل عمران: ١٣٦]، " أي: ولهم جنات تجري خلال أشجارها الأنهار".

قال مقاتل بن حيان: "جعل جزاؤهم جنات تجري من تحتها الأنهار".

قال الطبري: أي: "تجري خلال أشجارها الأنهار وفي أسافلها، جزاء لهم على صالح أعمالهم".

نقل الثعلبي عن شهر بن حوشب: "طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب".

وهذه الأنهار جاء تسميتها في قوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى).

قال ابن القيم: فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا.

فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته، وهذا من آيات الرب سبحانه وتعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها ويجريها في غير أخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو.

=

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧).

وَنَزَلَ فِي هَزِيمَة أُحُد {قَدْ خَلَتْ} مَضَتْ {مِنْ قَبْلكُمْ سُنَن} طَرَائِق فِي الْكُفَّار بِإِمْهَالِهِمْ ثُمَّ أَخْذهمْ {فَسِيرُوا} أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ {فِي الْأَرْض فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الْمُكَذِّبِينَ} الرُّسُل أَيْ آخِر أَمْرهمْ مِنْ الْهَلَاك فَلَا تَحْزَنُوا لِغَلَبَتِهِمْ فَأَنَا أُمْهِلهُمْ لِوَقْتِهِمْ.

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨).

{هَذَا} الْقُرْآن {بَيَان لِلنَّاسِ} كُلّهمْ {وَهُدًى} مِنْ الضَّلَالَة {وَمَوْعِظَة لِلْمُتَّقِينَ} مِنْهُمْ[1].

=

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} [آل عمران: ١٣٦]، أي: "ماكثين فيها أبدا".

قال الطبري: أي: "دائمي المقام في هذه الجنات التي وصفها".

قوله تعالى: {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران: ١٣٦]، "أي: نعمت الجنة جزاءً لمن أطاع الله".

قال ابن إسحاق: "أي: ثواب المطيعين".

قال مقاتل بن حيان: "أجر العاملين بطاعة الله الجنة".

قال الطبري: "يعني: ونعم جزاء العاملين لله، الجنات التي وصفها".

قال ابن كثير: "يمدح تعالى الجنة".

(١) قوله تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ} [آل عمران: ١٣٧]، أي: "قد مضت من قبلكم وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذبين".

يقول تعالى مخاطبا عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد، وقتل منهم سبعون (قد

=

=

خلت من قبلكم سنن) أي: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت لهم العاقبة لهم والدائرة على الكافرين.

عن مجاهد: "قوله: {قد خلت من قبلكم سنن} من الكفار والمؤمنين في الخير والشر".

قال مقاتل: "يعني عذاب الأمم الخالية فخوف هذه الأمم بعذاب الأمم ليعتبروا فيوحدوه".

قال محمد بن إسحاق: "أي: قد مضت مني وقائع نقمة، في أهل التكذيب لرسلي والشرك بي، في عاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، فرأوا مثلات قد مضت مني فيهم، ولمن كان على مثل ما هم عليه، مثل ذلك مني، وإن أمليت لهم، أي: لا تظنوا أن نقمتي انقطعت عن عدوكم وعدوي، للدولة التي أدلتهم بها عليكم، لأبتليكم بذلك، لأعلم ما عندكم".

قال ابن كثير: "يقول تعالى مخاطبا عباده المؤمنين الذين أُصِيبوا يومَ أُحُد، وقُتِل منهم سبعون: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ} أي: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين".

قال الطبري: أي: قد" مضت وسلفت منى فيمن كان قبلكم، يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به، من نحو قوم عاد وثمود وقوم هود وقوم لوط، وغيرهم من سُلاف الأمم قبلكم سنن، يعني: مثُلات سيرَ بها فيهم وفيمن كذَّبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهلَ التكذيب بهم، واستدراجي إياهم، حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجَّلته لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي، وأنزلتُ بساحتهم نِقَمي، فتركتهم لمن بعدهم أمثالا وعبرًا".

قال الزجاج: "معنى قد خلت قد مضت، ومعنى سنن أهل سنن أي أهل طرائق.

=

=

والسنة الطريقة، وقول الناس: فلان على السنة معناه على الطريقة، ولم يحتاجوا " أن يقولوا على السنة المستقيمة لأن في الكلام دليلا على ذلك، وهذا كقولنا " مؤمن " معناه مصدق وفي الكلام دليل على أنه مؤمن بأمور الله- عز وجل - التي أمر بالإيمان بها".

قال الرازي: المراد من الآية: قد انقضت من قبلكم سنن الله تعالى في الأمم السالفة، واختلفوا في ذلك، فالأكثرون من المفسرين على أن المراد سنن الهلاك والاستئصال بدليل قوله تعالى (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وذلك لأنهم خالفوا الأنبياء والرسل للحرص على الدنيا وطلب لذاتها، ثم انقرضوا ولم يبق من دنياهم أثر وبقي اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة عليهم، فرغب الله تعالى أمة محمد ﷺ في تأمل أحوال هؤلاء الماضين ليصير ذلك داعيا لهم الى الايمان بالله ورسله والاعراض عن الرياسة في الدنيا وطلب الجاه.

وقال الشوكاني: والمعنى: سيروا فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، فإنهم خالفوا رسلهم بالحرص على الدنيا ثم انقرضوا فلم يبق من دنياهم التي آثروها أثر، هذا قول أكثر المفسرين.

وقال ابن عاشور: والمعنى: قد مضت من قبلكم أحوال للأمم، جارية على طريقة واحدة، هي عادة الله في الخلق، وهي أن قوة الظالمين وعتوهم على الضعفاء أمر زائل، والعاقبة للمتقين المحقين.

قوله تعالى: {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [آل عمران: ١٣٧]، " أي: فسيروا في الأرض، فانظروا الحال التي قد انتهى بها الكاذبون".

فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين، بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، أفليس في هذا أعظم دليل وأكبر شاهد على صدق ما جاءت الرسل؟ (تفسير السعدي).

=

=

قال قتادة: "يقول: "بما متعهم في الدنيا قليلا، ثم صيرهم إلى النار".

قال الحسن: "فينظروا كيف عذب الله قوم نوح، وقوم لوط، وقوم صالح، والأمم التي عذب الله".

قال الزجاج: "المعنى: إنكم إذا سرتم في أسفاركم عرفتم أخبار قوم اهلكوا بتكذيبهم".

قال ابن أبي زمنين: "أي: كان عاقبتهم أن دمر الله عليهم، ثم صيرهم إلى النار؛ يحذرهم بذلك".

قال السمرقندي: "أي اقرءوا القرآن فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ لأن من لم يسافر فإنه لا يعرف ذلك، وأما من قرأ القرآن فإنه يعرف ذلك".

قال الطبري: أي: "فسيروا - أيها الظانّون، أنّ إدالتي مَنْ أدلت من أهل الشرك يوم أحُد على محمد وأصحابه، لغير استدراج مني لمن أشرك بي، وكفرَ برسلي، وخالف أمري - في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم، ممن كان على مثل الذي عليه هؤلاء المكذبون برسولي والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آل إليه غِبُّ خلافهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي، فتعلموا عند ذلك أنّ إدالتي من أدلت من المشركين على نبيي محمد وأصحابه بأحد، إنما هي استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم: من تعجيل العقوبة عليهم، أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولي".

قال المراغي: "أي فسيروا فى الأرض وتأملوا فيما حل بالأمم قبلكم ليحصل لكم العلم الصحيح المبنى على المشاهدة والاختبار، وتسترشدوا بذلك إلى أن المصارعة قد وقعت بين الحق والباطل فى الأمم السالفة، وانتهى أمرها إلى غلبة أهل الحق لأهل الباطل، وانتصارهم عليهم ما تمسكوا بالصبر والتقوى، ويدخل

=

=

فى ذلك اتباع ما أمر الله به من الاستعداد للحرب وإعداد العدة لقتال العدو كما أمر الله به فى قوله: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ}، وجرى ذلك على سنن مستقيمة وأسباب مطردة لا تغيير فيها ولا تبديل.

والسير فى الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم- نعم العون على معرفة تلك السنن والاعتبار بها، وقد نستفيد هذه الفائدة بالنظر فى كتب التاريخ التي دونها من ساروا فى الأرض، ورأوا آثار الذين خلوا، فتحصل لنا العظة والعبرة، ولكنها تكون دون اعتبار الذين يسيرون فى الأرض بأنفسهم، ويرون الآثار بأعينهم".

قال ابن عثيمين: "والمراد بالسير هنا، سير القلوب وسير الأقدام، أما سير القلوب فهو بالتفكر في عاقبة الأمم السابقة زمنا ومكانا".

والأمر في قوله: {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}، للإرشاد، للوقوف على ديار الهالكين الغابرين لتعتبروا.

قال القاسمي: "والأمر بالسير والنظر. لما أن لمشاهدة آثار المتقدمين أثرا في الاعتبار والروعة، أقوى من أثر السماع".

عن عباد بن منصور قال: "سألت الحسن عن قوله: فسيروا في الأرض قال: ألم تسيروا في الأرض؟".

وقد أمر الله تعالى في آيات كثيرة بالسير في الأرض للاعتبار والاتعاظ:

قال تعالى (فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين).

وقال تعالى (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون)

وقال تعالى (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا

=

=

أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).

وقال تعالى (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق).

• قال ابن عاشور: قوله تعالى (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أي: المكذبين برسل ربهم وأريد النظر في آثارهم ليحصل منه تحقق ما بلغ من أخبارهم، أو السؤال عن أسباب هلاكهم، وكيف كانوا أولي قوة، وكيف طغوا على المستضعفين، فاستأصلهم الله أو لتطمئن نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدة عيان، فإن للعيان بديع معنى لأن بلغتهم أخبار المكذبين، ومن المكذبين عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس، وكلهم في بلاد العرب يستطيعون مشاهدة آثارهم، وقد شهدها كثير منهم في أسفارهم. (تفسير ابن عاشور).

• قال ابن عاشور: فبين الله لهم أن الله جعل سنة هذا العامل أن تكون الأحوال فيه سجالا ومداولة، وذكرهم بأحوال الأمم الماضية، فقال (قد خلت من قبلكم سنن).

والله قادر على نصرهم، ولكن الحكمة اقتضت ذلك لئلا يغتر من يأتي بعدهم من المسلمين، فيحسب أن النصر حليفهم.

وقال القرطبي: هذا تسلية من الله تعالى للمؤمنين، والسنن جمع سنة وهي الطريق المستقيم.

قال مجاهد: المعنى (قد خلت من قبلكم سنن) يعني بالهلاك فيمن كذب قبلكم كعاد وثمود.

والعاقبة: آخر الأمر، وهذا في يوم أحد.

=

=

يقول فأنا أمهلهم وأملي لهم وأستدرجهم حتى يبلغ الكتاب أجله، يعني بنصرة النبي ﷺ والمؤمنين وهلاك أعدائهم الكافرين. (تفسير القرطبي).

قال ابن عرفة: السير في الأرض حسي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره.

وإنما أمر الله بالسير في الأرض دون مطالعة الكتب لأن في المخاطبين من كانوا أميين، ولأن المشاهدة تفيد من لم يقرأ علما وتقوي علم من قرأ التاريخ أو قص عليه.

قال ابن عاشور: وفي الآية دلالة على أهمية علم التاريخ لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها.

قوله تعالى: {هَـٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١٣٨]، " أي هذا الذي تقدم بيان للناس كافة".

قال عامر الشعبي: "بيان من العمى".

قيل: عنى بقوله (هذا) القرآن، وقيل: إنما أشير بقوله (هذا)، إلى قوله (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبه المكذبين).

قال الطبري: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: قوله (هذا) إشارة إلى ما تقدم هذه الآية من تذكير الله جل ثناؤه المؤمنين، وتعريفهم حدوده، وحضهم على لزوم طاعته والصبر على جهاد أعدائه وأعدائهم. لأن قوله (هذا)، إشارة إلى حاضر: إما مرئي وإما مسموع، وهو في هذا الموضع إلى حاضر مسموع من الآيات المتقدمة.

(بيان للناس) البيان: الإيضاح وكشف الحقائق الواقعة.

هذه الآية تدل على أن البيان عام لكل الناس، لكن جاءت آية تدل على أن البيان

=

=

خاص بالموقنين كقوله تعالى (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) ووجه الجمع: أن البيان عام لجميع الخلق، إلا أنه لما كان الانتفاع به خاصا بالموقنين خص في هذه الآية بهم، لأن ما لا نفع فيه كالعدم، ونظيرها قوله تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها) وقوله (إنما تنذر من اتبع الذكر) الآية، مع أنه منذر للأسود والأحمر، وإنما خص الإنذار بمن يخشى ومن يتبع الذكر لأنه المنتفع به.

قال محمد بن إسحاق: "هذا تفسير للناس إن قبلوه".

وقال قتادة: "وهو هذا القرآن، جعله الله بيانا للناس عامة، وهدى وموعظة للمتقين خاصة".

قال الجزائري: "أي: ما ذكر في الآيات بيان للناس به يتبينون الهدى من الضلال وما لازمهما من الفلاح، والخسران".

قال السعدي: "أي: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين".

قال المراغي: "وذلك يدحض ما وقع للمشركين والمنافقين من الشبهة بنحو قولهم لو كان محمد رسولا حقا لما غلب فى وقعة أحد، فهذا الهدى والبيان يرشد إلى أن سنن الله حاكمة على الأنبياء والرسل كما هى حاكمة على سائر خلقه، فما من قائد يخالفه جنده، ويتركون حماية الثّغر الذي يؤتون من قبله، ويخلون بين عدوهم وبين ظهورهم، والعدو مشرف عليهم، إلا كان جيشه عرضة للانكسار إذا كر العدو عليه- قطع خط الرجعة- ولا سيما إذا كان بعد فشل وتنازع، ومن ثم كان هذا البيان لجميع الناس، كلّ على قدر استعداده للفهم وقبول الحجة".

قوله تعالى: {وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٨]، أي: "وهدى وموعظة للمتقين منهم خاصة".

قال الصابوني: "أي وهداية لطريق الرشاد وموعظة وذكرى للمتقين خاصة، وإنما

=

=
خصّ المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به دون سائر الناس".
قال عامر الشعبي: "هدى من الضلالة، وموعظة من الجهل".
قال محمد بن إسحاق: "أي " نور وأدب للمتقين "، {للمتقين} " لمن أطاعني، وعرف أمري".
عن عباد بن منصور قال: "سألت الحسن عن قوله: {وهدى}، قال: هو القرآن".
وعن السدي: "قوله: {هدى}، قال: نور".
وعن سعيد بن جبير: {وهدى}، يعني: تبيان".
وعن ابن عباس: {وموعظة للمتقين}، الذين من بعدهم إلى يوم القيامة".
وقال أبو العالية وقتادة: "موعظة للمتقين خاصة".
وعن الحسن: {وموعظة للمتقين}، يعدهم فيتقوا نعمة الله ويحذونها".
وروي عن عطية والسدي قالا: "لأمة محمد ﷺ.
قال المراغي: "وأما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة، فلأنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقائق، ويتعظون بما ينطبق عليها من الوقائع، فيستقيمون ويسيرون على النهج السويّ، ويتجنبون نتائج الإهمال التي تظهر لهم مضرة عاقبتها، فالمؤمن حقا هو الذي يهتدي بهدى الكتاب ويسترشد بمواعظه كما قال: «ذَلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» فالقرآن يهدينا فى مسائل الحرب والتنازع مع غيرنا إلى أن نروز أنفسنا ونعرف كنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقنا فنسير على سنن الله فى طلبه وفى حفظه، وأن نعرف كذلك حال خصمنا ونضع الميزان بيننا وبينه، وإلا كنا غير مهتدين ولا متعظين".
* ووعظ القرآن: هو وعد ووعيد، وترغيب وترهيب؛ حتى لا يستبد رجاء بصاحبه فيلقيه في أودية الغرور، ولا يحاصر يأس صاحبه فيغلق دونه أبواب الرحمة والوعظ هو التذكير بالعواقب لترق القلوب، ومن أوصاف القرآن أنه موعظة (يا
=

=

أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم) قال ابن
عطية رحمه الله تعالى: هذه آية خوطب بها جميع العالم، والموعظة: القرآن؛ لأن الوعظ إنما هو بقول يأمر بالمعروف ويزجر ويرقق ويوعد ويعد، وهذه صفة الكتاب العزيز. فما في القرآن من الأوامر والنواهي داع إلى كل مرغوب وزاجر عن كل مرهوب.

وتأكيدا على أهمية هذه الموعظة نسبها الله تعالى إليه (موعظة من ربكم) لبيان قيمتها وأهميتها، وحث البشر على الاحتفاء بها.. وما ألطف الله تعالى حين عبر عن ذلك بلفظ الربوبية وليس بلفظ الألوهية؛ وذلك لتحبيب قارئ القرآن في مواعظه، وحمله على قبولها (موعظة من ربكم) وذلك أن الرب هو من خلق الإنسان الموعوظ، وصوره في أحسن صوره، وأغدق عليه من رزقه، ودفع عنه ما يضره، وعلمه ما ينفعه، فمن أسدى هذا الخير للإنسان، فحري به أن يكون رحيما به، محسنا إليه، فإذا وعظه فإنما يعظه لمصلحته بدفعه إلى ما ينفعه، ورده عما يضره.

وفي آية أخرى بين سبحانه أن القرآن وما فيه من قصص وأحكام موعظة (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) وفي آية ثالثة قال تعالى (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين).

وفي آية رابعة أكد سبحانه على أنه إنما يعظنا بالقرآن (واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) وتالله إن موعظته سبحانه لأحسن المواعظ وأبلغها وأوجزها وأحكمها وأرقها وأصدقها وأخلصها وأنصحها وأكثرها تأثيرا في القلوب، وإصلاحا للعباد (إن الله نعما يعظكم به).

• في تخصيص هذا البيان والهدى والموعظة للمتقين، لأنهم هم المنتفعون به، فكانت هذه الأشياء في حق غير المتقين كالمعدومة ونظيره قوله تعالى (إنما أنت

=

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩).

{وَلَا تَهِنُوا} تَضْعُفُوا عَنْ قِتَال الْكُفَّار {وَلَا تَحْزَنُوا} عَلَى مَا أَصَابَكُمْ بِأُحُدٍ {وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} بِالْغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} حَقًّا وَجَوَابه دَلَّ عَلَيْهِ مَجْمُوع مَا قَبْله[1].

=

منذر من يخشاها) (إنما تنذر مع من اتبع الذكر) (إنما يخشى الله من عباده العلماء).

(١) ذكر سبب النزول.

عن الزهري؛ قال: كَثُرَ في أصحاب محمد ﷺ القتل والجراح؛ حتى خلص إلى كل امرئٍ منهم اليأس؛ فأنزل الله عز وجل القرآن، فآسى فيه المؤمنين بأحسن ما آسى به قومًا من المسلمين كانوا قبلهم من الأمم الماضية، فقال: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ} إلى قوله: {لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} [آل عمران: ١٥٤].

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢/ ٦٦، ٦٧) من طريق سويد بن نصر نا ابن المبارك عن يونس بن عبد الأعلى عن الزهري به. ورجاله ثقات؛ لكنه مرسل.

وعن ابن جريج؛ قال: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشِّعْبِ يوم أحد، وعلا خيل المشركين فوقهم على الجبل، وكان المسلمون من أسفل الشعب، فندب نفر من المسلمين رماة، فرموا خيل المشركين؛ حتى هزم الله خيل المشركين، وعلا المسلمون الجبل ونزلت: {وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ}.

أخرجه سنيد في "تفسيره"؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٥٨) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٢/ ٦٧) -، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٥٦٦، ٥٦٧ رقم ١٥٠٥) من طريقين عن ابن جريج به. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم

=

=

الجبل؛ فقال النبي ﷺ: "اللهم لا يعلون علينا"؛ فأنزل الله عز وجل: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢/ ٦٧) من طريق العوفي عن ابن عباس به.

وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

* قوله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا} [آل عمران: ١٣٩]، أي: "ولا تضعفوا بالذي نالكم من عدوكم بأحد، من القتل والقروح".

قال مجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن إسحاق، ومقاتل بن حيان: "ولا تضعفوا".

قال ابن جريج: "ولا تضعفوا في أمر عدوكم".

قال الحسن: "يأمر محمدًا، يقول: ولا تهنوا، أن تمضوا في سبيل الله".

قال القرطبي: "أي لا تضعفوا ولا تجبنوا يا أصحاب محمد عن جهاد أعدائكم لما أصابكم".

قال ابن كثير: "ثم قال مسليا للمؤمنين: {وَلا تَهِنُوا}، أي: لا تَضعفوا بسبب ما جرى".

قوله تعالى: {وَلَا تَحْزَنُوا} [آل عمران: ١٣٩]، أي: "ولا تأسوْا فتجزعوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ".

قال محمد بن إسحاق: "ولا تأسوا على ما أصابكم".

قال قتادة: يعني [يعزّي] أصحاب محمد ﷺ كما تسمعون، ويحثهم على قتال عدوهم، وينهاهم عن العجز والوَهن في طلب عدوهم في سبيل الله".

قال القاسمي: أي: لا تضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح، ولا تحزنوا على من قتل منكم، والحال أنكم الأعلون الغالبون دون عدوكم، فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من عاقبة أسلافهم، فهو تصريح بالوعد بالنصر بعد

=

=

الإشعار به فيما سبق.

قال ابن عاشور: قوله تعالى (ولا تهنوا ولا تحزنوا) نهي للمسلمين عن أسباب الفشل.

والوهن: الضعف، وأصله ضعف الذات: كالجسم في قوله تعالى (رب إني وهن العظم مني).

وهو هنا مجاز في خور العزيمة وضعف الإرادة وانقلاب الرجاء يأسا، والشجاعة جبنا، واليقين شكا، ولذلك نهوا عنه.

وأما الحزن فهو شدة الأسف البالغة حد الكآبة والانكسار.

والوهن والحزن حالتان للنفس تنشآن عن اعتقاد الخيبة والرزء فيترتب عليهما الاستسلام وترك المقاومة.

قوله تعالى: {وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ} [آل عمران: ١٣٩]، أي: فإنكم أنتم " الظاهرُون عليهم، ولكم العُقبَى في الظفر والنُّصرة عليهم".

الواو للعطف وهذه بشارة لهم بالنصر المستقبل، فالعلو هنا علو مجازي وهو علو المنزلة.

أي: لا تضعفوا ولا تحزنوا والحال أنكم أنتم الأعلون الغالبون دون عدوكم فأنتم قد أصبتم منهم في غزوة بدر أكثر مما أصابوا منكم في غزوة أحد. وأنتم تقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله وهم يقاتلون في سبيل الطاغوت.

وأنتم سيكون لكم النصر عليهم في النهاية، لأن الله تعالى قد وعدكم بذلك فهو القائل: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد).

قال الضحاك: "وأنتم الظاهرون".

قال ابن كثير: "أي: العاقبة والنّصرة لكم أيها المؤمنون".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩]، أي: "إن كنتم مصدِّقي نبيي

=

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠).

{إِنْ يَمْسَسْكُمْ} يُصِبكُمْ بِأُحُدٍ {قَرح} بِفَتْحِ الْقَاف وَضَمّهَا جَهْد مِنْ جُرْح وَنَحْوه {فَقَدْ مَسَّ الْقَوْم} الْكُفَّار {قَرْح مِثْله} بِبَدْرٍ {وَتِلْكَ الْأَيَّام نُدَاوِلهَا} نُصَرِّفهَا {بَيْن النَّاس} يَوْمًا لِفِرْقَةٍ وَيَوْمًا لِأُخْرَى لِيَتَّعِظُوا {وَلِيَعْلَم الله} عِلْم ظُهُور {الَّذِينَ آمَنُوا} أَخْلَصُوا فِي إِيمَانهمْ مِنْ غَيْرهمْ {وَيَتَّخِذ مِنْكُمْ شُهَدَاء} يُكْرِمهُمْ بِالشَّهَادَةِ {وَاَللَّه لَا يُحِبّ الظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ أَيْ يُعَاقِبهُمْ وَمَا يُنْعِم بِهِ عليهم استدراج.

وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١).

{وَلِيُمَحِّص الله الَّذِينَ آمَنُوا} يُطَهِّرهُمْ مِنْ الذُّنُوب بما يصيبهم {ويمحق} يهلك {الكافرين}[(١)].

=

محمد ﷺ فيما يَعدكم، وفيما ينبئكم من الخبر عما يؤول إليه أمركم وأمرهم".
قال محمد بن إسحاق: "أي: لكم تكون العاقبة والظهور، إن كنتم صدَّقتم نبيي بما جاءكم به عني".

قال القاسمي: وقوله تعالى (إن كنتم مؤمنين) متعلق بالنهي أو بالأعلون. وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه، أي: إن كنتم مؤمنين، فلا تهنوا ولا تحزنوا، فإن الإيمان يوجب قوة القلب، والثقة بصنع الله تعالى، وعدم المبالاة بأعدائه. أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون. فإن الإيمان يقتضي العلو لا محالة - أفاده أبو السعود -.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عكرمة؛ قال: وندم المسلمون كيف خلوا بينه وبين رسول الله ﷺ، وصعد
=

=

النبي ﷺ الجبل، وجمع أبو سفيان جمعه، وكان من أمرهم مما كان، فلما صعد النبي ﷺ الجبل؛ جاء أبو سفيان، فقال: يا محمد! ألا تخرج؟ الحرب سجال: يوم لنا، ويوم لكم، فقال رسول الله ﷺ: "أجيبوا -لأصحابه- وقولوا: لا سواء، لا سواء؛ قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار". قال أبو سفيان: عزى لنا ولا عزى لكم. فقال رسول الله ﷺ: "قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم". قال أبو سفيان: اعل هبل.

فقال رسول الله ﷺ: "الله أعلى وأجل". فقال أبو سفيان: موعدنا وموعدكم بدر الصغرى. ونام المسلمون وبهم الكلوم. قال عكرمة: ففيهم نزلت: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "التفسير" (٢/ ٥٦٧، ٥٦٨ رقم ١٥٠٧)، والطبري في "جامع البيان" (٢/ ٦٨، ٦٩)، وعبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٥٩) من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة به.

وأخرجه ابن أبي حاتم والطبري من طريق حفص بن عمر عن الحكم وحفص هذا ضعيف؛ فإن رواه عبد بن حميد من طريقه؛ فاجتمعت في الإسناد علتان: ضعف حفص هذا، والإرسال، وإن رواه من طريق غيره؛ فهو مرسل.

وفي "تفسير الطبري" زيادة [عن ابن عباس]، ولعل هذا من ضعف حفص؛ فتارة يوصله، وتارة يرسله.

وعن عكرمة قال: لما أبطأ على النساء الخبر؛ خرجن يستخبرن، فإذا رجلان مقتولان على دابة، أو على بعير، فقالت امرأة من الأنصار: من هذان؟ قالوا: فلان وفلان؛ أخوها وزوجها أو زوجها وابنها، فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: حي، قالت: فلا أبالي؛ يتخذ الله من عباده الشهداء، ونزل القرآن على ما قالت: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}.

=

=

أخرجه ابن أبي حاتم في "التفسير" (٢/ ٥٧٣ رقم ١٥٢٤): ثنا أبي ثنا موسى بن إسماعيل التبوذكي ثنا وهيب ثنا أيوب عن عكرمة به. قال الحافظ في "العجاب" (٢/ ٧٦٠): "هذا مرسل رجاله رجال البخاري".

وعن أبي الضحى؛ قال: نزلت {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}؛ فقتل منهم يومئذ سبعون، منهم أربعة من المهاجرين: حمزه بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير أخو بني عبد الدار، والشمساس بن عثمان المخزومي، وعبد الله بن جحش، وسائرهم في الأنصار.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (ص ٥٧٢ رقم ١٥٢٢ - آل عمران): ثنا المنذر بن شاذان ثنا زكريا بن عدي ثنا أبو الأحوص عن أبي الضحى به. وهذا سند حسن إلى أبي الضحى؛ لكنه مرسل.

وعن راشد بن سعد: لما انصرف رسول الله ﷺ من أحد كئيبًا حزينًا؛ جعلت المرأة تجيء بزوجها وأبيها وابنها وهي تلتدم، فقال رسول الله ﷺ: "أهكذا يفعل برسولك؟! "؛ فنزلت.

ذكره الحافظ في "العجاب" (٢/ ٧٦٠) وقال: "وذكر الثعلبي عن راشد به" وهو ضعيف لا يثبت.

* قوله تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ} [آل عمران: ١٤٠]، " أي: إن كنتم قد أصابتكم جراحٌ وقُتل منكم طائفةٌ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح".

قال الزمخشري: "المعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى أن لا تضعفوا. ونحوه: {فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ} [النساء: ١٠٤].

=

=

وقيل: كان ذلك يوم أحد، فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ.

فإن قلت: كيف قيل {قرح مثله} وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟

قلت: بلى كان مثله، ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ١٥٢]".

قال الراغب: "الفرق بين المس واللمس: أن اللمس أخص، فإنه بالحاسة، والمس به وبغيره، وهو ههنا عبارة عن الإصابة والقرح أعم من الجرح، فإن الجرح إصابة الجارحة في الأصل، والقرح يقال له ولما يحدث من ذاته، نحو: قرح البعير، إذا خرج به قرحة، وهي شبه جرب".

كما قال تعالى (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما).

ومعنى الآية: إن يمسسكم قرح يوم أحد فقد مسهم يوم بدر، وهو كقوله تعالى (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا).

قال ابن عاشور: الآية تسلية عما أصاب المسلمين يوم أحد من الهزيمة بأن ذلك غير عجيب في الحرب، إذ لا يخلو جيش من أن يغلب في بعض مواقع الحرب، وقد سبق أن العدو غلب.

قال الشنقيطي: المراد بالقرح الذي مس المسلمين هو ما أصابهم يوم أحد من القتل والجراح، كما أشار له تعالى في هذه السورة الكريمة في مواضع متعددة كقوله (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) وقوله (ويتخذ منكم شهدآء) وقوله (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد مآ أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) وقوله (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في

=

أخراكم) ونحو ذلك من الآيات.

وأما المراد بالقرح الذي مس القوم المشركين فيحتمل أنه هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر، وعليه فإليه الإشارة بقوله (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم شآقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب)

ويحتمل أيضا أنه هزيمة المشركين أولا يوم أحد كما سيأتي قريبا إن شاء الله تعالى، وقد أشار إلى القرحين معا بقوله (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها) فالمراد بمصيبة المسلمين القرح الذي مسهم يوم أحد، والمراد بمصيبة الكفار بمثليها قبل القرح الذي مسهم يوم بدر. لأن المسلمين يوم أحد قتل منهم سبعون والكفار يوم بدر قتل منهم سبعون، وأسر سبعون.

وهذا قول الجمهور.

• قال ابن القيم: قوله تعالى (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) أي: استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء كما قال تعالى (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما) فمالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم؟ فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي؟

• قال الرازي: واعلم أن هذا من تمام قوله (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون) فبين تعالى أن الذي يصيبهم من القرح لا يجب أن يزيل جدهم واجتهادهم في جهاد العدو، وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم، وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى.

=

• قوله تعالى (إن يمسسكم قرح) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم (قرح) بضم القاف وكذلك قوله (من بعد ما أصابهم القرح) والباقون بفتح القاف فيهما، فقيل: هما بمعنى واحد، وقيل: بالفتح الجراحة بعينها وبالضم ألم الجراحة.

• فإن قيل كيف قال (قرح مثله) وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ قلنا: يجب أن يفسر القرح في هذا التأويل بمجرد الانهزام لا بكثرة القتلى.

قال الفراء: "وقد قرأ أصحابُ عبد الله: {قُرْح}، وكأن القُرْح: ألم الجراحات، وكأن القَرْحَ الجراحاتُ بأعيانها".

قوله تعالى: {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران: ١٤٠]، أي: "وتلك الأيام يُصَرِّفها الله بين الناس من فرح وغم وصحة وسقم وغنى وفقر".

فنديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة لكم، لما لنا في ذلك من الحكم، أي: أن أيام الدنيا هي دول بين الناس لا يدوم مسارها ولا مضارها، فيوم يحصل فيه السرور له والغم لعدوه، ويوم آخر بالعكس من ذلك، ولا يبقى شيء من أحوالها ولا يستقر أثر من آثارها.

قال القرطبي: "قوله تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس) من فرح وغم وصحة وسقم وغنى وفقر".

قال محمد بن إسحاق: "أي نصرِّفها للناس، للبلاء والتمحيص".

قال مقاتل: "يوم لكم ببدر ويوم عليكم بأحد مرة للمؤمنين ومرة للكافرين".

قال الزجاج: "أي: نجعل الدولة في وقت من الأوقات للكافرين على المؤمنين إذا عصوا فيما يؤمرون به، من محاربة الكفار، فأما إذا أطاعوا فهم منصورون أبدا، كما قال الله – عز وجل: {أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢]".

قال ابن كثير: "أي: نُديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة لكم لما لنا في

=

=

ذلك من الحكم".

قال الطبري: أي: "أيام بدر وأُحُد، ويعني بقوله: {نداولها بين الناس}، نجعلها دُوَلا بين الناس مصرَّفة. ويعني بـ {الناس}، المسلمين والمشركين، وذلك أن الله عز وجل أدال المسلمين من المشركين ببدر، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين. وأدال المشركين من المسلمين بأحُد، فقتلوا منهم سبعين، سوى من جرحوا منهم".

قال المراغي: "أي إن مداولة الأيام سنة من سنن الله فى المجتمع البشرى، فمرة تكون الدولة للمبطل، وأخرى للمحق، ولكن العاقبة دائما لمن اتبع الحق، وإنما تكون الدولة لمن عرف أسباب النجاح ورعاها حق رعايتها كالاتفاق وعدم التنازع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة، وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطاع من القوة".

قال الزمخشري: "والمراد بالأيام: أوقات الظفر والغلبة، نداولها: نصرفها بين الناس نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، كقوله وهو من أبيات الكتاب:

فيوما علينا ويوما لنا... ويوما نساء ويوما نسر

ومن أمثال العرب: الحرب سجال".

قال ابن عباس: "أدال المشركين على النبي ﷺ يوم أحد". وفي رواية أخرى له: "فإنه كان يوم أحُد بيوم بدر، قُتل المؤمنون يومَ أحد، اتخذ الله منهم شهداء، وغلب رسول الله ﷺ يوم بدر المشركين، فجعل له الدولة عليهم"

قال الحسن: "جعل الله الأيام دولا أدال الكفار يوم أحُد من أصحاب رسول الله ﷺ".

قال قتادة: "إنه والله لولا الدُّوَل ما أوذي المؤمنون، ولكن قد يُدال للكافر من المؤمن، ويبتلى المؤمن بالكافر".

=

=

قال الربيع: "فأظهر الله عز وجل نبيه ﷺ وأصحابه على المشركين يوم بدر، وأظهر عليهم عدوَّهم يوم أُحُد. وقد يدال الكافر من المؤمن، ويبتلى المؤمن بالكافر... وأما من ابتلى منهم من المسلمين يوم أحد، فكان عقوبة بمعصيتهم رسول الله ﷺ".

قال السدي: "{وتلك الأيام نداولها بين الناس}، يومًا لكم، ويومًا عليكم".

قال الماتريدي: "تحتمل الآية وجوها: يوما للمؤمنين ويوما عليهم، وذلك أن الأمر بمجاهدة العدو والقتال معهم محنة من الله تعالى إياهم يمتحنهم ويبتليهم؛ مرة بالظفر لهم والنصر على عدوهم، ومرة بالظفر للعدو عليهم؛ كقوله - عز وجل -: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)، وكقوله: (وبلوناهم بالحسنات والسيئات)، يمتحن عباده، بجميع أنواع المحن، بالخير مرة، وبالشر ثانيا.

ويحتمل المداولة -أيضا وجها آخر: وهو أن الظفر والنصر لو كان أبدا للمؤمنين- لكان الكفار إذا أسلموا لم يسلموا إسلام اختيار؛ ولكن إنما آمنوا إيمان قهر وكره وجبر؛ لما يخافون على أنفسهم من الهلاك إذا رأوا الدولة والظفر للمؤمنين، وإن كان الظفر والنصر أبدا للكفار؛ فلعلهم يظنون أنهم المحقون فيمنعهم ذلك عن الإسلام.

ويحتمل أن ما يصيب بمعصية المؤمنين إنما يصيب بمعصية سبقت منهم، أو خلاف كان منهم؛ من ترك أمر أو ارتكاب نهي".

قال الراغب: "والدول والدور يتقاربان، لكن الدور أعم، فإن الدولة لا تقال إلا في الحظ الدنيوي، وكذلك الجد، ولهذا قيل: "لا ينفع ذا الجد منك الجد"، أي: الحظوظ الدنيوية غير نافعة في القيامة،، نحو: (يوم لا ينفع مال ولا بنون}".

والحكمة من هذه المداولة:

الأول: أنه تعالى لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن

=

=

المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الاضطراري بأن الايمان حق وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الايمان، وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام فيعظم ثوابه عند الله.

والثاني: أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي، فيكون عند الله تشديد المحنة عليه في الدنيا أدبا له، وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضبا من الله عليه. (تفسير الرازي).

ومن الحكم: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى لكن تكون لهم العاقبة فإنهم لو انتصروا دائما دخل معهم المؤمنون وغيرهم ولم يتميز الصادق من غيره ولو انتصر عليهم دائما لم جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا من أعلام الرسل كما قال هرقل لأبي سفيان هل قاتلتموه؟ قال نعم قال كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال سجال يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى قال كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة.

ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق فأطلع المنافقون رءوسهم في هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه وظهرت مخبآتهم وعاد تلويحهم تصريحا وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا وعرف المؤمنون أن لهم عدوا في نفس دورهم وهم معهم

=

=

لا يفارقونهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء وفيما يحبون وما يكرهون وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقا وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائما وأظفرهم بعدوهم في كل موطن وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدا، لطغت نفوسهم وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء والشدة والرخاء والقبض والبسط فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا فاستوجبوا منه العز والنصر فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار قال تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) وقال (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا) فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولا ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره.

قوله تعالى: {وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران: ١٤٠]، " أي: فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد ويميز بين المؤمنين والمنافقين".

ذكر تعالى الحكمة من هزيمة المسلمين في أحد وهي (وليعلم الله الذين آمنوا) أي: ليعلم علم ظهور، المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، كما قال تعالى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين.

قال قتادة والربيع: "ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه، ويعلم الصادق من الكاذب".

=

=

قال محمد بن إسحاق: "أي: ليميِّز بين المؤمنين والمنافقين".

قال مقاتل: "يعني: وليرى إيمان الذين آمنوا منكم عند البلاء فيتبين إيمانهم أيشكوا في دينهم أم لا".

قال الطبري: أي: "وليعلم الله الذين آمنوا منكم، أيها القوم، من الذين نافقوا منكم".

قال الماتريدي: "ي: ليعلم ما قد علم بالغيب أنه يؤمن بالامتحان مؤمنا شاهدا، وليعلم ما قد علم أنه يكون كائنا، وجائز أن يراد بالعلم: المعلوم؛ كقوله: الصلاة أمر الله، أي: بأمر الله".

قال ابن القيم: فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق فأطلع المنافقون رءوسهم في هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه وظهرت مخبآتهم وعاد تلويحهم تصريحا وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا وعرف المؤمنون أن لهم عدوا في نفس دورهم وهم معهم لا يفارقونهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم. قال الله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) أي ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق كما ميزهم بالمحنة يوم أحد.

• وقال ابن تيمية: فإنهم إذا كانوا دائما منصورين لم يظهر لهم وليهم وعدوهم، إذ الجميع يظهرون الموالاة، فإذا غلبوا ظهر عدوهم، قال تعالى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا ...) وقال تعالى (ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من

=

=

قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين).
(تنبيه): قوله تعالى (وليعلم الله الذين آمنوا) المعنى: أي علما يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالما به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس. أما عالم السر والنجوى فهو عالم بكل ما سيكون، كما لا يخفى.
قال الشيخ ابن عثيمين: المراد علم ظهور أو علم يترتب عليه الجزاء، لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترب عليه الجزاء حتى يمتحن العبد وينظر.
ونظير هذه الآية: قوله تعالى قوله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وقوله (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقوله (لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) وقوله (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) وقوله (إلا لنعلم من يتبع الرسول).
قوله تعالى: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} [آل عمران: ١٤٠]، " أي: وليكرم منكم بالشهادة من أراد أن يكرمه بها".
قال محمد بن إسحاق: "وليكرم من أكرَم من أهل الإيمان بالشهادة".
قال ابن كثير: "يعني: يُقْتَلُون في سبيله، ويَبْذُلون مُهَجهم في مرضاته".
قال ابن عباس: "كانوا يسألون الشهادة، فلقوا المشركين يوم أحد، فاتخذ منهم شهداء".
قال ابن جريج: "فإن المسلمين كانوا يسألون ربهم: ربنا أرنا يومًا كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، ونُبليك فيه خيرًا، ونلتمس فيه الشهادة! فلقوا المشركين يوم أحد، فاتخذ منهم شهداء".
قال الضحاك: "كان المسلمون يسألون ربهم أن يُريهم يومًا كيوم بدر، يبلون فيه خيرًا، ويرزقون فيه الشهادة، ويرزقون الجنة والحياة والرزق، فلقوا المشركين يوم
=

=

أحد، فاتخذ الله منهم شهداء، وهم الذين ذكرهم الله عز وجل فقال: {وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ} الآية، [سورة البقرة: ١٥٤]".

قال قتادة: "، فكرَّم الله أولياءه بالشهادة بأيدي عدوِّهم، ثم تصير حواصل الأمور وعواقبها لأهل طاعة الله".

عن أبي الضحى قال: نزلت: {ويتخذ منكم شهداء}، فقتل منهم يومئذ سبعون، منهم أربعة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، أخو بني عبد الدار، والشماس بن عثمان المخزومي، وعبد الله بن جحش الأسدي، وسائرهم من الأنصار".

أخرج الحاكم عن جابر -صحيحا-: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ذكر أصحاب أحد والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بحصن الجبل»".

* هذه حكمة أخرى من حكم إدالة العدو عليهم يوم أحد، وهي أن يتخذ منهم شهداء، فإن منزلة الشهادة منزلة علية في الجنة ولا بد من الموت، فموت العبد شهيدا أكمل له وأعظم لأجره وثوابه، ويكفر عنه بالشهادة ذنوبه وظلمه لنفسه.

قال ابن القيم: الشهادة عنده تعالى من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه المقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء، تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن الشهادة درجة عالية عنده، ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه، وأنفعها للعبد.

قوله تعالى: {وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٤٠]، "أي: والله لايحب

=

=
المعتدين".

عن ابن عباس: {الظالمين}، يقول: الكافرين".

ففيه إشارة إلى أنه تعالى إنما يؤيد الكافرين على المؤمنين لما ذكر من الفوائد، لا لأنه يحبهم.

قال محمد بن إسحاق: "أي: المنافقين الذي يظهرون بألسنتهم الطاعة، وقلوبهم مصرَّة على المعصية".

قال السمعاني: "يعني: أنه ما جعل اليد للكفار يوم أحد لحبه إياهم؛ ولكن ليبتليكم، ويجعلكم شهداء".

قال النسفي: قوله: "{والله لا يُحِبُّ الظالمين} اعتراض بين بعض التعليل وبعض ومعناه والله لا يحب من لبس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيله وهم المنافقون والكافرون".

قال السعدي: "{الظالمين}: الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكأن في هذا تعريضا بذم المنافقين، وأنهم مبغضون لله، ولهذا ثبطهم عن القتال في سبيله".

قوله تعالى: {وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٤١]، أي: "وليختبرَ الله الذين صدَّقوا الله ورسوله".

قال محمد بن إسحاق: "أي " يختبر الذين آمنوا، حتى يخلصهم من البلاء الذي نزل بهم، وكيف صبرهم ويقينهم".

قال الماتريدي: "أي: يمحص ذنوبهم وسيئاتهم".

قال الطبري: أي: "فيبتليهم بإدالة المشركين منهم، حتى يتبين المؤمن منهم المخلصَ الصحيحَ الإيمان، من المنافق".

قال ابن كثير: "أي: يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب وإلا رُفعَ لهم في
=

=

درجاتهم بحسب ما أصيبوا به".

قال التستري: "يعني تخليصهم من عيوب الذنوب، كما أخلصوا له بالعمل، وهو الجهاد في سبيل الله".

وهذه من حكم إدالة العدو، وهي تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، وأيضا: فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم. (زاد المعاد).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن القلوب يخالطها - بغلبة الطبائع وميل النفوس وحكم العادة، وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة - ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام، والبر والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة، لم تتخلص من هذه المخالطة، ولم تتمحص منه.

قوله تعالى: {وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٤١]، أي: "ويهلك الكافرين ويستأصلهم".

قال محمد بن إسحاق: "أي: "يبطل أمر المنافقين، قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، حتى يظهر منهم كفرهم الذي يستترون به منكم".

قال الفراء: أي: "ينقصهم ويفنيهم".

قال الزجاج: أي: "ليستأصلهم، وجائز أن يكون يمحقهم يحبط أعمالهم، وتأويل المحص في اللغة: التنقية والتخليص، قال محمد بن يزيد - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: يقال محص الحبل محصا، إذا ذهب منه الوبر حتى يملص وحبل محص أو ملص بمعنى واحد، قال وتأويل قول الناس: محص عنا ذنوبنا: أي أذهب عنا ما تعلق بنا من الذنوب... قال أبو إسحاق: وقرأت عليه أيضا عن الخليل: المحص التخليص يقال: محصت الشيء أمحصه محصا إذا خلصته، وقال بعض أهل اللغة:

=

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)

{أَمْ} بَلْ أَ {حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّة ولما} لم {يَعْلَم الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} عِلْم ظُهُور {وَيَعْلَم الصَّابِرِينَ} فِي الشَّدَائِد[1].

=

{وليمحص الله الذين آمنوا}، أي: وليمحص الله ذنوب الذين آمنوا - ولم يخبروا بحقيقة المحص ما هو".

قال ابن كثير: "أي: فإنهم إذا ظفروا بَغَوا وبَطروا فيكون ذلك سَبَبَ دمارهم وهلاكهم ومَحْقهم وفنائهم".

قال التستري: "أي: وليهلك الكافرين بالذنوب عن الابتلاء".

وقوله (ويمحق الكافرين) من الحكم أيضا، فإن الله إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها - بعد كفرهم - بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم.

قال أبو حيان: المعنى: أن الدولة إن كانت للكافرين على المؤمنين كانت سببا لتمييز المؤمن من غيره، وسببا لاستشهاد من قتل منهم، وسببا لتطهير المؤمن من الذنب، فقد جمعت فوائد كثيرة للمؤمنين، وإن كان النصر للمؤمنين على الكافرين كان سببا لمحقهم بالكلية واستئصالهم.

(تنبيه): تأويل المصنف لصفة المحبة بلوازمها على خلاف مذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة، وسيأتي بيان الحق في ذلك تحت الآية رقم (١٤٦) من نفس هذه السورة المباركة.

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

قال مقاتل بن سليمان: سببها أن المنافقين قالوا للمؤمنين يوم أحد بعد الهزيمة: لم تقتلون أنفسكم وتهلكون أموالكم؛ فإن محمدًا لو كان نبيًا لم يسلطوا عليه؛ فنزلت.

ذكره الحافظ في "العجاب" (٢/ ٧٦١). وتفسير مقاتل واه بمرة.

* قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ} [آل عمران: ١٤٢]، أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تُبْتَلوا بالقتال والشدائد".

قال محمد بن إسحاق: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتصيبوا من ثواب الكرامة".

قوله تعالى: {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٢]، " أي: ولما تجاهدوا في سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد؟".

قال محمد بن إسحاق: "يقول: لم أختبركم بالشدة وأبتليكم بالمكاره، حتى أعلم صدق ذلك منكم الإيمان بي، والصبر على ما أصابكم في".

قال ابن كثير: "أي: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبْتَلَوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقارنة الأعداء".

قال الزجاج: "المعنى ولما يقع العلم بالجهاد والعلم بصبر الصابرين، ولما يعلم الله ذلك واقعا منهم. لأنه - جل وعز -يعلمه غيبا، وإنما يجازيهم على عملهم".

قال الأخفش: "فان قال قائل: "ولما يعلم الله الصابرين" {ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم} فهو لم يعلمهم؟ قلت بل قد علم، ولكن هذا فيما يذكر أهل التأويل ليبين للناس، كأنه قال "ليعلمه الناس" كما قال {لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا} وهو قد علم ولكن ليبين ذلك".

قال السعدي: هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة

=

=

أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها ومعرفة ما تئول إليه، تنقلب عند أرباب البصائر منحا يسرون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال الشنقيطي: أنكر الله في هذه الآية على من ظن أنه يدخل الجنة دون أن يبتلى بشدائد التكاليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه، وبين غيره وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة:

كقوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأسآء والضرآء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب).

وقوله (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون).

وقوله (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين).

ثم قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي هذه الآيات سر لطيف وعبرة وحكمة، وذلك أن أبانا آدم كان في الجنة يأكل منها رغدا حيث شاء في أتم نعمة وأكمل سرور، وأرغد عيش. كما قال له ربه (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) ولو تناسلنا فيها لكنا في أرغد عيش وأتم نعمة، ولكن إبليس عليه لعائن الله احتال بمكره وخداعه على أبوينا حتى أخرجهما من الجنة، إلى دار الشقاء والتعب.

وحينئذ حكم الله تعالى أن جنته لا يدخلها أحد إلا بعد الابتلاء بالشدائد وصعوبة

=

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣).

{وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ} فِيهِ حَذْف إحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الْأَصْل {الْمَوْت مِنْ قَبْل أَنْ تَلْقَوْهُ حَيْثُ قُلْتُمْ لَيْتَ لَنَا يَوْمًا كَيَوْمِ بَدْر لِنَنَالَ مَا نَالَ شُهَدَاؤُهُ {فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ} أَيْ سَبَبه الْحَرْب {وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} أَيْ بُصَرَاء تَتَأَمَّلُونَ الْحَال كَيْفَ هِيَ فَلِمَ انْهَزَمْتُمْ وَنَزَلَ فِي هَزِيمَتهمْ لَمَّا أُشِيعَ أَنَّ النَّبِيّ قُتِلَ وَقَالَ لَهُمْ الْمُنَافِقُونَ إنْ كَانَ قُتِلَ فَارْجِعُوا إلَى دينكم[1].

=

التكاليف. فعلى العاقل منا -معاشر بني آدم- أن يتصور الواقع ويعلم أننا في الحقيقة سبي سباه إبليس بمكره وخداعه من وطنه الكريم إلى دار الشقاء والبلاء، فيجاهد عدوه إبليس ونفسه الأمارة بالسوء حتى يرجع إلى الوطن الأول الكريم، كما قال العلامة ابن القيم تغمده الله برحمته: ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نرد إلى أوطاننا ونسلم.

ولهذه الحكمة أكثر الله تعالى في كتابه من ذكر قصة إبليس مع آدم لتكون نصب أعيننا دائما.

• بين تعالى في هذه الآية أن دخول الجنة الذي هو مرغوبهم لا يحصل إذا لم يبذلوا نفوسهم في نصر الدين، فإذا حسبوا دخول الجنة يحصل دون ذلك، فقد أخطأوا.

وقرأ الحسن: {ويعلم الصابرين}، بالكسر على العطف، ومن، قرأ {ويعلم الصابرين} فعلى النصب بالواو.

(تنبيه): تقدم القول في تفسير (إِلَّا لِنَعْلَمَ) بتوسع تحت الآية رقم (١٤٣) من سورة البقرة.

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رجالًا من أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون: ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد -أو ليت لنا يومًا كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، ونبلي فيه خيرًا، ونلتمس الشهادة والجنة والحياة والرزق-؛ فأشهدهم الله أحدًا، ولم يلبثوا إلا من شاء الله منهم؛ فقال الله: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٥٧٧ رقم ١٥٣٩): نا محمد بن سعد العوفي فيما كتب إليّ: ثني سعد بن محمد بن الحسن بن عطية العوفي: ثنا الحسين بن الحسن بن عطية العوفي عن الحسن بن عطية العوفي عن عطية العوفي عن ابن عباس به. وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء، وخالف الحسن بن عطية العوفي -وهو ضعيف- فضيلُ بنُ مرزوق؛ فرواه عن عطية نحوه مرسلًا: أخرجه عبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٦١). وهذا أصح؛ لكنه ضعيف؛ فيه علتان: الإرسال، وضعف عطية.

وعن مجاهد؛ قال: غاب رجال عن بدر، فكانوا يتمنون مثل يوم بدر: أن يلقوه؛ فيصيبوا من الخير والأجر مثل ما أصاب أهل بدر، فلما كان يوم أحد؛ ولّى من ولّى منهم، فعاتبهم الله، أو فعتبهم على ذلك.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٧١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٥٧٧ رقم ١٥٤٢)، والفريابي وعبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٦١، ٧٦٢) من طرق عن ابن أبي نجيح. وهذا مرسل صحيح الإسناد إلى مجاهد.

وعن قتادة؛ قال: أناس من المؤمنين لم يشهدوا يوم بدر والذي أعطى الله أهل بدر من الفضل والشرف والأجر؛ فكانوا يتمنون أن يرزقوا قتالًا؛ فيقاتلوا، فسيق إليهم القتال حتى كان في ناحية المدينة يوم أحد، فقال الله عز وجل كما تسمعون: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)}.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢/ ٧١)، وعبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٦٢) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وهذا مرسل حسن الإسناد؛ رجاله ثقات، أما ما يخشى من اختلاط سعيد بن أبي عروبة؛ فالراوي عنه يزيد بن زريع، وقد روى عنه قبل الاختلاط، وسعيد من أثبت الناس في قتادة.

وعن الحسن؛ قال: بلغني أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون: لئن لقينا مع النبي ﷺ؛ لنفعلن ولنفعلن؛ فابتلوا بذلك، فلا والله ما كُلّهم صدق الله؛ فأنزل الله: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢/ ٧٢): ثني محمد بن بشار -بندار-: ثنا هوذة: ثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن به. وهو مرسل حسن الإسناد إلى الحسن.

وعن الربيع؛ قال: إنَّ أناسًا من المؤمنين لم يشهدوا يوم بدر والذي أعطاهم الله من الفضل؛ فكانوا يتمنون أن يروا قتالًا، فيقاتلوا؛ فسيق إليهم القتال حتى كان ناحية المدينة يوم أحد؛ فأنزل الله: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٧١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٥٧٨ رقم ١٥٤٦) من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع به. وسنده ضعيف جدًّا؛ فيه علل.

وعن السدي؛ قال: كان ناس من أصحاب النبي ﷺ لم يشهدوا بدرًا، فلما رأوْا فضيلة أهل بدر؛ قالوا: اللهم إنا نسألك أن ترينا يومًا كيوم بدر؛ نبليك فيه خيرًا، فرأوْا أحدًا؛ فقال لهم: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)}.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٧٢)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٥٧٨ رقم ١٥٤٣) عن طريق أسباط بن نصر عن السدي به. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علتان: الأولى: الإعضال.

الثانية: أسباط هذا؛ صدوق كثير الخطأ، ويغرب؛ كما في "التقريب" (١/ ٥٣).

* قوله تعالى: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ} [آل عمران: ١٤٣]، " أي: ولقد كنتم تتمنون لقاء الأعداء لتحظوا بالشهادة، من قبل أن تذوقوا شدّته".

قال الطبري: أي: "ولقد كنتم، يا معشر أصحاب محمد تمنون القتال".

قال محمد بن إسحاق: "أي: لقد كنتم تمنون الشهادة على الذي أنتم عليه من الحق قبل أن تلقوا عدوكم يعني الذين استنهضوا رسول الله ﷺ على خروجه بهم إلى عدوهم، لما فاتهم من الحضور في اليوم الذي كان قبله ببدر، رغبة في الشهادة التي قد فاتتهم به".

قال قتادة: ": كانوا يتمنون أن يلقوا المشركين فيقاتلوهم، فلما لقوهم يوم أحد ولّوا".

قال القرطبي: "وتمني الموت يرجع من المسلمين إلى تمني الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد، لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة، فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى إلى القتل".

قوله تعالى: {فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} [آل عمران: ١٤٣]، أي: "فقد رأيتموه بأعينكم".

قال محمد بن إسحاق: "أي: الموتَ بالسيوف في أيدي الرجال، قد خلَّى بينكم وبينهم، وأنتم تنظرون إليهم، فصددتُم عنهم".

قال الطبري: "يعني: قد رأيتموه بمرأى منكم ومنظر، أي بقرب منكم".

=

=

قال الواحدي: "أي: رأيتم أسباب الموت وما يتولد منه الموت كالسيف والأسنة وأنتم بصراء تتأملون الحال في ذلك كيف هي، فلم انهزمتم؟ ! وهذا محذوف، وهو مراد، لأنه موضع العتاب".

قال الراغب: "أراد أنكم تمنيتم الحرب فلم تحيرتم؟".

قال البيضاوي: "أي فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، وهو توبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسببوا لها ثم جبنوا وانهزموا عنها، أو على تمني الشهادة فإن في تمنيها تمني غلبة الكفار".

قال ابن عاشور: "ومعنى رؤيته مشاهدة أسبابه المحققة، التي رؤيتها كمشاهدة الموت".

وفي قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} [آل عمران: ١٤٣]، وجوه:

أحدها: ان معناه التوكيد. قاله الأخفش.

والثاني: أن المعنى: وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ.

والثالث: معناه: وأنتم تنظرون إلى السيوف. قاله ابن عباس.

والرابع: أن المعنى: وأنتم بصراء كما تقول: قد رأيت كذا وكذا، وليس في عينيك عمة، أي قد رأيته رؤية حقيقية، وهو راجع إلى معنى التوكيد. أفاده الزجاج.

(وأنتم تنظرون) هو تكرير بمعنى التأكيد لقوله (فقد رأيتموه) مثل (ولا طائر يطير بجناحيه).

وقيل: معناه وأنتم بصراء ليس في أعينكم علل (كما) تقول: قد رأيت كذا وكذا وليس في عينيك علة، أي فقد رأيته رؤية حقيقة؛ وهذا راجع إلى معنى التوكيد.

وقال بعضهم (وأنتم تنظرون) إلى محمد ﷺ.

وفي الآية إضمار، أي فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فلم انهزمتم؟

قال القرطبي: وذلك أن كثيرا ممن لم يحضروا بدرا كانوا يتمنون يوما يكون فيه

=

=

قتال، فلما كان يوم أحد انهزموا، وكان منهم من تجلد حتى قتل، ومنهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك، فإنه قال لما انكشف المسلمون: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، وباشر القتال وقال: إيها إنها ريح الجنة! إني لأجدها، ومضى حتى استشهد.

قال أنس: فما عرفناه إلا ببنانه ووجدنا فيه بضعا وثمانين جراحة، وفيه وفي أمثاله نزل (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) فالآية عتاب في حق من انهزم، لا سيما وكان منهم حمل للنبي ﷺ على الخروج من المدينة.

وقال الآلوسي: قوله تعالى (ولقد كنتم تمنون الموت ...) خطاب لطائفة من المؤمنين لم يشهدوا غزوة بدر لعدم ظنهم الحرب حين خرج رسول الله ﷺ إليها فلما وقع ما وقع ندموا فكانوا يقولون: ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد كما استشهدوا فلما أشهدهم الله تعالى أحدا لم يلبث إلا من شاء الله تعالى منهم.

• قال ابن عاشور: ومحل الموعظة من الآية: أن المرء لا يطلب أمرا حتى يفكر في عواقبه، ويسبر مقدار تحمله لمصائبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:.... فالعزم قد يدوم وقد ينفسخ وما أكثر انفساخ العزائم خصوصا عزائم الصوفية؛ ولهذا قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم ونقض الهمم. وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشايخ (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص).

وفي الترمذي (أن بعض الصحابة قالوا للنبي ﷺ لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تعالى هذه الآية) وقد قال تعالى (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون

=

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤).

{وَمَا مُحَمَّد إِلَّا رَسُول قَدْ خَلَتْ مِنْ قبله الرسل أفإين مَاتَ أَوْ قُتِلَ} كَغَيْرِهِ {انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابكُمْ} رَجَعْتُمْ إِلَى الْكُفْر وَالْجُمْلَة الْأَخِيرَة مَحَلّ الِاسْتِفْهَام الْإِنْكَارِيّ أَيْ مَا كَانَ مَعْبُودًا فَتَرْجِعُوا {وَمَنْ يَنْقَلِب عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرّ الله شَيْئًا} وَإِنَّمَا يَضُرّ نَفْسه {وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ} نِعَمه بالثبات[1].

=

الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) الآية. فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه لما ابتلوا به كرهوه وفروا منه.

قال السعدي: وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمني الشهادة، ووجه الدلالة: أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها.

(١) ذكر سبب النزول.

عن الربيع بن أنس قوله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} وذلك يوم أحد حين أصابهم ما أصابهم من القرح والقتل، وتداعوا نبي الله، قالوا: قد قتل، وقال أناس منهم: لو كان نبيًا؛ ما قتل، وقال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم؛ حتى يفتح الله عليكم، أو تلحقوا به؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ}. يقول: لئن مات نبيكم أو قتل؛ ارتددتم كفارًا بعد إيمانكم.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٧٣)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (ص ٥٨١، ٥٨٢ رقم ١٥٥٤ - آل عمران) من طريق عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع به. وإسناده ضعيف جدًا.

وعن السدي؛ قال: لما برز رسول الله ﷺ أحد إليهم -يعني: إلى المشركين-؛ أمر الرماة، فقاموا بأصل الجبل في وجوه خيل المشركين، وقال: "لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم؛ فإنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم"، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير أخا خوّات بن جبير، ثم شد الزبير بن العوّام والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم، وحمل النبي ﷺ وأصحابه فهزموا أبا سفيان، فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين قدّم؛ فرمته الرماة؛ فانقمع، فلما نظر الرماة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه في جوف عسكر المشركين ينتهبونه؛ بادروا الغنيمة. فقال بعضهم: لا نترك أمر رسول الله ﷺ فانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر. فلما رأى خالد قلة الرماة؛ صاح في خيله، ثم حمل فقتل الرماة، وحمل على أصحاب النبي ﷺ، فلما رأى المشركون أن خيلهم تقاتل؛ تبادروا، فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم، فأتى ابن قيئة الحارثي -أحد بني الحارث بن عبد مناف بن كنانة- فرمى رسول الله ﷺ بحجر؛ فكسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه؛ فأثقله، وتفرق عنه أصحابه، ودخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس: "إليّ عباد الله! إليّ عباد الله! "، فاجتمع إليه ثلاثون رجلًا، فجعلوا يسيرون بين يديه، فلم يقف أحد إلاَّ طلحة وسهل بن حنيف فحماه طلحة فرمى بسهم في يده فيبست يده، وأقبل أبي بن خلف الجمحي وقد حلف ليقتلن النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: "بل أنا أقتلك"، فقال: يا كذاب! أين تفر فحمل عليه، فطعنه النبي ﷺ في جنب الدرع فجرح جرحًا خفيفًا فوقع يخور خوران الثور فاحتملوه، وقالوا: ليس بك

=

=

جراحة، قال: أليس قال: "لأقتلنك؟ "، لو كانت لجميع ربيعة ومضر؛ لقتلتهم، ولم يلبث إلا يومًا أو بعض يوم؛ حتى مات من ذلك الجرح، وفشا في الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل! فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أبي فنأخذ لنا أمنة من أبي سفيان، يا قوم! إن محمدًا قد قتل؛ فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

قال أنس بن النضر: يا قوم! إن كان محمد قد قتل؛ فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل. وانطلق رسول الله ﷺ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رأوه؛ وضع رجل سهمًا في قوسه فأراد أن يرميه، فقال: "أنا رسول الله"؛ ففرحوا حين وجدوا رسول الله ﷺ حيًا، وفرح رسول الله ﷺ حين رأى في أصحابه من يمتنع، فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ﷺ ذهب عنهم الحزن، فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابه الذين قتلوا، فقال الله عز وجل للذين قالوا: إن محمدًا قد قتل فارجعوا إلى قومكم: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)}.

أخرجه الطبري (٤/ ٧٣) من طريق أحمد بن المفضل ثنا أسباط عن السدي به.
وسنده ضعيف جدًا؛ لأنه معضل، وأسباط ضعيف.

وعن قتادة؛ قال: ذاكم يوم أحد حين أصابهم القرح والقتل، ثم تنازعوا في نبي الله ﷺ بقية ذلك، فقال أناس: لو كان نبيًا؛ ما قتل، وقال أناس من عَلِيَّة أصحاب نبي الله ﷺ: قاتلوا على ما قاتل عليه محمد نبيكم؛ حتى يفتح الله لكم، أو تلحقوا به؛ فقال الله عز وجل: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ

=

=

{قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ}؛ يقول: إن مات نبيكم أو قتل؛ ارتددتم كفارًا بعد إيمانكم.

أخرجه الطبري (٤/ ٧٢، ٧٣): ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وهو مرسل صحيح الإسناد.

وعن الضحاك؛ قال: نادى مناد يوم أحد حين هزم أصحاب رسول الله ﷺ: ألا إنّ محمدًا قد قتل؛ فارجعوا إلى دينكم الأول؛ فأنزل الله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٧٤) من طريق جويبر عنه به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علتان: الأولى: جويبر هذا راوي "التفسير"؛ ضعيف جدًا؛ كما في "التقريب" (١/ ١٣٦).

والثانية: الإرسال.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله اعتزل هو وعصابة معه يومئذ على أكمة، والناس يفرون، ورجل قائم على الطريق يسألهم: ما فعل رسول الله ﷺ؟ وجعل كلما مروا عليه يسألهم، فيقولون: والله ما ندري ما فعل، فقال: والذي نفسي بيده، لئن كان النبي ﷺ قتل؛ لنعطينهم بأيدينا؛ إنهم لعشائرنا وإخواننا، وقالوا: إن محمدًا إن كان حيًا؛ لم يهزم، ولكنه قد قتل؛ فترخصوا في الفرار حينئذ؛ فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٧٤) بالسند المسلسل بالعوفيين عن ابن عباس. وهو ضعيف جدًا.

وعن ابن جريج: قال أهل المرض والارتياب والنفاق حين فر الناس عن النبي

=

=

ﷺ: قد قتل محمد؛ فالحقوا بدينكم الأول؛ فنزلت هذه الآية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٧٤، ٧٥) من طريق سنيد صاحب "التفسير" عن حجاج قال: قال ابن جريج به. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علتان: الأولى: الإعضال.

والثانية: سنيد هذا صاحب "التفسير" ضعيف.

وعن الضحاك؛ قال: قال ناس من أهل الارتياب والمرض والنفاق -قالوا يوم فر الناس عن نبي الله ﷺ، وشج فوق حاجبه وكسرت رباعيته-: قتل محمد؛ فالحقوا بدينكم الأول؛ فذلك قوله: {انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٧٤): حدثت عن الحسين بن الفرج قال: سمعت أبا معاذ الفضل بن خالد ثنا عبيد بن سليمان. قال: سمعنا الضحاك به. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال. والثانية: الانقطاع بين الطبري والحسين بن فرج.

وعن مجاهد؛ قال: ألقي في أفواه المسلمين يوم أحد أن النبي ﷺ قد قتل؛ فنزلت هذه الآية: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ (١١٤)}.

أخرجه الحسين بن داود المعروف بسنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٧٤) -: ثني حجاج محمد المصيصي، عن ابن جريج عن مجاهد. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه ثلاث علل: الأولى: الإرسال. والثانية: ابن جريج لم يسمع من مجاهد. والثالثة: سنيد هذا ضعيف؛ كما تقدم.

* قوله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [آل عمران:

=

=

١٤٤]، "أي: ليس محمد إِلا رسول الله مضت قبله رسل".

أي: ليس محمد إلا رسول مضت قبله رسل، والرسل منهم من مات ومنهم من قتل، أفإن أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفارا بعد إيمانكم.

قال الزجاج: "المعنى: إنه يموت كما ماتت الرسل قبله".

قوله تعالى: {أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [آل عمران: ١٤٤]، أي: "أفإِن أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفارًا بعد إِيمانكم؟".

قال قتادة: "يقول: "إن مات نبيكم أو قتل، ارتددتم كفارا بعد إيمانكم".

قال الزجاج: "أي: ارتددتم عن دينكم - وروي أن بعض من كان في يوم أحد ارتد، وبعضهم مضى مسافة ثلاثة أيام، فأعلم الله جل وعز أن الرسل ليست باقية في أممها أبدا وأنه يجب التمسك بما أتت به، وإن فقد الرسول بموت أو قتل".

قال سعيد بن جبير: "ما سمعنا أن نبيا قط قتل في القتال".

قال ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمدا قد قتل. ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمدا. وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ، فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله قد قتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء، عليهم السلام، فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال ففي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) أي: له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.

قال ابن عطية: هذا استمرار في عتبهم، وإقامة لحجة الله عليهم، المعنى: أن محمدا ﷺ رسول كسائر الرسل، قد بلغ كما بلغوا، ولزمكم أيها المؤمنون العمل بمضمن الرسالة وليست حياة الرسول وبقاؤه بين أظهركم شرطا في ذلك، لأن الرسول يموت كما مات الرسل قبله، قال الشوكاني: وإنما ذكر القتل مع علمه

=

=

سبحانه أنه لا يقتل لكونه مجوزا عند المخاطبين.

• قال ابن القيم: ومنها: أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصا بين يدي موت رسول الله ﷺ فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ أو قتل بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يقتلوا فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حي لا يموت فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به فكل نفس ذائقة الموت وما بعث محمد ﷺ ليخلد لا هو ولا هم بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد فإن الموت لا بد منه سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان إن محمدا قد قتل فقال (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين).

روى البخاري عن عائشة قالت (أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرسه من مسكنه بالسنح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى نزل فدخل على عائشة - رضى الله عنها - فتيمم النبي ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله ثم بكى فقال بأبي أنت يا نبي الله، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.

قال أبو سلمة فأخبرني ابن عباس - رضى الله عنهما - أن أبا بكر رضي الله عنه خرج وعمر رضي الله عنه يكلم الناس. فقال اجلس. فأبى. فقال اجلس. فأبى، فتشهد أبو بكر رضي الله عنه فمال إليه الناس، وتركوا عمر فقال أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدا ﷺ فإن محمدا ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى (وما محمد إلا رسول) إلى (الشاكرين) والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه فتلقاها منه الناس، فما يسمع بشر إلا يتلوها.

=

=

قال القرطبي: هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجراءته، فإن الشجاعة والجرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ كما تقدم بيانه في "البقرة" فظهرت عنده شجاعته وعلمه.

قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ، منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسنح، الحديث؛ كذا في البخاري.

قوله تعالى: {وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا} [آل عمران: ١٤٤]، " أي: ومن يرتد عن دينه فلا يضر الله شيئا".

قال مقاتل: "يقول: ومن يرجع إلى الشرك بعد الإيمان {فلن يضر الله شيئا} بارتداده من الإيمان إلى الشرك إنما يضر بذلك نفسه".

قال محمد بن إسحاق: "أي [ومن] يرجع عن دينه، [فـ] لن ينقص ذلك عن الله، ولا ملكه، ولا سلطانه، ولا قدرته".

قال المراغي: "أي: ومن يرجع عن جهاده ومكافحته الأعداء فلن يضر الله شيئا بما فعل، بل يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب، وحرمانها من الثواب، فالله قد وعد بنصر من ينصره ويعزّ دينه، ويجعل كلمته هي العليا، وهو لا محالة منجز وعده".

قوله تعالى: {وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤]، "أي: وسيثيب الله المطيعين، وهم الذين ثبتوا ولم ينقلبوا".

قال محمد بن إسحاق: "أي: من أطاعه، وعمل بأمره".

قال مقاتل: "يعني: الموحدين لله في الآخرة".

قال ابن أبي زمنين: "يعني: المؤمنين يجزيهم بالجنة".

قال الواحدي: أي: "الطَّائعين لله من المهاجرين والأنصار".

=

=

قال البيضاوي: أي: الشاكرين" على نعمة الإسلام بالثبات عليه كأنس وأضرابه".

قال ابن كثير: "أي: الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حيا وميتا".

قال أبو السعود: أي: "وسيجزي الله "الثابتين على دين الإسلام، سموا بـ {الشاكرين}، لأن الثبات عليه شكر له وعرفان لحقه وفيه إيماء إلى كفران المنقلبين".

قال المراغي: "وفى الآية إرشاد إلى أن المصايب التي تحل بالإنسان لا مدخل لها فى كونه على حق أو باطل، فكثيرا ما يبتلى صاحب الحق بالمصائب والرزايا، وصاحب الباطل بالنعم والعطايا.

وفيها إيماء إلى أنا لا نعتمد فى معرفة الحق والخير على وجود المعلّم بحيث نتركهما عند موته، بل نسير على منهاجهما حين وجوده وبعد موته.

والخلاصة- إن الله أوجب علينا أن نستضىء بالنور الذي جاء به الرسول ﷺ، أما ما يصيب جسمه من جرح أو ألم، وما يعرض له من حياة أو موت، فلا مدخل له فى صحة دعوته، ولا فى إضعاف النور الذي جاء به، فإنما هو بشر مثلكم خاضع لسنن الله كخضوعكم".

أخرج البخاري بسنده عن عن عُقيل عن ابن شهاب، عن أبي سَلَمة؛ "أن عائشة، رضي الله عنها، أخبرته أن أبا بكر، رضي الله عنه، أقبل على فَرَس من مَسْكنه بالسَّنْح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يُكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمَّم رَسُول الله ﷺ وهو مُغَشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ﷺ ثم أكب عليه وقَبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي. والله لا يجمع الله عليك موْتَتَين؛ أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مُتَّها.

وقال الزهري: وحدثني أبو سَلمة عن ابن عباس، أن أبا بكر خرج وعمر يُحَدِّث

=

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥).

{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوت إِلَّا بِإِذْنِ الله} بِقَضَائِهِ {كِتَابًا} مَصْدَر أَيْ كَتَبَ الله ذَلِكَ {مُؤَجَّلًا} مُؤَقَّتًا لَا يَتَقَدَّم وَلَا يَتَأَخَّر فَلِمَ انْهَزَمْتُمْ وَالْهَزِيمَة لَا تَدْفَع الْمَوْت وَالثَّبَات لَا يَقْطَع الْحَيَاة {وَمَنْ يُرِدْ} بِعَمَلِهِ {ثَوَاب الدُّنْيَا} أَيْ جَزَاءَهُ مِنْهَا {نُؤْتِهِ مِنْهَا} مَا قُسِمَ لَهُ وَلَا حَظّ لَهُ فِي الْآخِرَة {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَاب الْآخِرَة نُؤْتِهِ مِنْهَا} أَيْ من ثوابها {وسنجزي الشاكرين}(١).

=

الناس فقال: اجلس يا عمر فأبى عمرُ أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عُمَرَ، فقال أبو بكر: أما بعد، مَنْ كانَ يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حَيّ لا يموت، قال الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} إلى قوله: {وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ} قال: فوالله لكَأنّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها.

وأخبرني سعيد بن المُسَيَّب أن عُمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعقرتُ حتى ما تقلني رجلاي وحتى هَوَيتُ إلى الأرض".

(١) قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} [آل عمران: ١٤٥]، أي: "وما ينبغي لنفس أن تموت إلا بقدر الله".

أي: يمتنع غاية الامتناع لأي نفس أن تموت إلا بإذن الله، مهما حاول الناس أن يميتوا أحدا بدون إذن الله، فإنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا. (إلا بإذن الله) أي: بقضاء الله وقدره.

=

=

وإذا جاءت (ما كان) فإنها للممتنع إما شرعا أو قدرا. (ابن عثيمين).
قال مقاتل: "يعنى: أن تقتل حتى يأذن الله فى موته".
قال محمد بن إسحاق: "أي: أن لمحمد أجلا هو بالغه، إذا أذن الله له في ذلك كان".
قال الطبري: يعني: "وما يموت محمد ولا غيره من خلق الله إلا بعد بلوغ أجله الذي جعله الله غاية لحياته وبقائه، فإذا بلغ ذلك من الأجل الذي كتبه الله له، وأذن له بالموت، فحينئذ يموت. فأما قبل ذلك، فلن يموت بكيد كائد ولا بحيلة محتال، وقد قيل إنّ معنى ذلك: وما كانت نفسٌ لتموت إلا بإذن الله".
قال المراغي: "أي: ليس من شأن النفوس ولا من سنة الله فيها أن تموت بغير إذنه تعالى ومشيئته".
قوله تعالى: {كِتَابًا مُؤَجَّلًا} [آل عمران: ١٤٥]، أي: "كتب الله ذلك كتابا ذا أجل".
قال مقاتل: "في اللوح المحفوظ".
والمعنى: كتب الله ذلك كتابا مؤجلا، أي: كتابا ذا أجل، والأجل الوقت المعلوم.
قال الثعلبي: "يعني: أن لكل نفس أجلا هو بالغه ورزقا مستوفيه، لا يقدر أحد على تقديمه وتأخيره".
قال الزجاج: "الأجل هو الوقت المعلوم".
قال عمر بن عبدالعزيز: "لا تموت نفس ولها في الدنيا عمر ساعة إلا بلغته".
قال البغوي: أي كتب لكل نفس أجلا لا يقدر أحد على تغييره وتأخيره.
وقال الشوكاني: المؤجل المؤقت الذي لا يتقدم على أجله ولا يتأخر.
فكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر.

فلله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة
=

=

ولا يستقدمون.

كما قال تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون).

وقال تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون).

وقال تعالى (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون).

وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ أنها قالت (اللهم أمتعنى بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبى سفيان وبأخي معاوية. قال فقال النبي ﷺ «قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يعجل شيئا قبل حله أو يؤخر شيئا عن حله ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيرا وأفضل) رواه مسلم.

وعن عبد الله قال (حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة
فيدخلها) متفق عليه.

قال ابن كثير: وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه.

وقال الرازي:.... أن يكون المراد تحريض المسلمين على الجهاد بإعلامهم أن

=

=

الحذر لا يدفع القدر، وأن أحدا لا يموت قبل الأجل وإذا جاء الأجل لا يندفع الموت بشيء، فلا فائدة في الجبن والخوف.

وقال الجصاص: فيه حض على الجهاد من حيث لا يموت أحد فيه إلا بإذن الله تعالى، وفيه التسلية عما يلحق النفس بموت النبي ﷺ؛ لأنه بإذن الله تعالى؛ لأنه قد تقدم ذكر موت النبي ﷺ في قوله: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل).

وقال الشوكاني: هذا كلام مستأنف يتضمن الحث على الجهاد والإعلام بأن الموت لابد منه.

كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون).

قال المراغي: "أي أثبته الله مقرونا بأجل معين لا يتغير، ومؤقتا بوقت لا يتقدم ولا يتأخر، فكثير من الناس يتعرضون لأسباب المنايا بخوض غمرات الحروب، أو يتعرضون لعدوى الأمراض، أو يتصدون لأفاعيل الطبيعة، وهم مع ذلك لا يصابون بالأذى فالشجاع المقدام قد يسلم فى الحرب، ويقتل الجبان المتخلف ويفتك المرض بالشاب القوى، ويترك الضعيف الهزيل، وتغتال عوامل الأجواء الكهل المستوي وتتجاوز الشيخ الضعيف، فللأعمار آجال، وللآجال أقدار لا تخطوها، والأقدار هى السنن التي عليها تقوم نظم العالم وإن خفيت على بعض الناس، وإذا كان محيانا ومماتنا بإذن الله فلا محل للخوف والجبن، ولا عذر فى الوهن والضعف.

وفى الآية تحريض على الجهاد وتشجيع على لقاء العدو، فإنه إذا كان الأجل محتوما ومؤقتا بميقات، وأن أحدا لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المعارك

=

=

واقتحم المهالك فلا محل إذا للخوف والحذر- إلى ما فيها من الإشارة إلى كلاءة الله وحفظه لرسوله مع غلبة العدوّ له والتفافهم عليه وإسلام قومه له نهزة للمختلس، فلم يبق سبب من أسباب الهلاك إلا قد حصل، ولكن لما كان الله حافظا وناصرا له لم يضرّه شيء، وفيها إشارة إلى أن قومه قد قصّروا فى الذبّ عنه".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا} [آل عمران: ١٤٥]، "أي: من أراد بعمله الدنيا وأعراضها ومتاعها أعطاه الله عز وجل ما قسم له من ذلك، ولا يكون له نصيب في الآخرة".

قال مقاتل: "يعني الذين تركوا المركز يوم أحد وطلبوا الغنيمة".

قال محمد بن إسحاق: "أي: فمن كان منكم يريد الدنيا، ليست له رغبة في الآخرة، نؤته ما قسم له منها من رزق، ولا حظ له في الآخرة".

قال الثعلبي: "يعني ومن يرد بطاعته الدنيا ويعمل لها نؤته منها ما يكون جزاء لعمله".

قال ابن كثير: "أي: من كان عمله للدنيا فقد نال منها ما قدّره الله له، ولم يكن له في الآخرة من نصيب".

قال الطبري: أي: "من يرد منكم، أيها المؤمنون، بعمله جزاءً منه بعضَ أعراض الدنيا، دون ما عند الله من الكرامة لمن ابتغى بعمله ما عنده نعطه منها ما قُسم له فيها من رزق أيام حياته، ثم لا نصيب له في كرامة الله التي أعدها لمن أطاعه وطلب ما عنده في الآخرة".

وهذه الآية مقيدة عند كثير من العلماء بقوله تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا).

(من كان يريد العاجلة) يعني الدنيا (عجلنا له فيها ما نشاء) لا ما يشاء هو (لمن

=

=

نريد) فقيد المعجل والمعجل له.

قال ابن الجوزي: أكثر العلماء على أن هذا الكلام محكم، وذهبت طائفة إلى نسخه بقوله تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) والصحيح أنه محكم، لأنه لا يؤتى أحد شيئا إلا بقدرة الله ومشيئته.

ومعنى قوله تعالى (نؤته منها) أي: ما نشاء، وما قدرنا له، ولم يقل: ما يشاء هو.

قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا} [آل عمران: ١٤٥]، أي: "ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا".

قال محمد بن إسحاق: "ومن يرد ثواب الآخرة نوته منها ما وعده، مع ما يُجرى عليه من رزقه في دنياه".

قال مقاتل: "الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير الأنصاري من بني عمرو حتى قتلوا".

قال ابن كثير: أي: "ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا".

قال الزجاج: "وليس في هذا دليل أنه يحرمه خير الدنيا، لأنه لم يقل: ومن يرد ثواب الآخرة

لم نؤته إلا منها، والله عز وجل ذو الفضل العظيم".

قال المراغي: "وفيها تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد، فتركوا موقعهم الذي أمرهم النبي ﷺ بلزومه، وكأنه يقول لهم إن كنتم تريدون ثواب الدنيا فالله لا يمنعكم ذلك، وما عليكم إلا أن تسلكوا سبيله، ولكن ليس هذا هو الذي يدعوكم إليه محمد ﷺ، بل يدعوكم إلى خير ترون حظا منه فى الدنيا، والمعوّل عليه ما فى الآخرة.

فأنتم بين أمرين: إما إرادة الدنيا، وإما إرادة الآخرة، ولكل منهما سنن تتبع، وطرق

=

=

تسلك، وفى معنى الآية قوله تعالى: {مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}.

ومن هدى الإسلام أن يطلب المرء بعمله خيرى الدنيا والآخرة معا، ويقول: {رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً} والله يعطيه كل ما يطلب أو بعضه يحسب سنن الله وتدبيره لنظم الحياة.

وعلى الإنسان أن يعلم أن له طورين:

أحدهما: طور عاجل قصير، وهو طور الحياء الدنيا.

والثاني: طور آجل أبدىّ، وهو طور الحياة الآخرة.

وسعادته فى كل من الطورين مرتبطة بإرادته وما توجهه إليه من العمل، فالناس إنما يتفاضلون بالإرادات والمقاصد: فقوم يحاربون حبا فى الربح والكسب، أو ضراوة بالفتك والقتل، فإذا غلبوا أفسدوا فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل، وقوم يحاربون دفاعا عن الحق وإقامة لقوانين العدل، فإذا غلبوا عمروا الأرض وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فهل يستوى الفريقان، وهما فى المقصد مفترقان؟

كذلك يطلب الرجل الربح والكسب أحيانا بكل وسيلة مستطاعة طلبا للذاته، والحصول على شهواته، فيغلو فى الطمع، ويمعن فى الحيل، ولا يبالى أمن الحرام أكل أم من الحلال؟ يأكل الربا أضعافا مضاعفة، فيجمع القناطير المقنطرة، وهو مع ذلك يمنع الماعون، ولا يحضّ على طعام المسكين، ولو سئل البذل فى المصالح العامة كان أشد الناس بخلا وأقبضهم كفا، بينا يطلب آخر الكسب طلبا للتجمل وحبا للكرامة فى قومه وعشيرته، فيقتصد فى الطلب، ويتحرى الربح الحلال، ويلتزم الصدق والأمانة، ويبتعد عن الفسوق والخيانة، وهو مع هذا ينفق مما أفاء الله به عليه، فيواسى البائسين، ويساعد المعوزين، وتكون له اليد الطّولى فى الأعمال النافعة لأمته، فيشيد لها المدارس والمعابد، والملاجئ

=

=

والمستشفيات، فهل ينظر الناس إلى هذين نظرة متساوية، وهل هما فى القرب عند الله بمنزلة واحدة، أو يفضل أحدهما الآخر بحسن القصد والإرادة والميل إلى الخير وحب المصلحة العامة.

وقصارى القول- إن أقدار الرجال تتفاوت وتختلف باختلاف إرادتهم، فبينما تتسع دائرة وجود الشخص بحسب كبر إرادته وسعة مقصده، فتحيط بالكرة الأرضية، بل فوق ذلك بما يكون له من الكرامة فى العالم العلوي- إذا بآخر تضيق دائرة وجوده إذا هو أخلد إلى الشهوات، وركن إلى اللذات، فيكون حظه من عمله كحظ الحشرات، يأكل ويشرب ويبغى على الضعيف ويخاف من القوى.

والله قد جعل عطاءه للناس معلقا على إرادتهم، ولا يقدر مثل هذا إلا القليل منهم".

قوله تعالى: {وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٥]، أي: وسيثيب الله "الموحدين في الآخرة".

ولم يذكر جزاءهم، ليدل ذلك على كثرته وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر، قلة وكثرة وحسنا.

قال الثعلبي: "أي الموحدين المطيعين".

قال السمعاني: "يعني: المؤمنين".

قال ابن كثير: "أي: سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شُكْرهم وعملهم".

قال أبو السعودي: أي {الشاكرين} نعمة الإسلام الثابتين عليه الصارفين لما آتاهم الله تعالى من القوى والقدر إلى ما خلقت هي لأجله من طاعة الله تعالى لا يلويهم".

قال البيضاوي: أي: "وسنجزي الشاكرين الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم

=

=

شيء عن الجهاد".

قال النسفي: أي: "وسنجزي الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد".

قال محمد بن إسحاق: "أي: ذلك جزاء الشاكرين، يعني بذلك، إعطاء الله إياه ما وعده في الآخرة، مع ما يجري عليه من الرزق في الدنيا".

قال عباد بن منصور: "سألت الحسن عن قوله: {وسنجزي الشاكرين}، قال: يعطي الله العبد بنيته الدنيا والآخرة".

وقرأ الأعمش: "{وسيجزي}، بالياء، يعني الله سبحانه".

قال ابن الجوزي: "قوله تعالى: {ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها}، جمهور العلماء على أن هذا الكلام محكم واستدلوا عليه بشيئين:

أحدهما: أنه خبر والخبر لا يدخله النسخ.

والثاني: أنهم قالوا: ما أحد إلا وله من الدنيا نصيب مقدر، ولا يفوته ما قسم له. فمن كانت همته ثواب الدنيا أعطاه الله منها ما قدر له وذلك هو الذي يشاؤه الله، وهو المراد بقوله: {عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد}، ولم يقل يؤته منها ما يشاء هو، ويمكن أن يكون المعنى: لمن يريد أن يفتنه أو يعاقبه.

وذهب السدي إلى أنه منسوخ بقوله: {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد} وليس هذا بقول من يفهم الناسخ والمنسوخ، فلا يعول عليه".

ومعنى شكر الله لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، وإذا ترك له شيئا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئا رده عليه أضعافا مضاعفة.

=

=

لما عقر سليمان الخيل غضبا له إذ شغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى، أعاضه عنها متن الريح.

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

(منبهة): وورد في الحديث عن عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه". أخرجه البخاري، ومسلم.

وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر". وهو حديث حسن بطرقه وشواهده كما في الصحيحة (١٥٤).

قال الله تعالى: (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا) [آل عمران: ١٤٥].

وقال تعالى: (ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون (٣٤)) [الأعراف: ٣٤].

وقال تعالى: (لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) [يونس: ٤٩]، وقوله تعالى: (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) [النحل: ٦١]، وقوله تعالى: (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) [المنافقون: ١١]، وقوله تعالى: (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) [نوح: ٤].

وظاهر الآيات الكريمة أن لكل نفس أجلا محدودا، لا يتقدم ولا يتأخر، وأن عمر كل إنسان له أمد لا يتعداه، وأما الأحاديث ففيها أن البر والصلة يزيدان في الأعمار، وهذا يوهم خلاف الآيات.

=

=

ولم يتجاوز العلماء في هذه المسألة مسلك الجمع بين الآيات والأحاديث، وقد اختلفوا في هذه المسألة وفي الجمع بين الآيات والأحاديث على مذهبين:

الأول: مذهب تجويز الزيادة في الأعمار، وحمل الأحاديث الواردة في المسألة على الحقيقة.

وهذا مذهب الجمهور، واختاره جمع من العلماء المحققين، كابن حزم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ ابن حجر، والشوكاني، وغيرهم.

وقد اختلف أصحاب هذا المذهب في الجواب عن الآيات، والجمع بينها وبين الأحاديث على أقوال:

الأول: أن الزيادة الواردة في الأحاديث هي بالنسبة لعلم الملك الموكل بالعمر، وأما ما ورد في الآيات فهو بالنسبة لعلم الله تعالى، فيكون معنى الأحاديث: أن التأخير يكون في أثره المكتوب في صحف الملائكة، وأما أثره المعلوم عند الله تعالى؛ فلا تقديم فيه ولا تأخير.

وهذا قول: البيهقي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ ابن حجر، والسفاريني، وعبد الرحمن السعدي.

وذكره النووي، وابن الجوزي، وأبو العباس القرطبي، وأبو عبد الله القرطبي، والمناوي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلا في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب...، والله سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له، وما يزيده إياه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها؛ فلهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صحف الملائكة، وأما علم الله سبحانه

=

=

فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالما به، فلا محو فيه ولا إثبات". اهـ

وقال الحافظ ابن حجر: والحق أن الذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل، وأن الذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي، فيقع فيه المحو والإثبات، كالزيادة في العمر والنقص، وأما ما في علم الله فلا محو فيه ولا إثبات، والعلم عند الله. اهـ

والمراد بالمكتوب في صحف الملائكة يفسره حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "وكل الله بالرحم ملكا فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب، أذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد، فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه".

وحديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "يدخل الملك على النطفة ـ بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة ـ فيقول: يا رب، أشقي أو سعيد، فيكتبان؟ فيقول: أي رب، أذكر أو أنثى، فيكتبان؟ ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص".

وفي رواية: "فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص".

وعلى هذا فإن زيادة العمر ونقصانه إنما هي بالنسبة لعلم الملك الموكل بالآجال، وأما ما سبق في علم الله تعالى وقضاه في الأزل فلا زيادة فيه ولا نقصان، وعليه تحمل الآيات الواردة بأن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر.

القول الثاني: أن معنى الأحاديث: أن الله تعالى جعل صلة الرحم سببا لطول العمر، كسائر الأعمال التي أمر الله بها شرعا، ورتب عليها جزاء قدريا، فمن علم أنه يصل رحمه جعل أجله إلى كذا، ومن علم أنه يقطع رحمه جعل أجله ينتهي

=

=

إلى كذا، والكل قد فرغ منه في الأزل، وجف به القلم.

وهذا قول: الطحاوي، والقاضي عياض، وابن حزم، والزمخشري، وابن عطية، والقرافي، وابن أبي العز الحنفي، والمناوي، وشمس الحق آبادي، والشوكاني، والآلوسي، وابن عثيمين.

وذكره: ابن فورك، وابن الجوزي.

قال ابن حزم: "وأما قول رسول الله ﷺ: "من سره أن ينسأ في أجله فليصل رحمه" فصحيح موافق للقرآن، ولما توجبه المشاهدة، وإنما معناه: أن الله عز وجل لم يزل يعلم أن زيدا سيصل رحمه، وأن ذلك سبب إلى أن يبلغ من العمر كذا وكذا، وهكذا كل أجل في الدنيا؛ لأن من علم الله تعالى أنه سيعمر كذا وكذا من الدهر؛ فإن الله تعالى قد علم وقدر أنه سيتغذى بالطعام والشراب، ويتنفس بالهواء ويسلم من الآفات القاتلة تلك المدة التي لا بد من استيفائها، والمسبب والسبب كل ذلك قد سبق في علم الله عز وجل كما هو لا يبدل، قال تعالى: (ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد (٢٩)) [ق: ٢٩]

ولو كان على غير هذا لوجب البداء ضرورة، ولكان غير عليم بما يكون، متشككا فيه أيكون أم لا يكون؟ أو جاهلا به جملة، وهذه صفة المخلوقين لا صفة الخالق، وهذا كفر ممن قال به". اهـ

وقال القرافي: "الحق أن الله تعالى قدر له ستين سنة مرتبة على الأسباب العادية، من الغذاء والتنفس في الهواء، ورتب له عشرين سنة أخرى مرتبة على هذه الأسباب وصلة الرحم، وإذا جعلها الله تعالى سببا أمكن أن يقال: إنها تزيد في العمر حقيقة، كما نقول الإيمان يدخل الجنة، والكفر يدخل النار، بالوضع الشرعي لا بالاقتضاء العقلي، ومتى علم المكلف أن الله تعالى نصب صلة الرحم سببا لزيادة النساء في العمر بادر إلى ذلك كما يبادر لاستعمال الغذاء وتناول الدواء

=

=

والإيمان رغبة في الجنان، ويفر من الكفر رهبة من النيران، وبقي الحديث على ظاهره من غير تأويل يخل بالحديث". اهـ

القول الثالث: أن معنى الحديث: أن الله تعالى يكتب أجل عبده عنده مائة سنة، ويجعل بنيته وتركيبه وهيئته لتعمير ثمانين سنة؛ فإذا وصل رحمه زاد الله تعالى في ذلك التركيب وفي تلك البنية، ووصل ذلك النقص فعاش عشرين أخرى حتى يبلغ المائة، وهي الأجل الذي لا مستأخر عنه ولا متقدم.

ذكر هذا القول: ابن قتيبة، وابن فورك، وابن الجوزي.

القول الرابع: أن معنى الحديث: أن من وصل رحمه زاد الله في عمره في الدنيا من أجله في البرزخ، ومن قطع رحمه نقص الله من عمره في الدنيا، وزاده في أجل البرزخ.

روي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال أبو عبد الله القرطبي: "قيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من أحب أن يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه" كيف يزاد في العمر والأجل؟ فقال: قال الله عز وجل: (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) [الأنعام: ٢] فالأجل الأول: أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني، يعني المسمى عنده: من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ، لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء فيزيده في أجل البرزخ، فإذا تحتم الأجل في علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى: (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) [الأنعام: ٢].

قال القرطبي: فتوافق الخبر والآية، وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على

=

=

ظاهر اللفظ، في اختيار حبر الأمة، والله أعلم". اهـ

ونقل الحافظ ابن حجر نحو هذا القول عن الحكيم الترمذي، حيث قال: "المراد بذلك قلة البقاء في البرزخ".

أدلة هذا المذهب:

لأصحاب هذا المذهب عدة أدلة تؤيد ما ذهبوا إليه من أن الزيادة الواردة في الأحاديث حقيقية وليست معنوية، وأن إثبات الزيادة لا ينافي الآيات التي فيها أن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر، ومن هذه الأدلة:

الأول: قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) [الرعد: ٣٩].

ووجه الدلالة: أن المحو والإثبات - المذكورين في الآية - هما بالنسبة لما في علم الملك، وأما الذي في أم الكتاب - وهو الذي في علم الله تعالى - فلا محو فيه ألبتة، وهو الذي يقال له القضاء المبرم، ويقال للأول القضاء المعلق.

لله تعالى في خلقه قضاءان: مبرما، ومعلقا بفعل؛ فالمبرم: هو عبارة عما يقدره تعالى في الأزل من غير أن يعلقه على فعل، وهو في الوقوع نافذ لا محالة، ولا يمكن أن يتغير بحال، ولا يتوقف وقوعه على المقضي عليه، ولا المقضي له؛ لأنه من علمه سبحانه بما كان وما يكون، وخلاف معلومه سبحانه مستحيل قطعا، وهذا النوع لا يتطرق إليه المحو والإثبات، قال تعالى: (والله يحكم لا معقب لحكمه) [الرعد: ٤١]، وقال النبي ﷺ: قال الله تعالى: "إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد". [أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث (٢٨٨٩)]. وأما القضاء المعلق: فهو أن يعلق الله تعالى قضاءه على شيء؛ فإن فعل العبد ذلك الشيء كان له كذا وكذا، وإن لم يفعله لم يكن شيء، وهذا النوع يتطرق إليه المحو والإثبات، كما قال تعالى: (؟؟؟؟؟) [الرعد: ٣٩]. انظر: مرقاة المفاتيح، للملا علي القاري (١٠/ ٤٣٠)، وتحفة الأحوذي، للمباركفوري

=

=

(٦/ ٣٣٣).

والأحاديث الواردة في أن صلة الرحم تزيد في العمر محمولة على المعنى الأول؛ فإن الله يمحو ما يشاء فيه ويثبت، والآيات التي تفيد أن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر محمولة على المعنى الثاني، فلا محو فيه ولا إثبات.

قالوا: ومما يؤكد هذا المعنى قوله في الآية التي قبلها: (لكل أجل كتاب) ثم قال: (يمحو الله ما يشاء ويثبت) أي من ذلك الكتاب (وعنده أم الكتاب) أي أصله وهو اللوح المحفوظ فلا محو فيه ولا إثبات.

قال الشوكاني: "المحو والإثبات في الآية عامان يتناولان العمر والرزق، أو السعادة والشقاوة...، ولم يأت القائلون بمنع زيادة العمر ونقصانه بما يخصص هذا العموم". اهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: المحو والإثبات في صحف الملائكة، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالما به، فلا محو فيه ولا إثبات.

قال: ونظير هذا ما في الترمذي وغيره، عن النبي ﷺ: "أن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته، فأراه إياهم، فرأى فيهم رجلا له بصيص فقال: من هذا يا رب؟ فقال: ابنك داود. قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنة. قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنة. قال: فقد وهبت له من عمري ستين سنة. فكتب عليه كتاب وشهدت عليه الملائكة، فلما حضرته الوفاة قال: قد بقي من عمري ستون سنة. قالوا: وهبتها لابنك داود. فأنكر ذلك، فأخرجوا الكتاب. قال النبي ﷺ: فنسي آدم فنسيت ذريته، وجحد آدم فجحدت ذريته"،

وروي: "أنه كمل لآدم عمره ولداود عمره". فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة ثم جعله ستين، وهذا معنى ما روي عن عمر أنه قال: "اللهم إن كنت كتبتني شقيا فامحني واكتبني سعيدا؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. اهـ

=

=

الدليل الثاني: قوله تعالى: (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) [فاطر: ١١]، فالزيادة والنقصان المشار إليهما في الآية المراد بهما ما يكتب في صحف الملائكة، ومعنى الآية: أنه لا يطول عمر إنسان ولا ينقص منه إلا وهو في كتاب، أي صحف الملائكة.

الدليل الثالث: قوله تعالى: (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) [الأنعام: ٢]، فالمراد بالأجل الأول هو ما في صحف الملائكة، وما عند ملك الموت وأعوانه، وأما الأجل الثاني فالمراد به ما ذكر في قوله تعالى: (وعنده أم الكتاب) وقوله: (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) [الأعراف: ٣٤].

الدليل الرابع: ما روي عن عدد من الصحابة أنهم كانوا يقولون في أدعيتهم: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة؛ فأثبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة فامحني وأثبتني في أهل السعادة.

روي ذلك عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود رضي الله عنهما، فدل على أن مذهب الصحابة جواز المحو والإثبات في الشقاء والسعادة، فكذلك زيادة العمر ونقصانه.

الإيرادات والاعتراضات على هذا المذهب وأدلته:

ذكر أصحاب المذهب الثاني - القائلون بمنع الزيادة - بعض الإيرادات والاعتراضات على هذا المذهب وأدلته، منها:

الأول: إذا كان المحتوم واقعا فما الذي يفيده زيادة المكتوب ونقصانه؟

وأجيب: بأن الأصل أن تجرى المعاملات على الظاهر، وأما الخفي الباطن الذي لا يعلمه إلا الله فلا يعلق عليه حكم، فيجوز أن يكون المكتوب يزيد وينقص، ويمحى ويثبت ليبلغ ذلك على لسان الشرع إلى الآدمي، فبذلك يعلم فضيلة البر

=

=

وسوء العقوق، ويجوز أن يكون هذا مما يتعلق بالملائكة؛ فتؤمر بالإثبات والمحو، والعلم المحتوم لا يطلعون عليه، ومن هذا الباب إرسال الرسل إلى من علم الله أنهم لا يؤمنون.

الاعتراض الثاني: أن قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) [الرعد: ٣٩] معناه: يمحو ما يشاء من الشرائع، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، والسياق أدل على هذا الوجه، وهو قوله تعالى: (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) [الرعد: ٣٨] فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه، بل من عند الله تعالى، ثم قال: (لكل أجل كتاب (٣٨) يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب (٣٩)) [الرعد: ٣٨، ٣٩] أي أن الشرائع لها أجل وغاية تنتهي إليها ثم تنسخ بالشريعة الأخرى، فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل، ويثبت ما يشاء.

وأجيب: بأن هذا تخصيص لعموم الآية من غير مخصص، وأيضا فإن الشرائع والفرائض هي مثل العمر؛ فإذا جاز فيها المحو والإثبات جاز في العمر المحو والإثبات.

الاعتراض الثالث: أن قوله تعالى: (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) [فاطر: ١١]، الضمير في قوله: (من عمره) هو بمنزلة قولهم عندي درهم ونصفه، أي ونصف درهم آخر، فيكون معنى الآية: وما يعمر من معمر، ولا ينقص من عمر آخر إلا في كتاب.

وأجيب: بأن الأصل اتساق الضمائر، وعودها لمذكور واحد، فالضمير في قوله: (من عمره) عائد على قوله: (من معمر)، وهذا ظاهر النظم الكريم، وأما التأويل الذي ذكرتم ففيه إرجاع الضمير لشيء ليس له ذكر في الآية، وهذا خلاف الأصل، وخلاف الظاهر.

=

=
الاعتراض الرابع: أن قوله تعالى: (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) [الأنعام: ٢]، المراد بالأجل الأول أجل الحياة إلى الموت، والأجل الثاني أجل الموت إلى البعث، وقيل: الأجل الأول: أجل الدنيا، والثاني: الآخرة.

وأجيب: بأن الآية محتملة لهذه الأقوال، وغيرها، والآية إذا كانت محتملة لعدة معان لا تضاد بينها؛ فإنها تحمل على الجميع، ولا يصح تخصيصها بمعنى دون غيره.

المذهب الثاني: منع الزيادة في الأعمار.

وهذا مذهب عدد من العلماء، ونسبه بعضهم للجمهور.

وقد نسبه للجمهور: مرعي بن يوسف الكرمي، في كتابه "إرشاد ذوي العرفان"، ص (٤١)، وتبعه الشوكاني، في "تنبيه الأفاضل"، ص (١٢).

قلت: وفي نسبته للجمهور نظر؛ فإن هذا المذهب لم يقل به إلا عدد قليل من العلماء مقارنة بالمذهب الأول، والشوكاني إنما تبع مرعي بن يوسف في نسبته للجمهور، ولعل مرعي اعتقد ذلك بناء على ما فهمه من كلام ابن عطية، قال مرعي، ص (٤١ - ٤٢): "ومنهم من قال: إن العمر لا يزيد ولا ينقص، وبه قال جمهور العلماء، وحكى ابن عطية في تفسير سورة الأعراف: أنه مذهب أهل السنة". اهـ

قلت: ليس في كلام ابن عطية ما يفهم منه أن ذلك هو مذهب أهل السنة، بل الذي يفهم من كلامه أن حمل النصوص على الحقيقة هو مذهب أهل السنة، قال ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٢/ ٣٩٦): "وكأنه يظهر بين هذه الآية (يعني قوله تعالى: (ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) [الأعراف: ٣٤]) وبين قوله تعالى: (ويؤخركم إلى أجل مسمى) [إبراهيم: ١٠] تعارض؛ لأن تلك تقتضي الوعد بتأخير إن آمنوا، والوعيد بمعاجلة إن كفروا،
=

=

والحق مذهب أهل السنة: أن كل أحد إنما هو بأجل واحد لا يتأخر عنه ولا يتقدم، وقوم نوح كان منهم من سبق في علم الله تعالى أنه يكفر فيعاجل، وذلك هو أجله المحتوم، ومنهم من يؤمن فيتأخر إلى أجله المحتوم، وغيب عن نوح تعيين الطائفتين فندب الكل إلى طريق النجاة وهو يعلم أن الطائفة إنما تعاجل أو تؤخر بأجلها". اهـ

وأجاب أصحاب هذا المذهب عن الأحاديث بأنها محمولة على المجاز، لا الحقيقة، إلا أنهم اختلفوا في معنى "الزيادة" الواردة فيها على أقوال:

الأول: أن الزيادة كناية عن البركة في العمر؛ بسبب توفيق صاحبه إلى الطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، وصيانته عن تضييعه في غير ذلك، فينال في قصير العمر ما يناله غيره في طويله.

وهذا قول: أبي حاتم السجستاني، وابن حبان، وابن التين.

واختاره: النووي، والطيبي.

القول الثاني: أن الزيادة كناية عما يبقى بعد موته من الثناء الجميل، والذكر الحسن، والأجر المتكرر، حتى كأنه لم يمت.

حكى هذا القول القاضي عياض، وهو مذهب أبي العباس القرطبي.

القول الثالث: أن معنى الزيادة في العمر: نفي الآفات عمن وصل رحمه، والزيادة في فهمه وعقله وبصيرته. وهذا قول ابن فورك.

القول الرابع: أن المراد بالزيادة التوسعة في الرزق، والصحة في البدن، إذ إن الغنى يسمى حياة، والفقر يسمى موتا.

ذكره ابن قتيبة.

القول الخامس: أن المراد بالزيادة ما يكون للواصل من ذرية صالحة يدعون له بعد موته.

=

=

ذكره الحافظ ابن حجر، وهو اختيار: الشيخ حافظ حكمي.

وقد ورد في هذا المعنى حديث مرفوع، لكنه لا يصح، فعن أبي الدرداء ﵁ قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر فقال: "إن الله لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزق الله العبد ذرية صالحة يدعون له؛ فيلحقه دعاؤهم في قبره".

القول السادس: أن النبي ﷺ قصد بالحديث الحث على صلة الرحم بطريق المبالغة، ومعناه لو كان شيء يبسط الرزق والأجل لكان صلة الرحم. ذكره المناوي.

أدلة هذا المذهب:

استدل القائلون بمنع الزيادة في الأعمار بأدلة منها:

الأول: ما ورد في الكتاب والسنة من أن الآجال مقدرة، وأنها لا تزيد ولا تنقص.

أما الكتاب؛ فقوله تعالى: (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا (٣٤)) [آل عمران: ١٤٥]، وقوله تعالى: (ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) [الأعراف: ٣٤]، وقوله تعالى: (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون (١١)) [المنافقون: ١١]، وقوله تعالى: (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) [نوح: ٤].

قالوا: ففي هذه الآيات التصريح بأن الآجال مقدرة، وأنها لا تزيد ولا تنقص.

وأما السنة؛ فعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قالت أم حبيبة: اللهم متعني بزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال لها رسول الله ﷺ: "إنك سألت الله لآجال مضروبة، وآثار موطوءة، وأرزاق مقسومة، لا يعجل شيئا منها قبل حله، ولا يؤخر منها شيئا بعد حله، ولو سألت الله أن يعافيك من عذاب في النار وعذاب في القبر لكان خيرا لك".

=

=

وعنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد".

قالوا: فهذه أخبار عن رسول الله ﷺ قد جاءت مجيء الكتاب بأن لكل نفس أجلا، لا يتقدم ولا يتأخر.

الدليل الثاني: أن الله تعالى أخبر أنه قسم الأرزاق بين عباده فقال: (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) [الزخرف: ٣٢]، وقال في الأجل: (ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون (٣٤)) [الأعراف: ٣٤]، ولم يخبر أن غير الأجل والرزق بمنزلة الرزق والأجل، وقد أخبر أنه يزيد من يشاء في فضله، ولم يخبر أنه يزيد من يشاء في رزقه، ويؤخر من يشاء في عمره.

الدليل الثالث: أن معنى الأثر في اللغة هو ما يتبع الشيء؛ فإذا أخر حسن أن يحمل على الذكر الحسن، ومن هذا المعنى قوله ﷺ: "من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه"؛ فإنه محمول على الذكر الحسن، ومنه قول الخليل عليه السلام: (واجعل لي لسان صدق في الآخرين (٨٤)) [الشعراء: ٨٤]، وقوله تعالى: (إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) [يس: ١٢].

وقال أبو تمام:

توفيت الآمال بعد محمد... وأصبح في شغل عن السفر السفر

الدليل الرابع: قالوا: ومما يدل على أن المراد بالزيادة الذكر الجميل: أن أكثر الأحاديث التي فيها الزيادة وردت في الصدقة وصلة الرحم، وهما مما يترتب عليهما ثناء الناس، في الحياة وبعد الممات.

=

=

الإيرادات والاعتراضات على هذا المذهب وأدلته:
وقد أجاب أصحاب المذهب الأول - القائلون بجواز الزيادة - على هذه الأدلة وعارضوا بعض التأويلات التي ذكروها فقالوا:
١ - إن ما ذكر من أن المراد بالزيادة البركة في العمر، يجاب عنه: بأن البركة أيضا من جملة المقدرات، فإذا كان القدر مانعا من الزيادة فليمنع من البركة في العمر والرزق كما منع من الزيادة فيهما، بل هذا القول يلزم منه مفسدتان:
الأولى: إيهام أن البركة خرجت عن القدر، وهذا رديء جدا.
الثانية: أنه يقلل من الرغبة في صلة الرحم؛ فإذا قلنا لزيد: إن وصلت رحمك زادك الله تعالى في عمرك عشرين سنة، فإنه يجد من الوقع لذلك ما لا يجده عند قولنا: إنه لا يزيدك الله تعالى بذلك يوما واحدا؛ بل يبارك لك في عمرك فقط، فيختل المعنى الذي قصده رسول ﷺ من المبالغة في الحث على صلة الرحم، والترغيب فيها.
٢- وأما الآيات التي فيها أن الأجل إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر؛ فإنها مختصة بالأجل إذا حضر، فإنه لا يتقدم ولا يتأخر عند حضوره.
يؤيد هذا: أن أغلب الآيات جاءت مقيدة بالمجيء، قال تعالى: (فإذا جاء أجلهم) وقال: (إذا جاء أجلها)، فإذا حضر الأجل فإنه لا يتقدم ولا يتأخر، وأما قبل ذلك فيجوز أن يؤخره الله بالدعاء وصلة الرحم، ونحو ذلك.
وقد روى الزهري عن سعيد بن المسيب قال: لما طعن عمر بن الخطاب قال كعب: لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله، فقال الناس: سبحان الله. أليس قد قال الله: (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) فقال كعب: أو ليس قد قال الله: (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) [فاطر: ١١] قال الزهري: فنرى أن ذلك يؤخر ما لم يحضر الأجل، فإذا حضر لم يؤخر، وليس
=

=

أحد إلا وله أجل مكتوب.

وعند النظر في مذاهب العلماء في المسألة يظهر أن الجميع متفق على أن الأعمار والآجال التي قدرها الله وقضاها في الأزل لا مجال للزيادة فيها والنقصان، وهذا ما دلت عليه نصوص الكتاب، وإنما تباينت أقوالهم في توجيه الأحاديث التي يوهم ظاهرها خلاف ذلك، وقد ذكرت أن منهم من حمل هذه الأحاديث على الحقيقة، وهم الجمهور، ومنهم من حملها على المجاز، والحق وجوب حملها على الحقيقة، والمختار من التأويلات التي ذكرها الجمهور:

١- أن الزيادة هي باعتبار ما في صحف الملائكة، وأما ما في علم الله تعالى فلا تقديم فيه ولا تأخير.

٢- وأن الزيادة إنما هي باعتبار فعل العبد وكسبه، ففعله من جملة الأسباب التي أمر الله بها شرعا، ورتب عليها جزاء قدريا، وقد علم سبحانه من يصل رحمه ممن يقطعها، ورتب على ذلك أجلا لا يتقدم ولا يتأخر.

وهذان القولان هما اللذان تجتمع بهما النصوص، ويندفع بهما التعارض، إن شاء الله تعالى.

يدل على هذا الاختيار:

١- أن الأصل حمل نصوص الوحيين على الحقيقة، ولا يجوز العدول عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل.

٢- أن الله تعالى أرسل الرسل، وشرع الشرائع، ورتب على ذلك جزاء، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وقد علم سبحانه وقدر في الأزل ما الخلق صائرون إليه؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة".

=

=

ومن جملة ذلك صلة الرحم فهي من أمره وشرعه سبحانه، وقد رتب عليها جزاء، وهو مما علمه سبحانه وقدره في الأزل.

٣- ما ورد في الكتاب والسنة من الأمر بالدعاء، كقوله تعالى: (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠)) [غافر: ٦٠]، وقوله تعالى: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون (١٨٦)) [البقرة: ١٨٦].

ومن السنة قوله ﷺ: "لا يرد القضاء إلا الدعاء"، وتعوذه ﷺ من سوء القضاء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: "أن النبي ﷺ كان يتعوذ من سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شماتة الأعداء، ومن جهد البلاء"، فلو كان الدعاء لا يفيد شيئا؛ لكان أمره تعالى بالدعاء لغوا لا فائدة فيه، وكذا تكون استعاذة النبي ﷺ لغوا لا فائدة فيها.

٤- قوله تعالى - حكاية عن نوح عليه السلام -: (قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) [نوح: ٢ - ٤] حيث دعا نوح قومه إلى عبادة الله وطاعته، ووعدهم من الله تعالى بمغفرة الذنوب، وتأخير الأجل إن هم أطاعوه، وفي عطف الوعد بتأخير الأجل على الوعد بمغفرة الذنوب دليل على أن التأخير يعد حقيقة كمغفرة الذنوب؛ إذ لو كان العمر لا يزيد حقيقة بفعل الطاعة لما عطفه على مغفرة الذنوب؛ لأن المغفرة حقيقية، فكذلك فليكن التأخير في الأجل.

ثم قال نوح: (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) حيث نبه على أن ما علمه الله تعالى وكتبه في الأزل فإنه لا يتغير ولا يتبدل، وما كان لنوح عليه السلام أن يعد قومه بتأخير آجالهم إن هم أطاعوهم، ثم يناقض نفسه بأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

=

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦).

{وكأين} كم {من نبي قاتل} وَفِي قِرَاءَة قَاتَلَ وَالْفَاعِل ضَمِيره {مَعَهُ} خَبَر مُبْتَدَؤُهُ {رِبِّيُّونَ كَثِير} جُمُوع كَثِيرَة {فَمَا وَهَنُوا} جَبُنُوا {لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيل الله} مِنْ الْجِرَاح وَقَتْل أَنْبِيَائِهِمْ وَأَصْحَابهمْ {وَمَا ضَعُفُوا} عَنْ الْجِهَاد {وَمَا اسْتَكَانُوا} خَضَعُوا لِعَدُوِّهِمْ كَمَا فَعَلْتُمْ حِين قِيلَ قُتِلَ النَّبِيّ {وَالله يُحِبّ الصَّابِرِينَ} عَلَى الْبَلَاء أَيْ يُثِيبهُمْ[1].

=

٥- أن زيادة العمر ونقصانه هي مثل ما سبق من السعادة والشقاوة، مع تكليف العمل والطاعة، والنهي عن المعصية، وقد سبق في أم الكتاب ما سبق من سعادة وشقاوة؛ ولذلك لما قال الصحابة رضي الله عنهم: فلم العمل؟ قال النبي ﷺ: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له".

(١) قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} [آل عمران: ١٤٦]، " أي: وكم من الأنبياء قاتل لإعلاء كلمة الله وقاتل معه علماء ربانيون وعُبَّاد صالحون كثير".

قال الزجاج: أي: "وكأين من نبي قتل ومعه {رِبِّيُّونَ} الجماعات الكثيرة، وقال بعضهم الربوة عشرة آلاف".

قال محمد بن إسحاق: "وكأين من نبي أصابه القتل ومعه جماعات".

قال الحسن: "قد كانت أنبياء الله قبل محمد قاتل معها علماء"، وروي عنه أيضا أن: "الربيون من العلماء مأخوذ من الرب؛ لأنهم على دين الرب وطريقه".

قال الضحاك: "الربيون: الربوة الواحدة ألف".

وقال عطاء الخراساني: "الربوة: عشرة آلاف في العدد".

=

=

أخرج سفيان عن عبد الله في قوله: {وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير}، قال: "الوف".

قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجمعوا على أن معنى (كأين) كم، وتأويلها التكثير لعدد الأنبياء الذين هذه صفتهم، ونظيره قوله (فكأين من قرية أهلكناها) (وكأين من قرية أمليت لها). (تفسير الرازي)

قيل: معناه كم من نبي قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير، وهذا اختيار ابن جرير.

قال ابن تيمية: قوله (قتل) أي النبي قتل. هذا أصح القولين. وقوله (معه ربيون كثير) جملة في موضع الخبر صفة للنبي – صفة بعد صفة – أي كم من نبي معه ربيون كثير قتل ولم يقتلوا معه. فإنه كان يكون المعنى: أنه قتل وهم معه. والمقصود: أنه كان معه ربيون كثير وقتل في الجملة. وأولئك الربيون (ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا)و(الربيون) الجموع الكثيرة، وهم الألوف الكثيرة. وهذا المعنى: هو الذي يناسب سبب النزول وهو ما أصابهم يوم أحد لما قيل (إن محمدا قد قتل) وقد قال قبل ذلك (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) وهي التي تلاها أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يوم مات النبي ﷺ، وقال: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، فإنه عند قتل النبي وموته: تحصل فتنة عظيمة للناس –المؤمنين والكافرين– وتحصل ردة ونفاق لضعف قلوب أتباعه لموته، ولما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين: إن هذا قد انقضى أمره وما بقي يقوم دينه، وأنه لو كان نبيا لما قتل وغلب ونحو ذلك، فأخبر الله تعالى: أنه كم من نبي قتل؟. فإن بني إسرائيل قتلوا كثيرا من الأنبياء. والنبي معه ربيون كثير أتباع له. وقد يكون

=

=

قتله في غير حرب ولا قتال، بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير، فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله وما ضعفوا، وما استكانوا، والله يحب الصابرين. ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب.

(فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله) أي: ما ضعفت قلوبهم.

وفي قوله تعالى: {رِبِّيُّونَ} [آل عمران: ١٤٦]، أربعة أقاويل:

أحدها: أنهم الذين يعبدون الرب وأحدهم رِبّيٌّ، قاله الأخفش، لأن "العرب تنسب الشيء إلى الشيء فيغير حركته كما يقول بصري منسوب إلى بصرة، فكذلك {ربيون}، منسوب إلى «الرب»".

الثاني: أنهم الجماعات الكثيرة، و"الربيون" جمع "الربية"، وهي الفرقة، وهو قول ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، والسدي، وقتادة، وعكرمة، ومجاهد، والربيع، والضحاك، وابن إسحاق.

ومنه قوله حسان:

وإذا معشر تجافوا عن الحق... حملنا عليهم ربيا

والثالث: انهم العلماء الكثيرون، وهو قول ابن عباس أيضا، والحسن أيضا.

والرابع: أن "الربيون": الأتباع. والربانيون: الولاة، والربيون الرعية، وهو قول أبن زيد.

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ} [آل عمران: ١٤٦]، ثلاثة اوجه من القراءة:

أحدها: قرأ ابن كثير وحده: {وكائن}، الهمزة بين الألف والنون على وزن: "فاعل".

والثاني: وقرأ الباقون: {وكأين}، الهمزة بين الكاف والياء مشددة على وزن: "كعين".

=

=

والثالث: وقرأ ابن محيصن: (كأي) ممدودا بغير نون.

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {قَاتَلَ مَعَهُ} [آل عمران: ١٤٦]، على قراءتين:

إحداهما: {قتل معه}، قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو، وهي قراءة ابن عباس واختيار أبي حاتم، وحسّنه الأخفش.

ومن قرأ {قتل} فله ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون القتل واقعا على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قراءة (قتل) فيكون في الآية إضمار معناه ومعه ربيون كثير كما يقال: قتل الأمير معه جيش عظيم، أي ومعه، ويقول: خرجت معي تجارة، أي ومعي.

والوجه الثاني: أن يكون القتل نال النبي ومعه من الربيين، ويكون وجه الكلام: قتل بعض من كان معه، تقول العرب: قتلنا بني تميم وبني فلان، وإنما قتلوا بعضهم ويكون قوله: فما وهنوا راجعا إلى الباقين الذين لم يقتلوا.

والوجه الثالث: أن يكون القتل للربيين لا غير.

والقراءة الثانية: {قاتل} بالألف، قرأ بها عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي، وهي قراءة ابن مسعود واختيار أبي عبيد.

قال الثعلبي: "فمن قرأ (قاتل) فلقوله: {فما وهنوا}، ويستحيل وصفهم بأنهم لم يهنوا بعد ما قتلوا، ولقول سعيد بن جبير: «ما سمعنا أن نبيا قط قتل في القتال»".

وقال أبو عبيد: "إن الله تعالى إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلا فيه، وإذا حمد من قتل خاصة لم يدخل فيه غيرهم، فقاتل أعم".

وتقرأ {رِبِّيُّونَ}، بكسر الراء، وهو الأكثر، وبعضهم قرأ {ربيون} بضم الراء، وهي لغة بني تميم.

قوله تعالى: {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ} [آل عمران: ١٤٦]، "أي: ما جبنوا ولا ضعفت هممهم لما أصابهم من القتل والجراح".

=

=

قال الزجاج: أي: "فما فتروا".

قال الماوردي: "الوهن: الانكسار بالخوف، والمعنى: فلم يهنوا بالخوف".

عن ابن عباس: "{فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله}، قال: لقتل أنبيائهم".

قال أبو مالك: "يعني: فما عجزوا عن عدوهم".

قال محمد بن إسحاق: "{فما وهنوا} لفقد نبيهم".

قال السدي: "فما وهن الربيون لما أصابهم في سبيل الله من قتل النبي".

قال الحسن: "لكي لا يهن أصحاب محمد ﷺ".

قوله تعالى: {وَمَا ضَعُفُوا} [آل عمران: ١٤٦]،: أي: وما ضعفوا عن الجهاد".

قال الزجاج: أي: "وما جبنوا عن قتال عدوهم".

قال الماوردي: "الضعف نقصان القوة، والمعنى: ولا ضعفوا بنقصان القوة".

قال محمد بن إسحاق: "{وما ضعفوا} عن عدوهم".

قال قتادة: "يقول: ما عجزوا وما تضعضعوا لقتل نبيهم".

عن الضحاك: {ربيون كثير} قال: "فالربيون: الجموع، قتل نبيهم في قتالهم، فلم يهنوا لذلك، ولم يضعفوا لإيمانهم".

قال السدي: "ما ضعفوا في سبيل الله لقتل النبي".

قوله تعالى: {وَمَا اسْتَكَانُوا} [آل عمران: ١٤٦]، " أي ما ذلّوا ولا خضعوا لعدوهم".

قال الزجاج: أي: "ما خضعوا لعدوهم".

قال الماوردي: "الاستكانة: الخضوع، والمعنى: ولا استكانوا بالخضوع".

قال الراغب: "الاستكانة: الخشوع والتضرع للمخافة".

قال الماتريدي: "قيل: لم يذلوا في عدو لهم، ولم يخضعوا لقتل نبيهم؛ بل قاتلوا بعده على ما قاتلوا معه؛ فهلا قاتلتم أنتم على ما قاتل عليه نبيكم؛ كما قاتلت

=

=

القرون من قبلكم إذا أصيب أنبياؤهم".

قال زيد بن أسلم: "وما استكانوا لعدوهم".

عن ابن جريح قال: "بلغني عن ابن عباس أنه قال في قوله: {وما استكانوا}، قال: تخشعوا".

قال قتادة: "يقول: "ما ارتدوا عن بصيرتهم، ولا عن دينهم، أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله، حتى لحقوا بالله".

قال محمد بن إسحاق: "{وما استكانوا} لما أصابهم في الجهاد، عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر".

قال السدي: "يقول: ما ذلوا حين قال لهم رسول الله ﷺ: ليس لهم أن يعلونا لا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون".

قال الزمخشري: ما وهنوا عند قتل النبي وما ضعفوا عن الجهاد بعده وما استكانوا للعدو، وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار، عند الإرجاف بقتل رسولهم، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين.

قال القرطبي: ومعنى الآية تشجيع المؤمنين، والأمر بالاقتداء بمن تقدم من خيار أتباع الأنبياء؛ أي كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثير، أو كثير من الأنبياء قتلوا فما ارتد أممهم؛ قولان: الأول للحسن وسعيد بن جبير، قال الحسن: ما قتل نبي في حرب قط، وقال ابن جبير: ما سمعنا أن نبيا قتل في القتال.

وقال ابن عاشور: قوله تعالى (فما وهنوا) أي الربيون؛ إذ من المعلوم أن الأنبياء لا يهنون؛ فالقدوة المقصودة هنا، هي الاقتداء بأتباع الأنبياء، أي لا ينبغي أن يكون أتباع من مضى من الأنبياء، أجدر بالعزم من أتباع محمد ﷺ.

وجمع بين الوهن والضعف، وهما متقاربان تقاربا قريبا من الترادف؛ فالوهن قلة القدرة على العمل، وعلى النهوض في الأمر، والضعف بضم الضاد وفتحها ضد

=

=

القوة في البدن، وهما هنا مجازان، فالأول أقرب إلى خور العزيمة، ودبيب اليأس في النفوس والفكر، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة.

وأما الاستكانة فهي الخضوع والمذلة للعدو.

ومن اللطائف ترتيبها في الذكر على حسب ترتيبها في الحصول: فإنه إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء، وجاء الاستسلام، فتبعته المذلة والخضوع للعدو.

واعلموا أنه إذا كان هذا شأن أتباع الأنبياء، وكانت النبوءة هديا وتعليما، فلا بدع أن يكون هذا شأن أهل العلم، وأتباع الحق، أن لا يوهنهم، ولا يضعفهم، ولا يخضعهم، مقاومة مقاوم، ولا أذى حاسد، أو جاهل، وفي الحديث الصحيح، في البخاري أن خبابا قال للنبي ﷺ: لقد لقينا من المشركين شدة ألا تدعو الله " فقعد وهو محمر وجهه فقال: "لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه. (تفسير ابن عاشور)

قال الثعالبي: اعلم (رحمك الله) أن أصل الوهن والضعف عن الجهاد، ومكافحة العدو؛ هو حب الدنيا، وكراهية بذل النفوس لله، وبذل مهجها للقتل في سبيل الله؛ ألا ترى إلى حال الصحابة رضي الله عنهم، وقلتهم في صدر الإسلام، وكيف فتح الله بهم البلاد، ودان لدينهم العباد، لما بذلوا لله أنفسهم في الجهاد، وحالنا اليوم، كما ترى؛ عدد أهل الإسلام كثير، ونكايتهم في الكفار نزر يسير، وقد روى أبو داود في "سننه" عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: "يوشك الأمم أن تتداعى عليكم؛ كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت" اه، فانظر رحمك الله، فهل هذا الزمان إلا زماننا بعينه، وتأمل حال

=

=

ملوكنا، إنما همتهم جمع المال من حرام وحلال، وإعراضهم عن أمر الجهاد، فإنا لله وإنا إليه راجعون على مصاب الإسلام.

قوله تعالى: {وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]، "أي: والله يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله".

قال الماتريدي: يعني: "على قتال عدوهم، وعلى كل مصيبة تصيبهم".

قال محمد ابن إسحاق: "{والله يحب الصابرين} لما أصابهم في الجهاد عن الله، وعن دينهم وذلك الصبر".

(تنبيه): تأويل المصنف لصفة المحبة بلوازمها على خلاف مذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة.

فأهل السنة والجماعة يثبتون صفة الحب والمحبة لله عَزَّ وجَلَّ، ويقولون: هي صفة حقيقية لله عَزَّ وجَلَّ، على ما يليق به، وليس هي إرادة الثواب؛ كما يقول المؤولة. كما يثبت أهل السنة لازم المحبة وأثرها، وهو إرادة الثواب وإكرام من يحبه سبحانه.

وأما المعطلة فينفون صفة المحبة، فالجهمية يقولون إنه لا يحب ولا يحب، لأن المحبة ميل الشيء إلى ما يناسبه، ولا تناسب بين الخالق والمخلوق. وهذا إن صح تفسيرا للمحبة فإنه يختص بمحبة المخلوق، فالمحبة معنى معقول، هو ضد الكره، والله أخبر أنه يحب أولياءه، وأخبر أنه يمقت الكافرين.

نفاة المحبة منهم من يفسر المحبة من الله بإرادة الإنعام، أو يفسرها بنفس النعم المخلوقة، ويفسر البغض بإرادة الانتقام أو بنفس العقوبة، والمهم عندهم نفي حقيقة المحبة عن الله، ينفون أيضا محبة المخلوق لذات الخالق سبحانه، ويقولون إن المحبة هي محبة ثوابه أو محبة طاعته، لأن المحبة لا تتعلق إلا بالمخلوق.

=

=

قال أيضا في مجموع الفتاوى (٥/ ٨٠): ونعتقد أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلا واتخذ نبينا محمدا ﷺ خليلا وحبيبا والخلة لهما منه على خلاف ما قاله المعتزلة إن الخلة الفقر والحاجة إلى أن قال: والخلة والمحبة صفتان لله هو موصوف بهما ولا تدخل أوصافه تحت التكييف والتشبيه وصفات الخلق من المحبة والخلة جائز عليها الكيف؛ فأما صفاته تعالى فمعلومة في العلم وموجودة في التعريف قد انتفى عنهما التشبيه فالإيمان به واجب واسم الكيفية عن ذلك ساقط. ا. هـ

وقال الشيخ محمد خليل هراس في شرح الواسطية (ص ١٠٢): "وقوله: {وأحسنوا إن الله يحب المحسنين}، {وأقسطوا إن الله يحب المقسطين}، {فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين}، {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين}، وقوله: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}، وقوله: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه}، وقوله: {إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص}.

تضمنت هذه الآيات إثبات أفعال له تعالى ناشئة عن صفة المحبة، ومحبة الله عز وجل لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به، وهي من صفات الفعل الاختيارية التي تتعلق بمشيئته، فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة.

وينفي الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة؛ بدعوى أنها توهم نقصا؛ إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه.

فأما الأشاعرة؛ فيرجعونها إلى صفة الإرادة، فيقولون: إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته.

وكذلك يقولون في صفات الرضا والغضب والكراهية والسخط؛ كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب.

=

=

وأما المعتزلة؛ فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء؛ بناء على مذهبهم في وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصي.

وينفي الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة؛ بدعوى أنها توهم نقصا؛ إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه.

فأما الأشاعرة؛ فيرجعونها إلى صفة الإرادة، فيقولون: إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته.

وكذلك يقولون في صفات الرضا والغضب والكراهية والسخط؛ كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب.

وأما المعتزلة؛ فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء؛ بناء على مذهبهم في وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصي.

وأما أهل الحق؛ فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، فلا تقتضي عندهم نقصا ولا تشبيها. كما يثبتون لازم تلك المحبة، وهي إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته.

وليت شعري بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «إن الله إذا أحب عبدا؛ قال لجبريل عليه السلام: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيقول جبريل عليه السلام لأهل السماء: إن ربكم عز وجل يحب فلانا فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغضه فمثل ذلك»، رواه الشيخان؟!

وقوله تعالى في الآية الأولى: (وأحسنوا) أمر بالإحسان العام في كل شيء؛ لا سيما في النفقة المأمور بها قبل ذلك، والإحسان فيها يكون بالبذل وعدم الإمساك، أو

=

=

بالتوسط بين التقتير والتبذير، وهو القوام الذي أمر الله به في سورة الفرقان.

روى مسلم في (صحيحه) عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

وأما قوله: {إن الله يحب المحسنين} فهو تعليل للأمر بالإحسان، فإنهم إذا علموا أن الإحسان موجب لمحبته؛ سارعوا إلى امتثال الأمر به.

وأما أهل الحق؛ فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، فلا تقتضي عندهم نقصا ولا تشبيها. كما يثبتون لازم تلك المحبة، وهي إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته. ا. هـ

وقال الشيخ الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٦٤): قوله: "أخبروه أن الله يحبه" قد يكون سبب محبة الله له: محبته لهذه السورة، أو لمحبته ذكر صفات الرب - عز وجل -، وحسن فهمه وعقيدته. في ذلك، أو لمجموع الأمرين، وهو الأولى.

وفيه ثبوت محبة الله تعالى لأهل طاعته من عباده، والأدلة عليه كثيرة جدًا، فلذلك صار إنكاره ضلالًا بينًا.

قال المازري، ومن تبعه: محبة الله لعباده: إرادته ثوابهم، وتنعيمهم.

وقيل: هي نفس الإثابة، والتنعيم.

ومحبتهم له، لا يبعد فيها الميل منهم إليه، وهو مقدس عن الميل.

وقيل: محبتهم له: استقامتهم على طاعته.

والتحقيق: أن الاستقامة ثمرة المحبة.

وحقيقة المحبة له: ميلهم إليه؛ لاستحقاقه سبحانه المحبة من جميع الوجوه.

كما أن تأويل المحرفين بأنها الاستقامة على الطاعة، كما ذكره المازري، أو أنها

=

=

إرادتهم أن ينفعهم، كما نقله الحافظ عن ابن التين، مخالف للشرع، والعقل، والواقع المحسوس، بل قد يؤول ذلك إلى إنكار أصل دين الإسلام؛ لأن مبنى دين الإسلام على شهادة لا إله إلا الله.

ومعنى الإله: المحبوب الذي تألهه القلوب، وتحبه، وتعظمه، وتجله، وتقصده بالإنابة والخضوع والذل، والافتقار إليه، والخوف منه، ورجائه.

فمن أنكر ميل القلوب إليه تعالى بالحب والتأله، فقد أنكر حقيقة الإسلام، وهل الشرك- الذي حرمت الجنة على صاحبه - إلا أن يجعل للمخلوق نصيبًا مع الله -تعالى- في هذا الحب؟ كما قال -تعالى-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ}.

فبين - تعالى- أن الذي يحب المخلوق كحب الله أنه مشرك قد اتخذ لله ندًا، وأخبر - تعالى- عن هؤلاء أنهم سيقولون لأندادهم وهم في النار: {تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ {٩٧} إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، ولا يجوز أن تكون تسويتهم لهم برب العالمين إلا في الحب؛ لأنه لا يمكن أن يقول عاقل إن أحدًا من الخلق يساوي الله -تعالى- في الفعل والتصرف.

وقول ابن التين الذي نقله الحافظ: "إن معنى محبة المخلوقين لله: إرادتهم أن ينفعهم" من أبطل الكلام المخالف للواقع وللشرع والعقل ولولا أن هذا مسجل في الكتب المتداولة بين المسلمين، لم يجز ذكره، وهل يوجد أحد من الخلق لا يريد أن ينفعه الله، حتى إبليس، ومن دونه من دعائم الكفر والإلحاد، من الأولين والآخرين؟ بل كلهم يريد أن ينفعهم الله، فهل يقال: إنهم يحبون الله المحبة المأمور بها شرعًا؟ ولا شك أن مثل هذا القول نتيجة نقص العلم بكلام الله وكلام رسوله، ونقص الإيمان بذلك. "وإلا فإن من تيقن أن الله أصدق القائلين، وأن قوله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وأن قوله الفصل،

=

=
ليس بالهزل، وأنه الهدى، والنور، والشفاء لما في الصدور من الجهل والشكوك، وأنه -تعالى- أعلم بنفسه وبغيره من خلقه.
وعلم أن الرسول -ﷺ- أعلم الخلق بالحق، وأفصح الخلق في النطق والبيان، وأنه أنصح الخلق للخلق- من علم ذلك تيقن أنه قد اجتمع له كمال العلم بالحق، وكمال القدرة على بيانه، وكمال الإرادة له، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة، يجب وجود المطلوب على أكمل وجه.
فيجب أن يعلم أن كلام الله ورسوله، أبلغ ما يمكن، وأتم ما يكون وأعظمه بيانًا لأمور الدين، من حقوق الله وأسمائه، وصفاته، وغير ذلك.
فمن وقر هذا في قلبه لم يجرؤ على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التي إذا تدبرها العاقل المنصف، وجدها أبعد شيء عن كتاب الله، وعن صفات الرسول
-ﷺ- وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص في علمه، وإيمانه بكلام الله، وكلام رسوله -ﷺ-.
وقد علم المؤمنون أن محبة العباد لربهم هي حياة القلوب، ونعيم الروح، بل هي أعلى نعيم في الدنيا والآخرة، وهي فوق كل محبة تفترض، ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة لا إله إلا الله، وبتمامها وكمالها تتفاوت منازل العباد عند الله في الدنيا والآخرة، وقد جاء في الحديث عنه -ﷺ- أنه قال: "أحبوا الله من كل قلوبكم". يعني: لا يبقى في القلب موضع لغير محبة الله تعالى.
وفي "الصحيحين": مرفوعًا: "ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار".
وأصل التأله: التعبد، والتعبد هو آخر مراتب الحب، يقال: عبده الحب وتيمه: إذا
=

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧).

{وَمَا كَانَ قَوْلهمْ} عِنْد قَتْل نَبِيّهمْ مَعَ ثَبَاتهمْ وَصَبْرهمْ {إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبنَا وَإِسْرَافنَا} تَجَاوُزنَا الْحَدّ {فِي أَمْرنَا} إيذَانًا بِأَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لِسُوءِ فِعْلهمْ وَهَضْمًا لأنفسهم {وثبت أقدامنا} بالقوة على الجهاد {وانصرنا على القوم الكافرين}.

فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨).

{فَآتَاهُمْ الله ثَوَاب الدُّنْيَا} النَّصْر وَالْغَنِيمَة {وَحُسْن ثَوَاب الْآخِرَة} أَيْ الْجَنَّة وَحُسْنه التَّفَضُّل فَوْق الاستحقاق {والله يحب المحسنين}(١).

=

ملكه، وذلك لمحبوبه.

فالمحبة هي حقيقة العبودية، ولا يمكن وجود العبادة التي يريدها الله ويأمر بها عباده بدونها أبدًا، بل لا يوجد أي نوع من أنواع العبادة المطلوبة شرعًا بدونها، مثل الإنابة، والخشية، والخوف، والرجاء، والحمد، والشكر، والصبر، والدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، وغير ذلك من أنواع العبادة، فمنكر المحبة في الحقيقة منكر لجميع مقامات الإيمان والإحسان، وهؤلاء المحرفون مثل هذا النص في المحبة، يغالطون أنفسهم. وهذا الحديث يدل على حسن فهم الصحابة لمعاني القرآن، حيث قالوا عن سورة الصمد: أنها صفة الرحمن، ووجه ذلك: أن هذه السورة تضمنت أنواع التزيه لله - تعالى- والتحميد، ونفي النقائص كلها، وإثبات الكمال جميعه، ولهذا عدلت ثلث القرآن - كما تقدمت الاشارة إليه.

(١) قوله تعالى: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} [آل عمران: ١٤٧]، أي: "وما كان قول هؤلاء الصابرين في تلك المواطن الصعبة إلا أن قالوا:
=

=

ربنا اغفر لنا ذنوبنا".

قال الطبري: أي: "لم يعتصموا، إذ قتل نبيهم، إلا بالصبر على ما أصابهم، ومجاهدة عدوهم، وبمسألة ربهم المغفرة والنصر على عدوهم".

قال ابن إسحاق: "أي: فقولوا كما قالوا، واعلموا أنما ذلك بذنوب منكم، واستغفروا كما استغفروا، وامضوا على دينكم كما مضوا على دينهم، ولا ترتدُّوا على أعقابكم راجعين".

قال الماتريدي: "قيل: وما كان قول الأمم السالفة عند قتل نبيهم – إلا أن قالوا: (ربنا اغفر لنا ذنوبنا) الآية، يقول: يعلم الله هذه الأمة ويعاتبهم: هلا قلتم أنتم حين نعي إليكم نبيكم كما قالوا القوم في الأمم السالفة؟ !".

قال الزمخشري: "هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين، هضما لها واستقصارا".

قال الرازي: بين تعالى أنهم كانوا مستعدين عند ذلك التصبر والتجلد بالدعاء والتضرع بطلب الأمداد والإعانة من الله، والغرض منه أن يقتدي بهم في هذه الطريقة أمة محمد ﷺ، فإن من عول في تحصيل مهماته على نفسه ذل، ومن اعتصم بالله فاز بالمطلوب.

(إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا) أي: استرها وتجاوزها عنا.

(وإسرافنا في أمرنا) الإسراف: مجاوزة الحد إلى ما حرم.

قال الشوكاني:"قالوا ذلك هضما لأنفسهم".

قال ابن عاشور: ... لأنه لما وصفهم برباطة الجأش، وثبات القلب، وصفهم بعد ذلك بما يدل على الثبات من أقوال اللسان التي تجري عليه عند الاضطراب والجزع، أي أن ما أصابهم لم يخالجهم بسببه تردد في صدق وعد الله، ولا بدر منهم تذمر، بل علموا أن ذلك لحكمة يعلمها سبحانه، أو لعله كان جزاء على

=

=

تقصير منهم في القيام بواجب نصر دينه، أو في الوفاء بأمانة التكليف، فلذلك ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم (ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا) خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم، ثم سألوه النصر وأسبابه.

• وقال السعدي: علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها.

قال علي: لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه.

قوله تعالى: {وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} [آل عمران: ١٤٧]، "أي: وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك".

عن ابن عباس: "قوله: {وإسرافنا في أمرنا}، يقول: خطايانا".

وعن مجاهد: "{إسرافنا في أمرنا}، خطايانا وظلمنا أنفسنا".

ون الضحاك: "قوله: {وإسرافنا في أمرنا}، فهي: الخطايا الكبائر".

قال الزمخشري: "والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع، وأقرب إلى الاستجابة".

قال المراغي: "وفى هذا إيماء إلى أن الذنوب والإسراف فى الأمور من عوامل الخذلان، والطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح، ومن ثم سألوا ربهم أن يمحو من نفوسهم أثر الذنوب وأن يوفقهم إلى دوام الثبات حين تزلّ الأقدام. وقد قدموا طلب المغفرة من الذنوب على طلب النصر ليكون الدعاء فى حيز القبول، فإن الدعاء المقرون بالخضوع والطاعة الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة.

وفى طلبهم النصر من الله مع كثرة عددهم التي دل عليها قوله: (رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) إعلام بأنهم لا يعوّلون على كثرة العدد بل يطلبون العون والمدد الروحاني من الله بثبات

=

=

الأقدام والتمسك بأهداب الحق".

قال الراغب: "الفرق بين الدنب والإسراف من وجهين:

أحدهما: أن الإسراف نجاوز الحد فى فعل ما يجب، والذنب عام فيه وفي التقصير، فإذا كل إسراف ذنب، وليس كل ذنب إسرافا.

والثاني: أن حقيقة الذنب: التقصير وترك الأمر حتى يفوت، ثم يؤخذ بالذنب. والذنب إذن في الأصل مقابل الإسراف، وكلاهما مذمومان، أحدهما: من جهة التفريط. والآخر: من جهة الإفراط".

قال ابن عاشور: "ويجوز عندي أن يكون المراد بالإسراف في الأمر التقصير في شأنهم ونظامهم فيما يرجع إلى أهبة القتال، والاستعداد له، أو الحذر من العدو، وهذا الظاهر من كلمة أمر، بأن يكونوا شكوا أن يكون ما أصابهم من هزيمتهم في الحرب مع عدوهم ناشئا عن سببين: باطنن وظاهر، فالباطن هو غضب الله عليهم من جهة الذنوب، والظاهر هو تقصيرهم في الاستعداد والحذر، وهذا أولى من الوجه الأول".

قوله تعالى: {وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} [آل عمران: ١٤٧]، أي: "وثبّت اقدامنا في مواطن الحرب عند ملاقاة الأعداء، فإن هذا الموطن من أصعب المواطن التي يحتاج الإنسان إلى تثبيت، وذلك بإزالة الخوف عن قلوبهم، وإزالة الخواطر الفاسدة عن صدورهم".

قال ابن تيمية: "فجمعوا بين الصبر والاستغفار، وهذا هو المأمور به في المصائب، الصبر عليها، والاستغفار من الذنوب التي كانت سببها".

قال ابن إسحاق: "واسألوه كما سألوه أن يثبِّت أقدامكم".

قال الزجاج: "أي ثبتنا على دينك. وإذا ثبتهم على دينهم ثبتوا في حربهم - قال الله عز وجل - {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا} [النحل: ٩٤]، المعنى: تزل عن الدين".

=

=

قوله تعالى: {وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٤٧]، أي: "وانصرنا على مَن جحد وحدانيتك ونبوة أنبيائك".

قال ابن إسحاق: "واستنصروه كما استنصروه على القوم الكافرين. فكل هذا من قولهم قد كان وقد قُتل نبيهم، فلم يفعلوا كما فعلتم".

قال الماتريدي: "يحتمل: النصر عليهم بالحجج والبراهين. ويحتمل: النصر بالغلبة والهزيمة عليهم".

قال الجصاص: "قوله تعالى (وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا) فيه حكاية دعاء الربيين من أتباع الأنبياء المتقدمين وتعليم لنا لأن نقول مثل قولهم عند حضور القتال، فينبغي للمسلمين أن يدعوا بمثله عند معاينة العدو؛ لأن الله تعالى حكى ذلك عنهم على وجه المدح لهم والرضا بقولهم لنفعل مثل فعلهم ونستحق من المدح كاستحقاقهم".

قوله تعالى: {فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا} [آل عمران: ١٤٨]، " أي: فأعطاهم الله ثواب الدنيا بالغنيمة والنصرة، وقهر العدو والثناء الجميل، وانشراح الصدر بنور الإيمان وزوال ظلمات الشبهات وكفارة المعاصي والسيئات".

قال مقاتل: "يقول أعطاهم النصر والغنيمة في الدنيا".

قال الحسن: "الفتح والنصر".

قال ابن إسحاق: "الظهورَ على عدوهم".

قال ابن جريج: "النصر والغنيمة".

قال قتادة: "أي والله، لآتاهم الله الفتح، والظهور، والتمكين والنصر على عدوهم في الدنيا".

قال الماتريدي: "يحتمل ثواب الدنيا: الذكر والثناء الحسن، وهم كذلك اليوم نتبعهم ونقتدي آثارهم وهم موتى".

=

=

قوله تعالى: {وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ} [آل عمران: ١٤٨] أي: "وخير جزاء الآخرة وهو الجنة ونعيمها، وذلك غير حاصل في الحال، فيكون المراد أنه تعالى حكم لهم بحصولها في الآخرة".

وما ذاك، إلا لأنهم أحسنوا له الأعمال، فجازاهم بأحسن الجزاء.

قال ابن إسحاق: "الجنةَ وما أعدَّ فيها".

قال قتادة: "حسن الثواب في الآخرة هي الجنة".

قال ابن جريج: "رضوانَ الله ورحمته".

قال الماتريدي: "وذكر في ثواب الآخرة " الحسن "، ولم يذكر في ثواب الدنيا الحسن؛ لأن ثواب الآخرة دائم لا يزول أبدا، وثواب الدنيا قد يزول، أو أن يشوب في ثواب الدنيا آفات وأحزان؛ فينقص ذلك، وليس ثواب الآخرة كذلك".

قال الزمخشري: "وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه، وأنه هو المعتد به عنده {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} [الأنفال: ٦٧]".

قال الراغب: "ذكر في ثواب الآخرة الحسن تنبيها أن ثواب الدنيا بالإضافة إليها غير
مستحسن لانقطاعه، ونبه بالآية أن من أراد ثواب الدنيا لم يحصل له ثواب الآخرة، وأن من أراد الآخرة حصلت له الدنيا والآخرة معا".

قال الرازي: خص تعالى ثواب الآخرة بالحسن تنبيها على جلالة ثوابهم، وذلك لأن ثواب الآخرة كله في غاية الحسن، فما خصه الله بأنه حسن من هذا الجنس فانظر كيف يكون حسنه، ولم يصف ثواب الدنيا بذلك لقلتها وامتزاجها بالمضار وكونها، منقطعة زائلة.

وقال الشيخ ابن عثيمين: ولم يقل: ثواب الآخرة، بل قال: حسن، لأن ثواب الآخرة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وليس ثواب

=

=

مكافأة فقط، بل ثواب حسن وفضل، هذا وجه.

والوجه الثاني: أنه لم يعبر عن ثواب الدنيا بالحسن، لأن الدنيا مهما كانت فهي دار شقاء وعناء وكدر، فلا يمكن أن يخلو صفوها كدر.

قوله تعالى: {وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٤٨]، أي: "والله يحب كلَّ مَن أحسن عبادته لربه ومعاملته لخلقه، وفي وهذا فضل عظيم للمحسنين".

قال السمرقندي: أي: "المؤمنين المجاهدين".

قال ابن إسحاق: "يقول تعالى ذكره: فعل الله ذلك بهم بإحسانهم، فإنه يحب المحسنين، وهم الذين يفعلون مثل الذي وصف عنهم تعالى ذكره أنهم فعلوه حين قتل نبيُّهم".

قال مكي بن أبي طالب: "أثنى عليهم أنهم محسنون وأن الله يحبهم".

والإحسان يحتمل وجوها ثلاثة:

أحدها: أن المحسن: العارف، كما يقال: فلان يحسن ولا يحسن.

والثاني: أنه المعروف من الفعل -مما ليس عليه- يصنع إلى آخر؛ تفضلا منه وإحسانا.

والثالث: اختيار الحسن من الفعل على القبيح من الفعل والسوء؛ وكان كقوله: {إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦]: هذا يختار المحاسن من الأفعال على المساوئ.

قال الرازي: ... إنهم لما أرادوا الإقدام على الجهاد طلبوا تثبيت أقدامهم في دينه ونصرتهم على العدو من الله تعالى، فعند ذلك سماهم بالمحسنين، وهذا يدل على أن العبد لا يمكنه الإتيان بالفعل الحسن، إلا إذا أعطاه الله ذلك الفعل الحسن وأعانه عليه، ثم إنه تعالى قال (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) وقال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وكل ذلك يدل على أنه سبحانه هو الذي يعطي الفعل

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا} فِيمَا يأمرونكم به {يردكم} إلى الكفر {على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين}.

بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠).

{بَلْ الله مَوْلَاكُمْ} نَاصِرُكُمْ {وَهُوَ خَيْر النَّاصِرِينَ} فأطيعوه دونهم[1].

=

الحسن للعبد، ثم أنه يثيبه عليه ليعلم العبد أن الكل من الله وبإعانة الله.

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران: ١٤٩]، أي: "يا أيها الذين آمَنُوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري: أي: "يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله في وعد الله ووعيده وأمره ونهيه".

قوله تعالى: {إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران: ١٤٩]، "أي: إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به".

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة.

قال الطبري: أي: "إن تطيعوا الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد ﷺ من اليهود والنصارى - فيما يأمرونكم به وفيما ينهونكم عنه - فتقبلوا رأيهم في ذلك وتنتصحوهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون".

قال الواحدي: "أَيْ: اليهود والمشركين حيث قالوا لكم يوم أُحدٍ: ارجعوا إلى دين آبائكم".

قال ابن جريج: "يقول: لا تنتصحوا اليهود والنصارى على دينكم، ولا تصدِّقوهم

=

=

بشيء في دينكم".

قال السدي: "يقول: إن تطيعوا أبا سفيان".

قوله تعالى: {يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [آل عمران: ١٤٩]، " أي: يردوكم إلى الكفر بعد الإيمان".

قال السدي: "يقول: يردَّكم كفارًا".

قال الطبري: أي: "يحملوكم على الرِّدة بعد الإيمان، والكفر بالله وآياته وبرسوله بعد الإسلام".

قال الثعلبي: أي: "يرجعوكم إلى أول أمركم الشرك بالله تعالى".

قوله تعالى: {فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} [آل عمران: ١٤٩]، أي: فترجعوا إلى الخسران".

قال ابن إسحاق: "فتذهب دنياكم وآخرتكم".

قال الطبري: أي: ": فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذي هداكم الله له هالكين، قد خسرتم أنفسكم، وضللتم عن دينكم، وذهبت دنياكم وآخرتكم".

قال أبو حيان: الخطاب عام يتناول أهل أحد وغيرهم، وما زال الكفار مثابرين على رجوع المؤمنين عن دينهم، ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء.

وقد جاءت النصوص الكثيرة بالنهي عن طاعة الكفار.

قوله تعالى: {بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ} [آل عمران: ١٥٠]، "أي: ليسوا أنصارًا لكم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم فأطيعوا أمره".

قال الزمخشري: "أى ناصركم، لا تحتاجون معه إلى نصرة أحد وولايته".

قال الواحدي: "أَيْ: فاستغنوا عن موالاة الكفَّار".

قال الطبري: يعني: "أن الله مسدِّدكم، أيها المؤمنون، فمنقذكم من طاعة الذين كفروا".

=

=

قال ابن إسحاق: "{بل الله مولاكم}، إن كان ما تقولون بألسنتكم صدقا في قلوبكم".

وقرئ: "{بَلِ اللهَ} بالنصب على: بل أطيعوا اللهَ مولاكم".

والمراد بالولاية هنا، الولاية الخاصة التي مقتضاها النصرة والتمكين، لأن الولاية تنقسم إلى قسمين:

ولاية عامة: مقتضاها أن يرزقهم ويعطيهم وأيضا القهر والسلطان والملك، وهذه للمؤمنين والكفار.

ودليلها قوله تعالى (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق).

وقوله تعالى (وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون).

ولاية خاصة، وهذه خاصة بالمؤمنين مقتضاها النصر والتأييد والتسديد والتوفيق والإخراج من الظلمات إلى النور.

كما قال تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور).

وقال تعالى (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم).

وقال تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

فالله ولي المؤمنين: لأنه يواليهم بالنصر والثواب الجزيل، كما قال ﷺ في الحديث القدسي (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب). رواه البخاري

والمؤمنون أولياء الله كقوله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لأنهم يوالونه بالطاعة، قال ابن القيم: فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، وليست بكثرة صوم ولا صلاة.

قوله تعالى: {وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} [آل عمران: ١٥٠]، "أي هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره".

لأنه القوي الذي لا يغلب والناصر في الحقيقة فينبغي أن يخص بالطاعة

=

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١).

{سَنُلْقِي فِي قُلُوب الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْب} بِسُكُونِ الْعِين وَضَمّهَا الْخَوْف وَقَدْ عَزَمُوا بَعْد ارْتِحَالهمْ مِنْ أُحُد عَلَى الْعَوْد وَاسْتِئْصَال الْمُسْلِمِينَ فَرَعَبُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا {بِمَا أَشْرَكُوا} بِسَبَبِ إشْرَاكهمْ {بِاَللهِ مَا لَمْ يُنَزِّل بِهِ سُلْطَانًا} حُجَّة عَلَى عِبَادَته وَهُوَ الْأَصْنَام {وَمَأْوَاهُمْ النَّار وَبِئْسَ مَثْوَى} مَأْوَى {الظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ هِيَ[(١)].

=

والاستعانة، والجملة معطوفة على ما قبلها.

قال الواحدي: أي: فأنا ناصركم فلا تستنصروهم".

قال ابن أبي زمنين: يعني: "ينصركم ويعصمكم من أن ترجعوا كافرين".

قال ابن إسحاق: "أي: فاعتصموا به ولا تستنصروا بغيره، ولا ترجعوا على أعقابكم مرتدِّين عن دينكم".

قال الرازي: وإنما كان تعالى خير الناصرين لوجوه:

الأول: أنه تعالى هو القادر على نصرتك في كل ما تريد، والعالم الذي لا يخفى عليه دعاؤك وتضرعك، والكريم الذي لا يبخل في جوده، ونصرة العبيد بعضهم لبعض بخلاف ذلك في كل هذه الوجوه.

والثاني: أنه ينصرك في الدنيا والآخرة، وغيره ليس كذلك.

والثالث: أنه ينصرك قبل سؤالك ومعرفتك بالحاجة، كما قال (قل من يكلؤكم بالليل والنهار) وغيره ليس كذلك.

(١) ذكر سبب النزول.

عن السدي؛ قال: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة؛

=

=

انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق، ثم إنهم ندموا؛ فقالوا: بئس ما صنعتم أنكم قتلتموهم، حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم؛ فقذف الله عز وجل في قلوبهم الرعب فانهزموا، فلقوا أعرابيًا فجعلوا له جعلًا، وقالوا له: إن لقيت محمدًا؛ فأخبره بما قد جمعنا لهم، فأخبر الله عز وجل رسول الله ﷺ فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد؛ فأنزل الله عز وجل في ذلك، فذكر أبا سفيان حيث أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وما قُذف في قلبه من الرعب؛ فقال: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٨١) من طريق أحمد بن المفضل: ثنا أسباط عن السدي به. وإسناده ضعيف جدًا.

* قوله تعالى: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ} [آل عمران: ١٥١]، " أي: سنقذف في قلوب الذين كفروا الخوف والفزع".

قال الواحدي: أي: "الخوف حتى لا يرجعوا إليكم".

قال الثعلبي: "أي: سنقذف، في قلوب الذين كفروا الرعب الخوف".

قال ابن كثير: "ثم بشرهم بأنه سَيُلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم، بسبب كفرهم وشركهم".

قال ابن إسحاق: "فإني سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب الذي كنت أنصركم عليهم".

قال ابن عباس: "قذف الله في قلب أبي سفيان فرجع إلى مكة فقال النبي ﷺ: إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفا وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب".

قرأ أيوب السختياني: {سيلقي}، بالياء، يعني الله عز وجل، لقوله: {بل الله مولاكم}، وقرأ الباقون: {سنلقي}، بالنون على التعظيم.

وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "أُعْطِيتُ

=

=

خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً".

قال الراغب: "الرعب: استرخاء القوى وتقطعها من الخوف".

وقوله: {الرُّعْبَ}، ثقل عينه، أبو جعفر وابن عامر والكسائي ويعقوب، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم وخففها الآخرون.

قوله تعالى: {بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا} [آل عمران: ١٥١]، " أي: بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان".

فالشرك سبب للخوف والقلق كما قال تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون).

فكلما كان الإنسان أشد إيمانا وتوحيدا كان أكثر استقرارا وأمنا.

قال ابن إسحاق: "بما أشركوا بي".

قال مقاتل: "يعني: ما لم ينزل به كتابا فيه حجة لهم بالشرك".

قال الواحدي: أي: "بإشراكهم بالله الأصنام التي يَعبدونها مع الله بغير حجَّة".

قال الزمخشري: "أي: كان السبب في إلقاء الله الرعب في قلوبهم إشراكهم به ما لم ينزل به سلطانا آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة".

قوله تعالى: {وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ} [آل عمران: ١٥١]، "أي: مستقرهم النار".

قال تعالى (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار) رواه البخاري.

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل

=

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢).

{وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ الله وَعْده} إيَّاكُمْ بِالنَّصْرِ {إِذْ تَحُسُّونَهُمْ} تَقْتُلُونَهُمْ {بِإِذْنِهِ} بِإِرَادَتِهِ {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} جبنتم عن القتال {وَتَنَازَعْتُمْ} اخْتَلَفْتُمْ {فِي الْأَمْر} أَيْ أَمْر النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُقَامِ فِي سَفْح الْجَبَل لِلرَّمْي فَقَالَ بَعْضكُمْ نَذْهَب فَقَدْ نُصِرَ أَصْحَابنَا وَبَعْضكُمْ لَا نُخَالِف أَمْر النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {وَعَصَيْتُمْ} أَمْره فَتَرَكْتُمْ الْمَرْكَز لِطَلَبِ الْغَنِيمَة {مِنْ بَعْد مَا أَرَاكُمْ} الله {مَا

=

الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار).

قال الواحدي: "يْ: مرجعهم النَّار".

قوله تعالى: {وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٥١]، " أي: بئس مقام الظالمين نار جهنم".

والمراد بالظلم هنا الشرك. لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والمشرك ظالم، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر، ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله فيه إطلاق الظلم على الشرك.

كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم).

وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال: بشرك، ثم تلا قول لقمان (إن الشرك لظلم عظيم).

وقال تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) أي: من المشركين.

تحبون} من النصر وَجَوَاب إِذَا دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْله أَيْ منعكم نصره {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيد الدُّنْيَا} فَتَرَكَ الْمَرْكَز لِلْغَنِيمَةِ {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيد الْآخِرَة} فَثَبَتَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ كَعَبْدِ الله بْن جُبَيْر وَأَصْحَابه {ثُمَّ صَرَفَكُمْ} عَطْف عَلَى جَوَاب إِذَا الْمُقَدَّر رَدَّكُمْ لِلْهَزِيمَةِ {عَنْهُمْ} أَيْ الْكُفَّار {لِيَبْتَلِيَكُمْ} لِيَمْتَحِنكُمْ فَيَظْهَر الْمُخْلِص مِنْ غَيْره {وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ} مَا ارْتَكَبْتُمُوهُ {وَالله ذُو فَضْل عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} بِالْعَفْوِ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن البراء بن عازب رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا؛ قال: جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد -وكانوا خمسين رجلًا- عبدَ الله بن جبير، فقال: "إن رأيتمونا تخطفنا الطير؛ فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أُرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم؛ فلا تبرحوا حتى أُرسل إليكم". فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشددن، قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب ابن جبير: الغنيمة أي قوم! الغنيمة! ظهر أصحابكم؛ فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟! قالوا: والله لنأتين الناس؛ فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم؛ صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين؛ فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلًا، فأصابوا منا سبعين. وكان النبي ﷺ وأصحابُه أصاب من المشركين يوم بدر: أربعين ومائة؛ سبعين أسيرًا وسبعين قتيلًا، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد -ثلاث مرات-؟ فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوا. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة -ثلاث مرات-؟، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب -ثلاث مرات-؟ ثم رجع إلى أصحابه؛ فقال: أما هؤلاء؛ فقد قتلوا، فما ملك عمر نفسه؛ فقال: كذبت والله يا عدو الله! إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك. قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مَثْلَة: لم آمر بها، ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز:

=

=

اعل هبل، اعل هبل
قال النبي ﷺ: "ألا تجيبونه؟ "، قالوا: يا رسول الله! ما نقول؟ قال: "قولوا: الله أعلى وأجلّ"، قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: "ألا تجيبونه! " قال: قالوا: يا رسول الله! ما نقول؟ قال: "قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم".
أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦/ ١٦٢، ١٦٣ رقم ٣٠٣٩، ٧/ رقم ٣٩٨٦، ٤٠٤٣، ٤٠٦٧، ٨/ رقم ٤٥٦١).
وعن الضحاك؛ قال: إن نبي الله أمر يوم أحد طائفة من المسلمين؛ فقال: كونوا مسلحة للناس بمنزلة أمرهم أن يثبتوا بها، وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم حتى يأذن لهم، فلما لقي نبي الله ﷺ يوم أحد أبا سفيان ومن معه من المشركين؛ هزمهم نبي الله ﷺ، فلما رأى المسلحة أن الله عز وجل هزم المشركين؛ انطلق بعضهم وهم يتنادون: الغنيمة الغنيمة! لا تفتكم، وثبت بعضهم مكانهم، وقالوا: لا نريم موضعنا؛ حتى يأذن لنا نبي الله ﷺ؛ ففي ذلك نزل: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ}، فكان ابن مسعود يقول: ما شعرت أن أحدًا من أصحاب النبي ﷺ كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٨٥) من طريق أبي معاذ، قال: ثنا عبيد بن سليمان قال: سمعت الضحاك يقول: فذكره، وهو ضعيف لا يثبت.
وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ بعث ناسًا من الناس؛ يعني: يوم أحد، فكانوا من ورائهم. فقال رسول الله ﷺ: "كونوا ههنا؛ فَرُدُّوا وَجْهَ مَنْ قَدِمَنا، وكونوا حَرَسًا لنا من قِبَل ظهورنا"، وأن رسول الله ﷺ لما هزم القوم هو وأصحابه؛ اختلف الذين كانوا جعلوا من ورائهم؛ فقال بعضهم لبعض -لما رأوا النساء مصعدات في الجبل ورأوا الغنائم- قالوا: انطلقوا إلى رسول الله ﷺ فأدركوا الغنيمة قبل أن تسبقوا إليها، وقالت طائفة أخرى: بل نطيع رسول الله ﷺ

=

=

فنثبت مكاننا؛ فذلك قوله: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا} للذين أرادوا الغنيمة {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ}، قالوا: نطيع رسول الله ﷺ ونثبت مكاننا؛ فأتوا محمدًا ﷺ، فكان فشلًا حين تنازعوا بينهم بقوله: {وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ} كانوا قد رأوا الفتح والغنيمة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٨٤)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ١٦٤١، ١٦٥٠) بالسند المسلسل بالعوفيين الضعفاء عن ابن عباس. وهو إسناد ضعيف جدًا.

وعنه -أيضًا- رضي الله عنه؛ قال: ما نُصِرَ رسول الله ﷺ في موطن كما نُصر يوم أحد! فأنكرنا ذلك عليه؛ فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في يوم أحد: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ} وإنما عنى بهذا الرماة؛ وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع، ثم قال: "احموا ظهورنا، وإن رأيتمونا نقتل؛ فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا؛ فلا تشركونا"، فلما غنم النبي ﷺ، وأباحوا عسكر المشركين؛ انتفضت الرماة جميعًا، فدخلوا العسكر ينتهبون، وقد انتفضت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ، فهم كذا -وشبك أصابع يديه- والتبسوا، فلما أخلّ الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها؛ دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي ﷺ، فضرب بعضهم بعضًا والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان النصر لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار؛ حتى قتل من أصحاب لواء المشركين تسعة أو سبعة، وجال المشركون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا، حيث يقول الناس: الغار إنما كانوا تحت المهراس، وصاح الشيطان: قتل محمد، فلم يشكوا به أنه حق، فما زلنا كذلك ما نشك أنه قد قتل؛ حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين نعرفه بكتفيه إذا مشى، قال: ففرحنا؛ حتى

=

=

كأنه لم يصبنا ما أصابنا، فرقي نحونا، وهو يقول: "اشتد غضب الله على قوم رموا وجه رسول الله"، ويقول مرة أخرى: "اللهم إنه ليس لهم أن يعلونا"، حتى انتهى إلينا، فمكث ساعة، فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل: اعل هبل، اعل هبل -يعني: إلهه-، أين ابن أبي كبشة؟! أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: ألا أجيبه يا رسول الله؟! قال: "بلى"، قال: فلما قال: اعل هبل؛ قال عمر: الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان: يا ابن الخطاب! إنها قد أنعمت عينها، فعاد عنها -أو فعال عنها-، فقال: أين ابن أبي كبشة؟! أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا.
فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، الأيام دول، وإن الحرب سجال.
قال عمر: لا سواء؛ قتلانا في الجنة؛ وقتلاكم في النار، قال: إنكم تزعمون ذلك؛ لقد خبنا إذًا وخسرنا، ثم قال: أما إنكم ستجدون في قتلاكم مَثْلًا، ولم يكن ذلك عن رأي سراتنا، ثم أدركته حمية الجاهلية، قال: أما إنه إذا كان ذاك؛ لم نكرهه.
أخرجه أحمد (١/ ٢٧٧ - ٢٨٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٠١) والحاكم (٢/ ٢٩٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٦٩) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١٤): هذا حديث غريب وسياق عجيب، وهو من مرسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحدا ولا أبوه.. ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح وقال وهو حديث غريب حقا وفي لفظه ما يوهم أن ابن عباس شهد الوقعة وما كان ذلك قط، فإنه كان إذ ذاك طفلا مع أبيه بمكة. والظاهر عندي أنه حكاه عن واحد من الصحابة ممن شهد أحد، ونسي بعض الرواة أن يذكر من حدث ابن عباس به، حتى يقول في حديثه (فما زلنا كذلك ما نشك أنه قد قتل) ألخ وأما سياق القصة في ذاتها فصحيح لشواهد كثيرة في الصحاح ا. هـ وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق

=

=

المسند (٤/ ٣٧٠): إسناده حسن، عبد الرحمن بن أبي الزناد صدوق حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين غير سليمان بن داود شيخ أحمد - وهو الهاشمي- فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة جليل.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النساء كنا يوم أحد خلف المسلمين، يُجْهِزْنَ على جرحى المشركين، فلو حلفتُ يومئذ رجوت أن أبرَّ: إنه ليس أحدٌ منَّا يريد الدنيا؛ حتى أنزل الله عز وجل: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ}، فلما خالف أصحاب النبي ﷺ وعصوا ما أمروا به؛ أُفْرِدَ رسول الله ﷺ في تسعة: سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم، فلما رهقوه؛ قال: "رحم الله رجلًا ردهم عنا"، قال: فقام رجل من الأنصار، فقاتل ساعة حتى قتل، فلما رهقوه -أيضًا-؛ قال: "يرحم الله رجلًا ردهم عنا"، فلم يزل يقل ذلك حتى قتل السبعة، فقال النبي ﷺ لصاحبيه: "ما أنصفنا أصحابنا"، فجاء أبو سفيان، فقال: اعْلُ هُبَل؛ فقال رسول الله ﷺ: "قولوا: الله أعلى وأجل، فقالوا: الله أعلى وأجل"، قال أبو سفيان: لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم! فقال رسول الله ﷺ: "قولوا: الله مولانا، والكافرون لا مولى لهم". ثم قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدرٍ، يوم لنا ويوم علينا، ويوم نُساءُ ويوم نُسرُّ، حنظلة بحنظلة، وفلانٌ بفلان، وفلان بفلان، فقال رسول الله ﷺ: "لا سَواءَ، أما قتلانا؛ فأحياءٌ يرزقون، وقتلاكم في النار يعذبون"، قال أبو سفيان: قد كانت في القوم مَثْلًا، وإن كانت لَعَنْ غير ملإ منا ما أمرت ولا نَهيت، ولا أحببت ولا كرهت، ولا ساءني ولا سرني، قال: فنظروا، فإذا حمزةُ قد بُقِرَ بطنه، وأخذت هند كبده؛ فلاكتها؛ فلم تستطيع أن تأكلها؛ فقال رسول الله ﷺ: "أأكلت منه شيئًا؟! "، قالوا: لا، قال: "ما كان الله ليدخل شيئًا من حمزة النار! "، فوضع رسول الله ﷺ حمزة؛ فصلى عليه، وجيء برجل من الأنصار فوُضع إلى جنبه، فصلى عليه، فرُفِع الأنصاري، وتُرك حمزة، ثم جيء

=

=

بآخر؛ فوضعه إلى جنب حمزة، فصلى عليه، ثم رُفع وتُرك حمزة؛ حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة.

أخرجه أحمد ف (٦/ ١٩١، ١٩٢-شاكر)، وابن سعد (٣/ ١٦)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٠٢) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٠٩ - ١١٠): رواه أحمد، وفيه عطاء بن السائب، وقد اختلط، وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١٥)، وفي البداية والنهاية (٤/ ٤٠): تفرد به أحمد، وهذا إسناد فيه ضعف من جهة عطاء بن السائب، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٤/ ٢٥٠): إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٧/ ٤١٩): حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، الشعبي - وهو عامر بن شراحيل - لم يسمع من عبد الله بن مسعود، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح غير عطاء بن السائب، فقد روى له أصحاب السنن والبخاري متابعة، وهو صدوق اختلط بأخرة، وصححوا سماع حماد - وهو ابن سلمة - منه قبل اختلاطه. عفان: هو ابن مسلم الصفار. قلت ما قيل من سماع حماد من عطاء بن السائب قبل اختلاطه فقد قيل أيضا إنه سمع منه بعد الاختلاط كما هو مبين في التهذيب، والسلسلة الضعيفة (٨٨٠).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: ما كنت أرى أن أحدًا من أصحاب رسول الله يريد الدنيا؛ حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٦٠٥، ٦٠٦ رقم ١٦٤٩)، وابن أبي عاصم في "الزهد" (رقم ٢٠٣)، وابن أبي شيبة في "مسنده" (١/ ٢٨٤ - ٢٨٥/ ٤٣٠)، والطبراني في "المعجم الأوسط" (٢/ ١٠٦ رقم ١٣٩٩)، والبيهقي في "الدلائل" (٣/ ٢٢٨، ٢٢٩)، والطبري في "جامع البيان" (٤/ ٨٥، ٨٦)، والواحدي في "الوسيط" (١/ ٥٠٤، ٥٠٥) من طرق عن أسباط بن نصر عن

=

=

السدي عن عبد خير؛ قال: قال عبد الله بن مسعود به. وسنده ضعيف؛ فيه أسباط هذا، وهو صدوق كثير الخطأ، يغرب؛ كما في "التقريب" (١/ ٥٣).

وأخرج أحمد (٦/ ١٩١، ١٩٢ رقم ٤٤١٤ - شاكر) من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبي عن عبد الله بن مسعود بحديث مطول وفيه: "فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر: إنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ}.

وسنده ضعيف؛ فيه علتان كما سبق بيانه. لكن الحديث يرتقي بمجموع الطريقين لدرجة الحسن لغيره، والله أعلم.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ٣٢٨): "رواه الطبراني في "الأوسط"، وأحمد في حديث طويل تقدم في وقعة أحد، ورجال الطبراني ثقات!!". اهـ.

وقال العراقي في "المغني عن حمل الأسفار" (٤/ ٢١٤): "إسناده حسن".

وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٣٤٩): "بسند صحيح".

وعن عبد الرحمن بن أبزى؛ قال: وضع رسول الله خمسين من الرماة يوم أحد وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير -أخا خوات-، وأقعدهم إزاء خالد بن الوليد، وكان على خيل المشركين، فلما انهزم المشركون؛ قال طائفة منهم: نلحق بالناس؛ لا يسبقونا بالغنائم، وقالت طائفة: عهد إلينا النبي ﷺ أن لا نزيغ من مكاننا؛ حتى يأتينا أمره، فمضى أولئك؛ فرأى خالد رقتهم؛ فحمل عليه؛ فقتلهم، ونزلت: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ}؛ الآية وكانت معصيتهم توجههم عن مكانهم، وقوله: (من يريد الدنيا)، أي: الغنيمة {اَلأَخِرَةَ}: الشهادة.

أخرجه عبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٦٨) من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن عبد الرحمن به. وإسناده ضعيف، لأنه منقطع بين جعفر وعبد الرحمن.

=

=

وعن السدي؛ قال: انطلق رسول الله ﷺ يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رأوه؛ وضع رجل سهمًا في قوسه؛ فأراد أن يرميه، فقال: "أنا رسول الله"؛ ففرحوا في ذلك حيث وجدوا رسول الله ﷺ حيًا، وفرح رسول الله حين رأى أن في أصحابه من يمتنع، فلما اجتمعوا -وفيهم رسول الله ﷺ حين ذهب عنهم الحزن-؛ اقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا؛ فأقبل أبو سفيان حتى أشرف عليهم، فلما نظروا إليه؛ نسوا ذلك الذي كانوا عليه، وهمهم أبو سفيان، فقال رسول الله ﷺ: "ليس لهم أن يعلونا، اللهم إن تُقْتَل هذه العِصابَةُ لا تُعبد"، ثم ندب أصحابه؛ فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم، فقال أبو سفيان يومئذ: اعل هبل، حنظلة بحنظلة، ويومٌ بيوم بدر، وقتلوا يومئذ حنظلة بن الراهب وكان جنبًا فغسلته الملائكة، وكان حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر، قال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال رسول الله ﷺ لعمر: "قل: الله مولانا، ولا مولى لكم"، فقال أبو سفيان: فيكم محمد؟ قالوا: نعم، قال: أما إنها قد كانت فيكم مُثْلة؛ ما أمرت ولا نهيت عنها؛ ولا سرني ولا ساءتني، فذكر الله إشراف أبي سفيان عليهم؛ فقال: {فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ}؛ الغم الأول: ما فاتهم من الغنيمة والفتح، والغم الثاني: إشراف العدو عليهم؛ {لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ} من الغنيمة، {وَلَا مَا أَصَابَكُمْ} من القتل حين تذكرون، فشغلهم أبو سفيان.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٨٩) من طريق أحمد بن المفضل ثنا أسباط بن نصر عن السدي به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإعضال. والثانية: ضعف أسباط.

وعنه رَحِمَهُ اللَّهُ قال: لما شدّ المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم؛ دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة، فقاموا عليها، وجعل رسول

=

=

الله ﷺ يدعو الناس: "إليّ عباد الله! إليّ عباد الله! "، فذكر الله صعودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم؛ فقال: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٨٧) بالسند السابق نفسه.

* قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ} [آل عمران: ١٥٢]، أي: "ولقد حقق الله لكم ما وعدكم به من نصر".

قال ابن إسحاق: "أي: لقد وفَيتُ لكم بما وعدتكم من النصر على عدوكم".

قال الربيع: "وذلك يوم أحد، قال لهم: إنكم ستظهرون، فلا أعرِفنَّ ما أصبتم من غنائمهم شيئًا، حتى تفرُغوا! فتركوا أمر نبي الله ﷺ، وعصوا، ووقعوا في الغنائم، ونسوا عَهْده الذي عَهِده إليهم، وخالفوا إلى غير ما أمرهم به".

قال الطبري: "والوعد الذي كان وعدَهم على لسانه بأحد، قوله للرماة: اثبتوا مكانكم ولا تبرحوا، وإن رأيتمونا قد هزمناهم، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم. وكان وعدهم رسول الله ﷺ النصر يومئذ إن انتهوا إلى أمره".

قال ابن كثير: إن"ذلك كان يوم أحد لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام، فلما حصل ما حصل من عصيان الرُّماة وفشل بعض المقاتلة، تأخر الوعد الذي كان مشروطا بالثبات والطاعة، ولهذا قال: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ}، أي: أول النهار".

وقال القاسمي: "{ولقد صدقكم الله وعده} في قوله: {وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم}".

أخرج الطبري عن السدي قال: "لما برز رسول الله ﷺ إلى المشركين بأحد، أمر الرماة، فقاموا بأصل الجبل في وجوه خيل المشركين وقال: لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، وأمَّر عليهم عبد الله بن

=

=

جبير، أخا خوّات بن جبير. ثم إنّ طلحة بن عثمان، صاحب لواء المشركين، قام فقال: يا معشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجِّلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجِّلكم بسيوفنا إلى الجنة! فهل منكم أحد يعجِّله الله بسيفي إلى الجنة! أو يعجِّلني بسيفه إلى النار؟ فقام إليه علي بن أبي طالب فقال: والذي نفسي بيده، لا أفارقك حتى يعجِّلك الله بسيفي إلى النار، أو يعجِّلني بسيفك إلى الجنة! فضربه علي فقطع رجلَه، فسقط، فانكشفت عورته، فقال: أنشدك الله والرحم، ابنَ عم! فتركه، فكبّر رسول الله ﷺ، وقال لعليّ أصحابه: ما منعك أن تجهز عليه؟ قال: إنّ ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحييت منه، ثم شد الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم، وحمل النبي ﷺ وأصحابه فهزموا أبا سفيان. فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين حمل، فرمته الرماة، فانقمع. فلما نظر الرماة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه في جوف عسكر المشركين ينتهبونه، بادروا الغنيمة، فقال بعضهم: لا نترك أمر رسول الله ﷺ!. فانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر. فلما رأى خالد قلة الرماة صاح في خيله، ثم حمل فقتل الرماة، ثم حمل على أصحاب النبي ﷺ. فلما رأى المشركون أنّ خيلهم تقاتل، تنادوا فشَدُّوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم".

وعن ابن عباس: "قوله: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسُّونهم بإذنه}، فإن أبا سفيان أقبل في ثلاث ليال خلون من شوّال حتى نزل أحدًا، وخرج رسول الله ﷺ فأذَّن في الناس، فاجتمعوا، وأمَّر على الخيل الزبير بن العوام، ومعه يومئذ المقداد بن الأسود الكندي. وأعطى رسول الله ﷺ اللواء رجلا من قريش يقال له: مصعب بن عمير. وخرج حمزة بن عبد المطلب بالحسَّر، وبعث حمزة بين يديه. وأقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين ومعه عكرمة بن أبي جهل. فبعث رسول الله ﷺ الزبير وقال: استقبل خالد بن الوليد فكن بإزائه حتى أوذنك. وأمر

=

=

بخيل أخرى، فكانوا من جانب آخر، فقال: لا تبرحوا حتى أوذنكم. وأقبل أبو سفيان يحمل اللات والعزى، فأرسل النبي ﷺ إلى الزبير أن يحمل، فحمل على خالد بن الوليد فهزمه ومن معه، كما قال: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحُسُّونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبُّون}، وإنّ الله وعد المؤمنين أن ينصرهم وأنه معهم".

قال ابن عاشور: "(ولقد صدقكم) عطف على قوله (سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب) وهذا عود إلى التسلية على ما أصابهم، وإظهار لاستمرار عناية الله تعالى بالمؤمنين، ورمز إلى الثقة بوعدهم بإلقاء الرعب في قلوب المشركين، وتبيين لسبب هزيمة المسلمين: تطمينا لهم بذكر نظيره ومماثله السابق، فإن لذلك موقعا عظيما في الكلام على حد قولهم (التاريخ يعيد نفسه) وليتوسل بذلك إلى إلقاء تبعة الهزيمة عليهم، وأن الله لم يخلفهم وعده، ولكن سوء صنيعهم أوقعهم في المصيبة كقوله (وما أصابك من سيئة فمن نفسك)".

قوله تعالى: {إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ} [آل عمران: ١٥٢]، أي: إذ "تقتلونهم بتسليطه إياكم عليهم".

أي: تقتلونهم، وقد انتصر المسلمون في أول الأمر وقتل من المشركين سبعة.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام المراد بالحس أي: الاستئصال بالقتل،

وهو المروي عن: ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، والحسن البصري، وبه قال: أبو عبيدة، والبخاري، والطبري، والزجاج، وابن كثير، وهو قول جميع المفسرين، قال الألوسي: (وهو التفسير المأثور).

قال القاسمي: "أي تقتلونهم قتلا كثيرا، بتيسيره وتوفيقه".

قال ابن إسحاق: "إذ تحسونهم بإذني، وتسليطي أيديكم عليهم، وكفِّي أيديهم عنكم".

=

=

قال مقاتل: "يعني تقتلونهم بإذنه يوم أحد ولكم النصر عليهم".

قال أبو عبيدة: "تستأصلونهم قتلا".

قال عبدالرحمن بن عوف: "الحسُّ: القتل". وكذلك روي عن عبيد الله بن عبدالله، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والربيع، والسدي، وابن إسحاق.

قال الثعلبي: "أي: تقتلونهم قتلا ذريعا سريعا شديدا، قال الشاعر:

حسسناهم بالسيف حسا فأصبحت... بقيتهم قد شردوا وتبددوا

وقال أبو عبيدة: الحس الاستيصال بالقتل، " يقال: أحسسناهم من عند آخرهم، أي: استأصلناهم"، [و] يقال: جراد محسوس إذا قتله البرد، وسنة حسوس إذا أتت على كل شيء.

قال روبة:

إذا شكونا سنة حسوسا... تأكل بعد الأخضر اليبيسا".

قال الراغب: "الحس: يقال للإصابة بالحاسة نحو عنته ويديته، أي أصبته بهما، ويقال تارة لإصابة الحاس نحو بطنته وظهرته، أي أصبتهما، ولما كان إصابة الحاسة قد يتولد منه فقد الروح استعير للقتل، وإذنه هاهنا يصح أن يكون أمره، وأن يكون تسهيله وتوفيقه".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٢]، أي: "حتى إذا جبنتم وضعفتم، واختلفتم في أمر الله".

فقد نصركم إلى أن كان منكم الفشل والتنازع، لأنه تعالى كان إنما وعدهم بالنصرة بشرط التقوى والصبر على الطاعة، فلما فشلوا وعصوا انتهى النصر، وعلى هذا القول تكون كلمة "حتى" غاية بمعنى "إلى" فيكون معنى قوله: (حتى إذا) إلى أن، أو إلى حين.

=

=

قال الصابوني: "أي: حتى إِذا اجبنتم وضعفتم واختلفتم في أمر المقام في الجبل".
قال البيضاوي: "حتى إذا فشلتم جبنتم وضعف رأيكم، أو ملتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف العقل. {وتنازعتم في الأمر}، يعني: اختلاف الرماة".
قال الجصاص: فيه إخبار بتقدم وعد الله تعالى لهم بالنصر على عدوهم ما لم يتنازعوا ويختلفوا، فكان كما أخبر به يوم أحد ظهروا على عدوهم وهزموهم وقتلوا منهم، وقد كان النبي ﷺ أمر الرماة بالمقام في موضع وأن لا يبرحوا، فعصوا وخلوا مواضعهم حين رأوا هزيمة المشركين وظنوا أنه لم يبق لهم باقية واختلفوا وتنازعوا، فحمل عليهم خالد بن الوليد من ورائهم فقتلوا من المسلمين من قتلوا بتركهم أمر رسول الله ﷺ وعصيانهم.
وفي ذلك دليل على صحة نبوة النبي ﷺ؛ لأنهم وجدوا موعود الله كما وعد قبل العصيان، فلما عصوا وكلوا إلى أنفسهم.
وفيه دليل على أن النصر من الله في جهاد العدو مضمون باتباع أمره والاجتهاد في طاعته، وعلى هذا جرت عادة الله تعالى للمسلمين في نصرهم على أعدائهم.
قال ابن إسحاق: "{حتى إذا فشلتم}، أي: تخاذلتم، {وتنازعتم في الأمر}، أي: اختلفتم في أمري".
قال مقاتل: "يعنى ضعفتم عن ترك المركز، [و] كان تنازعهم أنه قال بعضهم: نطلق فتصيب الغنائم، وقال بعضهم: لا نبرح المركز كما أمرنا رسول الله- ﷺ- ".
قال ابن جريج: "قال ابن عباس: الفشَل: الجبن".
قال الربيع بن أنس: "{حتى إذا فشلتم}، يقول: جبنتم عن عدوكم، {وتنازعتم في الأمر}، يقول: اختلفتم، {وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون}، وذلك يوم أحد قال لهم: إنكم ستظهرون، فلا أعرفنَّ ما أصبتم من غنائمهم شيئًا حتى تفرغوا،
=

=

فتركوا أمر نبي الله ﷺ، وعصوا، ووقعوا في الغنائم، ونسوا عهده الذي عهده إليهم، وخالفوا إلى غير ما أمرهم به، فانقذف عليهم عدوهم، من بعد ما أراهم فيهم ما يحبون".

قال الراغب: "الفشل: ضعف النجيزة، وذلك يكون عن الحرب، وعن السخاء، بل عن تحمل المضض، وجعل تعالى ميلهم إلى الغنيمة فشلا، فإن الحرص والبخل من فشل النجيزة".

قال الزمخشري: "والفشل: الجبن وضعف الرأى".

قوله تعالى: {وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ١٥٢]، أي: "وعصيتم نبيكم من بعد ما أراكم الله ما تحبون من النصر والظفر".

والمراد عصيان الرماة للرسول ﷺ، وقد تقدم أن جواب الشرط: فاتكم النصر، وفاتكم ما تحبون.

فالمعصية والاختلاف سبب للهزيمة.

قال تعالى (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم).

وقال تعالى (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين).

عن البراء بن عازب- رضى الله عنهما - قال (جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلا - عبد الله بن جبير فقال «إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» فهزموهم. قال فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة - أي قوم - الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون فقال عبد الله بن جبير أنسيتم ما

=

=

قال لكم رسول الله ﷺ قالوا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثنى عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين، وكان النبي ﷺ وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيرا وسبعين قتيلا، ...) رواه البخاري.

قال الطبري: أي: "وخالفتم نبيكم، فتركتم أمره وما عهد إليكم من بعد الذي أراكم الله، أيها المؤمنون بمحمد، من النصر والظفر بالمشركين، وذلك هو الهزيمة التي كانوا هزموهم عن نسائهم وأموالهم قبل ترك الرماة مقاعدهم التي كان رسول الله ﷺ أقعدهم فيها، وقبل خروج خيل المشركين على المومنين من ورائهم".

قال ابن إسحاق: "{وعصيتم}، أي: تركتم أمر نبيكم ﷺ؛ وما عهد إليكم، يعني الرماة، {من بعد ما أراكم ما تحبون}، أي: الفتح لا شك فيه، وهزيمة القوم عن نسائهم وأموالهم".

عن الحسن: {من بعد ما أراكم ما تحبون}، يعني: من الفتح".

قال ابن عباس: "أنّ رسول الله ﷺ بعث ناسًا من الناس - يعني: يوم أُحُد - فكانوا من ورائهم، فقال رسول الله ﷺ: كونوا هاهنا، فردّوا وجه من فرَّ منا، وكونوا حرسًا لنا من قِبل ظهورنا. وإن رسول الله ﷺ لما هزم القوم هو وأصحابه، قال الذين كانوا جُعلوا من ورائهم، بعضهم لبعض، لما رأوا النساء مُصْعِدات في الجبل ورأوا الغنائم، قالوا: انطلقوا إلى رسول الله ﷺ فأدركوا الغنيمة قبل أن تسبقوا إليها! وقالت طائفة أخرى: بل نطيع رسول الله ﷺ فنثبت مكاننا! فذلك قوله: منكم من يريد الدنيا، للذين أرادوا الغنيمة ومنكم من يريد الآخرة، للذين قالوا: نطيع رسول الله ﷺ ونثبت مكاننا. فأتوا محمدًا ﷺ، فكان فشلا حين

=

=

تنازعوا بينهم يقول: {وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون}، كانوا قد رأوا الفتح والغنيمة".

قال مجاهد: "نصر الله المؤمنين على المشركين حتى ركب نساء المشركين على كل صعب وذلول ثم أديل عليهم المشركون بمعصيتهم للنبي ﷺ، حين حرضهم رسول الله ﷺ على بغلته الشهباء. وقال: رب اكفنيهم بما شئت".

قوله تعالى: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا} [آل عمران: ١٥٢]، أي: منكم من "أي يطلب الغنيمة".

قال المفسرون: هم الذين طلبوا الغنيمة وتركوا مكانهم، ومن تبعيضية، أي: بعضكم.

قال عبد الله بن مسعود: ما ظننت أن أحدا ممن قاتل مع النبي ﷺ يريد الدنيا حتى أنزل الله تعالى (منكم من يريد الدنيا).

قال الحسن: "هؤلاء الذين يجترون الغنائم".

قال ابن إسحاق: "أي: الذين أرادوا النهب رغبة في الدنيا وتركَ ما أمروا به من الطاعة التي عليها ثواب الآخرة".

قال الطبري: "يعني جل ثناؤه بقوله: منكم من يريد الدنيا، الذين تركوا مقعدهم الذي أقعدهم فيه رسول الله ﷺ في الشِّعب من أُحُد لخيل المشركين، ولحقوا بعسكر المسلمين طلب النهب إذ رأوا هزيمة المشركين".

قال السدي: "فالذين انطلقوا يريدون الغنيمة هم أصحاب الدنيا".

، قال: ابن جريج: "قال ابن مسعود: ما علمنا أن أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ كان يريد الدنيا وعرَضَها، حتى كان يومئذ"، وفي رواية أخرى: "حتى نزل فينا يوم أحد: منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة"، وفي رواية ابن عباس عنه: "ما شعرتُ أن أحدًا من أصحاب النبي ﷺ كان يريد الدنيا وعرَضها، حتى كان يومئذ.

=

=

قوله تعالى: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} [آل عمران: ١٥٢]، أي: "وأن منكم مَن يطلب الآخرة وثوابها".

قال الحسن: "الذين يتبعونهم يقتلونهم".

قال ابن إسحاق: "أي: الذي جاهدوا في الله لم يخالفوا إلى ما نهوا عنه لعرض من الدنيا رغبة فيها، رجاء ما عند الله من حسن ثوابه في الآخرة".

قال الطبري: "يعني بذلك: الذين ثبتوا من الرماة في مقاعدهم التي أقعدهم فيها رسول الله ﷺ، واتبعوا أمره، محافظة على عهد رسول الله ﷺ، وابتغاء ما عند الله من الثواب بذلك من فعلهم والدار الآخرة".

قال السدي: "والذين بقوا وقالوا: لا نخالف قول رسول الله ﷺ، أرادوا الآخرة".

قوله تعالى: {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ} [آل عمران: ١٥٢]، "أي: ثم ردكم بالهزيمة عن الكفار ليمتحن إيمانكم".

قال السمعاني: "يعني: في الوقعة الثانية حين عاد المشركون، وهذا دليل لأهل السنة على: أن أفعال العباد مخلوقة؛ حيث نسب الله تعالى هزيمة المسلمين إلى نفسه مع وقوع الفعل منهم، فقال: {ثم صرفكم عنهم}".

قال البيضاوي: أي: "ثم كفكم عنهم حتى حالت الحال فغلبوكم. ليبتليكم على المصائب ويمتحن ثباتكم على الإيمان عندها".

قال ابن إسحاق: "أي: صرفكم عنهم ليختبركم، وذلك ببعض ذنوبكم".

قال مقاتل: "{ثم صرفكم عنهم} من بعد أن أظفركم عليهم {ليبتليكم} بالقتل والهزيمة".

قال الطبري: يعني: "ثم صرفكم، أيها المؤمنون، عن المشركين بعد ما أراكم ما تحبون فيهم وفي أنفسكم، من هزيمتكم إياهم وظهوركم عليهم، فردَّ وجوهكم عنهم لمعصيتكم أمر رسولي، ومخالفتكم طاعته، وإيثاركم الدنيا على الآخرة

=

=

عقوبةً لكم على ما فعلتم، ليبتليكم، يقول: ليختبركم، فيتميز المنافق منكم من المخلص الصادق في إيمانه منكم".

قال السدي: "ثم ذكر حين مال عليهم خالد بن الوليد: {ثم صرفكم عنهم ليبتليكم}".

قال الحسن: "صرف القوم عنهم، فقتل من المسلمين بعدَّة من أسروا يوم بدر، وقُتل عم رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، وشُجّ في وجهه".

قال الماتريدي: "أي: ذلك الصرف كان لكم من الله ابتلاء ومحنة.

وقيل: كان ذلك العصيان -الذي منكم كان- من الله ابتلاء؛ ليعلم من قد علم أنه يعصي عاصيا".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ} [آل عمران: ١٥٢]، أي: "وقد صفح عنكم مع العصيان".

قال مقاتل: "حيث لم تقتلوا جميعا عقوبة بمعصيتكم".

قال التستري: "يعني الفئة المنهزمة يوم أحد حين لم يستأصلهم جميعًا".

قال البيضاوي: يعني: "تفضلا، ولما علم من ندمكم على المخالفة".

قال ابن إسحاق: "ولقد عفا الله عن عظيم ذلك، لم يهلككم بما أتيتم من معصية نبيكم، ولكن عُدْت بفضلي عليكم".

عن ابن جريج: "قوله: {ولقد عفا عنكم}، قال: لم يستأصلكم".

أخرج الطبري عن مبارك، عن الحسن، في قوله: {ولقد عفا عنكم}، قال: "قال الحسن، وصفَّق بيديه: وكيف عفا عنهم، وقد قتل منهم سبعون، وقُتل عم رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، وشج في وجهه؟ قال: ثم يقول: قال الله عز وجل: قد عفوت عنكم إذ عصيتموني، أن لا أكون استأصلتكم. قال: ثم يقول الحسن: هؤلاء مع رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله غضابٌ لله، يقاتلون أعداء الله، نهوا عن

=

=

شيء فصنعوه، فوالله ما تركوا حتى غُمُّوا بهذا الغم، فأفسق الفاسقين اليوم يَتَجَرْثَمُ كل كبيرة، ويركب كل داهية، ويسحب عليها ثيابه، ويزعم أن لا بأس عليه! ! فسوف يعلم".

قال الماتريدي: "ويحتمل: {عفا عنكم}؛ حيث قبل رجوعكم وتوبتكم عن العصيان".

قوله تعالى: {وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٥٢]، "أي والله ذو منٍّ ونعمةٍ على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال".

قال التستري: "بالعفو عنهم وقبول التوبة منهم".

قال مقاتل: "{والله ذو فضل} في عقوبته على المؤمنين حيث لم يقتلوا جميعا".

قال الطبري: أي: "والله ذو طَوْل على أهل الإيمان به وبرسوله، بعفوه لهم عن كثير ما يستوجبون به العقوبة عليه من ذنوبهم، فإن عاقبهم على بعض ذلك، فذو إحسان إليهم بجميل أياديه عندهم".

قال البيضاوي: أي: "يتفضل عليهم بالعفو، أو في الأحوال كلها سواء أديل لهم أو عليهم إذ الابتلاء أيضا رحمة".

قال ابن إسحاق: "يقول: وكذلك منَّ الله على المؤمنين، أن عاقبهم ببعض الذنوب في عاجل الدنيا أدبًا وموعظة، فإنه غير مستأصل لكل ما فيهم من الحق له عليهم، لما أصابوا من معصيته، رحمةً لهم وعائدة عليهم، لما فيهم من الإيمان".

قال السعدي: "أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث منَّ عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيباتهم.

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدّر عليهم خيرا ولا مصيبة، إلا كان خيرا لهم. إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين".

=

=

قال الماتريدي: {وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، أي: "بالعفو عنهم، وقبول التوبة؛ حيث عصوا رسول الله ﷺ وتركوا أمره، وعلى قول المعتزلة عليه أن يفعل ذلك؛ فعلى قولهم ليس هو بذي فضل على أحد، نعوذ بالله من السرف في القول.
والفائدة في تخصيص المؤمنين بالامتنان عليهم دون جملة من بعث النبي ﷺ فيهم ومنهم، مع ما ذكر منته بالبعث من أنفسهم، وقد بينا وجه المنة في البعث من جوهر البشر - وجهان:
أحدهما: أن من لم يؤمن به لم يكن عرف نعمة من الله تعالى وإن كان - في الحقيقة - نعمة منه لهم، ورحمة لهم وللعالمين، فخص من عرفه ليشكروا له بما ذكرهم؛ وهو كقوله - عز وجل -: {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب}، أي: هم يقبلون ويعرفون حق الإنذار.
والثاني: أنه صار لهم حجة على جميع الأعداء: أنهم لا يطيعون لمعنى كان منهم، إلا وللمؤمنين عليهم وجه دفع ذلك بما كان عليه ما عرفوه به قبل الرسالة؛ لما فيه لزوم القول بصدقه؛ فيكون ذلك منة لهم وسرورا ونعمة عظيمة؛ فاستأداهم الله لشكرها، ولا قوة إلا بالله".

عن عثمان - هو ابن موهب - قال (جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوما جلوسا، فقال من هؤلاء القوم قال هؤلاء قريش. قال فمن الشيخ فيهم قالوا عبد الله بن عمر. قال يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد قال نعم. قال تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد قال نعم. قال تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها قال نعم. قال الله أكبر. قال ابن عمر تعال أبين لك أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر، فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ «إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه». وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز

=

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣).

اذكروا {إذ تصعدون} تَبْعُدُونَ فِي الْأَرْض هَارِبِينَ {وَلَا تَلْوُونَ} تَعْرُجُونَ {عَلَى أَحَد وَالرَّسُول يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} أَيْ مِنْ وَرَائِكُمْ يَقُول إلَيَّ عِبَاد الله {فَأَثَابَكُمْ} فَجَازَاكُمْ {غَمًّا} بِالْهَزِيمَةِ {بِغَمٍّ} بِسَبَبِ غَمّكُمْ لِلرَّسُولِ بِالْمُخَالَفَةِ وَقِيلَ الْبَاء بِمَعْنَى عَلَى أَيْ مُضَاعَفًا على غم فوت الغنيمة {لكيلا} متعلق بعفا أَوْ بأَثَابَكُمْ فَلَا زَائِدَة {تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ} مِنْ الْغَنِيمَة {وَلَا مَا أَصَابَكُمْ} مِنْ القتل والهزيمة {والله خبير بما تعملون}(1).

=

ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى «هذه يد عثمان». فضرب بها على يده، فقال «هذه لعثمان». فقال له ابن عمر اذهب بها الآن معك) رواه البخاري.

(والله ذو فضل على المؤمنين) أي: صاحب فضل ومن ونعمة على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال.

(١) قوله تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ} [آل عمران: ١٥٣]، " أي: اذكروا يا معشر المؤمنين حين وليتم الأدبار تبعدون في الفرار ولا تلتفتون إلى ما وراءكم".

قال البغوي: الإصعاد السير في مستوى الأرض، والصعود: الارتفاع على الجبال والسطوح.

قوله تعالى (إذ تصعدون) فيه قولان:

أحدهما: أنه متعلق بقوله (ولقد عفا عنكم) كأنه قال وعفا عنكم إذ تصعدون، لأن
=

=

عفوه عنهم لابد وأن يتعلق بأمر اقترفوه، وذلك الأمر هو ما بينه بقوله: (إذ تصعدون) والمراد به ما صدر عنهم من مفارقة ذلك المكان والأخذ في الوادي كالمنهزمين لا يلوون على أحد، واختار هذا ابن جرير.

قال ابن جرير: يعني بذلك جل ثناؤه، ولقد عفا عنكم أيها المؤمنون إذ لم يستأصلكم، إهلاكا منه جمعكم بذنوبكم، وهربكم (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد).

وثانيها: التقدير: ثم صرفكم عنهم إذ تصعدون، وهذا الذي ذكره ابن كثير.

قال ابن كثير: "أي: صرفكم عنهم (إذ تصعدون) في الجبل هاربين من أعدائكم، وأنتم لا تلوون على أحد من الدَّهَش والخوف والرعب".

قال السمعاني: "أي: لا تعرجون، ولا تلتفتون إلى أحد، ثم منهم من قال: {أراد بالأحد}: الرسول، ومنهم من قال: معناه: لا تلوون على أحد من الناس".

قال قتادة: "ذاكم يوم أحد، أصعدوا في الوادي فرارًا".

وقال ابن جريج: "صعدوا في أحد فرارا".

قال الحسن: "فروا منهزمين في شعب شديد لا يلوون على أحد".

وفي قوله تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ} [آل عمران: ١٥٣]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أنهم صعدوا في الوادي فرارا، قاله قتادة.

والثاني: أن القوم حين انهزموا عن المشركين صعدوا الجبل. وهذا قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد.

وروي عن الحسن البصري أنه كان يقرأه: {إِذْ تَصْعَدُونَ}، بفتح التاء والعين، وجهوا معنى ذلك إلى أنّ القوم حين انهزموا عن عدوِّهم، أخذوا في الوادي هاربين. وذكروا أنّ ذلك في قراءة أبيّ: {إِذْ تُصْعِدُونَ فِي الْوَادِي}.

=

=

قال الماتريدي: "{تصعدون} بفتح التاء، وهو من الصعود أن صعدوا الجبل، {وتصعدون} بالرفع، وهو أن أصعدوا أصحابهم نحو الوادي؛ لأن المنهزم الأول إذا التفت فرأى منهزما آخر اشتد.

وقيل: الإصعاد هو الإبعاد في الأرض.

وقيل: تصعدون من صعود الجبل، وتصعدون في الوادى من الجبل".

قال الراغب: "والإصعاد: الإبعاد في الأرض، سواء كان في صعود أو حدور، وإن كان أصله من الصعود كقولهم: تعال في أن صار في التعارف، قد يقال لغير معنى العلو. والصعود: الذهاب في صعود".

وقرأ الحسن -رضى الله عنه-: {تلون}، بواو واحدة، وقرئ: {يصعدون} و{يلوون} بالياء.

قوله تعالى: {وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} [آل عمران: ١٥٣]، "أي والرسول يناديكم من وراءكم".

قال ابن كثير: "أي: وهو قد خلفتموه وراء ظُهوركم يدعوكم إلى تَرْك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكرة".

قال قتادة: "ونبي الله ﷺ يدعوهم في أخراهم: إليَّ عباد الله، إلى عباد الله!".

وعن ابن جريج: "{والرسول يدعوكم في أخراكم} " أي عباد الله ارجعوا، أي عباد الله ارجعوا".

قال الحسن: "قوله: {والرسول يدعوكم في أخراكم} أي عباد الله، أي عباد الله، ولا يلوي عليه أحد".

قال الماتريدي: "أي: الرسول يدعوكم وينادي وراءكم: إلي أنا الرسول.

وقيل: يناديكم من بعدكم: إلي أنا رسول الله يا معشر المؤمنين، وكان يصل نداؤه في أخراهم بأولهم بعضهم ببعض، فلم يرجعوا إليه".

=

=

عن أبي عبيدة: "{أخراكم} " آخركم".
قال الزمخشري: "{في أخراكم}، في ساقتكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة. يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول: في أولهم وأولاهم، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى".
عن البراء بن عازب قال (جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد -وكانوا خمسين رجلا-عبد الله بن جبير قال: ووضعهم موضعا وقال: "إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم قال: فهزموهم. قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن على الجبل، وقد بدت أسؤقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله: الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ قال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: إنا والله لنأتين الناس فلنصبين من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ غير اثنى عشر رجلا فأصابوا منا سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة: سبعين أسيرا وسبعين قتيلا..) رواه أحمد.
وقال ابن عطية: قوله تعالى (في أخراكم) مدح للنبي عليه السلام فإن ذلك هو موقف الأبطال في أعقاب الناس، ومنه قول الزبير بن باطا ما فعل مقدمتنا إذ حملنا وحاميتنا إذ فررنا، وكذلك كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، ومنه قول سلمة بن الأكوع كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله ﷺ.
قوله تعالى: {فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ} [آل عمران: ١٥٣]، "أي: "فجازاكم الله بفراركم عن نبيكم، وفشلكم عن عدوكم، ومعصيتكم ربكم غما على غم".
ذهب الطبري إلى أن (الباء) بمعنى (على) والمعنى: فجازاكم على معصيتكم

=

=

ومخالفتكم أمر الرسول غما على غم، كقوله (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي: على جذوع النخل، وقد رجح هذا القول ابن القيم.

وقيل: غما متصلا بغم، وقيل: غم الهزيمة، وغم بفوات النصر، وغم بانهزامكم، وغم فراركم، وغم إشاعة: إن الرسول ﷺ قد مات.

وقيل: جازاكم غما بما غممتم رسوله بفراركم عنه وأسلمتموه إلى عدوه فالغم الذي حصل لكم جزاء على الغم الذي أوقعتموه بنبيه، لكنه قول ضعيف.

قال ابن إسحاق: "أي: كربا بعد كرب، قتل من قتل من إخوانكم، وعلو عدوكم عليكم، وما وقع في أنفسكم من قول من قال: قتل نبيكم، وكان ذلك مما تتابع عليكم غما بغم".

قال ابن كثير: "أي: فجازاكم غَما على غَم".

قال الزجاج: "أي أثابكم بأن غممتم النبي ﷺ أن نالكم غم - بما عوقبتم به للمخالفة وقال بعضهم {غما بغم} إشراف خالد بن الوليد عليهم بعد ما نالهم".

قال الزمخشري: "أى فجازاكم الله غما حين صرفكم عنهم وابتلاكم (ب) سبب (غم) أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له، أو غما مضاعفا، غما بعد غم، وغما متصلا بغم، من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله ﷺ والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر".

وفي الغم الأول والثاني أقوال:

أحدها: أن الغم الأول القتل والجراح، والغم الثاني الإرجاف بقتل النبي -ﷺ-، وهذا قول قتادة، ومجاهد، والربيع.

والثاني: غمًا يوم أحد بغم يوم بدر، وهو قول الحسن.

والثالث: أن الغم الأول: ما فاتكم من الغنيمة والفتح، والغم الثاني: إشراف العدو عليكم. قاله السدي.

=

=

والرابع: ويحتمل: {غما}: بعصيانهم رسول الله ﷺ اغتموا، والغم الآخر: أن كيف يعتذرون إلى رسول الله ﷺ بتركهم المركز، وعصيانهم إياه والخلاف له. أفاده الماتريدي.

قوله تعالى: {لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ} [آل عمران: ١٥٣]، أي: "لكي لا تحزنوا على ما فاتكم من نصر وغنيمة".

قال الصابوني: "أي: لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة".

قال ابن زيد: "على ما فاتكم من الغنيمة التي كنتم ترجون".

قال المراغي: "أي لأجل أن تمرنوا على تجرّع الغموم وتتعودوا احتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على ما يفوت من المنافع والمغانم".

قال الزمخشري: أي: "لتتمرنوا على تجرع الغموم، وتضروا باحتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار. ويجوز أن يكون الضمير في: (فأثابكم) للرسول، أى فآساكم في الاغتمام، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما غمه ما نزل بكم، فأثابكم غما اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتممتموه لأجله، ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره: وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو".

قوله تعالى: {وَلَا مَا أَصَابَكُمْ} [آل عمران: ١٥٣]، " أي: ولا تحزنوا على ما أصابكم من المضارّ".

أي: من القتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل، هانت عليكم تلك المصائب، واغتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فلله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم. (تفسير السعدي).

قال ابن زيد: "ولا تحزنوا على ما أصابكم، من الهزيمة".

=

=

قال محمد بن إسحاق: "ولا ما أصابكم من قتل إخوانكم حتى فرجت ذلك عنكم".

قال الزجاج: "أي ليكون غمكم بأن خالفتم النبي فقط".

قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: ١٥٣]، أي: "والله خبير بجميع أعمالكم".

قال البيضاوي: أي" عليم بأعمالكم وبما قصدتم بها".

قال النسفي: أي" عالم بعلمكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وهذا ترغيب في الطاعة وترهيب عن المعصية".

قال الطبري: أي: "والله بالذي تعملون، أيها المؤمنون - من إصعادكم في الوادي هربًا من عدوكم، وانهزامكم منهم، وترككم نبيكم وهو يدعوكم في أخراكم، وحزنكم على ما فاتكم من عدوكم وما أصابكم في أنفسكم ذو خبرة وعلم، وهو محصٍ ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم به: المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، أو يعفو عنه".

قال المراغي: أي: "فهو عالم بجميع أعمالكم ومقاصدكم، والدواعي التي حفزتكم عليها، وقادر على مجازاتكم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وفى هذا ترغيب فى الطاعة، وزجر عن الإقدام على المعصية".

(تنبيه): هذه الحكمة من إصابتهم غما بغم، وهي أن كل غم ينسي الغم الذي قبله.

قال ابن القيم: ثم ذكرهم بحالهم وقت الفرار مصعدين أي جادين في الهرب والذهاب في الأرض أو صاعدين في الجبل لا يلوون على أحد من نبيهم ولا أصحابهم والرسول يدعوهم في أخراهم إلى عباد الله أنا رسول الله فأثابهم بهذا الهرب والفرار غما بعد غم غم الهزيمة والكسرة وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمدا قد قتل.

=

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ

=

وقيل جازاكم غما بما غممتم رسوله بفراركم عنه وأسلمتموه إلى عدوه فالغم الذي حصل لكم جزاء على الغم الذي أوقعتموه بنبيه.

والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم) تنبيه على حكمة هذا الغم بعد الغم وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من أصابهم من الهزيمة والجراح فنسوا بذلك السبب وهذا إنما يحصل بالغم الذي يعقبه غم آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمة ثم أعقبه غم الهزيمة ثم غم الجراح التي أصابتهم ثم غم القتل ثم غم سماعهم أن رسول الله ﷺ قد قتل ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم وليس المراد غمين اثنين خاصة بل غما متتابعا لتمام الابتلاء والامتحان.

الثالث أن قوله " بغم " من تمام الثواب لا أنه سبب جزاء الثواب والمعنى: أثابكم غما متصلا بغم جزاء على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيهم ﷺ وأصحابه وترك استجابتهم له وهو يدعوهم ومخالفتهم له في لزوم مركزهم وتنازعهم في الأمر وفشلهم وكل واحد من هذه الأمور يوجب غما يخصه فترادفت عليهم الغموم كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها.

(والله خبير بما تعملون) فلا تخفى عليه خافيه، يعلم ما في القلوب.

بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤).

{ثم أنزل عليكم مِنْ بَعْد الْغَمّ أَمَنَة} أَمْنًا {نُعَاسًا} بَدَل {يَغْشَى} بِالْيَاءِ وَالتَّاء {طَائِفَة مِنْكُمْ} وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ فَكَانُوا يَمِيدُونَ تَحْت الحجف وَتَسْقُط السُّيُوف مِنْهُمْ {وَطَائِفَة قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسهمْ} أَيْ حَمَلَتْهُمْ عَلَى الْهَمّ فَلَا رَغْبَة لَهُمْ إلَّا نَجَاتهَا دُون النَّبِيّ وَأَصْحَابه فَلَمْ يَنَامُوا وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ {يَظُنُّونَ بِاَللهِ} ظَنًّا {غَيْر} الظَّنّ {الْحَقّ ظَنَّ} أَيْ كَظَنِّ {الْجَاهِلِيَّة} حَيْثُ اعْتَقَدُوا أَنَّ النَّبِيّ قُتِلَ أَوْ لَا يُنْصَر {يَقُولُونَ هَلْ} مَا {لَنَا مِنْ الْأَمْر} أَيْ النَّصْر الَّذِي وُعِدْنَاهُ {مِنْ شَيْء قُلْ} لَهُمْ {إنَّ الْأَمْر كُلّه} بِالنَّصْبِ تَوْكِيدًا وَالرَّفْع مُبْتَدَأ وَخَبَره {لِلَّهِ} أَيْ الْقَضَاء لَهُ يَفْعَل مَا يَشَاء {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسهمْ مَا لَا يُبْدُونَ} يُظْهِرُونَ {لَك يَقُولُونَ} بَيَان لِمَا قَبْله {لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الْأَمْر شيء ما قتلنا ها هنا} أَيْ لَوْ كَانَ الِاخْتِيَار إلَيْنَا لَمْ نَخْرُج فَلَمْ نُقْتَل لَكِنْ أُخْرِجنَا كَرْهًا {قُلْ} لَهُمْ {لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتكُمْ} وَفِيكُمْ مَنْ كَتَبَ الله عَلَيْهِ الْقَتْل {لَبَرَزَ} خَرَجَ {الَّذِينَ كُتِبَ} قُضِيَ {عَلَيْهِمْ الْقَتْل} مِنْكُمْ {إلَى مَضَاجِعهمْ} مَصَارِعهمْ فَيُقْتَلُوا وَلَمْ يُنْجِهِمْ قُعُودهمْ لِأَنَّ قَضَاءَهُ تَعَالَى كَائِن لَا مَحَالَة {و} فَعَلَ مَا فَعَلَ بِأُحُدٍ {لِيَبْتَلِيَ} يَخْتَبِر {الله مَا فِي صُدُوركُمْ} قُلُوبكُمْ مِنْ الْإِخْلَاص وَالنِّفَاق {وَلِيُمَحِّص} يُمَيِّز {مَا فِي قُلُوبكُمْ وَالله عَلِيم بِذَاتِ الصُّدُور} بِمَا فِي الْقُلُوب لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء وَإِنَّمَا يَبْتَلِي لِيُظْهِر لِلنَّاسِ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، فأرسل الله علينا النوم، فما منّا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم: لو كان لنا من =

=

الأمر شيء ما قتلنا ههنا؛ فحفظها منه، وفي ذلك أنزل الله: {لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا} لقول متعب.

أخرجه ابن إسحاق في "المغازي" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٩٤)، والبزار في "البحر الزخار" (٣/ ١٨٩ رقم ٩٧٣)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢/ ٦٢٠، ٦٢١ رقم ١٦٩٧)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ٢٧٣)، وأبو نعيم في "دلائل النبوة" (رقم ٤٢١)، وإسحاق بن راهويه في "مسنده"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" للزيلعي" (١/ ٢٣٣ رقم ٢٤٢)، و"الأحاديث المختارة" (٣/ ٦١)، و"العجاب" (٢/ ٧٧١)، وابن مردويه في "تفسيره" -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٣/ ٦٠ رقم ٨٦٤) -، والضياء من طريق أخرى (٣/ ٦٠، ٦١/ ٨٦٥) -: ثني يحيى بن عباد عن عبد الله بن الزبير عن أبيه به. وسنده حسن.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه [وذلك قوله عز وجل: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ}، والطائفة الأخرى: المنافقون، ليس لهم إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعبه، وأخذله للحق].

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧/ ٣٦٥ رقم ٤٠٦٨، ٨/ ٢٢٨ رقم ٤٥٦٢)، وعبد بن حميد في "تفسيره " -وعنه الترمذي (٥/ ٢٢٩ رقم ٣٠٠٧، ص ٢٢٩، ٢٣٠ رقم ٣٠٠٨) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٣/ ٦١، ٦٢ رقم ٨٦٦) - وغيرهم من طرق عن أنس به. قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح". وما بين المعقوفتين زيادة من الترمذي.

وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٢٩ رقم ٣٠٠٧) -ومن طريقه الضياء المقدسي (٣/

=

=

٦٢/ ٨٦٧) -: ثنا عبد بن حميد -وهذا في "تفسيره"-: ثنا روح بن عبادة عن حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام مثله. وهذا سند صحيح؛ رجاله ثقات. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح".

* قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا} [آل عمران: ١٥٤]، " أي: ثم أرسل عليكم بعد ذلك الغم الشديد النعاس للسكينة والطمأنينة".

قال مقاتل: "يعني: من بعد غم الهزيمة {أمنة نعاسا}، وذلك أن الله- عز وجل- ألقى على بعضهم النعاس فذهب غمهم".

قال الزجاج: "أي أعقبكم بما نالكم من الرعب أن أمنكم أمنا تنامون معه، لأن الشديد

الخوف لا يكاد ينام".

قال البيضاوي: أي: "أنزل الله عليكم الأمن حتى أخذكم النعاس".

قال ابن كثير: "يقول تعالى مُمْتَنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمَنَة، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مسْتَلْئمو السلاح في حال هَمِّهم وغَمِّهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال تعالى في سورة الأنفال، في قصة بدر: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} [الأنفال: ١١]".

قال ابن الجوزي: "وفي وجه الامتنان عليهم بالنعاس قولان:

أحدهما: أنه منهم بعد خوفهم حتى ناموا، فالمنة بزوال الخوف، لأن الخائف لا ينام.

والثاني: قواهم بالاستراحة على القتال".

قال البغوي: "قوله تعالى (أمنة) يعني: أمنا، والأمن والأمنة بمعنى واحد، وقيل: الأمن يكون مع زوال سبب الخوف، والأمنة مع بقاء سبب الخوف، وكان سبب

=

=

الخوف قائما".

قال عبدالله بن مسعود: "النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان".

وذلك لأنه في القتال لا يكون إلا من غاية الوثوق بالله والفراغ عن الدنيا، ولا يكون في الصلاة إلا من غاية البعد عن الله.

قال عبدالرحمن بن عوف: "ألقى عليهم النوم".

قال قتادة: "ألقى الله عليهم النعاس فكان ذلك أمنة لهم".

أخرج الترمذي عن أنس عن أبي طلحة قال: "رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس فذلك قوله عز وجل (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا".

قال الزبير بن العوام: "لما التقينا يوم بدر سلط الله علينا النعاس، فإن كنت لا تشرد فيجلدني، وأتشدد فيجلدني، ما أطيق إلا ذلك، ورسول الله ﷺ في أصحابه كذلك، ودنا منا المشركون حتى قالوا: والله ما تحت الجحف أحد. قال الزبير: وكان أول من استقل من تلك السكتة والنعسة رسول الله ﷺ".

قوله تعالى: {يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ} [آل عمران: ١٥٤]، " أي: يغشى النوم فريقًا منكم وهم المؤمنون المخلصون".

قال قتادة: "وكانوا يومئذ فرقتين، فأما فرقة فغشيها النعاس".

قال محمد بن إسحاق: "أنزل الله النعاس أمنة على أهل اليقين به منهم نيام لا يخافون".

قال السعدي: "ولا شك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتثبيت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس.

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا

=

=

إقامة دين الله، ورضا الله ورسوله، ومصلحة إخوانهم المسلمين".

وقرئ بالتاء: {تغْشَى}، فتكون للأمنة، وبالياء {يَغْشَى} فيكون للنعاس.

قال الرازي: "واعلم أن ذلك النعاس فيه فوائد:

أحدها: أنه وقع على كافة المؤمنين لا على الحد المعتاد، فكان ذلك معجزة ظاهرة للنبي ﷺ، ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدادوا إيمانا مع إيمانهم، ومتى صاروا كذلك ازداد جدهم في محاربة العدو ووثوقهم بأن الله منجز وعده.

وثانيها: أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال، والنوم يفيد عود القوة والنشاط واشتداد القوة والقدرة،

وثالثها: أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله النوم على عين من بقي منهم لئلا يشاهدوا قتل أعزتهم، فيشتد الخوف والجبن في قلوبهم.

ورابعها: أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم، فبقاؤهم في النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أدل الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم، وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله تعالى".

وقال الجصاص: "وفي ذلك أعظم الدلائل وأكبر الحجج في صحة نبوة النبي ﷺ من وجوه:

أحدها: وقوع الأمنة مع استعلاء العدو من غير مدد آتاهم ولا نكاية في العدو ولا انصرافهم عنهم ولا قلة عددهم، فينزل الله تعالى على قلوبهم الأمنة، وذلك في أهل الإيمان واليقين خاصة.

والثاني: وقوع النعاس عليهم في مثل تلك الحال التي يطير في مثلها النعاس عمن شاهدها بعد الانصراف والرجوع، فكيف يكون حال المشاهدة وقصد العدو نحوهم لاستيصالهم وقتلهم.

=

=

والثالث: تمييز المؤمنين من المنافقين حتى خص المؤمنين بتلك الأمنة والنعاس دون المنافقين، فكان المؤمنون في غاية الأمن والطمأنينة والمنافقون في غاية الهلع والخوف والقلق والاضطراب؛ فسبحان الله العزيز العليم الذي لا يضيع أجر المحسنين".

قوله تعالى: {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ} [آل عمران: ١٥٤]، "أي: وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمة فلا رغبة لهم إِلاَّ نجاتها وهم المنافقون".

قال الثعلبي: "يعني المنافقين، وهب بن قشير وأصحابه حملتهم أنفسهم على الهم".

قال البيضاوي: أي: "أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمهم إلا هم أنفسهم وطلب خلاصها".

قال قتادة: "وكانوا يومئذ فرقتين، وأما الفرقة الأخرى فالمنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم، أرعب قوم وأخبثه وأخذ له للحق".

قال الطبري: "هم المنافقون لا هم لهم غير أنفسهم، فهم من حذر القتل على أنفسهم، وخوف المنية عليها في شغل، قد طار عن أعينهم الكرى، يظنون بالله الظنون الكاذبة، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكًا في أمر الله، وتكذيبًا لنبيه ﷺ، وَمحْسَبة منهم أن الله خاذل نبيه ومُعْلٍ عليه أهل الكفر به".

قال الرازي: واعلم أن الذين كانوا مع الرسول ﷺ يوم أحد فريقان: أحدهما: الذين كانوا جازمين بأن محمدا عليه الصلاة والسلام نبي حق من عند الله وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وكانوا قد سمعوا من النبي ﷺ أن الله تعالى ينصر هذا الدين ويظهره على سائر الأديان، فكانوا قاطعين بأن هذه الواقعة لا تؤدي إلى الاستئصال، فلا جرم كانوا آمنين، وبلغ ذلك الأمن إلى حيث غشيهم النعاس، فإن النوم لا يجيء مع الخوف، فمجيء النوم يدل على زوال الخوف

=

=

بالكلية، فقال ههنا في قصة أحد في هؤلاء (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا) وقال في قصة بدر (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) ففي قصة أحد قدم الأمنة على النعاس، وفي قصة بدر قدم النعاس على الأمنة، وأما الطائفة الثانية وهم المنافقون الذين كانوا شاكين في نبوته عليه الصلاة والسلام، وما حضروا إلا لطلب الغنيمة، فهؤلاء اشتد جزعهم وعظم خوفهم، ثم إنه تعالى وصف حال كل واحدة من هاتين الطائفتين.

قوله تعالى: {يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} [آل عمران: ١٥٤]، "أي: يظنون بالله السيئة مثل ظنِّ أهل الجاهلية".

قال الثعلبي: "أي لا ينصر محمدا، وقيل: ظنوا أن محمدا قد قتل".

قال قتادة: "{يظنون بالله غير الحق} ظنون كاذبة، إنما هم أهل شك وريبة". وعنه ايضا: "{ظن الجاهلية}: ظن اهل الشرك".

قال محمد بن إسحاق: "وذلك أنهم كانوا لا يرجون عاقبة، فذكر الله تلاؤمهم وحسرتهم على ما أصابهم".

قال الزجاج: "أي يظن المنافقون أن أمر النبي ﷺ مضمحل، [و] هم على جاهليتهم في ظنهم هذا".

قال البيضاوي: "أي: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يحق أن يظن به، وظن الجاهلية بدله وهو الظن المختص بالملة الجاهلية وأهلها".

قال ابن كثير: وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد أهله، وهذا شأن أهل الريب والشك، إذا حصل أمر من الأمر الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

وقال ابن عاشور: وإنما كان هذا الظن غير الحق لأنه تخليط في معرفة صفات الله وصفات رسوله وما يجوز وما يستحيل، فإن لله أمرا وهديا وله قدر وتيسير،

=

=

وكذلك لرسوله الدعوة والتشريع وبذل الجهد في تأييد الدين وهو في ذلك معصوم، وليس معصوما من جريان الأسباب الدنيوية عليه، ومن أن يكون الحرب بينه وبين عدوه سجالا، قال أبو سفيان لهرقل وقد سأله: كيف كان قتالكم له؟ فقال أبو سفيان: ينال منا وننال منه، فقال هرقل: وكذلك الإيمان حتى يتم. فظنهم ذلك ليس بحق.

وقد بين الله تعالى أنه ظن الجاهلية الذين لم يعرفوا الإيمان أصلا فهؤلاء المتظاهرون بالإيمان لم يدخل الإيمان في قلوبهم فبقيت معارفهم كما هي من عهد الجاهلية.

قوله تعالى: {يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ} [آل عمران: ١٥٤]، أي: "يقولون: ليس لنا من الأمر شيء، ولو كان لنا اختيار ما خرجنا لقتال".

قال مقاتل: "هذا قول معتب بن قشير يعني بالأمر: النصر".

عن ابن جريج قال: "قيل لعبد الله بن أبيّ: قُتل بنو الخزرج اليوم! قال: وهل لنا من الأمر من شيء؟ قيل إنّ الأمر كله لله!".

قال البيضاوي: أي: "هل لنا مما أمر الله ووعد من النصر والظفر نصيب قط. وقيل: أخبر ابن أبي بقتل بني الخزرج فقال ذلك، والمعنى إنا منعنا تدبير أنفسنا وتصريفها باختيارنا، فلم يبق لنا من الأمر شيء أو هل يزول عنا هذا القهر فيكون لنا من الأمر شيء".

قال القاسمي: أي: هل لنا من أمر التدبير والرأي من شيء، استفهام على سبيل الإنكار. أي: ما لنا أمر يطاع. ونظيره ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا (لو أطاعونا ما قتلوا) وذلك أن عبد الله بن أبي لما شاوره النبي ﷺ في هذه الواقعة، أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة، ثم إن الصحابة ألحوا على النبي ﷺ في أن يخرج إليهم، كما تقدم. ولما رجع عبد الله بن أبي بمن معه، وأخبر بكثرة القتلى من بني الخزرج،

=

=

قال: هل لنا من الأمر شيء؟ يعني أن محمدا ﷺ لم يقبل قولي حين أمرته بأن يبقى في المدينة ولا يخرج منها.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} [آل عمران: ١٥٤]، " أي: قل محمد لأولئك المنافقين الأمر كله بيد الله يصرّفه كيف شاء".

فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبتها النصر والظفر لأوليائه، وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى.

قال الماتريدي: "يعني النصر والفتح كله بيد الله".

قال مقاتل: "يقول الله- عز وجل- لنبيه- ﷺ- قل إن الأمر يعني النصر كله لله".

قال الطبري: يعني: "قل، يا محمد، لهؤلاء المنافقين: إن الأمر كله لله، يصرفه كيف يشاء ويدبره كيف يحبّ".

قال البيضاوي: "أي الغلبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون، أو القضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو اعتراض".

وقرئ: {قُلْ إِنَّ الأمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}، برفع الـ {كل}، على توجيه الكل إلى أنه اسم، وقوله لله خبره.

قوله تعالى: {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ} [آل عمران: ١٥٤]، " أي: يبطنون في أنفسهم ما لا يظهرون لك".

قال الربيع بن أنس: "فكان مما أخفوا في أنفسهم أن قالوا: {لو كنا على شيء من الأمر ما قتلنا هاهنا}".

قال مقاتل: "يسرون فى قلوبهم ما لا يظهرون لك بألسنتهم والذي أخفوا في أنفسهم أنهم قالوا: لو كنا في بيوتنا ما قتلناها هنا".

قال ابن الجوزي: "في الذي أخفوه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه قولهم (لو كنا في بيوتنا ما قتلنا هاهنا).

=

=

والثاني: أنه إسرارهم الكفر، والشك في أمر الله.

والثالث: الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد".

قوله تعالى: {يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا} [آل عمران: ١٥٤]، " أي: لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نُقتل ولكن أكرهنا على الخروج".

قال الثعلبي: "وذلك أن المنافقين قال بعضهم لبعض: لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولما قتل رؤساؤنا".

قال الطبري: أي: "أنّ هؤلاء المنافقين يقولون: لو كان الخروج إلى حرب من خرجنا لحربه من المشركين إلينا، ما خرجنا إليهم، ولا قُتل منا أحد في الموضع الذي قتلوا فيه بأحد".

قال السمرقندي: "أي يقولون لو كان ديننا حقا ما قتلنا هاهنا".

قال البيضاوي: أي: يقولون: "لو كان لنا من الأمر شيء كما وعد محمد أو زعم إن الأمر كله لله ولأوليائه، أو لو كان لنا اختيار وتدبير ولم نبرح كما كان ابن أبي وغيره، ما قتلنا هاهنا لما غلبنا، أو لما قتل من قتل منا في هذه المعركة".

عن عباد بن منصور، قال: "سألت الحسن عن قوله: {يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا}، قال: ذلك المنافق لما قتل من قتل من أصحاب محمد، أتوا عبد الله بن أبي فقالوا له: ما ترى فقال: أنا والله ما نؤامر لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا هاهنا".

قال السعدي: "في هذا إنكار منهم، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ﷺ، ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم".

قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} [آل عمران: ١٥٤]، "أي: قل لهم يا محمد: لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم من قدّر الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم".

=

=

فلـو كنـتم في بيـوتكم التـي هـي أبعـد شـيء عـن مظـان القتـل لخـرج أولئـك إلـى مصارعهم، فقدر الله لا مناص منه ولا مفر.

فالأسباب - وإن عظمت - إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئا، بل لابد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة.

قال البيضاوي: "أي لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه في اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامة بالمدينة ولم ينج منهم أحد، فإنه قدر الأمور ودبرها في سابق قضائه لا معقب لحكمه".

قال محمد ابن إسحاق: "ثم قال الله لنبيه: قل لو كنتم في بيوتكم لم تحضروا هذا الموطن الذي أظهر فيه ما أظهر من سرائكم، لأخرج الذين كتب عليهم القتل إلى موطن غيره يصرعون فيه، حتى يصرعوا فيه".

قال ابن كثير: "أي: هذا قدر مقدر من الله عز وجل، وحكم حَتْم لا يحاد عنه، ولا مناص منه".

عن عمرو بن عبيد، عن الحسن سئل عن قوله: {قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم}، قال: كتب الله على المؤمنين أن يقاتلوا في سبيله، وليس كل من يقاتل يُقتل، ولكن يُقتل من كَتب الله عليه القتل".

قال الزجاج: "معنى (برزوا) صاروا إلى براز، وهو المكان المنكشف أي لأوصلتهم

الأسباب التي عنها يكون القتل إلى مضاجعهم".

قال ابن عاشور: والمعنى: لو لم تكونوا ههنا وكنتم في بيوتكم لخرج الذين كتب الله عليهم أن يموتوا مقتولين فقتلوا في مضاجعهم التي اضطجعوا فيها يوم أحد أي مصارعهم فالمراد بقوله: (كتب) قدر، ومعنى (برز) خرج إلى البراز وهو الأرض.

=

=

وقال القاسمي: كما قال تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير). وفيه مبالغة في رد مقالتهم الباطلة، حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل، بل عين مكانه أيضا. وفي التعبير بمضاجعهم من إجلالهم وتكريمهم ما لا يخفى على صاحب الذوق السليم.

وقرأ ابن أبي حيوة: {لبرز} بضم الباء وتشديد الراء، على الفعل المجهول.

وقرأ قتادة: {الذين كتب عليهم القتال}.

وتقرأ" {بيوتكم}، بضم الباء وكسرها، وروى أبو بكر بن عياش عن عاصم، بكسر الباء، قال أبو إسحاق: وقرأناها بإقراء أبي عمرو عن عاصم (بيوتكم) بضم الباء، والضم الأكثر الأجود -، والذين كسروا (بيوت) كسروها لمجيء الياء بعد الباء".

قوله تعالى: {وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ} [آل عمران: ١٥٤]، "أي: ليختبر ما في قلوبكم من الإخلاص والنفاق".

قوله تعالى: (وليبتلي) الواو حرف عطف، واللام لام التعليل، ولهذا يجب كسرها، بخلاف لام الأمر، فإنها تسكن إذا وقعت بعد حرف العطف [الواو والفاء وثم] قال تعالى (ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم) وقال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا)، أما لام التعليل فإنها مكسورة دائما ولو بعد الواو أو ثم أو الفاء. (ابن عثيمين).

قال محمد بن إسحاق: "يبتلي به ما في صدوركم".

قال الطبري: يعني: "وليختبر الله الذي في صدوركم من الشك، فيميِّزكم بما يظهره للمؤمنين من نفاقكم من المؤمنين".

قال السمرقندي: "يعني ليختبر ويظهر ما في قلوبكم".

قال البيضاوي: أي: "وليمتحن ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص

=

=

والنفاق".

قال الماتريدي: "أي: ليظهر الله للخلق ما في صدورهم مما مضى، وليجعله ظاهرا لهم، والابتلاء هو الاستظهار؛ كقوله - عز وجل -: (يوم تبلى السرائر) تبدي وتظهر، وذلك يكون بوجهين: يظهر بالجزاء مرة، ومرة بالكتاب، يعلم الخلق من كانت سريرته حسنة بالجزاء، وكذلك إذا كانت سيئة، أو يعلم ذلك بالكتاب، ويحتمل الابتلاء -هاهنا- الأمر بالجهاد؛ ليعلموا المنافق منهم من المؤمن".

قوله تعالى: {وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} [آل عمران: ١٥٤]، "أي: ولينقّي ما في قلوبكم ويطهّره".

قال الطبري: أي: "وليتبينوا ما في قلوبكم من الاعتقاد لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين من العداوة أو الولاية".

قال الثعلبي: "يخرج ويطهر ما في قلوبكم".

قال السمرقندي: "يعني: ليظهر ويكفر ما في قلوبكم من الذنوب".

قال البيضاوي: أي: "وليكشفه ويميزه أو يخلصه من الوساوس".

قال ابن تيمية: عند المحن تظهر كمائن النفوس.

قال الحسن: الناس وقت الرخاء متساوين فإذا وقع البلاء تباينوا.

قال ابن عاشور: والتمحيص تخليص الشيء مما يخالطه مما فيه عيب له فهو كالتزكية.

والقلوب هنا بمعنى العقائد، ومعنى تمحيص ما فيه قلوبهم تطهيرها مما يخامرها من الريب حين سماع شبه المنافقين التي يبثونها بينهم.

قال ابن القيم: ثم أخبر سبحانه عن حكمة أخرى في هذا التقدير هي ابتلاء ما في صدورهم وهو اختبار ما فيها من الإيمان والنفاق فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانا وتسليما والمنافق ومن في قلبه مرض لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه

=

=

ولسانه، ثم ذكر حكمة أخرى: وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه فإن القلوب يخالطها بغلبات الطبائع؟ وميل النفوس وحكم العادة وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى فلو تركت في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ولم تتمحص منه فاقتضت حكمة العزيز أن قيض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا.

قوله تعالى: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران: ١٥٤].

أي بما في القلوب التي في الصدور من الضمائر الخفية ووصفت بذلك لأنها لتمكنها من الصدور جعلت كأنها مالكة لها فذات بمعنى صاحبة لا بمعنى ذات الشيء ونفسه.

قال الطبري: أي: "لا يخفى عليه شيء من أمورهم، سرائرها علانيتها، وهو لجميع ذلك حافظ، حتى يجازي جميعهم جزاءهم على قدر استحقاقهم".

قال البيضاوي: "(والله عليم بذات الصدور) بخفياتها قبل إظهارها، وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين".

قال ابن كثير: "أي: بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر".

قال محمد بن إسحاق: "أي: لا يخفى عليه ما في صدورهم مما استخفوا به منكم".

قال مقاتل: "يقول: الله عليم بما في القلوب من الإيمان والنفاق والذين أخفوا في

=

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥).

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ} عَنْ الْقِتَال {يَوْم الْتَقَى الْجَمْعَانِ} جَمْع الْمُسْلِمِينَ وَجَمْع الْكُفَّار بِأُحُدٍ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا {إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ} أَزَلَّهمْ

=

أنفسهم قولهم إن محمدا قد قتل، وقولهم لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا «٣» هاهنا، يعني هذا المكان".

قال الراغب: "من نقض الحزن ورفض الذعر ذكر الصدر، وحينما ذكر الإيمان المحض ذكر القلب، وكل موضع يذكر الله في القرآن العقل والإيمان، فإنه يخص ذكر القلب، وإذا أراد ذلك وسائر الفضائل والرذائل ذكر الصدور، وهذا إذا اعتبر بالاستقراء انكشف، نحو قوله: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: ١٤]، وقوله: {فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوب} [الحج: ٣٢]، وقوله: {أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]، وقوله: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [العنكبوت: ٤٩]، وقوله: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ} [الزمر: ٢٢]، وقوله: {فِي صُدُورِ النَّاسِ} [الناس: ٥]، ولما كان التمحيص أخص من الابتلاء كما تقدم خصه بالقلب، وهذه الأحوال الثلاث يترتب بعضها على بعض، فبإصلاح العمل يتوصل إلى إصلاح ما في الصدور من الشهوة والغضب، وبهما وبإصلاح ذلك يتوصل إلى إصلاح ما في القلوب من الاعتبارات التي لا يعتريها شك وريب، وذلك ما يبلغه العبد، وبه يستحق اسم الخلافة لله المذكور في قوله: {وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ} [الأعراف: ١٢٩]، ثم قال: {وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور} [آل عمران: ١٥٤]، أي عالم بجميع ما ينطوي عليه من الضمائر الطيبة والخبيثة، وخص الصدور دون القلب إذ هي أعم".

{الشَّيْطَان} بِوَسْوَسَتِهِ {بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا} مِنْ الذُّنُوب وَهُوَ مُخَالَفَة أَمْر النَّبِيّ {وَلَقَدْ عَفَا الله عَنْهُمْ إنَّ الله غَفُور} لِلْمُؤْمِنِينَ {حليم} لا يعجل على العصاة[1].

---

(١) عن كليب؛ قال: خطب عمر يوم الجمعة؛ فقرأ آل عمران، وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها، فلما انتهى إلى قوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ}؛ قال: لما كان يوم أُحد؛ هزمناهم، ففررت حتى صعدت الجبل، فلقد رأيتني أنزو كأنني أروى، والناس يقولون: قتل محمد، فقلت: لا أجد أحدًا يقول: قتل محمد؛ إلا قتلته، حتى اجتمعنا على الجبل؛ فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٩٥، ٩٦): ثنا أبو هشام الرفاعي: ثنا أبو بكر بن عياش: ثنا عاصم بن كليب عن أبيه؛ قال: خطب عمر... فذكره. وأبو هشام الرفاعي هذا؛ ضعيف؛ ضعفه البخاري، والنسائي، وأبو حاتم وغيرهم، ولخصه الحافظ بقوله في "التقريب": "ليس بالقوي".

وعن عكرمة -مولى ابن عباس-؛ قال: جاءت [فاختة] بنت غزوان امرأة عثمان بن عفان، ورسول الله ﷺ وعليٌّ يغسلان السلاح من الدماء، فقالت: ما فعل ابن عفان؟! أما والله لا تجدونه ألأم القوم، فقال لها علي: إن عثمان فضح الذمار اليوم، فقال له رسول الله ﷺ: "مَهْ"، وكان ممن ولى دبره يومئذ: عثمان بن عفان، وسعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان -إخوان من الأنصار من بني زريق- حتى بلغوا الجلعب، فرجعوا بعد، فقالت: فقال لهم رسول الله ﷺ: "لقد ذهبتهم بها عريضة"، قال الله -تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ}.

أخرجه عبد بن حميد؛ كما في "العجاب" (٢/ ٧٧٢): ثنا يوسف بن بهلول عن =

=

عبد الله بن إدريس، والطبري في "جامع البيان" (٤/ ٩٦) من طريق سلمة بن الفضل (كلاهما) عن ابن إسحاق؛ قال: [قال عكرمة]، وذكره. وسنده ضعيف، فيه علتان:

الأولى: الإرسال. والثانية: الانقطاع بين ابن إسحاق وعكرمة.

وعنه أيضا قال: نزلت في رافع بن المعلى وغيره من الأنصار وفي أبي حذيفة بن عتبة ورجل آخر: {وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ}؛ إذ لم يعاقبهم.

أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٩٦) -: ثنا حجاج بن محمد بن نصير عن ابن جريج قال: قال عكرمة. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه ثلاث علل:

الأولى: الإرسال. والثانية: ابن جريج لم يسمع من عكرمة. والثالثة: سنيد ضعيف.

وعن قتادة: وذلك يوم أحد، ناس من أصحاب رسول الله ﷺ تولوا عن القتال وعن نبي الله يومئذ، وكان ذلك من أمر الشيطان وتخويفه؛ فأنزل الله ما تسمعون أنه قد تجاوز عن ذلك وعفا عنهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٩٦): ثنا بشر بن معاذ العقدي: ثنا يزيد بن زريع: ثنا سعيد بن أبي عروبه عن قتادة. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن السدي قال: لما انهزموا يومئذ؛ تفرق عن رسول الله ﷺ أصحابه، فدخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة، فقاموا عليهم؛ فذكر الله عز وجل الذين انهزموا فدخلوا المدينة، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ٩٦) من طريق أسباط بن نصر عن السدي

=

=

به.

وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علتان: الأولى: الإعضال. والثانية: وضعف أسباط.

* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ} [آل عمران: ١٥٥]، " أي: إن الذين انهزموا منكم من المعركة يوم أحد".

قال ابن الجوزي: "الخطاب للمؤمنين، وتوليهم فرارهم من العدو، والجمعان: جمع المؤمنين وجمع المشركين يوم أحد".

قال سعيد بن جبير: "يعني: الذين انصرفوا عن القتال منهزمين".

قال الحسن: "فرت طائفة منهم، زاغت قليلا ثم رجعوا".

وفي المراد بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوا مِنكُم يَومَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ [آل عمران: ١٥٥]، قولان:

أحدهما: ان المراد: كل من ولّى الدبر من المشركين بأحد، وهذا قول عمر، وقتادة، والربيع.

والثاني: أنهم من هرب إلى المدينة وقت الهزيمة، وهذا قول السدي.

قوله تعالى: {يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} [آل عمران: ١٥٥]، "أي: يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين".

قال سعيد بن جبير: "يوم أحد حين التقى الجمعان، جمع المسلمين وجمع المشركين، فانهزم المسلمون عن النبي ﷺ، وبقي في ثمانية عشر رجلا".

وقال الضحاك: {يوم التقى الجمعان}، فهو يوم بدر".

قال السمعاني: "يعني: الذين انهزموا من المسلمين يوم أحد؛ فإنه لما وقعت الهزيمة على المسلمين انهزم أكثرهم، ولم يبق مع رسول الله إلا أربعة عشر نفرا: سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار، وقيل: ثلاثة عشر، ستة من المهاجرين وهم أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي

=

=

وقاص.

وفي الرواية الأولى: كان السابع الزبير، وكان طلحة أشد نكاية في الكفار يومئذ.

وقيل: إن يوم أحد لطلحة، وقيل: إنه كان وقاية رسول الله وكان قد ضرب على يده فشلت وبقيت كذلك، وأما سعد وهو رامية، وكان يرمي بين يديه، ويقول له رسول الله: "ارم، فداك أبي وأمي "، وأما الذين انهزموا، فقد لحق بعضهم بالمدينة منهم عثمان، ورجع بعضهم على الطريق منهم عمر".

قوله تعالى: {إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا} [آل عمران: ١٥٥]، " أي: إنما أزلهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب".

قال سعيد بن جبير: "يعني: حين تركوا المركز وعصوا أمر رسول الله ﷺ حين قال للرماة يوم أحد: لا تبرحوا مكانكم، فترك بعضهم المركز".

قال محمد بن إسحاق: "إنما إستزلهم الشيطان والذين استزلهم الشيطان عثمان بن عفان، وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان الأنصاريان ثم الزرقيان".

قال ابن قتيبة: "استزلهم طلب زلتهم، كما يقال استعجلته أي طلبت عجلته، واستعملته طلبت عمله".

قال الزجاج: "أي: لم يتولوا في قتالهم على جهة المعاندة، ولا على الفرار من الزحف رغبة في الدنيا خاصة، وإنما أذكرهم الشيطان خطايا كانت لهم فكرهوا لقاء الله. إلا على حال يرضونها، فلذلك عفا عنهم وإلا فأمر الفرار والتولي في الجهاد إذا كانت العدة أقل من المثلين، أو كانت العدة مثلين، فالفرار أمر عظيم".

قال مكي: "قيل: إنه ذكرهم بذنوب لم يتوبوا منها، فكرهوا أن يلقوا الله - عز وجل - على غير توبة، فانهزموا لئلا يقتلوا قبل التوبة، فغفر الله لهم فرارهم".

قال الزمخشري: أي: "استزلهم طلب منهم الزلل ودعاهم إليه ببعض ما كسبوا من ذنوبهم، معناه إن الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنهم كانوا

=

=

أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنوبا، فلذلك منعتهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا.
وقيل: استزلال الشيطان إياهم هو التولي، وإنما دعاهم إليه بذنوب قد تقدمت لهم، لأن الذنب يجر إلى الذنب، كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة وتكون لطفا فيها.
وقال الحسن رضى الله عنه: استزلهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة.
وقيل: (ببعض ما كسبوا) هو تركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه. فجرهم ذلك إلى الهزيمة.
وقيل: ذكرهم تلك الخطايا فكرهوا لقاء الله معها، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية".
قال ابن عطية: "ظاهره عند جمهور المفسرين: أنه كانت لهم ذنوب عاقبهم الله عليها بتمكين الشيطان من استزلالهم، وبخلق ما اكتسبوه أيضا هم من الفرار".
قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ} [آل عمران: ١٥٥]، "أي: ولقد تجاوز الله عن عقوبتهم وصفح عنهم".
قال الطبري: "ولقد تجاوز الله عن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان، أن يعاقبهم بتوليهم عن عدوّهم".
قال ابن جريج: "ولقد عفا الله عنهم، إذ لم يعاقبهم".
قال سعيد بن جبير: "ولقد عفا الله عنهم حين لم يعاقبهم، فيستأصلهم جميعا".
قال ابن زيد: "ولقد عفا الله عنهم، فلا أدري أذلك العفو عن تلك العصابة، أم عفوٌ عن المسلمين كلهم؟".
وقال الحسن: "فكيف عفى عنهم، وقد قتل منهم سبعون وجرح سبعون، وأسر منهم سبعون، وشج رسول الله ﷺ، وكسر رباعيته، وهشم البيضة على رأسه، قال الحسن ولقد عفا عنكم: لم يستأصلكم لمخالفتكم رسول الله ﷺ، إنما خافوا رسول الله ﷺ أن قال لقوم منهم: لا تبرحوا مكانكم، فعاقبهم بما قد رأيت، وعفا

=

=

عنهم ألا يكون اصطلمهم".

قال ابن عاشور: ومناسبة ذكر هذه الآية عقب التي قبلها أنه تعالى بعد أن بين لهم مرتبة حق اليقين بقوله (قل لو كنتم في بيوتكم) انتقل بهم إلى مرتبة الأسباب الظاهرة، فبين لهم أنه إن كان للأسباب تأثير فسبب مصيبتهم هي أفعالهم التي أملاها الشيطان عليهم وأضلهم، فلم يتفطنوا إلى السبب، والتبس عليهم بالمقارن، ومن شأن هذا الضلال أن يحول بين المخطئ وبين تدارك خطئه ولا يخفى ما في الجمع بين هذه الأغراض من العلم الصحيح، وتزكية النفوس، وتحبيب الله ورسوله للمؤمنين، وتعظيمه عندهم، وتنفيرهم من الشيطان، والأفعال الذميمة، ومعصية الرسول، وتسفيه أحلام المشركين والمنافقين.

وعلى هذا فالمراد من الذين تولوا نفس المخاطبين بقوله: (ثم صرفكم عنهم ...) وضمير (منكم) راجع إلى عامة جيش أحد فشمل الذين ثبتوا ولم يفروا.

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران: ١٥٥]، أي: إن الله "واسع المغفرة حليم لا يعجل العقوبة لمن عصاه".

قال الزمخشري: أي: "إن الله غفور للذنوب، حليم لايعاجل بالعقوبة".

قال سعيد بن جبير: "فلم يجعل لمن انهزم يوم أحد بعد قتال بدر النار، كما جعل يوم بدر، فهذه رخصة بعد التشديد".

عن قتادة قوله: "{إن الله غفور} للذنوب الكبيرة أو الكثيرة".

ابن أبي سلمة قال: "الحلم أرفع من العقل، إن الله عز وجل تسمى به".

أخرج ابن المنذر عن عاصم، عن شقيق، قال: "لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عتبة، فقال له الوليد: ما لي أراك جفوت أمير المؤمنين، عثمان فقال عبد الرحمن " أبلغه أني لم أفر يوم عينين " قال عاصم: هو يوم أحد ولم أتخلف عن بدر، ولم أترك سنة عمر " قال: فانطلق فخبر بذلك عثمان، فقال: "أما قوله: إني لم

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا} أَيْ الْمُنَافِقِينَ {وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ} أَيْ فِي شَأْنهمْ {إذَا ضَرَبُوا} سَافَرُوا {فِي الْأَرْض} فَمَاتُوا {أَوْ كَانُوا غُزًّى} جَمْع غَازٍ فَقُتِلُوا {لَوْ كَانُوا عِنْدنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا} أَيْ لَا تَقُولُوا كَقَوْلِهِمْ {لِيَجْعَل الله ذَلِكَ} الْقَوْل فِي عَاقِبَة أَمْرهمْ {حَسْرَة فِي قُلُوبهمْ وَاَلله يُحْيِي وَيُمِيت} فَلَا يَمْنَع عَنْ الْمَوْت قُعُود {وَاَلله بِمَا تَعْمَلُونَ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء {بَصِير} فَيُجَازِيكُمْ بِهِ[1].

=

أفر يوم عينين فكيف يعيرني بذنب، قد عفا الله عنه، فقال: {إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم}؟ وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، وضرب لي رسول الله بسهمه، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه، فقد شهد وأما قوله: إني لم أترك سنة عمر، فإني لا أطيقها ولا هو فأته فحدثه بذلك".

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران: ١٥٦]، أي: "يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وأقرّوا بما جاء به محمد من عند الله".

قوله تعالى: {لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران: ١٥٦]، أي: "لا تكونوا كالذين كفروا بالله وبرسوله، فجحدوا نبوَّة محمد ﷺ".

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد.

قال محمد بن إسحاق: "أي لا تكونوا كالمنافقين".

قال السدي: "هؤلاء: المنافقون أصحاب عبد الله بن أبي.

=

=

قيل المراد بالذين كفروا: جميع الكفار.

وقيل: المراد المنافقين كعبد الله بن أبي.

قوله تعالى: {وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ} [آل عمران: ١٥٦]، أي: "وقالوا لإخوانهم من أهل الكفر إذا خرجوا من بلادهم سفرًا في تجارة".

قال محمد بن إسحاق: "الذين ينهون إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله، والضرب في الأرض في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ".

وقال السدي: "أما إذا ضربوا في الأرض فهي التجارة".

قال الثعلبي: أي: "وقالوا لإخوانهم في النفاق، وقيل: في النسب ساروا وسافروا فيها لتجارة أو غيرها".

وأصل "الضرب في الأرض"، الإبعاد فيها سيرًا.

قوله تعالى: {أَوْ كَانُوا غُزًّى} [آل عمران: ١٥٦]، أي: "أو خرجوا غازين في سبيل الله".

قوله تعالى {لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا} [آل عمران: ١٥٦]، "أي: لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا".

قال الحسن: "هذا قول الكفار: إذا مات الرجل فيقول: لو كان عندنا، ما مات ولا تقولوا كما قال الكفار".

قال محمد بن إسحاق: "ويقولون لو أطاعونا ما ماتوا وما قتلوا".

قوله تعالى: {لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ} [آل عمران: ١٥٦]، "أي: قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم".

قال السدي: "يحزنهم ولا ينفعهم شيئا، يعني يحزنهم قولهم". وروي عن أبي مالك نحو ذلك".

قال محمد بن إسحاق: "ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم لقلة اليقين بربهم".

=

=

قال الزجاج: "أي: ليجعل ظنهم أنهم لو لم يحضروا - وإذا لم يحضروا الحرب اندفع
عنهم ما كتب عليهم. فحسرتهم فيما ينالهم أشد".

قوله تعالى: {وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [آل عمران: ١٥٦]، أي: "والله سبحانه المحيي المميت".

قال محمد بن إسحاق: "أي يعجل ما يشاء أو يؤخر ما يشاء من ذلك من آجالهم بقدرته".

قال الزجاج: "أي ليس الإنسان يمنعه تحرزه من إتيان أجله على ما سبق في علم الله".

قال الطبري: يعني: أي: "والله المعجِّل الموتَ لمن يشاء من حيث يشاء، والمميت من يشاء كلما شاء، دون غيره من سائر خلقه، وهذا من الله عز وجل ترغيبٌ لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم، وإخراج هيبتهم من صدورهم، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله وإعلامٌ منه لهم أن الإماتة والإحياء بيده، وأنه لن يموت أحدٌ ولا يقتل إلا بعد فناء أجله الذي كتب له ونهيٌ منه لهم، إذ كان كذلك، أن يجزعوا لموت من مات منهم أو قتل من قتل منهم في حرب المشركين".

قال الزمخشري: قوله: "{والله يحيي ويميت}، رد لقولهم، أى الأمر بيده، قد يحيى المسافر والغازي، ويميت المقيم والقاعد كما يشاء. وعن خالد بن الوليد رضى الله عنه أنه قال عند موته: «ما فى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وها أنا ذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء»".

قوله تعالى: {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [آل عمران: ١٥٦]، " أي: مطلع على أعمال العباد فيجازيهم عليها".

=

وَنَزَلَتْ لَمَّا فُقِدَتْ قَطِيفَة حَمْرَاء يَوْم أُحُد فَقَالَ بَعْض النَّاس لَعَلَّ النَّبِيّ أَخَذَهَا {وَمَا كان} ما يَنْبَغِي {لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلّ} يَخُون فِي الْغَنِيمَة فَلَا تَظُنُّوا بِهِ ذَلِكَ وَفِي قِرَاءَة بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ أَنْ يُنْسَب إلَى الْغُلُول {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْم الْقِيَامَة} حَامِلًا لَهُ عَلَى عُنُقه {ثُمَّ تُوَفَّى كُلّ نَفْس} الْغَالّ وَغَيْره جَزَاء {مَا كَسَبَتْ} عَمِلَتْ {وَهُمْ لَا يظلمون} شيئا[1].

=

قال الزمخشري: أي: "فلا تكونوا مثلهم".

قال الطبري: أي: "إن الله يرى ما تعملون من خير وشر، فاتقوه أيها المؤمنون، إنه محصٍ ذلك كله، حتى يجازي كل عامل بعمله على قدر استحقاقه".

قرأ ابن كثير وطلحة والأعمش والحسن وشبل وحمزة والكسائي وخلف: {يعملون}، بالياء، والباقون: بالتاء.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزلت هذه الآية: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ} في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر؛ فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها؛ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)}.

أخرجه أبو داود (٣٩٧١)، والترمذي (٣٠٠٩)، وابن عدي (٣/ ٩٤٢)، وأبو يعلى (٢٤٣٨، ٢٦٥١)، والطبري في تفسيره (٤/ ١٠٢)، والبزار (٢١٩٨)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٦٤)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٨٤) والحديث ضعفه ابن عدي، وقال المنذري في مختصر السنن (٦/ ٣): في إسناده خصيف؛ تكلم فيه غير واحد، وقال المناوي في الفتح السماوي (١/ ٤١٤): فالحديث ضعيف، ووهم من حسن؛ كالجلال السيوطي اغترارًا بتحسين الترمذي

=

=

له، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٢٧٨٨): قال الترمذي: حديث حسن غريب. كذا قال!وخصيف فيه ضعف من قبل حفظه، قال الحافظ في التقريب: صدوق، سيئ الحفظ، خلط بآخره، ثم أورد الشيخ للحديث طرق أخرى وقواه بها، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٦/ ١٠٠): حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف خصيف -وهو ابن عبد الرحمن- لكن روي الحديث بنحوه من طريقين آخرين يصح بهما إن شاء الله.

وعن الضحاك بن مزاحم؛ قال: بعث رسول الله ﷺ طلائع، فغنم النبي ﷺ فلم يقسم للطلائع؛ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٢/ ٤١٣ رقم ١٥٠٧٨)، وابن جرير في "جامع البيان" (٤/ ١٠٣)، وأبو الشيخ في "التفسير" -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٨٤) -من طريق وكيع عن سلمه بن نبيط عن الضحاك به. وهو ضعيف، لإعضاله.

وعن الأعمش؛ قال: كان ابن مسعود يقرأ: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ}؛ فقال ابن عباس: بلى، ويقتل، قال: فذكر ابن عباس إنه إنما كانت في قطيفة، قالوا: إن رسول الله ﷺ غلها يوم بدر؛ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ١٠٢): ثنا نصر بن علي الجهضمي: ثنا معتمر بن سليمان عن أبيه سليمان التيمي عن الأعمش به. ورجاله ثقات؛ لكنه معضل.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال نبيّ ﷺ جيشًا؛ فردت رايته، ثم بعث فردت، ثم بعث فردت؛ فردت بغلول رأس غزال من ذهب؛ فنزلت: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ}.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٢/ رقم ١٢٦٨٤)، وابن مردويه في

=

=

"تفسيره" -ومن طريقهما الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٩/ ٥٢٩، ٥٣٠ رقم ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤) - من طريق معاوية بن هشام عن الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن ابن عباس به. قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ٣٢٨): "ورجاله ثقات". وهو كما قال.

وعن قتادة؛ قال: ذُكر لنا أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ يوم بدر، وقد غلَّ طوائف من أصحابه.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ١٠٣): ثنا بشر: ثنا يزيد: ثنا سعيد عن قتادة. وهذا مرسل صحيح الإسناد، يقوي حديث عبد الله بن عباس: والذي ينص على أن نزول الآية كان في بدر، مع أن الحافظ ابن حجر قال في "العجاب" (٢/ ٧٧٩): "فإن هذه الآية نزلت في يوم أحد اتفاقًا!!".

وعن الربيع: أنزلت على نبي الله يوم بدر وقد غل طوائف من أصحابه.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٤/ ١٠٤): حدثت عن عمار عن ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع. وسنده ضعيف.

* قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ} [آل عمران: ١٦١]، " أي: وما صحَّ ولا استقام عقلًا لنبيٍّ من الأنبياء أن يخون في الغنيمة".

وتفسير الغلول بالخيانة مروي عن: مجاهد، وقتادة، والربيع، والحسن، وبه قال كثير من المفسرين كأبي عبيدة، والأخفش، والطبري، والزجاج، والطبري، وأبو السعود.

قال الزجاج: المعنى" وما كان لنبي أن يخون أمته".

قال المراغي: "أي ما كان من شأن أيّ نبى ولا من سيرته أن يغل، لأن الله عصم أنبياءه منه، فهو لا يليق بمقامهم ولا يقع منهم، لأن النبوة أعلى المناصب الإنسانية، فصاحبها لا يرغب فيما فيه دناءة وخسة".

=

=

قال الألوسي: (أصل الغلول من الغلل وهو خلل الشجر، وسميت الخيانة غلولا لأنها تجري في الملك على خفاء من غير الوجه الذي يحل).

قال السعدي: الغلول هو: الكتمان من الغنيمة، (والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان) وهو محرم إجماعا، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل، لأن الغلول -كما علمت- من أعظم الذنوب وأشر العيوب. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقا، وأطهرهم نفوسا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكمته (الله أعلم حيث يجعل رسالته).

فبمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم، مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال (وما كان لنبي أن يغل) أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته.

واختلت القراءة في قوله تعالى: {يَغُلَّ} [آل عمران: ١٦١]، على وجهين:

أحدها: {يَغُلَّ}، بفتح الياء وضم الغين، قرأ بهذا الوجه: ابن كثير وأبو عمرو وعاصم.

والثاني: {يغلّ}، بضم الياء وفت الغين. قراءة الباقين.

قوله تعالى: {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران: ١٦١]، " أي: ومن يُخن من غنائم المسلمين شيئًا، يأت حاملًا له على عنقه يوم القيامة فضيحةً له على رءوس الأشهاد".

قال الرازي: قوله تعالى (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) فيه وجهان:

الأول: وهو قول أكثر المفسرين إجراء هذه الآية على ظاهرها، قالوا: وهي نظير

=

=

قوله في مانع الزكاة (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا) ويدل عليه قوله: "لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثغاء فينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك " وعن ابن عباس أنه قال: يمثل له ذلك الشيء في قعر جهنم، ثم يقال له: انزل اليه فخذه فينزل إليه، فإذا انتهى اليه حمله على ظهره فلا يقبل منه.

قال المحققون: والفائدة فيه أنه إذا جاء يوم القيامة وعلى رقبته ذلك الغلول ازدادت فضيحته.

الوجه الثاني: أن يقال: ليس المقصود منه ظاهره، بل المقصود تشديد الوعيد على سبيل التمثيل والتصوير.

وقال القرطبي: قوله تعالى (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) أي: يأتي به حاملا له على ظهره ورقبته، معذبا بحمله وثقله، ومرعوبا بصوته، وموبخا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد.

وهذه الفضيحة التي يوقعها الله تعالى بالغال نظير الفضيحة التي توقع بالغادر، في أن ينصب له لواء عند استه بقدر غدرته.

وجعل الله تعالى هذه المعاقبات حسبما يعهده البشر ويفهمونه.

قال المراغي: "أي وكل من يقع منه غلول يأتى بما غل به يوم القيامة حاملا له، ليفتضح أمره ويزيد به فى عذابه".

قوله تعالى: {ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ} [آل عمران: ١٦١]، أي: ثم "تعطى جزاء كل نفس ما عملت وافيًا غير منقوص".

قال محمد بن إسحاق: "ثم يُجزى بكسبه غير مظلوم".

قال المراغي: "أي: ثم بعد أن يأتى الغالّ بما غل فيتمثل له كأنه حاضر بين يديه،

=

=

ينال جزاء ما كسب مستوفى تاما لا ينقص منه شيء كما قال تعالى: «وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها؟ وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} ، وجاء حكم التوفية فى الجزاء عاما لكل كاسب، وإن كان الكلام فى جزاء الغالّ فحسب- ليكون كالدليل على المقصود من استيفائه الجزاء، فإنه إذا كان كل كاسب مجزيّا بعمله لا ينقص منه شيء وإن كان جرمه حقيرا، فالغالّ مع عظم جرمه أولى بذلك".

قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [آل عمران: ١٦١]، أي: وهم "لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب".

قال الثعلبي: أي: "لا ينقصون من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم".

قال سعيد بن جبير: "يعني: من أعمالهم".

قال محمد بن إسحاق: "ولا متعدًّى عليه".

قال الطبري: أي: "لا يفعل بهم إلا الذي ينبغي أن يفعل بهم، من غير أن يعتدي عليهم فينقصوا عما استحقوه".

فلا يزاد في عقاب العاصي، ولا ينقص من ثواب المطيع.

كما قال تعالى (ولا يظلم ربك أحدا).

وقال تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) فالله لا يظلم لكمال عدله لا لعجزه عن الظلم.

قال السعدي: وتأمل حسن الاحتراز في هذه الآية الكريمة، لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه، وكان الاقتصار على الغال يوهم -بالمفهوم- أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون -أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

=

=

وقال أبو حيان: ذكر أن ذلك الجزاء ليس مختصا بمن غل، بل كل نفس توفى جزاء ما كسبت من غير ظلم، فصار الغال مذكورا مرتين: مرة بخصوصه، ومرة باندراجه في هذا العام ليعلم أنه غير متخلص من تبعة ما غل، ومن تبعة ما كسبت من غير الغلول.

* في الآية دليل على تحريم الغلول وأنه من الكبائر، وقد جاءت النصوص في تحريمه.

عن ابن عمر. قال. سمعت رسول الله ﷺ يقول (لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول) رواه مسلم.

وعن أبى هريرة قال (قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثني. فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول يا رسول الله أغثني. فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثني. فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يا رسول الله أغثني. فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول يا رسول الله أغثني. فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك) متفق عليه.

عن عبد الله بن عمرو قال (كان على ثقل النبي ﷺ رجل يقال له كركرة فمات، فقال رسول الله ﷺ «هو في النار». فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها) رواه البخاري.

=

=

وعن أبى هريرة قال (خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر ففتح الله علينا فلم نغنم ذهبا ولا ورقا غنمنا المتاع والطعام والثياب ثم انطلقنا إلى الوادي ومع رسول الله ﷺ عبد له وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة بن زيد من بنى الضبيب فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله ﷺ يحل رحله فرمى بسهم فكان فيه حتفه فقلنا هنيئا له الشهادة يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ «كلا والذى نفس محمد بيده إن الشملة لتلتهب عليه نارا أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم». قال ففزع الناس. فجاء رجل بشراك أو شراكين. فقال يا رسول الله أصبت يوم خيبر. فقال رسول الله ﷺ «شراك من نار أو شراكان من نار) رواه مسلم.

وعمر بن الخطاب قال لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا فلان شهيد فلان شهيد حتى مروا على رجل فقالوا فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ «كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة». ثم قال رسول الله ﷺ «يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون». قال فخرجت فناديت «ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون) رواه مسلم.

الفهرس

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤). ٥

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)........ ١٨

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦). ٢٤

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)........ ٢٥

شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨). ٣١

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩). ٣٨

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠). ٣٨

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١). ٤٩

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢) ٤٩

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣). ٥٥

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤). ٥٥

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥). ٥٦

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦). ٦٢

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧). ٧٢

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَىٰ اللهِ الْمَصِيرُ (٢٨). ٧٧

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩). ٨٤

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠). ٨٧

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١). ٩١

قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢). ٩٦

إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (٣٣). ٩٩

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤). ٩٩

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥). ١٠٦

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦). ١٠٦

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧). ١٠٧

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨). ١٣٧

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩). ١٣٨

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠). ١٣٨

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١). ١٣٨

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢). ١٦٨

يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣). ١٦٩

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤). ١٦٩

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥). ١٩١

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦). ١٩٢

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧). ١٩٢

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨).................... ١٩٢

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩). ١٩٢

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠). ١٩٣

إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١).................... ١٩٣

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢). ٢٢٣

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣). ٢٢٣

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤). ٢٢٣

إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥). ٢٣٣

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦). ٢٥٦

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧). ٢٥٦

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨). ٢٥٧
إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩). ٢٦٢
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠). ٢٦٣
فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١). ٢٦٨
إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢).. ٢٦٩
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣). ٢٦٩
قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)... ٢٩٤
يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥). ٢٩٨
هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦). ٢٩٩
مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧). ٢٩٩
إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨). ٢٩٩
وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩). ٣١٤
يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠). ٣١٥
يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١). .. ٣١٥

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢). ٣٢١

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣).٣٢١

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤). ٣٢٢

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥). ٣٣٥

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)....................... ٣٣٦

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)...... ٣٤٩

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨). ٣٦٣

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩). .. ٣٦٨

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠). ٣٦٩

وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١). ٣٧٦

فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢). ٣٧٧
أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣). ٣٨١
قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤). ٣٨٦
وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)... ٣٨٧
كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦). ٤٠٢
أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧). ٤٠٢
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨). ٤٠٢
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩). ٤٠٢
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠). ٤١٢
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)........................ ٤١٢
لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢). ٤٢٤
كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣). ٤٢٨
فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤). ٤٢٨
قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥). ٤٢٩

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦). ٤٤١
فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧). ٤٤١
قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨). ٤٦٣
قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩). ٤٦٣
يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠). ٤٧١
وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١). ٤٧١
يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢). ٤٧٦
وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣). ٤٧٧
وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤). ٤٩٨
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥). ٥٢١
يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦). ٥٢١
وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧). ٥٢١

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨)........... ٥٢٢
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩). ٥٤١
كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠). ٥٤٤
لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)....... ٥٥١
ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢). ٥٥٥
لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)........................ ٥٦١
يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)........................ ٥٦١
وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥). ٥٦١
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)........................ ٥٧١
مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧). ٥٧٥
يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)........................ ٥٨٤

هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) ٥٨٤

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) ٥٨٥

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) ٦٠٨

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) ٦٠٨

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ٦١٩

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) ٦٢٤

بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) ٦٢٤

وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) ٦٢٤

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) ٦٣٦

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) ٦٣٦

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩) ٦٤٧

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) ٦٥٠

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١). ٦٥٦
وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ٦٦٢
وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ٦٦٣
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤). ٦٦٣
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥). ٦٧٢
أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦). ٦٧٣
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ٦٨١
هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًىٰ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨). ٦٨١
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩). ٦٩١
إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠). ٦٩٤
وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١). ٦٩٤
أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ٧٠٩
وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)... ٧١٢
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)....... ٧١٨
وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥). ٧٢٧
وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦). ٧٥٢
وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧). ٧٦٥
فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨). ٧٦٥
يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩).. ٧٧٢
سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١). ٧٧٥
وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢). .. ٧٧٨
إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣). ٧٩٩
ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي

صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)........... ٨٠٦
إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)................................ ٨٢١
يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)........................ ٨٢٨
الفهرس.. ٨٣٩